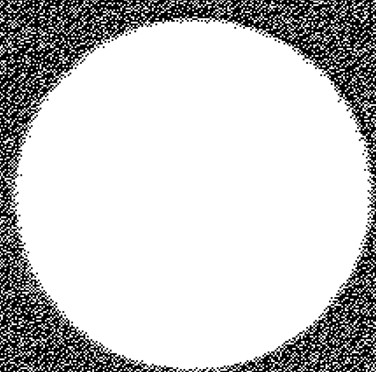
بطرس بطرس غالي



بانتظار بدر البدور...

يوميات ١٩٩٧ - ٢٠٠٢

دار الشروق

بانتظار بدر البدور...

يوميات ١٩٩٧ - ٢٠٠٢

د. بطرس بطرس غالى

بانتظار بدر البدور..

يوميات ١٩٩٧ ـ ٢٠٠٢

ترجمة

زهيدة درويش جبور

جـان جبــور

الطبعة الأولى مـايـو ٢٠٠٥

الطبعة الثانية يونيو ٢٠٠٥

الطبعة الثالثة أكتوبر ٢٠٠٥

الطبعة الأولى، ٢٠٠٥

ص ب ٢٢٦ـ١١، بيروت، لبنان

فاكس ٧٣٨١٥٩ـ١ـ٩٦١

طبعة مشتركة خاصة بجمهورية مصر العربية

حقوق الطبع المصرية

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ مدينة نصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

البريد الإلكترونى : dar@shorouk.com

www.shorouk.com

بطرس بطرس غالي

بانتظار بدر البدور...

يوميات ١٩٩٧ - ٢٠٠٢

المقدمة

من خلال هذه الصفحات، أردّ للحياة ما أعطتني طوال سنواتي الست الباريسية. تبدأ هذه اليوميات في ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٦، يوم انتهاء ولايتي كأمين عام للأمم المتحدة، وتُختتم في ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢، في نهاية ولايتي كأمين عام للفرنكفونية.

كان هناك أيام لم أدوّن فيها شيئًا، فيما لجأتُ إلى الكتابة في أيام أخرى. مرّت أيام كنتُ أكتب كشاهد أساسي على الحدث، وأيام كنتُ أكتب كحالم لا يكفّ عن الاسترسال للأحلام. لقد غيّبتُ أحداثًا مهمة تردّد صداها في ندوات ومطبوعات وملخصات صحفية، فيما ناقشتُ مطوّلاً أحداثًا أخرى لا تبدو ذات أهمية في نظر المتتبع للأحداث الآنية، أو في نظر مدوّن الوقائع التاريخية. تلك هي خاصيّة دفتر المذكرات اليومية.

وطيلة مسيرتي السياسية والدبلوماسية، ألزمتُ نفسي بواجب التحفّظ. وأعتقد أني في كتابي هذا لم أشذّ عن هذه القاعدة الذهبية؛ لأن معظم الشخصيات التي آتي على ذكرها، التقيتها في إطار مهماتي الرسمية. ومع ذلك، إن حصل في بعض الأحيان أن قمتُ بإفشاء أسرار، أودّ الاعتذار للأشخاص الذين ذكرتهم، والأشخاص الذين أغفلت ذكرهم.

إن الزمن يضيء أحيانًا بعض جوانب الأحداث، فتنكشف بصورة مغايرة وغير متوقعة. وكان يمكن أن يغريني تعديل بعض التكهنات، أو إعادة صياغة بعض التحليلات التي قمتُ بها لحظة وقوع الحدث، وتبيّن لاحقًا أنها غير دقيقة. لكني فضّلتُ، للأمانة العلمية، أن أبقيها على صيغتها الأولى.

بانتظار بدر البدور...

في أثناء مروري في نيودلهي، منذ سنوات خلت، أتى من يقترح عليّ استشارة عرّاف واسع الشهرة. وقيل لي، لمزيد من الإقناع: «إنه على استعداد للمجيء إلى الفندق ولقائك سرّاً». تمّ تحديد الموعد في يوم الجمعة التالي الموافق ٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٤.

كنتُ أتوقّع أن أجد أمامي رجلاً مسنّاً، ذا لحية بيضاء، ووجه نقشته السنون ـ وهي الصورة التي نرسمها عن الحكماء. ولشدّ ما كانت دهشتي حين رأيتني ذاك النهار أمام شاب يافع، يوحي بالاحترام، ويكاد يبدو خجولاً، لولا تلك العينين المتّقدتين اللتين تضفيان على وجهه سلطة مقرونة بسحر غامض. سألني عن تاريخ مولدي ومكانه وساعته؛ لكي يحدّد برجي القمري. دون أن أترك له المجال لكي يسترسل في توقّعاته، وجّهتُ إليه السؤال الذي كان أكثر ما يشغلني ذاك الحين:

«إن في نيتي السعي لولاية ثانية لخمس سنوات في الأمم المتحدة. ما هي حظوظ إعادة انتخابي؟».

أصابتني الخيبة من إجابته الفورية، إذ قال:

«لا أظن أنك ستنجح في تحقيق هذا المشروع. لكني أعتقد في المقابل، أن نجمك سوف يسطع أكثر بعد أن تنتهي من مهامّك. سيحدث ذلك بعد انقضاء قمرك الألف. وبإمكاني أن أؤكد لك أن نجمك سيشعّ بنور لا مثيل له. لا أرى شيئاً آخر في الوقت الحاضر سوى النور الباهر لهذا النجم...».

تساءلتُ أحياناً كثيرة، منذ هذا اللقاء الغريب، عن رمزية هذا النور الذي سيضيء أيامي المشارفة على المغيب. وأنا أنتظر، كمن ينتظر الوحي، أن يطلع بدر البدور...

١٩٩٧

نيويورك - الثلاثاء ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٦

إنه اليوم الأخير الذى أمضيه فى الطابق الثامن والثلاثين من مبنى الأمم المتحدة. فولايتى تنتهى هذا المساء، عند منتصف الليل. أنصرفُ لالتقاط الصور الفوتوغرافية مع كبار الموظفين، والموظفين الدوليين المصريين، والعناصر الأمنية المكلّفة بحراستى. لم أتنبه لضخامة عددهم قبل اليوم.

فى الوقت الذى اجتاز فيه البوابة الرئيسية، وللمرة الأخيرة، حشد من الموظفين ينتظرنى، وقد تجمعوا فى الباحة للوداع الأخير. «الرحيل هو موتٌ إلى حد ما». بعض المناسبات تكشف أن مثل هذه الأقوال المأثورة التى نظن أنها تستخدم دون أن يكون لها مضمون فعلى، تكتسب زخمًا يدفعك إلى التواضع. فى وسط هذه الجمهرة، وعلى وقع التصفيق، يتملّكنى فجأة إحساس بالتأثر الشديد. ولكن ليس لدى الوقت، ولا الطاقة لأستسلم إلى هذه المظاهر المفعمة بالود. علىّ بعد أن أمضى سهرة طويلة، قبل أن أسافر، فى صباح اليوم التالى إلى باريس.

بقى علىّ أيضًا أن أستلم من نيافة الأب جيمس باركس مورتون «جائزة السلام» فى كاتدرائية القديس جون الفخمة. لن أحضر هذا الاحتفال، وستتولى ليا استلام الجائزة باسمى، كما سيلقى صديقى السفير جوزيف ريد خطاب الشكر الذى أعددته. علىّ أن أجمع أو أتلف الأوراق السرية التى أحفظها فى مكتبى، الكائن فى ٣ سوتون بلاس.

الحياة تستمر في ليلة رأس السنة هذه، وقد وعدت إيمانويل، شقيق زوجتي، بأن أحضر حفل الاستقبال الذي يقيمه. كل أصدقائي النيويوركيين سيكونون هناك. وأنا لم أعد سوى مشاهد في وسط هذا المجتمع اللامبالي الغارق في العطور والتبرج والضحكات والشمبَانيا. إنها طريقة أخرى لأخذ إجازة من هذا العالم الذي يحب التسلية والذي يسليني. قررتُ أن أختفي عن الأنظار قبل أن تدق ساعة منتصف الليل دقاتها الاثنتي عشرة؛ لكي أتحاشى وداع العام ١٩٩٦ الذي لم يكن جيدًا بالنسبة إليّ... ما يثقل كاهلي في هذه اللحظة، ليس تركي لمنصب، أو لنمط عيش، أو لمسكن، أو لأصدقاء، بقدر ما هو أنه عليّ، وأنا في الرابعة والسبعين، أن أنتقل من جديد لأعيش تحت سماء أخرى، وأتحمّل مسؤوليات جديدة، في محيط كان لا يزال غريبًا عني كل الغرابة.

نيويورك، باريس ـ الأربعاء أول كانون الثاني/يناير ١٩٩٧

أصر الأوفياء من أصدقائي الخلّص على أن يلاقونني في مطار كينيدي في هذا الصباح البارد من اليوم الأول من يناير ١٩٩٧. وقد زادني حضورهم تأثرًا غداة ليلة سهرة رأس السنة. سافرت مع ليا في طائرة كونكورد إلى باريس، حيث يستقبلنا، بعد بضع ساعات، مستشار سفارة مصر، سيف النصر، وهو دبلوماسي لامع، كنتُ أعرف والده منذ سنوات حين كان سفيرًا في ليبرفيل. وكان صديقي حسن فودة مدير المركز الإعلامي التابع للأمم المتحدة في باريس حاضرًا هو أيضًا، كما في كل مرة. يبدو هذا الرجل للوهلة الأولى فظًا، ربما بسبب شاربيه السميكين، لكنه رجل معطاء، ودبلوماسي رائع، ذكي ونشيط، يقيم شبكة واسعة من العلاقات في فرنسا، وخصوصًا في وطنه تونس. وبعكس معظم الموظفين الكبار في الأمم المتحدة، فإنه يُظهر الاهتمام نفسه والصداقة نفسها إزاء الذين أصبحوا خارج السلطة.

انتقلت إلى فندق موريس الذي كنت أستخدمه أحيانًا كمقر عمل في كل مرة كنت أقيم في باريس. إنها الشقة الفخمة إياها، والزهور إياها، وسلة الفواكه إياها، وباقة القرنفل إياها، وقنينة الشمبانيا إياها. كأن شيئًا لم يتغيّر، وكأنه لم يكن

هناك «ما قبل» و«ما بعد». هذا الاستمرار فى المحافظة على الديكور له أثر مطمئن ومهدّىء، يساعدنى على استهلال مرحلة ما بعد الأمم المتحدة.

باريس ـ الجمعة ٣ كانون الثانى/يناير ١٩٩٧

استقبلنا الرئيس شيراك فى الإليزيه بتلك الحرارة والبساطة والمودة الصادقة التى يملك سرها. لقد خسرنا معركة، نحن الاثنين. خلال تلك الأيام التى مرّت، شكّل جاك شيراك بالنسبة إلىّ طوق الخلاص الوحيد، ولو كان ذلك مخالفًا لرأى معاونيه. كان فى الواقع تعبيراً عن صداقة نادرة جدّاً فى الأوساط السياسية. فكل الدول، وبإجماع ظاهر ومضمر، فضّلت أن تتخلى عنى فى وجه الإعصار الأمريكى.

استغرق لقاؤنا وقتًا طويلاً، عرض خلاله بالتفصيل تركيبة مؤسسات الفرنكفونية، وكذلك رهاناتها التى تتمثّل فى الدفاع عن التعدد اللغوى والتنوع الثقافى، وماذا يُرجى من الأمين العام الذى سيُنتخب فى قمة رؤساء الدول والحكومات فى هانوى، فى شهر نوفمبر المقبل. كما يقترح علىّ القيام بجولة، اعتبارا من شهر مايو، فى إفريقيا وآسيا لكى أحضّر انتخابى. كانت تلك بداية المغامرة الفرنكفونية.

فى الواقع، بدأت هذه المغامرة قبل ذلك بخمسة عشر عامًا، فى آب عام ١٩٨١، فى تاغوسيغالبا، عاصمة هندوراس. كنتُ حينها وزير دولة للشؤون الخارجية المصرية، وكنتُ أقوم بجولة فى أمريكا الوسطى، فى سعى لإرسال وحدات من دول أمريكا اللاتينية ضمن قوة دولية، خارج إطار الأمم المتحدة، تنتشر على الحدود المصرية ـ الإسرائيلية، فى سيناء، بعد انسحاب القوات الإسرائيلية، تطبيقًا لمعاهدة السلام.

شاءت المصادفة أن أُقيم فى نفس الفندق الذى كان يقيم فيه وزير الخارجية فى عهد فرنسوا ميتران، كلود شيسون، وكان بدوره فى جولة فى أمريكا الوسطى. اتفقنا أن نلتقى بعد منتصف الليل، بعد أن يفرغ كل واحد منا من مهماته.

فى ذاك المساء، قلت له بأن لدى مطلبين : الأول، أن تتمكن فرنسا من المشاركة ولو رمزيًا، فى القوات المتعددة الجنسيات فى سيناء. والثانى أن تصبح مصر عضواً فى المنظمة الفرنكفونية، وأن تشارك فى القمم الفرنسية ـ الإفريقية.

هذان المطلبان اللذان تقدمت بهما بشكل مباغت، ما بعد منتصف الليل، فى تاغوسيغالبا، حيّرا محادثى للحظة. ولكن كلود شيسون ليس من الرجال الذين يتخلون عن ثباتهم بسهولة. فهو صلب وساخر، وسريع البديهة. وفى كل الأحوال إنه متمرس بلغة الشأن السياسى أكثر منه بلغة الشأن الدبلوماسى.

أجابنى أولاً بأنه سيعرض اقتراحاتى على الرئيس فرنسوا ميتران. ثم أردف بعد لحظات من التفكير :

ـ ولكن مصر لم تعد بلداً ينطق باللغة الفرنسية. ففى القاهرة يتكلم الناس اليوم الإنجليزية. ما هى إذن الأسباب الحقيقية التى تدفع مصر إلى الانضمام إلى الفرنكفونية؟

ـ هناك ثلاثة أسباب على الأقل. السبب الأول هو أن مصر الرئيس السادات ترغب فى الانفتاح على العالم الغربى، وبالأخص على أوربا. وأنا أرى أن هذا التوجه سيكون له أيضًا انعكاسًا إيجابيًا، إذ إنه يقطع الطريق على أى انزلاق نحو الانكفاء على الذات الذى يراهن عليه الأصوليون. وستساعدنا الفرنكفونية فى هذا المجال. ومن جهة ثانية، أنتم تعلمون أن الدبلوماسية المصرية هى فى أوج نشاطها فى إفريقيا، ونصف البلدان الإفريقية هى فرنكفونية. من هنا فإن مشاركة مصر فى المؤسسات التابعة للمنظمة الفرنكفونية ستصب فى خانة دعم سياستنا الإفريقية. وأنا أرى أخيراً فى تدعيم العلاقات بين باريس والقاهرة سببًا ثالثًا مهمًا لنا لكى نلتحق بالمنظمة الفرنكفونية. فتقرّبنا من فرنسا ومن أوربا سيتيح لنا الحد من التأثير الأمريكى فى مصر.

كما كان السؤال مباشراً، أتى الجواب كذلك. ولكن الوقت كان متأخراً، وكان علينا ـ نحن الاثنين ـ أن نسافر باكراً فى ذاك الصباح.

بعد مدة، شاركت فرنسا فى القوات المتعددة الجنسيات فى سيناء. وفى أكتوبر

عام ١٩٨١ حضرت مصر القمة الفرنسية ـ الإفريقية، وفى العام ١٩٨٣ دخلت إلى المنظمة الفرنكفونية. وفى العام ١٩٨٦ شاركت فى فرساى فى القمة الأولى للفرنكفونية.

ومنذ ذاك التاريخ حضرتُ، بصفتى ممثلاً شخصيًا للرئيس حسنى مبارك، مختلف القمم الفرنسية ـ الإفريقية، وكذلك كل القمم الفرنكفونية. هكذا، وعلى مرّ السنين، تشكّلت لدىّ روح المناضل الحقيقى من أجل الفرنكفونية.

فى هذا اليوم الثالث من يناير ١٩٩٧، دعيت أنا وليا، على الغداء فى «الكى دورسيه» (مقر الخارجية الفرنسية)، من قبل وزير خارجية فرنسا إيرفيه دو شاريت وزوجته. إنهما يشكّلان ثنائيًا محببًا يحافظ على نضارة الشباب، ويبعث البهجة فى نفوس المحيطين به. معاونو الوزير المقرّبون حاضرون كذلك. لم تتأخر ليا فى طرح موضوع الساعة، دون لف أو دوران: «لم يكن للدبلوماسية الفرنسية أية خطة مدروسة لدعم إعادة انتخاب بطرس فى الأمم المتحدة». ترك الدبلوماسيون المتحلقون حول الطاولة تلك الغمامة تمر بسلام...

القاهرة ـ السبت ٤ كانون الثانى/يناير ١٩٩٧

استقبلنى الرئيس حسنى مبارك لأكثر من ساعة. كان يرتدى بذلة رمادية غاية فى الأناقة، وتحتها قميص أزرق فاتح. كان يبدو فى غاية الارتياح، ولمحت فى نظرته بعض التشفّى.

ـ «لقد نصحتكَ بألا تتحدى الأمريكيين...».

ثم يضيف بابتسامة واضحة:

ـ «لو كنتَ أكثر «لطفًا» مع مادلين أُلبرايت، لأُعيد انتخابك...»

لا يبدى أى اعتراض لترشيحى لمنصب الأمين العام للفرنكفونية، ويقبل أن يدعم ترشيحى.

(فى المساء...).

استقبال كبير على شرفى فى أحد الأندية العسكرية فى المدينة، بحضور الرئيس حسنى مبارك وزوجته وأكثر من أربعمائة مدعو. يتحلّق حول الرئيس، شيخ الأزهر، والبطريرك الأنبا شنودة الثالث متلألئًا بالذهب والفضة، ورئيس الوزراء كمال الجنزورى عابسًا كعادته، ورئيس الوزراء الأسبق عاطف صدقى، بطبعه المرح، وقد زاد وزنه قليلاً، وكذلك سفير الولايات المتحدة إدوار ولكر الذى يتكلم العربية بطلاقة. لا يقاوم الرئيس متعة الممازحة حول موضوعه المفضل: افتقارى «للجرأة» تجاه السيدة التى أبعدتنى عن الأمم المتحدة. يضحك الجميع من القلب، باستثناء سفير أمريكا الذى يبقى بارداً كالرخام.

القاهرة ـ الاثنين ٦ كانون الثانى/يناير ١٩٩٧

هذا المساء نحتفل بعيد الميلاد القبطى الأرثوذكسى. ذهبت إلى كنيسة العائلة ـ الكنيسة البطرسية ـ للتأمل أمام قبر والدىّ وأعمامى وجدّى. الرطوبة تنخر الحجر يومًا بعد يوم، وتمحو، حرفًا بعد حرف، الكلمات المحفورة على شاهد قبر جدى المصنوع من الجرانيت الأحمر، كأنها كلماته الأخيرة يوجهها إلى الذين سيأتون من بعده: «يشهد الله أنى لم أقدّم سوى الخير إلى البلدى». فى هذا القبو البارد والرطب والمتآكل، أحسّ بحزن لامتناهى يجتاح روحى. ولكن علىّ أن أتمالك نفسى للمشاركة فى احتفال العيد. بعد لقاء البطريرك أحضر قدّاس منتصف الليل.

ينتهى الاحتفال أخيراً عند الثانية فجراً. لا أتمكن من تفسير هذا الشعور بالحزن الذى تخلفه فى نفسى الاحتفالات القديمة المتوارثة.

القاهرة ـ الجمعة ١٠ كانون الثانى/يناير ١٩٩٧

وحيداً فى مكتبتى الكبيرة المطلة على النيل الذى لا أسأم من النظر إليه. هل ترانى أصبت بتركى القاهرة للإقامة فى شارع غينومير، رقم ٣٤، فى منفى باريسى جميل، وربما لإدارة منظمة دولية جديدة؟ قد يكون وجودى هنا أكثر فائدة بالتأكيد، هنا فى أرض مصر حيث شاء القدر أن أولد، وحيث سأدفن فى هذه

الأرض العابقة بالذكريات والأساطير، وبالرموز الخالدة المتروكة للغبار. قد تتلخص مهمتى بطريقة ما فى النضال يومًا بعد يوم ضد هذا الغبار الناشىء عن تحالف الصحراء مع البيروقراطية المصرية التى تعيد تجميع قواها دون توقف وتجتاح أرض مصر مع إطلالة موجات الحر الكبرى، حين تلف الشمسُ الجوَ باليباس، وتسحق الرمل، وتفتت الحجارة.

فى فترة ما بعد الظهر أمرّ بمرحلة من الإحباط. ربما بسبب الغبار الذى فتك بمكتبتى التى بقيت فى القاهرة، والتى أهملتها طويلاً من أجل نيويورك، والآن من أجل باريس.

إن التاريخ يثبت أنه لا يمكن لأمة أن تعيش دون أهداف كبرى. غداة الحرب العالمية الثانية، راح الشعب المصرى يحلم بكل ما هو ممكن : الحصول على استقلاله ورحيل الإنجليز، العمل على إزالة الاستعمار من العالم العربى ومن إفريقيا. وساد إحساس بأن إنشاء جامعة الدول العربية فى القاهرة، ومؤتمر باندونج، وتأميم قناة السويس، وقيام حركة عدم الانحياز، وإنشاء منظمة الدول الإفريقية فى أديس أبابا، هى محطات متقدمة، وانتصارات وخطوات واعدة للعالم الثالث المتصالح مع المستقبل.

لقد انتهى زمن الاستعمار، واستؤصل نظام الفصل العنصرى، وفقد «عدم الانحياز» مبرر وجوده بعد انهيار حائط برلين ونهاية الحرب الباردة، وتحوّلت الأمم المتحدة إلى سوق للأوهام. إلى ماذا نتطلع اليوم؟ باسم أى شىء نعبّىء جهودنا؟ لقد انكسر زخمنا، وليس باستطاعتنا أن نبتدع أفكارًا جديدة. فى بلدى، غمر الغبار كل شىء، حتى الأفكار. إننا نتخبط فى كل يوم فى وحول الحدث الآنى، دون تخطيط للغد. لقد أُودعت الوحدة العربية على رفوف النسيان. وفلسطين المستعمَرة والمضحّى بها هى ذلّنا اليومى وإقرار بتنازلنا. لم يبقَ إلا الأصولية الإسلامية، هذه الوهابية المستوردة من بلاد الخليج والتى يغذّيها مال النفط. من الجمود إلى التقهقر، ليس هناك إلا خطوة واحدة. إنها العودة إلى القرون الوسطى، إلى ديانات الزمن الغابر التى تتغذى من الأضاحى الإنسانية والحرب.

إنها دائمًا عود إلى بدء. أسترجع قصة سيزيف، هذه الأسطورة التى لا تبارح تفكيرى منذ سنواتى الأولى.

غدًا، سوف أغادر مرة أخرى هذه الأرض الدهرية المسكونة بالنعيم وبالجحيم فى آن. ولكن الرحيل لن يتمكن أبدًا من تبديد شغفى بمصر التى أحملها معى أينما حللت.

باريس، كيبورون ـ الاثنين ١٣ كانون الثانى/يناير ١٩٩٧

عدنا إلى باريس. ولكن لوقت قصير؛ لأننا سنذهب غدًا إلى كيبورون، لفترة علاج بحمّامات البحر. لقد اقتنعت بأخذ إجازة للراحة والتأمل. ليا تريد أن تتخلص من السمنة، أما أنا فأود أن أسترجع الوزن الذى خسرته خلال الأشهر الستة التى امتدت طوالها معركة إعادة انتخابى فى الأمم المتحدة. إلا أننى لن أستطيع التملص من وجبات (النظام الغذائى الصارم). هذه الجلسات الطويلة اليومية لحمّامات الوحل والتدليك والمغاطس البحرية، تتخللها لحسن الحظ أحاديثى إلى الأمير لوبكوفيكز، سفير منظمة فرسان مالطة فى لبنان، وإلى اللورد روترميرى، أحد أقطاب الصحافة البريطانية. نمضى ساعات نتحدث عن لبنان، وعن منظمة فرسان مالطة، وعن الجهود التى بذلتها لقبول هذه المنظمة بصفة مراقب لدى الأمم المتحدة.

كيبورون، باريس ـ السبت ٢٥ كانون الثانى/يناير ١٩٩٧

انتهت العزلة الصحية التى فرضتها على ذاتى. أنتزع نفسى، بلا ندم، من الحرارة الرطبة، ومن عبق شجر الأوكالبتوس الذى يزيّن هذا المكان الرائع الجمال، ومن رذاذ اليود فى الأطلسى.

باريس ـ الأحد ٢٦ كانون الأول/يناير ١٩٩٧

لقاء مع إيهود باراك وجان فريدمان فى منزل صديقى على السمّان الذى أطلق

عليه لقب «الأصولى المستنير». إنه مدافع متحمس عن حوار الديانات. نقاش حماسى ومثير حول إنشاء مؤسسة تشجّع الحوار بين العرب والإسرائيليين. يرى جان فريدمان أن ذلك يجب أن يمر عبر تدعيم نشاط المجتمع المدنى فى القاهرة كما فى تل أبيب. أخشى كثيراً أن يكون هذا الأمر صعب المنال؛ لأن المجتمع المدنى المصرى ـ نقابات الأطباء والمحامين والمهندسين ـ هو الأكثر اعتراضًا على تطبيع العلاقات مع إسرائيل، ما دامت فلسطين لم تتحول إلى دولة مستقلة.

باريس ـ السبت ١ شباط/فبراير ١٩٩٧

نقيم فى شارع غوينمر، رقم ٣٤. فى هذا المبنى بالذات كنتُ قد استأجرت شقة صغيرة عام ١٩٦٨، حين كنتُ من أوائل الأساتذة الأجانب الذين يدرّسون فى كلية الحقوق فى باريس.

من على الشرفات نطل على منظر رائع لحديقة اللوكسمبورج، ومن وراء الأشجار المعمّرة، ينتصب البانتيون وكنيسة الساكرى كور وبرج إيفل. إنها باريس بمتناول أيدينا.

باريس ـ الثلاثاء ٤ شباط/فبراير ١٩٩٧

شرعت فى مؤلف قررتُ إعداده عن السنوات الخمس التى أمضيتها فى المبنى الزجاجى. يساعدنى فى هذا المشروع شارلى هيل، وهو باحث أمريكى. يسهر على تصحيح لغتى الإنجليزية ويراجع الكم الكبير من الوثائق التى وضعتها الأمم المتحدة بتصرفى، وهى لا تقل عن ستين ملفًا، وحوالى أربعة آلاف صفحة من محاضر الاجتماعات التى عقدتها مع أقرب معاونى، والمحادثات التى أجريتها مع السفراء المعتمدين لدى الأمم المتحدة ومع رؤساء الدول والحكومات.

ليس لدى فى الوقت الحاضر أى مخطط محدد فى رأسى. اخترت أن أبدأ بما هو أكثر حضوراً فى ذهنى. سيكون الفصل الأول مكرّسًا للقضية العراقية «النفط مقابل

الغذاء». لماذا العراق وليس يوغوسلافيا أو موزمبيق؟ لسبب ذاتي بحت. اطّلعت منذ قليل على تقرير جديد مفصّل عن الحالة المأساوية التي يعيشها الشعب العراقي، والعذابات التي يعانيها منذ فرض حالة الحصار التي أقرّتها الأمم المتحدة بضغط من الولايات المتحدة وبريطانيا، وما يجب تسميته التواطؤ المضمر والمذعن للدول الأخرى أعضاء مجلس الأمن. إن الأمم المتحدة التي لديها مهمة المساهمة في تنمية الشعوب، تسخّر نفسها، وبالطريقة الأكثر تنظيمًا ودقة، لتدفع بالشعب العراقي إلى الفقر!

أنصرف للكتابة من الساعة الخامسة بعد الظهر حتى الثالثة صباحًا، مع توقف قصير حوالي الثامنة، لتناول وجبة طعام خفيفة. إني أنتج أكثر من فترة ما بعد منتصف الليل.

باريس ـ الأحد ١٦ شباط/فبراير ١٩٩٧

انتهى فصل «النفط مقابل الغذاء». أبدأ فصلاً آخر، ولكن هذه المرة أعود إلى البداية، أي إلى انتخابي في العام ١٩٩١.

باريس ـ الاثنين ١٧ شباط/فبراير ١٩٩٧

«الجماعة الدولية»: إنها العبارة التي كثيراً ما أستعملها في كتابي الجديد، والتي أفضّلها على «المجتمع الدولي» Communauté internationale؛ لأنها تفترض وجود تضامن وتفاعل بين الدول. قوة جديدة تسمح بإضفاء مسحة حضارية على العولمة المتوحشة.

كم كانت خيبتي كبيرة وأنا أقرأ في مقال أكاديمي، يتحلى بكامل الجدية، أن «الجماعة الدولية لا تعني شيئًا سوى تلك المجموعة من الدول التي تسيّرها واشنطن، كما يقود الراعي قطيعه». ما يزيد من خيبة أملي هو اضطراري للاعتراف بأن ذلك هو الواقع اليوم، وسيكون واقع الغد لمدة طويلة كذلك.

باريس ـ الثلاثاء ١٨ شباط/فبراير ١٩٩٧

دعانى كلود شيسون إلى الغداء. دار الحديث بالطبع حول الفرنكفونية.

قال لى وزير الخارجية الأسبق، مشككًا:

ـ لا أدرى إذا كانت الفرنكفونية السياسية ممكنة.

ـ ولكن هذا هو البعد الذى علىّ أن أطوّره، إذا ما انتُخبت أمينًا عامًا فى هانوى. وهذا هو بالتحديد سبب سعيى لرئاسة هذه المنظمة.

قيل كل شيء أو على الأقل، فيما يخصّ الفرنكفونية، ذلك أن كلود شيسون كان يعنيه أن يعرف خفايا إزاحتى عن الأمم المتحدة بضغط القوة العظمى، أكثر مما يهمه مستقبل الفرنكفونية.

ـ لا أستطيع أن أفهم حتى الآن سبب غضب وشراسة الأمريكيين تجاهك فى الأشهر الستة الأخيرة... ربما يمكن للإنجليز أن يساعدونا فى فهم هذا الموقف اللاعقلانى.

ـ أظن أن الغاية هى إعطاء درس، وتوجيه تحذير إلى الأمناء العامين المقبلين. أنتَ تعرف، دون شك، النكتة التى كانت تنتشر فى بلدان العالم الثالث؟ بطرس كان يقول «نعم» لتعليمات الأسياد الأمريكيين، وكان عليه أن يقول «نعم، سيدى».

باريس ـ السبت ١ آذار/مارس ١٩٩٧

اتصال هاتفى من كوفى أنان، أثناء مروره بباريس. إنها المرة الأولى التى نتحادث فيها بعد أن أصبح أمينًا عامًا للأمم المتحدة. يدين لى بتعيينه رئيسًا لقسم عمليات حفظ السلام، مما أتاح له فرصة تطوير علاقاته بالإدارة الأمريكية.

سألنى مرات كثيرة لماذا رفّعتُه إلى هذا المركز... فكنتُ أجيب أنى أريد أن يتنامى عدد الأفارقة الذين يشغلون مراكز المسؤولية... كثيراً ما كان أفذاذ فى الإدارة المصرية يرددون أمامى: «إن درجة إخلاص معاونيك، أو بتعبير أدق درجة عدم

قدرتهم على طعنك فى ظهرك، هى التى يجب أن ترشدك فى اختيار معاونيك. وقد درج سلاطين بنى عثمان على تعيين أقرب مستشاريهم من بين الأقليات، أى من غير المسلمين، مما كان يقطع الطريق حكمًا على أى إغراء بكرسى الخلافة».

باريس ـ الأحد ٢ آذار/مارس ١٩٩٧

زيارة ممتعة لنا بقدر ما كانت غير متوقعة، يقوم بها آلان دوجاميه، سفير فرنسا فى نيويورك، وزوجته. كنا قد تعارفنا فى القاهرة، حين كان مستشاراً فى السفارة، قبل أن يعيّن سفيراً لفرنسا فى مصر. كان إلى جانبى فى الأشهر الستة الأخيرة من العام ١٩٩٦، ورأى بأم العين ما أظهرته الدبلوماسية الأمريكية من خيال خصب وحقارة لا تُضاهى، لمنعى من التجديد. لقد برهن دائمًا عن واقعية كبيرة، كما تبيّن أن نصائحه سديدة وذكية. إنه يتكلم بسرعة، مكرّراً جمله فى بعض الأحيان، ليكون أكثر إقناعًا.

باريس ـ الثلاثاء ٤ آذار/مارس ١٩٩٧

غداء على انفراد فى الكى دورسى، مع مارجى سودر، وزيرة الدولة لشؤون الفرنكفونية. يشعّ منها سحر غريب، و يذكّر وجهها بالجزر البعيدة والبحار الدافئة. تود معرفة طموحاتى، لا السياسية، وإنما الإدارية. ما هو حجم مجموعة العمل التى سأكوّنها فى حال انتُخبتُ أمينًا عامًا، فى هانوى؟ ليس لدىّ فى الوقت الحاضر أية فكرة. ولكن الشىء الذى كنت متأكدا منه هو أن الفرنكفونية ما زالت غير معروفة فى فرنسا ولا على الساحة الدولية. ولا يجب التردد فى «تسويقها». عند افتراقنا قالت لى، بابتسامة مشعّة: «شكراً على أمثولة التسويق».

(بعد وقت قصير ...).

احتفال لتوزيع «الكتاب التكريمى» لهكتور غرو إسبيال، فى اليونيسكو. وهو عبارة عن مجموعة مقالات ودراسات كتبها زملاؤه وأصدقاؤه تكريمًا له.

إنى أعرف هكتور غرو إسبيال منذ زمن طويل. إنه رجل ضخم ويتنقل

بصعوبة. وهو كاتب غزير الإنتاج صدر له مؤلفات مهمة بالفرنسية والإسبانية. وهو ينتمى إلى تلك المجموعة المتميزة من رجال القانون الدوليين الذين يتقاسمون قضايا التحكيم والاستشارات التى تطلبها الدول والشركات المتعددة الجنسيات.

لقد تقاطعت مهماتنا الجامعية والدبلوماسية مرات عديدة فى أرجاء المعمورة. جاء للقائى فى القاهرة عام ١٩٨٨، بصفته ممثلاً شخصيًا للأمين العام للأمم المتحدة فى قضية الصحراء الغربية، وهو ملف سوف يكون علىّ أن أعالجه بعد ذلك بعدة سنوات. ثم التقيته فى مونتيفيديو عام ١٩٩٢، وكان حينها وزيرًا لخارجية أورجواى. وفى كل مرة نلتقى، يكون ذلك من أجل الموضوع الذى يشغل بالنا، نحن الاثنين: حقوق الإنسان.

إن مساهمتى فى «الكتاب التكريمى» لغرو إسبيال تتناول موضوعًا يشكّل هاجسًا لدى، بالمعنى الحرفى للكلمة، منذ أن تسلّمت منصب الأمين العام للأمم المتحدة: إيجاد قانون دولى للديمقراطية. فالأمم المتحدة يجب أن تساعد الدول على الالتزام بالديمقراطية. إن الديمقراطية والتنمية توأمان لا ينفصمان. من هذا المنطلق، إنى على قناعة بأن الديمقراطية داخل الدول لم تعد تكفى لتلبية تحديات المجتمع العالمى، ويجب أيضًا، من الآن فصاعدًا، تشجيع الديمقراطية داخل الأمم المتحدة، وبطريقة أشمل فى العلاقات الدولية.

بعد الاحتفال، أطلق البروفسور كاريل فازاك فكرة إعداد «الكتاب التكريمى لبطرس غالى»، بإشراف المدير العام ليونيسكو فيديريكو مايور. يتلقف هذا الأخير المشروع بحماس. من ناحيتى، أبدو أكثر تحفظًا. لكن ليا تتخطى ترددى بقولها: «إنه خجول، فلا تأخذوا بعين الاعتبار تحفظاته».

من ناحيته، يبدى إميل برويلان، ناشر «الكتاب التكريمى لغرو إسبيال» رغبته فى تكرار المغامرة معى.

كان تعليقى: «اتركوا لى وقتًا للتفكير ...».

لدى عودتى إلى المنزل، انكب على فصل جديد من كتابى حول تدخل الأمم المتحدة فى موزمبيق.

باريس ـ الأربعاء ٥ آذار/مارس ١٩٩٧

أقام فيديريكو مايور عشاء على شرف سيدة مصر الأولى، التى ترافق الرئيس مبارك فى زيارته إلى باريس. ألتقى بسرور سكرتير أكاديمية المخطوطات وعلوم الأدب، العَالم بالآثار المصرية، جان لوكلان وزوجته. على طاولتنا كذلك سفير مصر لدى اليَونيسكو محسن توفيق، ووزير الثقافة المصرى فاروق حسنى، وهو رسام مبدع أعطى بعض الزخم لتلك الوزارة التى بقيت مهماتها لمدة طويلة شديدة الغموض والهامشية. ويعود له الفضل بشكل أساسى من ترميم مبانى القاهرة التاريخية.

فيديريكو مايور، رجل متألق وجذاب، يحب أن يمارس سحره باستمرار. وهو يُبدى حماساً وديناميةً وتفاؤلاً ما يعوض عن حالة الميوعة التى تتردى فيها، سنة بعد سنة، منظمتا الأمم المتحدة واليونيسكو. إنه نجم السهرة بدون منازع، ويستأثر بالحديث بكل براعة. أحاول عدة مرات أن أدلى بدلوى، ولكن بدون طائل. بكثير من اللباقة، تتوجه سوزان مبارك إلىّ بالكلام، وتطرح علىّ سؤالاً، إلا أنه لا يتاح لى الوقت للإجابة. بالطبع فيديريكو مايور يسحر المستمعين، متنقلاً بطلاقة من موضوع ثقافة السلام إلى حماية الأجنّة.

باريس ـ الجمعة ٧ آذار/مارس ١٩٩٧

عند وصولى إلى البهو الكبير لفندق مارينيى، يستقبلنى الحرس الشخصى للرئيس مبارك ومستشاروه. نتعانق بحرارة، كما هى العادة فى الشرق، ويبدو أنها عادة بدأت تنتشر فى باقى مناطق العالم.

يهتم الرئيس عن كثب بترشيحى إلى منصب الأمين العام للفرنكفونية. ليس من رأيه أن أقوم بحملة انتخابية، أو بجولة فى ربوع بلدان إفريقيا وآسيا.

ـ دعْ الفرنسيين والكنديين وأصدقاءك الأفارقة يهتمون بترشيحك. وفى هذه الأثناء، تابع إصدار الكتب وإعطاء المحاضرات.

بعدها نتداول من مشاكل العالم العربى. كعادته يقدّم تحليلاً عن الوضع يتّسم بالكثير من الواقعية، وبالكثير من البرغماتية، شأنه فى ذلك شأن الرئيس السادات من قبله. «مصر أولاً»، هذا هو شعاره. فيما كنت أهم بالاستئذان، لاحظت أنه يتفحّص بذلتى باهتمام، ثم يردف:

ـ إن تفصيل بذلتك ملائم جدّاً، والسترة تناسبك تمامًا.

باريس ـ الأربعاء ١٢ آذار/مارس ١٩٩٧

غداء عمل مع فيديريكو مايور فى اليونيسكو. يقترح علىّ ترأس لجنة دولية حول موضوع «الديمقراطية والتنمية». كان قد سبق له أن أوكل رئاسة لجنة مماثلة إلى خافيير بيريز دو كويار، حول موضوع «الثقافة والتنمية»، وأخرى إلى جاك ديلور حول «التربية والتنمية».

يعود لى أمر اختيار الخبراء، شرط مراعاة توزعهم الجغرافى بشكل عادل. يضع كذلك بتصرفى ميزانية تمكّننا من عقد اجتماعات فى عواصم مختلفة، ومن تنفيذ بعض الدراسات المكمِّلة بواسطة خبراء من خارج المجموعة التى اخترتها. نتفق على اللقاء، ما إن أنتهى من إعداد لائحة الشخصيات التى تتكوّن منها لجنة الخبراء الدوليين.

باريس ـ الثلاثاء ١٨ آذار/مارس ١٩٩٧

تم تحديد أسماء أعضاء الفريق الدولى الاثنين والعشرين. لم يخلُ الأمر من الصعوبة؛ نظرًا لشهرة الشخصيات التى طُلب إليها المشاركة.

كان يمثل فرنسا روبير بادنتر وزير العدل السابق، وكان يمثل المغرب محمد بنونة، وهو مدير معهد العالم العربى فى باريس. اقترح علىّ فيديريكو مايور، خلال غداء، اسم صديق مشترك، البروفسور خوان أنطونيو كاريلّو سالخيدو، كممثل لإسبانيا، وهو من دون شك من ألمع رجال القانون الإسبان. وقع اختيارى كذلك على سمو الأميرة بسمة بن طلال، شقيقة الملك حسين، ملك الأردن، التى

شاركت فى العديد من اللجان المتخصصة فى الأمم المتحدة، وهى على معرفة تامة بأرضية العمل. بالنسبة إلى البرازيل، فكّرتُ بزوجة رئيس الجمهورية، السيدة روث كاردوزو، وهى عالمة اجتماع متميزة، إلا أنه تم لفت انتباهى إلى أنه قد يكون من الصعب عليها إيجاد الوقت للمشاركة فى أعمالنا. لذا مثلت البرازيل روسيسكا دارسى دى أوليفيرا، والتى تعرّفت إليها حين كانت لاجئة فى سويسرا أيام ديكتاتورية الجنرالات. وهى اليوم رئيسةُ المجلس الوطنى لحقوق المرأة التابع للحكومة البرازيلية، وتلعب دوراً ناشطًا فى النضال من أجل تحرر المرأة. إنها عالمة اجتماع مناضلة عرفت كيف توازن بدقة بين العمل والفكر. بالنسبة إلى تونس، استعنتُ بمحمد شرفى، وهو وزير سابق للتربية، ولكنه بالأخص مناضل ملتزم بالدفاع عن حقوق الإنسان. لستُ واثقًا بأن هذا الاختيار سوف يرضى السلطات التونسية.

عرض علىّ فيديريكو مايور كذلك اسم بيار كورنيون، الأمين العام للاتحاد البرلمانى الدولى، وكنتُ أعرفه، منذ أن وقّعنا معًا عام ١٩٩٥ اتفاق تعاون بين الأمم المتحدة والاتحاد. بالنسبة إلى ألمانيا اقتُرح علىّ اسم بيتر غلوتز، رئيس جامعة إرفورت؛ وعن بريطانيا السير مارّاك غولدنغ، وقد تعاونتُ معه مدة خمس سنوات فى الأمم المتحدة. إنه باحث لامع، ودبلوماسى رائع. بالنسبة إلى جنوب إفريقيا، رغبتُ فى التعاون مع نادين غورديمر، الحائزة على جائزة نوبل للآداب، والتى لعبت دوراً أساسيًا فى مقاومة نظام التمييز العنصرى. كما رغبت، بالنسبة إلى المكسيك، فى التعاون مع وزيرة الخارجية روزاريو غرين، وكانت مساعدتى فى الأمم المتحدة.

أما الهند فسيمثلها عابد حسين، نائب رئيس سابق وعضو فى المجلس الاستشارى لمعهد راجيف غاندى للدراسات المعاصرة، بينما يمثل باكستان عطية عناية الله، رئيسة الاتحاد الدولى لتنظيم الأسرة فى إسلام أباد، ويمثل اليابان هيساشى أوادا، السفير لدى الأمم المتحدة. كان علىّ أن أبذل بعض الجهد، وأجرى العديد من الاتصالات الهاتفية مع سفير الصين فى باريس، وكذلك مع المسؤولين فى بيجين لكى يؤذن بتمثيل الصين فى هذه اللجنة الدولية، وقد وقع الاختيار على غو جيادينغ، وهو سفير سابق لدى الأمم المتحدة.

أما اليونان فسيكون ممثلها نيكولاس فالتيكوس، وهو مدير سابق فى مكتب العمل الدولى، وقاض فى المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان، بينما مثَّل روسيا ألكسى فاسيليف، مديرُ معهد الدراسات الإفريقية فى موسكو؛ ويمثل السنغال كيبا أمباى، نائب رئيس سابق لمحكمة العدل الدولية؛ ومثّل الولايات المتحدة الأمريكية فى جامعة يال الأستاذ بروس روسّيت.

مغامرة أكاديمية جديدة بدأت، وأنا أعى تمامًا التحدى الذى ينتظرنى. وضعت اللجنتان اللتان تشكّلتا من قبل تقارير ممتازة، وُزعت ونُوقشت بشكل موسع. لقد قام بيريز دو كويار وجاك ديلور بعمل رائع.

بواتييه ـ الخميس ٢٠ آذار/مارس ١٩٩٧

كما فى كل عام، تحتفل الفرنكفونية فى العشرين من مارس، باليوم العالمى للفرنكفونية.

دعتنى مارجى سودر للمشاركة فى هذا الحدث فى مدينة بواتييه، بصحبة مصطفى نياس، وزير الدولة للشؤون الخارجية فى السنغال، وجان-بيار رافاران، وزير التجارة والصناعات الحرفية الفرنسى، ورئيس المجلس الإقليمى لمنطقة بواتو-شارانت.

حُجز لنا صالون خاص فى القطار السريع. يدور الحديث سريعًا كحركة القطار. عند الوصول كان فى «استقبالنا» لجنة من الأطباء المضربين، تحاورهم مارجى سودر، وهى طبيبة بدورها، وتتمكن من تهدئة خواطرهم.

ثم نتوجه إلى قاعة كبرى تعجّ بالطلاب. يتوقّع محاورونا بالطبع شيئًا آخر غير الخطابات الطنّانة. وبما أنى لم أكن أعرف إلى أى جمهور سأتوجّه بالكلام، أعددتُ خطابًا يطغى عليه الطابع الشكلى المعهود. لحسن الحظ، أتت الأسئلة، وأجوبتى عنها، لتلطّف قليلاً المنحى المتكلّف لمداخلتى.

(فى فترة ما بعد الظهر ...).

زيارة «مرصد المستقبل» Futuroscope وهو يبدو فى نهاية هذا الشتاء وكأنه لا يزال غارقًا فى نصف غيبوبة، بانتظار عودة الأيام الجميلة. إنه أشبه بديزنى لاند على الطريقة الفرنسية، لكنه ذو طابع فكرى وعلمى أكثر وضوحًا، وهو يتوجّه إلى الكبار أكثر منه إلى الصغار.

باريس ـ الاثنين ٢٤ آذار/مارس ١٩٩٧

جاء لانسانا كوياتى لزيارتى كصديق، فى أثناء مروره فى باريس. لقد أصبح أكثر ضخامة، لكن وزنه الزائد يضيع فى قامته العملاقة. لقد تعرّفت إليه منذ سنوات، حين كان سفيراً لغينيا فى مصر. بعدها عُيّن مساعداً للممثل الشخصى للأمين العام للأمم المتحدة فى الصومال.

بهذه الصفة، وفى أثناء عودته من مقديشيو، أتى للقائى فى جنيف ليلفت انتباهى إلى الحرب الداخلية بين الجنرالات الأمريكيين، وإلى جهلهم شبه المطلق بالواقع الصومالى. كان يرى أننا نسير بسرعة نحو الكارثة. وقد ارتكبت خطأً إذ نصحته باللجوء إلى رئيسه المباشر، ولم يكن سوى الأميرال جوناتان هاو وهو أحد أطراف هذا الصراع بين كبار الضباط.

حين بدأت بالحملة من أجل إعادة انتخابى، كان لانسانا كوياتى أحد أصدق الداعمين، ولم يتردد فى تحدى غضب الأمريكيين. وبعد رحيلى من الأمم المتحدة، عاش مرحلة بغاية الصعوبة؛ لأن الأمين العام الجديد لم يكن ليغفر لإفريقى خاض حملة ضده. إذا انتخبت أمينًا عامًا للفرنكفونية سوف أتعاون مع لانسانا كوياتى، وهو من أفضل الدبلوماسيين الأفارقة الذين تسنّى لى التعرّف إليهم.

فى فترة ما بعد الظهر أمضيت وقتًا ممتعًا مع الصحافى فى جريدة لوموند روبير سولى. إنه مصرى مطبوع وتلك اللباقة التى تميّز نُخَبنا الفرنكفونية. يعدّ كتابًا حول علاقات مصر بفرنسا بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لحملة بونابرت.

وهو روائى موهوب أيضًا، عرف كيف يقدّم لوحة مليئة بالصدق والدقة عن الجالية المهاجرة من سوريا ولبنان والتى لعبت دوراً رائداً فى التطور الثقافى

والاقتصادى فى مصر . لقد أمضيت شبابى وسط هذه الجالية ، وكانت فترة ذهبية كنا نتمتع فيها بمباهج الحياة ، وفى الوقت نفسه ، ننكب على العمل بجدّ غير اعتيادى . عرف روبير سولى ، وهو الذى لم يواكب مسيرة ذلك الجيل ، أن يرسم لنا صورة واضحة عن مميزات تلك الأقلية الفاعلة والناشطة ، والتى تدين لها مصر كثيراً .

(فى المساء ...) .

عشاء فى منزل إليزابيت وروبير بادنتر ، جيراننا فى شارع غوينمر . اعتذرت عن ليا ، التى بقيت فى القاهرة فى انتظار أثاثنا المشحون من نيويورك . من بين الحضور لَوران فابيوس وزوجته ، وكذلك جان دانيال . يدور نقاش حاد حول الأصولية الإسلامية . أبديت أسفى ؛ لأن الحكومة الفرنسية لا تشجّع الإسلام المعتدل ، عن طريق إنشاء مجلس تمثيلى ، وتشجيع بناء المساجد ، وتعيين مسلمين فرنسيين فى مراكز قيادية . لا يوجد وزير مسلم واحد ، ولا نائب مسلم واحد . بتهميش المسلمين على هذا النحو ، تعبّد فرنسا الطريق أمام الأصوليين القادمين من مصر ، وشمال إفريقيا ، مزوّدين بالمال السعودى . تبدو فرانسواز فابيوس بالغة الحماس . لا تشاركنى فى التحليل وحسب ، وإنما تدعم اتخاذ مبادرة فورية .

ينتقل الحديث إلى الوضع فى الجزائر . أقول إنه «يجب مساندة الجنرال زروال وحكومته ؛ لأنه إذا حصل وسيطر «أصحاب اللحى» على الحكم ، يُخشى أن تنهار أنظمة شمال إفريقيا كلها ، بما فى ذلك ليبيا ومصر» .

يبدو جان دانيال أقل تشاؤمًا . ويحاول محاورىّ أن يبيّنوا لى صعوبة تبنى أو إنشاء مؤسسة أو سلطة تمثّل كل مسلمى فرنسا .

أشكر إليزابيت بادنتر على هذا العشاء الرائع ، وأقرر أن أسير لبعض الوقت على الرصيف المحاذى لحديقة اللوكسمبورج . الليل بارد ، ورائحة الأشجار منعشة . أتساءل إن كانت هذه النخبة من أهل الفكر الذين تركتهم منذ قليل ، تعى الخطر المتمثل من الأصولية التى تتنامى على ضفاف المتوسط الفقيرة؟ مجموعة من حوالى مائة متطرف يمكنها تحويل فرنسا إلى نموذج شبيه بأيرلندا الشمالية .

يبدو أن الذين حادثتهم هذا المساء على قناعة بأنهم يستطيعون مساكنة الأصوليين أو التعايش معهم بطمأنينة، داخل فرنسا وخارجها.

كان لا بد من عملية التفجير الدموية فى مبنى التجارة العالمى فى نيويورك على يد مجموعة الشيخ عمر عبد الرحمن؛ لكى يدرك الأمريكيون الخطر المحدق بهم. أخشى أنه يلزمنا تفجير مماثل تحت برج إيفل أو قوس النصر لتبادر الحكومة إلى بلورة مشروع كبير يقضى باستيعاب الإسلام المعتدل، واستئصال الإسلام المتطرف من فرنسا.

باريس ـ الجمعة ٢٨ آذار/مارس ١٩٩٧

أتى أندريى غراتشيف، وهو مثقف روسى على احتكاك بالعالم الغربى، لإجراء مقابلة معى. أهدانى كتابه «الانهيار الداخلى للاتحاد السوفيت»، الصادر حديثًا والذى يتناول فيه مرحلة انهيار حكم ميخائيل غورباتشيف، وقد كان ناطقًا باسمه.

يخبرنى بأنه يروى فى مؤلفه زيارة الرئيس حسنى مبارك إلى موسكو، فى أيلول ١٩٩١، وكنا قد شاركنا سويًا فى تلك الزيارة. فى تلك المناسبة أعرب ميخائيل غورباتشيف عن تأييده لترشيحى إلى منصب الأمين العام للأمم المتحدة. لكنه تلقى، بعد أن غادر الرئيس مبارك بقليل، اتصالاً هاتفيًا من رئيس الوزراء البريطانى جون مايجور، يطلب فيه دعم ترشيح غرو هارلم برونتلاند، رئيس وزراء النرويج. فأجابه ميخائيل غورباتشيف بكل بساطة «إننا التزمنا مع مصر».

هذا الحدث يذكّر بحدث آخر: الغداء الذى دعوت إليه عائلة غورباتشيف فى الأمم المتحدة. كان الحديث نابضًا بالحيوية، وكان غورباتشيف غزير الكلام يتناوب عليه مع زوجته رايسا، مما لم يتح للمترجم المسكين أى وقت للراحة، فكانت الأطباق تمر أمام ناظريه دون أن يجد وقتا لتذوقها.

نتابع الكلام حول كتاب أندريى غراتشيف.

أقول له: «إن هناك شيئًا مأساويًا فى خسارة السلطة. وأتخيّل الصعوبات التى مررت بها وأنتَ تسرد هذه الأوقات العصيبة ...».

يجيب: «اخترتُ أن أكون متحفظًا، وتحاشيت أن أبدى مشاعرى».

لقد تسنّى لى مرات عديدة أن أعايش يأس الذين يخسرون السلطة فجأة. بعضهم يلجأ للتبجّح والمكابرة، فيتكلمون عن مرحلة جديدة، وعن عودة قريبة للسلطة. ولكن معظمهم لا يستطيع إخفاء خيبته لفقدان مسؤولياته، وخوفه من الفراغ، وقلقه من أن ينهى أيامه فى غياهب النسيان الذى رمته فيه الأقدار.

باريس ـ السبت ٢٩ آذار/مارس ١٩٩٧

كانت الرياح مؤاتية. أنهيت تقريبًا الفصل المتعلق بتدخل الأمم المتحدة فى السلفادور. لست متأكدًا من أننى شرحت بما يكفى رهانات ومهمات هذه الأداة الجديدة التى أسميناها لجنة الحقيقة. القول بأن مهمة هذه المحكمة الخاصة المؤلفة من قضاة أجانب ـ نظرًا لأن القضاء السلفادورى الذى شرذمته الحرب الأهلية غير قادر على القيام بهذه المهمة ـ لا تهدف إلى المحاكمة والإدانة، وإنما إلى تحديد وتسجيل الجرائم والفظائع التى ارتكبتها قوات الجيش والأمن. القول بأن المذنبين سيجبرون على الاستقالة، وليس إنزال العقوبات بهم. القول بأن الهدف هو جلاء كل الحقيقة، وتبديد كل الشكوك والشبهات، والحث على تنقية النفوس، كل ذلك يشكّل الخطوة الأولى على طريق المصالحة والغفران والوحدة للأمة السلفادورية.

ولكن كيف لنا أن نفهم بأنه علينا أحيانًا أن نضحّى بالعدالة من أجل السلام؟ أتذكر ردة الفعل المتعجبة لروبير بادنتر، وهو مدافع متحمس ولامع عن العدالة الدولية، حين قلتُ له يومًا إن الرأفة أهم من العدالة. ديسمون تاتو الذى ترأس لجنة الحقيقة فى جنوب إفريقيا، برع فى تجسيد هذه الفلسفة القائمة على الصفح من أجل صفاء القلوب وتحقيق المصالحة الوطنية الحقيقية.

باريس ـ الأحد ٣٠ آذار/مارس ١٩٩٧

عادت ليا إلى باريس. انتهى نقل أثاث المنزل، واستقر الأثاث والتحف فى شقة القاهرة، ما عدا أربعة صناديق من الكتب لم تتسع لها رفوف المكتبة المكتظة. لا بد

من أن أتحلى بالشجاعة فأهدى بعض المجموعات من مكتبتى إلى مختلف الجامعات. لا أستطيع التوصّل إلى اتخاذ هذا القرار. ففكرة انفصالى بشكل نهائى عن كتبى تشكّل تمزقًا. أدرك تمامًا بأنه لن يسنح لى الوقت أبدًا لقراءة كل هذه الكتب، لكن وجودها يطمأننى ويقوّينى. ربما أحتاج يومًا إلى الاستعانة بأحد هذه الكتب...

باريس ـ الثلاثاء الأول من نيسان/ابريل ١٩٩٧

محطة الـ بى بى سى، التى تعد ريبورتاجًا كبيراً بمناسبة الذكرى العشرين لزيارة الرئيس السادات التاريخية إلى القدس، حجزت غرفتين فى فندق لوتيسيا من أجل التصوير. أُخضعتُ إلى لعبة الأسئلة طيلة أربع ساعات، أوصل اللقطات، وأكرر الأجوبة نفسها بكل صبر. أخيرًا، لم يتبقَ من الوقت سوى عشرين دقيقة تقريبًا...

لقد أُنجز كل شىء وفق التقنيات الفنية الحديثة، بعد أن أمضى الصحافيون أكثر من عام فى التحضير. راجعوا كل الوثائق وكل الكتب حول هذا الموضوع، بما فى ذلك كتابى، مع أنه لا يزال قيد الطبع. جمعوا شهادات كل المعنيين، سواء فى الجانب الأمريكى أو الإسرائيلى. لكنهم وجدوا بعض الصعوبات للتحدث إلى مواطنىّ. أسامة الباز، رفض أن يجيب عن أسئلتهم. محمد كامل، الذى استقال فى كامب ديفيد، مريض. الجنرال كمال حسن على تُوفى. أفهم إذن لماذا يصرّون على الاستماع إلى شهادتى. إنى منبهر بمعرفتهم الكاملة بهذا الملف. بالطبع، فالإعلام من خلال الشاشة فى طريقه للحلول مكان الإعلام المكتوب.

باريس ـ الأحد ٦ نيسان/ابريل ١٩٩٧

مرّت ثلاث سنوات، بالتمام والكمال، على تحطّم الطائرة التى كانت تقلّ رئيس بوروندى، سيبريان نتاريامبرا، ورئيس رواندا، جوفنال هابياريمانا. هذا الحادث أطلق حملة الإبادة ضد قبائل التوتسى، والتى أدّت إلى حرب الإبادة الجماعية فى رواندا.

شكّلت الإبادة الجماعية فى رواندا الفترة الأكثر صعوبة من ولايتى فى الأمم المتحدة. لا أزال أحمل حتى اليوم الشعور بالفشل. ليس لأنى لم أتمكن من إقناع أعضاء مجلس الأمن بالتدخل لوقف المجزرة فحسب، وإنما لأنى لم أتحلَ كذلك بالصلابة الكافية لأواجه سياسة عدم التدخل التى اختطتها الولايات المتحدة لنفسها بعد مقتل جنودها فى مقديشيو. إن البرقية المؤرخة ١١ كانون الثانى ١٩٩٤ (وهى تثير الكثير من الجدل حين ننظر إلى تلك المرحلة) المرسلة من الجنرال دالّير إلى قسم عمليات حفظ السلام، والتى تشير إلى إشاعات تتحدث عن أن قوات الهوتو تحضّر لمجزرة ضد مجموعات التوتسى، هذه البرقية لم يُكشف عنها إلا بعد انقضاء ثلاثة أشهر على وصولها.

حتى يومنا هذا، هناك وقائع لا يزال يلفها الغموض، كما أن هناك الكثير من الأسئلة لم يُجب عنها البتة، وأسئلة لم تطرح قط، على الرغم من كل الاستقصاءات، وجلسات الاستماع للشهود والتقارير.

من المسؤول عن تفجير طائرة رئيسى رواندا وبوروندى، والإثنان من الهوتو، يوم ٦ إبريل ١٩٩٤؟

لماذا لم يُطلب إلى القوات الفرنسية والبلجيكية التى وصلت فى ١١ إبريل لإجلاء رعايا بلديهما والرعايا الأجانب، تدعيم كتيبة القبعات الزرق، بدل ترك السكان المحليين يتقاتلون؟

أكثر من ذلك: لماذا أخذ البلجيكيون أسلحتهم حين انسحبوا يوم ١٣ إبريل، فى الوقت الذى رجوت وزير خارجيتهم ترك الأسلحة الثقيلة لتكون فى تصرف القبعات الزرق؟ هل كانت هذه الأسلحة أغلى ثمنًا من حياة الروانديين؟

فى ٣ مايو ١٩٩٤، وفيما المجازر على أشدّها، وقّع بيل كلينتون «قراراً رئاسيًا» P.P.D.25 يحظّر اشتراك القوات الأمريكية فى عمليات حفظ السلام، ويشل بالتالى عمل مجلس الأمن. أمام عجزى الكامل عن القيام بأية خطوة، طلبت إلى الولايات المتحدة التشويش على بث إذاعة كيغالى ـ المعروفة بإذاعة الألف تلة ـ والتى تحث يوميًا على إبادة التوتسى. أتانى الجواب بأن هذا الأمر مكلف جدًا! ...

لماذا لم تقرر فرنسا إطلاق «العملية الفيروزية» إلا فى ١٧ مايو ، فى الوقت الذى كان يتيح تدخلها المبكر ، إن لم يكن إيقاف المجازر ، فعلى الأقل التخفيف من حجمها؟

هذه الأسئلة ، من بين أسئلة كثيرة أخرى ، أطرحها اليوم بعد ثلاث سنوات على المأساة ، وهى لا تخفّف شيئًا من مسؤوليتى ، ولا من مسؤولية كبار موظفى الأمم المتحدة ، الذين امتثلوا لتدخلات الإدارة الأمريكية ، التى عملت بتوجهات «القرار الرئاسى» .

يجب علىّ فى الفصل الذى سأخصصه لرواندا ، فى كتابى عن الأمم المتحدة ، أن أتحلى بمزيد من الصفاء الذهنى ! ولكن هل باستطاعتى ذلك؟ تبدو الإبادة الجماعية فى رواندا أكثر فظاعة من غيرها .

أولاً لأن المجتمع الدولى الذى شعر بالمهانة والتمزق بسبب إبادة اليهود الجماعية ، أقر عام ١٩٤٨ الشرعة حول الإبادة الجماعية ، حيث تعهدت الدول الموقعة التدخل لوضع حد لأى قتل جماعى جديد . ولا يبدو بأن أيّا منها تذكّر تعهدَه ، فى رواندا .

ثم لأن القتل الجماعى الذى تعرّض له اليهود وقع دون أن يكون هناك معرفة دقيقة بما كان يحصل ، فيما حرب الإبادة فى رواندا جرت أمام عدسات المصوّرين وكاميرات التلفزيون وتحت أعين الصحفيين الذين كتبوا عنها . ولا أحد يمكنه الادّعاء بجهله لما كان يحصل .

أخطر من ذلك أيضًا فى نظرى ، هو التمييز العنصرى الذى طبع هذه اللامبالاة إزاء المأساة الرواندية . هؤلاء ليسوا سوى «عبيد»! ما يثبت هذه العنصرية تجاه السود ـ والتى لم نتمكن من اجتثاثها ـ على الرغم من كل إعلاناتنا وكل جهودنا ـ هى تلك التعليمات التى أعطاها ضابط بلجيكى شاب إلى جنوده : «اتركوا البونيول(*) يقتلون البونيول!» .

(*) البونيول: bougnoule تسمية تحقيرية أطلقها المستوطنون الأوربيون للدلالة على شعوب بلدان شمال إفريقيا .

بالاختصار، قتل البونيول لا يصنّف فى خانة القتل الجماعى!

باريس ـ الأربعاء ١٦ نيسان/إبريل ١٩٩٧

لم يخف آدم كودجو، وزير خارجية توغبو السابق، والذى انتُخب أمينًا عامًا لمنظمة الوحدة الإفريقية فى قمة الخرطوم عام ١٩٧٨، أمامى نواياه أما من تولّى مسؤوليات جديدة فى إطار الفرنكفونية. أبلغته بأنى نلت موافقة ودعم حكومتى لأتقدم بترشيحى إلى منصب الأمين العام، فى قمة هانوى. أجابنى دون تردد: «فى هذه الحال أعزف عن ترشيح نفسى».

وأُلمحت له بأنه فى حال انتخابى، سوف تتاح لنا فرصة التعاون كما فى السابق.

باريس ـ الأربعاء ٢٣ نيسان/إبريل ١٩٩٧

وصل شارلى هيل من نيويورك لقضاء أسبوع فى باريس. انتهيت أخيرًا من كتابة المائة صفحة الأولى من كتابى الجديد. يجب علينا الآن إعادة قراءتها، والقيام بالتصحيح، وحذف أو إضافة بعض المقاطع. نعاود تنقيح التصميم للمرة الرابعة.

شارلى هيل هو النموذج الأمثل «للأمريكى الهادئ». خدم فى الصين وفى الشرق الأوسط قبل أن يصبح المساعد الأقرب لجورج شولتز، وزير خارجية رونالد ريغان. من جهة أخرى، يعود له الفضل فى إعداد الكتاب الذى أصدره جورج شولتز بعد أن ترك مهماته فى وزارة الخارجية. شارلى هيل كتب خطاباتى بالإنجليزية فى الأمم المتحدة، وساعدنى فى كتابة مؤلفى الأخير «طريق مصر نحو القدس».

تحت مظهره البارد يخفى شارلى هيل طباع شخصية رجل متحمس قابل للاستجابة إلى المشاعر المتطرفة. وهو يكنّ لـ وارن كريستوفر ومادلين ألبرايت كرهًا متأصلاً فى نفسه، يمكن تفسيره ربما بانتمائهَ إلى الحزب الجمهورى. كره جامح، إلى حد اضطرارى لحذف بعض الانتقادات اللاذعة بحق مادلين ألبرايت مرّرها فى النص دون موافقتى.

وفيما نحن منكبون على العمل، يأتى اتصال هاتفى من آن ـ مارى ليزان، وهى صديقة لى منذ أكثر من عشرين سنة، تشغل منصب سيناتور ورئيس بلدية فى «هيوى» فى بلجيكا. وهى اختصاصية فى شؤون إفريقيا أيضًا. أعترف بأنها تثير اهتمامى. تقول: «إن الكولونيل ويلى مالآن الذى يقيم علاقات وثيقة مع لوران ديزيريه كابيلا، وهو فى الوقت نفسه على معرفة جيدة بموبوتو، يود الاجتماع بك من أجل مهمة مستعجلة».

حُدِّد الموعد عند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى.

باريس ـ الخميس ٢٤ نيسان/إبريل ١٩٩٧

فى تمام الساعة الحادية عشرة يصل الكولونيل ويلى مالآن إلى شقتى. يقول ما يلى:

«أنتَ تحظى بثقة موبوتو، كما أن كابيلا يعرفك ويحترمك. يمكنك التدخل لتحول دون وقوع مجزرة، وتدمير كينشاسا، على غرار ما حصل فى برلين عام ١٩٤٥. إذا شئتَ، أستطيع أن أضع بتصرفك بطاقة سفر باريس ـ كينشاسا ـ باريس. وهناك سوف يسهّلون لك إجراء كل الاتصالات».

وبينما كنت أستمع إليه، لم أتمالك نفسى من التفكير فى الجواب الذى وصلنى من ممثلى فى جنوب إفريقيا، ومن ثم فى هايتى، وزير خارجية الجزائر الأسبق، الأخضر الإبراهيمى، حين اقترحت عليه القيام بمهمة مصالحة فى كينشاسا:

ـ «لا يمكن لمهمتى أن تنجح إلا إذا توافقت آراء ومصالح الدول الثلاث المعنية بالصراع الدائر، أى بلجيكا وفرنسا والولايات المتحدة». طلبت إليه حينها التشاور مع تلك الدول، على أن نقرر لاحقًا. ولما عاد بعد بضعة أسابيع، أخبرنى بأن الاتفاق ليس ممكنًا، وبالتالى فإنه لا داعى للقيام بمهمته.

أُطلع الكولونيل مالآن على ما قاله آنذاك الأخضر الإبراهيمى، ثم أضيف:

ـ «إذا حصلتُ على موافقة الدول الثلاث، فإنى على استعداد للقيام بهذه

المهـمـة، بعـد أن أُعلـم بالطبـع حكومـة بلادى وأحـصل منهـا على الضـوء الأخضر».

نناقش بالتفصيل احتمالات هذه الوساطة: إتاحة انسحاب مشرّف لموبوتو، الحد من حماس كابيلا...

أتعهد بإعطاء جواب نهائى للكولونيل مالآن قبل نهاية اليوم.

بعد مغادرته، أتصل هاتفيًا بدافيد ليفيت فى الإليزيه. ينصحنى بعدم خوض غمار هذه العملية التى يُخشى أن تعقّد انتخابى لمنصب الأمين العام للفرنكفونية. من جهته، يتصل شارلى هيل بواشنطن، فيتم إعلامه بأن الولايات المتحدة تتهيأ لإرسال مبعوث يقوم بمهمة مماثلة. ليس عندى من أكلّفه الاتصال بالسلطات فى بروكسيل، إلا أن آن ـ مارى ليزان و ويلى مالآن أكدا لى بأن لديهما الضوء الأخضر من الحكومة البلجيكية.

أعاود الاتصال بويلى مالآن لأعتذر عن قبول عرضه، بما أن اثنين من الفرقاء الثلاثة المعنيين نصحانى بعدم التدخل. يعتذر مالآن لإزعاجى، مبديًا أسفه للقرار الذى اتخذته.

أعلم بعد وقت قصير بأن الكولونيل ويلى مالآن يملك منجمًا للأحجار الكريمة فى منطقة البحيرات الكبرى. لم أعرف قط لماذا وقع اختياره علىّ؛ «لأننى أمين عام سابق للأمم المتحدة»، حسب رأى آن ـ مارى ليزان. ما هى المصالح التى كان يدافع عنها؟ مصالح كابيلا، بالطبع. ولكن، أبعد من كابيلا، ماذا كانت دوافعه الحقيقية؟

باريس ـ الثلاثاء ٦ أيار/مايو ١٩٩٧

يصل يوسف إلى باريس. يوسف هو ابن أخى المفضّل، ابنى بالتبنى. إنه يمثّل الجيل الخامس الذى يواصل بكل تألق تقليد فى العائلة التى ترفد الدولة المصرية بالموظفين الكبار. إنه وزير التعاون الدولى.

هو شاب مديد القامة، يبلغ طوله متراً وثمانين، حاد الذكاء، جادّ في عمله وطموح. بعد إنجاز دراساته العليا في القاهرة ونيل شهادة دكتوراه من معهد ماساشوستس للتكنولوجيا، بدأ عمله في صندوق النقد الدولي. ولدى عودته إلى مصر عُيِّن مستشاراً اقتصادياً لرئيس الوزراء عاطف صدقي، وبعد فترة قصيرة على انتخابي في الأمم المتحدة، عُيِّن وزيراً للتعاون. لم يكن حينها إلا في الأربعين من عمره. مما جعله مرات عديدة يمازحني بقوله:

«سبقتك بخمس عشرة سنة. فأنتَ كنتَ في الخامسة والخمسين حين أصبحتَ وزيراً».

لم يتمكن قط من التخلص من هذه الثقة المفرطة الشائعة لدى التكنوقراطيين. ينقصه ذلك اللطف التلقائي، وحس التواصل، والمبادرة العفوية التي تجعل من التكنوقراطي سياسيًا، أو تحجب أحيانًا البعد التكنوقراطي في شخصية رجل السياسة. وهذا ما أكسبه أعداء أكثر من الأصدقاء، بدءاً برئيس الوزراء كمال الجنزوري، الذي لا يفوّت مناسبة لمعارضة مشاريعه.

إني موضع ثقته والمؤتمن على أسراره. فأنا على معرفة واسعة بالوسط السياسي في القاهرة، «لقد تربيتُ في السرايا، لذا أعرف كل الخفايا»، كما يقول الشاعر. لقد كان عليّ، على مدى أكثر من خمسة عشر عامًا، أن أتخطّى المنافسات بين الوزراء، ونلتُ، أنا كذلك، نصيبي من الإهانات. أليست تلك هي القاعدة في السلطة؟ ولكن ها قد مضت ستة أعوام على مغادرتي القاهرة، ولم أعد ملما بأجواء المشاحنات الأخيرة. لذا لا يمكن لنصائحي إلا أن تبقى على مستوى العموميات.

أراه اليوم مشغول البال، يساوره الشك، فأقول له:

«انتظرْ التغيير الحكومي المقبل، حينها سيكون الوقت مناسبًا للتفكير بوضوح. ولكن إذا كان في نيتك ترك السياسة، يجب أن يتم ذلك قبل نهاية العام، وبموافقة الرئيس حسني مبارك. فكلما تأخرت كلما أصبح من الأصعب عليك إيجاد موقع

فى القطاع الخاص؛ لأن الشركات المتعددة الجنسيات تفتش أكثر فأكثر عن موظفين قياديين شباب».

يبدو أن الوزير الشاب يفضّل السلطة على المال. لا أظنه سيترك الحكومة، على الرغم من العداوة التى يكنّها له رئيس الوزراء الجنزورى.

باريس ـ الجمعة ٩ أيار/مايو ١٩٩٧

إنه يوم رأس السنة الهجرية ١٤١٨، هلال جديد يقرّبنى من قمر الأقمار، وهى الليلة التى أنتظرها وأخشاها فى آن. فى «ألف ليلة وليلة» يطلق على الأمراء اسم «قمر الزمان»، وعلى الأميرات اسم «بدر البدور» أو «ست البدور». إحدى قريبات جدتى كانت تدعى «بدور». كما أن عبارة «جميلة كالبدر» تُقال للتغنى بجمال نساء بلادى. بالنسبة إلىّ، اكتمال القمر يعنى هروب الزمن، الأربعة عشر يومًا التى تفصلنى عن القمر الجديد.

باريس، نيويورك ـ الاثنين ١٢ أيار/مايو ١٩٩٧

أغادر إلى نيويورك. ليا التى عليها أن تخضع لعملية جراحية فى العين سبقتنى منذ أسبوع. طائرة الكونكورد نصف فارغة من الركاب. عند الوصول، ينتظرنى مارك، ضابط الأمن الذى رافقنى كظلى أيام وجودى فى الأمم المتحدة، برفقة السفيرين جوزف فارنر ريد ونبيل العربى. هذا الأخير يعتبر ترشيحى لمنصب الأمين العام للفرنكفونية تراجعًا فى مسيرتى السياسية. حاول عدة مرات أن يقنعنى بالعزوف عن تولّى هذا المنصب «الفولكلورى». فقلت له: «لا تقلق. سأحوّل هذا المنصب إلى موقع سياسى قبل انتهاء ولايتى».

نيويورك ـ الثلاثاء ١٣ أيار/مايو ١٩٩٧

أعود إلى نيويورك بعد خمسة أشهر من الغياب، دون أى توتر. إنى هنا من أجل إطلاق كتابى «طريق القدس». نحن مدعوون إلى العشاء هذا المساء من قبل جيسون أبشتاين، أحد مدراء دار راندوم هاوس، ناشرة كتابى.

أنا وليا نعرف جيداً زوجته الشابة جودى ميلر، التى كانت مراسلة النيويورك تايمز فى القاهرة. يحضر كذلك فيليكس وإليزابيت روهاتين. إنهما بغاية الانشراح لفكرة الإقامة فى باريس، بعد أن عُيِّن فيليكس هناك سفيراً للولايات المتحدة. إنه رجل مال موهوب، أنقذ نيويورك من الأزمة. لا أدرى إن كان أمريكيًا أكثر مما هو فرنسى، أو فرنسيًا أكثر مما هو أمريكى.

نتحدث عبر ردود الأفعال، العنيفة أحيانًا، التى أثارها كتابى. أحد الشيعة اللبنانيين، ويدعى فؤاد عجمى، كتب صفحتين من الشتائم مدعيًا بأنها نقد.

ـ «متى سيصدر كتابك المقبل؟»

ـ «هو قيد الإعداد، وآمل أن ينتهى قبل نهاية العام».

نيويورك ـ الأربعاء ١٤ أيار/مايو ١٩٩٧

نظّم ناشر كتابى سلسلة من المقابلات فى الراديو والتلفزيون. يبدو أن الملحقة الصحافية فى دار النشر ـ وهى شابة نيويوركية جميلة تتولى قيادتى فى دهاليز الاستوديوهات ـ تعرف جميع الناس. السيناريو نفسه يتكرر فى كل مرة، والأسئلة سرعان ما تتجه نحو الوضع فى الشرق الأوسط وأسباب فشل إعادة انتخابى. لدى جواب جاهز يلخص، كما يبدو لى، لبّ المشكلة:

ـ «أظن أن الأمين العام للأمم المتحدة يجب أن يكون أولاً سكرتيراً للدول الأعضاء، ولكن ما إن يتدهور وضع ما ويشكل تهديداً خطيراً للسلام يجب عليه أن يتصرف كجنرال. الولايات المتحدة تريد سكرتيراً ولا تريد جنرالاً فى أى حال من الأحوال».

نيويورك ـ الاثنين ١٩ أيار/مايو ١٩٩٧

احتفال فى سفارة اليابان. بعد خطاب تقريظى، يقلّدنى السفير هيزاشى أوادا وسام الشمس المشرقة، وهو أعلى وسام فى اليابان، بحضور كل أصدقائى النيويوركيين.

نيويورك ـ الاثنين ٢٦ أيار/مايو ١٩٩٧

يقترح عليّ الدكتور كيفن كاهيل الذى كان طبيبى فى نيويورك، أن أصبح عضواً فى مجلس إدارة «المركز الدولى للصحة والتعاون»، المؤلف من سايروس فانس، واللورد دافيد أوين، واللورد بول هاملين، والكاردينال جون أوكونور، وجان الياسون، وبيتر تارنوف الذى ترك وزارة الخارجية للعمل فى القطاع الخاص.

هذا المركز، الذى يمنح شهادة فى «المساعدة الإنسانية»، متوأم مع جامعتى نيويورك ودبلن فى أيرلندا. وكان الكلام على إنشاء فرع فى جنيف. وقد تمنى كيفن كهيل عليّ أن أسعى لتطوير القطاع الفرنكفونى.

بعد انتخابى فى الأمم المتحدة عام ١٩٩١، استقلتُ من مجموعة من المؤسسات والجمعيات العلمية المصرية. وقد عاهدت نفسى على أن أبتعد تماما عن هذا المجال الخيرى الأكاديمى. وهأنا أعاود الكرّة. لم أقبل اقتراح الدكتور كاهيل فحسب، وإنما كذلك اقتراح روبيرتو سافيو الذى يريدنى أن أرأس «جمعية التنمية الدولية»، وهى إحدى أقدم المنظمات غير الحكومية المتخصصة فى مشاكل النمو، ومركزها فى روما.

نيويورك ـ الثلاثاء ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٧

أليكو باباماركو الذى يحسن إدارة ملايين «الجات ـ سات» الدولية، يتقن بدون شك فن تنظيم الاحتفالات الضخمة. فى العام ١٩٩٢، دعا كل نيويورك على أقدام معبد دانديراه القائم فى متحف المتروبوليتان، للاحتفال بانتخابى. هذا المساء، حجز مطعم المورتينر، بمناسبة صدور كتابى. بين المدعوين، السيدة سلمى روزفلت التى كانت رئيسة التشريفات فى البيت الأبيض أيام ولاية رونالد ريغان. تبدى قليلاً من الامتعاض. فهى تأسف لكون الحكومة المصرية لم تقلّدها وسامًا، أسوة بخلفها السفير جوزف ريد، الذى حصل على دعم منى، كما ألمحت. أحاول أن أشرح لها بلطف أنى لم أعد فى السلطة، وبطريقة لا تخلو من الكثير من اللباقة، أنها هى أيضًا لم تعد فى السلطة. تجيبنى بابتسامة محمّلة باللوم:

ـ «أكثر فترة نحتاج فيها إلى نيل الأوسمة، هى بالضبط تلك التى لا نعود فيها فى السلطة!».

تنتهى السهرة بحفل توقيع. أهدى أليكو باباماركو نسخة من كتابى إلى كل واحد من المدعوين.

نيويورك ـ الأربعاء ٢٨ أيار/مايو ١٩٩٧

مقابلة جديدة للتلفزيون. يصوّب الصحافى فى وكالة بلومبرغ مباشرة إلى الهدف:

ـ «تقول فى كتابك إنك حين التقيت قداسة البابا فى روما، قال لك: «إنى أعرف ذهنية المسؤولين اليهود الذين تتفاوض معهم؛ لأن معظمهم يأتى من موطنى، بولندا... ليس من السهل التعاون معهم، لكن عليك متابعة المفاوضات». ماذا كان قداسة البابا يقصد بذلك؟ ولماذا ارتأيت أن تذكر أقواله؟».

تزعجنى لهجته القاطعة والاتهامية:

ـ «لا يسعنى أن أوضح لك خلفية تفكير قداسة البابا. فى المقابل، بإمكانى أن أوضح أفكارى، وخلفية تفكيرى: إن الإسرائيليين مفاوضون فى غاية الصعوبة ويلجأون أحيانًا.

نيويورك ـ الخميس ٢٩ أيار/مايو ١٩٩٧

تتواصل المقابلات وتتشابه. يأتى دور شارلى روس الذى يشجب الإرهاب الفلسطينى. قلت له:

ـ «لا تنسَ الإرهاب الإسرائيلى. فإسحق رابين أُغتيل على يد إرهابى إسرائيلى».

الاستقبالات تتتابع هى أيضًا. جاء دور صديقى عزرا زيلكا، وهو رجل مال كبير من أصل عراقى، وزوجته سيسيل التى تشبه منمنمة فارسية، لكى يحتفلا

بصدور كتابى فى نادى كنايكربروكر . وُضعت عشرات من النسخ على طاولة بتصرف المدعوين، الأمر الذى لم يرق للناشر جايسون أبشتاين : «إنى لا أحب أن توزّع الكتب مجانًا. يجب على القرّاء أن يدفعوا ثمنها» .

(بعد قليل ...) .

نتناول العشاء مع الصحافى فى «الواشنطن بوست»، جيم هاغلاند، وزوجته الكاتبة جين هيتشكوك. أسرّ لهما بأنى كنت أفضّل لو أتخلّص من كل هذه الاستقبالات، وحفلات التوقيع، والمقابلات. يحاولان إقناعى بأنه يجب لإطلاق كتاب تخصيص وقت يوازى، إن لم يكن يفوق الوقت الذى تتطلبُه كتابته. تضيف جين بأنه كان علىّ التعاقد مع متخصص فى ميدان التسويق الأدبى أوكل إليه هذه المهمة.

باريس ـ الثلاثاء ٢ حزيران/ يونيو ١٩٩٨

يزورنى أندريى غراتشيف للمرة الثانية فى منزلى، فى شارع غينومير. أتمنى لو يجد ناشراً روسيًا يوافق على ترجمة وطباعة كتابى «طريق القدس» الذى تُرجم ووُزّع فى مجمل بلدان العالم العربى. أما الطبعة الفرنسية، فقد تولتها دار نشر فايار.

ينحو الحديث بسرعة نحو موضوعات أخرى، ويقول لى :

ـ «أفهِمْ الأمريكيين أصدقاءك، أن عليهم تجنّب الإساءة إلى روسيا وإهانتها. إنها أمّة عَظيمة جداً، وسيكون من الخطر التقليل من قدرتها على الرد».

استفيض فى الاتجاه نفسه :

ـ «نحن أمام جمهوريين أصوليين، يفضّلون القضاء على العدو ما إن يتعثّر، بدلا من مد يد العون له، ومساعدته على الوقوف والتحاور معه. ما لا يقدّرونه هو أن طائر الفينيق يمكنه فى أى وقت الانبعاث من رماده».

باريس ـ الأربعاء ٤ حزيران/ يونيو ١٩٩٧

الصحافى حمدى قنديل المعروف جداً فى مصر، يدير لإحدى محطات التلفزة العربية حلقة نقاش، قبلتُ أن أشارك فيها، إلى جانب محاورَين مرموقين: الأخضر الإبراهيمى، وجهاد الخازن، رئيس تحرير جريدة «الحياة» ومن أفضل كتّاب المقالات الافتتاحية فى العالم العربى.

كان الاثنان قد شجبا فى حينه «خيانة» أنور السادات للعالم العربى ولفلسطين. كان سيبدو تبجحًا من قبلى لو قلتُ لهما إنّ البلدان العربية تنساق بعد عشرين سنة إلى ما رفضته آنذاك.

إنه الجواب السهل.

يبقيان على قناعتهما بأن زيارة الرئيس السادات إلى القدس هى سبب الأزمة الحالية فى العالم العربى. من ناحيتى، أستمر فى الاعتقاد بأن العالم العربى نفسه هو المسؤول عن هذه الأزمة. ولا يمكن لأحد أن يزعزع قناعتى بأن تلك الزيارة أتاحت لمصر أن تستعيد وحدة أراضيها، كما أتاحت لها أيضًا أن تعزّز موقعها على الساحة الإقليمية، وأن تلمّع صورتها فى نظر المجتمع الدولى: كل هذه العوامل لا يمكن إلا أن تشكّل عناصر قوة للعالم العربى.

أنتيب ـ الخميس ٥ حزيران/ يونيو ١٩٩٧

دُعيت لإلقاء محاضرة أمام جمهور من المصرفيين ورجال الأعمال ينتمون إلى مختلف أنحاء العالم العربى. كثيرون كانوا من دول الخليج.

اخترتُ أن أتكلم فى ثلاثة ملفات أسهمت فى معالجتها فى الأمم المتحدة: فلسطين، وليبيا، والعراق.

ينبّهنى أحد المشاركين:

ـ «كن حذراً! فمعظم الأشخاص فى هذه القاعة يعارضون العراق بشدة، وقد لا ينظرون بعين الرضا إلى عرضك للجهود التى بذلتها من أجل الشعب العراقى».

أدرك فى الحين أنى أسأت تقدير طبيعة هذا الجمهور، فهو مكوّن من كبار ممثلى الرأسماليين العرب، وقد اجتمعوا فى فندق الكاب، فى أنتيب؛ ليستمعوا إلى من يكلّمهم عن الأموال والاستثمارات، ولكن بالتأكيد ليس عن آلام ومصائب شعب أصابته اللعنة، يذعن دون اعتراض، لسلطة الدكتاتور صدام حسين.

مع ذلك، تجرى المحاضرة على أفضل ما يرام، والنقاش الذى يليها يتسم بالحيوية. نتكلم جميعنا باللغة الإنجليزية، لأن بين الحضور بعض رجال الأعمال الأمريكيين والبريطانيين.

الشخص الذى خاطبنى منذ قليل يلفت انتباهى مجدداً:

ـ «حين يتخطّى المبلغ المليار دولار، يجب التكلم بلغة الرأسمال الضخم».

أقول، متصنعًا الإعجاب:

ـ « هل تملك أكثر من مليار دولار؟».

يجيب، بتواضع مصطنع:

ـ «كلا، إنما أنتمى مع بعض الموجودين هنا إلى مجموعة تمتلك أقل من مليار دولار، ولكن معظمهم أصحاب ثروة ضخمة».

أضيف:

ـ «هل تشارك كثيراً فى هذا النوع من المحاضرات؟».

يجيب:

ـ «يشدّد رئيس مجموعتنا نمير كيردار، على أن نطوّر ثقافتنا السياسية».

نمير كيردار هو رجل أعمال عراقى ناجح، يتابع عن قرب تطور الأحداث فى الشرق الأوسط، وبفضله أنا موجود هنا.

فال دوست، باريس ـ الأحد ١٥ حزيران/يونيو ١٩٩٧

أبدأ بتلمّس طريقى فى ضبابية المؤسسات الفرنكفونية. أسافر إلى فال دوست

برفقة مجموعة من رجال الأعمال، وستيف جنتيلى، رئيس المنتدى الفرنكفونى للأعمال.

تتوالى الخطابات والمداخلات التى تذكّرنى بشدة بسفسطات الأمم المتحدة. زيارة مع دليل للمدينة، افتتاح المركز الجديد للمنتدى، خطاب مرتجل فى المقهى الوحيد للمدينة.

لدى عودتى إلى باريس يحتفل بى سائق سيارة أجرة تونسى فى مطار رواسى:

- «رجلنا العظيم، الذى قال «كلا» للأمريكيين وأنقذ الشرف العربى».

يلحّ لالتقاط صور مع غيره من السائقين المغاربة الذين تركوا سياراتهم للحظة. تتعرقل حركة المرور قليلاً، لكن رجال الأمن يبدون متهاونين.

فى الطريق، يضع شريط مسجل من الموسيقى العربية. وفيما ظننت بأنى أحسن صنعًا، ارتكبت فى الواقع خطأ جسيمًا:

- «إنه عبد الحليم حافظ؟».

يتوقف متعجبًا:

- «كيف يمكن أن ترتكب خطأ مماثلاً؟ أيمكن الخلط بين عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ!».

تتداعى صورتى فجأة. لقد أظهر «الرجل العظيم» إمكانياته المحدودة. جهل كبير بموسيقى بلده...

أقدّم اعتذارات واهية:

- «إنى لا أسمع جيدًا بعد سفر بالطائرة».

لدى وصولنا إلى شارع غوينمر، يرفض فى البدء أخذ أجرته، ولكنه يقبل فى النهاية، بعد أن يقول لى بنبرة مثقلة باللوم:

- «رجاء، لا تخلط بعد اليوم بين أجمل صوت فى العالم العربى وصوت عبد الحليم حافظ».

روما ـ الثلاثاء ١٧ حزيران/يونيو ١٩٩٧

تُلزمنى مهماتى الجديدة كرئيس لجمعية التنمية الدولية بالسفر إلى روما. فى المطار، يستقبلنا، أنا وليا، سفير مصر نهاد عبد اللطيف وزوجته، بالإضافة إلى أصدقاء. منذ حوالى أربعين سنة، كان السفير وزوجته من بين طلابى، واليوم أصبح ابنهما دبلوماسيًا متمرّسًا.

زيارة لمقر جمعية التنمية الدولية التى يديرها الأمين العام روبيرتو سافيو. إنه عبارة عن فندق قديم أكل عليه الدهر وشرب، تتناغم فيه إلى حد ما الجُدر التى تزيّن السقوف منذ مئات السنين، مع أجهزة الكمبيوتر التى تتربع على المكاتب. فريق من التكنوقراط الشباب المنتمين إلى جنسيات مختلفة، والمتمتعين بكامل حيويتهم. تواجه المؤسسة أزمة مالية، سيكون علىّ تداركها بسرعة.

روما ـ الأربعاء ١٨ حزيران/يونيو ١٩٩٧

مقابلة مع رئيس الجمهورية أوسكار لوجى سكالفارو، الذى كان قد أبدى حماسًا صادقًا لإعادة انتخابى فى الأمم المتحدة. من بين الموضوعات، التى نأتى على ذكرها الوضع فى الأمم المتحدة، والهيمنة الأمريكية، والانتخابات التشريعية فى فرنسا، قبل أن أتكلم على سبب زيارتى:

ـ «بلادكم أظهرت الكثير من الدعم حين كنت فى الأمم المتحدة. أطلب الاستمرار فى مساعدتى لتحريك جمعية التنمية الدولية».

يعِد الرئيس الإيطالى بحثّ الإدارات المعنية.

روما ـ الخميس ١٩ حزيران/يونيو ١٩٩٧

أتابع جولتى واتصالاتى بالسلطات الإيطالية من أجل دعم جمعية التنمية الدولية. هذا الصباح، ألتقى رئيس الوزراء رومانو برودى: أعرض الشىء نفسه، ولكن أُتبعه بمطلب جديد. أرغب لو تحصل جمعية التنمية الدولية على صفة منظمة

دولية؛ كى لا تخضع للنظام الضريبى، ولكى تتمكن من ضم موظفين دوليين. يعطينى رومانو برودى أفضل التطمينات، ولكن أشعر بأنه مهتم بتحليلى لآخر التطورات المتعلقة بالأزمة العراقية، أكثر من اهتمامه بمستقبل هذه المنظمة غير الحكومية.

باريس - الاثنين ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٩٧

أغوص من جديد فى معترك المؤسسات الفرنكفونية. هذه المرة، يدعونى اتحاد الصحافيين الدوليين الناطقين بالفرنسية، إلى فندق «انتركونتينانتال». يتولى الأمين العام جورج غرو إدارة النقاش:

- «ماذا تنوى عمله لإعطاء زخم للفرنكفونية؟ كيف تنظر إلى منصب الأمين العام؟».

ما لفتنى أمران. الأول هو متوسط عمر أعضاء هذه الجمعية، وهو متوسط العمر الذى أنتمى إليه شخصيًا، مما يحدونى لأن أكون أكثر تسامحًا. والثانى هو أن المشاركين صحفيون غير معروفين. لكننى، منذ أكثر من ثلاثين عامًا، أمارس فى القاهرة دور «المتحدث الرسمى» والذى عليه أن يلبى حاجات الأجانب فى أثناء مرورهم فى المدينة، أو فى سعيهم لإجراء مقابلات، وقد التقيت تقريبًا جميع الصحفيين الفرنسيين.

باريس - الأربعاء ٢ تموز/يوليو ١٩٩٧

غداء فى مطعم ريكاميه مع كلود دوران، مدير دار نشر فايار، ومساعدته أنياس فونتين. انتهت ترجمة كتابى «طريق مصر إلى القدس»، يبقى أن نختار العنوان.

الترجمة الحرفية «الطريق المصرى إلى القدس» لا تبدو جذّابة. يقترح كلود دوران ببساطة «طريق القدس». لكنى أصر على تضمين البعد المصرى، لتلك المغامرة الدبلوماسية. لمَ لا يكون العنوان: «ذكريات دبلوماسى مصرى»؟

تلاحظ أنياس فونتين :

ـ «لم تكن دبلوماسيًا، بل رئيس الدبلوماسية المصرية».

ـ «ليكن العنوان إذن «مذكرات مصرى».

لم يلق هذا الاقتراح القبول، هو أيضًا.

نتفق أخيراً، ونحن نتناول التحلية، على عنوان «طريق القدس».

تقرر أنياس فونتين بابتسامة ساحرة، أكثر إقناعًا من أية حجة :

ـ «الكل يعرف أن بطرس بطرس غالى مصرى، ولا داعى لذكر هذا التفصيل فى العنوان».

باريس ـ الخميس ٣ تموز/يوليو ١٩٩٧

يطلب إلىّ شريف الشوباشى مراسل صحيفة «الأهرام» فى باريس، أن أكتب مقدمة للنسخة الفرنسية من مسرحيته «لن تسقط القدس»، والتى طُبعت باللغة العربية منذ سنتين.

لم تكن علاقاتنا دائمًا من أفضل العلاقات الودية. ولقد تحمّلت أكثر من مرة انتقاداته غير المبررة حين كنت فى الخارجية. ولكنى لا أضمر له شيئًا. وقد قدّرت دائمًا صراحته ومودته.

تدور أحداث مسرحيته فى العام ٤٩٢ هـ. الموافق عام ١٠٩٩ حسب التقويم الغريغورى. فى الفصل الأول القدس التى يحاصرها الإفرنج منذ أربعين يومًا، على وشك السقوط. وعلى الرغم من تنبوءات المنجم، لا تصل إمدادات الفاطميين وتسقط المدينة.

تدور أحداث الفصل الثانى فى دمشق، حيث أتت مجموعة من اللاجئين لتستشير قاضى القضاة من أجل الحصول على مساعدة الخليفة العباسى فى بغداد. يحرص الخليفة جيدًا على عدم القيام بمبادرة ويكتفى بتشكيل «لجنة» من الحكماء تزور المناطق المنكوبة وترفع إليه تقريراً.

أسأل الشوباشي إن كان نصه رمزيًا. يجيبني بكل ثبات:

- «كلا، ولكن مواقف وردود أفعال الأبطال في هذه المأساة، وكذلك نقاشاتهم، لا يمكن إلا أن تذكّرنا بالنقاشات والخيبات التي عشناها منذ سنوات، والتي لا تزال تلاحقنا حتى هذه السنة ١٤١٨ هـ.».

كرجع الصدى أتذكر نهاية الفصل الثاني من «طريق القدس»، حين يقول لي مصطفى خليل، الذي أصبح لاحقًا رئيسًا لمجلس الوزراء:

- «أخشى أن يخسر العرب القدس...».

أجيبه:

- «حتى ولو كان الأمر حقيقة، علينا الاعتقاد بعكس ذلك. وإلا خسرنا كل شيء...».

باريس - السبت ٥ تموز/يوليو ١٩٩٧

رئيس جمهورية ساحل العاج هنري كونان بيدييه، هو أول شخص يعلمني، في شقته في فندق «بلازا أتينيه»، بدعمه لانتخابي لمنصب الأمين العام للفرنكفونية:

- «سأكون في نوفمبر، في هانوي، وبإمكانك الاعتماد عليّ».

صوته يشبه صوت هوبويت - بوانيي. يكفي أن أغمض عينيّ لأسمع صوت السياسي «العجوز».

باريس - الثلاثاء ٨ تموز/يوليو ١٩٩٧

كتابي عن الأمم المتحدة يتقدم. أتصل بواسطة الفاكس بجامعة يال حيث يعمل شارلي هيل. الصفحة ٧٠، السطر الثالث، في أعلى الصفحة، اسم شخص كُتب بطريقة مغلوطة - السطر الرابع في أسفل الصفحة، يجب حذف هذه الصفة. إن حجم الصفحات التي أرسلها من أجل تصويب أو حذف أو إضافة بعض الكلمات، يكفي لفصل كامل.

باريس - الأربعاء ٩ تموز/يوليو ١٩٩٧

جاك أتالى منجم للأفكار الفريدة. أستشيره حول عنوان الكتاب الذى أعدّه عن الأمم المتحدة. يعرض علىَّ فوراً اقتراحين لعنوانين: «داخل وخارج الأمم المتحدة»، «الولايات المتحدة فى مواجهة الأمم المتحدة».

تعود صداقتنا إلى عام ١٩٨١. رتّبتُ له حينها مقابلة مع الرئيس السادات. بعد بضعة أيام أُغتيل أنور السادات.

باريس - الأربعاء ١٦ تموز/يوليو ١٩٩٧

يبادرنى ميشال لوسييه، «سفير» كيبيك فى باريس بالقول: «إن انتخابك لمنصب الأمين العام للفرنكفونية أصبح خارج دائرة الشك».

يفيد من لقائنا على الغداء ليعلمنى بسياسة حكومته وهى عضو فى الفرنكفونية. وكونه من طليعة المناضلين من أجل استقلال الكيبيك، يحلم بأن يتحقق هذا المشروع فى أثناء ولايتى:

- «كدنا ننجح فى الاستفتاء الثانى، لكن يجب أن ننجح فى الثالث، وسننجح».

يتكلم باندفاع وحدة: صوت جهورى، فى خدمة قضية يدافع عنها بحماس المقاتل. لقد حذرونى: سيكون علىّ أن أدير العلاقات بين أوتاوا والكيبيك بكثير من المهارة واللباقة.

هامبورج - الخميس ١٧ تموز/يوليو ١٩٩٧

أنوب عن فيديريكو مايور فى الجلسة الافتتاحية لندوة حول التعليم فى هامبورج.

إنه الجو المألوف لهذه المؤتمرات الدولية الكبرى التى تحكُم إيقاع حياتى، منذ عشرين عامًا. إنه بالطبع لشىء مؤثّر أن نسمع دائمًا الأصوات الجهورية نفسها تدافع

عن القضايا نفسها. هل هى عبثية الكلام؟ أم عدم فعالية العمل؟ أم هو قدر يفرضه نظام العالم؟ البروفسور يوهان غالتونغ يثابر على أن يعدد مآخذه على البلدان الصناعية، كما لو أنها المرة الأولى. أستمع إليه بنفس الارتياح الذى لا طائل تحته.

باريس ـ الثلاثاء ٢٢ تموز/يوليو ١٩٩٧

أزور الوزير الفرنسى الجديد شارل جوسلان، المنتدب لشؤون التعاون والفرنكفونية. شعر أبيض، وعينان ملوّنتان تدهشان بصفائهما، وهذه ميزات مألوفة لدى أهل مقاطعة بريتانيا الفرنسية.

أراه حذراً. لقد بدأت فرنسا مرحلة جديدة من المساكنة السياسية، وليس خافيًا على أحد أن قصر الإليزيه هو الذى يدعم ترشيحى لمنصب الأمين العام للفرنكفونية. لا يبدو، أن مهامى كنائب رئيس سابق للاشتراكية الدولية، أو أن الصداقة التى يكنها لى فرنسوا ميتران، كافية لتبديد مخاوفه. على العكس من ذلك: إن مجموعة ليونيل جوسبان تود أن تتمايز عن المقرّبين من الرئيس الاشتراكى السابق.

جوسلان هو الوزير الفرنسى السادس للتعاون الذى تسنّى لى لقاءه. لم ينتج قط عن تلك اللقاءات أى شىء ملموس، فى الفترة التى كنتُ فيها وزير دولة للشؤون الخارجية. هذا مع العلم أنى سعيتُ طيلة سنوات، لتنسيق تعاون فرنسى ـ مصرى فى إفريقيا، ولكن دون جدوى. اليوم يتمثّل هدفى فى التوصل إلى حد أدنى من التنسيق بين التعاون الثنائى الفرنسى، والتعاون المتعدد الأطراف الفرنكفونى.

يسألنى شارل جوسلان:

ـ «كيف تنظر إلى منصب الأمين العام للفرنكفونية؟».

كان بودى أن أجيب:

ـ «كيف تنظرون أنتم إلى هذا المنصب، نظراً لكونكم المموّل الأساسى؟».

إن الميزانية التى تخصصها فرنسا للتعاون الثنائى تفوق كثيرا المبالغ التى تخصصها للفرنكفونية. وهنا يكمن لب المشكلة. من ناحية أخرى، لو كان هناك حد أدنى من التشاور والتنسيق بين الدول المانحة والمنظمات الدولية قبل منح المساعدات، لكانت حال البلدان النامية أفضل بالتأكيد. هذا التنسيق، إذا ما تكثّف، يجنّب تراكم المشاريع الصغيرة، وحتى تضارب المشاريع المتشابهة والتى تخضع لشروط مختلفة والتى، فى كل الأحوال، لا تتمتع بالبعد الشمولى الذى يتيحه تجميع الموارد الأساسية ضمن رؤيا عامة. يجب الاعتراف أيضًا بأن الدول النامية تنزلق باتجاه الطلب إلى عدة مصادر فى وقت واحد، وبأن وزاراتها المختلفة تتنافس بضراوة للحصول على المساعدات والإعانات.

أغادر مكتب وزير التعاون دون أن أعلم كيف ستكون طبيعة العلاقات بين الفرنكفونية والدولة المانحة الرئيسية.

عشاء مع سفير كندا، جاك روا، وزوجته الساحرة، وهى سويدية. إنه رجل شديد اللباقة، متزن، يتكلم بصوت خافت. هو أيضًا، ليس لديه أى شك بانتخابى. حتى أنه يستبق تشكيل مكتبى ويقترح أن يضع بتصرفى دبلوماسى كندى محترف، هو كلود بوشيه. ويردف:

ـ «إنه على استعداد للقائك...». أقاطعه:

ـ «من الأفضل أن ننتظر. أنا أيضًا لدىّ ملء الثقة، ولكن حين يتعلّق الأمر بالانتخاب، فما من شىء مؤكد سلفًا».

باريس ـ الخميس ٢٤ تموز/يوليو ١٩٩٧

لقاء مع أوبير فيدرين فى الكى دورسيه. الإطار مألوف. يبدو أن لا شىء قد تغيّر فى هذا المكتب الذى واظبتُ على زيارته منذ عشرين سنة، بما فى ذلك الطريقة التى نجلس فيها قرب الوزير.

يرافقنى السفير على ماهر. كان مدير مكتبى لأكثر من سبع سنوات. إنه من ألمع

دبلوماسيينا، ويتمتع بمزايا نادرة من الذكاء، والحنكة وحسن التصرف. يأتى هنا باسم الحكومة ليعبّر عن دعم مصر لترشيحى.

التقيت أوبير فيدرين عدة مرات حين كان أمينا عامًا لقصر الإليزيه، ولكنى اكتشفته فعليًا حين قرأت كتابه «عوالم فرنسوا ميتران» الذى أرسله إلىّ مع إهداء إلى نيويورك، وهو تحليل ذكى وموضوعى لسياسة ميتران. دون أية كلمة منفّرة.

باريس ـ الجمعة ٢٥ تموز/يوليو ١٩٩٧

اتصال هاتفى من روما. يسرد لى ستيفانو برادو، المحرّك الأساسى لجمعية التنمية الدولية، لائحة المحاضرات ومختلف الندوات التى علىّ حضورها بصفتى رئيسًا:

ـ «فى الوقت الحاضر علىّ توظيف كل طاقتى فى الحملة التى أقودها من أجل الحصول على منصب الأمين العام للفرنكفونية. ولكن اختاروا شبانًا ناشطين ليتحدثوا عن الجمعية. ستنقصهم الخبرة، ولكنهم بالتأكيد سيقومون بهذا الدور بكل حماس».

«حماس». هذه الكلمة تذكّرنى بكل تأكيد برواية أندريه جيد «الأغذية الدنيوية»: «يا ناتنيال، سوف أعلّمكَ الحماس». أتحرّق دومًا لهذا الحماس نفسه: الحماس للعمل، لاتخاذ القرار، للقيادة.

باريس ـ الاثنين ٢٨ تموز/يوليو ١٩٩٧

غداء فى سفارة مصر. بين الحاضرين لطفى الخولى، وهو مناضل يسارى سُجن أيام حكم عبد الناصر. معرفتنا ببعضنا قديمة وودية. كان مكتبانا فى الطابق ذاته من بناية الأهرام. كنتُ رئيس تحرير مجلة «السياسة الدولية» و «الأهرام الاقتصادى». وهو كان يتولى إدارة مجلة يسارية، «الطليعة». وفى كل مرة كان يلتقينى، لم يكن يتمالك نفسه عن القول:

ـ «أنت تمثّل الرجعية المستنيرة» .

فكنتُ أجيبه دومًا :

ـ «وأنتَ تمثّل اليسار الذى تخطاه الزمن» .

بعد سنوات ، التقيته فى موسكو التى كنت أزورها بصفتى رئيسًا لجمعية الصداقة المصرية ـ السوفيتية . قال لى لطفى الخولى حينها ، وبلهجته الساخرة المحببة إياها :

ـ «لا عجب أن تُكلّف بملف العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى ، الآن وقد ماتت الشيوعية ... » .

اليوم ، فى السفارة المصرية ، يتألق بشكل لافت : «العروبة ماتت ... ووحدة العالم العربى حلم لن يتحقق فى جيلنا» . كلام يثير سفراء دول الخليج المتحلقين حول الطاولة ، فيرددون معزوفة الشعارات الداعية إلى الوحدة العربية . يواجههم لطفى الخولى ، بعنف :

ـ «لا أحد يأخذكم فى الحسبان . أنتم لستم بدول ، وإنما إمارات كرتونية» .

تتصاعد حدة النقاش ، فيتدخل السفير على ماهر . لا أرى حينها مخرجًا لتنفيس الاحتقان وتحويل مسار الحديث ، إلا الإشادة بالطعم الشهى للتحلية التى قُدّمت إلينا ، والكلام عن أسعار ربطات العنق الباهظة الثمن .

باريس ـ الثلاثاء ٢٩ تموز/يوليو ١٩٩٧

هذا المساء ، أعدت قراءة الفصول الخمسة الأخيرة التى صحّحها وأعاد صياغتها شارلى هيل . اللهجة المعادية للأمريكيين بالغة العنف . منتصف الليل فى باريس ، السادسة مساء فى نيويورك . أقرر الاتصال به حالاً . أجده فى مكتبه :

ـ «يجب تخفيف لهجة بعض المقاطع ، وحذف بعض الجمل كليًا ، تلك التى هى أشبه بإعلان حرب على وزارة الخارجية الأمريكية» .

ـ «لا يمكنك أن تتصور كم كانت هذه المجموعة تكرهك، ولا أن تتصوّر كل ما حيك ضدك».

ـ «هذا لا يبرّر عدائية كهذه. خصوصًا وأني لا أضمر لهم أية ضغينة، على الرغم مما أبدوه من حقد. يجب أن ننظر في الأمر معًا، حين تأتي إلى باريس...».

طوكيو، باريس، الأربعاء ٣٠، الخميس ٣١ تموز/يوليو ١٩٩٧

أغادر إلى طوكيو. أكره هذه الرحلات التي لا تنتهي والتي ترهقني. ليس فقط بسبب اختلاف التوقيت، وإنما بسبب هذا الهواء الاصطناعي الذي نتنشقه على مدى اثنتي عشرة ساعة، محصورين في مساحة ضيقة، لا تلبث أن تصبح لا تطاق. الطريقة المثلى هي الامتناع عن شرب الكحول، وتناول وجبات خفيفة، والإكثار من شرب الماء. قرار أتخذه في كل مرة قبل ركوب الطائرة، يظل ساريًا حتى تلك اللحظة المرعبة التي نتبيّن فيها أننا بالكاد أصبحنا في منتصف الطريق، وأن الساعات المتبقية تمر ببطء شديد. إنها بداية الاستسلام. نبدأ بكأس ويسكي، يليه ثان، إلى أن نضعف أمام أطباق اللحمة الدسمة. انحرافات كثيرة ندفع ثمنها في اليومَ التالي، عند الوصول، على الصعيد الجسدي، وكذلك أيضًا على الصعيد النفسي: ليس مستحبًا أن نلاحظ بأننا نفتقر إلى الإرادة.

عند الوصول إلى طوكيو، زيارة تقليدية للمعبد الشينتاوي الذي شُيّد تكريمًا للأميرال هايشاشيرو توغو. في أثناء زيارتي الأولى لليابان كوزير دولة للشؤون الخارجية، تسنّى لي أن ألفت انتباه رئيس الوزراء ياسوهيرو ناكازون إلى الدور الذي لعبته اليابان في تاريخ القومية المصرية في مطلع القرن العشرين. فقد اعتبرت مصر انتصار الأميرال توغو على الأسطول الروسي عام ١٩٠٥، حدثًا مهمًا؛ لأنها رأت فيه رمزًا لانتقام الشعوب المقهورة في إفريقيا وآسيا من القوى الاستعمارية. وقد عبّرت الصحافة المصرية آنذاك، كما عبّرت الأعمال الأدبية، عن النشوة التي فجّرها هذا الانتصار. إلى درجة أن أطفالاً كثيرين ممن وُلدوا في ذلك العام، أُطلق عليهم اسم توغو، تكريمًا لهذا الرجل العظيم.

لقد ألهب «توغو البطل» مخيلتى وأنا طفل، كما فعل هيلاسيلاسى الأول إمبراطور الحبشة بعد عدة سنوات. لا أزال أذكر أنى بكيت حين تم الإعلان عن هزيمته، وحين عبر قناة السويس متجهًا إلى عصبة الأمم للإدلاء بشهادته حول خيانة المجتمع الدولى.

فُوجىء رئيس الوزراء ياسوهيرو ناكازون وأُعجب بتلك المعلومة، فعرض علىّ أن أزور معبد الأميرال توغو. ومذ ذاك اليوم، لا يمكننى زيارة اليابان دون أن أذهب وأخشع فى هذا المزار المقدس. وفى كل مرة، أُدعى لحضور احتفال دينى قصير يترأسه الكاهن الأعظم الشينتاوى. صلاة، يقطعها قرع الصنوج، وتناول بعض كؤوس صغيرة من الساكى.

بعد ذلك، راسلتُ الكاهن الأعظم بشكل متواصل. أرسلتُ إليه كذلك أبياتًا من الشعر قالها شاعرنا الكبير حافظ إبراهيم فى الأميرال توغو. وقد تُرجمت إلى اليابانية، وهى محفوظة بعناية فائقة فى أرشيف المعبد.

كانازاوا ـ الجمعة ١ آب/أغسطس ١٩٩٧

نغادر طوكيو للتوجه إلى كانازاوا، وهى مدينة صغيرة على ضفاف بحر اليابان. علىّ أن ألقى هذا الصباح بالذات خطاب الافتتاح فى احتفال الذكرى العاشرة لـ«الخيمة اليابانية». هذه المؤسسة تجمع، مرة فى السنة، الطلاب الأجانب القدامى والجدد، الذين يتابعون الدراسات العليا فى اليابان.

افتتاح معرض مخصّص لمكافحة الألغام المضادة للأفراد، بحضور العديد من السفراء. أُتيحت لى فرصة افتتاح معرض مماثل فى جنيف حين كنت أمينًا عامًا للأمم المتحدة. ألاحظ باهتمام أن سفير بريطانيا وسفير كندا يتقنان اليابانية. ليس لنا أى سفير مصرى قادر على الشىء نفسه.

كانازاوا ـ السبت ٢ أغسطس / آب ١٩٩٧

خطاب مخصص للحديث عن عمليات حفظ السلام، يتبعه تبادل فى

الآراء، مع القاعة. الجمهور من الشباب المتحمسين الذين أتوا من كل أنحاء العالم.

(فى فترة بعد الظهر ...).

أسجّل مقابلة لمدة ساعة للتلفزيون اليابانى. يتم التصوير فى الهواء الطلق، فى حديقة رائعة. نباتات، شلالات، أحواض تلمع كالبلّور تكسبها حيوية الحركة الدائمة للأسماك ذات الألوان البرّاقة. ليس هذا سوى القسم الأول من هذا التقرير المصور؛ لأن تتمة البرنامج سوف يجرى تصويرها فى باريس والقاهرة حيث سينتقل فريق العمل لاحقًا. لا يمكننى التوقف عن التفكير فى تكلفة هذه العملية. أفاتح أحد الصحفيين بالأمر:

ـ «لماذا لا يعدّ البرنامج بأكمله هنا فى اليابان؟ هكذا تختزل التكاليف إلى أدنى حد».

لا يبدو أن سؤالى أعجب الصحافى، الذى أجابنى بلغة إنجليزية راقية:

ـ «لأننا نصر على تصويرك أثناء إقامتك فى اليابان. أما باقى الوقت، فأنت تعيش فى باريس أو فى القاهرة. علينا إذن أن نذهب أيضًا إلى باريس والقاهرة لأجل مقابلتك».

أفهمنى بألا أشغل بالى بالميزانية؛ لأنه تمّ تدبير كل الأمور.

طوكيو ـ الأحد ٣ آب/أغسطس ١٩٩٧

لدى عودتى إلى طوكيو، ألتقى بسرور، فى فندق «أمبريال»، ياسوشى أكاشى، الذى أشرف على مهمة حفظ السلام فى كمبوديا، وبعد ذلك على العمليات فى البوسنة. وكما يفعل المحاربون القدامى، نسترسل فى الذكريات، وكذلك فى استرجاع الصور والمآسى المحفورة فى ذاكرتنا إلى الأبد.

ياسوشى أكاشى مرذول فى الولايات المتحدة، إذ يعتبرونه مسؤولاً عن هزيمة الأمم المتحدة فى البوسنة. أما فى اليابان فهو بطل قومى؛ لأنه اليابانى الأول

الذى احتل منصبًا بهذه الأهمية. «يا لسخرية العدالة الواهية! الصواب هنا، خطأ هناك».

باريس ـ السبت ٢٢ آب/أغسطس ١٩٩٧

الوزيرة الكندية لشؤون التعاون والفرنكفونية، ديان مارلو، تمر فى باريس، أثناء توجهها فى جولة إلى إفريقيا. لقد تلقّت تعليمات واضحة من رئيس الوزراء جان كريتيان لتقوم بحملة من أجل دعم ترشيحى.

باريس ـ السبت أول أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

قررت أن أراجع بشكل دقيق، مع سيمون دريفوس وهى أستاذة مساعدة سابقة فى كلية الحقوق فى باريس، الترجمة الفرنسية لكتابى «طريق القدس». كنا قد نشرنا سويًا فى السابق، وفى دار نشر «المطبوعات الجامعية الفرنسية» P.U.F كتابًا حول الحركة الإفريقية ـ الآسيوية، وهو استعادة لمحاضرات ألقيتها أمام طلاب الدراسات العليا فى كلية الحقوق فى باريس عام ١٩٦٨. سيمون سيدة مثقفة، تتحلى بالدقة، ولا تتهاون من التمسك بقواعد اللغة.

باريس ـ الأربعاء ٣ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

يصعد السفير على ماهر درجات مدخل قصر الإليزيه إلى جانبى. ندخل مكتب جاك شيراك حيث كان يتواجد كذلك جان ـ دافيد ليفيت مستشار الرئيس للشؤون الدبلوماسية. يبادر الرئيس بالقول:

ـ «إذا كان الكثير من رؤساء الدول قد وافقوا على دعم ترشيحك، فالأمر لا ينطبق على كل وزراء الخارجية. فهم لم يتسلّموا جميعًا طلبًا واضحًا بهذا الشأن، الأمر الذى يُخشى معه أن يتعقّد مشروعنا. أقترح عليك القيام بجولة فى إفريقيا. وإذا لم يحضر الرئيس حسنى مبارك مؤتمر هانوى، يكون من المستحسن أن تمثّله؛

لأن وجودك هناك سيسهّل الأمور ... أنوى الاتصال هاتفيًا بالرئيس مبارك ليضع طائرة بتصرفك من أجل القيام بهذه الجولة فى إفريقيا».

ـ «علىّ أن أذهب إلى الصين، يا حضرة الرئيس، ولكن فور عودتى أتوجّه إلى إفريقيا».

أغادر قصر الإليزيه والشكوك تساورنى. فأنا لا أشارك تمامًا الرئيس الفرنسى فى تفاؤله. أخشى كثيرًا ألا يضع الرئيس حسنى مبارك أبدًا طائرة تحت تصرفى. فقد وجدت صعوبة فى الحصول على ذلك فى أثناء جولاتى الإفريقية حين كنتُ وزيرًا للخارجية. يتولّى على ماهر إعلام القاهرة بما دار فى هذا اللقاء والسعى لتحقيق هذا الطلب.

باريس، بيجين، داليان ـ الجمعة ٥ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

أشعر بالحاجة إلى المواظبة على الذهاب إلى الصين لمحاورة المسؤولين والمثقفين. هذا الأمر يساعدنى على التخفيف من تركيزى على أوربا، وعلى الانخراط فى الحضارة الكونية بشكل أفضل.

داليان هى مدينة تطل على ميناء، وتقع على شاطىء البحر الأصفر، وحسب قول رئيس بلديتها، ستكون منافسة جدية لهونج كونج خلال السنوات القادمة. إنها بكل الأحوال مجهّزة بالبنى التَحتية الضرورية: فنادق فخمة، ملاعب جولف، ناطحات سحاب، مصانع بحرية، جامعات، مراكز أبحاث، مستشفيات.

يضيف رئيس البلدية:

ـ «ساعة طيران واحدة تفصلنا عن سول وعن طوكيو، ولا أشك فى أننا سنستقبل فى السنوات القادمة ما بين أربعة أو خمسة ملايين سائح، وعلى وجه الخصوص من لاعبى الجولف ...».

يُعتبر رئيس بلدية داليان، بو كسيلاى من أهم شخصيات النظام الصاعدة، بفضل ديناميته وكفاياته الإدارية، وأيضًا لأن والده، بو أيبو، كان من رفاق ماو

تسى تونج المقرّبين . إنه قوة طبيعية حقة ، ويتمتع بمظهر خارجى يجعله شبيهًا بممثلى السينما . يعرف ملفاته عن ظهر قلب ، كما يتمتع بحماس مقنع .

أشعر بأعراض داء المفاصل فى ركبتى ، بالإضافة إلى تمزق عضلى يؤلمنى بشدة . أجرّ رجلى وأجد صعوبة كبرى فى صعود السلالم . التواضع هو أحد الدروس الكبرى المستفادة من الشيخوخة والتى يلقننا إياها هذا الجسد الذى يتهاوى .

داليان - السبت ٦ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

أحضر ، وللمرة الأولى ، عرضًا للأزياء ... فى الصين . يعرض المصمّمون الأوربيون والأمريكيون آخر ابتكاراتهم . أقرّ ، بأن هذا الأمر يفاجئنى :

- «وهل لديكم زبائن محليون يشترون كل هذه التصميمات الرائعة؟

يوضح أحد الأدلاء ممن كانوا يرافقونى :

- «إننا نتوجه بشكل أساسى إلى السائحين المستقبليين . والهدف أن نحوّل داليان إلى مركز سياحى دولى» .

(بعد قليل ...) .

زيارة لمتحف الشمع ، برفقة سفير مصر حلمى بدير ، وجوسّى وهبة التى تسهر على راحتى طيلة هذه الرحلة . يتوقف أعضاء الوفد فجأة أمام تمثال لا بد أنى أعرفه ... الأمين العام السابق للأمم المتحدة . لا يتم تعرّف على الأصل بصورة فورية ، ولا أوجه الشبه كذلك . ولكن إذا أمعنّا النظر نجد إنه بالفعل أنا ، مع مسحة صينية . يعرّفونى بالنحّات الذى أهنئه . نلتقط صوراً كثيرة مع التمثال وبدونه ، مع النحّات وبدونه .

بعدها تتم دعوتى إلى احتفال سبق وشاركتُ بمثله فى بلدان كثيرة فى العالم . يُطلب إلىّ زرع شجرة ، وهذا ما أقوم به بسرور . لا أتمالك نفسى من التفكير بكل الأشجار الأخرى التى زرعتها . فى نيودلهى وحدها أتذكر أنى زرعت عدة أشجار ،

ولم أرَ بعدها أية واحدة منها. ربما ضربها الحر الهندى بالبياس. فى المقابل، أعرف أن الشجرة التى زرعتها فى حديقة الحاكم العام فى أوتاوا، تنمو وتكبر.

(فى المساء ...).

حفل استقبال ضخم يقيمه رئيس بلدية داليان. هنا يتخذ الحدث منحى آخر. يأخذونى إلى ملعب جلس على مدرّجاته أكثر من مئة ألف شخص. نشاهد استعراضًا مهيبًا. يُطلب إلىّ أن ألقى خطابًا قصيراً بالإنجليزية. أقطعه تكراراً إفساحًا فى المجال للترجمة إلى الصينية. فجأة يغرق الملعب فى ظلام دامس. عطل كهربائى. رئيس البلدية الجالس بقربى يثور من شدة الغيظ.

أضع يدى على يده بمودة، فى سعى لتهدأته بقدر ما أستطيع:

- «لا تقلق، فهذا النوع من الحوادث يحصل فى كل بلدان العالم. أنا متأكد من أن الانقطاع سيكون قصيراً».

ما كدتُ أنهى كلامى حتى أضاءت المصابيح الملعبَ مجدداً.

إنه لمشهد لا يُنسى، مشهد آلاف الشابات والشبان الذين يرقصون بتناسق تام. إنها طريقة للتعبير بكل فخر واقتناع عن إيمانهم بعظمة الصين، وعن ثقتهم بأن هذا البلد، على الرغم من مصاعبه الاقتصادية، مدعو لأن يصبح أمبراطورية الغد. قناعة أشاطرها معهم. فالصين، بفضل قوتها الذاتية، سوف تلعب دوراً مهمًا فى القضايا العالمية، وسوف تعدّل موازين القوى القائمة حاليًا.

كزى آن - الأحد ٧ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

نغادر إلى كزى آن، جوهرة الصين القديمة. تُذكر هذه المدينة فى بعض المراجع باسمها القديم: شانغ - آن. بوصفها عاصمة لسلالة «التانغ»، حكمت كزى آن الإمبراطورية لأكثر من أحد عشر قرنًا. المدينة محاطة بسور ضخم وبالخنادق. ركبتى تؤلمنى كثيراً، لا أستطيع القيام بالزيارة. ليس أمامى سوى انتظار جوسّى وهبة والسفير حلمى بدير فى السيارة.

(بعد قليل ...).

نقطع مسافة تبعد عن كزى آن حوالى أربعين كيلومتراً، لنشاهد جيش التماثيل الصغيرة. يا للانطباع العجيب والمدهش لدى رؤية هذا الجيش المدفون للإمبراطور العظيم كين شى هوانغدى! أكثر من ستة آلاف مقاتل من الصين، فى حالة تأهب. صحيح أن صور هذا الجيش من الصين انتشرت فى بلاد العالم، ولكن ذلك لا يخفف من انبهارنا أمام هذا المشهد المدهش.

يشرح لى نائب حاكم كزى ـ آن أن الحكومة تخلّت مؤقتًا عن مشروع التنقيب عن قبر الإمبراطور الراقد تحت بناء يبلغ علوّه أربعين مترا، ويسوّره حائط يمتد لكيلومترين. فى المقابل، تنوى الحكومة بناء فنادق جديدة (الفندق الذى نزلنا فيه يضاهى من حيث الفخامة أكبر الفنادق الأمريكية والأوربية) وجعل كزى ـ آن المدينة السياحية الأولى فى الصين، من أجل تمويل عملية نزع الركام عن قبر الإمبراطور وترميمه.

كزى آن ـ الاثنين ٨ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

تُوفى موبوتو. موت «ملك زنجى». أكره هذه العبارة، لما تتضمنه من بعد عنصرى واضح، ولما تحمله من رجْع استعمارى، ولكن يجبَ علىّ أن أقرّ بأنها تلخّص تمامًا صورة الشَخص، الذى عرفته جيداً.

أتذكر احتفالاً غريبًا فى كينشاسا. فرض موبوتو على الجموع المحتشدة فى القاعة الكبرى لقصر المؤتمرات، أن تنشد مجدداً النشيد الوطنى؛ لأنه اعتبر أن الحماس كان ينقصها فى المرة الأولى.

حاول أن يؤسس أمة، أو على الأقل دولة، هى زائير. كان شديد الاقتناع بأنه نجح فى مهمته إلى درجة أنه سعى لقيام حلف ثلاثى يضم بلاده ومصر ونيجيريا، يتولّى تقرير مصير القارة الإفريقية. طلب إلىّ أن أدرس هذا المشروع وأعرضه على الرئيس حسنى مبارك الذى استمع إلىّ مشككًا، دون أن يعطينى أية توجيهات لمتابعة المهمة.

وبوفاة موبوتو، سوف نعيش حرب الثلاثين عامًا، إذا كنا على قدر من التفاؤل، أو حرب المائة عام، إذا غلب علينا التشاؤم.

بيجين ـ الثلاثاء ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

أعود إلى بيجين، إلى دار الضيافة «ديويوتاى» وهو أشبه بمدينة حقيقية، مؤلفة من حوالى عشرين مسكنًا رائعًا، تتوزّع داخل حديقة غنّاء، بين بحيرات اصطناعية. توزّع هذه المساكن على الضيوف وفق هرمية المواقع التى يحتلّونها. مجموعة منها مخصصة لرؤساء الدول، ومجموعة ثانية لرؤساء الحكومات، وثالثة للوزراء. كما أن هناك مساكن أخرى أصغر مساحة يمكنها استيعاب عدة وفود فى وقت واحد.

لقد أقمتُ عدة مرات فى المجموعة الثانية، بوصفى نائبًا لرئيس وزراء مصر، وبعدها كأمين عام للأمم المتحدة. الآن ألتحق بالمجموعة الثالثة التى كنتُ أشغلها حين كنتُ وزير دولة.

وعلى الرغم من تفضيلى لغرف الفنادق، ألحّيتُ على سفير مصر لكى يتدبّر إقامتى فى هذا المكان الذى يبدو كأنه خارج الزمن. لا أملُّ أبدًا من تأمل روعة هذه الحديقة الشاسعة المتعرجة المسالك، والتى يحلو لى أن أتوه فيها، إلى أن تأتى تلك اللحظة المنقذة التى يطل فيها، من وراء أيْكة، ـ كما فى قصص الأطفال ـ البيت المنشود، حيث تنتظرك وجبة طعام شهية.

بيجين ـ الخميس ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

لا تسعفنى الأقدار. فالمدرّج حيث سألقى محاضرتى يقع فى الطابق الثالث من مبنى بلا مصعد. فيما أنا أصعد الدرج تؤلمنى ركبتى كثيرًا إلى حد أخشى معه ألا أستطيع التفوه بكلمة واحدة. أعقد العزم على القيام بالمهمة وأنا فى حالة تعسة. أجيب بعدها عن أسئلة جمهور قليل العدد ولكنه عميق الثقافة، وقد تمحورت حول: الأمم المتحدة، عمليات حفظ السلام، نشر الديمقراطية فى العلاقات

الدولية ... أكرّر الأفكار التى شكلت المحاور الأساسية لخطابى السياسى منذ عدة سنوات، والتى ستبقى كذلك دون شك لسنوات طويلة آتية. ردات فعل الجمهور الصينى تمنحنى بعض العزاء والسلوى.

(فى المساء ...).

عشاء ضمن حلقة ضيقة. يحضره رئيس الوزراء لى بانغ، والسفير لى زاوكسنغ، واثنان من كبار الوجهاء الصينيين، وسفير مصر، وجوسّى وهبة. كان فيديريكو مايور قد طلب إلىّ أن أسلّم لى بانغ رسالة يشرح فيها الأسباب التى دفعت باليونيسكو إلى منح جائزة إلى أحد المنشقّين الصينيين.

وعند بداية العشاء عبّر لى بانغ عن ردة فعله إزاء هذه الرسالة قائلاً:

ـ «آمل ألا يكرّر فيديريكو مايور مثل هذه الغلطة فى المستقبل». الرسالة بغاية الوضوح: «لقد تغاضينا هذه المرة، ولكن لهذه المرة فقط». يوضع حد للمشكلة، ولن نعود لمناقشتها ثانية.

ينتقل لى بانغ للحديث عن موت الأميرة ديانا. ما مدى صحة هذه الشائعة التى تقول بأن الأميرة ودودى الفايد تعرّضا لحادث مدبّر، لمنع زواج الأميرة من بمسلم؟

أشرح له بأنها مقولة محمد الفايد، والد دودى، والذى هو على علاقة متوترة مع الحكومة البريطانية. أما من ناحيتى، فلا أؤمن بنظرية المؤامرة، ولا يعدو الأمر كونه حادث سيارة تافه ومفجع.

خلال إقامتى فى الصين كان لى بانغ الوحيد الذى أثار حادثة الأميرة ديانا. فبينما تعيش أوربا وأمريكا حالة صدمة منذ إعلان تلك الوفاة، يبدو أن الرأى العام الصينى يتجاهل كليًا الحدث. يذهب بنا الأمر إلى الاعتقاد بأن الصين تجهل حتى وجود أوربا نفسها.

أُعلمه بلجنة الخبراء التى شكّلتُها فى اليونيسكو حول موضوع الديمقراطية والتنمية، فيعلّق:

- «على دول العالم الثالث أن تتجنّب اعتماد نماذج الديمقراطية الغربية، إذا ما أرادت أن تحافظ على استقلاليتها، وأن تتطور بشكل منتظم».

نتحدث بعدها عن مشاكل الأمم المتحدة، وإصلاح مجلس الأمن. مما يتيح لي تذكيره بحديثنا بعد القمة الأولى لمجلس الأمن، في ٣١ كانون الثاني ١٩٩٢. أُلمح، وبكثير من اللباقة الدبلوماسية، إلى تشاؤمي إزاء مستقبل الأمم المتحدة. يستمع لي بانغ، ولكن دون أي تعليق.

يشرف العشاء على الانتهاء. أشكر مضيفي بحرارة:

- «لقد تأثرتُ كثيراً بدعوتك، خصوصًا وأننا عشية انعقاد مؤتمر الحزب الشيوعي، كما أني لا أتمتع بأية صفة رسمية».

يتوقف لي بانغ قليلاً قبل أن يجيب:

- «هذا يثبت أننا على درجة عالية من التنظيم، وأن للصداقة لدينا مكانة مرموقة».

باريس - السبت ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

عشاء عند السفير جان دو غلينياستي.

- «إن انتخابك لمنصب الأمين العام للفرنكفونية ليس محسومًا البتة... بعض الوزراء الأفارقة يخوضون معركة ضدك. هذا على الأقل ما يُقال في الكي دورسيه...».

ينتفض السفير علي ماهر. يوضح أن الرئيس حسني مبارك يتدخل شخصيًا في معركتي، وهو ينوي الاتصال بكل رؤساء الدول الأفارقة.

باريس - الاثنين ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

ألتقي شمعون بيريز في اليونيسكو. بعد غداء عمل، نشارك في ندوة برئاسة

جاك ديلور، حول موضوع «تعلُّم العيش معًا». كيف نتحاور مع الغريب، مع العدو، وبعبارات أخرى، مع «الآخر»؟ وبينما يجهد المشاركون لتقديم اقتراحات ملموسة، يختار شمعون بيريز أن يقارب المسألة مقاربة الرائى، من خارج الواقع. هل هو من منظّرى اليوتوبيا إلى هذا الحد؟ أم أن ذلك ليس سوى موقف مدروس يعلنه فى اللقاءات الأكاديمية حيث تُطلق أفكار غير قابلة للتنفيذ؟ يستعيد قصة ذاك الحكيم الذى سُئل عن الفارق بين الحرب والسلم فأجاب: «فى زمن الحرب يدفن الآباء أبناءهم، أما فى زمن السلم فإن الأبناء هم الذين يدفنون آباءهم». كثيراً ما سمعته يردد هذه الحكمة الجميلة. ولفرط ما سمعتها، لم تعد تثير فىّ أى شعور بالتأثر.

باريس ـ الجمعة ١٩ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

لقاء مع شارل بالم، فى أثناء مروره فى باريس. إنه يتولى إدارة «المحفوظات لمعهد هوفر» التابع لجامعة ستانفورد فى الولايات المتحدة. سبق وعهدتُ إليه بكل وثائقى الشخصية. أنوى تسليمه نسخة عن أرشيف عائلتى. الجد المؤرخ ميخائيل شاروبيم، الجد رئيس الوزراء، بطرس باشا. العم واصف، وزير الخارجية. ابن العم ميرّيت، المكلّف بالتفاوض للتوسط بين الكنيسة القبطية الأثيوبية والكنيسة القبطية المصرية، المراسلات بين أعمامى بعد مقتل والدهم. يقول لى:

ـ «أود لو تأتى لترى بنفسك كيف نحفظ أرشيفنا».

باريس، دبلن ـ الأحد ٢١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

نغادر إلى دبلن مع دانيال بواييه. نحن الاثنان عضوان فى مجلس إدارة «المركز الدولى للصحة والتعاون». نلتقى هناك الرئيس، الدكتور كيفن كاهيل وزوجته، اللورد دافيد أوين، اللورد بول هاملين زوجته.

غداء عند أحد مدراء الكلية الملكية للجراحين فى أيرلندا. وعندما شارفت السهرة على الانتهاء، قال لى اللورد دافيد أوين:

ـ «أودّ أن أعبّر لك عن إعجابي بشجاعتك في مواجهة القوة العظمى الأمريكية. أظن أني لو لم أكن منشرحًا هذا المساء، لترددت كثيراً في أن أقول لك ذلك».

دبلن ـ الاثنين ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

محاضرة في مدرّج الجامعة الكبير، حول أحد الموضوعات المفضّلة لديّ: العلاقات بين السلم والديمقراطية والتنمية. يلي مداخلتي نقاش يثير لحسن الحظ اهتمام جمهور يبدو عليه وكأنه ضجر نسبيًا من حديثي. اثنتان من المرشحات الثلاث لرئاسة الجمهورية من بين الحضور وتطلبان أن نلتقط صورة جماعية. إنها مستلزمات المعركة الانتخابية. ستنشر الصورة غداً في الصحف. يبدو أن المرشحة الثالثة هي التي فازت.

باريس ـ الخميس ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

يجمع فيديريكو مايور كل مدراء اليونيسكو ليعلمهم بتشكيل لجنة الخبراء الدوليين حول «الديمقراطية والتنمية». يشدّد طويلاً على أهمية هذه اللجنة، ثم يترك لي الكلام. أغتنمها فرصة للتأكيد على أحد موضوعاتي المفضّلة، وهو الدفع باتجاه علاقات دولية أكثر ديمقراطية. نشر الديمقراطية داخل الدول، على الصعيد الوطني، لم يعد يكفي. يجب كذلك تنشيط ديمقراطية حقيقية على الصعيد الدولي، بنفس القدر الذي يتنامى فيه ارتباط التطور الديمقراطي بظاهرة العولمة الاقتصادية والمالية.

(بعد الظهر ...)

لقاء مع رئيس الوزراء ليونيل جوسبان. كنا قد تعارفنا يوم كان أمينًا للحزب الاشتراكي. يتذكر جيّداً لقاءاتنا السابقة. نثير موضوع القضية الفلسطينية، فيقول:

ـ «خرّب بنيامين نتنياهو مبادرة أوسلو».

وفي سياق آخر، يؤكد أنه «سيفعل ما بوسعه ليساعدني في تنشيط الفرنكفونية،

على الرغم من أن هذا المجال هو فى عهدة رئيس الجمهورية جاك شيراك» . أغادر ماتينيون مرتاحًا . ترك لدىّ رئيس الوزراء انطباعًا بأنه ذكى ومتواضع .

(فى المساء ...)

أتناول العشاء مع آن-مارى ليزان التى قدمت إلىّ العون فى معركتى لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة . تعرض علىّ المساعدة مجدداً . إنها تعرف جيداً منطقة البحيرات الكبرى . إن تدهور الحالة يعود برأيها إلى المنافسة بين الولايات المتحدة وفرنسا ، عبر أجهزة الاستخبارات المتشابكة . وحسب رأيها أيضًا ، إن المسؤولية فى حرب الإبادة فى رواندا تقع على الجنرالات البلجيكيين .

باريس، لومى ـ الاثنين ٢٩ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

لم أحصل بالطبع على الطائرة من الحكومة المصرية . قررت أن تقتصر جولتى الإفريقية على زيارة لعميدى رؤساء الدول الإفريقية الفرنكفونية ، رئيس توغو ، غناسنغبى إياديما ، ورئيس الغابون ، عمر بونغو ، وكذلك على رئيس بنين ماتيو كيريكو ، الذى يدعم ترشيح مواطنه ، الرئيس السابق إميل ـ ديرلان زينسو .

من حيث المبدأ ، لا يمكن أن يكون هناك سوى عميد واحد . ولكن بما أن الآراء ليست متفقة حول تسمية هذا العميد ، سوف أحصل على مباركة ترشيحى من كليهما . عميدان أفضل من عميد واحد .

لدى وصولى إلى لومى ، أقيم فى فندق «٢ فبراير» ، وهو برج كئيب من حوالى عشرين طابقًا . الموكيت مهترىء ، والإهمال مسيطر ، لكن يجب أن نقرّ بأن النزلاء قلائل . أُعطى الجناح رقم ١٧١٩ فى الطابق السابع عشر ، وهو بدون شك الطابق الوحيد المرمّم ، والذى فيه نزلاء .

لومى ـ الثلاثاء ٣٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

اتصال هاتفى من السفير على ماهر يزفّ إلىّ أخباراً سارة . قرّر قصر الإليزيه وقصر ماتينيون توظيف كل إمكاناتهما من أجل دعم ترشيحى .

لومي، كوتونو ـ الأربعاء أول تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

يبدو أن لقائي بالرئيس إياديما كان إيجابيا وبناءً إلى حد بعيد. أعرفه منذ العام ١٩٧٨. لا يتعهّد فقط بمساندة ترشيحي بصفة شخصية، وإنما يأخذ على عاتقه الاتصال برؤساء بنين وبوركينا فاسو والنيجر:

ـ «ترشيحك، اعتبره قضيتي».

أذهب إلى كوتونو بالسيارة، برفقة السفير زكريا رمزي عبد الشهيد. الرحلة ممتعة. على الحدود، يلاقيني السفير المعتمد في كوتونو، محمد نجيب، الذي تكلّف بإكمال المهمة. وفيما أنا أتهيأ لاجتياز الحدود، يأتي من يخبرني بأن رئيس الموقع التوغولي يود لقائي.

تعجّب ممزوج بالسخط من قبل السفيرين الشابين، اللذين يوشكان على رفع راية الحصانة الدبلوماسية. أمنعهما من التدخل. ألتقي إذن هذا الضابط، الذي يسلّم عليّ ويقول:

ـ «كنتُ أخدم في قوات الأمم المتحدة في الصحراء الغربية، حين أتيتَ لزيارتنا، بصفتك أمينًا عامًا. كان ذلك من أروع لحظات حياتي. أود أن أقدّم إليك الشاي أو الكوكا ـ كولا لأعبّر لك عن إعجابي وامتناني».

لا نستطيع بسهولة إخفاء انفعالنا، فنحاول أن نتغلب عليه بالتسليم الحار أحدنا على الآخر. لقد ناضلنا معًا لفرض وقف إطلاق النار، ولبناء السلم. شاءت الأقدار أن تتقاطع مسالكنا مجددًا، في هذه البقعة المنعزلة من إفريقيا، ربما لنتمكن بكل بساطة من إعادة تأكيد تضامننا بصفتنا مناضلين قدماء.

أتابع طريقي برفقة محمد نجيب، أحد الدبلوماسيين الذين عملوا في مكتبي في مصر. هو متألّق، وذكي، وسريع البديهة، درس عند الآباء اليسوعيين الذين أسهموا في تكوين بعض نخبنا المصرية. إنه فرنكفوني متأصّل، متقد الذهن. يقول لي بلهجة واثقة:

ـ «إن الرئيس كيريكو يكنّ لك كل التقدير، ولكنه ملزم بدعم مرشح بلاده، الرئيس إميل ـ ديرلان زينسو، وهو على توافق معه فى الوقت الحاضر».

ليس خافيًا على أحد، بالفعل، أن العلاقات بين الرجلين كانت، فى فترة ما، على شىء من التوتر.

(فى المساء...)

دعا محمد نجيب على العشاء فى السفارة المصرية، رئيس برلمان بنين، وسفيرة فرنسا، وهى امرأة ذكية ولطيفة، وسفير ألمانيا، وسفير روسيا، والعديد من الوزراء. يجرى الكلام على مشاكل إفريقيا الغربية، وعلى دور التوازن الذى تلعبه نيجيريا. فإذا ما كانت فى بحبوحة اقتصادية واستقرار سياسى، فإن كل المنطقة تكون مستقرّة. أما إذا ما واجهت حالة من عدم الاستقرار، فإن كل الدول المجاورة تتأثر بذلك.

مصادفة غريبة. حُجزت لى فى الفندق الغرفة نفسها التى أقمتُ فيها عام ١٩٩٥، حين أتيت لحضور القمة الفرنكفونية السادسة. صديقى جان-بيار بيرونسيل ـ هوغوز، الصحافى فى جريدة لوموند، سرّب حينها خبرًا شكّل لى إزعاجًا كبيرًا، مفاده أنى سأكون الأمين العام المقبل للفرنكفونية. قلتُ له ممتعضًا:

ـ «هذا يعنى أنه ليس فى نيتى السعى إلى ولاية ثانية فى الأمم المتحدة...»

فردّ على الفور:

ـ «لقد صرّحت غداة انتخابك فى الأمم المتحدة، بأنك لن تشغل المنصب إلا لولاية واحدة».

ـ «هذا صحيح، ولكن حصل أن بدّلتُ رأيى. وليس إلا الحمقى من لا يغيّرون رأيهم».

كنتُ أجهل فى تلك اللحظة أن الدبلوماسية الأمريكية سوف تبنى كل مخططها لمنع إعادة انتخابى، على التذرّع تحديدًا بما صرّحته حول رغبتى فى ولاية واحدة فقط.

فى هذه الغرفة أيضًا، وبغاية السرّية، قمتُ بمفاوضات طويلة وصعبة مع مبعوثين من نيجيريا، من أجل تحرير الرئيس أولوسيغون اوباسنجو، ولكن دون نجاح.

كوتونو ـ الخميس ٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

الرسالة التى أنقلها إلى رئيس الوزراء، أدريان هونغبيدجى، الذى أقابله فى الصباح، واضحة:

ـ «لا أريد للمنافسة القائمة بينى وبين الرئيس زينسو، أن تسيىء بأية طريقة إلى العلاقات الجيدة بين بنين ومصر. إنى أحترم جداً الرئيس زينسو. وإذا ما انتُخب أمينًا عامًا للفرنكفونية، سأكون أول من يهنّئه. وإذا تم انتخابى، لا أشك بأنه سيكون هو أول من يهنئنى».

لا يشاطرنى الرئيس ماتيو كيريكو الذى ألتقيه بعد ذلك مباشرة، طريقة مقاربتى للموضوع. يستمع إلىّ، يشكرنى على الثقة التى أضعها به، ثم يضيف:

ـ «يجب أن تتوافق مع الرئيس زينسو لتجنب الوصول إلى التصويت فى أثناء القمة، فى هانوى. لا تثق بوعود رؤساء الدول. من الصعب عليهم أن يتفقوا على مرشح واحد، ويخشى أن يؤجّلوا قرار الانتخاب إلى القمة المقبلة...

لومى ـ الجمعة ٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

أُعلم الرئيس إياديما بمضمون محادثتى إلى الرئيس كيريكو. بعكس نظيره البنينى، ليس من رأيه أن ألتقى الرئيس زينسو. يؤكد لى مرة أخرى أنه سيدعم ترشيحى لدى رؤساء الدول الأفارقة الآخرين.

ليبرفيل ـ السبت ٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

الوصول إلى ليبرفيل حيث تستقبلنى سفيرتنا سهام رحمى. إنها المرة الأولى التى

تحتل فيها مركز رئيس بعثة . إنها فى ليبرفيل منذ مدة قصيرة ولم تقدّم بعد أوراق اعتمادها . لحسن الحظ ، يساعد هذه المبتدئة المفعمة بالإرادة الحسنة ، مستشار يحسن التصرف ، ذكى ومثقف ، يشغل منصبه فى ليبرفيل منذ أربع سنوات .

هذه السفيرة التى تعتبر زيارتى أهم حدث فى مسيرتها الوظيفية ، تعرض علىّ الخطاب الذى تعتزم إلقاءه هذا المساء ، خلال عشاء تقيمه بحضور السلك الدبلوماسى والوزراء الغابونيين . أحاول أن أشرح لها أن هذا النص يسيئ لى أكثر مما يفيدنى . فأقول :

ـ «يجب أن يتمحور الكلام حول العلاقات بين الغابون ومصر ، وبين الرئيسين عمر بونغو وحسنى مبارك ، وأن تكتفى بإشارة عابرة إلى موضوع ترشيحى لمنصب الأمين العام للفرنكفونية» .

نقوم معًا بتعديل الخطاب .

يجرى العشاء بصورة ممتازة . خطاب السفيرة . أعلم لاحقًا أنها المرة الأولى التى تقوم فيها بمثل هذه المهمة . بالطبع هى مرتعبة ، ومتشنّجة ، ومرتبكة . ولكون مهنة التدريس بقيت تطبع شخصيتى ، لم أتمالك نفسى من مشاطرتها القلق . وحين يعلو التصفيق لدى انتهائها من إلقاء كلمتها ، يخالجنى شعور بالارتياح يوازى شعورها على الأقل .

يخبرنى سفير كندا عن التحركات التى يقودها رئيس الوزراء جان كريتيان تسهيلاً لانتخابى ، ويقترح علىّ أن أتصل به هاتفيًا لشكره .

ليبرفيل ـ الثلاثاء ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

دار لقائى مع الرئيس عمر بونغو فى جو صريح وودّى :

ـ «سيدى الرئيس ، لقد ساعدتنى فى انتخابى لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة عام ١٩٩١ . أطلب اليوم مساندتك فى انتخابى لمنصب الأمين العام للفرنكفونية» .

يستمع عمر بونغو إلىّ بصمت كلّى ، ثم يقول :

ـ «لم تعيّن أى غابونى طيلة ولايتك فى الأمم المتحدة».

ـ «لقد عيّنتُ حوالى عشرة أفارقة فى أعلى مراكز المسؤولية».

ـ «الأفارقة شيء، والغابونيون شيء آخر!».

ينتقل الحديث فى الوقت المناسب إلى الأزمة الكونغولية. يحيطنى عمر بونغو علمًا بالوساطة التى يقودها بين باسكال ليسّوبا ودنيس ساسو نغيسّو.

غادرت ليبرفيل فى الحادية عشرة ليلاً، دون أن أنسى توصية السفراء العرب المعتمدين فى العاصمة الغابونية، خيراً بسفيرتنا وبأن يشملوها برعايتهم باعتبارها ابنة لهم.

لقد فكّرتُ دائمًا بوجوب فتح باب المسؤولية واسعًا أمام النساء فى مختلف القطاعات الفاعلة، لأن لدىّ القناعة بأن تحرّر المرأة المصرية يمكن أن يشكّل حاجزاً صلبًا فى وجه الأصولية الإسلامية. حين بدأتُ التدريس فى قسم العلوم السياسية فى جامعة القاهرة، عام ١٩٤٩، لم يكن بين أفراد الهيئة التعليمية أية امرأة. ولما تركتُ هذا المنصب، عام ١٩٧٧، كانت النساء يشكّلن الأغلبية. تابعتُ هذه السياسة فى وزارة الخارجية، وبعدها فى الأمم المتحدة.

ليبرفيل، باريس ـ الأربعاء ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

أصل إلى باريس منهك القوى...

(فى نهاية فترة ما بعد الظهر...).

لقاء مع برنار بيفو فى بار فندق البلازا أتينيه. لا يبدو أن الزمن يفعل فعله فى هذا المكان الذى أنجذب إليه بصورة خاصة. هذه الاستمرارية تمنحنى شعوراً بالأمان. أتوهم أن هذا التوقف للزمن يطالنى أنا أيضًا، فيخفّ عبء السنين فجأة.

وهدف هذا اللقاء هو التمهيد لمشاركتى فى برنامج «حساء الثقافة». سأقدّم فيه عرضًا لكتابى «طريق القدس»، فيما يتولّى يوسف شاهين تقديم فيلمه الأخير «المصير».

قيل لى إن برنار بيفو، وهو من كبار اختصاصيي الأدب، لا يستسيغ كثيراً النقاش السياسى. المقابلة شيّقة. برنار بيفو يتحلّى بفضول طفل ناضج، وبتواضع مراهق عاقل.

باريس ـ الخميس ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

أشاهد لوحدى عرض فيلم يوسف شاهين. أتاثر حتى أكاد أذرف الدمع. تصوير سينمائى للصراع بين قوى التقدم والأصولية الإسلامية، بين حب الحياة والظلامية. فى وجه المتطرفين الذين يريدون النظر إلى الإسلام الأصولى على أنه الدواء لكل العلل، يرد أبطال يوسف شاهين بالموسيقى والغناء والرقص، أى ببهجة الحياة. الموسيقى والغناء والرقص يدفعون بالجهالة إلى داخل حدود معقلها: عالم الظلمة.

باريس ـ الجمعة ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

مشاركة فى البرنامج التلفزيونى Bouillon de culture مع يوسف شاهين. بقدر ما أثّر فىّ فيلمه، خاب أملى فى أدائه هذه الأمسية. لقد اختار التطرّف. يلعب لعبة التحدّى، لعبة المناضل اليسارى الرافض، فيهاجم مرات عديدة الحكومة المصرية. حين التقينا قبل البث، أحسستُ بأنه كثير التوتر. كان يخشى أن يتأثر أداؤه بسبب ضعف سمعه. ما إن بدأ النقاش، حتى رأيته يتحمّس إلى حد الإثارة. وبذلت وسعى لتحاشى الانجرار إلى لعبته. تحاشيت بلباقة المواجهة التى يبدو أنه أراد أن يقودنى إليها. ألعب، أنا أيضًا، دور العجوز السبعينى الذى يتحمّل بابتسامة راضية ـ «دبلوماسية» كما يقول بيفو ـ تهريج التلميذ الطائش، وهو الدور الذى لعبه يوسف شاهين، والذى أحسده عليه. بإمكانه، هو، أن ينتقد الحكومة المصرية. أما أنا فواجب التحفّظ يمنعنى من ذلك.

باريس ـ السبت ١١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

محادثة مع رئيس السنغال عبده ضيوف، وبعدها بقليل، مع رئيس وزراء كندا، جان كريتيان. كلاهما يدعمان ترشيحى للمنظمة الفرنكفونية.

باريس ـ الثلاثاء ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

طاولة مستديرة على القناة الأولى للتلفزيون الفرنسى، مع السفير الإسرائيلى، آفى بازنر، والحاخام الأكبر لفرنسا، جوزف سيتروك، وسفيرة فلسطين المتألقة والساحرة ليلى شهيد. بين الثلاثة، أبدو الأكثر حدّة. يصعب علىّ السيطرة على انفعالى حين يدور الكلام حول القضية الفلسطينية. أفقد الاعتدال الذى يتوقعه الناس من مشارك فى هذا النوع من النقاشات. واجب التحفظ ينهار فجأة!

مليونا لاجىء محكوم عليهم بأن يتعفّنوا فى المخيمات منذ جيلين أو ثلاثة! تطهير عرقى يُلام عليه اليوم الصرب والكرواتيون، بينما يغلفه الصمت حين يرتكبه الإسرائيليون! عشرات القرى المجروفة بأكملها! كل ذلك وسط اللامبالاة الشاملة، كى لا نقول مع تواطؤ المجتمع الدولى. وكيف لا نثور؟

السفيرة الرائعة لفلسطين، والحاخام الأكبر يتحليان بالهدوء ويعالجان المشكلة بصفاء كامل. ومع ذلك، هما أكثر المعنيين بالموضوع.

باريس ـ الخميس ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

استقبال فى فندق بريستول يقيمه جان ـ لوك لاغاردير للاحتفال بصدور كتابى «طريق القدس». يلقى كلود دوران خطابًا رائعًا:

ـ «أسمى آيات الشكر إلى كل من قدم إلينا، ودون قصد منهم ربما، هدية أن نحسبك منا، هنا فى فرنسا، أى فى بلدك. أنت اليوم فى بلدك، وستبقى كذلك فى أى مكان تُقال فيه كلمات الحرية والثقافة، على النحو الذى تلفّظتُ به منذ لحظات...».

كلام لم أكن أتوقعه، فأرتجل جوابًا دون المستوى، ميزته أنه لم يعلق كثيراً فى الأذهان.

باريس، القاهرة ـ الجمعة ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

شوارع القاهرة مقفرة، إلا أنها مألوفة بالنسبة إلىّ، إلى درجة أنه لدى انطباعًا بأنى لم أغادرها قط، وأنى لا أعيش فى باريس إلا بالوهم.

القاهرة ـ الاثنين ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

الرئيس حسنى مبارك مقتنع بانتخابى إلى حد أننا لم نتداول فى هذا الموضوع إلا بصورة مقتضبة جدًا فى أثناء لقائنا هذا الصباح. فى المقابل، يكلّمنى مطوّلاً عن الأزمة الفلسطينية، وعن دور نتنياهو السيئ.

(بعد الظهر ...).

استكمال التصوير الذى بدأ فى طوكيو، مع الصحافى الكبير هاتسوهيزا تاكاشيما الذى أتى لأخذ لقطات فى منزلى، وفى الكنيسة البطرسية المشيّدة إحياء لذكرى جدّى.

القاهرة ـ الثلاثاء ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

ألتقى روبير سولى، برفقة مجموعة من قرّاء جريدة لوموند، تقوم بزيارة منظّمة إلى مصر. طلب إلىّ إعطاء محاضرة حول السياسة الخارجية لمصر، يعقبها نقاش. أقل ما يُقال بأن مكان المحاضرة غير اعتيادى، لكنه ممتع، لأننا اجتمعنا فى إحدى قاعات «الباشا» الكبرى، وهو مركب ـ مطعم يرسو على ضفاف النيل.

القاهرة ـ الخميس ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٧

لقاء مع رئيس الوزراء كمال الجنزورى. إنه رجل معقّد، وميّال إلى الإمساك

بكل نشاطات البلد. علاقته بابن أخي يوسف ليست على ما يرام. اتفقت مع يوسف على أن ينضمّ إلينا خلال اللقاء في محاولة مني لتحسين العلاقات. لست مقتنعًا بأن هذا اللقاء الثلاثي قد ساهم في تحسين وضع يوسف.

القاهرة ـ السبت أول تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٧

يستقبلني شيخ الأزهر في منزله، وهو أعلى سلطة إسلامية في مصر، والرئيس الروحي لإحدى أعرق الجامعات المصرية. يسكن في شقة متواضعة، في الطابق الخامس من مبنى ليس فيه مصعد. أشرع، مع صديقي علي السمّان، بصعود درج ضيق، إنارته سيئة. أصل منهكًا إلى المكان المنشود للحصول على بركة الشيخ، وللاستماع إلى مديحه.

القاهرة ـ الأحد ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٧

ألتقي ابن أول رئيس جمهورية لغانا بعد الاستقلال عام ١٩٥٧، كوامي نكروماه. إنه صحافي في «الأهرام ويكلي»، وهي أسبوعية تصدر بالإنجليزية عن جريدة الأهرام. والدته مصرية. يبدو أن الوليّ الذي كان يستشيره نكروماه هو الذي أوحى لوالده بفكرة الزواج بمصرية. وقد بارك الرئيس عبد الناصر بنفسه هذا العقد والتقى بالزوجة العتيدة قبل رحيلها إلى أكرا.

ذهبتُ للقائها في أكرا في أثناء زيارة رسمية لغانا، وكانت تشكو معاملة حكومة جيري رولينغس، التي كانت تخصّص لها تعويضات غير كافية. بالإضافة إلى ذلك، كان الرئيس عبد الناصر قد وهبها فيللا على النيل، في ضاحية المعادي، ولكنها لم تكن تملك أية أوراق تثبت ملكيتها.

أتحاشى طرح الكثير من الأسئلة على ابنها مخافة إيقاظ التظلّمات القديمة. أكتفي بالاطمئنان عن صحة والدته.

(بعد قليل ...).

نقاش فى أحد مدرّجات مبنى «الأهرام» مع قرّاء «طريق القدس» الذى لاقى نجاحًا كبيرًا فى مصر والعالم العربى.

أتعرّض لانتقادات جنرال مصرى يلومنى على قولى إن الرئيس السادات اختار العالم الغربى. يوجّه اتهامه إلى ثقافتى الفرنسية، المسؤولة بنظره عن هذه الرؤية المجتزأة للواقع. أواجهه بأنه يجهل على ما يبدو وجود مجموعة متميزة من المثقفين المصريين تعمل للانفتاح على العالم الغربى. أذكّره بقول الخديو إسماعيل: «حلمى أن تصبح مصر يومًا جزءًا من أوربا». أستشهد أخيرًا بصفوة الكُتّاب المصريين من أمثال: طه حسين، وقاسم أمين، ومحمد حسنين هيكل، وسلامة موسى، وتوفيق الحكيم، وحسين فوزى الذين رأوا أن مستقبل الثقافة المصرية محكوم بالانفتاح على الغرب.

جهد ضائع. فالجنرال يتمسّك بمواقفه.

القاهرة ـ الاثنين ٣ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٧

حديث فى موضوعات مختلفة مع مجموعة من المثقفين المسلمين الليبراليين قالوا لى: «إن العالم العربى الإسلامى يواجه أزمة، وحكوماتنا تخطاها الزمن. الأصوليون يتعاملون مع المسلمين الليبراليين بطريقة أعنف من تلك التى يتعاملون بها مع غير المسلمين (الأقباط). ينعتونهم بالكافرين والمجدّفين. يكفى النظر إلى الفتوى التى أصدرها الخمينى ضد سلمان رشدى، وإلى اغتيال المفكر الليبرالى فرج فودة فى مصر الجديدة، وإلى محاولة اغتيال نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل، أو إلى إرغام نصر حامد أبو زيد، هذا الأستاذ الجامعى المتهم بالهرطقة، على تطليق زوجته مما اضطره لمغادرة بلده لإنقاذ زواجه بمسلمة. إن الإسلام الليبرالى، الإسلام المعتدل فى خطر».

«اغتيالات، أعمال عنف وعدم تسامح، تفاوت بين الطبقات الاجتماعية، إخضاع المرأة: أزمات عديدة كامنة تنهش مجتمعنا وتحول دون دخوله فى الحداثة. حكوماتنا ضعيفة جدًا، ترفض الغوص فى عمق المشكلة، وهى غير قادرة على

صياغة خطاب سياسي يدعو إلى إصلاح الإسلام وتحديثه. مع العلم أن الفكر الإصلاحي موجود منذ أكثر من مائة عام. يكفي الرجوع إلى كتابات محمد عبده وعلى عبد الرازق فى مطلع القرن، أو إلى ما كتبه فرج فودة بعد ذاك التاريخ بحوالى خمسين سنة. لا عجب أن يرفض الأصوليون هذا الفكر، ولكنه لأمر مثير ألا تقوم السلطات الحاكمة بدعمه. يجهد الحكام للدخول فى الحداثة على المستوى الاقتصادى، فيما هم يسلّمون بنظرة الأصوليين على المستوى الاجتماعى. يقومون بالطبع بإلقاء القبض على بعض الأصوليين الناشطين، لكنهم فى الوقت نفسه يسمحون بانتشار الرموز الفاقعة للأصولية، متوهمين السيطرة عليها. هذا التناقض الدائم بين الحداثة والأصولية هو سبب تأخرنا. إننا نشهد تراجعًا ملحوظًا فى استقلالية القضاء - المستند على قانون مستوحى من تشريع نابليون، رمز الحداثة - بسبب التهديد المتزايد الذى تشكّله الشريعة».

نواصل النقاش حتى ساعة متأخرة من تلك الأمسية. لاحظتُ أن معظم المتكلمين المفوّهين أصبح يمتنع عن شرب الكحول. يبدو أن عدوى الأصولية أصابت حتى الليبراليين، وأنهم انصاعوا إلى مراعاة شكلياتها!...

القاهرة - تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٧

بدعوة من محاميّ عادل كامل، أتوجه إلى مكاتب «جمعية التوفيق» التى يرأسها. هذه الجمعية الخيرية التى أسسها جدى لوالدتى، تقوم بنشاطات متنوعة: المساعدات المدرسية، أعمال البر والإحسان، ولديها قسم يهتم بالمراسم الجنائزية.

إن كلمة «انحطاط» تفرض نفسها هنا، بكل مدلولاتها الغنية: متوسط العمر المرتفع لأعضاء مجلس الإدارة، الأبنية التى عفا عليها الزمن، الجُدرُ التى تصارع للصمود. لقد بدد الزمن وغباره مجد هذه المؤسسة المحترمة بينما عين جدى الذى تزين صورة الجدار تنظر إلى ذلك باستياء.

كأن عادل كامل قرأ ما يجول فى خاطرى:

«أسعى لأن أجدّد كل هذا، ولكن الأمر صعب. كان لهذه المؤسسة مبرر لوجودها منذ مائة عام، أما اليوم فقد تخطّاها الزمن كليًا. أضفْ إلى ذلك النزاعات بين قدامى إدارييها، هذا عدا الصعوبات التى تواجهها مع الحكومة المصرية. الجيل الجديد من وجهاء الأقباط لم يعد يهتم بالأعمال الخيرية. ولكن ذلك لا يسبب لنا مشكلة مالية، فقسم المراسم الجنائزية يؤمن لنا دخلاً ثابتًا ومعقولاً. بكل حال، نحن ننتظر عودتك بفارغ الصبر لتضع الأمور فى نصابها».

ترعبنى هذه الفكرة، فأقول له بصوت خافت:

«إنكم بحاجة إلى خبير فى الآثار، وليس إلى إدارى».

يعلن عادل كامل، وبدون أى ارتباك، أمام أعضاء الجمعية:

«كان الدكتور بطرس غالى يعبّر لى عن إعجابه بمؤسستنا المحترمة. أدعوه الآن للتوقيع على كتابنا الذهبى، وأقترح عليكم أن نسمّيه رئيس شرف للجمعية».

الإسكندرية ـ الأربعاء ٥ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٧

أغادر إلى الإسكندرية مع أحمد القشيرى رئيس جامعة سنغور. ندعو محافظ الإسكندرية إلى زيارة الجامعة القائمة فى الطابق الرابع من مبنى حديث، يُطلق عليه اسم برج القطن. تتوالى الأيام ولا تتشابه. البارحة فى القاهرة كانت صورة الانحطاط، واليوم فى الإسكندرية صورة الحداثة. أبنية منفرجة، معدّة للاستخدام بصورة مدروسة، أجهزة الحاسوب فى كل مكان، ومنظر بانورامى يطل على خليج الإسكندرية. تمثال نصفى لسنغور يتصدر بكل مهابة مكتب رئيس الجامعة. يغادر المحافظ منشرحًا لزيارته. أتناول الغداء فى كافتيريا الطلاب قبل أن أعود أدراجى إلى القاهرة. نسلك «طريق الصحراء»، وهى تسمية غريبة؛ لأن الاخضرار يغطّى المشهد على جانبى الطريق.

باريس ـ الاثنين ١٠ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٧

جاك شيراك متفائل. نقوم معًا بتقويم للموقف قبل أيام من قمة هانوى. يحيطنى علمًا بالاتصالات التى أجراها. «ستكون الأمور على ما يرام».

باريس، هانوى ـ الأربعاء ١٢ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٧

فى الطائرة المتوجهة إلى هانوى، ألتقى بالرئيس هنرى كونان بيديه وأعبّر له عن احترامى. لستُ فى هذه اللحظة سوى رئيس للبعثة المصرية، وبهذه الصفة أمثّل الرئيس حسنى مبارك الذى لن يحضر القمة.

هانوى ـ الجمعة ١٤ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٧

اليوم، أبلغ الخامسة والسبعين من عمرى. تتصل سيلفانا فو من تل أبيب، وقد كانت الناطقة باسمى فى الأمم المتحدة، وخاضت صراعًا مريرًا مع المدعو جيمس ب. روبان، الناطق باسم مادلين ألبرايت.

فيما هى تكلمنى، يمر فى خاطرى الوعد بتنظيم استقبال فى الأمم المتحدة عند بلوغى الخامسة والسبعين، فى نهاية السنة الإضافية التى كانت الإدارة الأمريكية ستمنحنى إياها على سبيل «البقشيش». وقد أضاف وارن كريستوفر حينها بصوته المتهدّج: «وستحظى باستقبال فى البيت الأبيض».

هذا المساء، عشاء كبير فى هانوى. لا أقل من مائة ضيف على الطاولة. يخبرنى وزير خارجية رواندا، الجالس إلى جانبى، بأن بلاده تؤيد ترشيحى. هل بطل اعتبارى المتواطىء السلبى مع «مرتكبى المجازر الجماعية»؟

هانوى ـ السبت ١٥ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٧

جلسة افتتاحية احتفالية للقمة السابعة لرؤساء الدول والحكومات. نأخذ أماكننا على المنصة. أمازح الجالس بقربى، رئيس وزراء كمبوديا سامداش هون سان، الذى يجلس بقرب رئيس الوزراء الآخر لكمبوديا، الأمير نورودوم راناريد:

«أنتم البلد الوحيد الذى له مقعدان. هذا لا يتلاءم مع مبدأ المساواة بين الدول».

يلفت هون سان انتباهى إلى أن حضور أمينين عامين سابقين للأمم المتحدة يعوّض التمثيل المزدوج لكمبوديا. بالفعل، سيتحدث بيريز دو كويار باسم الأمم المتحدة، لأن كوفى أنان لم يتكلّف عناء السفر.

ينتهى اليوم الأول للقمة حوالى الساعة السابعة مساء. أذهب إلى غرفتى حيث تنهال علىّ الاتصالات الهاتفية من الصحافة الدولية التى تود معرفة الانطباعات الأولى للأمين العام المقبل للمنظمة الفرنكفونية.

يمسك الألم الشديد بركبتى مجدداً، وتتورّم كالبطيخة. أتنقل بصعوبة. آمل أن أتمكن من الحفاظ على المظاهر خلال تنصيبى غداً.

هانوى ـ الأحد ١٦ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٧

بسبب الترتيب الأبجدى الذى يتم على أساسه توزيع المقاعد حول طاولة المؤتمر على رؤساء الدول والحكومات، تأخذ مصر مكانها دائمًا إلى جانب فرنسا. فى أثناء قمة كيبيك عام ١٩٨٧، جلستُ إلى جانب فرنسوا ميتران، الذى سألنى بعد أن تفحّصنى بفضول:

ـ «كم تبلغ من العمر؟».

ـ «خمس وستون سنة».

ـ «إنى لا أزيدك سوى بخمس سنوات، ويبدو علىّ كأنى والدك».

مرّت عشر سنوات، ومع ذلك أحسّ بأنى أكثر شبابًا من يوم كنتُ فى كيبيك. أيعود ذلك إلى حضور جاك شيراك إلى جانبى وهو ينضح بالحيوية؟ ينحنى صوبى ويسرّ فى أذنى:

«أصبحت قضيتك منتهية تمامًا».

فى نفس الوقت، يقول لى السفير سمير صفوت الجالس ورائى، إن علىّ

أن أغـادر القاعـة؛ لأن رؤسـاء الدول والحكومـات سيـقدمون بانتخاب الأمـين العام.

أهو التأثر، أم إنها الصدف التعيسة؟ تؤلمنى رجلى إلى درجة أنه على أن أبذل جهوداً جبارة لكى أتمكن من الوقوف. واضح للجميع أنى أجد صعوبة فى السير، مما يضطر ضـابطين فيتنامـيين لمساعـدتى كى أتمكن من مغـادرة القـاعـة. تنهـال التعليقات: «يبلغ خمسًا وسبعين من العمر، وهو مقعد بسبب داء المفاصل، ولا يزال يتمسك بالسلطة ...».

أرتاح فى البهو قليلاً، بينما ينظر إلىّ الضـابطين بتعـاطف. يتصبب العرق من جبينى. وبعد لحظات، يصل ضجيج التصفيق فى القاعة إلى مسامعى. لقد انتُخبت بالإجماع.

يجب علىّ العـودة من حيث أتيت. أتحـاشى، قـدر المسـتطاع، أن أعـرج فى مشيتى. فتتناولنى ألسنة السوء بقولها إن انتخابى كان وراء معجزة شفائى من نوبة الألم التى أصابتنى فى ركبتى.

أقرأ الخطاب الذى أعددته فى باريس. ثـم أطلب من جاك شـيراك أن أستشـير طبيبه الخاص، الذى يصف لى أقراصًا ومرهمًا مضاداً للالتهابات، وينصحنى بقوة بأن أستشير طبيبًا اختصاصيًا فور عودتى إلى باريس.

لم تنته مهمتى. كـان مقرراً أن أعـقد مؤتمراً صحـافيًا، وأن أرأس المجلس الدائم للفـرنكفوَنيـة، الذى عليـه أن يسـمّى المرشـح الوحـيـد لمنصب المدير العـام للوكـالة الفرنكفونية، وهو البلجيكى روجيه دوهيب.

كـان قد أتى لزيارتى فى القـاهرة عـام ١٩٨٩، طالبًا تـأييد مصر لترشيحه لمنصب الأمـين العـام لوكـالة التعـاون الثـقـافى والفنى، فى وقت كـانت كل مـؤسـسـة من المؤسسات التابعة للمنظمة الفرنكفونية تعمل باستقلالية تامة. التقيت كذلك مرشح كندا ـ كيبيك، جان ـ لوى روا. استعلمت من المستشـار المكلّف بملف الفرنكفونية عـمن يكون البلد الذى يدفع مسـاهمـة مـاليـة أكبـر من بلجيكا أم الكيـبيك. أتى

الجواب: الكيبيك. وعلى أى حال كان جان ـ لوى روا قد ترك لدىّ انطباعًا أفضل من روجيه دوهيب. أعطيتُ إذن التعليمات لكى تصوت مصر لصالح مرشح كيبيك، الذى انتُخب عام ١٩٨٩.

أنا فى حالة صحية لا تسمح لى بالمشاركة فى المؤتمر الصحافى، مما فسّرته جريدتى «الفيجارو» و«لوموند» على أنه موقف أعبر فيه عن استيائى لأن «إفريقيا لم تبدِ حماسًا كبيرًا لانتخابى».

ولما تكلمتُ لاحقًا عن هذا الموضوع مع فرانز ـ أوليفييه جيسبار وروبير سولى، قدما إلىّ نفس التفسير. لقد انتظرك الصحافيون ولم تأتِ، حتى أنك لم تعتذر. ثم أضافا: إن الأمر أصبح وراءنا الآن...

هانوى، باريس ـ الاثنين ١٧ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٧

أغادر إلى باريس. فى أثناء توقف الطائرة فى بانكوك، يصلنى خبر اغتيال سائحين سويسريين ويابانيين فى الأقصر. أشعر بالتحطّم. وتنهار دفعة واحدة كل النعم التى ساقها إلىّ القدر بسخاء فى الأيام الماضية.

أشعر فى أعماقى بقلق مصر. لن تتحوّل مصر أبدًا إلى إيران أخرى أو جزائر أخرى. أنا متأكد من ذلك. ولكنه جزء من الاقتصاد المصرى ينهار اليوم. فالسياحة تدرّ فعليًا على مصر أكثر من مليار دولار فى السنة. ويجب الانتظار أشهرًا طويلة قبل أن تعاود نشاطها.

يضطر أخى رؤوف الذى يرأس وكالة سياحية كبيرة، إلى بيع إحدى بواخره التى يسيّرها على النيل؛ لينجو من الإفلاس. هذه الحالة التعسة أصبحت شاملة. من حرب الخليج إلى إرهاب الأصوليين، تدفع السياحة المصرية بشكل متواصل ضريبة قاسية.

باريس ـ الأربعاء ١٩ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٧

تصادف اليوم الذكرى العشرين لزيارة الرئيس السادات إلى القدس، وهو الحدث الأهم فى حياتى السياسية والدبلوماسية.

اليوم، سأخشع وأصلى من أجل السادات الذى اغتاله أحد المتعصّبين، كما أُغتيل جدى عام ١٩١٠. السادات، مثل موسى، لم يشاهد الأرض الموعودة. لقد تُوفى قبل استرجاع سيناء، هذه الأرض المقدسة التى دفع جنود مصريون كثر حياتهم ثمنًا للدفاع عنها.

لقد تعرّفتُ على أنور السادات فى الخمسينيات، فى أثناء برنامج إذاعى بمناسبة يوم الأمم المتحدة. كان رفاقه ينظرون إليه حينها على أنه العجلة الاحتياطية فى العربة. وكان يحلو للمجتمع الراقى فى القاهرة أن يهزأ من الفلاّح أنور، الذى كان يطْلق عليه على سبيل السخرية لقب «الحمار الأسود» فى الصالونات المخملية. كان يؤخذ عليه مزاجه المتقلب، ووصوليته: فهو حينًا مع الإخوان المسلمين، وحينًا آخر مع الماسونيين، أو حتى مؤيداً للفكر النازى. مع ذلك، كان الأكثر ثقافة ضمن المجموعة العسكرية التى قامت بالانقلاب فى يوليو عام ١٩٥٢. هو الذى كان يحب أن يحيط نفسه بالفنانين والمثقفين والصحافيين.

لم يُكتشف هذا الرجل على حقيقته إلا بعد زيارته للقدس فى نوفمبر عام ١٩٧٧. يومها وُلد رجل جديد، نجم جديد. مشى نحو الهدف الذى حدّده، دون أن يساوره أدنى شك، أو أدنى تردد: توقيع السلم مع إسرائيل. قائد يستحق هذا اللقب، رجل دولة مقتنع بصواب ما يفعل، غير مهتم بإرضاء الجماهير، يرفض الانصياع لديكتاتورية الرأى العام، ويعرف كيف يتخطى تردد أقرب مستشاريه. يجب أن أعترف بأنى كنتُ من بين مجموعة «الحذرين» التى كانت تخشى فشل مبادرة الرئيس السادات، والتى كانت تفكّر سراً بالاحتمالات البديلة. إلا أن الفرق بين السياسى ورجل الدولة، هو أن الأول يفكر فى الانتخابات المقبلة، بينما الثانى يفكر فى الجيل القادم.

بالفعل، وباستثناء عصابة المتملقين التى كانت تحيط به، والتى كانت تلعب دور الكورس فى التراجيديا اليونانية، فإن السادات خاض معركته بعزلة تامة، بعد أن رذله العالم العربى والعالم الإسلامى اللذان اتهماه بالخيانة، وتخلّت عنه أوربا، ودان الاتحاد السوفيتى خطوته. حتى الولايات المتحدة ترددت فى التدخل طيلة

الفترة التى سبقت الاجتماع الأول فى كامب ديفيد فى أيلول ١٩٧٧ . ما يميّز الرجل الحرّ بأى حال هو تعرّضه للهجوم من أصدقائه وأعدائه، فى الوقت نفسه .

لقد رأيتُه فى أوقات غضبه، فكان يتكلم بصوت عال، وكأنه يخاطب جمهوراً كبيراً . كما رأيته فى أوقات انشراحه، فكان يهنئك مردداً : برافو، برافو ...

كان السادات وحيداً . ولكنه، لم يوح فى أى وقت من الأوقات بأنه سيتراجع أو يغيّر من وجهته، علماً بأن العالم العربى والإسلامى انتظر بحرارة هذا التحوّل الذى هو أشبه بعودة الابن الضال . كأنه كان يستمد من عزلة وحدته قوة إصراره، وبداهة يقينه . اليقين بأنه سوف يحصل على الانسحاب الإسرائيلى من كامل الأراضى المصرية، وفى مرحلة لاحقة، الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى الفلسطينية المحتلة .

لأن السادات كان معجبًا بالحضارة الغربية، ولأنه كان يحبها، ولأنه فهم أسوة بمفكرى النهضة فى مطلع القرن العشرين، أن مستقبل مصر يمر عبر الشراكة مع الغرب، فقد عرف كيف يحوز على محبة الشعوب الغربية . كان لديه ضعف تجاه الفنانين الأمريكيين والأوربيين، وتجاه الكتّاب، وتجاه ممثلى الأرستقراطية القديمة . ولكنه، على الرغم من عشقه لـ «بلاد بر» كان فى العمق ابن موظف مصرى، فخوراً بجذوره، وبقريته ميت أبو الكوم . كان يحب أن يلبس «جلاّبية» الفلاحين، كما كان ينجذب إلى بدلات كبار المصممين، والقمصان ذات الياقة المنشّاة، مثبتًا بذلك أنه نجح فى تحقيق هذا المزيج السحرى بين العالم الإسلامى والعالم الغربى .

عشرون سنة مضت : سيسجّل التاريخ أن هذه الزيارة الاستثنائية هى من المحطات البارزة فى القرن العشرين .

باريس ـ الأربعاء ٢١ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٧

برنامج تلفزيونى مع حمدى قنديل . أتوجّه إلى العالم العربى لأشرح له ما هى الفرنكفونية، وكيف تعمل، وما هى الأهداف التى تسعى لتحقيقها . الكلام عن الفرنكفونية باللغة العربية : ذلك كان أول خروج عن التقليد الذى يفترض الكلام عن الفرنكفونية باللغة الفرنسية .

باريس ـ الجمعة ١٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٧

أعطى أول حديث طويل لفولكهارد ويندفوهر، مراسل مجلة «إشبيجل» فى العالم العربى. تجرى المقابلة التى تدور حول الفرنكفونية باللغة العربية، ثم تترجم إلى الألمانية. عملية متعددة اللغات: هذا بالفعل ما أعنيه حين أؤكد أن دعوة الفرنكفونية هى فى الدفاع عن التعدد اللغوى. التعريف بالفرنكفونية عند غير الفرنكفونيين، هى طريقة مواربة لجذب اهتمام الفرنكفونيين. يكفى أن تُعطى قيمة لما نملك ونحن لا نبالى به لأنه مكسب طبيعى، كى ننظر بشكل مختلف إليه.

باريس ـ الجمعة ١٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٧

يستقبلنى الرئيس دنيس ساسو نغيسّو فى فندق «كريون»، فى أثناء مروره فى باريس. ألتقيه رجلاً فقد الكثير من وزنه، ومصابًا بالإرهاق الشديد. أعترف بأنى كنتُ منشغلاً بالنظر إلى طريقة تجديد الغرف فى هذا الفندق الضخم الذى كنتُ أتردّد إليه لأكثر من عشرين سنة، مما جعلنى أتابع بصعوبة أقوال الرئيس الكونغولى.

تمنى أن تُساهم الفرنكفونية فى إعادة بناء برازافيل.

كيبورون ـ ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٧

نمضى ليلتى عيد الميلاد ورأس السنة فى كيبورون. جو مملّ ومنوّم. ما يعوّض عن ذلك قراءة وتصحيح مخطوطة الكتاب حول الأمم المتحدة، ممارسة رياضة السير على الأقدام فى شبه الجزيرة هذه حين تتمكن الشمس من اختراق الغيوم، ووجود مجموعة من الأصدقاء أتوا لمشاركتنا فى النظام الغذائى الصحى الذى كنا نتّبعه.

١٩٩٨

داكار ـ الخميس ١٥ كانون الثانى/يناير ١٩٩٨

الرئيس عبده ضيوف هو أول رئيس دولة إفريقى رغبتُ فى لقائه بعد انتخابى فى هانوى. إنها خطوة بمثابة تكريم غير مباشر لليوبولد سيدار سنغور، أحد مؤسسى الفرنكفونية. أشكره على الدعم الذى قدّمه إلىّ فى مناسبات عديدة: من إطلاق التجمع الإفريقى للأحزاب السياسية، إلى انتخابى فى المنظمة الفرنكفونية، مروراً بإنشاء جامعة سنغور فى الإسكندرية. يتطرّق الرئيس إلى ملف يحتل مكان الصدارة فى عملى السياسى: الأصولية الإسلامية. وفى سياق آخر، يخبرنى بأنه سيشارك فى قمة مجموعة الـ ١٥ فى شهر أيار، فى القاهرة.

محاضرة حول الفرنكفونية فى جامعة داكار. فى النقاش الذى أعقب المحاضرة، يعبّر الطلاب بشدّة عن امتعاضهم. «صعوبات كبرى تحول دون حصولهم على تأشيرة دخول إلى فرنسا»؛ «الفرنكفونية تساوى الاستعمار الجديد». بالتأكيد، لا تحظى الفرنكفونية بشعبية كبيرة لدى الشبيبة السنغالية.

(فى الأمسية ...).

وزير الخارجية مصطفى نياس، الذى تربطنى به صداقة تعود إلى عشرين سنة، يُثير مجدداً فى نهاية السهرة، موضوع الامتعاض الطلابى الذى كنتُ شاهداً عليه، والضغط النفسى الذى يعيشه هؤلاء الشباب الذين يحوزون على شهاداتهم ولا

تتاح لهم فرص العمل. كان الأستاذ المصرى سمير أمين، ومنذ مدة طويلة، قد نبّهنى إلى انهيار الجامعات الإفريقية.

داكار ـ الجمعة ١٦ كانون الثانى/يناير ١٩٩٨

زيارة لمكاتب الوكالة الجامعية للفرنكفونية، برفقة كريستيان فالانتان، الممثل الشخصى لرئيس الدولة. إنه عالم آخر: وسائل التبريد، الإنترنت، ومجموعة صغيرة من الباحثين منصرفين إلى العمل. إنها نافذة مفتوحة على التكنولوجيا الحديثة.

عشاء مع سفير مصر محمد دغش، الذى تلقى للتو خبر تعيينه فى بيونس أيرس. إنها ترقية لم يكن يتوقعها. إنه فى غاية الانشراح. كل وزارة خارجية لديها لائحة أفضليات للعواصم الأجنبية خاصة بها. فى مصر، كانت داكار تُعتبر دومًا العاصمة الإفريقية المفضّلة. لذا فإنه يُنظر إلى الحصول على مركز سفير مصر فى داكار على أنه ترقية تستدعى منطقيًا ترقية أعلى. فى المقابل، فإن التعيين فى الخرطوم أو فى أديس أبابا، وهما موقعان بغاية الأهمية على الصعيدين الاستراتيجى والسياسى بالنسبة إلى مصر، يُنظر إليه من قبل دبلوماسيينا على أنه أشبه بتخفيض للرتبة.

بيسّاو ـ السبت ١٧ كانون الثانى/يناير ١٩٩٨

بيسّاو، وهى مستعمرة برتغالية قديمة، تعانى كليًا الانحطاط والتدهور. الفقر الذى يرخى بثقله فى كل مكان تشتدّ وطأته أكثر من الرطوبة التى تُطبق على البلد.

لقاء مع رئيس الدولة، نينو فييرا. كنتُ قد استقبلته منذ عدة سنوات فى القاهرة، وقد كلّفنى الرئيس مبارك حينها بمرافقته طيلة فترة زيارته الرسمية.

نتداول فى الأسباب التى حدت ببلاده للانتساب إلى المنظمة الفرنكفونية. تحيط بغينيا-بيسّاو دولتان فرنكفونيتان، هما السنغال وغينيا. دخول بيسّاو فى دائرة

الفرنكفونية عام ١٩٩٧، كان يهدف إلى تسهيل العلاقات التجارية مع هذين الجارين الكبيرين. هذه اليد الممدودة للفرنكفونية لم ترق للبرتغاليين. حتى إن الرئيس ماريو سواريس عاتبه بشدة على هذا الأمر.

يدعونى سفير مصر إلى داره المتواضعة، وهى عبارة عن فيللا صغيرة تطل على الساحة الكبرى. هو عازب، وفى ذلك استثناء للقاعدة التى أرساها الرئيس مبارك، والتى تقضى بأن يكون رؤساء البعثات متزوجين. يبادرنى بلهجة حزينة مستكينة:

ـ «دفعتُ الثمن بتعيينى فى بيسّاو؛ لأنه من الصعب إيجاد دبلوماسى يرغب فى إنهاء مسيرته الوظيفية هنا».

ـ «تزوّج، لم يفت الأوان بعد ...».

أشعر بأن الوقت حان لتغيير الحديث:

ـ «ما هو وضع الثوار الكازمنسيين؟ هل ما زالوا يتلقون الأسلحة من غينيا- بيسّاو؟».

ـ «يسكن منطقة الكازمنس الديولا المسيحيون والماندانغ المسلمون، ولهم امتداد بشرى فى غينيا ـ بيسّاو، مما يسهّل على الثوار إيجاد قاعدة للتراجع. الثورة التى انطلقت عام ١٩٨٢ أوقعت الكثير من الضحايا. وانتشار التهريب لكل أنواع البضائع ـ السلاح، المخدرات، الأحجار الكريمة- أغرق هذه المقاطعة فى حال تامة من فقدان الأمن».

ـ «منذ أسبوعين، أعفى الرئيس فييرا الجنرال أنسومان مانى من منصبه، متهمًا إياه بالاتجار بالأسلحة. هناك شائعة تتحدث عن أن الأمر حصل بضغط من داكار. هل تعتقد أن ذلك سيؤدى إلى عدم الاستقرار فى البلاد؟».

يبدو السفير واثقًا:

ـ «إن الجنرال فييرا يحظى بدعم داكار وباريس. لقد التقيتَه هذا الصباح. إنه قوى. يسيطر على الوضع ...».

مع ذلك، يبدو أن التقارير التى قرأتها تناقض هذا التحليل.

السفراء الذين أتناول العشاء معهم هذا المساء لا يشاطروننى المخاوف. الجميع متفائل. النفط سينقذ البلاد على الرغم من سلسلة النزاعات التى تهزّ المناطق المجاورة، ليبيريا، سيراليون، الكازمنس.

باريس ـ الأربعاء ٢١ كانون الثانى/يناير ١٩٩٨

اجتماع لمجلس التعاون، بحضور المسؤولين فى الوكالة الحكومية، والوكالة الجامعية، وجامعة سنغور فى الإسكندرية، وتجمع رؤساء البلديات الفرنكفونيين، والقناة ٥ التلفزيونية.

نحن فى قلب القرون الوسطى. أسياد الإقطاع الذين يتواجهون فى حرب مضمرة ويدافعون بقوة عن حصتهم فى السلطة، هم أقوى من الملك الذى تُوِّج فى هانوى.

أستنتج أنه سيكون من الصعب إيجاد تعاون بين مختلف العاملين، فلكل خصوصيته، وتاريخه، ومصالحه بالتأكيد. ولكن إذا توصلنا إلى صوغ بعض المشاريع المشتركة، لربما أمكننا أن نأمل بدفعهم إلى العمل المشترك.

هذا بالتحديد ما حاولتُ أن أقوم به بين الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة، خصوصًا فى إعداد ومتابعة المؤتمرات الكبرى التى عُقدت فى ريو، وفيينا، والقاهرة، وكوبنهاجن، وبيجين.

عشاء عند ميشال روكار. تذوّق لعدة أنواع من الويسكى المصنّع حرفيًا. لقد تم تحديد أماكن هذه المصانع بدقة على خريطة تمثّل اسكتلندا يعرضها أمامنا. يحضر العشاء وزير الدفاع آلان ريشار وزوجته، ومستشار ملك المغرب أندريه أزولاى، ترافقه زوجته أيضًا، وجاك أتالى.

حديث يتسم بالحيوية، ويتناول فى جزء كبير منه، الصراع العربى-الإسرائيلى. لحسن الحظ يحوز هذا الصراع على اهتمام ومساندة الرأى العام الدولى. يا لسوء

طالع تلك الأزمات اليتيمة التى تمزق أنغولا وسيراليون والكازمنس والتى تواجه باللامبالاة المطلقة! نسترجع مجازر رواندا، ولكن التداول فيها يتم كما تُستعرض المسائل الأكاديمية ...

باريس ـ الجمعة ٣٠ كانون الثانى/يناير ١٩٩٨

شارلى هيل يمضى يومين فى باريس. حمل إلىّ الصيغة الأخيرة لمخطوطة الكتاب. نمضى ثلاثين ساعة فى مراجعة النص. هذا الإفراط فى العمل يرهقنى، ولكنه يمنحنى هدوءاً نفسيًا كاملاً. إنه شعور يصعب وصفه. ولعل الحالة الأكثر شبهًا به هى الإشباع المقرون بالتعب الذى نحسّ به بعد تمرين رياضى قاس.

باريس ـ الاثنين ٢ شباط/فبراير ١٩٩٨

يجب البدء بالتحضير للاحتفالات والنشاطات التى تُقام فى اليوم العالمى للفرنكفونية الذى يصادف فى ٢٠ مارس. لدى الرغبة فى التجديد. إنى عازم على التخلّص من الاحتفال الطنّان الذى يجرى فى دار بلدية باريس، أو من الكوكتيل الذى يجمع أهل البيت.

أريد أن أدعو إلى باريس الأمناء العامين للمنظمات الدولية والإقليمية، بالأخص الكومنولث. يمكنهم أن يقدموا مداخلات قصيرة فى الاحتفال الرسمى، قبل أن نلتقى فى اجتماع عمل للتداول فى إمكانية إيجاد سبل للتعاون بين المنظمة الفرنكفونية ومختلف تلك المؤسسات.

أرى فى هذا الأمر إيجابيات كثيرة. ستكون أولاً مناسبة للتعريف بصورة أفضل بالفرنكفونية الجديدة، وفق «نسخة هانوى»، ولإدخالها إلى عائلة المنظمات الدولية، وبالتالى للبحث بشكل ملموس فى إقامة مشاريع تعاون مشتركة. دون أن نذكر أن ذلك سوف يُسهم ربما فى التخلص من فكرة خاطئة بقدر ما هى شائعة، حول الفرنكفونية المتصارعة مع الأنغلوفونية. ونضع حدًا نهائيًا لمواجهة فاشودا ...

باريس - الثلاثاء ٣ شباط/فبراير ١٩٩٨

عشاء فى منزل برنار كوشنير وكريستين أوكرانت فى شارع غينومير، برفقة جان - مارى كولومبانى، رئيس تحرير جريدة لوموند، جان - موريس ريبير والمستشار السياسى لرئيس الوزراء ليونيل جوسبان، ومعه زوجته. كنتُ قد تعاونتُ مع والده فى التحضير لمؤتمر ريو، عام ١٩٩٢.

كان برنار كوشنير قد عاتبنى منذ عدة سنوات، حين كنتُ فى الأمم المتحدة، على أنى سرّبتُ كلامًا يصفه بـ«الصاروخ غير الموجّه». لقد قلت هذا الكلام بالفعل فى اجتماع عمل، جوابًا علَى اقتراح أحد معاونىّ الذى عرض اسمه للقيام بمهمة دقيقة. ردَّ علىَّ حينها كوشنير قائلاً: «إنى لا أرغب إلا فى أن أكون موجّهًا من الأمم المتحدة».

هذا المساء، نضحك لما جرى. الصداقة الثابتة لا تتأثر، لحسن الحظ، بأى حدث عابر.

كريستين أوكرانت مضيفة رائعة تغمر ضيوفها بالاهتمام واللطف. إنها أكثر جاذبية فى حياتها الخاصة، مما هى على شاشة التلفزيون.

باريس - الخميس ٥ شباط/فبراير ١٩٩٨

الاجتماع الدورى للمجلس الدائم للفرنكفونية، الذى يجمع الممثلين الشخصيين لرؤساء الدول والحكومات. يتم توزيع عدد كبير من الوثائق. موظفو الوكالة يتحرّكون فى كل اتجاه. إنه يوم تألقهم. أستمع إلى ما يُقال، ثم ألخّص بين الحين والآخر. تنتهى الجلسة فى ساعة متأخرة بعد الظهر. تذكّرنى النقاشات بأجواء منظمة الوحدة الإفريقية فى أديس أبابا، أكثر مما تذكّرنى بأجواء الأمم المتحدة فى نيويورك أو فى جنيف.

خلال هذه الاجتماعات درجتُ على التعليق على مختلف المداخلات وتقييمها بواسطة علامة أضعها لها. وحين تكون العلامة متدنية، أكتب ملاحظاتى بالعربية،

تداركًا لوقوع ورقتي في أيد غير موثوقة. لا يجب إهانة الممثلين المحترمين للدول، علمًا بأن بعضهم بلاء عظيمٌ.

باريس - الاثنين ٩ شباط/فبراير ١٩٩٨

دعا رئيس الوزراء ليونيل جوسبان ممثلي رؤساء الدول والحكومات للبلدان الفرنكفونية إلى الغداء في ماتينيون. قيل لي إنها المرة الأولى التي يحصل ذلك، وهو تعبير عن الدعم الذي تنوي فرنسا تقديمه إلى الفرنكفونية الجديدة. أجلس بقرب هوبير فيدرين. إنه رجل لطيف المعشر، لاذع، مليء بالحيوية، واضح في تحليله، ويمتلك مقدرة نادرة على استنتاج الخلاصات. لدينا متسع من الوقت للتحدث عن العراق ورواندا وبوروندي.

(في المساء، في ساعة متأخرة ...).

أعود إلى مخطوطة كتابي. أعيد صياغة الفصل المتعلق بالعمليات الاقتصادية والاجتماعية التي تقودها الأمم المتحدة. إن مفهوم وكلمة «تنمية» بحد ذاتهما تخطّاهما الزمن. يُفضّل استعمال كلمة «شراكة» عوضًا عنهما. أذكر أني تخلّيتُ عن كلمة «نزع السلاح» عند الكلام على الأسلحة التقليدية، واستعضتُ عنها بعبارة «نزع السلاح التقليدي»، وذلك لتعارض هذه العبارة في ذهني مع «نزع السلاح واسع النطاق» أي ما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل. لم يتقبّل رجال القانون والمختصون هذا التجديد في علم الدلالة. ومع ذلك، يجب أن نعرف في بعض الأوقات كيف نخترع عبارات جديدة، إذا أردنا تعبئة الرأي العام وكسب دعمه.

لاهاي - الخميس ١٢ شباط/فبراير ١٩٩٨

يستقبلنا، ليا وأنا، في مطار لاهاي، سفيرُ مصر إبراهيم بدوي الشيخ. كنتُ قد أشرفت على أطروحته لنيل الدكتوراه، وهي تعالج موضوع حماية حقوق الإنسان، وقد سعيت ليتم انتخابه في اللجنة الإفريقية لحقوق الإنسان والشعوب، وهو يرأسها الآن، ومقرّها في بانجول عاصمة غامبيا.

كان اعتماد هذه المدينة ـ الموحشة كمقر خطأ فاحشا. فالمنظمة الدولية، كما الجامعة أو مركز الأبحاث، يجب أن تستقر فى مدينة ناشطة، توفّر حدًا أدنى من البنى التحتية الفكرية، لترفد المؤسسة ثقافيًا، ولتؤمن غذاءً فكريًا للنساء والرجال الذين يعملون على تنشيطها وازدهارها. المنظمة الدولية هى إلى حد ما كالغرسة النادرة التى تتطلّب ماء نقيًا وعناية مستمرة.

أعود إلى لاهاى بسرور لا يوصف. لاهاى تذكرنى بفترة شبابى. لا بل أكثر من ذلك. ترتبط بهذه المدينة ذكريات تعود إلى مراحل مختلفة من حياتى، كنتُ فيها مستمعًا فى أكاديمية القانون الدولى، ثم أستاذًا ومن بعدها مديرًا لمركز الأبحاث، وأخيرًا عضوًا فى مجلس إدارة الأكاديمية. ولا أنسى الوقت الذى أمضيته فى مكتبة محكمة العدل الدولية، هذا المكان خارج الزمن الذى يعمّه الهدوء والسكينة، حيث قمتُ بمعظم أبحاثى، فأنجزتُ دراسات مهمة لم يتجاوز عدد قرائها أصابع اليد الواحدة. عدتُ إليها، بعد زمن، كوزير مصرى، ومن ثم كأمين عام للأمم المتحدة.

لاهاى تصور ملامح بارزة فى مسيرتى وتقود خطاى نحو الشيخوخة. هذه الشيخوخة التى تشكّل لازمةً فى كتابة مذكراتى. أن ترى نفسك تشيخ هنا، فى هذه المدينة حيث احتفلتُ بمناسبات الفرح، فى هذه المدينة حيث عشت مغامرات عاطفية مجنونة، فى هذه المدينة حيث ذقت الملذات الأكثر حميمية فى حياتك. أن تتنزه على شاطىء البحر، أن تلتهم سمك الرنجة النىء، أن تستمع إلى موسيقى الأرغن المتنقل، أن تتأمل هذه السماء الغريبة التى تسكن فن الرسم الهولندى.

الشيخوخة هى أيضًا هذه النوبة الجديدة من داء التهاب المفاصل التى أخشاها. والخشية من الأزمة الصحية تكون أحيانًا أكثر إيلامًا من الأزمة ذاتها.

(فى فترة بعد الظهر ...)

أنا هنا بصفتى رئيسًا للجمعية الدولية للتنمية. ألقى محاضرة باللغة الفرنسية فى المدرّج الكبير لوزارة الخارجية. يجرى النقاش باللغة الإنجليزية. هذا هو التوازن اللغوى الذى أردتُ إرساء قواعده طيلة خمس سنوات أمضيتها فى الأمم المتحدة، وهو ما أثار حفيظة المتعصّبين من الأنغلوساكسون.

عشاء مع مجموعة مثقفين. حديث متميّز حول رهانات العولمة، ودور القوة العظمى، والوضع في فلسطين.

لدى عودتي إلى الفندق، تلومني ليا على التعبير عن عدائي للأمريكيين. قلتُ:

ـ «لم ألحظ ذلك».

أجابت، بلهجة عاتبة:

ـ «هذا يعقّد وضعك أكثر».

في قرارة نفسي، كنتُ مؤيداً للأمريكيين في العمق. وهذا لم يمنعني قط من شجب بعض التصرفات التي تؤشّر بنظري للإفراط في اللجوء إلى القوة. الإفراط في اللجوء إلى القوة هو في نهاية الأمر حالة مرَضية في السياسة الخارجية، تشبه تلك الأمراض التي يدلّل عليها في الطب باستعمال أداة التصدير hyper والتي تحمل معنى المبالغة والإفراط: ارتفاع الضغط hypertension، تضخم في النمو hypertrophie، ازدياد حجم الكرويات الحمراء hyperchromie....

الإفراط هو دائماً عدو الخير.

لاهاي، روما ـ الجمعة ١٣ شباط/فبراير ١٩٩٨

قبل أن أركب الطائرة إلى روما، أقوم بزيارة رئيس بلدية لاهاي في مبنى البلدية الجديد، وهو بناء حديث ومصمّم للاستخدام بصورة مدروسة. يتذكر بحرارة التصريح الذي أدليتُ به منذ سنتين، والذي قلتُ فيه إن لاهاي هي عاصمة العالم القضائية. يتذكّر كذلك الجهود التي بذلتُها لتحتضن مدينته المحكمة التي ستنظر في الجرائم المرتكبة في يوغوسلافيا.

(المغادرة إلى روما...).

فور وصولي إلى روما، أعقد اجتماعاً تمهيدياً مع مجلس إدارة الجمعية الدولية للتنمية. يلفتني بشدة حضور امرأة باكستانية، اسمها خَوار ممتاز، تشعّ ذكاء. من

النادر أن يفصح الذكاء عن نفسه بهذه الصورة المباشرة، وأن يتجسد فى صورة، وأن يظهر واضحًا للعين المجرّدة. فى معظم الأحيان، لا يكشف الذكاء عن نفسه إلا بعد محادثة طويلة، لا بل إثر أحاديث عديدة.

إنها امرأة فى متوسط العمر، بشرتها شديدة السّمرة، جبينها عريض، نظارتاها سميكتان. يشع منها سحر لا يمكن تحديده. أما شعرها الطويل الأسود فتعقده وتفكّه بحركات ناعمة. تتكلم على مهل بلغة إنجليزية مصحوبة بلكنة خفيفة. تحليلاتها دقيقة، وتوصياتها فطنة.

يعقب الاجتماعَ حفل استقبال. يجتاح جمهور من مختلف الأعراق مكاتب الجمعية. يدور الكلام بالإيطالية، والإنجليزية، وأحيانًا بالفرنسية. تنال ليا التى تتقن لغة دانتى (الإيطالية) إعجاب «جماعة الطليان».

روما ـ السبت ١٥ شباط/فبراير ١٩٩٨

اجتماع مجلس إدارة الجمعية الدولية للتنمية، وهى مؤسسة كانت ذائعة الصيت فيما مضى، ولكنها، مع الوقت، خسرت من ألقها. تدريجيًا قطعت معظم فروع الجمعية المنتشرة فى العالم صلاتها مع المركز الرئيسى فى روما. المنتسبون الجدد هم بالتأكيد بغاية الحماس، لكن علاقاتهم الدولية محدودة. الأمين العام روبيرتو سافيو يعمل بصفة تطوعية. وما من شىء أكثر خطورة بالنسبة إلى منظمة دولية من أن يديرها متطوع. ذلك أنه يصعب توجيه اللوم إليه على قلة نشاطه او على كثرة غيابه.

(فى فترة ما بعد الظهر ...).

حفلا استقبال الواحد تلو الآخر مباشرة. الأول فى سفارة مصر المعتمدة لدى الحكومة الإيطالية، والثانى فى سفارة مصر لدى الكرسى الرسولى. الواقع أنى فى نظر الجميع، أمثّل مصر، وأتكلم وباسم مصر. ولدى محدثىّ الرغبة فى أن يسمعوا رأيى حول السياسة المصرية، أكثر مما يرغبون فى الكلام عن السياسة الفرنكفونية، أو عن الجمعية الدولية للتنمية.

الفاتيكان ـ الاثنين ١٦ شباط/فبراير ١٩٩٨

اليوم هو موعد لقائي العاشر مع يوحنا بولس الثاني. يبدو مرهقًا أكثر بكثير مما كان عليه في مقابلتي الأخيرة له. إنه يتنقل بصعوبة.

أتيتُ لأعطيه صورة عن الفرنكفونية. إنها المرة الأولى التي يسمع فيها عن هذه المنظمة. أين يوجد مقرها، أفي نيويورك أم في باريس؟ أشرح له الأهداف التي نسعى لتحقيقها: التضامن بين الشمال والجنوب، نشر فكرة التنوع الثقافي، حوار الثقافات. يسمعني بانتباه واهتمام، ولكن الحديث يتحوّل بشكل غير متوقع إلى فلسطين وإلى الصراعات الحالية. تنتهي المقابلة. نلتقط بعض الصور ويقدم إليّ وسامًا.

ألتقي بعدها وزير خارجيته الأسقف جان ـ لوي توران. لكونه فرنسيًا، لم تكن الفرنكفونية غريبة عليه، ولكن معظم حديثنا يتمحور كذلك حول فلسطين، وحول الزيارة التي يزمع البابا القيام بها قريبًا إلى مصر والشرق الأوسط.

بالتأكيد، إن التعريف بالفرنكفونية أصعب مما كنتُ أتوقع.

روما ـ الأربعاء ١٨ شباط/فبراير ١٩٩٨

دعوة من السفير ميريميه إلى اجتماع، مع مجموعة من الصحافيين والكتّاب الإيطاليين في قصر فارنيز، حيث مقر السفارة الفرنسية. الذين يتساءلون حول إمكانية انضمام إيطاليا إلى المنظمة الفرنكفونية. إن عدد الفرنكفونيين في إيطاليا يفوق عدد المتكلمين بالفرنسية في معظم البلدان الأعضاء في هذه المنظمة. بالإضافة إلى ذلك، فإن إيطاليا وفرنسا بحكم وجودهما على شاطىء المتوسط، لهما تاريخ مشترك ومصالح متبادلة مع البلدان العربية الفرنكفونية. اهتمام مشجّع.

أتناول الغداء مع عضو مجلس الشيوخ جيانجياكومو ميغوني. يبدي، هو كذلك، اهتمامه بالفرنكفونية. إنه مقتنع بضرورة الانفتاح على العالم الخارجي، وفي الوقت نفسه بالعمل لصالح البلدان النامية. يقترح عليّ إلقاء كلمة في مجلس الشيوخ في أثناء زيارتي القادمة إلى روما.

لدى عودتى إلى الفندق، أقع صدفة، فيما أقلّب محطات التلفزيون، على برنامج لشبكة سى إن إن، تهاجم فيه مجموعة من الشباب الذين لا يفهمون ولا يتقبلون قرار قصف العراق، كلا من مادلين ألبرايت، ووليم كوهين الوزير السابق للدفاع، وساندى برغر، وهى من الشخصيات الصعبة المراس فى البيت الأبيض.

بالنسبة إلى قسم كبير من العالم العربى، التحليل واضح: هناك، فى واقع الأمر، ثلاثة صهاينة يدفعون بأمريكا إلى تهديم بغداد من أجل تثبيت الهيمنة الإسرائيلية فى الشرق الأوسط. هذه النظرة التبسيطية لا يمكن أن تمهّد السبيل أمام الحوار العربى ـ الإسرائيلى.

روما ـ الخميس ١٩ شباط/فبراير ١٩٩٨

طلب إلىّ الملحق الثقافى فى السفارة الفرنسية أن ألقى محاضرة أمام ثمانمائة أستاذة يدرّسون الفرنسية فى المرحلة الثانوية، أتوا من مختلف أنحاء إيطاليا. أجد نفسى على منصة مدرّج ضخم، أمام جمهور غالبيته العظمى من النساء. بعد عرض قصير لأهداف ورهانات الفرنكفونية، أقترح الاستماع إلى الأسئلة التى ترد من القاعة كى أجيب عنها. كنتُ أتوقع تبادلاً لبقًا للأفكار. خطأ! لقد فتحتُ دون أن أدرى «صندوق باندورا» الملئ بالثعابين:

ـ «إن تعليم الفرنسية فى طريقه إلى الزوال ليحل مكانه تعليم الإنجليزية. ماذا تفعلون لوقف هذا النزيف؟».

ـ «إن الشباب الإيطالى يبدى عدم اهتمام متزايد باللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية. ما هى الحلول التى تقترحونها؟».

ـ «بأية طريقة تنوون التدخل لدى السلطات الإيطالية لمنع تراجع اللغة الفرنسية فى إيطاليا؟».

أحاول قدر المستطاع أن أشرح أن هذه المشاكل ترتبط بالتعاون الثقافى بين إيطاليا وفرنسا، ولا أملك الصلاحية لكى أتدخل لدى السلطات الإيطالية. بصفتى أمينًا

عامًا للفرنكفونية، إنى مخوّل الاهتمام بالدول الأعضاء فى المنظمة الفرنكفونية فقط، وإيطاليا ليست عضواً فى المنظمة الدولية للفرنكفونية.

تثير آرائى صرخات احتجاج مدوّية. أعتقد أن عدم وجود الحجارة والطماطم فى القاعة، هو الذى حال دون رشقى بها فى تلك اللحظة. لا أرى أى حل لتهدئة هذا الجمهور الغاضب إلا بمعاودتى الكلام. أضطر لرفع الصوت لكى يسمعونى. أعد بنقل رسالة الأساتذة الإيطاليين إلى السلطات الفرنسية. أشكرهم على دعمهم الذى سوف يسهّل علىّ المهمة بشكل كبير...

يتدخل رئيس المؤتمر بكل روية ليشرح أن لدى لقاء آخر، وأن علىّ أن أغادر، لكن المؤتمر يتابع أعماله. ولكى يحيّى انصرافى، يبدأ بالتصفيق، فتتجاوب القاعة بكل طيبة خاطر وتصفّق هى أيضًا. أترك المدرّج، وقد رُدّ اعتبارى إلى حد ما.

عشاء عند عائلة فنفانى. صداقة كبيرة تربط بين ماريا بيا وليا. هذه المرأة الذربة اللسان والنشيطة تحمل أوسمة عديدة نالتها تقديراً لنشاطها الدؤوب فى خدمة المحتاجين. أسّست جمعية مساعدة للبلدان التى تجتاحها الحروب، وهى مصمّمة على مد يد العون لكل المنبوذين والمجروحين فى الأرض. انتقلت إلى رواندا بعد المجازر الجماعية، وإلى يوغوسلافيا، وإلى ألبانيا. إنها لا تكلّ ولا تتعب.

أديس أبابا ـ الجمعة ٢٠ شباط/فبراير ١٩٩٨

الذهاب إلى أديس ـ أبابا. فى الطائرة، ألتقى الأميرة نوال دال دراغو التى ترافقنى إلى اثيوبيا. إنها مثل ماريا بيا فنفانى تقدّم العون إلى بلدان العالم الثالث. ولكن فى الوقت الذى تؤمّن فيه ماريا بيا مساعدات غذائية، تقوم نوال بدعم الفنانين وتنظّم معارض فنية. أقنعها بأن أثيوبيا تعوزها الأدوية والمواد الضرورية، أكثر مما تحتاج إلى الترويج للفن.

جيبوتى ـ السبت ٢١ شباط/فبراير، الأحد ٢٢ شباط/فبراير ١٩٩٨

أركب الطائرة متوجهًا إلى جيبوتى، التى تعدّ مع غينيا-بيسّاو الأكثر فقراً من بين

الدول الأعضاء فى المنظمة الفرنكفونية. جيبوتى هى كذلك من بين الدول المنتسبة إلى جامعة الدول العربية. اللغتان الوطنيتان هنا، هما الفرنسية والعربية.

تسنّى لى أن أزور جيبوتى أكثر من مرة كوزير دولة مصرى، بالأخص فى إطار برنامج المساعدة التقنية الذى أطلقته من أجل تدريب اختصاصيين فى الملاحة البحرية، وإيفاد أساتذة للغة العربية وأطباء.

إنى هنا اليوم لأدرس إمكانية المساعدة من منظور الفرنكفونية المتعددة الأطراف. ألتقى أفراد بعثات التعاون الفرنسيين. يلفتنى بقوة حماسهم واندفاعهم. نشاطهم يجعل الحيوية تدب فى مدرسة الأليانس الفرنسية، وفى المركز الثقافى، وفى الليسيه التجارى والصناعى الذى يمنح الشبان الجيبوتيين شهادة لا تضمن لهم للأسف إيجاد عمل.

يستقبلنى رئيس الجمهورية حسن جوليد أبتيدون فى مقر إقامته. إنه أبو الاستقلال. وهو معروف بصراحته، وصعوبة مراسه، وسرعة غضبه، التى يُعذر عليها نظراً لتقدمه فى السن، مع العلم بأن أحداً لا يعرف بالضبط عمره.

يقول لى دون مواربة:

ـ «آمل أنه بصفتكَ أميناً عاماً للفرنكفونية، أن تبدى اهتماماً بحاجات جيبوتى، أكثر مما أظهرته يوم كنتَ أميناً عاماً للأمم المتحدة».

ـ «سيدى الرئيس، إنك تنسى أطر التعاون التى أرسيتها حين كنتُ مكلّفاً بالشؤون الخارجية المصرية».

ـ «حضرة الوزير، كان ذلك منذ عشر سنوات. أما ما يهمنى، فهو الحاضر والمستقبل».

أتعهد بأن أتابع عن كثب المساعدة التى تقدّمها الفرنكفونية إلى جيبوتى.

أديس أبابا ـ الاثنين ٢٣ شباط/فبراير ١٩٩٨

لقاء ودّى مع وزير الخارجية الأثيوبى سيوم ماسفين، الذى أعرض له أهداف

الفرنكفونية. أفصح عن نيتى نسج علاقات وطيدة مع منظمة الوحدة الإفريقية، ومع اللجنة الاقتصادية التى شكّلتها الأمم المتحدة للاهتمام بالشؤون الإفريقية. إنى هنا بكل حال، بناء على دعوة الأمين العام لمنظمة الوحدة الإفريقية سليم أحمد سليم، الذى طلب منى المشاركة فى أعمال مجلس الوزراء. أضيف بأنى، وبعد موافقة المجلس الدائم للفرنكفونية، أود إنشاء مندوبية دائمة لدى منظمة الوحدة الإفريقية. يؤكّد لى دعمه الكامل لهذه المهمة الدبلوماسية.

لدى عودتى إلى الفندق، أتّصل هاتفيا بـليا الموجودة فى القاهرة. والدتها التى تُعالج فى نيويورك هى بحال أفضل. أظَن أن جاك أتالى هو الذى تكلم عن «المجتمع المرتحل». لدىّ أشياء كثيرة يمكن أن أقولها أنا عن «العائلة المرتحلة».

أديس أبابا ـ الثلاثاء ٢٤ شباط/فبراير ١٩٩٨

لقاء بعد طول انقطاع مع كى أمواكو، الأمين التنفيذى للجنة الاقتصادية لإفريقيا، وهو مواطن من غينيا كنتُ قد تمكّنتُ من نقله إلى الأمم المتحدة، وكان يعمل فى البنك الدولى. لقاء منفرد أعقبه اجتماع عمل مع أقرب معاونيه، حول موضوع الفرنكفونية، بالطبع، وحول إمكانية التعاون بين مؤسستينا. ألاقى استقبالاً حاراً من قبل الأعضاء الفرنكفونيين فى اللجنة، وقد شعروا فجأة بأنه قد رُدّ اعتبارهم.

تبلغ ميزانية اللجنة أربعين مليون دولار، وهى تمتلك مكاتب جديدة. ٨٠٪ من موازنتها مرصود لتكاليف العمل فيها. الحقيقة أن هذا الجهاز يريد أن يكون قبل كل شىء مركزاً للأبحاث حول الاقتصاد الأإريقى.

أديس أبابا ـ الأربعاء ٢٥ شباط/فبراير ١٩٩٨

افتتاح دورة مجلس وزراء منظمة الوحدة الإفريقية. أكثر ما أشدّد عليه فى خطابى هو المكانة المميّزة التى تحتلها إفريقيا فى الفرنكفونية، ودور منظمتنا فى خدمة التعاون بين الشمال والجنوب، وبين الجنوب والجنوب.

(في المساء ...).

أحضر الاستقبال الذى يقيمه سفير مصر مروان بدر، على شرف الوزراء الأفارقة الموجودين فى أديس ـ أبابا. أجلس إلى جانب وزير خارجية جمهورية الكونغو الديمقراطية، بيزيما كاراها، وهو شاب فى التاسعة والعشرين من عمره:

«يكنّ الرئيس كابيلا احترامًا كبيراً لشخصكم، وللدور الذى لعبتموه على الساحة الدولية. فى المقابل، إنه جدّ مستاء من السياسة الفرنسية، التى أظهرت عداءً كبيراً له».

أديس أبابا ـ الخميس ٢٦ شباط/فبراير ١٩٩٨

لقاء مع الرئيس ميليس زناوى، الرجل القوى فى أثيوبيا. فى هذا الصالون بالذات، استقبلنى عدة مرات سلفُه مانغويستو هيلا مريم، الذى كان يُلقّب بـ «النجاشى الأحمر»، والذى أعدم الإمبراطور وكل أفراد عائلته؛ ليستولى علىَ السلطة، وليشفى غليله من النظام الإمبراطورى.

إنى هنا للتحدث عن الفرنكفونية، وعمّا أقوم به. يتدخل الرئيس، مستفيداً من لحظة ألتقط خلالها أنفاسى:

ـ «آمل أن نتناول موضوع العلاقات بين مصر وأثيوبيا. لقد لعبتَ دوراً مهمًا فى هذه العلاقات، لذا فإنى أجد من الملائم أن نتناولها بالبحث».

ثم يضيف على الفور:

ـ «إن لبلدينا هدفين مشتركين: محاربة الأصولية الإسلامية، وتقاسم مياه النيل. مع ذلك أسجّل عدة أعمال تقوم بها مصر، تشعرنى بروح العدائية تجاه بلدى».

أسعى لطمأنته: إن مصالحنا الاستراتيجية المشتركة تفوق وتتخطّى بعض مظاهر سوء التفاهم الآنية التى يمكن أن تعقّد علاقاتنا الثنائية هنا وهناك.

تطول محادثتنا لساعتين. وفيما أنا أهمّ بالخروج، أصرّ على أن أقدّم إليه أعضاء البعثة التى ترافقنى. يسلّم الرئيس عليهم، قبل أن يضيف بابتسامة عطوف:

ـ «لا ترهقوا بالعمل هذا الرجل الكبير المسنّ».

القاهرة ـ السبت ٢٨ شباط/فبراير ١٩٩٨

لقاءات عائلية بعد طول فراق. أشقائى وزوجاتهم، وأصدقاء الطفولة، بكلمة واحدة: القبيلة. وكما فى كل مرة، اتصالات هاتفية، مقابلات فى الراديو والتلفزيون. فرق العمل فى التلفزيون، تجتاح شقتى بدون أى إحراج، كأنها تعتبرها بشكل طبيعى أحد ستوديوهات التصوير فى محطتها.

القاهرة ـ الاثنين ٢ آذار/مارس ١٩٩٨

أحيط الرئيس حسنى مبارك علمًا بمحادثاتى مع الرئيس ميليس زناوى، وبالجهود التى على بلدينا أن يبذلاها لتقاسم مياه النيل.

يقول لى الرئيس:

ـ «وما هو رأيك فى موضوع السودان»؟

ـ «إنها، برأيى، مرحلة لاحقة تتطلّب مفاوضات طويلة، وتحضيراً دقيقًا، للحصول بشكل أساسى، على دعم وخبرة المؤسسات المالية الدولية ...».

يسمعنى الرئيس مبارك بانتباه، ولكنى أشعر به منشغلاً بالمشاكل القصيرة المدى، أكثر مما تشغله قضية المياه التى تبقى، بالنسبة إليه، مشكلة بعيدة المدى.

فى الحقيقة، إن قضية مياه النيل تشكّل بالنسبة إلىّ، وأنا لستُ فى الخارجية، موضوع اهتمام كبير. ولكنى أتصور أن لا تكون هذه القضية فى مطلع الأولويات، بالنسبة إلى من هو على رأس السياسة المصرية.

(لاحقًا فى فترة ما بعد الظهر ...).

أُعلم عمر سليمان رئيس المخابرات، والذى يتابع عن كثب العلاقات بين أديس ـ أبابا والقاهرة، بما دار بينى وبين الرئيسين زناوى ومبارك. يعدنى بالاهتمام بهذه القضية التى يعتبرها أساسية.

القاهرة، باريس ـ الثلاثاء ٣ آذار/مارس ١٩٩٨

السفر فجراً إلى باريس. لقد تم تهيئة الصحراء التى تحيط بالمطار وجرى تلويثها بقصاصات الورق والخِرق التى لا تحصى، والتى تعلق بالأسلاك الشائكة التى تحيط مدارج المطار.

من أجل تعرّف إلى الصحراء الحقيقية، صحراء طفولتى، حيث كنتُ أذهب للتفتيش عن الحصى الحمراء، لا بد من الابتعاد عن القاهرة وتلوثها الذى يبسط نفوذه ليتحكّم بالرمال التى تعانق وادى النهر الإله.

باريس ـ الأربعاء ٤ آذار/مارس ١٩٩٨

يسرّ إلىّ سفير فرنسا المعتمد فى مابوتو برغبته فى أن تنضم موزمبيق إلى الفرنكفونية. يتّهم الفاشلين فى عالم الدبلوماسية الذين حالوا دون الموافقة على قبول هذا البلد، فى قمة هانوى. وما يزيد من مرارة هذا الفشل، هو أن موزمبيق، وهى الدولة الوحيدة التى لا تربطها أية صلة ببريطانيا، أصبحت عضواً فى الكومنولث.

باريس ـ الخميس ٥ آذار/مارس ١٩٩٨

يستقبلنى رئيس بوروندى بيار بويويا بحرارة فى الجناح المخصص له فى فندق رافائيل. نعرف بعضنا منذ زمن بعيد. قدّمتُ الدعم، عن طريق برنامج الأمم المتحدة للتنمية، للمعهد الذى أنشأه لتشجيع الحوار بين التوتسى والهوتو. وهو على قدر حلمى من بين القياديين التوتسيين القلائل المقتنعين بضرورة التعايش بين هاتين المجموعتين.

يشجب الحصار المفروض من الدول المجاورة على بوروندى. يطلب إلىّ التدخل لدى الأمم المتحدة، ودول السوق الأوربية المشتركة، ومنظمة الوحدة الإفريقية، للضغط على تلك الدول من أجل وضع حد لهذا الحصار، ولكى تساعد بلاده فى إعادة الإعمار.

حتى هذا التاريخ، كانت الدول المانحة تُسمعه الكلام نفسه: «اصنعوا السلام أولاً، وستحصلون على المساعدة المطلوبة».

وكما فى كل مرة، كان الرئيس بويويا يجيب: «من أجل صنع السلام، أنا بحاجة إلى هذه المساعدة».

أخشى كثيراً من أن تحكم هذه الجدلية المعقدة بين السلم والمساعدة الدولية العلاقات بين الشمال والجنوب، فى السنوات القادمة.

من جهة أخرى، تُطرح المشكلة بنفس التعبيرات تمامًا فيما يخص العلاقة بين التنمية والديمقراطية. منذ نهاية الحرب الباردة، اعتمدت الخطة الأوربية ـ الأمريكية لإحلال الديمقراطية على فكرة أن الديمقراطيات هى الأنظمة الأفضل التى تشجّع على السلام، وعلى حسن إدارة شؤون الحكم والتطور الاقتصادى والاجتماعى والثقافى.

ومن الثابت والمعترف به، بالتأكيد، أن إحلال الديمقراطية يسمح بمعالجة الفساد، أو بعبارة أخرى: بقدر ما تزداد صيانة الحريات العامة، بعدما يكون الحكام أقل فساداً. يكفى النظر إلى الأنظمة الأكثر فساداً فى السنوات الأخيرة، لنلاحظ أنها كانت فى كل الأحوال ديكتاتوريات تحوّلت إلى أنظمة تقوم على النهب والسلب.

إنى أول من يعترف كذلك بأن المؤسسات الملائمة للتنمية الاقتصادية لا يمكن أن تقوم وتعمل إلا فى محيط تسوده الديمقراطية. ولكن انطلاقًا من ذلك، إنه لمن الادعاء، بل أقول من الخطر، أن نؤكد أو أن نحوّل إلى ما يشبه العقيدة، الفكرة القائلة بأن التنمية تتلازم مع الديمقراطية، أو على عكس ذلك، بأن الديمقراطية تلازم التنمية.

لننظر إلى الواقع عن كثب: فى بعض الحالات، أنتج الازدهار الاقتصادى مستوى معيشيًا مرتفعًا وبحبوحة ساهما فى إحلال الديمقراطية، كما فى تايلاند، وتايوان، أو فى كوريا الجنوبية. وفى حالات أخرى، على العكس، أدّى النظام المتسلّط الذى يتسبب بوضع اقتصادى متدهور إلى إحلال الديمقراطية. تلك كانت الحال فى بلدان أمريكا اللاتينية، بعد عجز الديكتاتوريات العسكرية عن حل أزمة الدين فى الثمانينيات. تمامًا كما حصل فى إندونيسيا والفلبين.

فإذا لم نأخذ بعين الاعتبار خصوصية الحالات، يُخشى أن تراهن المؤسسات المالية الدولية على «العامل الاقتصادى المطلق»، متجاهلة الواقع السياسى والاجتماعى، أو أن نرى أصدقاء الديمقراطية وحقوق الإنسان «المستعجلين والمتطرفين» يتشبثون برأيهم حول «الشروط الملائمة».

باريس ـ الثلاثاء ١٧ آذار/مارس ١٩٩٨

جاك ضيوف، المدير العام لمنظمة الأغذية والزراعة، ومقرّها فى روما، يبدى استعداده لإقامة تعاون مع المنظمة الحكومية للفرنكفونية. وهذا الأمر يترجم بشكل ملموس بإعداد وتوقيع اتفاق تعاون، وبلورة عدد من المشاريع المشتركة.

انطلاقًا من ذلك، أخشى ألا يكون لدى الوكالة الحكومية للفرنكفونية ـ وهى أسيرة تقاليدها الجامدة ـ الإمكانية للتعاون مع منظمة دولية، فى ميدان كميدان الزراعة على درجة كبيرة من التخصص. مع ذلك يمكن لهذه الاستراتيجية أن تكون بغاية الفائدة. حين كنتُ أتولّى إدارة الصندوق الإفريقى للتنمية، تمكنتُ من حمل اليابان على أن تأخذ على عاتقها تدريب اختصاصيين أفارقة فى مصر، على زراعة الأرزّ. وقد أعطى هذا التعاون الثلاثى ـ مصر، اليابان، إفريقيا ـ نتائج رائعة. وهذا ما يؤكد مرة أخرى على ضرورة التعاون التام والمتزايد بين مختلف المانحين، إذا كنا نطمح إلى تحديد قدر من الفعالية فى المساعدة على التنمية فى إفريقيا.

باريس ـ الجمعة ٢٠ آذار/مارس ١٩٩٨

ها نحن أمام الرهان! لقد قبل الأمناء العامون، أو ممثلو ثلاث عشرة منظمة دولية بالمجيء إلى باريس للاحتفال باليوم العالمي للفرنكفونية.

بعد بضع كلمات ترحيب، أعطى الكلام للخطيب الأول، الرئيس إيميكا أنياوكو، الأمين العام للكومنولث، وكنتُ قد تعاونتُ معه إبّان الأزمة بين الكومنولث ونيجيريا. يلاحظ «أنها المرة الأولى التي يُدعى فيها أمين عام للكومنولث للمشاركة في احتفالات يوم الفرنكفونية»، وعلى الرغم من أن هناك سبع دول أعضاء في الكومنولث وفي الفرنكفونية في وقت واحد (الكاميرون، كندا، الدومينيك، موريس، سانت لوسي، سيشال، فاناتو). يختم مداخلته بتحية مدوّية «يحيا التعاون بين الفرنكفونية والكومنولث!».

يقدّم الدكتور عصمت عبد المجيد الأمين العام لجامعة الدول العربية عرضًا مقتضبًا عن منظمته، مذكّرًا بأنها تأسست في ٢٢ مارس عام ١٩٤٥، قبل تأسيس منظمة الأمم المتحدة، وأنها تضم الآن اثنان وعشرين بلداً مقابل سبعة بلدان يوم إنشائها. ثم يتناول فكرة أثيرة عندي مساهمة المنظمات الإقليمية في نشر الديمقراطية في العلاقات الدولية.

إيفان كوروتشينيا، الأمين العام لمجموعة الدول المستقلة، التي تضم روسيا والجمهوريات الفيدرالية في الاتحاد السوفيتي سابقًا، يذكّر في بدء حديثه بالزيارة التي قمت بها إلى مركز تلك المنظمة في مينسك، حين كنتُ أمينًا عامًا للأمم المتحدة، وبالجهود التي بذلتها لكي تحصل هذه المجموعة في مارس ١٩٩٤، على صفة مراقب لدى الأمم المتحدة. يجب القول إن وزارة الخارجية الأمريكية لم تنظر بعين الرضا إلى تلك المحاولة، لقناعتها بأنها كانت لا تزال في خضمّ الحرب الباردة. ثم يلفت الانتباه إلى الطابع الفريد لهذا التجمع الإقليمي «الوحيد من نوعه؛ لأن الجمهوريات ذات السيادة التي يتكوّن منها، كانت لفترة طويلة جزءاً من دولة فيدرالية واحدة. كما أن شعوب هذه الدول كانت تتكلم لغة وطنية مشتركة، هي الروسية، التي حافظت على وظيفتها كوسيلة تواصل بين القوميات. كما أن لديها تربية تحمل طابع ثقافة مشتركة».

تعبّر لينى فيشر عن سرورها للتعاون القائم منذ زمن بعيد بين المجموعة البرلمانية فى المجلس الأوربى الذى ترأسه، وبين المجموعة البرلمانية التابعة للفرنكفونية.

ثم يأخذ هادى أنّابى، مساعد الأمين العام لعمليات حفظ السلام، دوره فى الكلام فيقرأ رسالة كوفى أنان، التى يدعو فيها إلى ترسيخ التعاون بين الأمم المتحدة والفرنكفونية، لاسيما فى مجال الوقاية من النزاعات وإيجاد حلول سلمية لها، وهو مجال للتعاون يوليه الأمين العام لمنظمة الأمن والتعاون فى أوربا، جيانكارلو أراغونا أهمية خاصة.

من جهته، يشدّد هنرى لوبيس الذى يمثّل الأمين العام لليونيسكو، على ضرورة توحيد جهودنا للمحافظة على التراث الثقافى للشعوب.

وبالنسبة إلى مرسيلينو موكو، وهو زعيم سابق لأنغولا، والأمين التنفيذى الحالى لمجموعة البلدان الناطقة باللغة البرتغالية، إن التنوع المتعدد الأشكال الذى يميّز المنظمات الممثّلة اليوم هو انعكاس لواقع مزدوج: فمن جهة، إن التأكيد على الهويات الخاصة بكل منطقة يشكّل ضرورة حيوية لضمان احترام خصوصية ومساهمة كل شعب وكل منطقة فى تقدّم الجنس البشرى، فى مواجهة عولمة غير مضبوطة؛ ومن جهة أخرى، إن كل تأكيد للهوية يفرض الانفتاح على الآخر، ضمن روح التسامح والسعى الدائم لإيجاد قواسم مشتركة قابلة لأن تتجسّد فى مصالح متبادلة.

الدكتور عز الدين العرقى أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامى يشدّد على الاستراتيجية الثقافية والإعلامية التى تعتمدها المنظمة من أجل «إبراز الوجه الحقيقى للإسلام، وتصحيح الصور النمطية، وتجنّب الخلط المتسرّع بين ديانة مجيدة وإرهاب أعمى». فى هذا المجال يوضح أن منظمة المؤتمر الإسلامى كانت المنظمة الأولى التى تبنّت منهجًا سلوكيًا يقضى بمحاربة الإرهاب الدولى.

صديقى لانسانا كوياتى، الأمين التنفيذى للمجموعة الاقتصادية لبلدان إفريقيا الغربية، يعبّر عن أمله فى التقارب بين منظمتينا حول موضوع التعاون الضرورى بين الشمال والجنوب. فى هذا السياق يستعمل صورة جميلة: «إن العالم هو أشبه

بمُعيّن، أطرافه الأربعة مكوّنة من الشرق والغرب والشمال والجنوب. فإذا ما قرّبتَ بين الشرق والغرب، يميل الشمال إلى الابتعاد عن الجنوب. لنعملْ معًا لكى تكون اليد التى تقرّب الشرق من الغرب يدًا جامعة حانية تحضن الجهات الأربع، فى توق نبيل إلى جعل العالم أكثر عدلاً وإنصافًا».

أن نتعاون من أجل التنمية والسلام فى إفريقيا، هى كذلك الرسالة التى ينقلها سعيد جينّيت باسم الأمين العام لمنظمة الوحدة الإفريقية سليم أحمد سعيد.

ممثل جمعية أمم جنوب شرق آسيا السفير خامفان سيمّالافونغ، يحيى «سياسة الانفتاح المعتمدة من قبل الفرنكفونية، منذ قمة هانوى، والتى تأخذ بعين الاعتبار التعدد اللغوى والتنوع الثقافى فى العالم».

المتكلّم الأخير هو ممثل منظمة البلدان الأمريكية توماس بروس. يذكّر بأن الفرنسية هى لغة العمل فى منظمته، ولكنها أيضًا اللغة الأم لملايين من المواطنين فى بلدان أمريكا.

أشكر مجمل المشاركين وأدعوهم إلى غداء عمل نقوم خلاله برسم طرائق التشاور المؤسساتى الجديد على المستوى العالمى: تبادل الوثائق، إرسال مراقبين للمشاركة فى المؤتمرات المتعاقبة التى تعقدها منظماتنا المتعددة.

(بعد الظهر ...)

يستقبلنا جاك شيراك فى قصر الإليزيه، حيث يقول فى خطابه: «لم أُفاجىء بأن تكون فكرة هذا اللقاء قد خطرت فى بال صديقنا بطرس بطرس غالى. انفتاح الفرنكفونية على العالم، هكذا يتصوّر مهمته. إنه يود الإفادة من الريح المؤاتية ليعطى لحركتنا نفَسًا جديداً، وآفاقًا أوسع».

تلك كانت نيتى بالفعل، وهذه كانت الرسالة التى أكّدتُ عليها فى خطابى الختامى: إبراز إرادتنا، من خلال تدعيم اللغة الفرنسية، فى الدفاع عن التنوع اللغوى والثقافى. انفتاح الفرنكفونية على غير الفرنكفونيين، على باقى المجموعات اللغوية: الناطقون بالإسبانية، والبرتغالية، والعربية، والإنجليزية.

خوض معركة أشمل، من خلال الفرنكفونية، من أجل التعددية، ومن أجل إرساء الديمقراطية فى الحياة الدولية.

يتنقل الرئيس جاك شيراك من مجموعة إلى أخرى، مرحّبًا ومبتسمًا. ينفرد للحظات بالأمينين العامين لجامعة الدول العربية والكومنولث. يبدو أنه يعير أهمية خاصة لوجودهما في باريس للمشاركة في هذه المناسبة.

لقد كان هذا اليوم عظيمًا: انطلقت الفرنكفونية من عالمها الصغير لتنفتح على العالم.

باريس ـ الاثنين ٢٣ آذار/مارس ١٩٩٨

تحيى الجمعية الفرنسية للقانون الدولى، فى قصر اللوكسمبورج، ذكرى رئيسها الفخرى رينيه ـ جان دوبوى، الذى وافته المنية منذ وقت قصير.

لقد تعرّفتُ إلى رينيه ـ جان دوبوى غداة الحرب فى كلية الحقوق فى باريس فى ١٩٤٦. ثم التقيته عام ١٩٥٣ حين دُعى إلى جامعة القاهرة. فى عام ١٩٦٠ نلقى، نحن الاثنين، أول محاضرة لنا فى الأكاديمية الدولية فى لاهاى، حول موضوعات متكاملة فى العمق، ذاك أنه اختار أن يعالج قانون العلاقات بين المنظمات الدولية، فيما عالجتُ أنا مبدأ المساواة داخل هذه المنظمات. ومع ذلك، لم نكن قد تشاورنا فى الأمر... بعد بضع سنوات ننشىء مع بعض رجال القانون الآخرين مجموعة بحث للنظر فى إصلاح تلك الأكاديمية، وقد اجتمعت هذه المجموعة فى بيلاجيو فى إيطاليا، ثم فى بروكسيل، وبعدها فى لاهاى.

وبما أن للمصادفات دورها فى الحياة، تم تعييننا، نحن الاثنين، فى إدارة مركز الأبحاث، هو كمسئول عن المجموعة الفرنكفونية، وأنا عن المجموعة الأنغلوفونية. وخلال سنتين، سوف نلتقى لمدة ستة أسابيع فى لاهاى. وكذلك بعدها سوف ندخل سويًا فى مجلس إدارة الأكاديمية.

وفى عام ١٩٨٨، حين تمكنتُ من إقناع موريس دروان بأن المليون فرنك التى

تلقيناها من جيوفانى أنيلّى، لإنشاء كرسى للحقوق فى جامعة الإسكندرية، يمكن أن تُستخدم بشكل أفضل فى دراسة جدوى تأسيس جامعة فرنكفونية، كان من الطبيعى أن أتوجّه إلى رينيه ـ جان دوبوى ليشرف على هذه العملية، التى قادت إلى إنشاء جامعة سنغور فى الإسكندرية.

هذه الذكريات كلها تراود ذاكرتى فى هذا اليوم المخصّص لرينيه-جان دوبوى. يرأس الجلسة العميد جورج فيدال الذى كان أستاذى فى معهد العلوم السياسية. أول المتكلمين هوبير تييرّى رئيس الجمعية الدولية للقانون الدولى. يأتى دورى بعده فأذكّر أولا، بأنى وجانَ تابعنا على نفس مقاعد الدراسة، محاضرات معلّمنا جورج سال الذىَ أثّر فى مسيرتنا الأكاديمية. إن نقطة الانطلاق فى التزامى بديمقراطية دولية تعود إليه، وقد كان يستشرفها بهذه العبارات: «إن المجتمع الدولى لا ينتج عن تعايش الدول، ولا عن تجمّعها، بل على العكس عن تداخل الشعوب. فلأن هناك روابط عائلية وتجارية وطائفية وفكرية بين الشعوب، هناك مجتمع دولى قائم، ونظام قانونى دولى ينشأ عنه لتحقيق المجتمع القانونى».

هذا هو الموضوع الذى أردتُ التوسع به اليوم، إحياء لذكرى رينيه ـ جان دوبوى. فالمجتمع الدولى إما أن يكون ديمقراطيًا أو لا يكون. أتوقف مطوّلا عند هذا التناقض بين انتشار الديمقراطية على الصعيد الوطنى، وانتشار نظام غير ديمقراطى على المستوى الدولى، لما تُنتجه العولمة من سلطات جديدة تتخطى سلطة الحكومات الوطنية.

أعقبَ مداخلتى كلماتٌ لكل من البروفسور جيرار كوهين ـ جوناتان من فرنسا، خوان أنطونيو كاريلّو سلخيدو من إسبانيا، جان فلافيان لاليف من سويسرا، بينيديتو كونفورتى من إيطاليا. إنها أشبه بأمية حقيقية اجتمعت من أجل تكريم أخير لأممى بارز ولصديق عزيز.

كريستيان دوبوى حاضرة هنا، فى الصف الأمامى. تشيع التأثر من حولها. هى التى رافقت ودعمت جان بكل ثبات فى مغامرته الأكاديمية، والتى لم يكن لها هدف سوى تدعيم وترسيخ العلاقات بشكل مؤسساتى بين شمال وجنوب

البحر المتوسط، بين البلاد المالكة للثروات والبلدان المسلوبة الثروات على حوض المتوسط، وبصورة أعم في العالم.

رينيه ـ جان دوبوى الذى كتب: «إنكم تذكرون جيداً ملاحظة بول فاليرى، الذى كان يقول لنا عام ١٩١٩: «نحن، الحضارات، ندرك الآن بأننا إلى زوال». «الحضارات تموت الواحدة تلو الأخرى، ولكن الإنسانية تستمر وتدوس على جثث الحضارات الميتة، المكوّمة الواحدة فوق الأخرى. الإنسانية تدوم، وامتداد أجَلها لم يكن محدوداً، بينما نعلم الآن ـ وهذا اكتشاف حديث نسبيا ـ أنها يمكن أن تموت هى أيضًا إذا لم تُواجَه المخاطر التى تهددها: لا يقتصر الخطر على التسلّح فقط، وإنما يشمل التباينات الاقتصادية، وتشويهات البيئة، وفقدان التوازنات الديموغرافية، وتكاثر بعض الأمراض».

باريس ـ الخميس ٢٦ آذار/مارس ١٩٩٨

احتفال فى معهد العالم العربى، بمناسبة صدور كتاب شريف الشوباشى «لن تسقط القدس».

القدس، المدينة المقدّسة بامتياز. القدس، المدينة المقدسة بالنسبة إلى الديانات الكبرى الثلاث التوحيدية. القدس، التى يتنازعها منذ قرون رجال متلهفون للسلطة، ومتعصّبون فى الإيمان، تلازم تفكيرى على الدوام. عليها يتركّز جهدى، وإليها يرنو خيالى.

باريس ـ الجمعة ٢٧ آذار/مارس ١٩٩٨

مقابلة طويلة مع ريكاردو كرم لقناة تلفزيونية لبنانية. لقد أعدّ أسئلته بإتقان، وهى أسئلة تنمّ عن فطنة. أجدنى بغاية الرضا، بقدر ما ألزمنى ذلك على القيام بجهد حقيقى للتفكير. هذا الأمر لا ينطبق على الكثير من المقابلات التى أعطيها، حيث أكرّر بشكل آلى الأجوبة نفسها على الأسئلة ذاتها، مخفيًا ضجرى وراء ابتسامة مهذّبة.

باريس ـ السبت ٢٨ آذار/مارس ١٩٩٨

تقترح عليّ الشاهبانة، إمبراطورة إيران، كتابة مقدمة لمؤلف صغير مخصّص لزوجها الشاه. لم ألتقِ الشاه بصورة رسمية، سوى مرتين، ولم تتح لى الفرصة قط للتحادث إليه.

يشير عليّ معاونىّ أن أرفض العرض، بقولهم: «ليس لإيران أية علاقة بالفرنكفونية. فلا داعى لأن تستجلب انتقام آيات الله فى طهران».

لكن من المستحيل عليّ أن أرفض. أكرّس الفترة الصباحية لكتابة النص:

«ينبغى أن ننقل للشباب ما هو ذكرى بالنسبة إلى البعض، وما هو تاريخ بالنسبة إلى البعض الآخر.

كان ذلك يوم الاثنين ٩ يناير عام ١٩٧٨، فى مصر العليا، يوم قدّمنى الرئيس السادات إلى شاه إيران (...).

كان الشاه والسادات يرأسان حينها أقوى دولتين فى الشرق الأوسط. وسوف يعقدان «حلفًا مقدسًا لمواجهة الشيوعية، وليحوّلا المنطقة إلى منطقة سلم وأمن (...).

وبعد عام، نهار الثلاثاء ١٦ يناير عام ١٩٧٩، أُقيم الاحتفال الرسمى نفسه فى أسوان. ولكن الهدف من ذلك اللقاء الجديد لم يكن من أجل التخطيط لمستقبل المنطقة، وإنما من أجل ترتيب رحيل الشاه إلى المنفى. وسوف يموت بعد عام فى أرض مصر حيث لقى الضيافة التى حجبها عنه المجتمع الدولى».

أشعر، وأنا أعيد قراءة هذا النص، برضا عميق. أولاً لأنى تجاوبتُ مع طلب الشاهبانة، هذه الإمبراطورة الجميلة التى تتحمل ألم المنفى بوقار وعزة نفس. وثانيًا، لأنى ساهمتُ فى التذكير بما لا يجب أن يُنسى أبدًا، وهو أن كل الدول خانت الشاه، وكلها رفضت أن تقدّم له حق اللجوء إلى أراضيها. رئيس دولة واحد، أنور السادات، هو الذى تحلّى بالشجاعة وسمو النفس، فاستقبله واستضافه فى أرض مصر، حيث يرقد إلى الأبد.

باريس ـ الأحد ٢٩ آذار/مارس ١٩٩٨

ها قد مضى زمن لم أكتب فيه باللغة العربية. أجد صعوبة في صياغة الجُمل. يجب أن أقرأ نصًا كلاسيكيًا لأسترجع إيقاع وعذوبة لغتى الأم. أتنبّه أن فى مكتبتى نسخة من القرآن الكريم، فأغوص فيها لنصف ساعة.

فى نهاية فترة ما بعد الظهر، أسترجع أخيراً مرونتى السابقة فى الكتابة، وأشعر بفرح طفولى، وأنا أنسّق الجُمل، أكتب من اليمين إلى الشمال. منذ زمن بعيد وأنا لا أكتب إلا من الشمال إلى اليمين. أحضّر محاضرتى القادمة التى سألقيها فى بيروت حول موضوع إرساء الديمقراطية فى العلاقات الدولية.

باريس ـ الاثنين ٦ نيسان/ إبريل ١٩٩٨

جيروم بنديه الذى يدير حلقة «محادثات القرن الحادى والعشرين»، دعانى مع جاك أتالى للمشاركة فى نقاش فى اليونيسكو. وبما أنى لم أكن أعلم بالتحديد ما هو المطلوب منى، لم أحضّر شيئًا، وأقرّر ترك اللحظة تملى علىّ ما يجب قوله.

بادىء ذى بدء، يسألنى جاك إذا كان بإمكاننا أن نتخاطب بصيغة المفرد. أقبل دون تردد. أشرع فى النقاش: «نقطة الانطلاق للتعامل مع التحديات التى على الإنسانية أن تواجهها فى القرن الحادى والعشرين هى بدون منازع مسألة السلم والحرب». اخترتُ أن أوجّه النقاش نحو موضوع أنا متمكّن منه.

أُكمل حول ضرورة إيجاد حلّ للتناقضين الكبيرين اللذين يوتّران حركة المجتمع المعاصر كأنه يتقدم على حبل مشدود على الهاوية. الأول، بين ظاهرة العولمة، وما يقابلها من الانكفاء على الذات، وهو ما يسمّيه البعض جدلية الأقمار الصناعية وقبة الكنيسة، والتى تصبح فى بلدى جدلية الأقمار الصناعية والمئذنة. الثانى، هو التناقض بين الشمال والجنوب، بين الأثرياء الذين يزدادون ثراء، والفقراء الذين يزدادون فقراً.

يوافق جاك أتالى على كل ما قيل تقريبًا، ثم يضيف أنه حين تنهار الممالك،

وتتداعى الأنظمة الدولية، يتبقّى للإنسانية بارقة أمل عبر إعادة تنظيم المؤسسات الدولية. لسوء الحظ لم يتم هذا الأمر غداة الحرب الباردة. لماذا؟ لأننا ارتكبنا خطأ في التقدير: اعتقدنا بأن الغرب قد انتصر، وبأن قيَمه سوف تفرض نفسها نهائيًا على بقية العالم، فتشكّل دواء لكل علّة. وفق رأيه، نحن نعيش وهمًا يفترض أن السوق والديمقراطية سوف يؤمّنان للقرن الحادى والعشرين نظامًا مستقرًا لا عودة فيه إلى الوراء.

أوافقه على هذا التحليل السياسى الشامل، ولكنى أعتقد أنه يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار أحداث معينة. فهزيمة الرئيس بوش فى الانتخابات، بالإضافة إلى أكثرية انعزالية فى الكونجرس الأمريكى، ساهمتا فى جعل القوة العظمى ترفض الانخراط فى إرساء قواعد هذا «النظام العالمى الجديد»، الذى تمنى إرساءه إثر تحرير الكويت الرئيس المنتهية ولايته. لقد ساد اعتقاد ـ أو بالأحرى يجب القول إنى اعتقدتُ ـ بأن لدى الأمم المتحدة إمكانية إدارة فترة ما بعد الحرب الباردة. وسرعان ما بدا جليًا بأنها لا تمتلك الوسائل لذلك. مما شجّع فى مختلف مناطق العالم، وخصوصًا فى الولايات المتحدة، الموقف القائل «ليعملْ كلٌ لنفسه». نحن الآن فى وضع لا تزال فيه النزاعات بين الشمال والجنوب بدون حل، وأصبحت فيه، عمليًا، إدارة مرحلة ما بعد الحرب الباردة، من شأن بلد وحيد أوحد.

ما العمل؟ أعود إلى تلك الفكرة الأثيرة عندى حول إرساء الديمقراطية فى العلاقات الدولية، الذى تمرّ عبر المساهمة الفعلية للناشطين غير الحكوميين، فى بلورة سياسة دولية. يجب جديًا إشراك المنظمات غير الحكومية، والجامعيين، ووسائل الإعلام، ورؤساء بلديات المدن الكبرى، والبرلمانيين، وكذلك الشركات الكبرى، فى اتخاذ القرارات التى يكون لها انعكاسها على المستوى الكونى. أما الهوة التى تفصل بين الشمال والجنوب، فهى لا بد أن تتعمّق أكثر فأكثر. يذهب جاك أتالى أبعد من ذلك، ليقول إن المساعدة على التنمية كما تطبّق منذ خمسين عامًا تعتبر من أكبر فضائح المؤسسات الدولية فى القرن العشرين. وهى تترجم اليوم بتحويل سنوى لمبلغ صافٍ يتراوح بين ٣٥ و ٤٥ مليار دولار من بلدان الجنوب إلى بلدان الشمال...

هل يجب أن تكون المساعدة على التنمية مشروطة؟

بالنسبة إليَّ، كلا. فيما لجاك أتالى رأى مغاير: «على المؤسسات المالية الدولية أن تضع شروطًا، سيما فيما يخص الحد الأدنى من الالتزامات الديمقراطية. على المؤسسات الدولية أن تُلزم نفسها إنسانيًا بالتدخل، وهو ما يشكّل الخطوة الأولى نحو تشكيل ضمير كونى».

أعترض بأن الأمر يتوقّف على من يقرّر. إذا كان قرار فرض شروط يتخذ على المستوى الدولى، وبموافقة الجميع، فإنى أوافق. أما إذا كان هذا القرار حكراً على بعض الدول المهيمنة، فمن المؤكد أن هذه الشروط لن تكون سوى وسيلة مقنّعة لخدمة المصالح المباشرة لهذه الدول. وهنا بالطبع، أقول كلا!

يصل النقاش بعدها إلى فكرة المجتمع الكونى المنقسم إلى طبقات. يعتبر جاك أتالى أن هناك ثلاث طبقات: «الطبقة المحظوظة» التى تمتلك كل وسائل الإبداع والاستفادة من التقنيات، فتصنع الخبر وتتلاعب به. وهى التى يطلق عليها اسم «طبقة المرتحلين الطوعيين». وفى أسفل السلّم، هناك «طبقة المرَتحلين بسبب البؤس» الذين يخضعون للتقنيات، ويرون أنفسهم مجبرين على الارتحال لإيجاد عمل، أو بكل بساطة، للبقاء على قيد الحياة. وهناك أخيراً طبقة وسطى عريضة، تعيش على أمل خادع بالالتحاق بالطبقة المحظوظة، وفى خشية حقيقية من أن تنزلق فى الارتحال البروليتارى.

أستحضر تقسيمًا اعتمدتُه منذ عشر سنوات، فى كتاب صدر فى الاتحاد السوفيتى، بالاشتراك مع أناتولى غروميكو، وروبير ماكنمارا، وريشار ل. سكار، ولويس أشيفيرّيا. إنه تقسيم ثلاثى كذلك، صنّفتُ فيه سكان البلاد المتقدمة فى مجموعة أولى، وسكان المدن الكبرى فى البلدان النامية فى مجموعة ثانية، فيما ضمّت المجموعة الثالثة سكان الريف فى بلدان العالم الثالث. وقد حكمت هذا التقسيم فكرة أن التباعد بين هذه الطبقات الثلاث لا بد وأن يتعمّق؛ نظراً لأن نُخب المجموعة الثانية يتجهون إلى الهجرة نحو البلاد المتقدمة من جهة، ونُخب المجموعة الثالثة نحو المدن الكبرى فى العالم الثالث من جهة ثانية، مما يحكم على فضاءاتهم الأصلية بالمراوحة على طريق التنمية.

يمكن لهذا التقسيم الجغرافى أن يتطابق مع تقسيم جاك أتالى . وهو خاضع للتعديل مع ظهور تكنولوجيات المعلومات والاتصالات .

هل تفترض العولمة وجود تجمعات إقليمية قوية؟

هذا هو فحوى محاضرات جورج سال فى كلية الحقوق فى باريس، بين عامى ١٩٤٦ و١٩٤٧ . إنه هذا النوع من الفيدرالية الذى كنتُ متحمّسًا له طيلة عشرات السنين، والذى ناديتُ به فى محاضراتى فى جامعة القاهرة، وفى كتاباتى . وهأنا بعد ظهر هذا اليوم أتفاجأ بأن أرانى أتخلى عن كل ذلك! كيف يمكننا منطقيًا أن نطلب من بلدان الجنوب، ومعظمها لا يمتلك حتى بنية وطنية تستحق هذا الاسم، أن تنتظم فى بنى فيدرالية، وإقليمية، وقارّية؟ تراودنى جملة عربية اعتدتُ أن أستعملها مع طلابى : «ضعيف + ضعيف + ضعيف = ضعيف جداً» .

يجب استنباط أسس أخرى، بنى أخرى للتجمع، لا يمليها مجرد التجاور الجغرافى، بل تفيد مثلاً من الإمكانيات التى توفّرها التكنولوجيات الحديثة .

ينتهى النقاش . نشكر جيروم بنديه، ونذهب مسرورين، تقريبًا مثل لاعبى كرة المضرب بعد مباراة ممتعة .

باريس ـ الأربعاء ٨ نيسان/إبريل ١٩٩٨

يمُنح كتاب «طريق القدس» «جائزة المتوسط»، فتتم دعوتى إلى حفل غداء فى مطعم «كلوزرى دى ليلا»، حيث ألقى خطابًا لا يسمعه أحد، على الرغم من مكبّر الصوت؛ لأن الضجيج يعمّ المطعم . شخص وحيد يبدو أنه يستمع إلىّ؛ لأنه جالس بقربى، هو جان دورمسّون، الذى يُكمل بطريقة ذكية ومتميّزة بعض الأفكار الواردة فى خطابى .

روما ـ الجمعة ١٧ نيسان/إبريل ـ السبت ١٨ نيسان/إبريل ١٩٩٨

أمضى يومين فى روما، فى إطار نشاطاتى فى الجمعية الدولية للتنمية . على

جدول الأعمال، التصديق على الموازنة، ودرس برنامج العمل. ثمة عالم يفصل بين الباحثين الشباب المنصرفين إلى أعمالهم ومنشوراتهم، والشيوخ المتمرّسين، المهتمين بالقيام باتصالات دولية، من أجل تأمين موارد، وتنظيم مؤتمرات كبرى، بغية التذكير بهذه المؤسسة، التى تعانى منافسة شرسة. إن المنظمات الدولية من هذا النوع لا تحصى، ومعظمها يتمتع بدعم الدول، ولديها موارد ثابتة.

أنتظر بفارغ الصبر انتهاء ولايتى. ليس لدىّ الوقت لأقوم بمهامّى كرئيس. أتداول مع الأمين العام روبيرتو سافيو بمسألة اختيار خلفى. يتوجّه تفكيرنا نحو مارتى اهتيزآرى، الرئيس الحالى لجمهورية فنلندا، الذى سأتصل به.

روما ـ القاهرة ـ الأحد ١٩ نيسان/إبريل ١٩٩٨

أغادر روما متوجّهًا إلى القاهرة بعد ظهر يوم مشرق. إنه الظرف المؤاتى لكى أسأل نفسى إن لم يكن الوقت قد حان للعزوف عن كل هذه الاجتماعات، والبدء بتعلّم التمتع بالحياة، والاستمتاع بالطبيعة، وبمشهد غابات النخيل، وغياب الشمس على الصحراء ورمالها المذهّبة.

لحظة هبوط طائرتى فى القاهرة، تنتابنى دائمًا وأبدًا نفس المشاعر، نوع من رعشة الحنين، وشعور بالخيانة لمصر. ألوم نفسى، ويلومنى أصدقائى على غيابى المتكرّر فى «بلاد برّه».

البقاء فى القاهرة، العمل فى القاهرة، حب القاهرة.

القاهرة ـ الاثنين ٢٠ نيسان/إبريل ١٩٩٨

هأنا فى وسط مكتبتى، بين كتبى. جو من الإهمال لا أريد تفسيره. قليل من الغبار. اهتمّ عبودة، خادمنا المخلص، بنزع غطاء المقاعد قبل وصولنا. المنظر على النيل كعادته بغاية الجمال.

اليوم هو شم النسيم، عيد الربيع، أى بالمعنى الحَرفى «شمّ الربيع». إنه عيد

وطني، مستوحى من التقليد الفرعوني. إنه يوم أكثر إشراقًا، وأكثر صفاء من باقي الأيام. يشكّل دعوة للتنزه في الحدائق العامة، للاسترخاء وتناول الطعام فوق العشب، للتجوال في الريف. حين كنتُ طفلاً كان أهلي يحتفلون بشم النسيم في الريف، حيث درجت العادة بأن نتناول إفطار الصباح التقليدي، وبعدها الغداء، على شرفة بيتنا.

أبقى وحيدًا، منغلقًا على ذاتي، أستعيد ذكرياتي، وأرتّب أوراقي. على مكتبي بريد متكدّس، لم يفطن أحد إلى إرساله إليَّ في باريس.

القاهرة ـ الثلاثاء ٢١ نيسان/إبريل ١٩٩٨

توقيع اتفاق تعاون بين جامعة الدول العربية والفرنكفونية، في مقر الجامعة. خطابات، تهاني، تصريحات صحفية، مقابلة في التلفزيون.

(بعد الظهر ...) تُوفي شمس الوكيل، وهو زميل وصديق، وطليع دورتنا عام ١٩٤٦ في كلية الحقوق في القاهرة. بعد الظهر يُقام حفل تلاوة القرآن. كل زملائي القدامى في الكلية حاضرون. رجال مسنّون، عجزة؛ بعضهم يضع طاقم أسنان غير ملائم، مما يجعل وشوشاتهم غير مفهومة، بعضهم الآخر لا أستطيع حتى التعرّف إليهم لفرط ما بدّلتهم الأيام. ننتظر حتى ينتهي الشيخ من تجويد الآيات القرآنية، حتى نغادر المسجد ونقدّم التعازي إلى عائلة الفقيد.

كنتُ على قدر كبير من التفاهم مع شمس الوكيل. لقد أمضينا معًا السنوات الأربع لدراسة الحقوق في القاهرة، ثم التقينا في كلية الحقوق في باريس، حيث أنجزنا دراساتنا العليا. آخر مرة التقينا فيها، كانت في الكويت حيث أتيتُ كأمين عام للأمم المتحدة. كان يعمل حينها في مركز للأبحاث. وكانت مناسبة لنستعيد ذكرياتنا الطالبية، وإقامتنا في باريس، هو في فندق كلود-برنار، وأنا في فندق تريانون، ولقاءاتنا في المطاعم الصغيرة في الحي اللاتيني، ومغامراتنا العاطفية.

القاهرة ـ السبت ٢٥ نيسان/إبريل ١٩٩٨

أستعيد الحيوية فى مزرعة كفر عمّار، برفقة أخوىّ. كفر عمّار... مصر العميقة، أثمن ما فى طفولتنا، وفى شبابنا.

آن الوقت لكى نقرّر تقاسم التَركة التى بقيت على حالها منذ وفاة والدى. هذا يتطلّب الوقت والنشاط. نتكلّم كثيَراً، ولكن لا أحد لديه رغبةَ حقيقية بالقيام بهذه المهمة. لدىّ انطباع بأن ورثَتنا سوف يرثون كذلك جزءاً من هذه المشكلة. أهذه أنانية من قبلنا؟ أم تراه الإرهاق؟ إلا إذا كاَن الأمر ببساطة زهد الشيخوخة.

بيروت ـ الأحد ٢٦ نيسان/ إبريل ١٩٩٨

الفرحة بلقاء بيروت فى كامل حيويتها. طرقات جديدة، أنفاق، أبنية قيد التعمير، ولكن، بالقرب منها، لا تزال آثار التدمير التى خلّفتها الحرب الأهلية، تذكر بالكابوس الذى عاناه الشعب اللبنانى، خمسة عشر عامًا من المصائب والعذابات، وكثير من أصدقائى الذين تقاتلوا هنا فيما بينهم.

بيروت ـ الاثنين ٢٧ نيسان/إبريل ١٩٩٨

افتتاح احتفالى للمؤتمر الذى تنظمه الوكالة الجامعية للفرنكفونية حول العولمة، بحضور رئيس الجمهورية إلياس الهراوى.

أقرأ خطابى، يقرأ رؤساء الجامعات خطبهم، ويقرأ رئيس الجمهورية خطابه بالفرنسية، ثم أفاجىء بدعوته لى للعودة إلى المنصة. للوهلة الأولى ظننتُه نسى أنى قد ألقيتُ كلمتى. هل المطلوب أن أُلقى خطابًا ثانيًا؟ أستجيب لرغبته، دون أن أعرف كيف أتصرّف. يرتجل قائلا:

«اسمحوا لى أن أتكلّم بالعربية، على الرغم من أن المناسبة فرنكفونية. أود أن أسلّم الدكتور بطرس غالى أعلى وسام وطنى؛ نظرًا للشجاعة التى يبديها دائمًا فى الدفاع عن لبنان».

يُكيل لى المديح لنحو خمس دقائق. يذهب التفكير بالجميع إلى قصف قانا من قبل الإسرائيليين، وإلى التقرير الذى نشرتُه، على الرغم من معارضة القوة العظمى. شجاعة ساهمت فى عدم تجديد ولايتى.

عاصفة طويلة من التصفيق. جميع من فى القاعة يقف. المفاجأة خلّفت التأثر. لم يكن بوسعى أن أتفوّه بكلمة واحدة. يقلّدنى الرئيس الوسام، تتشابك أيدينا، قبل أن نغادر المنصة على وقع هتاف الجمهور. يقول لى على حدة: «أنت تُعتبر فى لبنان بطلاً قوميًا. وغدا سوف تزور قانا».

عشاء فى منزل غسان توينى، فى بيت مرى، وهى قرية تشرف على بيروت. المناخ هنا جبلى، الهواء بارد ومنعش، بعكس الرطوبة الثقيلة والدبِقة التى تلفّ بيروت بشكل دائم.

لقد برع غسان توينى فى كل المهن التى مارسها، سواء كصحافى، أو ككاتب، أو كسفير أو كوزير. إنه على رأس المؤسسة التى تُصدر «النهار» إحدى كبريات الصحف اللبنانية اليومية، والتى يديرها ابنه اليوم.

يتمحور الحديث حول موضوع واحد تقريبًا: قرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥، الصادر منذ سنوات، والذى يقضى بالانسحاب الفورى وغير المشروط للقوات الإسرائيلية من الأراضى اللبنانية.

بيروت - الثلاثاء ٢٨ نيسان/إبريل ١٩٩٨

يكلّمنى الرئيس إلياس الهراوى بكل صراحة عن مشاكله مع رئيس الوزراء رفيق الحريرى:

«لقد أمضى خمسًا وعشرين سنة من عمره فى المملكة العربية السعودية، حيث جمع ثروته، ومن حينها وهو يتصرّف كأمير سعودى، أكثر من كونه مواطنًا لبنانيًا».

التقيتُ الرئيس الهراوى للمرة الأولى فى العام ١٩٩٦، فى نيويورك. أعطانى

لمحة موجزة عن الوضع السياسى فى لبنان. وقد أثّر فى نفسى كثيراً وضوحُ أقواله، واختيار كلماته المعبّرة، وفنه فى الإقناع. البارحة أيضًا تأثّرتُ بشدة بالخطاب الذى ارتجله، وبأناقة تعبيره. إنها موهبة أحسده عليها. لأكثر من ثلاثين عامًا كان علىّ أن أخطب أمام جماهير فى غاية التنوع، ومع ذلك ليس باستطاعتى أن أتعامل مع اللغة العربية بنفس السلاسة التى يمتلك ناحيتها.

(فى السهرة...) يدعونا وزير الخارجية فارس بويز على العشاء. على طاولتنا رئيس جمهورية فيدجى، راتو سير كاميزيزى مارا، الذى أتى لتفقد قوات بلاده التى تشارك عبر الأمم المتحدة فى عمليات حفظ السلام فى جنوب لبنان. إنه يتصرّف مثل لورد إنجليزى. خلال عشاء أقامه لى فى القصر الرئاسى، فى أثناء زيارتى الرسمية إلى فيدجى عام ١٩٩٦، كدتُ أظن نفسى فى قصر باكنجهام؛ لفرط ما كانت مراسم التشريفات بغاية التعقيد.

قانا ـ الأربعاء ٢٩ نيسان/إبريل ١٩٩٨

مؤثر هو مشهد سكان هذه البلدة الصغيرة، المحتشدين فى الشوارع. يافطات كبيرة ترحّب بى. ما إن أترجّل من السيارة، حتى يحاوطنى الحرس بشكل لصيق. أضيع بين الحشود. يرافقونى إلى ضرائح ضحايا القصف الإسرائيلى. إنها لحظة تأثر بالغ.

قانا، «كأنها جوقة من العويل». بهذه العبارة وصف موظفو الأمم المتحدة الذين كانوا يتواجدون على مسافة من مخيم قانا تتجاوز الكيلومتر بقليل، المأساة التى حصلت فى يوم ١٨ إبريل عام ١٩٩٦. يومها انهالت قذائف المدفعية الإسرائيلية على مبانى الأمم المتحدة، حيث لجأ النساء والأطفال، لظنهم بأنه مكان آمن. قال الإسرائيليون إنها «غلطة»، بينما رأى كلينتون أنه «خطأ مأساوى فى التصويب»، فى الوقت الذى رأت فيه «الواشنطن بوست» أنه إثبات على أن «الأسلحة المتطورة ليست معصومة من الخطأ».

اتصل بى هاتفيًا وزير الخارجية الإسرائيلى إيهود باراك، وطلب إلىّ ألا أنشر

تقريرى قبل لقاء أحد الجنرالات الإسرائيليين، الذى سيأتى خصّيصًا إلى نيويورك ليشرح لى ظروف هذا القصف الذى لم يحصل عن «عمد وتصميم». أما إيعازات الإدارة الأمريكية التى اتسمت بسرّية أكبر، فقد بلغتنى أولا من خلال وسطاء: «إذا نشرتَ هذا التقرير، فذلك سيسىء ربما إلى شمعون بيريز الذى يخوض حاليًا معركته الانتخابية، ومن الأجدى للعملية السلمية، وكذلك للفلسطينيين أن يربح حزب العمال الانتخابات». ثم لم تلبث هذه النصائح أن اتخذت أشكالاً ضاغطة: «لا تنشر هذا التقرير، واكتفِ بتقرير شفهى أمام مجلس الأمن. إنه حل وسط يُرضى الجميع».

بعد ذلك بوقت قليل، وخلال أحد الاجتماعات، قدّم كوفى أنان الذى كان حينها مسؤولا عن قسم عمليات حفظ السلم، وبمبادرة شخصية منه، صيغة معدّلة لهذا التقرير أُعدّت بطريقة ترضى الإسرائيليين والأمريكيين. استشطتُ غضبًا، وصحتُ متوجّهًا بالكلام إلى فريق المساعدين: «ثمة خلل ما فى مملكة الدانمارك!». ثم أضفتُ: «أيها السادة، أنا المسؤول عن هذه المؤسسة، وأنا أنوى، ومهما كلّف الأمر، أن أنشر التقرير الأصلى الذى تقدّم به العسكريون الذين أوفدتهم إلى مكان الحادث».

لاحقًا، قال البعض إنى كنتُ أعلم عند نشر هذا التقرير، أن الإدارة الأمريكية واللوبى الصهيونى سيعارضان بكل حال إعادة انتخابى. مع مرور الزمن، أستطيع القول بكل راحة بال إننى، وخلافًا لكل المزاعم، كنتُ حينها على قناعة بأن إعادة انتخاب بيل كلينتون سوف تبدّل موقف الولايات المتحدة تجاهى، تحت ضغط العديد من رؤساء الدول المؤيدين لترشيحى. كما كنتُ مقتنعًا بأن نشرى لهذا التقرير سوف يُبطل نهائيًا أى إمكانية تحوّل فى السياسة الأمريكية. مع ذلك، لم أتردّد لحظة واحدة، على الرغم من نصائح التروى التى قدّمها إلىَّ أقرب معاونىّ. كان ذلك واجبى. وكان علىّ القيام به من أجل النساء والأطفال الذين فتكت بهم الآلة العسكرية الإسرائيلية.

لم أندم قط على هذا القرار، خصوصًا حين أرى ـ كما هو الحال اليوم ـ أضرحة

ضحايا قانا، والألم الذى لا يزال ماثلا على وجوه الناس الذين لم يتمكنوا من النسيان. بالإضافة إلى ذلك، أشعر ببعضٍ الرضا الذاتى، لكونى أستطيع أن أقول بأنى ساهمتُ، وإن بشكل محدود، فى لفت الانتباه إلى عذابات الشعب الفلسطينى.

اليوم فى قانا، لا أدرى إن كان التأثر يتأتّى من هذا الجو المثقل بالمآسى والعذابات والموت، ولكن حين تقترب منى امرأة عجوز ترتدى ثيابًا فقيرة لتشكرنى على «ما فعلته من أجل قانا ولبنان»، تنهمر الدموع من عينيّ. لم يكن باستطاعتى، ولم أكن أريد أن أخفى هذا التأثر.

تنظر إلىّ المرأة العجوز مندهشة، وتقول بكل رقة: «ليكن الله معك، ليحفظك الله»، قبل أن تبتعد بخطى بطيئة ومتعبة.

إن بركة هذه المرأة العجوز كانت بالنسبة إلى من المحطات البليغة فى مأساة قانا.

بيروت ـ الخميس ٣٠ نيسان/إبريل ١٩٩٨

يقدّم لى رئيس الوزراء رفيق الحريرى تحليلاً واقعيًا ودقيقًا عن الوضع السياسى والاقتصادى للبنان. يأمل للقمة الفرنكفونية التى ستنعقد فى العام ٢٠٠١ أن تجد لبنان وقد أُعيد بناؤه ونَعِم بالازدهار.

يعاتبنى بتودد لكونى فضّلتُ قبول دعوة وليد جنبلاط على الغداء اليوم، بدل حضور الغداء الذى كان ينوى دعوتى إليه. ألفت انتباهه، وبلهجة التودد ذاتها، إلى أن جنبلاط دعانى منذ عشرة أيام، حين كنتُ لا أزال فى باريس، بينما لم تصلنى دعوته سوى البارحة. يذكر جاك شيراك فى حديثه أكثر من مرة، ويلقّبه بـ «الصديق الكبير».

الانطلاق إلى الشوف معقل الدروز فى الجبل، على مسافة ساعة من بيروت. وليد جنبلاط هو اليوم زعيم الدروز بلا منازع. لقد عرفتُ والده ووالدته مى جنبلاط، ابنة الأمير شكيب أرسلان. لقد اهتم بإعادة بناء وترميم قصر والده.

جمعت الأميرة الأم، مى جنبلاط، على شرفنا، جميع الأصدقاء: بول خلاط، عاصم صائب سلام، غسان تويني ... وزوجاتهم، جانين دبّانة ...

وليد جنبلاط هو عضو فى الحكومة، ولكنه لا يبدو على انسجام مع رئيس الوزراء. فعلاقات «شد الحبال» داخل الطبقة السياسية، هى بغاية التعقيد، ويصعب رصد خيوطها. هذا، دون أن ننسى الدور الأساسى الذى تلعبه سوريا فى السياسة الداخلية فى لبنان.

(فى نهاية بعد الظهر ...) محاضرة حول إرساء الديمقراطية فى العلاقات الدولية. القاعة مزدحمة. أبدأ بقراءة النص العربى الذى كتبته فى باريس. ولكن بعد قليل لم أعد أشعر بالرغبة فى الرجوع إلى النص، وأتكلّم لساعة دون النظر إلى أوراقى. ثم أخوض بالنشاط الجسدى نفسه فى النقاش الذى أعقب المحاضرة. لقد فعل الأدرينالين فعله. هل يعود الأمر إلى الاستقبال الذى لقيته البارحة فى قانا؟ أوإلى الموضوع الذى أصبحتُ متمكنًا منه؟ أو إلى إصغاء الجمهور الجيّد؟ أو إلى فرحتى للتكلم مجدداً بالعربية؟ لا أستطيع أن أحدّد بالضبط سبب هذا الارتياح وهذه المرونة الرائعة.

باريس ـ الجمعة ١ أيار/مايو ١٩٩٨

باريس فى قبضة السماء المكفهرّة والمطر. بدأتُ أشتاق إلى مصر ولبنان، موطنا طفولتى وشبابى بل عالمى. يقودنى التفكير إلى هؤلاء المنفيين، الذين لا أمل لهم فى العودة، والذين ليس لهم من عزاء سوى ذكرى مضيئة وملحة لمشاهد من حياتهم الماضية.

باريس ـ الاثنين ٤ أيار/مايو ١٩٩٨

الاجتماع الأول فى اليونيسكو لأعضاء الفريق الدولى العاملين فى لجنة الديمقراطية والتنمية. أعددتُ مخططًا أوليًا تتوزّع موضوعاته على محورين: الأول مخصص للروابط بين التنمية والديمقراطية على الصعيد الوطنى، والثانى لتأثير العولمة فى الروابط بين الديمقراطية والتنمية على الصعيد الدولى.

يتم التوافق على الطابع العالمى للمبادىء الديمقراطية الأساسية، ولكن مع وجوب الأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات التاريخية والثقافية لكل مجتمع. بعبارة أخرى، بعد أن أكّدنا على الطابع العالمى لمفهوم الديمقراطية، تركنا الباب مفتوحًا بشكل يسمح بتبرير كل الاستثناءات، وكل «المراحل الانتقالية الضرورية».

أما مفهوم التنمية فطرح إشكاليات أقل؛ نظرًا لأن كل الناس اليوم يتوافقون على الإقرار بأن التنمية لا تقتصر على التطور الاقتصادى، وبأن لها أيضًا بعدًا اجتماعيًا وثقافيًا. لم يكن هناك من صعوبات كذلك فيما يتعلق بموضوع الارتباط الوثيق بين الديمقراطية والتنمية، مع بعض الفروقات فى التحليل.

رأى البعض أن هذا الارتباط يعود للفرد الذى تحرّكه مباشرة مطامحه وحقوقه. فيما رأى آخرون أن الموضوع يتعلّق بالحق فى التنمية وفى الديمقراطية، كما نصّت عليه مختلف الصكوك القانونية التى حدّدتها الأمم المتحدة. وبالنسبة إلى فريق ثالث، إن مفهوم الديمقراطية يتخطّى الأطر القانونية والمؤسساتية، ويجب أن يتجسّد فى حالة ذهنية تحكمها قيم التسامح والتضامن واحترام الآخر.

يقودنا ذلك إلى نقاشات طويلة حول مفهوم ثقافة الديمقراطية، التى يصعب توضيحها، كما هو الحال مع مفهوم ثقافة السلام، وهو الموضوع الذى يشغل بال فيديريكو مايور منذ عدة سنوات.

بعد الغداء، نناقش العوائق فى وجه الديمقراطية. التفاوت فى المداخيل والثروات، غياب التربية والتدريب، المؤسسات القانونية المهترئة. كيف السبيل إلى تخطى هذه العوائق؟ يتوافق أعضاء الفريق الدولى على اعتبار التربية أول الأولويات، وشرطًا لا يمكن إغفاله.

أشعر أنهم مستعجلون لرفع الجلسة. فالكل لديه مشاريع للسهرة، وهم ينوون الإفادة من إقامتهم القصيرة فى باريس.

باريس ـ الثلاثاء ٥ أيار/مايو ١٩٩٨

يوم عمل ثان. اليوم نناقش موضوعي المفضّل، لذا قبلتُ ترؤس اللجنة: الديمقراطية على الصعيد الدولي، الديمقراطية العالمية.

سرعان ما يبدي بعض أعضاء الفريق الدولي اعتراضهم، بحجة أنه لا سبيل للمقارنة بين الديمقراطية الوطنية والديمقراطية الدولية، ومن الصعب الموازاة بينهما. فضلاً عن ذلك، إذا كان كل الناس يعتبرون متساوين بحكم القانون، فإن القضية تختلف حين يتعلّق الأمر بالدول، وبالأطراف الفاعلة غير الحكومية في المجتمع الدولي.

أمتنع عن التدخل؛ لأني، من جهة، أرأس هذه اللجنة، ولأن فضولي كان يدفعني إلى سماع وجهة نظر كل واحد منهم، من جهة أخرى. لا يطول الأمر حتى تبدأ الحجج الداعمة لتحليلي تتبلور. يلتقي جميع الأعضاء حول فكرة النقص الفاضح في الديمقراطية في العلاقات الدولية.

يقدّم البعض مثال البرلمان الأوربي، الذي يتيح تمثيل الشعوب خارج الحدود الوطنية، ليخلص بأن أحد أهداف الديمقراطية الوطنية هو إرساء أسس الديمقراطية الدولية. وإذ يجمعون على ضرورة وجود سلطة مضادة على الصعيد العالمي، يستنتجون أن الإقليمية هي الشكل الأكثر ملاءمةً لهذه السلطة المضادة. في الوقت الحاضر، تعتبر المنظمات الدولية الأدوات الوحيدة التي يمكن أن تؤمّن الحدّ الأدنى للديمقراطية في العلاقات بين الدول، وأن تساهم في الإدارة العالمية للمشاكل التي يصعب حلّها يومًا بعد يوم على مستوى الدولة ـ الأمة. وهذا لا ينفي الاعتراف بالخلل اللاحق بالديمقراطية داخل منظمة الأمم المتحدة وجمعيتها العامة، التي لا يُنتخب أعضاؤها ديمقراطيًا. هل يجب اعتماد التمثيل المثلّث الأطراف، أسوة بالنموذج الذي يطبّق في منظمة العمل الدولية، حيث يتمثّل العمال وأرباب العمل والدول؟ هل يجب اعتماد التمثيل الثنائي، حيث يتواجد البرلمانيون إلى جانب ممثلي الحكومات؟

بعد الظهر، نعالج موضوع العلاقة بين الديمقراطية والسلام. هنا أيضًا، نقرّ

بالإجماع بأن النظام الديمقراطى هو الكفيل بتحقيق السلم؛ لأن الديمقراطية تسعى لحل النزاعات عبر الوساطة والتحكيم. هذا يعنى أن الكثير من النزاعات الدولية تنشأ عن أوضاع داخلية غير مستقرة. ولكن إذا كانت الديمقراطية تؤمن ظروفًا ملائمة للسلم، فهى لا تشكل حكمًا ضمانة له. يرى بعض أعضاء الفريق أنه، لدى بلوغ درجة من التطور والديمقراطية، لا شىء يضمن عدم حدوث انتكاسة. فضلاً عن ذلك، لا شىء يؤكّد استحالة حدوث نزاع بين دولتين ديمقراطيتين، على عكس ما يدّعى دعاة السلم الديمقراطى، وعلى رأسهم الولايات المتحدة.

باريس ـ الأربعاء ٦ أيار/مايو ١٩٩٨

هذا الصباح، أدوّن انطباعاتى الأولى عن اجتماع البارحة: لا بد من الاعتراف أولا بأنه ما من شىء أكثر تعقيداً من إدارة مجموعة مثقفين متميّزين. كل واحد منهمّ يتمترس خلف نظرته للأمور، لا بل يحاول فرضها على الآخرين. بالنسبة إلى القاضى كيبا مباى من السنغال، العدالة هى أساس الديمقراطية. أما بالنسبة إلى روزيسكا دارسى دى أوليفييرا، من البرازيل، فيجب البدء بإصلاح الخلل المتمثل بانعدام المساواة بين النساء والرجال. السفير غيو جيادنغ، من الصين، يعتبر أن الدفاع عن الخصوصية الوطنية، هو الذى يسمح بالتنمية الديمقراطية. فيما محمد شرفى، من تونس، يرى أن الأصولية الدينية هى التى تهدّد الديمقراطية...

بالإضافة إلى ذلك، لاحظتُ أن أعضاء الفريق يرغبون فى إبقاء نقاشهم على المستوى الفكرى والنظرى، ولا يولون الاهتمام نفسه للخلاصات العملية التى يمكن التوصل إليها، وللتوصيات التى يمكن صياغتها.

أخيراً لا بد من القول إن نقطة الضعف الحقيقية للفريق الدولى هذا، هى أننا على جهل تام بكل ما أنجزته اليونيسكو وسائر المنظمات الدولية فى هذا المجال. وقد كان من المفيد لو قامت الأمانة بوضع كل هذه الوثائق بتصرفنا منعًا لتكرار الأفكار التى سبق أن قيلت، ولاعتماد ما يكون قد تقرّر سابقًا.

ولكن يجب أن أعترف بأن الحوار بين قانونيين، وبرلمانيين، وعلماء اجتماع،

ودبلوماسيين، أتوا من آفاق مختلفة، ويتمتعون بخبرات متنوعة، وبمفاهيم متباينة، يشكّل تدريبًا ذهنيًا عالى المستوى. ومن إيجابيات هذا الأمر كذلك، إلزام نفسى بعدم التدخل للدفاع عن رؤيتى للأشياء، والتعوّد مجدداً على الاستماع. ذاك أن التعليم الجامعى والمسؤولية السياسية، قادانى إلى الاستماع إلى نفسى أكثر مما أستمع للآخرين.

لاهاى - السبت ٩ أيار/مايو ١٩٩٨

نلتقى كمجموعة من اثنى عشر رجل قانون من ذوى الخبرة العالية، مرتين فى السنة، فى باريس أو فى لاهاى، فى إطار مجلس إدارة أكاديمية القانون الدولى.

إنها مناسبة لكى يتفحّص واحدنا الآخر ويرصد الأضرار التى تسبّب بها التقدم فى السن. جيوب أكثر وضوحًا تحت العيون، مشية أكثر تردداً، ظهر أكثر انحناء، فقدان سمع حديث العهد، بدايات أعراض مرض البركنسون. ومع الوقت، أصبح أكثر شيوعًا أن نبدأ جلستنا بدقيقة صمت لاستذكار واحد منا تكون قد وافته المنية. فى تلك اللحظة من الخشوع، لا أستطيع الامتناع عن تفحّص وجوه زملائى، ويبدو أن السؤال الذى يطرحه البعض على أنفسهم هو «من سيأتى دوره فى المرة المقبلة؟».

إن تعيين عضو خلفًا لآخر يتسبّب فى محاورات لا تنتهى، والعديد من الاتصالات الهاتفية الآتية من وراء البحار. ذاك أنه يجب مراعاة التمثيل الجغرافى، وكذلك احترام التخصصات المتنوعة. وفى الوقت عينه، يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار طبيعة العلاقات التى تربط المرشح بحكومته، والمساهمات المالية التى يكون فى وسعه تأمينها للأكاديمية.

ومن مهمات مجلس الإدارة اختيار الموضوعات التى ستُعالج فى دورات مقبلة فى الأكاديمية، وتسمية الأساتذة الذين سيُدعون لإلقاء المحاضرات. وهنا أيضًا لا بد من مراعاة التوازنات الدقيقة. التوازن بين الموضوعات الكلاسيكية التى تشكل القاعدة الثابتة للدورة، والموضوعات المستجدّة المرتبطة مباشرة بقضايا الساعة على

الصعيد الدولي. التوازن بين الحقوقيين الأنغلوفونيين والحقوقيين الفرنكفونيين؛ لأن الإنجليزية والفرنسية هما لغتا العمل فى الأكاديمية. يميل أعضاء اللجنة بشكل واضح إلى اقتصار الدعوات على زملائهم الأوربيين والأمريكيين. وفى كل مرة، أرى من واجبى أن أدافع عن مصالح أساتذة العالم الثالث.

إن تدريس مادة فى أكاديمية لاهاى يعتبر تكريسًا بالنسبة إلى أستاذ القانون الدولي. بعبارة أخرى، إن عدم الحصول على شرف تدريس مادة فى لاهاى يشكّل إساءة توازى فى مدلولها عدم قبول شخص كعضو فى الريفر كلوب فى نيويورك، أو فى نادى محمد على فى القاهرة قديمًا. وبقدر ما يكون السيد صغيرا بقدر ما يكون ذلك مدعاة لافتخار كبير. فى العام ١٩٦٠، كانت المرة الأولى التى درّستُ فى الأكاديمية مادة «مساواة الدول فى المنظمات الدولية». لم أكن أبلغ حينها سن الأربعين. إنه أداء مقبول، كما شرح لى بعدها أحد جهابذة الأكاديمية، لأن فلان حين بدأ لم يكن سوى فى الثلاثين من عمره. أذكر هذا لأدلّل على التنافس المغلّف بالتهذيب الذى يختبىء وراء النقاشات داخل مجلس الإدارة، حيث يسعى كل واحد لفرض اسم شخص يحظى برعايته. ولكن لا بد من القول إنه من بين كل المنتديات التى شاركتُ فيها، يبقى هذا المجلس هو الذى يضم العدد الأكبر من اللامعين، وهو الذى يدفع باتجاه النقاشات والتفسيرات والتحليلات الأكثر تميّزًا.

أقترح على زملائى أن تشكّل قضية العقوبات الدولية موضوعًا لمادة تدريسية، أو أفضل من ذلك، أن تكون موضوع تفكير فى مركز الأبحاث التابع للأكاديمية. يذهب بى التفكير إلى العراق والعقوبات التى تفرضها الدبلوماسية الأنغلوسكسونية على شعب قهره نظام متسلّط ودموى، فيما يقوم الحصار بإنهاكه. يسجّل المجلس اقتراحى، لكنه لا يبدو ميّله إلى الأخذ به. تُرفع الجلسة.

لاهاى ـ الأحد ١٠ أيار/مايو ١٩٩٨

يصرّ السفير إبراهيم بدوى على دعوتنا إلى الغداء. أقترح عليه أن نذهب إلى

شاطىء نورويك الذى يبعد مسافة نصف ساعة عن لاهاى، والذى يثير فيّ ذكريات ملتهبة.

نجلس على شرفة قبالة البحر. يتقدّم ولدان صغيران ويطلبان إليّ أن أوقّع لهما على دفتر صغير. ينتابنى شعور بالرضا الذاتى الممتزج ببعض الغرور. حين سأجد نفسى فارغ اليدين فى سن الشيخوخة والعجز، لن تكسر رتابة عزلتى سوى تلك اللحظات الجميلة العابرة. لماذا التفكير فجأة بالشيخوخة فى يوم الأحد هذا من مايو؟ لأن نورويك مقترنة فى ذاكرتى، وإلى الأبد، بفترات من شبابى مفعمة بالمشاعر الجيّاشة. الحب المجنون. كنا ننتظر الغسق، وتلك اللحظة السحرية التى تسقط فيها الشمس فى البحر ويلتمع الشعاع الأزرق، لكى نتعانق بشغف. الملاطفات، المتعة، الشباب. هذا ما تذكّرنى به نورويك.

أستذكر جملة أراغون: «ذات مساء جميل، نرى المستقبل فيما مضى. حينها نلتفت وراءنا فيتراءى لنا شبابنا».

باماكو ـ الأحد ٢٥ أيار/مايو ١٩٩٨

أنا منذ البارحة فى باماكو، حيث ستنعقد اللقاءات الفرنكفونية للتدريب المهنى والتقنى. نستفيق مع انبلاج الفجر، ونتوجه نحو سهل يبعد حوالى ثلاثين كيلومتراً عن المدينة، بعدها تبدأ السيارات، وقد لفّتها غيوم من الغبار، باجتياز سلسلة من التلال الصغيرة. لدى وصولنا إلى القمة، يلفتون انتباهنا إلى مئات من الألغام للدبابات المدفونة فى أسفل المنحدر، والتى كانت تجرى الاستعدادات لتفجيرها، كإشارة لبدء الحملة الوطنية لمكافحة الألغام التى أطلقتها دولة مالى. حين نرجع إلى السهل، نجد القيادة العسكرية المالية بكامل أعضائها تحيط بالرئيس ألفا عمر كونارى. سلسلة من الأوامر والأوامر المعاكسة. يسأل أحد العسكريين: «أمن المؤكد أن التلة قد أُخليت تمامًا؟» يصدر آخر الأوامر: «فجّروا الألغام».

انتظار محموم. الشمس تسطع فى السماء. النهار يُنذر بالحر الشديد. فجأة يمزّق الصمت انفجار، فيما ترتفع فى السماء الزرقاء، الشديدة الزرقة، غيمة

صغيرة على شكل فطر، شبيهة بالتى غطّت سماء هيروشيما. يليها بعد دقائق انفجار آخر، وغيمة أخرى. نتبادل التهنئة كما لو كنا أحرزنا نصراً فى معركة. إنها بالفعل معركة انتصرنا فيها، معركة ضد الألغام التى لا تزال تقتل وتشوّه المدنيين بعد سنوات على انتهاء أعمال العنف.

أستفسر من الضابط الذى يبدو بأنه يُشرف على العمليات:

ـ هل هى ألغام روسية؟

ـ نعم.

ـ ألغام مضادة للدبابات؟

ـ نعم.

ـ هل لدى مالى والبلدان المجاورة فيالق مدرّعة؟

يتردد محدّثى قبل أن يجيبنى:

ـ هذا ما حصلنا عليه من السوفيات. أعطى الرئيس أوامره لكى تدمّر كل الألغام العائدة للقوات العسكرية المالية.

يأتى الرئيس كونارى لتهنئتى: «من موقعك كأمين عام للأمم المتحدة، كنتَ أنتَ من عبّأ الرأى العام الدولى من أجل إزالة الألغام المضادة للأفراد، ومن أجل نزع الأسلحة التقليدية. لذا كان إصرارى على أن تحضر هذا الاحتفال فى هذا الصباح».

باماكو ـ الثلاثاء ٢٦ أيار/مايو ١٩٩٨

يهدينى الرئيس ألفا عمر كونارى جَدياً لم يكن على ما يبدو مقتنعًا بقدره، مما أوجب جرّه بقسوة لإحضاره أمامى.

أخبرنى سفير مصر عصام فتح الباب، بأن وزير خارجيتنا عمرو موسى تلقّى، هو أيضًا، هدية مماثلة فى أثناء زيارته الرسمية، وكان على الجدى أن يرابط لعدة أيام

فى حديقة السفارة. وقد قام الوزير المعروف بمراعاته للأصول بإرسال عدة برقيات مرمّزة إلى القاهرة، ليعرف ماذا عليه أن يفعل بهذا الضيف غير المتوقع. لكن جهده ذهب هباء، والقاهرة لم تعطه الجواب. نسى الوزير جَديه، ولم يعطِ أية تعليمات حول مصيره.

من ناحيتى، طلبت إلى السفير أن يضحّى بالجدى ويوزّع لحمه على المحتاجين، ثم أردفت: «كونى لم أعد الوزير المسؤول عنك، ليس من حقى أن أعطيك تعليمات مكتوبة. ولكنى أناشدك كصديق أن تنفّذ هذه المهمة التى لا علاقة لها بالعمل الدبلوماسى ...».

تومبوكتو - الأربعاء ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٨

لم تُتح لى الفرصة قط بزيارة تومبوكتو. وضع الرئيس كونارى بتصرفى طائرة لكى أذهب إلى هذه المدينة التاريخية التى أسّسها الطوارق فى القرن الحادى عشر. من تومبوكتو كانت تنطلق القوافل لتجلب الملح من تواندانّى، فى أقصى شمال مالى. لقد حفظتُ فى ذاكرتى الوصف الذى كتبه بالعربية عام ١٣٥٣، الرحّالة الكبير والمؤرخ ابن بطوطة عن روائع تومبوكتو. وكذلك حفظت الوصف الذى كتبه رينيه كاييه بالفرنسية عام ١٨٢٨.

تستغرق الرحلة بطائرة مروحية من الطراز السوفيتى حوالى الساعتين. يرافقنى وزير التربية. لدى وصولنا، يستقبلنا محافظ المنطقة الذى كان يعمل سابقًا كطيار للمروحيات، ورئيس البلدية.

زيارة للمساجد. الحرارة لا تحتمل. نخلع أحذيتنا، ولدى اجتيازنا البهو، أحِسّ الرمل كالجمر تحت قدمى. بعدها يصرّ المحافظ على أن يصطحبنى إلى حديقة السلام التى أُنشئت لتخليد ذكرى الاتفاق الذى تم التوصل إليه بين الحكومة والمتمردين الطوارق. انتعلنا أحذيتنا، ولكن ذلك لم يكن كافيًا لتجنيبنا لسعات الرمل المحرق:

«هذا هو المكان الذى نود أن نغرس فيه شجرة حين تعود إلى هنا ... فى الشتاء» . هأنا أجد الاطمئنان!

نتوقف فى متحف المدينة الصغير الذى يحوى مجموعة من المخطوطات القديمة، ومن نسخ قرآنية، قبل أن نصل إلى «بيت الضيوف»، حيث ينتظرنا على الغداء خروف مشوى نمزّق لحمه بأيدينا . ليست هى المرة الأولى التى أتذوّق فيها لحم الخروف بهذه الطريقة، ولكنى لم أتذوق قبلاً لحمًا شهيًا كهذا . إنها المحطة الأولى التى أشعرتنى بالراحة فى هذا النهار، بعد الخيبة التى شعرت بها هذا الصباح لرؤية مدينة غارقة فى الحرّ، يفتك بها الغبار والفقر، بعيدة كل البعد عن صورة المدينة الأسطورة، التى وصفها محمد بن بطوطة، والتى كانت فى أزمنة غابرة قلب العالم الإسلامى، ونقطة وصل بين بلاد المغرب وبلدان إفريقيا الداخلية .

إنى منزعج . هل مردّ ذلك إلى الحرارة الضاغطة؟ أم إلى تلك المدينة التى تحوّلت إلى ظل لنفسها؟ أم إلى الشمس التى تحاصر المساجد؟ أم ربما إلى أننى كثيراً ما نسجتُ أحلامًا حول تومبوكتو؟

لدى عودتى إلى باماكو، ليس لدى من الوقت إلا ما يكفى لحزم حقيبتى . دعانى الرئيس كونارى إلى العشاء . عشاء حميمى، برفقة زوجته، البالغة الأناقة . نتداول بأزمة الكونغو ـ برازافيل، والكونغو الديمقراطية، ولكنى أشعر بصعوبة فى التركيز؛ بسبب خشيتى من التأخر على موعد سفرى . أحيط الرئيس علمًا بمخاوفى، فيؤكد لى أن لدينا متسعًا من الوقت للتمتع سويًا بهذا العشاء .

يراودنى شعور متكرر بالقلق أشرك فيه دائمًا مضيفىَّ . تعود بى الذاكرة إلى غداء دُعيتُ إليه منذ سنوات فى تونس لدى الرئيس الحبيب بو رقيبة . وبسبب خشيتى من أن تفوتنى الطائرة التى تقلنى إلى القاهرة، أحطتُ مضيفى بالأمر، فما كان منه إلا أن أعطى أوامره بتأخير موعد إقلاع الطائرة حتى وصولى، ثم أضاف ببساطة : «هكذا يمكنك أن تتناول غداءك بهدوء» . وهذا ما قمتُ به بالفعل . ولكن لدى وصولى إلى المطار، وجدتُ الركاب المسافرين فى تلك الرحلة على أهبة العصيان . وقد قال لى أحدهم بغضب : «لقد تم تأخير موعد إقلاع الطائرة فقط؛ لأن إحدى

الشخصيات المهمة قد تأخرت فى الوصول. إنها فضيحة!». وخوفًا من أن يُفتضح أمرى نظرًا للاهتمام الذى أحاطنى به الموظفون العاملون فى المطار، سألته بكثير من الخبث، إن كان يعرف من تكون تلك الشخصية، فأجابنى حانقًا: «كلا، ولكن ها قد مضت ساعة ونحن ننتظر هذا الرجل الذى يسخر من المواعيد!».

هذه المرة، فى باماكو، وصلتُ فى الوقت المحدد، وأقلعت الطائرة فى موعدها.

باريس ـ الخميس ٢٨ أيار/مايو ١٩٩٨

أرهقنى كثيرًا السفر ليلاً. أمضى النهار فى السرير، قبل أن ألتقى على العشاء رئيس جزيرة قبرص السابق جورج فاسيليو، الذى كان قد حقّق نجاحًا باهرًا فى مهنته كرجل أعمال، قبل أن ينخرط فى العمل السياسى. فى الأمم المتحدة، تفاوضتُ معه، ومع منافسه فى الشطر التركى رؤوف دنكطاش عشرات من الساعات فى محاولة لإيجاد حلّ مؤقت للصراع اليونانى ـ التركى فى قبرص. لم يكن الحوار سهلاً بين فاسيليو صاحب التطلعات العالمية، ودنكطاش الريفى. خسر فاسيليو لاحقًا فى الانتخابات، مع أنه كان واثقًا بإعادة انتخابه. لذا كان فشله مدويًا. هذا المساء، يبدو لى أكثر تشاؤمًا فيما يخص مسار الأزمة القبرصية. والواقع أنه حين يكون المرء خارج السلطة، فهو ينحو دائمًا إلى التقليل من فعالية الطريقة التى يعالج بها خلفه مشكلة ما.

يُقال إن السلطة تنهك المرء، ولكن فقدان السلطة أكثر إنهاكًا له. لكن هذا القول لا ينطبق على الرئيس فاسيليو، الذى أراه مفعمًا بالحيوية وفيّاضًا بالمشاريع.

باريس ـ الأربعاء ٣ حزيران/يونيو ١٩٩٨

عشاء فى منزل فرانسواز غاليمار التى تمنح سنويًا جائزة لكاتب فرنكفونى شاب، بالتعاون مع اليونيسكو. يحضره فيديريكو مايور، وإسماعيل كادارى الصامت، والطاهر بن جلون صاحب القدرة على إيصال قناعاته، وإحسان ناراغى

الذرب اللسان، وكأنه يسعى لتعويض الصمت الذى فُرض عليه فى السجون الإيرَانية.

ترغب فراسواز غاليمار أن تُمنح الجائزة المقبلة بالتعاون مع الفرنكفونية، وليس مع اليونيسكو، سيما وأن ولاية فيديريكو مايور الثانية توشك على الانتهاء.

باريس ـ الخميس ٤ حزيران/يونيو ١٩٩٨

إن منصبى كأمين عام للفرنكفونية يجعل منى حكمًا عضوًا فى المجلس الأعلى للفرنكفونية، وهو مؤسسة فرنسية يرأسها جاك شيراك.

اجتماع فى قصر الإليزيه، حيث أعرض باقتضاب الإصلاحات التى تم التوافق عليها فى هانوى والأولويات التى حددتها لنفسى. لاحقًا، وفى أثناء الاستقبال، ألتقى يوسف شاهين الذى يحضّر لفيلم جديد يعالج مجددًا مسألة الأصولية الإسلامية. حسنا فعلت يا يوسف.

باريس ـ الجمعة ٥ حزيران/يونيو ١٩٩٨

غداء فى نادى الحلفاء مع ابن أخى يوسف، والرئيس ماريو سواريس، الذى كنتُ قد سجّلتُ معه، فى هذا الصباح بالذات حوارًا طويلاً للتلفزيون البرتغالى، حول موضوع السلطة. يبادرنى ماريو سواريس بالقول:

ـ يجب أن نُحسن اختيار الوقت الذى يتوجب علينا فيه ترك السلطة.

ـ السلطة، يا حضرة الرئيس، لكنك تستمر فى ممارستها. بصورة مباشرة، لكونك «حكيم» البرتغال، وبصورة غير مباشرة، لأن زوجتك هى رئيسة الصليب الأحمر البرتغالى، وابنك رئيس بلدية لشبونة... أما أنا، فعائلتى تتمسك بالسلطة منذ أجيال. لقد انتُخبتُ أمينًا عامًا للفرنكفونية، فيما ابن أخى يوسف يشغل وزارة الاقتصاد المصرى. انطلاقًا من ذلك، لا أعتقد أن بوسعى ترك السلطة؛ لأنها

أصبحت بالنسبة إليّ كنوع من المخدّر. إن لدى مفهومًا أوسع للسلطة. أدرك جيدًا ان السلطة يمكن ان تكون ثقافية. فنشر المقالات، وإعطاء الأحاديث الصحافية، والمشاركة فى الندوات، هو أيضًا شكل من أشكال السلطة. ولكن لا بد لى من أن أقر بأن للسلطة السياسية نكهة خاصة، وهى تقريبًا أشبه بنوع من المشروبات الروحية نسبة الكحول فيه خمسين درجة، يحرق الحلق ويحول لاحقًا دون تذوقك الطعم اللذيذ المتمثل فى السلطة الثقافية. ومن هو الجامعى الذى لم يحلم فى وقت من الأوقات بأن يصبح المستشار الخفى لرجل دولة نافذ؟ ذلك ليس سوى طريقة غير مباشرة ومواربة لتذوق طعم السلطة السياسية.

باريس ـ الأربعاء ١٠ حزيران/يونيو ١٩٩٨

قرّرتُ تعيين إليون بلوندان باى، وهو وزير خارجية سابق لدولة مالى، كمستشار للشؤون الإفريقية ضمن المجموعة العاملة فى مكتبى. عندما كنت فى الأمم المتحدة، كان هو ممثلى الشخصى فى أنغولا. هو من أنجز اتفاق لوساكا، فى نوفمبر عام ١٩٩٤، بين حكومة دوس سانتوس ومنشقى اليونيتا بقيادة سافمبى. أعتمد عليه ليساعدنى فى البحث عن حلول للنزاعات داخل الدول، أو بين الدول الأعضاء فى منظمة الدول الفرنكفونية. نتوافق على أن يستقيل من الأمم المتحدة فى شهر يوليو، بعد أن يكون قد أنهى مدة الخمس السنوات، مما يتيح له الإفادة من المعاش التقاعدى.

عشاء مع بينيتا فيرّيرو ـ فالدنر، التى كانت معاونتى فى الأمم المتحدة، وهى الآن المسؤولة الثانية فى وزارة الخارجية النمساوية. إنها تعمل الآن على تهيئة بلادها لتسلّم رئاسة الاتحاد الأوربى. أسمح لنفسى بأن أحاول صرف نظرها عن السعى لتسلّم الأمانة العامة لليونيسكو خلفا لفيديريكو مايور. ذاك أن حظوظ أى أوربى فى تسلّم هذا المنصب مجددًا ليست بوفيرة. وسيرسو الأمر منطقيًا على ممثل آسيا، والأرجح أن يكون المرشّح اليابانى.

ألبيات ـ الأحد ١٤ حزيران/يونيو ١٩٩٨

أنا فى إيطاليا لأتسلّم جائزة «كولومبو» التى نلتها بفضل سعيى من أجل السلام، وعلى كتابى «طريق القدس».

احتفال قروى بهيج. بعد إلقاء الخطابات، أتسلّم الجائزة، وهى عبارة عن منحوتة لصديقى هارى روزانتال. بعدها يعم الطرب على صوت البوق فى حديقة البلدية، حيث يُقام معرض لأعمال هارى.

لقد تعرّفت إلى هارى عام ١٩٣٦، فى فيلدن ـ آم ـ فورتسى، فى النمسا. لم أكن حينها سوى مراهق. كان ابن صناعى نمساوى غنى. ربطت بين والدته ووالدتى صداقة طويلة. التقينا بعدها فى باريس عام ١٩٤٦. كنتُ أحضّر حينها شهادة الدكتوراه فى القانون، فيما هو كان ينهى دراسته كمهندس كيميائى. وحين التقيته مجدداً بعد سنوات فى ميلانو، كان يرأس إحدى أكبر شركات القطع للمعدّات الإلكترونية. إلا أن هذه المسيرة المهنية كانت تخفى مسيرة أخرى. فلقد عرفته بالفعل دائم الشغف بالنحت، وهو فن لم يتوقف عن ممارسته منذ صباه. وفى الذكرى الخمسين لتأسيس الأمم المتحدة، أهدانا مائتى ضاغطة للورق نحتها شخصيًا. إنه كذلك عضو فى لجنة جائزة «كولومبو»، وبفضله أنا موجود فى ألبيات، اليوم.

باريس ـ الخميس ١٨ حزيران/يونيو ١٩٩٨

أتفقُ مع شارل جوسلان ومعاونيه، حول ضرورة إجراء تقييم لعمل المؤسسات الثلاث العاملة فى إطار الفرنكفونية: الوكالة الجامعية، جامعة سنغور فى الإسكندرية والوكالة الحكومية.

فى سياق آخر، يبدو أن اتفاق التعاون الذى وقّعتُه مع جامعة الدول العربية قد فاجأهم. من المؤكد أن عالم الفرنكفونية الصغير له صفة التقوقع المبالغ فيه، شيئًا من الهشاشة، وميلاً واضحًا إلى العيش فى حلقة مغلقة. وكل سعى للانفتاح على العالم غير الفرنكفونى يصيب المهيمنين عليه بالحيرة والقلق. لكن عليهم أن يفهموا

أنه، في عصر العولمة، لا بد للفرنكفونية كي تستمر من أن تعقد تحالفًا مع الفضاءات الأخرى الثقافية واللغوية. وكذلك يجب أن يقروا، إن هم أرادوا تكوين منظمة دولية حقيقية، بأنهم بحاجة لأمين عام مسؤول ومستقل، وليس لدبلوماسي إضافي يتولّى شؤون ما وراء البحار الفرنسية.

باريس - الجمعة ١٩ حزيران/يونيو ١٩٩٨

يستقبلني رولان دوما في المجلس الدستوري. يبدو عليه الارتياح، على الرغم من الهجومات المتكرّرة التي يتعرّض لها في الصحافة.

غداء مع مجموع الأعضاء في هذه المؤسسة، وجميعهم يكنّون بالغ الاحترام لرئيسهم. ألتقي بكل سرور جان - كلود كولّيار، وكان طالبًا لديّ في عام ١٩٦٨، وسيمون فاي التي حضّرتُ معها بسرّية تامة زيارة الرئيس السادات للبرلمان الأوربي في فبراير عام ١٩٨١، بسبب معارضة نواب حزب العمال البريطانيين. لم أستطع حينها المشاركة في تلك الزيارة، لكني دافعتُ عنها بقوة. كنتُ دائمًا على قناعة بوجوب تعزيز دور أوربا والأمم المتحدة في قضية الصراع العربي - الإسرائيلي تلافيًا لحصر العملية السلمية بيد إسرائيل والولايات المتحدة من جهة، ومصر من جهة أخرى، ليقيني بأن الحوار سيكون في هذه الحال منحازًا وغير متوازن.

بروكسيل - الاثنين ٢٢ حزيران/يونيو ١٩٩٨

في أثناء انعقاد المجلس الدائم للفرنكفونية، أتمكّن بصعوبة بالغة من أن أنتزع قرارًا بدعم الحكومة الشرعية في غينيا - بيسّاو.

يشكّل ذلك سابقة، لأن هذا القرار هو القرار السياسي الأول الذي يتبنّاه المجلس الدائم منذ إنشائه. إنه تحوّل حقيقي في السياسة الفرنكفونية. كان يجب رؤية المخاوف التي أبداها أعضاء المجلس، وتصميمهم العنيف على حصر قراراتهم في مجال التعاون الثقافي والتقني، متذرّعين بالأصول أو بضرورة الحصول على موافقة حكوماتهم.

سهرة فى السفارة الكندية، مقدمة واعدة لروعة منطقة أكاديا التى تستضيف القمة الفرنكفونية المقبلة، فى سبتمبر.

بروكسيل ـ الثلاثاء ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٩٨

تدعونى الملكة فابيولا مع ليا على العشاء فى القصر الملكى الذى ما زالت تقيم فيه، بانتظار الانتهاء من نقل مقر إقامتها.

تسرّ الملكة إلينا بأنها لا تزال تصلّى يوميًا لراحة نفس المرحوم زوجها، الملك بودوان. أنتهزها مناسبة لأطلب إليها السماح لى بأن أذكر فى كتابى حول الأمم المتحدة أنها اعترفت لى بأنها تصلّى من أجلى. أجابت: «بالطبع، لأنى لا أزال أفعل ذلك».

إن إيمان الملكة فابيولا يشعّ، ويمنحها قوة معنوية تملأ كيانك. تفارقها وأنت فى حالة من الانهيار وتجاوز الذات والعطش إلى التصوّف، لكنك سرعان ما تعود لمواجهة مشاكل الحياة اليومية.

جنيف ـ الأربعاء ٢٤ حزيران/يونيو ١٩٩٨

أنزل فى فندق لاريزيرف حيث أمضيتُ أصعب أوقات معركتى فى مواجهة القوة العظمى من أجل إعادة انتخابى فى ربيع ١٩٩٦.

يقيم فخرى عبد النور، الذى جمع ثروته فى النفط، عشاء فى داره الرائعة المشرفة على البحيرة دعا إليه شخصيات من عالم الأعمال. أكتشف الوجه الآخر لجنيف، الذى أجهله كليًا. كنتُ أفضّل أن ألتقى الوجه الذى أعرفه: جنيف الفكر.

برن ـ الخميس ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٩٨

لقاء مع البرلمانيين الفرنكفونيين، ومع المسؤولين فى وزارة الخارجية، قبل الذهاب إلى كرانس مونتانا التى أصلها فى الموعد المحدد، لألقى مداخلة حول

الفرنكفونية، فى إطار الندوة المنعقدة فيها. وفور إنجاز المهمة، آوى إلى الفراش مرهقًا ومحمومًا.

هذه الحمّى هى بمثابة جرس إنذار لى. ما إن أتخطّى حدود طاقتى الجسدية على التحمّل، حتى تظهر مصحوبة بألم فى الحنجرة، وكأنها تحثنى على الركون إلى الراحة القسرية. أستفيد من ذلك لأباشر قراءة كتاب «الفرعون الأخير» لجيلبير سينوى، الذى يعالج فيه تاريخ محمد على. لا تخلو قراءة الكتاب من الصعوبة، ولكنها تبيّن لى إلى أى حد أجهل تاريخ بلادى الحديث.

كرانس، مونتانا ـ الجمعة ٢٦ حزيران/ يونيو ١٩٩٨

غداء رسمى يحضره رئيس غانا جيرّى رولنغس، الذى تصحبه زوجته نانا الصبية والفاتنة، ورئيس بوركينا فاسو بليز كومباورى، ورئيس وزراء موزمبيق باسكوال موكومبى. يبدو أن رؤساء الدول الأفارقة يستمرئون كلمات التودد من قبل رجال الأعمال السويسريين، كما يستطيبون هذا الجو من التملّق الغربى.

فى أثناء جلسة العمل فى فترة ما بعد الظهر، يعرض مختلف المتكلمين الأوضاع الاقتصادية فى بلادهم، فى محاولة لاستقطاب الاستثمارات الأجنبية. من الواضح أن هذه العروض لم تكن معدّة بشكل جيد، ولا يلبث الارتجال فى مثل هذه الموضوعات أن يتحول إلى مأساة. مقولات غامضة، تعصى على الفهم فى غالب الأحيان، مما يدفع بالمستثمرين الحاضرين فى القاعة إلى صرف النظر عن مشاريعهم. الشخص الوحيد الذى عرف كيف ينقذ الموقف كان ألاسان واتارا، رئيس الوزراء الأسبق لساحل العاج، والمدير المساعد لصندوق النقد الدولى، الذى عرض بوضوح ودقة المشاكل الاقتصادية فى إفريقيا وساحل العاج.

(الساعة السابعة مساءً) احتفال بتسليم الجوائز. كنت من بين الفائزين، أرتجل خطابًا حول العلاقات بين السلام والتنمية والديمقراطية. أستعجل الرجوع إلى غرفتى لأتابع قراءة كتاب «الفرعون الأخير».

كرانس، مونتانا ـ السبت ٢٧ حزيران/ يونيو ١٩٩٨

انتهيت من قراءة سيرة محمد علي. كان رجل دولة عظيم ومؤسس مصر الحديثة. عرف، كما تقول كريستيان ديروش ـ نوبلكور، كيف يعتمد على فرنسا في كل الميادين تقريبًا لكي «يحوّل أرضًا تم إخضاعها بقوة ولمدّة طويلة، إلى بلد منتج ومدرك لهويته الوطنية».

كرانس، مونتانا ـ باريس الأحد ٢٨ حزيران/ يونيو ١٩٩٨

في الطائرة التي تقلّني إلى باريس، أقرأ في الجريدة خبر وفاة إليون بلوندان باي، الذي تحطّمت طائرته على بعد حوالي مائة كيلومتر من أبيدجان. لم تُكتب النجاة لأي من الركاب. إنها صدمة قاسية لي.

لقد تعارفنا في قمة مونروفيا في يوليو عام ١٩٧٩. كان حينها وزير خارجية دولة مالي، وأنا وزير خارجية مصر. أعجبت كثيرًا في الحال بثقافته القانونية ولباقته الدبلوماسية، وقد بدتا واضحتين في تحليله النقدي لاتفاقية كامب ديفيد والذي كشف عن الكثير من الموهبة والذكاء.

التقيته بعد فترة قصيرة، في أثناء المفاوضات الثنائية بين مصر ومالي، ثم عندما كان مستشارًا قانونيًا لدى البنك الإفريقي للتنمية. وعلى مرّ السنين، نسجنا علاقات مودة واحترام كانت تزداد وثوقًا مع الأيام. ولما أصبحتُ أمينًا عامًا للأمم المتحدة، ورغبتُ في تدعيم الوجود الإفريقي داخل هذه المؤسسة، وجدتُني بشكل عفوي أتوجّه إلى إليون بلوندان باي لأوكل إليه ملف أنغولا. كان إليون بلوندان باي أكثر من معاون مخلص، كان صديقًا وأخًا.

الأخوة: قيمة منسية في القارتين الأمريكية والأوربية، لمصلحة قيم الحرية والمساواة وحدها، إلا أن القارة الإفريقية عرفت كيف تحافظ عليها في العلاقات الناظمة لدولها، وكأنها التعويذة الناجعة على درب التنمية والسلم.

باريس ـ الاثنين ٢٩ حزيران/ يونيو ١٩٩٨

مواطنى إسماعيل سراج الدين، نائب مدير البنك الدولى، مرشح لمنصب المدير العام لليونيسكو. التزمتُ بمساعدته فى حملته. أخشى أن تكون حظوظ نجاحه محدودة. حظ ممثل اليابان كويشيرو ماتسورا أوفر. يجب التنويه بأن بلاده جنّدت لهذا الأمر كل إمكانياتها الدبلوماسية. وهذا ما لا نراه فى مصر، حيث لم يحصل أن جرى الاهتمام بمساندة المواطنين المصريين الساعين إلى تسلّم مسؤوليات دولية.

باريس ـ الثلاثاء ٧ تموز/يوليو ١٩٩٨

حديث على الهاتف مع جايسون أبشتاين من دار نشر راندوم هاوس، ومع شارلى هيل. كتابى عن الأمم المتحدة لن يصدر إلا مطلع العام القادم. أشعر بالخيبة والغيظ. لا أفهم مسبّبات هذا التأجيل. لقد طُبع النص، وصُحِّح مرة أولى وثانية. تستفيق ثقافتى المصرية، وأتخيّل فى الحال أنى عرضة لمؤامرة مدبّرة ضدى. يوجد فى اللغة العربية عبارة تصف هذه الحالة الذهنية، تسمّى «عقدة المؤامرة». يعدنى شارلى هيل بتقصّى الأسباب. لا يشاركنى فى نظرية المؤامرة. بالنسبة إليه، إنها بكل بساطة مشكلة طباعة وتوزيع؛ لأن دار راندوم هاوس تُصدر شهريًا عشرات الكتب الجديدة.

باريس ـ الخميس ٩ تموز/يوليو ١٩٩٨

غداء فى نادى الحلفاء مع سايروس فانس وزوجته.

كنتُ دومًا أكنّ إعجابًا عميقًا لعائلة فانس. فهم ينتمون إلى تلك «الأرستقراطية الأمريكية» المنفتحة على العالم الخارجى، وهو أمر نادر فى الولايات المتحدة. اهتمامهم بالمعذبين فى الأرض لا ينبع من أى التزام مصلحى، وإنما من روح الإيثار والإنسانية الصادقة.

(فى السهرة...) يُعلمنى سفير اليابان، بشكل غير رسمى، بأن إمبراطور اليابان سيدعونى إلى الغداء فى أثناء زيارتى المقبلة لطوكيو.

باريس - الجمعة ١٠ تموز/يوليو ١٩٩٨

لقاء جديد مع الكولونيل ويلّي مالآن. فى أثناء محادثتنا السابقة، خُيّل إلىّ أنه مؤيد لكابيلا؛ نظراً لأنه طلب تدخلى لدى موبوتو من أجل تحويل كينشاسا إلى «مدينة مفتوحة». أجده اليوم معاد بشدة لكابيلا، وهو ينعته «بالسارق، والمدمن على الكحول، ويرى فيه المصيبة الحقيقية للكونغو ولإفريقيا». أكتفى بالاستماع إليه، وأتحاشى التعليق على هذا التحوّل بنسبة مائة وثمانين درجة.

فى غمرة هذه اللقاءات، تزورنى ممثلة البنك الدولى، التى تقوم بجولة على مختلف المنظمات التى يمكن أن تتعاون مع هذه المؤسسة. بعد عرضها للخطوط العريضة للسياسة الجديدة التى ينتهجها مدير البنك جيم ولفانسوهن، تقترح إقامة شراكة مع المنظمة الفرنكفونية: «يمكن للبنك الدولى أن يضع بتصرفكم ملايين الدولارات. ويكفى لذلك أن تتقدّموا بمشروع أو أكثر».

ليس لدينا أحد فى مؤسساتنا، قادر على إعداد ملف يتطابق مع الشروط المطلوبة، أو على التفاوض مع البنك الدولى.

نصحتُ المدير ديهاب، والرئيس غييو قائلاً: «استعينوا بمكتب خبراء».

(فى نهاية بعد الظهر ...) بدوره، يخبرنى سفير مصر فى طوكيو نبيل إسماعيل فهمى، وبلهجة هى أقرب إلى التآمر، بأن إمبراطور اليابان سوف يدعونى إلى الغداء، ولكن يجب أن يبقى هذا الأمر سرّيًا. أتصوّر أن هذا «الحدث» سيشغل المراكز الدبلوماسية لبضعة أيام، وأن التكهنات السياسية ستنشط.

تونس - الاثنين ١٣ تموز/ يوليو ١٩٩٨

الحفل الافتتاحى للندوة حول مسائل القانون الدستورى، فى كلية الحقوق، فى تونس. يلقى وزير التربية الذى يفتتح الجلسة خطابًا ممتازًا. أعلم بأنه كان أستاذًا فى كلية الحقوق. بعده يتكلم محمد بدجاوى وهو قاض فى المحكمة الدولية فى لاهاى. مداخلته تبدو أكثر كلاسيكية، ولكن بلاغته المعتادة تعطيها وهجًا. بعدها يأتى دورى، فأحاول أن أكون بمستوى الخطيبين اللذين سبقانى إلى الكلام.

تونس ـ الثلاثاء ١٤ تموز/يوليو ١٩٩٨

جولة فى آفاق السياسة مع وزير الدولة للشؤون الإفريقية صادق فايالا . أعرفه منذ زمن بعيد . كان أمين جمعية الأحزاب السياسية الإفريقية ، وقد حضّرنا سوية لأكثر من مؤتمر . إنه خبير ممتاز فى مسائل السياسة الإفريقية ، نستعرض تباعًا قضية الحوار الداخلى فى توغو ، والحرب الأهلية فى غينيا ـ بيسّاو ، والوضع فى نيجيريا .

فى زحمة اللقاءات ، أقابل وزير الدفاع الحبيب بن يحيى ، الذى أعرفه هو كذلك منذ زمن بعيد ، لأنه كان نظيراً لى عندما كنت وزيراً للخارجية . إنه دبلوماسى محنّك يعرف كيف يفاوض ، لأنه يعرف أن يصغى وأن يصبر .

عمّان ـ الأربعاء ١٥ تموز/يوليو ١٩٩٨

معهد الأمم المتحدة ، الذى كنتُ قد اخترتُ وعيّنتُ مديره عادل الصفتى ، يرتبط بجامعة الأمم المتحدة ، التى لها مقرّها فى طوكيو . أُنشىء فى عمان بفضل الملكة نور . هذا المعهد يهتم بتكوين الكوادر السياسية . يقوم عادل الصفتى بعمل رائع فيما يخص العلاقات العامة ، لكنه يعير اهتمامًا أقل للبحث الأكاديمى . فى الواقع ، يقوم دوره على استقطاب المستمعين والمحاضرين فى آن . ويجب الاعتراف بأنه استقدم إلى عمّان فى دورته الأخيرة ، شخصيات رفيعة المستوى . بالمقابل ، أجهل مستوى المستمعين .

ألقى محاضرة بالإنجليزية ، قبل تبادل الآراء مع الحاضرين الذين يبدون رائعين .

يقيم سفير مصر هانى رياض مأدبة غداء ، ويشرّفنا الأمير حسن ولى العهد بحضوره . ذاك أن الملك حسين والملكة نور اضطرا للسفر على عجل إلى الولايات المتحدة ؛ لأن صحة الملك تستدعى معالجة فورية .

يبدى الأمير حسن اهتمامًا بالفرنكفونية . يقترح إقامة تعاون بين المراكز الأكاديمية فى الأردن ، والهيئات الفرنكفونية .

عمّان، باريس ـ الجمعة ١٧ تموز/ يوليو ١٩٩٨

هذا الكابوس المتمثل فى فوات موعد الطائرة، والذى ينتابنى أحيانًا كثيرة، كاد أن يحدث هذا الصباح. سائق السيارة التى كانت تقلّنا إلى المطار اضطر لعدم التقيد بكل إشارات السير الحمراء، وكاد أن يتسبب فى أكثر من اثنتى عشرة مخالفة لتجاوز السرعة المحددة.

باريس ـ الاثنين ٢٠ تموز/يوليو ١٩٩٨

نترك منزلنا الكائن فى شارع غينومير رقم ٣٤، لنستقر فى شارع سان دومينيك رقم ١١. يدّعى الإخصائيون الذين يعالجون المحن أو الأزمات النفسية التى يتعرّض لها الإنسان فى حياته، أن عملية نقل السكن توازى بصعوبتها عملية الطلاق. سى دو برانكوفان الذى ساعدنا بعد مغادرتنا نيويورك للإقامة فى باريس، يمد لنا يد العون مرة أخرى.

باريس ـ الأربعاء ٢٢ تموز/يوليو ١٩٩٨

خلال انعقاد مجلس التعاون اليوم، تندلع الحرب الباردة مجددًا بين مدير الوكالة الحكومية، ومدير الوكالة الجامعية. هل يعود الأمر إلى عدم التلاؤم فى الطباع؟ أم هو تباين فى السياسات؟ الأول موظف متمرس بالقوانين، يتمترس وراءها ليدافع بضراوة عن سلطته. والثانى جامعى أُلحق بالمؤسسة، وهو نشيط ومغامر، لا يتوانى عن القفز فوق القوانين ليصل إلى أهدافه. إن الحوار بين هذين المسؤولين لا يمكن إلا أن يكون صعبًا.

باريس ـ طوكيو ـ الاثنين ٢٧ تموز/يوليو ١٩٩٨

إنها رحلة طويلة. من وراء نوافذ الطائرة، نشاهد بحيرات سيبيريا وأنهارها.

طوكيو ـ الأربعاء ٢٩ تموز/يوليو ١٩٩٨

غداء مع الإمبراطور أكيهيتو والإمبراطورة فى أحد المنازل الصغيرة العديدة التى يحتضنها القصر. أهديتُ إلى مضيفى نسخة بالإنجليزية مرقّمة ومجلّدة من كتابى «طريق القدس».

يسألنى الإمبراطور: «هل جُلّدت هذه النسخة فى مصر؟».

أعترف بأسف بأنها من صنع أمريكى.

لم أعرف قط إن كان علىّ فى وضع كهذا، أن أدوّن إهداء على الصفحة الأولى من الكتاب، كما هى العادة، أو أن أُرفق النسخة برسالة.

لم تستطع دوائر التشريفات فى القصر تزويدى بجواب واضح. اللهم إلا إذا كنتُ لم أستطع تفسير الجواب الذى أقل ما يقال فيه إنه مبهم. تساءلتُ كذلك عن السبب الذى دفع الإمبراطور والإمبراطورة إلى تخصيصنا أنا وليا بهذا الشرف العظيم عن طريق دعوتنا إلى غداء خاص. هل يعود ذلك إلى كونى مُنحتُ أكبر وسام يابانى، وسام الشمس المشرقة؟ أم أن الدعوة تأتى كرد لدعوة إلى الغداء وجهتها إلى الإمبراطور والإمبراطورة عندما كنت فى الأمم المتحدة؟ بقى سؤالى هذا بدوره دون جواب.

يدور الحديث بالإنجليزية، وهو يبعث على الارتياح. نتناول رحلة الرئيس السادات إلى القدس، ثم السنوات التى أمضيتها فى الأمم المتحدة. أستذكر الدور الذى لعبه ياسوشى أكاشى فى كمبوديا ويوغوسلافيا. أنوّه كذلك بعمل السيدة ساداكو أوغاتا، المفوّضة العليا لشؤون اللاجئين فى الأمم المتحدة. لدى الإمبراطور اطّلاع كامل على نشاطات كل منهما.

كانازاوا ـ الخميس ٣٠ تموز/يوليو ١٩٩٨

تخصّص الفترة الصباحية لزيارات المجاملة، للمحافظ البشوش والودىّ، ولرئيس البلدية، الذى يعبر سلفًا عن سروره بالندوة التى ستبدأ بعد الظهر، وأخيراً للصحافيين المتشوّقين للاستماع إلىّ فى موضوعات مختلفة.

افتتاح الندوة. أُلقى خطابًا قصيرًا، قبل أن أختلط بالجمهور. حفلة تواقيع على دفاتر صغيرة، أو حتى على ملابس المستمعين. حفلة التقاط صور فوتوغرافية كذلك. لما كان كل شخص يحمل آلة تصوير، لا يمكنني أن أرفض للبعض ما منحته للآخرين. هكذا وقفتُ بطيبة خاطر لالتقاط العشرات من الصور، لما لحماس هذه الشبيبة الدولية من قدرة على الانتقال بالعدوى.

يتقدم الحاضرون المنتمون إلى العالم العربى لمصافحتى. إنهم أطباء أو مهندسون أتوا لمتابعة الدراسات العليا فى الجامعات اليابانية. يباشر المبتدئون منهم دراستهم، بعد تمضية عام فى تعلّم اللغة اليابانية.

كانازاوا ـ الجمعة ٣١ تموز/يوليو ١٩٩٨

(الساعة التاسعة والنصف) خطاب أمام جمهور من مؤسسة «جابان تانت» حول موضوع إرساء الديمقراطية فى العلاقات الدولية. أجيب عن أسئلة الجمهور فى القاعة. مستمع شاب يلفت انتباهى إلى أننى تجاهلتُ فى مداخلتى التنويه بالدور المهم الذى يمكن أن تلعبه محكمة العدل الدولية فى عملية إرساء الديمقراطية. القسم الثانى من الحوار يتركز على الصعوبات التى يلاقيها الطلاب فى التأقلم مع نظام التعليم الجامعى اليابانى.

زيارة سيراً على الأقدام لمدينة كانازاوا القديمة. تجذبنى البيوت الصغيرة فى الشوارع الضيقة، لما لها من طابع متميّز. حديقة النباتات هى متحف حقيقى للأشجار الصغيرة وللأزهار. أصادف بعض الحضور ممن استمع إلى محاضرتى، فيقترب منى ويطلب إلىّ أن أوقّع له أو أن يلتقط معى صورة فوتوغرافية.

سهرة فى الفندق حيث نستمتع، أنا وليا، بالسكينة وبمشاهدة التلفزيون.

طوكيو ـ السبت ١ آب/أغسطس ١٩٩٨

لدى عودتى إلى طوكيو، أقوم بالزيارة التقليدية لمعبد شنتاوى هو معبد الأميرال توغو، حيث أحضر الصلاة.

دعانا يازوشى أكاشى إلى العشاء فى أحد مطاعم الفندق الإمبراطورى. كان قد حلم بغدائنا مع الإمبراطور. يسرّ إلىّ بأن الإمبراطور استقبله أكثر من مرة فى لقاء خاص. يرأس أكاشى معهد أبحاث فى هيروشيما، ولكنه لم يطوِ بعد صفحة الماضى. يفكّر فى تأليف كتاب حول تجربته فى الأمم المتحدة.

باريس - الخميس ٦ آب/أغسطس ١٩٩٨

يرغب وزير خارجية توغو، كوفّى بانو، فى أن توفد الفرنكفونية بعثة نوايا حسنة فى محاولة لإيجاد حل للأزمة التى تعانيها بلاده.

هذه الأزمة تعود إلى ١٣ يناير ١٩٦٣، تاريخ اغتيال الرئيس سيلفانوس أولمبيو. منذ ذلك التاريخ تسلّم غناسنغبى إياديما السلطة، وكان قد شارك فى مؤامرة الاغتيال.

خاض جيلكريست أولمبيو بن سيلفانوس أولمبيو الانتخابات الرئاسية فى ٢١ يونيو الفائت، فى مواجهة إياديما الذى كان يطمح لولاية جديدة. طُلب إلى المنظمة الفرنكفونية، وإلى الاتحاد الأوربى، وبعض المنظمات غير الحكومية، إرسال مراقبين. حصل جيلكريست أولمبيو على غالبية أصوات المقترعين فى لومى، ويبدو أنه كان متقدّمًا على خصمه فى جنوب البلاد، حيث الكثافة السكانية، مقارنة بالشمال، معقل الرئيس إياديما. قبل إعلان النتائج، استقال رئيس اللجنة الوطنية المشرفة على الانتخابات. عندها كُلِّف وزير الداخلية بفرز الأصوات. فى ٢٤ يونيو، أعلنت الوزارة النتائج النهائية: ١٣ , ٥٢ ٪ من الأصوات لصالح الرئيس إياديما.

لم تصادق الفرنكفونية على هذه النتائج؛ نظرًا لأن اللجنة المشرفة على الانتخابات لم تتمكّن من إنجاز مهمتها. أما الاتحاد الأوربى فاعتبر أن توقّف عمليات الفرز بالشكل الذى حصل يعنى اعترافًا بالهزيمة من قبل إياديما. من ناحيته، يعلن جيلكريست أولمبيو أنه المنتخب من الشعب التوغولى.

ومنذ تاريخ هذه الانتخابات يعيش التوغو أزمة مستمرة، وينظّم الأهالى تجمعات فى أيام محددة، تحت شعار «مدينة ميتة، توغو ميت».

هذا هو واقع الحال، فى الوقت الذى أستقبل فيه وزير الخارجية. أقترح عليه الاتصال هاتفيًا بالرئيس إياديما الذى أعرفه منذ العام ١٩٧٨، تاريخ أول زيارة رسمية لى للتوغو. أقترح على الرئيس إمكانية إرسال بعثة تكون مهمتها إقامة حوار بين الحكومة وأحزاب المعارضة. لا يعلّق الرئيس على هذا الاقتراح، ولكنه يؤكد لى بأنه يعتمد على حكمتى.

بياريتز- الجمعة ٧ آب/أغسطس ١٩٩٨

نغادر فى الصباح إلى بياريّتز، إلى فندق القصر، حيث قررنا أخذ عطلة لبضعة أيام.

أستسلم للمحيط، هذا البحر الذى لا أنتمى إليه، بأمواجه العاتية، ومدّه وجزره، ومياهه المشبعة باليود. حدّدنا لأنفسنا نظامًا بسيطًا يقتصر على الاستحمام فى حوض السباحة، التدليك، والمطالعة.

بياريّتز- الأحد ٩ آب/أغسطس ١٩٩٨

غداء فى مطعم حوض السباحة مع آلان ديكو وزوجته. يا للذكاء! يا للسحر! تواضع أصيل وابتسامة تشرق فى وجه رجل لا يزال يحتفظ بقدرة الشباب على التعجب والانبهار.

تعرّفتُ إلى آلان ديكو فى قمة داكار عام ١٩٨٩، حين حصلتُ على الضوء الأخضر من رؤساء الدول والحكومات لإنشاء جامعة سنغور فى الإسكندرية. كان حينها وزيراً لشؤون الفرنكفونية. قرأتُ بسرور كتابه حول الفرنكفونية، تحت عنوان «السجّادة الحمراء»، والذى ساهم فى مساعدتى على فهم خفايا هذه المؤسسة.

بياريّتز- الأربعاء ١٢ آب/أغسطس ١٩٩٨

نحن مدعوون إلى منزل المحامى جاك تاجان وزوجته اليابانية الرائعة. هناك أكثر

من أربعمائة مدعو. يجلس رولان دوما وزوجته إلى طاولتنا. تسرّ زوجته إلى ليا بأنها تعيش كابوسًا حقيقيًا، لا يبدو أن له نهاية. أما رولان دوما، من ناحيته، فَلا يظهر عليه أى شىء، وإن بدا أن المجتمع الباريسى المصغر الذى يشارك فى هذا الاستقبال يعامله بجفاء.

بياريتز ـ الخميس ١٣ آب/أغسطس ١٩٩٨

لقاء مع عمر زواوى، وهو المستشار السياسى لسلطان عُمان، والذى كان له مسار مهنى غير اعتيادى. فبعد دراسته للطب فى القاهرة، انصرف للعمل فى ميدان المال. وهو اليوم يتربّع على عرش مملكة حقيقية، يتولّى إدارتها بحكمة ومهارة. تصحبه شابة يابانية، تعمل سكرتيرة لديه. رأيته دومًا محاطًا بمجموعة من الصبايا الساحرات اللواتى ينتمين إلى أقطار العالم الأربعة. طائرته الخاصة من طراز بوينج ٧٠٧ تجثم فى مطار بياريتز. وقد أتى للقاء صديقه كلود دو كامو لاريا.

باريس ـ السبت ٢٢ آب/أغسطس ١٩٩٨

العودة إلى باريس، من أجل سلسلة من جلسات العمل مع شارلى هيل. أرسلتُ نص الكتاب إلى مارّاك غولدينغ، الذى أعاده لى مع عدة صفحات تحتوى على ملاحظات قاسية، لكنها تصيب الهدف فى الصميم: «ينضح كتابك بشعور بالمرارة والأسى، إنه أشبه بشكوى خاسر متذمّر».

يجب بأى شكل أن أصحّح هذا الانطباع، خصوصًا وأنى لا أضمر أى حقد تجاه الذين خانونى، أو تجاه أولئك الذين سعوا إلى تدميرى. السياسة من هذه الناحية تشبه الرياضة إلى حد بعيد. بالتأكيد، يجب أن نسعى إلى الانتصار، ولكن علينا أيضًا أن نعرف كيف نخسر، وأن نقبل بالنتيجة. فالسلطة تعرّضك بشكل مستمر للحسد، وللحملات، وللمكائد. إن الإحباط، والمهانة، والخيانة، لا تنفصل عن السلطة.

باريس ـ الخميس ٢٧ آب/ أغسطس ١٩٩٨

هذا الصباح، اجتماع عمل طويل مع «أركان حربي»، بغية القيام بالتحضيرات لليوم العالمي للفرنكفونية في ٢٠ مارس ١٩٩٩، في جنيف، حول موضوع الشباب.

وافق مصطفى نياس أن يلعب دور الوسيط في الأزمة التي تتواجه فيها الحكومة التوغولية مع أحزاب المعارضة. وفق رأيه، ينظر الجيش التوغولي إلى هزيمة رئيسه الانتخابية على أنها تحدٍ، وفي هذه الحال يبقى احتمال حصول انقلاب وارداً.

باريس ـ الجمعة ٢٨ آب/ أغسطس ١٩٩٨

تسافر ليا مجدداً إلى نيويورك حيث أُخضعت والدتها للمعالجة. إنها امرأة رائعة تقاوم المرض والشيخوخة بكل قواها. إنها ترغب في الحياة وتعرف أن تعيشها بقوة.

باريس، لشبونة ـ الاثنين ٣١ آب/ أغسطس ١٩٩٨

أسافر إلى لشبونة بناء على دعوة من رئيس لجنة المحيطات ماريو سواريس، الذي سوف يقدّم الصيغة النهائية لتقريره الرسمي. لقد ساهمتُ في إنشاء هذه اللجنة، التي كان عليها أن تنهي أعمالها بمناسبة إقامة المعرض الدولي المخصّص للبحار، في لشبونة.

في السيارة التي تقلّنا إلى سانترا، في ضاحية لشبونة الكبرى، يعرض لي سفير مصر محمد رياض راضي موقف البرتغال من الحرب الأهلية الدائرة في غينيا ـ بيسّاو.

جواو برناردو فيايرا، الملقّب بـ «نينو» يتسلّم السلطة منذ العام ١٩٨٠. في العام ١٩٩٧، قامت غينيا ـ بيسّاو، وهي مستعمرة برتغالية قديمة، باعتماد التبادل بالفرنك، الأمر الذي اعتبرته لشبونة خيانة حقيقية.

داكار تأخذ على بيسّاو وقائد جيشها الجنرال أنسومان مانيه، تزويد كازامانس بالسلاح. من أجل إرضاء داكار، يقوم الرئيس فيايرا بعزل الجنرال مانيه من منصبه، بتهمة تهريب السلاح، فيقوم هذا الأخير، بدعم من البرتغال، بمحاولة الإطاحة بالرئيس فيايرا، الذى سارع إلى طلب تدخل السنغال. تم إرسال حوالى ألف جندى للقتال ضد الانقلابيين. بالنسبة إلى البرتغال، ليس هناك أدنى شك بأن فرنسا هى وراء التدخل السنغالى.

اصطف الشعب بغالبيته العظمى إلى جانب المتمردين، ضد «المحتل» السنغالى. كانت العاصمة مسرحًا لقتال ضار. تكبّدت الوحدة السنغالية خسائر فادحة. ومنذ بضعة أيام، فى ٢٥ أغسطس، تم توقيع وقف لإطلاق النار، برعاية مجموعة بلدان أفريقيا الغربية، ومجموعة الدول الناطقة بالبرتغالية. وفق سفير مصر، الرأى السائد فى لشبونة هو أن مجموعة بلدان إفريقيا الغربية تتعاطف مع نينو فيايرا، فيما مجموعة الدول الناطقة بالبرتغالية تتعاطف مع أنسومان مانيه والمتمردين.

نصل إلى سانترا. أطلب إلى السفير أن يرتّب لى لقاء مع وزير الخارجية. يجب أن أشرح له خطورة المواجهة بين الفرنكفونية واللوزوفونية (مجموعة الناطقين بالبرتغالية). على عكس ذلك، يجب على المنظمتين أن تتعاونا بذكاء تام، متخذتين من اتفاق السلام الذى عُقد فى أبوجا منذ بضعة أيام بين سكان بيسّاو منطلقًا لتعاون جديد.

(فى فترة بعد الظهر ...) نغادر استوريل فى مركب متوجهين إلى لشبونة، بصحبة إدوار صوما، المدير العام السابق لمنظمة الأغذية والزراعة، وفيديركو مايور، ومحمد البرادعى، المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية فى فيينا، وجان دانيال الصحفى الكبير، وبالطبع ماريو سواريس مضيفنا.

إنها المرة الأولى التى أشاهد فيها العاصمة البرتغالية من البحر. يرسو بنا المركب فى المرفأ، حيث تنتظرنا حافلات نقل. عشاء يقدّمه رئيس الجمهورية، يليه عرض فنى فى المبنى الذى يُقام فيه المعرض. تنم الأغانى والرقصات عن التقارب العاطفى وعن الأخوة الحقيقية التى تربط البرتغال بمستعمراتها القديمة. إنها علاقات غير مألوفة بين المستعمرين والمستعمَرين.

في طريق عودتنا إلى سانترا، أتبادل مع جان دانيال بعض الأفكار المجرّدة من الأوهام حول الشيخوخة.

لشبونة- الثلاثاء ١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

لم يتمكن السفير محمد رياض راضي من الحصول على الموعد المأمول مع وزير الخارجية الموجود حاليًا خارج البلاد.

زيارة للمعرض الدولي. بصفتي أمينًا عامًا سابقًا، لم يكن لدي من خيار سوى التوقف أمام الجناح المخصّص للأمم المتحدة، حيث قدّمت إليّ ربطة عنق زرقاء، مزيّنة بأسماك باللون الأحمر والأزرق السماوي والأزرق الغامق، كتب عليها «بالانسياغا- هدية من الأمم المتحدة- معرض ٩٨».

في أثناء العشاء، يتسنّى لي التحادث إلى رئيس الوزراء فرانسيسكو فادول، حيث أعبّر له عن قلقي إزاء تدهور العلاقات بين الفرنكفونية واللوزوفونية.

يسعى لأن يطمئنني. حسب رأيه، ما من شك في أن نينو فيايرا وأنسومان مانيه قد باعا السلاح إلى المتمردين في كازامانس، وأنهما قلّما يهتمان بشعب غينيا- بيسّاو. بالإضافة إلى ذلك، يؤكد لي أنه يقيم علاقات ممتازة مع رئيس السنغال عبده ضيوف، الذي سبق وتعرّف إليه من خلال مسؤولياته في منظمة الاشتراكية الدولية. ثم يضيف «في هذا المجال، أنتَ لا تعرف ربما، بأنك حين استقلتَ من منصبك كنائب لرئيس منظمة الاشتراكية الدولية، إثر انتخابك في الأمم المتحدة، كنتُ أنا من خلفكَ في مركزك... وقد لعب صديقك ومعاونك السابق لانسانا كوياتي دوراً بغاية الإيجابية من أجل توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار. وأنا أعلم أنكَ على اتصال دائم معه. أود أن أقول لك بأني أعتمد عليك لإرساء شراكة حقيقية بين الفرنكفونية واللوزوفونية. بعض وسائل الإعلام في البرتغال تتّهم فرنسا بالتدخل في غينيا- بيسّاو. ولكن أود أن أؤكد لك أن حكومتي لا تشاركهم بهذا التحليل للموقف».

باريس - الأربعاء ٢ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

أستقبل هنرى موفا ساكانيى، وهو وزير النقل والمواصلات فى جمهورية الكونغو الديمقراطية، المبعوث الخاص للرئيس لوران ديزيريه كابيلا. يقول «إنى مكلّف من قبل الرئيس كابيلا لكى أسالك عمّا يمكن للفرنكفونية أن تقدّم إلى بلادى. وبخلاف ما كتبت الصحافة فى هانوى حول عداوة كينشاسا للفرنكفونية، باستطاعتى التأكيد لك أن جمهورية الكونغو الديمقراطية تود مساعدتكم لتحويل فكرة الفرنكفونية السياسية إلى واقع ملموس».

أود أن أتأكد من أن الوزير يحمل تفويضًا من رئيسه فى هذا الاتجاه، لذا طلبت منه وقبل الالتزام بأى شىء، أن أتحادث شخصيًا إلى الرئيس كابيلا. نتفق على اللقاء فى الغد.

تأثرتُ إيجابيًا بهذا الوزير الشاب الذى يدافع بوضوح وذكاء عن التحوّل السياسى لرئيسه.

باريس - الخميس ٣ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

لقاء ثان مع مبعوث الرئيس كابيلا. هذه المرة يطلب إلىّ أن أتدخّل لدى الرئيس مبارك من أجل حصول تقارب بين القاهرة وكينشاسا.

أتعهد بإرسال بعثة نوايا طيبة إلى كينشاسا، بعد أن أكون قد تكلمت مع لوران ديزيريه كابيلا. أتصل بالرئيس الكونغولى على هاتفه المحمول. تجرى المحادثة ودية وخالية من أى تشنّج. لقد أقام لوران ديزيريه كابيلا لفترات طويلة فى القاهرة، من هنا فإن الضيافة المصرية تشكّل عنصرًا مساعدًا لاتصالاتنا. أعده بأن أرسل إليه بعثة نوايا طيبة.

باريس - الجمعة ٤ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

أتصل هاتفيًا بالرئيس عبده ضيوف لأخبره بمحادثتى مع رئيس الوزراء

البرتغالى، وبرغبة حكومته فى التعاون مع السنغال، فى محاولة لإيجاد حل للأزمة التى تعصف بغينيا ـ بيسّاو.

باريس ـ السبت ٥ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

لقاء مع جيلكريست أولمبيو، ابن الرئيس التوغولى الذى أُغتيل عام ١٩٦٣. إنه رجل أعمال حضرى، متمرس بالمنهجية الجدلية. يمكننى القول عنه إنه على عكس الرئيس غناسينغبى إياديما، أوربى أكثر مما هو إفريقى.

يؤكد لى، بالاستناد إلى الأرقام، أنه الفائز الحقيقى فى انتخابات يونيو ١٩٩٨. وكمدخل لأى حوار داخلى فى التوغو، يشترط الاعتراف به كرئيس جديد للبلاد. بعبارة أخرى، يطالب برحيل إياديما.

باريس، مونتريال، مونكتون ـ الأحد ٦ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

أسافر إلى كندا. أعرف أن علىّ خلال هذه الزيارة، مواجهة خصومة جديدة بين أوتاوا وكيبيك. بالفعل، تريد الحكومة الفيدرالية أن يرافقنى أحد ممثليها فى أثناء زيارتى لكيبيك، كما تطالب بوجوب تأمينها الحماية لى. تعارض كيبيك أى تواجد فيدرالى على أراضيها فى أثناء زيارتى الرسمية؛ نظراً لأن كيبيك تتمتع بكامل العضوية فى المنظمة الفرنكفونية. من جهتها توضح أوتاوا بأنى أصنّف بمرتبة رئيس دولة، مما يلقى على عاتق الحكومة الفيدرالية مسؤولية تنظيم زيارتى الرسمية إلى كندا. فى ظل هذه المعطيات طلبت إلىّ كيبيك إلغاء زيارتى. لم أشكّ لحظة فى أن كيبيك وأوتاوا سيتمكنان من إيجاد صيغة وفاقية فى اللحظة الأخيرة.

لدى وصولى إلى مونتريال، تستقبلنى ديان مارلو، الوزيرة الفيدرالية للتعاون وللفرنكفونية. معها كذلك القنصل العام لمصر تيمور مصطفى سرّى، وليا التى أتت من نيويورك حيث أمضت بضعة أيام إلى جانب والدتها. نركب فى الحال طائرة أخرى متوجهين إلى مونكتون، حيث نهبط فى وقت متأخر من نهاية السهرة. سوف أكون لبضعة أيام ضيف ولاية برونسويك الجديدة، وهى عضو فى المنظمة

الفرنكفونية، وقد وافقت على استقبالى على الرغم من وجود ممثل للحكومة الفيدرالية ... لا يبدو أن مقاطعة برونسويك الجديدة تبدى حساسية سيادية كتلك التى تبديها مقاطعة كيبيك!

مونكتون - الاثنين ٧ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

السماء قاتمة. مطر كئيب يلف مدينة مونكتون الصغيرة التى يبدو وكأنها تستعد لبرد الشتاء.

اجتماع عمل مع فرنان لاندرى، المسؤول عن تنظيم القمة الفرنكفونية المقبلة. إنه يفيض بالحيوية والاندفاع، وهو مصمم على مواجهة التحدى، وتحويل هذا الحدث إلى نجاح كبير لهذه المقاطعة الصغيرة.

(فى مطلع بعد الظهر ...) زيارة إلى تل بوكتوش، وهى منطقة تم تأهيلها وحمايتها لتحتضن أصناف الطيور الأكثر تنوعًا. فيما أنا أستمع إلى الشروحات المفصّلة التى كانت تقدّم إلىّ، وفيما أنا أرى هذه المساحة الشاسعة، الباردة والخالية من أى وجود إنسانى، لم اتمكّن من الامتناع عن التفكير فى المناطق الريفية فى مصر أو فى الهند التى تشتد فيها الحرارة، وتكتظ بالسكان، وينهشها الفقر بقسوة. لم يكن الخالق عادلاً فى توزيع نعمه.

فريديريكتون، تورونتو - الثلاثاء ٨ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

تقلنا الطائرة التى وضعتها الحكومة الفيدرالية بتصرفنا إلى فريديريكتون، عاصمة برونسويك الجديدة. أُستقبل فى البرلمان، حيث ألقى خطابًا نصفه بالإنجليزية، والنصف الآخر بالفرنسية.

نتلقى دعوة إلى الغداء من حاكمة المقاطعة السيدة ماريلين ترانهولم كاونسال، وهى فى الأساس طبيبة. فى البدء تبدو شديدة التحفّظ، إلا أنها لا تلبث أن تنخرط أكثر فى الحديث لينضح منها ما تختزن من صفاء ذهن وذكاء. وبلغة فرنسية تغلب عليها اللكنة البريطانية، تعرض علىّ المشاكل الاقتصادية والاجتماعية لمقاطعتها.

نغادر فريديريكتون متوجهين إلى تورنتو، عاصمة أونتاريو. إنها مدينة «أمريكية»، بناطحات سحابها وحركتها الدائمة. يُعلمني السفير كلود لافردور، الممثل الشخصي لرئيس وزراء كندا، الذي يرافقني في زيارتي مع زوجته الرائعة سوزان، أن سلطات كيبيك تنوي مقاطعة زيارتي. هل يجب وضع هذا التشدّد في خانة الانتخابات التي ستجري في كيبيك؟ بكل حال، أرى نفسي في مأزق. فإذا عزفتُ عن الزيارة، أخشى أن أُغضب أوتاوا. وإذا لم أعزف، في الوقت الذي ترفض السلطات استقبالي، أغضب كيبيك.

بكلمة واحدة، إني في مأزق، رهينة للحرب الدائرة بين أنصار النظام الفيدرالي ودعاة الاستقلال. أختار حلاً وسطًا، يبدو لي مقبولاً من الفريقين. أذهب إلى كيبيك، وأكتفي بزيارة المؤسسات الفرنكفونية. في مونتريال، أزور الوكالة الجامعية، والمنتدى الفرنكفوني للأعمال، وكذلك مكاتب القناة التلفزيونية الخامسة TV5 التي تبث باتجاه أمريكا. وفي كيبيك، أزور معهد الطاقة والبيئة التابع للفرنكفونية.

تورونتو - الأربعاء ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

مقابلة مع إحدى كبريات الصحف الكندية «ذا غلوب أند مايل». كنتُ أنتظر أن أُسأل عن الفرنكفونية. يفضّل الصحافيون الكلام بإسهاب عن أحداث رواندا. إنها المرة الأولى التي أرى فيها الصحافيين يهتمون بأحداث الماضي أكثر من أخبار الساعة. يجب الاعتراف أيضًا بأن الفرنكفونية هي أبعد من أن تشكّل حدث الساعة.

غداء - نقاش في غرفة التجارة. وقبل الدخول في صميم الموضوع أنكرتُ الفرنكفونية ثلاث مرات: ألقيتُ خطابي بالإنجليزية! أجبتُ بالإنجليزية عن الأسئلة التي طُرحت عليّ بالإنجليزية!!! أجبتُ بالإنجليزية عن الأسئلة التي طُرحت عليّ بالفرنسية!!!

يتمنى الوزير المسئول عن شئون الفرنكفونية في أونتاريو، الذي قابلته بعد قليل

فى فترة ما بعد الظهر، أن تصبح مقاطعته، أسوة بكيبيك وبرونسويك الجديدة، عضواً كامل العضوية فى المنظمة الفرنكفونية. يخبرنى السفير لافاردور، فى أثناء توجهنا بالطائرة إلى كيبيك، أن سائر الوزراء فى حكومة أونتاريو لا يشاركون الوزير هذا الرأى.

أصل إلى كيبيك، المدينة الأكثر فرنكفونية فى كندا. أكثر فرنكفونية من مونتريال التى تأمركت بشكل واسع. أقيم فى الجناح نفسه من قصر فرونتناك، حيث نزلت فى المرة السابقة كأمين عام للأمم المتحدة.

كيبيك، مونتريال ـ الخميس ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

ألغت سلطات كيبيك بالفعل كل النشاطات التى كنتُ أنوى القيام بها. لا يقول لى أحد بعد الآن إن الجامعات لها استقلاليتها! جامعة لافال التى منحتنى منذ عدة سنوات دكتوراه فخرية، مما يعنى بأنى عضو شرف فيها، هى أيضًا ألغت المحاضرة التى كنتُ سألقيها. أذهب إلى المعهد الفرنكفونى للطاقة والبيئة، الذى يديره المغربى الحبيب بنصحراوى، قبل أن أتوجّه لتناول الغداء فى جزيرة سان جوزيف، حيث نطل من هناك على منظر رائع لمدينة كيبيك.

مونتريال،كيبيك ـ الجمعة ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

مقابلة على التلفزيون. يتكرر السؤال نفسه. يطلب إلىّ الصحافيون أن اناقش الأزمة التى نشبت بين أوتاوا وكيبيك بسبب زيارتى. أعيد الجواب نفسه «كثيرًا ما قُدّمت إلىّ النصيحة بألا أتدخل فى صراعات أهل البيت الواحد».

يبدو أن هذا الجواب الذى أرضى أوتاوا الساعية إلى التقليل من شأن الأزمة، قد أزعج كيبيك الراغبة فى تحميل الحدث بعدًا دبلوماسيًا.

زيارة إلى مقر المنتدى الفرنكفونى للأعمال، وإلى مكاتب القناة التلفزيونية الخامسة TV5 التى تبث باتجاه كندا، يلى ذلك لقاء مع أساتذة جامعة ماك غيل، وجامعة مونتريال. كان علىّ كذلك أن أفتتح المقر الجديد للوكالة الجامعية. سيتأجّل

هذا الأمر للزيارة اللاحقة ؛ لأن «الحرب الداخلية» تقضى بذلك . أكتفى بزيارة عادية للمقر ، وهو عبارة عن مبنيين متواضعين ، يربط بينهما ممر صغير .

(فى نهاية بعد الظهر ...) أعود إلى كيبيك ، حيث يقيم الحاكم العام روميو لوبلان استقبالاً كبيراً فى دارته الصيفية «لاسيتادال» . ليست الفرنكفونية حكراً على الكيبيك . فلقد «لبّى النداء» هذا المساء ناطقون بالفرنسية من كافة المقاطعات الكندية ، استجابة لدعوة الحاكم العام ، وهو فرنكفونى متحدر من بلاد أكاديا .

تقوم شخصيات من كيبيك بتقديم الاعتذار إلىّ بسبب الطريقة الفظّة التى عاملتنى بها الحكومة . لا أستطيع التوقف عن التفكير فى أوقات مماثلة فى نيويورك ، حين كنتُ أخوض حملة إعادة انتخابى . فى أثناء مداخلاتى العلنية ، كان أمريكيون يطلبون الكلام للاعتذار علنًا عن موقف واشنطن تجاهى .

أود أن أجيبهم أنه بعد الانتقادات والإهانات التى وُجّهت إلىّ فى العالم العربى إثر زيارتى للقدس ، وبعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد ، تحصنت بجلد تمساح إفريقى ، مما يجعلنى لا أبالى بكل هذه الحملات . ومع ذلك ، أتألّم فى بعض المرات ، فيكون ذلك مؤشّراً على شعورى بالإرهاق .

كيبيك، سودبورى ـ السبت ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

أستأذن الحاكم روميو لوبلان بالانصراف . فى هذه الصبيحة من سبتمبر ، يتراءى لنا من مقر إقامة الحاكم ، «لاسيتادال» ، نهر سان-لوران متلألئًا . وعلى ضفتيه تنشر الشمس طراوة متوسطية .

الذهاب إلى سودبورى ، وهى مدينة صغيرة فى أونتاريو تحتوى منجمًا ، كما أنها مسقط رأس وزيرة التعاون والفرنكفونية ديان مارلو .

أحضر حفلة قروية ظريفة أُعدّت تكريمًا للأب جيرمان لوميو الذى أمضى خمسين عامًا من عمره يجوب المقاطعة لجمع الأغنيات والأساطير التى تناقلها الناس ، جيلاً بعد جيل ، باللغة الفرنسية .

ينشد الجمع احتفاء به «يا صديقى ، فى مدينتنا كاهن طيّب ، يحتفل بالقداس ،

دون أن يكون قد تناول طعامًا»، ثم يردد الحاضرون «هيا نحتفل، هيا نغنّى، هيا نحتفل بالأب لوميو!».

تنتهى فترة بعد الظهر بمحاضرة ألقيها فى جامعة سودبورى التى تعتمد نظامًا تدريسيًا ثنائى اللغة. لا أخفى دهشتى للقائى مجموعة من الأساتذة المصريين يدرّسون فى هذه الجامعة.

سودبورى، أوتاوا ـ الأحد ١٣ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

الرجوع إلى أوتاوا، حيث نقيم فى بيت ضيوف الحكومة القائم على طرف حديقة قصر الحاكم. تسافر ليا إلى نيويورك حيث ستخضع والدتها لعملية فى القلب. تبالغ حكومة أوتاوا بحسن الضيافة، إلى درجة أنها تضع بتصرفها طائرة خاصة.

أشارك فى اللقاء العالمى لرجال الأعمال الشباب. إنها تظاهرة دولية من أجل تشجيع التبادل والشراكة بين رجال الأعمال الشباب المنتمين إلى العالم الفرنكفونى، وهو أمر تسعى إليه الدول بعد انهيار النظام الشيوعى. إن دعم رجال الأعمال الشباب ضرورى، لئلا تتحول خصخصة القطاع العام إلى كارثة.

(فى فترة بعد الظهر...) نزهة فى حديقة قصر الحاكم. أطلب إلى ضباط الأمن الذين يرافقونى أن يساعدونى لإيجاد الشجرة التى غرستها منذ عدة سنوات. وما طلبته على سبيل التسلية تحوّل إلى مهمة بغاية الجدية بالنسبة إلى العناصر المكلّفة بحراستى. نتمكّن أخيراً من إيجادها، فإذا هى صلبة وفى عز نموّها. وبعكس بعض الأشجار التى غرستها شخصيات تفوقنى أهمية، تمكّنت هذه الغرسة من الصمود فى وجه عاصفة عاتية. وهو ما فسّره فى الحال أحد حرّاسى الشخصيين على أنه فأل حسن. بالطبع، ليس الإيمان بالخرافات حكراً على الشرق.

باريس ـ الجمعة ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

يوافق الرئيس إميل درلان زينسو على القيام بمهمة نوايا طيبة فى كينشاسا، لكى يلتقى الرئيس كابيلا.

باريس ـ السبت ١٩ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

أشاهد عرض مسرحية «المغنية الصلعاء» بعد مرور ثلاثين سنة على مشاهدتها للمرة الأولى، برفقة نوال دال دراغو، فى مسرح «لاهوشيت» الصغير نفسه. لم يتغيّر شيء. إلى درجة أنه تولّد لدى إحساس رائع بأنى أنا أيضًا لم أتغيّر، وأنى، هذا المساء، أصغر سنًا بثلاثين عاما.

باريس ـ الخميس ٢٤ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

حفل توزيع جائزة «مادانجيت سينغ» الخاصة بتشجيع التسامح واللاعنف، فى اليونيسكو. من بين الشخصيات الأعضاء فى لجنة منح الجائزة كل من الأسقف ديسموند توتو، والحاخام الفرنسى رينه ساموي سيرات. يلفتنى كثيراً التهذيب العالى لهذين الرجلين العاملين فى خدمة الله. فاللطافة والرهافة والكياسة التى تميّز تصرّفهما تنمّ عن شكل من أشكال الذكاء. يطلب ديسموند توتو إلى الحاخام أن يتلو صلاة قبل بدء الاحتفال. تمنح الجائزة بالتساوى إلى كل من الجمعية الباكستانية المعروفة بـ«لجنة العمل من أجل حقوق الإنسان»، وإلى الهندى، أندر كومار غوجرال. فى أثناء الغداء الذى دعا إليه فيديريكو مايور، وقبل أن نجلس إلى الطاولة، يقوم ديسموند توتو بدوره بتلاوة الصلاة.

يباشر مصطفى نياس اليوم مهمة الوساطة فى لومى، موفداً من الفرنكفونية. تم التوافق مع مندوبة حقوق الإنسان والديمقراطية كريستين ديسوش، على أن يتم التطرق فى مرحلة أولى إلى ثلاث نقاط: النزاع الناشيء عن الاقتراع الرئاسى الذى جرى فى ٢١ يونيو، والذى يعتبره جيلكريست أولمبيو شرطًا مسبقًا لأى تفاوض، أعمال العنف التى قامت بشجبها مختلف الأحزاب السياسية، والتى يحمّل كل طرف المسؤولية فيها للطرف الآخر، وأخيراً إعداد لوائح انتخابية خالية من الشوائب.

باريس ـ الأربعاء ٣٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

محادثة طويلة مع سفير كندا فى باريس جاك روا. يجب الإسراع بإيجاد حل

للإشكال الحاصل بين أوتاوا وكيبيك، وذلك لصالح الفرنكفونية بالذات. إحدى الصَيغ تقضى بأن أقوم بزيارة إلى كيبيك لا ترتدى طابعًا رسميًا، وإنما تكون زيارة عمل عادية، مما ينفى المبرّر لوجود قوات أمن فيدرالية للإشراف على رجال الأمن الكيبيكيين.

بكل الأحوال، يجب الحيلولة دون تفاقم الأمور قبل انعقاد القمة المقبلة فى مقاطعة برونسويك الجديدة. يبقى أن نعرف ما الذى ستفضى إليه الانتخابات المقبلة فى كيبيك. التهدئة أم التشدّد فى المواقف؟ الانتصار أم الهزيمة للمطالبين بالاستقلال؟

باريس - الخميس ١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

فى أثناء انعقاد مجلس التعاون، أفصح عن نيتى فى تعديل اسم مؤسستنا، ذلك أن كلمة «الفرنكفونية» يكتنفها الغموض؛ نظرًا لما ينضوى عليه هذا الشعار من نشاطات وجمعيات ذات طبيعة مختلفة، منها ما هو تجارى، ومنها ما هو ثقافى أو خيرى، فى الوقت الذى لا يربطها أى شىء بمنظمتنا. من جهة أخرى، ومنذ قمة هانوى، لم تعد الفرنكفونية مؤسسة تقتصر على التعاون الثقافى والتقنى، بل أصبح لها بعد سياسى واقتصادى يخوّلها الانضمام إلى دائرة المنظمات الدولية. أقترح إذن اعتماد تسمية «المنظمة الدولية للفرنكفونية».

أحس بأن «جماعة النافذين» يبدون حذرًا حتى لا أقول ريبة. فكل ما هو جديد، أو كل ما يمكن أن يبدّل، ولو قليلاً، فى النسق القائم، يتحوّل فى نظرهم إلى تهديد موجّه إلى سلطتهم أو إلى امتيازاتهم. أضيف أن هذا التعديل لا يمسّ. لا نمسّ الوثيقة التى تبنّتها قمة هانوى. ثم أنوّه بسابقة الأمم المتحدة فى هذا المجال، حيث لا يذكر نص الوثيقة الأساسى عبارة «منظمة الأمم المتحدة»، وإنما «الأمم المتحدة».

لا يبدو أن حسم المعركة لصالحى أمرًا قريب المنال...

(بعد قليل...) أتحادث مطوّلاً إلى الرئيس إميل درلان زينسو الذى يتهيأ للسفر

إلى كينشاسا حاملاً رسالة واضحة إلى الرئيس كابيلا. الفرنكفونية على استعداد لتنظيم لقاء بين مختلف الفرقاء المتنازعين: الحكومة القائمة، الشتات الكونغولى المكون من أنصار موبوتو السابقين، والانفصاليون. هذا اللقاء غير الرسمى، والذى يمكن أن يرأسه إميل درلان زينسو، بإمكانه أن ينعقد فى عاصمة إفريقية محايدة، أو فى عاصمة أوربية. أفكّر فى أن تكون روما.

باريس ـ الجمعة ٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

يقيم كريم آغا خان حفل استقبال احتفاء بزواجه الثانى. يجلس إلى طاولتنا أخوه الأصغر أمين، والابنة الثانية لملك إسبانيا، وولى العهد المغربى، وخافيير بيريز ديكويار، وزوجة جيسكار ديستان. يقترح أمين أن نشرب نخب العروسين، ويرحّب بزوجة أخيه الجديدة، وهى أميرة ألمانية تتميّز بابتسامتها الملائكية.

أتحيّن فرصة إطلاق الأسهم النارية فى الحديقة لأنسحب.

باريس، بوردو ـ السبت ٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

السفر فجراً. إنه اختبار حقيقى لى. أنتمى إلى هؤلاء الذين تدبّ فيهم الحيوية ليلاً، لكنهم يدفعون الثمن باستغراقهم فى النوم صباحًا.

دُعيتُ لألقى محاضرة فى إطار الاحتفالات بالذكرى الخمسين للإعلان العالمى لحقوق الإنسان. الحضور قليل فى القاعة. السيدة دانيال ميتران من بين المتكلمين. نتناول الغداء معًا فى أحد المطاعم المشهورة فى المدينة.

(بعد الظهر ...) أزور مبنى المعهد الفرنكفونى للتكنولوجيات الحديثة، التابع للوكالة الحكومية. إنه مبنى جميل، تتألّق فيه تكنولوجيات الاتصال والإعلام. يولد لدى المدير الكاميرونى انطباعًا بأنه فى غاية الاسترخاء. لكنه لا بد لى من الاعتراف، بانه وإن تمت هذه الزيارة نهار السبت، فإن مجمل العاملين فى المعهد كانوا متواجدين لاستقبالى.

باريس ـ الثلاثاء ٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

لقاء فى الصباح مع آدم كودجو، أحد قادة المعارضة التوغولية الذى يبادرنى بالقول: «الرئيس إياديما ليس المنتصر فى الانتخابات الأخيرة، على الرغم من الحكم الصادر عن المحكمة الدستورية، التى نعرف علاقة أعضائها بالسلطة».

ما السبيل للخروج من الأزمة؟ لا يملك آدم كودجو تصورًا واضحًا، لكنه يرى أن المعارضة بكافة تشكيلاتها على استعداد للتفاوض مع ممثلى الحكومة. المهم هو السهر، وبإشراف دولى، على تنظيم وحسن إجراء الانتخابات التشريعية المقررة بين نهاية كانون الثانى ومطلع شباط ١٩٩٩.

ردًا على سؤالى إن كان بمقدور مصطفى نياس أن يحلّ هذه الأزمة لوحده، يجيبنى آدم كودجو أن وسيطًا واحدًا لن يتوصل إلى أى شىء. يقترح أن نطلب مساعدة ممثلين للاتحاد الأوربى، والدول المجاورة مثل بوركينا فاسو، وبنين، وغانا.

أعارض شخصيًا هذه المقاربة المتعددة الأطراف، لأنه كما علّمتنى الخبرة، يُخشى أن تكون معقّدة ومكلفة. ولكنى أمتنع عن تقديم أى اعتراض على اقتراح كودجو. فى الواقع، أظن أن ثقة المعارضة التوغولية بالفرنكفونية محدودة، وهى تعتبرها مؤيدة لإياديما. وفى حال لجأنا إلى الاتحاد الأوربى، فإننا نساهم فى الحد من تأثير الفرنكفونية فى التوغو.

باريس، بروكسيل ـ الأربعاء ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

محادثة مع الرئيس زينسو حول جمهورية الكونغو الديمقراطية، ومع مصطفى نياس حول التوغو، وأخيرًا مع آن ـ مارى ليزان من أجل الإعداد للندوة الفرنكفونية حول المرأة، المقررة فى اللوكسمبورج. أعاود نسق عملى الذى اعتدته فى القاهرة أو فى نيويورك، حيث كان علىّ أن أنتقل بلا تمهيد من دراسة ملف إفريقى إلى ملف عربى، أو إلى معالجة إشكال إدارى، يتخلّل ذلك الرد على الاتصالات الهاتفية العاجلة.

أركب الطائرة في نهاية بعد الظهر متوجهًا إلى بروكسيل، حيث يستقبلني مبعوثنا الدائم لدى الاتحاد الأوربي، كليمان دوهيم.

نتناول العشاء في منزل إديث كريسّون، وهي تبدو متألقة الجمال. تسترسل بلطف في انتقاد الطريقة التي يتم بها تسيير الوكالة الجامعية وجامعة سنغور في الإسكندرية. إنها لا تجافي الحقيقة في كل ما تقول...

بروكسيل - الخميس ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

خطاب في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر وزراء التعليم العالي الفرنكفونيين.

بعد الظهر، ألتقي مرسيلينو أوريجا أغيرّي المفوض الأوربي للثقافة ولوسائل الاتصال السمعي والبصري، ثم ألتقي إيمّا بونينو، المفوضة الأوربية للمساعدة الإنسانية. إنهما صديقان منذ أمد بعيد، وهما على استعداد، كل في ميدانه، للتعاون مع الفرنكفونية.

بروكسيل - الجمعة ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

محادثة مع جواو دو ديوس بينهيرو المكلّف بملف التوجو في بروكسيل. أطلب مشاركة الاتحاد الأوربي في الوساطة التي يقوم بها مصطفى نياس، وذلك عبر إرسال مراقب. هذا الالتزام، مهما كان رمزيًا، يتيح للاتحاد الأوربي متابعة تطور الأزمة التوغولية عن كثب، كما يسمح له بمواكبة الجهود التي يبذلها هذا البلد في سعيه لإرساء الديمقراطية.

جواو دو ديوس بينهيرو مقتنع بصحة هذه المشاركة، لكن عليه قبل ذلك أن يقوم ببعض المشاورات، لكي يتأكد من أن بإمكانه اتخاذ قرار كهذا. وهو يشارك في الرأي القائل بصعوبة إلغاء انتخابات ٢١ يونيو وتنظيم انتخابات رئاسية جديدة. يجب التطلّع إلى الأمام، على أن يكون الهدف الأول الإعداد الجيّد لانتخابات تشريعية تأخذ بعين الاعتبار الضمانات التي تطالب بها أحزاب المعارضة، وهي

تتمثل فى تأمين مراقبة العمليات الانتخابية، وتأمين الحماية، ليس فقط لرؤساء الأحزاب، وإنما أيضًا لمختلف المقرات التابعة لها.

نتفق فى الرأى كذلك على أن القوى المسلّحة تتدخّل مباشرة فى ممارسة السلطة فى توغو منذ سنوات، وأنه لا يمكن حجب هذه الحقيقة. لكنه يبادر إلى التوضيح بأن اللجنة الأوربية لا تشارك فى هذا التحليل. من جهة؛ لأن السلطات التوغولية انتقدت بعنف بعثة المراقبة التى أوفدها الاتحاد الأوربى بمناسبة انتخابات ٢١ يونيو، ومن جهة أخرى، لأن المشاورات التى تمّت تباعًا مع رئيس وزراء توغو، ومع وزير خارجيته، لم تُتح للاتحاد الأوربى إيجاد عناصر جديدة تشكّل جوابًا عن تساؤلاته.

تنتهى محادثتنا بوعد من بينهيرو بأن يجيب على اقتراحى قبل مضى أسبوع.

باريس ـ السبت ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

أشارك فى مؤتمر ينظّمه البروفسور إتيان إميل بوليو، فى الكوليج دو فرانس، حول موضوع وسائل منع الحمل فى البلدان المتطورة. لماذا تمّت دعوتى أنا؟ عرف البروفسور بوليو كيف يكون مقنعًا، حين شرح لى بأن البعد السياسى لهذه المشكلة جوهرى. لماذا قبلتُ؟ لأنها مناسبة إضافية للتعريف بالفرنكفونية، وكذلك لكى أثير مجددًا إشكالية الشمال والجنوب.

أبدأ مداخلتى بالتذكير بأنه ليس لدى أى خبرة فى مجال تحديد النسل، خصوصًا فى البلدان المتقدمة، لأنى متحدر من بلاد نامية. أشدّد على ضرورة إدراج مسألة تحديد النسل فى سياق جيو ـ سياسى عالمى، وبالأخص ضمن إشكالية العلاقة بين الشمال والجنوب، لأنه مهما كان الإطار التنظيمى الذى ستعتمده بلاد الشمال متشددًا، فإنه لن يكون بوسعه أن يحدّ من ضغط الهجرة الآتية من بلاد الجنوب. إنه مقياس أساسى يتحتّم على المجتمعات المتقدمة أن تأخذه بعين الاعتبار فى سياساتها المتعلقة بالولادة وتزايد السكان. أختم بالتذكير بوجوب أن يكون للنساء وللرجال حق وإمكانية اختيار مستقبلهم الشخصى والعائلى. هذه الحرية فى اتخاذ القرار هى حرية أساسية، يجب احترامها وتشجيعها.

باريس ـ الأربعاء ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

تسجيل حلقة تلفزيونية يديرها بول أمار. نستلطف بعضنا على الفور. يمكن أن يُظنّ البعض أننا على صلة وثيقة منذ أمد بعيد. حين يتناول موضوع اغتيال السادات، لا أستطيع حبس الدموع التى تسيل من عينى. إنه التأثر، ولكنه الإرهاق أيضًا. يجب أن أفكّر فى التخفيف من ضغط العمل. أما الآن، فأرجع سبب ذلك إلى حساسية تسبّبت بها المساحيق المستخدمة فى عملية الماكياج لدى افتراقنا، أعلم بأن بول أمار هو فرنسى من أصل جزائرى، وأنه يمت بقرابة إلى المغنى أنريكو ماسياس. لقد لعب العصب المتوسطى دوره هذه المرة أيضًا.

باريس ـ الخميس ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

دعوة من رئيس جمهورية الأرجنتين لحضور باليه حول موضوع التانجو الأرجنتينى. إنها المرة الأولى التى أحضر عرضًا فى دار الأوبرا فى باريس. فى مقصورتنا، يجلس وزير الدفاع الأرجنتينى، والسفير جان-دافيد ليفيت وزوجته.

لا يُصدّق أنى أسكن فى باريس ولا أفيد حتى من العروض الفنية والمسرحية، والأوبرا، والباليه التى تقدّم يوميًا فى مدينة النور! لا يعقل أنى لم أتخلّص قط من عاداتى كطالب مصرى لم يكن يغامر بتجاوز حدود الحى اللاتينى، ويكتفى بتناول وجبات الطعام فى نفس المطعم العائلى الصغير، الكائن فى شارع مسيو لو برانس.

باريس ـ الأحد ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

اتصال هاتفى من لانسانا كوياتى. اندلعت الحرب مجددًا فى غينيا-بيسّاو. يسيطر المتمردون على مناطق جديدة، ولن يطول الأمر حتى يُحكموا سيطرتهم على معظم أنحاء البلاد.

باريس ـ الاثنين ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

أترأس احتفال توزيع الكتاب التكريمى لهوبير تييرى فى اليونيسكو أمام جمهور

من الأصدقاء والمعجبين، ومعظمهم ممن تجاوز الستين من العمر. لا يظهر الجامعيون الشباب حماسًا كبيراً لهذا النوع من النشاطات الأكاديمية، بعكس الأساتذة السبعينيين الذين يعتبرونها من الأمور النادرة التى تبعث لديهم شعوراً بالرضا. احتفال بمنح دكتوراه فخرية، تسليم كتب تكريمية، ندوات بين إخصائيين، إنها مناسبات يطيب فيها، بين مداخلة وأخرى، استعادة الذكريات الجامعية القديمة. طريقة أخرى لتذكر عهد الشباب، ولتجديد المعرفة، وللاستمرار فى الوجود.

ثم أحضر حفل منح جائزة سيمون بوليفار التى يسلّمها فيديريكو مايور إلى ماريو سواريس، وإلى أحد مواطنىّ، ميلاد حنا، وهو صحّافى معروف بمقالاته فى جريدة الأهرام. تتشابك أيدينا. يطير من الفرح. ولشدة اعتزازه بنيل هذا الشرف، لديه النية فى أن يشير إليه على بطاقته الشخصية. أسر كثيراً لرؤية فرحه لدرجة أننى لا أحاول أن أنصحه بالعزوف عن ذلك.

باريس ـ الخميس ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

لقاء عمل طويل مع مصطفى نياس وجيلكريست أولمبيو، الذى يرافقه أقرب مستشاريه.

يقدّم مصطفى نياس تحليلاً للوضع يميل إلى التفاؤل، كون الرئيس إياديما يعبّر عن استعداده للتفاوض مع المعارضة. أما جيلكريست أولمبيو فيعطى تصورّاً أكثر تشاؤمًا، مستنداً إلى أن البنك الدولى وصندوق النقد الدولى اتخذا قراراً بتجميد علاقاتهما مع توغو. بالإضافة إلى ذلك، فإن الجيش الذى يضم اثنى عشر ألف جندى، وألفى عنصر مساعد، يهيمن على السياسة الداخلية للبلاد. كما أن الوحدتين القتاليتين الموضوعتين بإمرة ابنىّ الرئيس إياديما تنشران الرعب. يقدّم عدداً من المقترحات الواضحة التى تقضى بتخفيض عديد الجيش، وبالتالى، بالحد من تحكّمه بالأوضاع.

أعترضُ قائلاً إن هذه المشكلة لا يمكن أن تُحل إلا على الأمد الطويل. لكن

يجب علينا أن نبدأ الحوار بأسرع وقت. نتوافق على صياغة بيان مشترك، يعطى فيه «اتحاد قوى التغيير» ممثلاً برئيسه أولمبيو، موافقته المبدئية على المشاركة فى حوار داخلى، كما يعبّر عن ضرورة الاستعجال بمعالجة ملف الانفلات الأمنى فى توغو.

باريس، لوكسمبورج ـ الثلاثاء ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

الذهاب بالسيارة إلى لوكسمبورج تحت المطر الشديد. يترامى مشهد الطبيعة أمام أنظارنا باهتًا ورتيبًا. حقول تنفتح على حقول، بالغت يد الإنسان فى العناية بها، إلى درجة أنها أصبحت تشبه حديقة نباتات.

لوكسمبورج ـ الأربعاء ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

تستقبلنا، الدوقة العظمى، أنا وليا، وفق مراسم أُعدّت بعناية. نستذكر زيارة الرئيس السادات إلى هذه الدولة، كَما نستذكر حضور الدوق الأكبر مراسم جنازته.

يلقى مشروع إقامة الندوة الفرنكفونية حول المرأة، العام القادم فى اللوكسمبورج، استقبالاً حسنًا لدى الدوقة. كما توافق على منحنا شرف حضورها الجلسة الافتتاحية.

ألتقى بعد ذلك رئيس الوزراء ووزير الخارجية، قبل أن نتناول غداء شهيًا، تُقدم خلاله أنواع النبيذ المختلفة، والتى وصفها البعض بالفاخرة، والبعض الآخر باللذيذة. لم تكن تلك الوسيلة الفضلى لأكون مستعدًا للمقابلة التى علىّ أن أجريها مع تلفزيون اللوكسمبورج، وبالأخص، للمحاضرة التى علىّ أن ألقيها فى نهاية بعد الظهر فى أحد القصور القريبة من العاصمة.

يسبق محاضرتى فاصل موسيقى. أتكلّم خلال ساعة عن الفرنكفونية وبُعدها الجديد. الأسئلة التى تطرح لاحقًا تجعلنى أعتقد أن المستمعين مهتمون بالموضوع.

باريس ـ السبت ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨

أصرّ صديقى نائل الأسعد، وهو رجل أعمال لبنانى ضليع بالعمليات المالية فى إفريقيا، على أن أتناول الغداء مع مهدى التاجر، أحد أثرياء الخليج، وهو الرجل الذى حوّل دبى إلى مرفأ دولى، أشبه بهونج كونج جديدة.

يستقبلنا فى قصره الكائن بالقرب من باريس. بعد تجاوز الأسوار الخارجية، تجرى بنا السيارة لأكثر من عشر دقائق وسط حديقة مترامية الأطراف تشمخ فيها الأشجار العتيقة، قبل أن يتراءى لنا القصر فى نهاية الممر، كما فى حكايات الساحرات.

ندخل قاعة استقبال واسعة جداً تطل على بحيرة. مهدى التاجر بانتظارنا، تحيط به «حاشيته». إنه رجل متوسط القامة، لا يوحى شكله بسنّه الحقيقى، تشعّ نظرته بالفطنة والذكاء. يستقبلنى بكثير من الود، ويستهل كلامه بالقول:

«مضت سنوات وأنا أتابع مسارك. إنى أحد معجبيك المتحمّسين».

يقطع حديثنا العديد من الاتصالات الهاتفية. أرتجف من البرد، على الرغم من النار المشتعلة فى المدفأة الضخمة. ننتقل إلى غرفة الغداء، حيث يلسعنا البرد أكثر. تمتلكنى الدهشة للنمط العربى الذى يخيّم على الغرفة، على الرغم من أن الإطار العام لا يتلاءم مع ذلك. وُضعت الأطباق جميعها على الطاولة، على أن يسكب كل ضيف ما يحلو له. للأسف لا يتمكّن النبيذ الأحمر من أن يجعل الدفء يدبّ فى عروقى. البرد يتسرّب إلى كل مكان، حتى إلى الطعام، وإلى الحديث، وإلى الاهتمام الفنى الذى يمكن أن يثيره الأثاث، والتحف القديمة التى تزيّن القاعة.

أنصرف بعد الغداء، دون أن تكون الحرارة قد دبّت فىّ، ولكنى أعد مضيفى بلقاء ثان. لا نسلك للخروج من القصر الطريق نفسها التى اجتزناها لَندخل إليه. عند دخولنا أخذنا الطريق الطويل: فقد كان يجب أن نحيط بكل أوجه جمال هذه الملكية الشاسعة. عند المغادرة، الطريق المختصر يكفى: فلقد اندهشنا بما فيه الكفاية.

لشبونة ـ الاثنين ٢ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٨

أنا مجدداً فى لشبونة، ولكن هذه المرة لكى ألقى محاضرة فى الجامعة حول العلاقة بين الفرنكفونية واللوزوفونية. تأتى هذه الخطوة بناء على طلب صديقى جوزيه مانويل دوراو باروسّو، الوزير السابق للخارجية فى البرتغال.

لشبونة، جنيف ـ الثلاثاء ٣ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٨

أعلم هذا الصباح أنه، فى ليل ١ و ٢ نوفمبر، وُقّع اتفاق سلام فى أبوجا، بين الرئيس نينو فيايرا والجنرال أنسومان مانيه. ينص الاتفاق على انسحاب كل القوات الأجنبية، وتشكيل حكومة وحدة وطنية، بالإضافة إلى إرسال مساعدة إنسانية إلى حوالى ثلاثمائة أو أربعمائة ألف شخص مهجّر.

ألقى محاضرتى أمام جمهور من الطلاب الشباب الذين يتهيبون الموقف لدرجة أننى أكاد أضطر إلى إجبارهم على طرح الأسئلة.

لدى مغادرتى لشبونة متوجهًا إلى جنيف، يتولّد لدىّ شعور بأنى كمن يزرع البحر. فمحاضرة هنا أو هناك لن تستطيع إرساء علاقات بين الفرنكفونية واللوزوفونية. ما يهمّ الآن هو إمكانية إيجاد وسيلة تعايش بين مناصرى فيايرا ومناصرى مانى فى غينيا ـ بيسّاو، وعلى المدى البعيد، تكوين إرادة لإقامة علاقات مؤسساتية بين المنظمات الفرنكفونية والمنظمات اللوزوفونية.

جنيف ـ الخميس ٥ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٨

أترأس الندوة التى تنظّمها الفرنكفونية حول موضوع التعدد اللغوى فى المنظمات الدولية. لقد قام كزافييه ميشال المندوب الدائم للفرنكفونية فى جنيف بعمل جيّد. القاعة الجميلة لمركز المحاضرات فى جنيف مليئة: أكثر من أربعمائة دبلوماسى، وموظف دولى، وخبير، ومراسل صحفى ينتمون إلى مختلف المناطق اللغوية الكبرى، وافقوا على المجىء للتفكير فى وسائل تشجيع التناغم بين لغات الأمم المختلفة، وخصوصًا داخل المنظمات الدولية، وذلك فى مواجهة الميل المتزايد

إلى التخلى عن خيار التعددية اللغوية. مما سيؤدى، كما هو معلوم، إلى إعادة النظر، ليس فى طبيعة التواصل الدولى، وإنما أيضًا فى مبدأ التعددية ذاته، ومن خلال ذلك إلى المسّ بمبدأ وجود مجموعة دولية منظّمة؛ لأنه فى الميدان اللغوى، كما فى الميدان المالى، هناك توازنات دولية أساسية.

جنيف - الجمعة ٦ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٨

جلسة ختامية للندوة. يلقى محمد بدجاوى خطابًا رائعًا. دفاع عن اللغة الفرنسية، يحمل بنظرى شحنة رمزية من جوانب ثلاثة: أولاً لأن هذا الجزائرى يعلن بوضوح التزامه باللغة الفرنسية، وهذا ما يناقض الموقف الملتبس لبلاده، ثم لأنه موظف دولى يدعو إلى احترام التعددية اللغوية. وأخيرًا لأنه رجل قانون يتكلم. نتناسى أحيانًا كثيرة إسهام القانون الفرنسى فى إشعاع الفرنكفونية.

باريس - الثلاثاء ١٠ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٨

محاضرة حول الفرنكفونية والعالم العربى فى «نادى السيارات» بدعوة من جمعية فرنسا - مصر، وذلك أمام جمهور مكوّن من سيدات أنيقات متقدمات فى السن.

إذا كانت هذه الجمعيات قد شكلت فيما مضى عامل تبادل ثقافى مهمّ، فإن تأثيرها تضاءل فى عصر تكنولوجيات الاتصال الحديثة. فأى محاضر، مهما بلغ تألقه، لن يتوصل أبدًا إلى منافسة الصورة أو الإنترنت، لكى يعرّف الفرنسيين بمصر، أو المصريين بفرنسا.

إن جمعيات الصداقة بين الدول لا تدين باستمراريتها إلا لجمود البيروقراطية، أو إلى فقدان الخيال لدى المسؤولين عن العلاقات الثقافية.

باريس - الأحد ١٥ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٨

غداء لدى جاك أتالى. كل باريس، من أهل الفن، إلى أهل السياسة، إلى أهل

المال، تجتمع حول طاولات صغيرة. ألتقي جان ـ كلود تريشيه، محافظ البنك المركزي الفرنسي، الذي يخبرني عن انعقاد اجتماعات بين محافظي مختلف البنوك المركزية الفرنكفونية.

أكتشف، في كل يوم، مؤسسة أو جمعية جديدة تعمل في إطار الفرنكفونية. كيف نفسّر هذا الاهتمام، وهذا الالتفاف حول فكرة الفرنكفونية في مختلف القطاعات الفاعلة، في الوقت الذي نرى فيه الرأي العام الفرنسي يعرض عنها ولا يليها الاهتمام الواجب؟

بروكسيل ـ الاثنين ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٨

يخرج رئيس الاتحاد الأوربي جاك سانتيه، الذي ألتقيه هذا الصباح، بحصيلة مقلقة، ولكنها تتميّز ببعد النظر:

«إن تراجع اللغة الفرنسية داخل المنظمات الأوربية يدعو إلى القلق. على الفرنكفونية، وكذلك على الدولة الفرنسية أيضا، أن تعِيا بأن هذا الوضع سيتفاقم في السنوات المقبلة».

أشير إلى الدورات التدريبية باللغة الفرنسية التي نقدمها إلى الدبلوماسيين الشباب من بلدان أوربا الشرقية، المرشحة للانضمام إلى الاتحاد الأوربي. يستمع اليّ، شارد الذهن، غير مقتنع بالجهود التي نبذلها ـ وهي متواضعة من دون شك.

باريس ـ الأربعاء ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٨

نقاش حاد حول وضع الأقباط، في أثناء العشاء المقام على شرف الرئيس مبارك وزوجته في السفارة المصرية. لا يلبث الرئيس أن يبدي امتعاضه. بالنسبة إليه، الأقباط والمسلمون هم أولاً مصريون. غير أن وزير الخارجية عمرو موسى يلفت إلى أنه في بعض المدن الصغرى في صعيد مصر يوجد حالات تمييز بين الطائفتين. يعارضه الرئيس بشدة. بالنسبة إليه لا يوجد أي تمييز.

باريس ـ الخميس ٢٦ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٨

توقيع اتفاق تعاون فى مقر الفرنكفونية، مع الصندوق المصرى لتنمية إفريقيا. رأى وزير خارجية مصر عمرو موسى لزامًا عليه أن يوقّع هذا الاتفاق فى مبنى المنظمة الفرنكفونية، وأن يذكّر بأنى وراء إنشاء هذا الصندوق.

غداء مع رئيس جمهورية غامبيا يحيى جمّاه. لقد عرفته غداة الانقلاب الذى أطاح بالرئيس داوودا جوارا. لم يكن حينها سوى ضابط شاب متحمّس ومنفتح، يصغى بانتباه كبير إلى أقوالى. الرجل الذى ألقاه اليوم رجل ضخم، يلف رأسه بعمامة، ويضع خاتمًا فى كل أصبع من أصابع يده. مظهر ولىّ حقيقى، فهو يحس بأنه يمتلك، إضافة إلى سلطته الزمنية، سلطة إلهية.

يشرح لى الدور السياسى الذى يلعبه فى النزاع القائم بين مقاطعة كازامانس والسنغال من جهة، وبين السنغال وغينيا ـ بيسّاو من جهة أخرى. لا أستطيع أن أحدّد ما هو الأمر الذى لم أستطع تحمّله أكثر، أهو ادعاؤه أو الحركات الإيمائية الخسيسة التى ارتسمت على وجوه الممالقين الذين يرافقونه. ومع ذلك، ليست المرة الأولى التى أجد نفسى فيها أمام رئيس دولة يعطى عن نفسه صورة معكوسة نسبيًا عن إشعاع البلد الذى يرأس. ولكنى لن أتوصّل أبدًا إلى تقبّل هذه الدرجة من الصلف. وما يزيد من صدمتى هو أننى لم أستطع، أمام هذا الولى المنتفخ عجرفةً، إلا أن أتذكّره عندما كان ضابطا شابا. كم تبدّلنا الأيام! أحد معاونىّ يخبرنى بأنه انتُخب بأكثرية ساحقة. إنه إذن طاغية... ديمقراطى!

إن الخطأ الذى لا يمكن لكهّان ديانة حقوق الإنسان أن يتخلّوا عنه، هو الاعتقاد بأن الانتخابات تشكّل العنصر الأساسى، حتى لا نقول ضمانة النظام الديمقراطى وحماية الحريات الأساسية. فى بعض الحالات، لا يعدو الأمر كونه تمويهًا مؤسساتيًا، على غرار ما كان يفعل الماريشال الروسى بوتمكين، وفى الأساس، هى عملية تهدف إلى إرضاء بلاد الشمال الغنية.

أتحادث اليوم أيضًا إلى رئيسى دولة آخرين، رئيس بوروندى بيار بويويا، ورئيس غينيا الاستوائية تيودورو أوبيانغ نغيما مبازوغو، وهما يستجيبان فى طريقة

إدارة شؤون بلديهما، لمقاييس الديمقراطية. ولكن الفرق شاسع بينهما وبين المهرّج الكبير الذى تناولتُ الغداء معه ظهراً.

باريس ـ الجمعة ٢٧ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٨

جلسة افتتاحية احتفالية لقمة فرنسا ـ إفريقيا، التى يحضرها الرئيس مبارك للمرة الأولى. خطابات لكل من رئيس الجمهورية الفرنسية جاك شيراك، ورئيس بوركينا فاسو بليز كومباورى، والأمين العام للأمم المتحدة كوفى أنان، الذى يأتى لمصافحتى فى ختام الجلسة ويهمس فى أذنى: «إنى أبدأ بمواجهة نفس المصاعب التى واجهتَها».

لا أصدّق ما يقول.

غداء على شرف رؤساء الدول الأفارقة فى قصر الإليزيه. يجلس على يمينى رئيس وزراء تونس حامد القروى، الذى يروى لى الرحلة الأخيرة التى قام بها لصيد الخنازير البرّية. على يسارى، تجلس زوجة الرئيس ساسّو ـ نغيسّو، جميلة وأنيقة وصامتة. أمامى، يجلس رئيس وزراء المغرب عبد اللطيف الفيلالى، الذى يبدو، على الرغم من مظهره المتحفّظ، إنسانًا واقعيًا وذكيًا، ولطيف المعشر.

روما ـ الأحد ٢٩ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٨

أترأس اجتماع الجمعية الدولية للتنمية. انقسام سرمدى بين القدماء، المتشبثين بتقاليد هذه المؤسسة العريقة، والمُحدثين، المحبّذين لثورة جذرية.

روما ـ الاثنين ٣٠ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٨

ألقى محاضرة فى قاعة ثلاثة أرباع مقاعدها خالية؛ بسبب المطر. كثيراً ما تعرّضتُ لمثل هذا الموقف. وبما أنى حين كنتُ أنظّم بعض النشاطات، اضطررتُ أحيانًا للطلب إلى بعض الموظفين والحرّاس الدخول من أجل تضخيم عدد الحاضرين، فإنى أفضّل قاعة نصف فارغة، على قاعة مملوءة بشكل اصطناعى.

روما، باريس ـ الثلاثاء ١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

في مطار روما أصادف رجل السياسة المالطي، غيدو دو ماركو، الذي يفاجئني بالكلام بإسهاب ومعرفة عن البعد السياسي الجديد للفرنكفونية. وأنا الذي اعتقدتُ دومًا بأن الفرنكفونية نادٍ مقفل، لا يدخله سوى المطّلعون على أسراره!

بوخارست ـ الخميس ٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

لقد استحوذ المجلس الدائم للفرنكفونية على كل طاقتي هذا النهار، وما تبقّى لي من قوة استنفذها على مذبح المجاملات الاجتماعية. عليكَ أن تبذل جهدًا للابتسام، وللتعرفّ إلى هذا الشخص أو ذاك، ولتذكّر اسمه ووظيفته. كل هذه الاستقبالات تشكّل عبئًا عليّ. لا أكون ذاتي فعلاً، إلا حين أكون في مكتبتي، متنقلاً بين القراءة والكتابة، أو حين أكون في جلسات على انفراد.

هذا المساء، أمضيتُ ثلاث ساعات مع وزير خارجية كيبيك، سيلفان سيمار. يؤكد لي أنه ليس في نية حكومته الآن تنظيم استفتاء جديد. في المقابل، فإن كيبيك مصممّة على لعب دور أساسي في إطار الفرنكفونية. أما بالنسبة إلى زيارتي لكيبيك، فلقد تم التوافق على إيجاد تسوية مع أوتاوا. هناك عدة حلول ممكنة. يمكن تأمين الحماية لي عبر فريق أمن مشترك من كيبيك وأوتاوا. ويمكن أن تُعتبر زيارتي، إما زيارة رسمية، وإما زيارة عمل عادية. كل ذلك يتحدّد من خلال التسوية التي يتم التوصل إليها بين كيبيك وأوتاوا.

بوخارست ـ الجمعة ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

محادثة طويلة مع ديان مارلو، الوزيرة الكندية للتعاون وللفرنكفونية. إنها لا تشارك سيلفان سيمار تفاؤله. فكيبيك تسعى على ما يبدو إلى مخاصمة أوتاوا. إنها طريقة للتأكيد على خصوصيتها. يُخشى أن تكون السنة المقبلة صعبة.

بوخارست ـ السبت ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

أتناول الفطور مع رئيس الجمهورية الأسبق، إيون إلياسكو. محادثة ودية، غير مقيّدة بالشكليات البروتوكولية. لقد تلاقينا في أكثر من مناسبة: في بوخارست، في نيويورك، في جزر موريشيوس كذلك، في أثناء انعقاد القمة الفرنكفونية. لا يخفي مخاوفه. الأوضاع تسوء في رومانيا. يبدو أن الفريق الحاكم عاجز عن إيجاد الحلول لمشاكل البلاد.

الابتعاد عن السلطة، بالطبع، لا يحمل على التفاؤل. من المعروف أنه حين تكون المقاليد بيدنا يكون الأدرينالين مرتفعًا. نميل إلى رؤية النصف المليء من الكوب، وإلى تجاهل المشاكل «الصغيرة»، بما أننا نهتم بمتابعة الأهداف الكبرى. يحدث أن يقوم صديق مخلص بتنبيهنا إلى الواقع، إلاّ أن المعاونين الممالقين لا يلبثوا أن يعملوا على محو هذا الانطباع، لأن سبب وجودهم يكمن في المحافظة على معنوياتك، في أعلى مستوى.

(في نهاية بعد الظهر ...) أتوجّه إلى القصر الرئاسي حيث ينتظرني الرئيس إميل كونستانتينسكو.

يبدو المشهد أمامنا غريبًا. طرقات العاصمة مكسوة بأكملها بالجليد. العربات تسير ببطء، دون أن تتمكن من اجتياز أدنى منحدر، إلى درجة كنا نرى أرتالاً من السيارات والحافلات متوقفة عند طلعات الطرق. نرى أنفسنا ملزمين على القيام بلفّة طويلة حتى لا تسلك سيارتنا إلا في أماكن منبسطة.

ألتقي الرئيس كونستانتينسكو الذي كان منحني دكتوراه فخرية حين كنتُ في الأمم المتحدة. تقترح جانّ مودلين، الناطقة باسم الفرنكفونية، بكثير من اللباقة، أن نجري مقابلة تلفزيونية مشتركة، فيبدي الرئيس دهشته للفكرة ويقبل بكل سرور. تحتاج رومانيا إلى دعم الفرنكفونية الدبلوماسي والثقافي. وهي تنوي الانخراط بقوة ضمن هذه المجموعة.

باريس ـ الثلاثاء ١٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

محادثة مع بينيتا فيرّارو ـ فالدنر، التى ترأس بلادها الاتحاد الأوربى. من هذا المنطلق، أطلب إليها دعم مسعاى لكى يتخذ الاتحاد الأوربى موقفًا إيجابيًا إزاء توغو.

باريس ـ الأربعاء ١٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

محادثة مع هنرى لوبيس، سفير الكونغو-برازافيل فى باريس. إنه كاتب ورجل واسع الثقافة، يسعى لإنقاذ بلاده من تدهور قد يوازى ذاك الذى حصل فى الصومال. إنه مؤيد لوساطة تقوم بها الفرنكفونية، لكى تضع حدًا للصراعات التى تدمى البرازافيل والكونغو. إن الوسائل المتوفرة للفرنكفونية محدودة بالتأكيد، ولكنها تتمتع بنوع من الألق. أنوى تكليف مصطفى نياس بهذه الوساطة، بعد أن سبق وكُلّف بملف توغو. إنه يمتلك الطاقة الكافية لكى يقوم بالمهمتين فى آن واحد، وهما بأى حال متقاربتان فى طبيعتهما، لأننا فى كلتا الحالتين فى مواجهة صراعات داخلية.

باريس ـ الخميس ١٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

احتفال ضخم فى اليونيسكو. أتسلّم اليوم الكتاب التكريمى الذى أُعدّ احتفاء بتتاجى الأكاديمى. إنه عبارة عن مجلدين من ألف وستمائة صفحة ونيف. يرأس الاحتفال المدير العام فيديريكو مايور، الذى يعطى الكلمة فى البداية لممثل الأمين العام للأمم المتحدة، إيف بارتولو، وهو المدير التنفيذى للجنة الاقتصادية الأوربية التابعة للأمم المتحدة:

«إنه يضع خبرته الواسعة، وطاقته التى لا تنضب، فى خدمة منظمة إقليمية، مسترجعًا بذلك حبًا لازمه فى شبابه، وكرّس له أطروحة الدكتوراه. وهذه المنظمة ليست أية منظمة، إنها منظمة إقليمية تقوم بمهمة سياسية وثقافية، وتضع فى أعلى سلّم أهدافها نشر التنمية، وإرساء الديمقراطية، والوقاية من المنازعات. إنها

إذن، منظمة تتيح له فرصة استكمال مسيرة حياة كرّسها للسلم ولتقدم الإنسانية ...».

هذه الكلمات تلخّص على أفضل نحو الدوافع التى حدت بى إلى قبول منصب الأمين العام للفرنكفونية.

ثم يأتى دور وزير داخلية فنزويلا أسدروبال أغيار، ومن بعده السفير هيزاشى أوادا، الذى يدهشنى بفرنسيته المنمّقة والجذلة، والذى ينوّه بزيارتى التقليدية إلى معبد الأميرال توغو الشنتوى، فى أثناء رحلاتى المتكررة إلى اليابان. أما كاريل فازاك، الذى كان وراء هذه المبادرة، فقد أشار إلى أن واحداً وتسعين كاتبًا من مختلف أصقاع العالم، أصرّوا على المشاركة فى هذا الكتاب، للتعبير عن صداقتهم وتقديرهم. يلقى هكتور غرو إسبيال خطابه بالإسبانية. وعلى الرغم من إنى لا أتكلم هذه اللغة الجميلة، أفاجئ نفسى بفهمى المعنى العام لمداخلته. أغلب الظن أنه حين يكون المرء موضع إشادة، فإن إمكانيات الاستيعاب تتضاعف لديه. إننا نضعف جميعًا، شئنا أم أبينا، أمام الإطراء. وحتى لو كنا نعلم أن هذا الكلام المنمّق تفرضه المناسبة أو قواعد اللعبة، فإننا نستسيغ ما يُقال.

من جهته، يذكّر فيديريكو مايور بأن كلمة «ديمقراطية» لا تظهر ولو مرة واحدة فى ميثاق الأمم المتحدة، وأن الفضل يعود لى بإدخال مبدأ المراقبة الدولية للانتخابات وتطبيقه فى الأمم المتحدة، وهو عمل تتأسس عليه أية ديمقراطية حقيقية. إلا أن خطاب القاضى بدجاوى هو الذى له أكبر الأثّر فى نفسى؛ نظرًا لصوره الغنية، ولتمكّنه من التحليل الذى تتشابك فيه الأفكار كما النقوش فن الزخرفة العربى. مع ذلك كانت علاقتنا فى بعض الأوقات متوترة جدًا. فبينما كنتُ أدافع عن اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل، كان محمد بدجاوى يشكّل رأس حربة للدول التى كانت تدين خيانة مصر للوحدة العربية. وستبقى مواجهتنا فى تلك المبارزة الخطابية فى أثناء انعقاد القمة الإفريقية فى مونروفيا عام ١٩٧٩، ولمدة طويلة من دون شك، محفورة فى ذاكرة الدبلوماسيين الأفارقة. ولكن بعد مضى عشرين سنة، قرّر محمد بدجاوى أن يتناسى السياسة، ليقدّم عليها الصداقة:

«فى تاريخ الإنسانية، هناك بعض الأقدار التى تخطّ فى كتاب الخليقة أجمل الصفحات. وشاء القدر، يا عزيزى بطرس، أن تكون من بينها. وبما أنه يُقال فى التراث العربى عن الرجال الأفذاذ، إن واحدا منهم يساوى عشرين ناقة بيضاء وقصيدة من نار مقدسة، فإن هذه الهدايا تقدّم إليك هذا المساء. تقبّلها منا جميعًا؛ لأننا من هذه الليلة البهيجة، سنضىء لك القمر».

ليس بوسعى الامتناع عن التفكير فى قمر الأقمار...

من أعلى هرمها التسعينى، وبعد أن قرأت بتمعن الجزء الأول من كتابى التكريمى، اتصلت بى حماتى بولين من نيويورك لتقول:

«لا بد أنك تطير فرحًا حين تقرأ هذا التقريظ. استعجلْ فى إرسال الجزء الثانى لى!»

إنها امرأة مدهشة، لم تتردد فى أن تنكب على القراءة الجافة والمملة، لهذه الدراسات القانونية الطويلة، التى لا تثير الاهتمام إلا لدى رجال القانون، لا بل لدى المتخصصين من بينهم فى هذا الفرع المحدّد من القانون الدولى.

باريس، هانوى ـ الجمعة ١٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

تستقل ليا الطائرة متوجهة إلى نيويورك، حيث ستمضى عيد الميلاد مع والدتها التى اشتد عَليها المرض. أما أنا، فأسافر إلى هانوى.

هانوى ـ السبت ١٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

أنزل فى الشقة التى حُجزت لى فى أثناء زيارتى الأولى إلى فيتنام، كأمين عام للأمم المتحدة. إنه الفندق الأقدم فى المدينة، تم بناؤه فى الحقبة الاستعمارية، ثم أُعيد تجديده. نطل من نافذة غرفة الاستقبال الصغيرة على ساحة تلفّها الأشجار، مما يذكّر بمدينة صغيرة فى الريف الفرنسى. وإذا كانت اللغة الفرنسية هنا فى تراجع، فإن التنظيم الحضرى على النمط الفرنسى لا يزال متأصلاً بعض الأحياء.

ليس لدى من الوقت سوى القليل الذى يسنح لى بأن أغتسل وأبدّل ثيابى، قبل التوجه إلى القصر الرئاسى، الذى يُطلق عليه اسم بيت ضيوف الحكومة. تقيم نائبة الرئيس، السيدة نغويان تى بين، التى ترأست اجتماع بوخارست، الأسبوع الفائت، مأدبة عشاء على شرفى. لقد أرهقنى السفر، وأجد صعوبة بالغة فى العثور على مادة لمتابعة الحديث. لحسن الحظ، يجهد معاونىّ، الذين لم يزعجهم مثلى التفاوت فى التوقيت، لإضفاء حيوية على السهرة.

هانوى - الأحد ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

زيارة لمكتب «آسيا والمحيط الهادى» التابع للوكالة الحكومية، والذى يديره جامعى ودبلوماسى إفريقى، موسى كامارا. ليس له أى اتصال بالوكالة الجامعية، وهى مؤسسة أخرى تابعة للفرنكفونية، وإنما أكثر تجذّراً ونشاطًا. هذا القصور فى التنسيق بين مختلف الهيئات العاملة، هو بالطبع أحد نقاط ضعف هذه المنظمة.

(فى نهاية بعد الظهر ...) أقبل دعوة سفير مصر محمد السيد طه، الذى يستقبل السلك الدبلوماسى فى مقر إقامته التى تعجّ بالتحف الفنية المتنوعة التى جمعها فى أثناء تنقلاته فى مختلف المراكز الوظيفية.

تبتسم، تستمع، تتعرّف إلى بعض الوجوه، تستعيد ذكريات تكون قد نسيتها منذ زمن طويل. وتشرح كذلك التحولات الحاصلة فى الفرنكفونية منذ قمة هانوى. سيكون للدبلوماسيين، على الأقل، مادة لكتابة تقرير إلى إداراتهم، ينطوى على بعض الجدة.

هانوى - الاثنين ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

يكلمنى وزير الخارجية نغويان مان كام بحماس عن اجتماع جمعية أمم آسيا الجنوبية - الشرقية، الذى عُقد فى هانوى ولاقى نجاحًا كبيراً. اعتُمد فيه برنامج عمل يمتد إلى ٢٠٠٤، كما ينصّ على إنشاء منطقة للتبادل الحرّ بين خمس دول أعضاء فى الجمعية، وذلك بدءاً من العام ٢٠٠٢.

من جهتى، أشدّد على تحضير اجتماع وزراء الاقتصاد والمال الفرنكفونيين، الذى سينعقد فى موناكو عام ١٩٩٩ حول موضوع «التجارة الدولية والاستثمارات الأجنبية». إنها المرة الأولى التى تنظم فيها الفرنكفونية اجتماعًا اقتصاديًا، وأسمح لنفسى بالتأكيد على مستوى وأهمية مشاركة البعثة الفيتنامية. يجيبنى الوزير: «ستكون البعثة الفيتنامية بمستوى يعكس الاهتمام الذى يوليه بلدى لهذا الاجتماع».

لقاء مع رئيس البلدية، أو بصورة أدق، مع رئيس اللجنة الشعبية لمدينة هانوى، هوانغ فان نغيان. إنه رجل نشيط، يتكلم بحيوية، مستعينًا بمترجم. أعجب بعض الشىء لأن أرى رأسه مكللاً بالشيب، دون أن يشعر بالحرج؛ فالرجال عادة، فى آسيا، يلجأون إلى الأصباغ، ما إن تظهر شعرة بيضاء على رأسهم. إنها عادة قديمة جدًا اتُّبعت فى زمن المعارك الحربية، حيث كان العدو، وبحركة ارتكاسية، يسدّد أولاً باتجاه المقاتلين أصحاب الرؤوس البيضاء، مفترضًا أنهم، إمّا الأضعف، أو الأكثر مراسًا. لا أعلم مدى الصدقية التى يجب أن نوليها لهذا التفسير. بكل الأحوال، لا يبدو أن رئيس البلدية على استعداد للرضوخ للتقاليد.

يدعونى للمشاركة بالاحتفالات التى ستقام فى العام ٢٠٠٠ إحياء للذكرى التسعمائة والتسعين لتأسيس مدينة هانوى. أعده بأن أقوم بما بوسعى لتلبية دعوته. أدعوه بدورى للمشاركة فى الجمعية العامة المقبلة للجمعية الدولية لرؤساء البلديات الفرنكفونيين، التى ستعقد فى كيبيك، فى أيلول عام ١٩٩٩.

يسألنى: «هل زرتَ هوُى؟ لقد قامت اليونسكو بأعمال ترميم ضخمة، فى إطار الحفاظ على التراث الثقافىَ الفيتنامى».

أعترف له بجهلى الكامل للبلد. عدا هانوى، والفندق، وبيت ضيوف الحكومة، الكائن فى رقم ١٢ من شارع نغو غويان، فإنى لم أرَ بالفعل شيئًا. وهذا الأمر لا يقتصر على فيتنام. عبثًا تنقلتُ فى أنحاء العالم، وأقمتُ فى معظم العواصم، فإنى لم أشاهد فى أكثر الأحيان، وفى كل هذه البلدان، سوى غرف الفنادق، وقاعات الاجتماعات والاستقبالات التى ينظمها كبار من هذا العالم. لم أعرف سوى المفاوضات والمماحكات والاجتماعات والمؤتمرات.

يسمعنى هوانغ فان نغيان، فيما تعلو شفتيه ابتسامة ذكية ومتفهمة، لكنه لا يدلى بأى تعليق.

ألتقى فى فترة بعد الظهر أيضًا نغويان نغوك تران، وهو نائب فى البرلمان، ونائب رئيس لجنة الشؤون الدولية. هذه المرة، لا حاجة لمترجم. فمحدّثى يتكلم فرنسية رائعة، دون أية لكنة تذكر. أعلم بعد قليل، أن هذا الاختصاصى بالرياضيات درس فى جامعة السوربون فى باريس. إنه فى هذا الموقع، بحكم الحاجة إلى من يتكلم الفرنسية، وذلك أن المسؤولين الآخرين لا يتكلمون أية لغة أجنبية سوى الإنجليزية والماندارينية.

إنه فخور جداً بطريقة تشكيل الجمعية الوطنية الجديدة. فمن أصل أربعمائة وخمسين نائبًا منتخبًا، أكثر من الربع هم من النساء. إنها نسبة تجعل الكثير من مجالس النواب فى أوربا، وفى أماكن أخرى، تشحب من الغيرة...

نتداول فى ملف الصفوف الثنائية اللغة، وبالأخص فى كثافة البرامج، بحكم المواد المزدوجة. يشكو كذلك مستوى الأساتذة المتدنى فى اللغة الفرنسية. ولكن المشكلة الحقيقية تكمن فى الإدماج المهنى. ما هى فرص العمل المتوافرة لهؤلاء الشباب لدى تخرّجهم فى الجامعة؟ يسارع الرئيس غييو الذى يشارك فى اللقاء، إلى التنويه بالاتصالات التى تقوم بها الوكالة الجامعية مع العديد من الشركات، وبالجهود التى تبذلها لإثارة اهتمام رجال الأعمال بالمشكلة. ولكن هل هذا يكفى؟

زيارة مجاملة لرئيس الجمهورية تران دوك لونغ. فى الوقت الذى نباشر فيه محادثتنا، تغرق القاعة فى ظلام دامس، بسبب انقطاع فى التيار الكهربائى.

أذكر حادثة مماثلة، فى الثمانينيات، حصلت فى مدينة مالابو، فى غينيا الاستوائية، مع وزير الخارجية. ساد حينها صمت مطبق فى القاعة، فأصبح الجو فجأةً ثقيلاً. أسارع إذن، اليوم، إلى الكلام، على الرغم من الظلمة. أعرض باقتضاب للرئيس النشاطات الجديدة التى تقوم بها الفرنكفونية منذ قمة هانوى، وبالأخص النشاطات السياسية. وفيما أنا أتكلم، يعود التيار. يخبرنى الرئيس كم

أن بلده راغب فى الانخراط فى الفرنكفونية، نظرًا لأنه بإمكانه أن يشكّل همزة وصل طبيعية ومهمة مع جمعية أمم آسيا الجنوبية ـ الشرقية، وبالأخص، مع مجموعة دول عدم الانحياز.

يذهب الرئيس أبعد من ذلك. إنه على استعداد لوضع أصحاب المهارات التقنية بتصرّف البلدان الفرنكفونية فى إفريقيا، ما إن يحصل على المساعدة الضرورية لتطوير هذا التعاون بين بلدان الجنوب. تقوم الفيتنام بهذه المهمة فى إفريقيا فى الوقت الحاضر، بالتعاون مع منظمة الأغذية والزراعة، وهو تعاون يعطى ثماره، وقد حدّثنى عنه الأمين العام للمنظمة جاك ضيوف. يطلب إلىّ فى الختام، أن ألجأ إلى سلطتى لكى أدعم هذا التعاون بين بلدان الجنوب، وهو أمر يهمّه كثيرًا، كما يهمنى أنا أيضًا.

لم ينته نهارى بعد. فالاجتماع الأكثر تميزًا هو الذى سوف ينعقد لاحقًا من دون شك. دعَت السفارة الفرنسية إلى فندق سوفيتال متروبول حوالى عشرة رجال أعمال، يمثّلون شركات باريبا وتوتال، كما شملت الدعوة صائغًا كبيرًا. أصل متأخرًا. كانوا يجهلون، حين لبّوا هذه الدعوة، ما هو الموضوع الحقيقى للاجتماع. أشرح لهم أن الفرنكفونية، ومنذ القمة الأخيرة، تهتم بمجال الاقتصاد، وتنوى تكوين مساحة حقيقية للتعاون فى هذا الميدان. أشير إلى محادثاتى إلى السلطات الفيتنامية، وبالأخص، فيما يتعلق بمسألة الإدماج المهنى للشباب الذين اختاروا أن يتابعوا دروسًا باللغة الفرنسية.

يجيبنى الصائغ، الذى استقرّ فى هانوى منذ أربعة أعوام، بأنه وظّف أفراد فيتناميين متخصصين فى إدارة الأعمال يتكلمون الفرنسية. لكن مؤسسته متواضعة، ولا يعمل لديه إلا ما يقارب الستين موظفًا. بالنسبة إلى ممثل شركة باريبا، ما من شك فى أن لغة الاتصالات بامتياز هى الإنجليزية، التى يلجأ إليها حتى فى مراسلاته مع باريس. يقول ممثل توتال الشىء نفسه تقريبًا. غير أن مستشار السفارة يؤكد على الموضوع ويذكر هؤلاء المهندسين الفيتناميين الشباب المتخصصين فى قطاع غزو الفضاء والاتصالات السلكية واللاسلكية، والذين يتابعون دورات

مكثّفة بالفرنسية خلال فترة تمتد من أربعة إلى ستة أشهر. بدوره، يأخذ الرئيس غييو الكلام ليعرض الاختصاصات التي يوفرها كل من معهد المعلوماتية ومدرسة الطب. يتأخر الوقت. أشكر بحرارة المشاركين الذين يبدون في نهاية هذه السهرة أكثر تفهّمًا مما كانوا عليه ساعة وصولهم.

إنها مشكلة اللغة الثانية التي تُطرح بكل أبعادها. ما هي الفائدة التي يجنيها هؤلاء الشباب الذين يختارون تعلّم الفرنسية كلغة ثانية؟ لا شيء، إذا كانوا سوف يُواجهون عندما يبحثون عن عمل بمقولة إن الإنجليزية هي اللغة المطلوبة في أوساط الأعمال والشركات الكبرى.

ألا ينبغي في حال كهذه، أن نقصر تعليم الفرنسية على الطلاب الذين يختارون في نهاية دراستهم الجامعية، أن يتابعوا تخصصًا إضافيًا في الجامعات البلجيكية، أو الكندية، أو الفرنسية؟ هل يجب تحويل الأموال التي تصرف على الصفوف التي تتابع فيها الدروس بالفرنسية، إلى منح للتخصص؟ لا نمتلك بعد ما يكفي من الوقت للحكم على ذلك. ولكن من الواضح أن تجربة الصفوف الثنائية اللغة تستحق تقييمًا موضوعيًا وبرغماتيًا.

هانوي ـ الثلاثاء ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

أتوجه للقاء طلاب معهد المعلوماتية الفرنكفوني في هانوي. مدرّج مكتظ. يافطات ضخمة تحمل كلمات الترحيب. يُخيّل إليّ وكأني تقريبًا في حملة انتخابية.

يقدّم الطلاب الجواب عن الأسئلة التي كانت تراودني البارحة. يكلّمونني عن المقررات التي يدرسونها، وعن المبررات التي دفعتهم إلى اختيار النظام الذي يعتمد الفرنسية كلغة ثانية، وعن الفرص المتاحة أمامهم: منح دراسية للخارج، دورات تدريبية عالية المستوى، الحصول على فرصة عمل.

أعرض، للمرة الألف، البعد السياسي والاقتصادي الجديد للفرنكفونية، وأدعوهم إلى طرح الأسئلة. لا يترددون في ذلك، فالسياسة تستهويهم كثيرًا:

ـ «هل تقوم بدور الوسيط فى أزمة البحيرات الكبرى؟» .

ـ «أى دور سياسى يمكن للفرنكفونية أن تلعبه فى آسيا؟» .

ـ «على ماذا يرتكز التعاون بين بلدان الجنوب؟» .

يتلو ذلك سؤال يخصنى شخصيًا :

ـ «ما الفرق بين منصب الأمين العام للأمم المتحدة، ومنصب الأمين العام للفرنكفونية؟» .

تبادل للآراء مثير وممتع ومثمر . يا للفرق مع لقاء مساء الأمس، مع رجال الأعمال المشككين، والمقتنعين بعدم جدوى الصفوف التى تعتمد الفرنسية كلغة ثانية! أقول لنفسى إن الأجيال الشابة فى النهاية هى التى سوف تجد الحل لمشاكلنا .

فيانتيان ـ الخميس ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

أكثّف الزيارات، من الصفوف التى تعتمد الفرنسية كلغة ثانية، إلى الشعب الجامعية الفرنكفونية، فالمعهد الفرنكفونى للأمراض الاستوائية . إيقاع سريع، يقابله استقبال رائع . أنّى حللتُ، ترتفع اليافطات الكبرى الملوّنة، ويستقبلنى الأطفال بالأغانى . تتتابع الخطابات المحضّرة أو المرتجلة، ووقفات التقاط الصور الفوتوغرافية، وتبادل التحيات . لقد نظّم الرئيس غييو وفريق عمله هذه الاستقبالات بخبرة مهنية عالية .

إن حماس التلامذة والطلاب والأساتذة ينتشر كالعدوى .

(فى مطلع بعد الظهر ...) قيلولة تمنحنى بعض الراحة فى المقر الفخم الذى نقيم فيه، وذلك قبل لقائى مع رئيس جمهورية لاوس، خماتاى سيفاندون .

أتكلم عن زيارتى فى الصباح لرئيس الجمهورية، وعن حفاوة الاستقبال التى خصّنى بها . ما يجول فى خاطر الرئيس هو «إعطاء مساحة أكبر للفرنكفونية، وبلورة مشاريع ملموسة وقابلة للتنفيذ»، وهو توجّه أؤيده بقوة . هناك مشاريع

كثيرة يمكن القيام بها، لاسيما فى قطاع الصحة، حيث يمكن للمساعدة التى تقدمها الفرنكفونية أن تكون بغاية الأهمية.

تمت المقابلة باحتفاء كبير. جلستُ على كنبة، عن يمين الرئيس. خلفنا، كان يرتفع شعار ضخم من خشب محفور يرمز إلى لاوس. وأمامنا منضدة تزيّنها باقة زهور «رسمية».

يواكبنى الرئيس حتى باب القصر الرئاسى، حيث نلتقط الصورة التقليدية، التى تضم معاونىّ كذلك.

عشاء ليلة الميلاد فى السفارة الفرنسية. يكثر الجميع من شرب الكحول، والجو يعبق بالفرح ويبعث على الاسترخاء، إلى أن تقع أربع من أسنانى فى صحنى، محدثة ضجة رنّانة. بفضل تأثير الكحول، لا يبدو بأن أحداً تنبّه لذلك ـ هذا ما آمله بكل حال... أسارع لدسّ «طاقم الأسنان» المكسور فى فمى، بينما أمطر باللعنات طبيب الأسنان الذى ثبّته فى فمى.

بنوم بنه ـ الجمعة ٢٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

يستقبلنى الأمير نورودوم راناريد الذى أصبح بعد اتفاق الوحدة الوطنية رئيسًا للجمعية الوطنية، وهو ينوب عن الملك سيهانوك المسافر إلى الصين. إنه نسخة طبق الأصل من والده. القامة القصيرة ذاتها، الحركات ذاتها، الصوت ذاته.

لا يزال عالقًا فى ذاكرته، العشاء الذى أقامه وزير الخارجية الفرنسى آلان جوبيه فى نيويورك، على شرف الفرنكفونية، كما لا يزال يذكر مقطعًا من خطابى الذى ذكرتُ فيه أنه سبق أن تم التعبير عن القلق من تراجع اللغة الفرنسية فى القرن السادس عشر. لكن الخطر آنذاك كان يأتى من إيطاليا.

أما أنا فأذكّره بلقائنا الأول، حين كان طالبًا فى جامعة بوردو.

يعاود الأمير الكلام على الفرنكفونية فى كمبوديا، وعلى نشاط معهد التكنولوجيا ومدرسة الطب. يرغب فى إنشاء كلية للحقوق ومعهد للآثار بدعم من

الفرنكفونية. أما تقييمه لتجربة الصفوف الثنائية اللغة فيبدو أكثر تمايزاً. ليس من السهل إقناع أهالى التلامذة. يلفت الانتباه كذلك إلى مشكلة الإيدز الرهيبة. كمبوديا هى من أكثر البلدان التى ينتشر فيها المرض. وتشير التوقعات إلى أنه فى العام ٢٠٠٠ سيكون هناك مائتا ألف مصاب من مجموع السكان البالغ أحد عشر مليونًا.

يعقب المقابلة مع الأمير جلسة عمل مع وزير الخارجية والتعاون هور نام هونغ، الذى يعبّر لى عن سروره؛ لأن كمبوديا قد أصبحت منذ وقت قصير، العضو العاشر فى منظمة أمم آسيا الجنوبية الشرقية. وهذا الانتساب يعنى كذلك إدخال الفرنسية كلغة رسمية فى العمل، بعد أن اقتصر الأمر على الإنجليزية حتى هذا الوقت.

أشدّد على أهمية مشاركة كمبوديا فى اللقاءات الكبرى المقبلة التى تنظّمها الفرنكفونية: تجمّع الشبيبة الفرنكفونية فى جنيف، فى آذار ١٩٩٩؛ اجتماع وزراء الاقتصاد والمال فى موناكو، فى نيسان؛ الجمعية العمومية لرؤساء البلديات فى كيبيك، فى أيلول؛ وأخيراً مؤتمر القمة الثامن فى مونكتون. يعطينى الوزير كل التأكيدات على سير الأمور فى هذا المنحى. يكلّمنى مجدداً عن المشروع الذى أثاره الأمير وهو إنشاء معهد للآثار، وعن رغبته فى افتتاح صفوف ثنائية اللغة بدءاً من المرحلة الابتدائية.

لدى عودتى إلى فندق كمبوديانا، يعلمنى المدير أنه أمّن لى موعداً مع طبيب أسنان وافق استثنائيًا على فتح عيادته لى. مجدداً نجتاز المدينة، وقد غرقت فى الظلمة. ولدى وصولنا إلى المكان المقصود، يقودنى حرّاسى إلى آخر بهو ينيره ضوء خافت: إنها عيادة طبيب الأسنان، التى توجد فى مكان تصورت أنه خصص لوقوف السيارات.

يستقبلنى طبيب الأسنان بكثير من الود، ويجلسنى على كرسى المعالجة، ثم يسترسل فى الكلام: لقد درس فى باريس؛ مضت سنوات وهو يتابع باهتمام مسارى المهنى؛ إنه يوم تاريخى بالنسبة إليه، وظرف سانح لكى يعبّر لى عن امتنانه، لأنه لا ينسى جهودى لإرساء السلام فى كمبوديا. وفيما هو يتكلم، كنت أنتظر، فاغر الفم، لكى يعاين أسنانى. بدأت أخشى الأسوأ. أتغلب على مخاوفى

وأطلب إليه بأن يتكرّم ويعالجنى. لا يبدو أنه سمعنى، ويتابع «مونولوجه» الذى لا ينتهى: حين اتصل به مدير الفندق، لم يتردّد لحظة واحدة فى قطع عشاء عائلى، ليأتى ويفتح عيادته؛ حدث مماثل لا يتكرّر مرتين فى الحياة! سماعى لوقع أقدام حرّاسى الكمبوديين وضابط أمنى الشخصى كلود فيغييه، وهم يروحون ويجيئون فى البهو، يساهم فى تهدئة القلق الذى راح ينتابنى.

يقرر أخيراً طبيب الأسنان «المعجب» أن يعالجنى.

أسأله بعد انتهائه من عمله: «بكم أدين لك؟».

ـ «خمسة وعشرون دولاراً». كنتُ قد اتخذتُ كافة احتياطاتى، وجلبتُ معى بطاقات اعتماد، وفرنكات فرنسية ... ودولارات.

سيام رياب ـ الأحد ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

ننطلق باكراً باتجاه سيام رياب، حيث يستقبلنا الحاكم توان شاى، الذى أعطاه الملك تعليمات لكى ينظّم لنا زيارة «ملوكية» للمعابد.

كل شىء هنا يوحى بصراع لا هوادة فيه بين الطبيعة والعبقرية الإنسانية. لكن النتيجة محسومة سلفاً. فالجمال الهائل لهذه الأبنية المغرقة فى القدم، يذبل أمام غزوات النباتات البرّية المتنامية التى تجتاح كل شىء، وتلتفّ حول الأعمدة، وتندسّ حتى بين الحجارة المتباعدة.

هناك جهد واضح للترميم أنجزه خبراء الآثار فى بعض المعابد، فيما معابد أخرى تبدو كاليتامى، وتستسلم للإهمال. وحده معبد أنغكور يحافظ على عظمته، على الرغم من كثرة الزائرين من السائحين وسكان المنطقة الذين حوّلوه إلى مكان للنزهة الأسبوعية.

يشرح لنا الحاكم أن كمبوديا لا تمتلك الإمكانات لحماية حوالى اثنى عشر معبداً، ناهيك عن ترميمها. يحلم بإقامة حفلات «الصوت والضوء»، ولكن الإمكانيات الفندقية فى سيام رياب لا تزال حتى الآن بعيدة عن تلبية الحاجات.

سيام رياب، بنوم بنه ـ الاثنين ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

نزور معابد أخرى، قلّ ما يقصدها الجمهور العريض. يدعونا الحاكم للغداء. يحدّثنا عن الجهود التى يبذلها لإدماج الخمير الحمر فى النسيج السكانى، عن طريق توفير فرص العمل لهم فى قطاعات السياحة والمهن الحرفية، أو فى الوظائف العامة. إنها مقاطعة فقيرة، تكسوها الغابات بشكل أساسى، مما يترك مساحة محدودة للزراعة.

بنوم بنه ـ الثلاثاء ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

هذا الصباح، ألتقى نائب حاكم مدينة بنوم بنه، الذى حصل على مساعدة الفرنكفونية فى عدد من القطاعات: تركيب شبكة الهاتف فى البلدية، تنظيم الإدارة البلدية، صور جوية للمدينة، تكوين سجل المساحة، المحافظة على التراث وتجديده. مع ذلك، فإن الرواتب منخفضة، والمسؤولون الإداريون فى البلدية ـ وبعكس ما يجرى فى الريف ـ لا يتوفر لهم حظ الحصول على قطعة أرض يزرعونها ليحسّنوا أوضاعهم، ولو قليلاً.

زيارة لجامعة العلوم والصحة، حيث يستقبلنى وزير الصحة هونغ سون هوت. تشتمل الجامعة على ثلاث كليات: الطب، والصيدلة، وطب وجراحة الأسنان. يتم الانتساب إلى هذه الكليات عن طريق امتحان دخول. أكثر من ثلاثة آلاف مرشح، قُبل منهم ثمانون. تدرّس الفرنسية كلغة ثانية، باعتبار أن «الخمير» هى اللغة الأساسية.

أواصل سلسلة اللقاءات هذه، بمقابلة فى وزارة الثقافة، مع الأميرة نورودوم بوفا دافى، ابنة الملك، وهى راقصة باليه سابقة، تثير لديها زيارتنا بعض الارتباك. لكن، لحسن الحظ، يدعمها الوزير سيزوواث بانارا سيرود، وهو أحد أقاربها. بكل تأكيد، أظهر هون سان مهارة فائقة فى توزيع الحقائب الوزارية. أسند إلى أفراد العائلة المالكة المناصب الفخرية، وإلى أعضاء حزبه المناصب القيادية. تعترف لى الأميرة بأن موازنتها محدودة، ولكن ذلك لا يمنعها من أن تفيض بالحماس

والتفاؤل. تعرض علينا سلسلة مشاريع تود تنفيذها، حين تحصل على الأموال اللازمة.

يستقبلنى هون سان، رجل النظام القوى، فى بيته خارج المدينة. يحضر اللقاء وزير الخارجية أوش كيمان، الذى يتولّى كذلك شؤون الفرنكفونية:

«تتوافق زيارتك مع نهاية صراع دام ثمانية وعشرين عامًا، ومع التحاق مسؤولين سابقين من الخمير بالنظام، ومن بينهم خيو سامفان». ينتهز هذه الإشارة ليذكّر بأنه لم يكن بعد قد وُلد حين تشكّلت حركة الخمير الحمر. يشرح لى أهمية الفرنكفونية كعامل توازن إزاء تأثير قوى عظمى أخرى فى كمبوديا. يعرض لى الإجراءات الأولى المتخذة منذ ترؤسه الحكومة، وسياسة المصالحة الوطنية التى يتّبعها، وتصميمه على إعطاء كمبوديا كل المكانة التى تستحقها فى المجتمع الدولى، ورغبته فى تجنيد كل الطاقات البشرية من أجل إعادة إعمار البلاد. يشددّ على أن تساهم الفرنكفونية بقوة، فى أثناء اجتماع الفرنكفونية القادم فى طوكيو، فى حث الدول والمنظمات الدولية من أجل مساعدة كمبوديا.

يُختتم النهار بحفل استقبال فى السفارة الفرنسية. كل مدينة بنوم بنه هنا. بعد انصراف المدعوين، يستبقينى السفير برفقة الأمير راناريد. نتصل هاتفيًا بالملك سيهانوك فى بيجين. أشكره بحرارة على الاستقبال الذى خصنا به حاكم سيام رياب. يبلغنى عن أسفه لعدم وجوده فى بنوم بن ليستقبلنى شخصيًا كما فعل فى أثناء زياراتى السابقة. يأخذ الأمير بدوره الهاتف ليقدّم ولاءه «للأم»، الأميرة مونيكا، قبل أن يطلب الكلام إلى «الأب». تتواصل المحادثة باللغة الخميرية. وأخيراً يأتى دور السفير للكلام مع الملك. يجرى كل ذلك فى جو ودى، شبه عائلى. جميعنا فى غاية الانشراح لتمكننا من التحدث إلى الملك هاتفيًا. خصوصًا وأنه نادراً ما يسمح بالكلام المطوّل معه على الهاتف، كما أن الحصول على الخط لم يكن سهلاً.

لم يبقَ أحد إلا وشجّعنى على التجاوب مع التماس خيو سامفان، الناطق السابق باسم الخمير الحمر، الذى طلب أن يلتقينى، لكى ينقل إلىّ رسالة فى غاية الأهمية.

بنوم بنه ـ الأربعاء ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

زيارة لمعهد التكنولوجيا الكمبودى، الذى يختلط تاريخه بتاريخ الحرب الباردة. كان المعهد بتسلّم الاتحاد السوفيتى من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٥. وبقى التعليم فيه باللغة الروسية حتى الثمانينيات. وبعد ثلاث سنوات صعبة، وعلى الرغم من دعم اليونيسكو، استعادته الوكالة الجامعية للفرنكفونية عام ١٩٩٣. يضم حاليًا مائتى أستاذ، من بينهم عشرون فرنسيًا من خرّيجي مدرسة البوليتكنيك أو مدرسة «الطرق والجسور». يقوم المعهد بإعداد ما يقارب خمسمائة طالب، منهم ما يقارب عشرين طالبة فقط.

خطاب، يليه حوار مع الطلاب.

ـ «كيف يمكننا متابعة الدراسة فى الخارج؟».

ـ «لماذا تضع فرنسا العراقيل فى وجه استقبال الطلاب الكمبوديين؟».

أسعى جاهداً للإجابة بقدر ما أستطيع عن أسئلتهم.

لقاء مع خيو سامفان، ونوون شايا. كنتُ أتوقع موعداً محاطًا بالسرّية. لكم كانت دهشتى كبيرة حين رأيت، فى مدخل الفندق، اثنى عشر صحفيًا تقريبًا! لا بد من أن يكون أحد قد أعلمهم بالموعد، لا بل أقول استدعاهم. من تراه فعل ذلك، الخمير الحمر، أم حكومة هون سان؟

لقد قام خيو سامفان، بصفته ممثلاً للخمير الحمر، بتوقيع اتفاق باريس. وقد استُقبل رسميًا من قبل السلطات الفرنسية، وتناولتُ العشاء معه، بدعوة من الأمير سيهانوك. توليتُ التفاوض معه لساعات طويلة، لأحاول إقناعه بمشاركة الخمير الحمر فى الانتخابات التى ستتولى الأمم المتحدة الإشراف عليها. كان من الطبيعى إذن أن ألتقيه اليوم ليس بموافقة السلطات الكمبودية فحسب، وإنما بدعمها أيضًا. أهنّىء خيو سامفان لعودته إلى بنوم بنه. أن يأتى الأمر متأخراً أفضل من أن لا يأتى. أقول له:

ـ «لو شاركتم في الانتخابات، لحصلتم على تمثيل في الجمعية الوطنية. ما هي الرسالة التي تود إبلاغي بها؟

ـ نحن على استعداد للمشاركة في عملية المصالحة الوطنية التي يطرحها رئيس الوزراء، ولكن تشكيل محكمة دولية سيوقف هذه العملية على الفور».

ألفت نظر خيو سامفان ورفيقه إلى أني تركتُ الأمم المتحدة، وليست لي أية سلطة للدفع باتجاه تشكيل محكمة دولية أو لمنع قيامها. إنه قرار يعود لمجلس الأمن أن يتخذه، وهو يستلزم موافقة كمبوديا. مع ذلك، أعِد بنقل رسالته.

يرافقني حتى باب الفندق الخارجي، ويصافحني بحرارة أمام عدسات المصوّرين المغتبطين.

بعد الغداء، مؤتمر صحفي. لا داعي للقول إن معظم الأسئلة تناولت لقائي مع خيو سامفان. يحاولون أن يستدرجوني إلى القول بأني غير مؤيد لإنشاء محكمة دولية، في الوقت الذي ساهمتُ بقوة في إنشاء محكمتي لاهاي وأروشا.

القاهرة ـ الخميس ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨

أصل إلى القاهرة مع انبلاج الصباح، بعد ليلة متوترة بسبب التعب المتراكم، ورحلة طيران مضطربة. أسر بلقاء ليا، وقد عادت منذ ساعات قليلة من نيويورك. آوي إلى الفراش في الحال، لكي أستَعيد نشاطي في ليلة رأس السنة هذه.

نمضي سهرة عائلية، مع شقيقيَّ واصف ورؤوف. الأصدقاء الدائمون هم أيضًا هنا، وقد تقدّموا قليلاً في السن، لكننا لا نزال نشعر بنفس السعادة لوجودنا معًا، وللتعبير عن محبتنا المتبادلة.

١٩٩٩

القاهرة - الجمعة ١ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

اتصال هاتفى من باريس. يخبرنى السفير على ماهر بأن الصحافة الفرنسية هاجمتنى، بسبب لقائى مع خيو سامفان. أتى الهجوم الأكثر حدة من صحيفة «لوموند»، التى لم تتنازل قط، حتى الآن، وتنشر ولو سطراً واحداً عن نشاطات الفرنكفونية. لكنها الآن تستغل هذا اللقاء، وتسلّط عليه الضوء فى مقال حاقد بتوقيع كلير ترايان. لم ألتق هذه الصحافية إلا مرة واحدة، منذ بضعة شهور. إنها امرأة لئيمة، أوكلت إليها «لَوموند» مهمة متابعة ملف الفرنكفونية، فيما هى تحتقرها بشدة.

القاهرة - الأحد ٣ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

يرغب الأمين العام لجامعة الدول العربية، عصمت عبد المجيد، فى التقارب مع الاتحاد الأوربى، وتوثيق علاقاته بالفرنكفونية. إنما من المفترض تحديد مشروع مشترك، لتحويل هذا التعاون إلى واقع ملموس. نناقش مطوّلاً هذه الإمكانية.

(بعد قليل ...) أُفصح لأسامة الباز، المستشار السياسى للرئيس مبارك، عن مخاوفى فيما يتعلق بالسياسة المصرية:

«إنكم تُهملون ملف السودان، ومشكلة مياه النيل. لقد تخلّيتم عن أى حضور

فاعل فى منظمة الاشتراكية الدولية، منذ أن استقلتُ من منصبى كنائب للرئيس، عام ١٩٩١».

خلال مقابلاتنا، يدوّن أسامة الباز، بصورة شبه دائمة، بعض الملاحظات، التى لا يلبث أن يضيّعها على أية حال. لكنه اليوم لا يقوم حتى بهذا المجهود. يكتفى، كعادته، بهزّ رأسه، وبقول عبارة من هنا وعبارة من هناك يتلفظ بها بصوته الأخنّ.

القاهرة ـ الاثنين ٤ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

يستقبلنى الرئيس مبارك. أخبره عن رحلاتى إلى فيتنام، ولاوس، وكمبوديا، ثم أهدى إليه كتابى التكريمى، بجزأيه الضخمين. يسألنى:

«هل أنتَ من كتبَ كل هذا؟».

أشرح له أنها مساهمات قام بها أصدقاء وزملاء لى، وأن بعض الدراسات تتناول مؤلفاتى.

يبدو مهتماً بانتخاب المدير العام الجديد لليونيسكو:

ـ «لماذا لا يتقدّم فيديريكو مايور بترشيحه؟

ـ لا يسمح ميثاق لليونيسكو إلا بولايتين.

ـ لماذا لا يسعى إلى تعديل الميثاق؟

ـ أظن أنه لن ينال موافقة الدول الأعضاء».

يختتم الرئيس اللقاء بهذه العبارة الودود التى يستعملها منذ انتخابى فى الأمم المتحدة: «كن قوياً، يا بطرس الأكبر!».

أتابع جولتى التقليدية للقاء المسئولين المصريين: مقابلة مع رئيس مجلس الشعب، فتحى سرور، وهو من بين المسؤولين المصريين الأكثر فرنكفونية، ثم مع مصطفى حلمى، رئيس مجلس الشورى، وأخيراً مع رئيس مجلس الوزراء كمال الجنزورى.

إنه مصمّم على نقل جامعة سنغور من «برج القطن» الذى تشغله إلى الإسكندرية :

«لن نتمكّن أبدًا من تأجير هذا المبنى، الشاغر بمعظمه، ما لم تنتقل الجامعة من الطوابق الخمسة التى تشغلها».

أذكّره بأننا حصلنا على هذه المبانى بناء على اتفاق دولى وقّعته مصر ومنظمة الفرنكفونية.

يردّ قائلاً :

«سوف نجد لكم فى الإسكندرية مكانًا بنفس المساحة».

أسمح لنفسى بالتأكيد على وجهة نظرى، وهو يعدنى بإعادة النظر فى المسألة. مع ذلك أنوى التحادث فى الأمر إلى رئيس الجمهورية مباشرة، لأضمن بقاء هذه الأبنية الواسعة تحت تصرّفنا.

القاهرة ـ الثلاثاء ٥ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

بعكس أسامة الباز، يعى وزير الخارجية عمرو موسى أهمية الملف السودانى، وإدارة مياه النيل :

«بما أن القضية الفلسطينية هى فى طريقها إلى الحل الآن، يجب علينا العودة إلى مشكلة النيل، وتكريس كل جهدنا لتوطيد العلاقات مع السودان، وهو موضوع كان له الأولوية دومًا فى نظر الدبلوماسية المصرية». يضيف : «هذا الملف للأسف، هو من صلاحية عدة سلطات : رئاسة الجمهورية، ورئيس مجلس الوزراء، ووزير الخارجية، ووزير الرىّ، وهناك خشية من توزّع جهودنا».

أتطرّق معه كذلك إلى قضية منظمة الاشتراكية الدولية، هذه الوسيلة المهمة التى أهملناها منذ عدة سنوات :

«لماذا لا يتم تسمية دبلوماسى يساعد مندوب حزبنا السياسى فى أثناء الاجتماعات والمؤتمرات الدولية التى تعقدها المنظمة؟».

أمضى عمرو موسى حياته فى عالم الدبلوماسية، وهو مثل جميع أقرانه، لا يبدى اهتمامًا كبيراً بالمنظمات غير الحكومية، وبالأحزاب السياسية.

زيارتى الأخيرة لشيخ الأزهر. يستقبلنى فى المقر الجديد لمؤسسته. إنه رجل علاّمة، رصين ومتبصّر، ويجيد فن الاستماع. كما فى كل مرة، يرافقنى صديقى على السمّان، الذى عرف كيف يحوز على ثقة الأزهر ورئيسه الروحى، والذى نجح فى إقامة الحوار بين هذه المؤسسة المعروفة تقليديًا بانغلاقها، وبين العالم المسيحى. لم يكن التحدى سهلاً. وقد نتج عن ذلك التزام كامل وثابت بالحوار بين الديانات. أكنّ له إعجابًا حقيقيًا لنضاله الذى ساندته فيه دومًا.

القاهرة ـ الأربعاء ٦ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

نحن عشية عيد الميلاد القبطى. لا أجد فى نفسى القوة لحضور قدّاس الليل التقليدى، الذى يستمر حتى الثانية فجرًا فى كاتدرائية يلفها الصقيع. أقرّر أن ألتقى بعد الظهر البطريرك الأنبا شنودة الثالث، لأتمنى له عيداً مجيداً، وأنال بركته، وأعتذر عن غيابى فى المساء.

يشكو من ابن أخى يوسف، وهو وزير جيد للاقتصاد، لكنه إدارى سيئ للكنيسة البطرسية. لقد كانت العلاقات بين الكهنة وبين المشرفين على إدارة الكنيسة ـ وشاءت المصادفة أنهم من عائلتى - موضوع خلاف دائم. نحن مزمعون على الاستمرار فى إدارة هذه الكنيسة التى تضم مقبرة العائلة. أما البطريركية والكهنة فيفضّلون، من جهتهم، توسيع سلطاتهم. أعد البطريرك، بأنى لدى عودتى إلى مصر، سوف أهتم بإدارة الكنيسة وبأعمالها.

القاهرة ـ الخميس ٧ كانون الثانى/ يناير ١٩٩٩

فرحة كبرى. لقد صدر الجزء الأول من مخطوطة جدى لوالدتى، ميخائيل شاروبيم، تحت عنوان «الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث»، وهو عبارة عن مجلّدين من ألف ومائتى صفحة، تولّى شرحها والتعليق عليها المؤرخ عبد الوهاب

بحر، الذى قام بعمل دؤوب ليحقق، ويصحّح أسماء الأشخاص، والتواريخ، وحتى الأخطاء الإملائية. (يبدو أن لدينا فى العائلة مشكلة عويصة مع الإملاء). هذا الكتاب، الذى هو أشبه بالمدوّنات، أكثر مما هو كتاب تأريخ، يغطّى الحقبة الممتدة بين عامى ١٨٩٢ و١٩٠٠. يبقى أن ننشر القسم الذى يتناول الفترة ما بين ١٩٠٠ و١٩١٤، تاريخ وفاة جدى. سوف يتم إنجاز ذلك بدءاً من العام القادم. هكذا أفى وعداً قطعته لوالدتى، مع تأخير يناهز الثلاثين أو أربعين عامًا، بالطبع.

نقاش طويل مع السفير سمير صفوت، الذى يرأس مجموعة عمل تدرس إمكانية إنشاء جامعة فرنكفونية فى ضاحية القاهرة. يقنعنى بأن أكون عضواً مؤسساً. يجب دعم مشجّعى الفرنكفونية فى مصر!

باريس ـ السبت ٩ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

اجتماع مجلس إدارة أكاديمية القانون الدولى فى لاهاى. أقترح اسم كيبا مباى لمنصب نائب رئيس لجمعيتنا الموقّرة. إنها الدوافع نفسها التى تحرّكنى، كما كنتُ فى الأمم المتحدة. ذلك أنه يبدو لى أن تعيين أفارقة لامعين فى مراكز المسؤولية، فى الأكاديميات، والجامعات، والمنظمات الدولية، وهو السبيل لإعادة الاعتبار لصورة إفريقيا التى أدمتها العبودية، وأنهكها الاستعمار، ومزّقتها الحروب الداخلية. كيبا مباى ـ سنغالى، وقاض سابق فى محكمة العدل الدولية ـ، وهو من هؤلاء الرجال المرموقين الذين يشرّفونً إفريقيا، ويُسهمون فى حمل العالم على أن يمحو من ذاكرته الإمبراطور بوكاسا، وعيدى أمين دادا، أو طغاة آخرين على شاكلتهم، ممن ألحقوا الخزى بقارتنا.

باريس ـ الاثنين ١١ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

يعبّر جاك شيراك الذى يستقبلنى فى قصر الإليزيه عن رضاه التام عن الفرنكفونية. مع ذلك، كان يفضّل لو أُحيط لقائى بالخمير الحمر بسرّية أكبر.

تتابع بعض وسائل الإعلام توجيه سهامها إليّ؛ بسبب مصافحتي لخيو سامفان أمام المصوّرين. يبدو أن الجميع قد تناسى أن هذا الأخير، وهو الممثل الرسمي للخمير الحمر، استُقبل بكل حفاوة في أثناء توقيع اتفاق باريس، حيث قمتُ بالتفاوض معه مطوّلاً من أجل موافقة الخمير الحمر على المشاركة في الانتخابات. أهو فقدان ذاكرة، أم سوء نية؟

ستراسبورج - الثلاثاء ١٢ كانون الثاني/يناير ١٩٩٩

أغادر إلى ستراسبورج حيث سألقي محاضرة أمام مجموعة النواب الأوربيين الفرنكفونيين، تلبية لدعوة من أنطوانيت سباك وهي ابنة السياسي البلجيكي المعروف بول هنري سباك، ومناضلة حقيقية من أجل الفرنكفونية.

يعقب مداخلتي مؤتمر صحفي. تتابع وسائل الإعلام حملتها التعسفية. يفتح النار صحّافي شاب متهوّر، فيوجّه إليّ الكلام بعدائية:

«هل أنتَ على استعداد لمصافحة هتلر؟»

- «إذا كنت تُلمح إلى لقائي مع خيو سامفان في بنوم بن الأسبوع الفائت، أود أن أقول لك إنه من أجل تسوية نزاع ما بطريقة سلمية، لا يجب أن تتردد في مناقشة ومحاورة ألدّ أعدائك».

لا يبدو أن إجابتي قد أعجبته، ولكني أعطي الكلام لصحافيين آخرين، فيما تقوم آني ديكمانز بالاتصال بمعاونيّ الآخرين في باريس من أجل كتابة بيان يضع الأمور في نصابها بشكل نهائي. تقدّم أنطوانيت سباك الاعتذار تلو الآخر، وتقول لي:

«منذ أكثر من عشرين سنة وأنا أمارس هذا النوع من النشاطات، وأتعرّض للتهجّم الدائم من صحافيين شباب يتطلعون إلى الشهرة، ويتوسّلون التحدي للوصول إلى أهدافهم.

أجيبها مطيّبًا بخاطرها:

«لا بد أنهم سينضجون يومًا».

يتم إعلامنا فى المطار بأن الطائرات لم تُقلع من باريس بسبب عاصفة ثلجية. ليس من المؤكد أن بإمكاننا السفر هذا المساء، وبكل الأحوال، يمكن أن يطول الانتظار كثيرًا. نُنصح بقضاء الليلة فى ستراسبورج، ولكن معظم الفنادق مليئة بالنزلاء. يُقترح علينا الإقامة فى وسط المدينة، فى «البيت الأحمر»، وهو اسم يذكّرنى بمنزلنا فى حى الفجّالة بجُدُره ذات اللون الداكن الأمر، أو الإقامة بالقرب من المطار، فى قصر لِيل. نوافق على الخيار الأخير.

باريس ـ الثلاثاء ١٩ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

مفاجأة سارّة. أتسلّم للتوّ نسخة من طبعة بالعبرية لكتاب «طريق القدس»، مع تمهيد لرئيس جمهورية إسرائيل، عازر وايزمان. علىّ إيجاد شخص يترجم لى هذا التمهيد.

أطلق إسماعيل سراج الدين، الطامح إلى منصب الأمين العام لليونيسكو، حملة انتخابية فى أقطار العالم الأربعة. إنه يبذل جهوداً جبّارة، لقناعته بأنه سيربح المعركة، وهو متيقّن من الفوز، بقدر ما أنا اشكّك فى إمكانية انتخابه. بيد أن ذلك لا يمنعنى من تقديم مساندتى ودعمى الكاملين له.

نيامى ـ الخميس ٢١ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

جولة دبلوماسية فى إفريقيا. وفق برنامج أصبح كلاسيكيًا، ألتقى أعضاء الحكومة، والجامعيين، والسفراء الفرنكفونيين، والصحافة والإذاعة المحلية. أعرض رهانات الفرنكفونية الجديدة، وأتلقّى شكاوى هؤلاء وأولئك.

لا يسعنى التأقلم مع فقر وتعاسة هذا البلد الذى ينوء تحت ضخامة المشاكل.

مارادى، نيامى، واغادوغو ـ الجمعة ٢٢ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

يقيم الرئيس إبراهيم ماعيناسّارا بارى فى مدينة مارادى، وهى مسقط رأسه

وتبعد مسافة ساعة بالطائرة عن نيامي . يستقبلني في مسكنه المتواضع . إنه رجل يجيد الإصغاء ، ولكن نظراته القاسية تكشف عن شخصية عسكرى صارم إزاء أعدائه .

غداء بدون تعقيدات بروتوكولية مع حاكم المدينة . مارادى ، التى تبعد بالكاد خمسين كيلومتراً عن الحدود مع نيجيريا ، ومائتى كيلومتر عن مدينة كانو ، هى على مايدو ، مركز مهم لتهريب البضائع ، يستفيد كثيراً من وضعية الحدود غير المضبوطة .

(بعد الظهر ...) الذهاب إلى واغادوغو . لقد تبدّل وجه المدينة . هناك بحيرة اصطناعية تبث طراوتها المهدّئة . الطرقات معبّدة ، وصيانتها جيّدة . وفى كل مكان تقوم أبنية جديدة أو قيد الإنشاء . يتولّد انطباع بالبحبوحة .

يتم اللقاء مع الرئيس بلاز كومباورى فى جو ودى . يوافق - إن بصفته كرئيس لجمهورية بوركينا فاسو ، أو كرئيس دورى لمنظمة الوحدة الإفريقية - على دعم ترشيح إسماعيل سراج الدين لمنصب المدير العام لليونيسكو .

بدوره يؤكد لى وزير الخارجية الجديد يوسف وادراوغو دعمه الكامل ، مناقضًا بذلك موقف سلفه الذى قام بحملة للحؤول دون انتخابى كأمين عام للفرنكفونية .

لقد صادفت عدة مرات هذا النوع من المواقف فى المؤتمرات الدولية . أن تقول «لا» ، حين تقول غالبية الدول «نعم» - أكان ذلك بداعى الملل ، أو اللامبالاة ، أو الرغبة فى الوصول إلى توافق - فإنك تدفع هذه الدول إلى الشك ، وتشجّعها على تبديل رأيها . لكنه بالتأكيد موقف يتطابق مع مقولة «خالفْ تُعرف» . وهى الطريقة السهلة للظهور بمظهر القائد ، حين نعلم بأن هذا الموقع القيَادى لا يؤمنه لنا البلد الذى نمثّل ، إما بحكم فقره ، أو بسبب هامشيته التى تعود إلى تاريخه أو إلى موقعه الجغرافى .

لقد تسنّى لى التعرّف عن كثب إلى هؤلاء الذين يطلقون الصوت عاليًا ليوم واحد ، والمشهود لهم بالقدرة على إثارة الجدل فى جلسة ليلية لا تنتهى ، أو فى دورة صاخبة ، والذين يحوزون ، بأقل الأثمان ، على إعجاب زملائهم الأقل جرأة

منهم، أو الملتزمين أكثر بتعليمات حكوماتهم. هؤلاء الأبطال الآنيون يعطون الجرعة الضرورية من المواقف غير المتوقعة التى تسهم فى نجاح المؤتمر، لكن أقوالهم لا تلبث أن تغرق فى رمال الصحراء.

واغادوغو ـ الأحد ٢٤ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

زيارة لمتحف للفنون يقع على حوالى أربعين كيلومتراً من واغادوغو، حيث يُتاح لنا أن نتأمل بإعجاب مجموعة من الحلي والمنحوتات. إنه عمل رجل بمفرده. فى القاهرة، أسّس رجل لوحده أيضًا، ويدعى مرقس سميكة باشا، المتحف القبطى، وقدّمه هبة إلى الدولة. هؤلاء الأشخاص الرائعون الذين يرعون الفنون يستحقون جائزة نوبل.

واغادوغو ـ الاثنين ٢٥ كانون الثانى/يناير ١٩٩٩

توقف قصير فى الجامعة، حيث أصادف مبعوثًا مصريًا مرسلاً من قبل صندوق التعاون الإفريقى، الذى أنشأته عام ١٩٧٨، والذى يشكّل، إلى جانب جامعة سنغور فى الإسكندرية، إحدى أكبر مؤسستين تعملان فى إطار التعاون بين بلدان الجنوب.

ليبرفيل ـ الخميس ٤ شباط/فبراير ١٩٩٩

جولة فى آفاق السياسة مع الرئيس عمر بونغو. يؤيّد تسمية مصطفى نياس كوسيط من قبل الفرنكفونية فى الملف الكونغولى، فى محاولة لمصالحة دنيس ساسو ـ نغيسّو مع برنار كوليلاس، من جهة، ومع باسكال ليسّوبا، من جهة أخرى. يتمنى أيضًا لو تواصل الفرنكفونية وساطتها الدبلوماسية بين حكومة آنج ـ فيليكس باتاسيه والمعارضة، فى جمهورية إفريقيا الوسطى. يتابع شخصيًا عن قرب الوضع فى بانغى. وفى سياق آخر، يبدى موافقته على دخول أنغولا فى الفرنكفونية. عاد الموفدون الذين أرسلتهم إلى هذا الغرض لدى جوزيه إدواردو دوس سانتوس،

حاملين موافقة الرئيس الأنغولي. لكن الدبلوماسية الفرنسية لم تقم بمتابعة الموضوع. يبدى عمر بونغو استعداده شخصيًا للاهتمام بهذا الملف.

ليبرفيل - الجمعة ٥ شباط/فبراير ١٩٩٩

حدّدتُ موعداً مع مصطفى نياس، الذى ألتقيه لمناقشة موضوع وساطته فى الكونغو - برازافيل. من المقرّر أن يلتقى الرئيس بونغو للحصول على دعمه، وهو أمر مضمون، كما أكّد لى الرئيس فى الليلة الفائتة. سوف يسافر مصطفى نياس بعدها إلى واشنطن للتحادث إلى برنار كوليلاس.

ليبرفيل - السبت ٦ شباط/فبراير ١٩٩٩

سلسلة جديدة من اللقاءات مع مثقفين شباب، وسفراء فرنكفونيين، وصحافيين، ومع مجموعة رجال أعمال لبنانيين، يشكّلون جزءاً أساسيًا من الاقتصاد الغابونى. يشكرونى على الدور الذى لعبته الدبلوماسية المصرية إبان الحرب الأهلية فى لبنان. كنتُ قد أعطيتُ تعليمات إلى السفارات المصرية بحماية اللبنانين، أسوة بالرعايا المصريين.

أغادر ليبرفيل من دون مصطفى نياس، الذى بقى ينتظر أن يستقبله الرئيس بونغو.

باريس - الأحد ٧ شباط/فبراير ١٩٩٩

قضى حسين، ملك الأردن متأثراً بمرضه، بعد أن تمكّن من تخطّى اضطرابات شبه يومية، خلال ممارسته «لمهنته كملك».

أول ما يرتسم فى خاطرى، لدى ذكر هذا الملك المتألّق، هو لباقته المفرطة، وعلامات الاهتمام التى كان يحيط بها محدّثيه - «هل أنتَ جالس بشكل مريح؟»؛ «هل أنتَ متأكّد من أنك لا ترغب بمقعد آخر؟» -، والتهذيب المرهف الذى كان يبديه لدى الاستماع إليك. لم يحدث قط أن سمعته يرفع صوته، ولا حتى حين

يتوجّه بالكلام إلى العاملين لديه، بينما عرفت الكثير من رؤساء الدول، الذين يعتقدون أنه عليهم رفع الصوت حين يخاطبون مرؤوسيهم.

أبصرنا النور، نحن الاثنين، وبمصادفة غريبة، نهار ١٤ نوفمبر، أى أننا كلينا من مواليد برج العقرب؛ وكان علينا، نحن الاثنين أيضًا، أن نحمل الذكرى المؤلمة لاغتيال جدّينا. فلقد سقط بطرس باشا، رئيس وزراء مصر، برصاص إنسان متطرّف فى ٢٠ فبراير ١٩١٠، فى القاهرة. أما ملك الأردن عبدالله الأول فاغْتيل فى ٢٠ يوليو ١٩٥١، فيما كان يؤدى الصلاة، وإلى جانبه حفيده حسين، فى المسجد الأقصى فى القدس. وبعد عدة سنوات، فى عام ١٩٧٧، حين قصد الرئيس السادات المسجد نفسه، فى أثناء زيارته التاريخية إلى القدس، سيطر علينا، نحن معاونيه، هاجس الاغتيال طيلة وقت الصلاة.

كان على الملك حسين أن يواجه أزمات عديدة طوال حكمه الذى امتد لحوالى خمسين سنة. ارتكب خطأين جسيمين، عرف بالتأكيد كيف يُصلحهما ببراعة دبلوماسية.

شارك فى حرب الستة أيام عام ١٩٦٧، إلى جانب مصر وسوريا، فكان من نتيجتها أن خسر القدس والضفة الغربية. ومن حينها، ألقى على عاتق الفلسطينيين مسؤولية استعادة هذه الأراضى.

من جهة ثانية، لم ينقض الاتفاقية المعقودة بينه وبين صدام حسين، حين قام هذا الأخير باجتياح الكويت. لكنه عرف هنا أيضًا كيف يتجاوز بسرعة هذه الاتفاقية، حين انبرى لمصالحة القاهرة وبغداد.

كلّفنا الرئيس مبارك، أنا وأسامة الباز، عام ١٩٨١، بمهمة حسن نوايا لدى صدام حسين. كان الأمر يتعلق بشكل باستئناف بمعاودة العلاقات الدبلوماسية مع العراق، والتى كانت قد قُطعت منذ زيارة الرئيس السادات إلى القدس. كانت مصر حينها تقدّم إلى العراق مساعدة مهمة فى مجال التسلّح.

قبل أن أتوجّه إلى بغداد، توقفت فى عمان لأقابل الملك حسين الذى استمع

باهتمام بالغ إلى العرض الذى قدمته عن مضمون مهمتى، قبل أن يضيف بكل بساطة:

«مرّ بى لدى عودتك من العراق، مهما كان الوقت متأخرًا، اللهم إلا إذا كنت مرهقًا».

لدى عودتى من بغداد، حيث تحادثتُ إلى طارق عزيز وصدام حسين، أطلعتُ الملك حسين على حصيلة مهمتى: ليس العراق على استعداد بعد لاستئناف العلاقات الرسمية مع القاهرة. وعلى الرغم من أن الساعة كانت متأخرة بالفعل، أخذ الملك كامل وقته للاستماع إلىّ، ثم شكرنى بحرارة على الجهود التى أبذلها، معبّرًا عن قناعته بأنها «مسألة وقت».

حسين ملك الأردن، «السيد» الذى يمثل الدوحة الهاشمية خير تمثيل، المتحدر الثانى والأربعين من سلالة الرسول، هذا الرجل كان ملكًا عظيمًا. لقد عرف، كما الملك الحسن الثانى ملك المغرب، كيف يوفّق بين التقاليد الإسلامية والثقافة الغربية، ويصوغ خلاصة فريدة ومتناغمة بين هاتين الرؤيتين للعالم، الأمر الذى لم يستطعه إلا قلة من المسؤولين فى العالم العربى.

باريس ـ الاثنين ٨ شباط/فبراير ١٩٩٩

أترأس فى اليونيسكو الاجتماع الثانى للجنة الديمقراطية والتنمية. فى البداية أعتذر عن الذين لم يتمكّنوا من الحضور اليوم: نادين غورديمر، روزاريو غرين، وكذلك الأميرة بسمة بنت طلال، التى اضطرّت للبقاء فى الأردن؛ بسبب وفاة أخيها، الملك حسين. أقترح أن نرسل إليها برقية تعزية.

يتضمن جدول أعمال هذا الاجتماع بشكل أساسى العوائق أمام الديمقراطية والتنمية: التفاوت الاجتماعى والاقتصادى، الانكفاء على الذات، وعجز العدالة، وقصور التربية. أوضح منذ البدء أنه علينا أن نضع هذه الأمور فى إطارها الدولى، وعلى وجه الخصوص فى سياق العولمة. إن التفاوت الاجتماعى والاقتصادى يوجد ضمن الدولة الواحدة، كما بين الدول. والأمر نفسه ينطبق على

الانكفاء على الذات، الذى قد يعبّر عن موقف مجموعة داخل دولة ما، إلا أنه يوجد على المستوى الدولى، ويتّخذ مثلاً شكل الانعزال من جانب دولة أو مجموعة دول. أما عجز العدالة فيتمثل على المستوى الدولى فى سياسة الكيل بمكيالين. وكذلك هو الأمر فى مسائل التربية.

أبرزت أعمال هذا اليوم دور العدالة، فى مفهومها الأوسع. بالنسب إلى مجمل أعضاء اللجنة، تشكّل العدالة صلة بين الديمقراطية والتنمية. فلا ديمقراطية من دون عدالة، كما أنه لا تنمية دائمة من دون عدالة.

موضوع آخر نُوقش مطوّلاً: الانكفاء على الذات، وهو بنظر أعضاء اللجنة، يتخذ فى الوقت عينه أشكالاً إيجابية - تشجيع الثقافات المحلية والإقليمية، مواجهة التنميط -، وأخرى سلبية، كالتشدّد القومى الضيق، والتطرف، والأصولية. فى هذا الصدد، يجب رفع توصية لليونيسكو لكى تلتزم النضال ضد النواحى السلبية الناجمة عن الثقافة العالمية، وعن مختلف أشكال التطرف والتعصب.

باريس - السبت ٢٠ شباط/فبراير ١٩٩٩

توقيع اتفاق تعاون مع لانسانا كوياتى فى مقر الفرنكفونية، بين المنظمة الفرنكفونية والجماعة الاقتصادية لدول إفريقيا الغربية. ينص الاتفاق بشكل أساسى على تبادل المعلومات، وعلى حضور ممثل بصفة مراقب فى المؤتمرات والاجتماعات التى تعقدها أى من المنظمتين، وعلى التشاور فى القضايا ذات الاهتمام المشترك، وعلى تنفيذ مشاريع تعاون مشتركة.

جنيف - الاثنين ٢٢ شباط/فبراير ١٩٩٩

افتتاح معرض المنحوتات لصديقى هارى روزنتال، فى الإطار الفخم لقصر الأمم فى جنيف. قام باستقدام أعماله من مدينة ميلانو، على حسابه الخاص.

خطاب لسفير النمسا، بما أن هارى يحمل الجنسيتين النمساوية والإيطالية. يليه خطاب فلاديمير بتروفسكى، المدير العام لمكتب الأمم المتحدة فى جنيف.

وأخيراً يتكلم هاري، وقد بدا متأثراً كطفل، بسبب النجاح الذى أحرزه معرضه.

جنيف ـ الثلاثاء ٢٣ شباط/فبراير ١٩٩٩

اجتماع عمل مع برونو لانفان، معاون روبانس ريكوبيرو، من أجل تحضير الاجتماع الأول لوزراء الاقتصاد والمال الفرنكفونيين، الذى سيُعقد فى موناكو، فى شهر إبريل القادم.

عشاء مع روبانس ريكوبيرو، وزوجته، وليا. روبانس ريكوبيرو، وزير المال السابق فى البرازيل، والمدير الحالى لمؤتمر التجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة Cnuced، هو مناضل حقيقى لنصرة قضايا العالم الثالث، ويستقى إيمانه من مسيحية يسارية. يتنقل ببراعة من الإنجليزية إلى الإيطالية، ومن الفرنسية إلى البرتغالية. إنه رجل يمتلك قناعات، ويؤمن بالتضامن الأخوى بين البشر إيماناً عميقاً.

جنيف ـ الأربعاء ٢٤ شباط/فبراير ١٩٩٩

أمضى الصبيحة فى ستوديوهات تلفزيون سويسرا الفرنكفونية، من أجل تسجيل حلقة ضمن إطار برنامج «زيغ زاغ كافيه»، ذى الشعبية الواسعة، مع مجموعة من الشباب السويسريين العائدين من رحلة إلى بنين وهايتى، حيث التقوا شباناً فرنكفونيين آخرين. هذا التبادل العفوى للانطباعات مع الناطق باسم الفرنكفونية، يشكّل بطريقة ما تمهيداً للتجمع الكبير للشبيبة الفرنكفونية الذى سيلتئم هنا بالذات فى ٢٠ مارس.

جنيف ـ الخميس ٢٥ شباط ١٩٩٩

عشاء مع مجلس إدارة المركز الدولى للصحة والتعاون. نلبّى دعوة دانيال بواييه، أنا وليا، وسايروس فانس وزوجته، فى داره الرائعة المطلة على بحيرة

ليمان. ديكور المنزل خليجى الطراز، مثقل بالتزيينات. الكنبات مذهّبة، والطاولات تغطيها مفارش مطرّزة، والثريات متلألئة. لا نقاش فى الأذواق والألوان.

سايروس فانس، هذا الرجل ذو الذكاء الحاد، الذى قاد، وهو وزيراً للخارجية، مفاوضات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ بتكليف من الرئيس كارتر، مصاب الآن بمرض الألزهايمر. وقد اختار أن يخفى هذه العاهة وراء صمت مؤثر.

جنيف ـ الجمعة ٢٦ شباط/فبراير ١٩٩٩

جلسة عمل فى قصر بواسّى مع مجموعة من المنتسبين إلى المركز الدولى للصحة والتعاون، والذين يعملون فى مجال المساعدة الإنسانية. سلسلة من المداخلات يقدّمها كل من اللورد دافيد أوين، وبيتر تارنوف، والدكتور كيفن كاهيل، وأنا أيضًا. تنتظر القاعة مداخلة سايروس فانس، لكنه يعزف عن الكلام.

جنيف ـ السبت ٢٧ شباط/فبراير ١٩٩٩

اجتماع لمجلس إدارة المركز الدولى للصحة والتعاون. أقترح أن نفتتح فرعًا فى جنيف، المدينة التى تُعتبر أحد مراكز الريادة للعمل الإنسانى فى العالم، وأن تُعتمد الفرنسية كلغة عمل ثانية. أليست الغالبية العظمى للدول الإفريقية فرنكفونية؟ يحظى الاقتراحان اللذان أتقدم بهما على الموافقة من قبل مجلس الإدارة، الذى ينوى، من جهة أخرى، توسيع نطاق عمله فى أوربا.

باريس ـ الأربعاء ٣ آذار/مارس ١٩٩٩

محادثة هاتفية مع الزعيم أميكا أنياوكو، من أجل تحضير الاجتماع المشترك بين المنظمة الفرنكفونية والكومنولث، الذى سينعقد فى الكاميرون، وهو بلد فاعل فى هاتين المنظمتين.

باريس ـ الثلاثاء ٩ آذار/مارس ١٩٩٩

مشاجرة تلوح في الأفق مع دار «راندوم هاوس» الأمريكية للنشر. صمّم الناشر أن يفرض عليّ عنوانًا لكتابي حول الأمم المتحدة هو «رجل غير مناسب» An Inconvenient man والذي يمكن أن يُترجم «رجل مزعج»، وهو ما أرفضه قطعيًا. لو لم أكن مؤلف الكتاب، كان يمكن السكوت عن الأمر، أما أن أصف نفسي بـِ «المزعج» فهذا في منتهى السخرية.

يتمسك الناشر باقتراحه بكل فظاظة، على الطريقة الأمريكية، بحجة أن هذا العنوان يُلمح إلى نوع من النقد الذاتي، ويوحي بنوع من الدعابة يعشقها القارىء الأمريكي.

تتوزع آراء الأصدقاء الذين أستشيرهم. منهم من يجد هذا العنوان «مسليًا»، أما الآخرون فهم من رأيي، ويعتبرونه مثار سخرية، وبالغ الإساءة.

يبلغ جايسون أبشتاين بوقاحته إلى حد تهديدي بالعزوف عن طباعة الكتاب، إن لم أقترح عليه عناوين بديلة، كان يرفضها بالطبع، الواحد تلو الآخر. وهذا لا يهمني، فأنا لستُ على استعداد للرضوخ للتهويل. قلتُ لنفسي وأنا أقفل سماعة الهاتف بحدة: «إذا لزم الأمر، أكتفي بالطبعتين الفرنسية والعربية، وهما على وشك الصدور».

باريس ـ الجمعة ١٢ آذار/مارس ١٩٩٩

مفاوضات على الهاتف بين باريس ونيويورك وواشنطن. أُعلم محاميّ غلان هارتلي بالنزاع الناشب بيني وبين دار «راندوم هاوس» للنشر. فالواقع أن القانون يفرض في الولايات المتحدة وجوب توقيع أي اتفاق مع ناشر بواسطة محامٍ يتقاضى بدل أتعاب يوازي ١٠٪ من المبالغ التي يتقاضاها الكاتب.

يعاود غلان هارتلي الاتصال بي بعد قليل ليدافع عن وجهة نظر الناشر:

ـ «رجل غير مناسب» هو عنوان يضمن ارتفاع المبيعات.

ـ «هل أنتَ محاميّ، أم محامي راندوم هاوس؟ هل أدفع إليك لكي تدافع عن مصالحي، أو عن مصالح الناشر؟ أعتقد أن هذا العنوان يسيئ لي. ولستُ على استعداد لتحمّل هذه الإساءة لأسباب تجارية بحتة».

أقترح أن يؤخذ برأي شخص ثالث، يكون كاتبًا أو صحافيًا. أذكر اسم آبي روزانتال من «نيويورك تايمز»، فتُقبل الفكرة. أكتشف للأسف أن آبي روزانتال مسافر في رحلة إلى الصين. أقرّر أخذ رأي جيم هاغلاند من «الواشنطن بوست»، وأجد الوسيلة للاتصال به في العاصمة الفيدرالية. يجيبني بالقول:

«دعني أفكّر. أرغب أيضًا في استشارة زوجتي (جين هيتشكوك)، وسأعاود الاتصال بك بعد حوالي عشرين دقيقة».

منتصف الليل، بتوقيت باريس. يعاود جيم هاغلاند الاتصال بي، كما اتفقنا، ويقول:

«نعتقد، أنا وزوجتي، بأنه ليس بعنوان جيد. الجمهور الأمريكي لا يحب النقد الذاتي، خصوصًا في عنوان كتاب. هذا إذا ما أغفلنا أن هذا العنوان ورد سابقًا في رواية «امرأة غير مناسبة».

أتصل في الحال بمحاميّ، الذي يعاود مكالمتي عند الساعة الواحدة صباحًا. لقد ربحنا المعركة. يعزف الناشر مرغمًا، عن عنوان «رجل غير مناسب»، ويوافق في النهاية على اقتراحي الأساسي «رجل لا يقهر» Unvanquished وهو عنوان يحمل معنى ملتبسًا، إذا ما تلاعبنا بالكلمة. فأداة التصدير (un الموازية لـ in بالفرنسية، والتي تحمل معنى النفي) هي أيضًا شعار الأمم المتحدة UN. مما يعنَي بأني خرجتُ منتصراً في هذه المواجهة، بعكس الأمم المتحدة التي مُنيت بالخسارة، إذا ما قرأنا العنوان مجزّءًا UN vanquished. يمكن أن يحمل هذا العنوان بعض العجرفة، ولكنه بكل الأحوال أقرب إلى الواقع من العنوان الدعائي الذي كان يريد الناشر أن يفرضه عليّ.

لن أتمكّن أبدًا من معرفة الدوافع الحقيقية لتعنّت الناشر وإصراره. هل مردّ ذلك

فقط إلى المصالح التجارية؟ أم تراه بالأحرى نوعًا من التعويض للقارىء الأمريكى، نظرًا لأنى فى بعض مقاطع كتابى أنتقد بشدة الطغمة الحاكمة فى أمريكا، وسياسة الهيمنة لتلك القوة العظمى؟ لا بل أكثر من ذلك، أنتقد بقسوة وزيرة الخارجية الحالية مادلين ألبرايت.

جنيف ـ الأربعاء ١٧ آذار/مارس ١٩٩٩

مؤتمر صحافى من أجل التعريف بالتجمع الكبير للشبيبة الفرنكفونية، الذى سيلتئم هنا، بمناسبة اليوم العالمى للفرنكفونية.

إنها تظاهرة فريدة من نوعها وغير مسبوقة. لقد أطلقنا مسابقة عبر الصحافة فى كل البلدان الفرنكفونية. وباشرت لجنة تحكيم دولية اختيار متبارين من كل بلد، من بين عشرة آلاف مشترك، على أن تتراوح أعمارهم ما بين ثمانية عشر وخمسة وعشرين عامًا، وأن تُراعى قدر الإمكان النسب المتوازية بين الذكور والإناث. لم ترشح بعض البلدان سوى فتيات، وقد تم بالطبع قبول هذه الترشيحات. فى المقابل، اضطررنا فى اللحظة الأخيرة لتجميد ترشيح موظف كان قد تخطّى الأربعين، ولكنه كان يعوّل على لحظة سهو من قبلنا، لكى يحظى بفترة إقامة فى أوربا.

يُنتظر وصول المائة وأربعة فائزين إلى جنيف بعد ظهر اليوم بالذات. وسيجتمعون، بدءاً من الغد، فى المركز الدولى للمؤتمرات، ويتوزعون وفق اهتماماتهم على خمس ورش عمل تتناول الموضوعات المقترحة حول «النزاعات المسلّحة»، و«الإعداد وفرص العمل والإدماج المهنى»، و«التنمية والتضامن»، و«الثقافة والتكنولوجيات الحديثة»، و«حقوق الفرد والحياة السياسية».

يمكن المشاركة فى هذه الورش الخمس، فى أثناء قيامها بأعمالها، عبر موقع للإنترنت أُنشىء خصيصًا للمناسبة، وذلك لكى يتمكن الشباب الذين لم يتسنّ لهم الحضور إلى جنيف، بدورهم، من الإدلاء، بأفكارهم واقتراحاتهم. والهدف النهائى هو صياغة توصيات الشبيبة الفرنكفونية لكى تقدّم إلى رؤساء الدول والحكومات، فى أثناء انعقاد مؤتمر القمة فى مونكتون، فى أيلول.

(فى فترة بعد الظهر ...) ألتقى المدير الجديد لمنظمة العمل الدولية جوان سومافيا، وهو شخص ضخم القامة، يبدو متباهيًا بلحيته الكثّة البيضاء. خلف ابتسامته البريئة، ومظهره الطفولى، يختبىء رجل الخبرة والفعالية بامتياز. فلقد لعب دوراً بارزاً فى التحضير لمؤتمر كوبنهاجن حول التنمية الاجتماعية، عام ١٩٩٥.

نلتقى اليوم بكل سرور، وكل منا قد تسلّم مهام جديدة. ولسوف يكون التفاهم الضمنى الذى يربطنا، دافعًا لإقامة شراكة بين منظمة العمل الدولية والمنظمة الدولية للفرنكفونية.

جنيف ـ الخميس ١٨ آذار/مارس ١٩٩٩

اجتماع غير رسمى وشيّق مع الشباب الفائزين والعائلات التى تستضيفهم فى جنيف. حفلة التقاط صور فوتوغرافية وتوقيع أوتوجرافات. تشهد الفرنكفونية ضخ روح الشباب فيها.

جنيف ـ السبت ٢٠ آذار/مارس ١٩٩٩

اليوم العالمى للفرنكفونية. اجتمع الفائزون للمرة الأخيرة، هذا الصباح، من أجل صياغة خلاصة لنقاشاتهم، وسمّوا ناطقًا باسمهم لكل ورشة من ورش العمل الخمس، بانتظار الجلسة الختامية، بعد ظهر اليوم، فى قصر الأمم.

قبل بدء هذه الجلسة الاحتفالية، أتحادث فى قاعة صغيرة من قاعات قصر الأمم، إلى رئيسة الاتحاد السويسرى، روث درايفوس. أعتذر لتأخرى قليلاً. كان بودى لو أتمكن من استقبالها ساعة وصولها فى مبنى الأمم المتحدة.

تبادرنى بلباقة: «أنا من وصل قبل الموعد المحدّد».

إنها امرأة غاية فى البساطة، أنيسة المعشر، تعرف كيف تُشعرك بالارتياح فى الحال، وهو أمر يخرج عن المألوف ويُدهش للوهلة الأولى، نظراً للمسؤوليات الكبرى التى تقع على عاتقها. وهذا أيضًا ما يجعلها محبّبة إلى النفس.

نتوجّه معًا إلى القاعة التى ينعقد فيها المجلس، وهى قاعة يخيم عليها فى الأوقات العادية جو يوحى بالقدم. أمامنا مشهد مثير. القاعة مليئة حتى الاختناق، والجو متوتر. لقد تحوّل الفائزون الشباب إلى دبلوماسيين محنّكين ومتحمّسين، مصمّمين على إصلاح الكرة الأرضية.

على امتداد ساعتين، سوف يعبّرون لنا ـ بحرارة وصدق وصراحة تثير التأثر البالغ أحيانًا ـ، عن ثورتهم، ولكن بالأخص، عن آمالهم وتطلعاتهم. يحدّد المتكلّم الأول التوجه الرئيسى للكلمات:

«نحن نمثّل بلدانًا عانت الحرب، أو لا تزال تعانيها. نحن نشعر بالأسى والانزعاج أمام الفظائع التى تُرتكب فى هذه النزاعات. ماذا بوسعنا أن نعمل؟ لدينا سلاح، إنه التواصل، إنها الفرنسية».

تأتى التوصيات تباعًا، وفق تسلسل الموضوعات: معادلة الشهادات الجامعية، سهولة انتقال الباحثين والطلاب، إقرار تأشيرة دخول (فيزا) فرنكفونية، إلغاء ديون البلدان النامية، إنشاء ضريبة على المضاربات المالية، إنشاء وضعية قانونية لـ «متطوع شاب» للفرنكفونية، تمنحه حق المرور فى الأراضى الفرنكفونية، إيجاَد السبل لتسهيل استعمال التكنولوجيات الحديثة فى بلدان الجنوب...

يثير المتدخّل الأخير مشكلة تلفت انتباهى بشكل خاص:

«بعد سماعنا لمختلف الشهادات، رصدنا مشكلة يتشارك فيها الشباب فى البلدان الفرنكفونية، وهى عدم الالتزام، لا بل الامتعاض من الحياة السياسية». ثم يقترح إنشاء لجان للشبيبة فى كل بلد عضو، تعمل على إثارة وعى الشباب بضرورة الانخراط فى السياسة، وتشجّعهم على المشاركة.

نأتى إلى الشق الثانى من هذا الاجتماع. تبادل للآراء صريح ومباشر بين المشاركين. تنهال علىّ الأسئلة:

«لا يحظى الشباب بالتمثيل الكافى فى المواقع الفرنكفونية المهمة. ما السبيل لإيجاد حل لذلك؟».

«ما هى الضمانات التى يمكن للفرنكفونية أن تقدمها إلينا فى مواجهة المخاطر التى تحيط بالبعض منا، بسبب مجيئه إلى جنيف، أو بسبب تعبيره الحر عن رأيه؟».

«ماذا يمكن للفرنكفونية أن تفعله من أجل إنشاء جامعة جديدة فى النيجر؟».

«ما هى الإجراءات التى اتخذتموها للوقوف فى وجه الأذى الذى يلحق بالأطفال والمراهقين؟».

«كيف السبيل لجعل الشباب يتحسسون بصورة أفضل مشاكل البيئة؟».

«ما الوسيلة لمساعدتنا على اكتشاف ثقافات بلدان الجنوب؟».

«ما هى الطريقة للتعريف بالفرنكفونية بصورة أفضل؟».

تسأل شابة كمبودية شوّهها لغم مضاد للأفراد، عما يمكن أن تفعله الفرنكفونية لمساعدتها، ولمساعدة بلدها على نزع الألغام التى تحصد ضحايا جديدة فى كل يوم.

وأيضًا أفكار أخرى، واقتراحات أخرى... كإنشاء قوة تدخّل فرنكفونية لحفظ السلام، «القبعات الصفر».

الكلمة الختامية لشاب بولندى:

«ماذا تنتظرون من الشباب فى بلدان ليست الفرنسية فيها لا اللغة الأم، ولا اللغة الرسمية، ولا حتى لغة إدارية؟».

أجيب بالقول:

«هذه الوضعية لا تنطبق على بولندا لوحدها، بل تشمل الغالبية العظمى من البلدان الأعضاء فى الفرنكفونية. تعلّموا الفرنسية كلغة ثانية أو ثالثة لكى تفتحوا لكم نافذة على العالم، ولكى تنطلقوا للقاء شباب آخرين».

وكما فى كل مرة، ينتهى اللقاء، هنا أيضًا، بالخطابات. لكن يبدو أن الحماس ينتقل كالعدوى، فيقابل خطاب روث درايفوس وخطابى بعاصفة من التصفيق. لقد أحسن كل هؤلاء الشباب أداء دورهم، وعبّروا عن نوازعهم دون مواربة. آمل بكل بساطة ألاّ نخيّب ظنهم...

نغادر قاعة المجلس، ونسير في موكب حتى الساحة الكبرى، من أجل إطلاق بالونات في الجو، إنها «بالونات السلام». البرد قارس في الخارج. البالونات ترتفع بصعوبة في سماء هذا اليوم الربيعي الزرقاء. وسرعان ما تنفصل عن بعضها وتتشتّت، حتى لا تعدو كونها نقاطًا صغيرة منعزلة وواهية.

كذلك بعد بضعة أيام لن يكون التجمع الكبير للشبيبة الفرنكفونية سوى ذكرى، وسوف يعود كل مشارك وحيداً إلى بلده، ولكنه يحمل معه فرحة ارتباطه بصداقة جديدة، والوعد بإمكانية اللقاء مجدداً في يوم من الأيام.

باريس ـ الاثنين ٢٢ آذار/مارس ١٩٩٩

الشباب الفائزون في التجمع الكبير هم الآن في باريس. يلتقيهم الرئيس جاك شيراك في قصر الإليزيه، ويقول عبارته الجميلة: «تربح الفرنكفونية حين يكون لها وجه المستقبل، أي وجه الشبيبة».

باريس ـ الأربعاء ٢٤ آذار/مارس ١٩٩٩

يزورني سفير السودان في باريس، الذي كلفته السلطات في الخرطوم، بالاستعلام عن الخطوات التي على بلاده أن تقوم بها، للانضمام إلى المجموعة الفرنكفونية بصفة مراقب.

ماذا يمكن أن تكون خلفيات هذا الطلب الغريب والسريّالي، على حد سواء؟ فالسودان هو بلد ناطق بالعربية، كما تستعمل الإنجليزية في جنوب البلاد. حين درّستُ في جامعة الخرطوم، كنتُ أُعطي المحاضرات بالإنجليزية. لا أحد يتكلم الفرنسية في السودان! هذه اللغة لا تدرّس في أية مدرسة!

يشرح لي السفير بثقة تامة وابتسامة فاتنة، أن للسودان الذي تحيط به ثلاث دول فرنكفونية ـ التشاد، وجمهورية إفريقيا الوسطى، وجمهورية الكونغو الديمقراطية ـ مصلحة طبيعية في المشاركة في أعمال الفرنكفونية.

لا تقنعنى شروحاته البتة. أظن بالأحرى أن هذه الخطوة تندرج فى سياق حملة دبلوماسية واسعة تهدف إلى تصحيح صورة السودان المشينة على الساحة الدولية. السودان الواقع فى قبضة الأصوليين. السودان الغارق فى الحرب الأهلية فى الجنوب، ذات التقليد المسيحى والإحيائى، والذى يخوض الحرب بقيادة زعيم الثوار الجنرال غارنغ ضد موجة «الأسلمة» التى اجتاحت البلاد. السودان الذى يصدّر الاضطرابات والانقلابات إلى بلدان إفريقيا المجاورة، باسم إسلام نقى ومتشدّد.

يقول لى السفير:

«نحن ننتظر زيارتك إلى الخرطوم، التى هى إلى حد ما عاصمتك الثانية. ستكون مناسبة تتدارس فيها مع المسؤولين السياسيين إمكانيات التعاون بين السودان والمنظمة الفرنكفونية».

باريس ـ الثلاثاء ٣٠ آذار/مارس ١٩٩٩

إنى مندهش بثقافة ألكسندر أدلر الموسوعية. أكتشف للتو مجلة «كورييه انترناسيونال» التى يتولى إدارتها: تجميع لأفضل المقالات التى صدرت فى الصحافة الدولية، وترجمتها إلى الفرنسية، وتبويبها وفق ترتيب موضوعاتى أو جغرافى.

ما من نزاع أذكره، إلا ويقدّم عنه فى الحال لوحة كاملة: أسباب النزاع، تواريخ الأحداث المهمة، الرهانات، خلفيات المتنازعين وما وراء هذه الخلفيات. ما من شك فى أن نهمه الفكرى يوازى ميله «إلى المأكولات الدنيوية» التى يتذوقها بشهية واضحة.

باريس ـ الأربعاء ٧ نيسان/إبريل ١٩٩٩

عشاء فى منزل البروفسور برنار دبريه، برفقة البروفسور أدولف ستج الذى أعرفه جيداً؛ لأنه هو الذى أجرى لى عملية جراحية فى مستشفى كوشان، منذ حوالى خمس عشرة سنة. هذان الرجلان يتشابهان فى نقاط كثيرة. فالاثنان

أستاذان كبيران فى مهنتهما، وشغوفان بالسياسة. أحدهما مناضل متحمّس لإفريقيا وقضايا «الأفرقة»، والثانى لإسرائيل والصهيونية.

حين كنتُ مكلّفًا بسياسة مصر فى إفريقيا، انكببتُ مطوّلاً على دراسة محرّكات السياسة الفرنسية فى هذه القارة، لأتوصّل إلى خلاصة مفادها أن هذا الاهتمام بإفريقيا يعود فى جزء كبير منه إلى المبادرة الخاصة لأقلية فاعلة.

ليس بالطبع من وجه مقارنة بين المساعدة الإنسانية الضخمة التى يقدمها المجتمع الدولى فى أثناء وقوع مجاعة، أو انتشار وباء، أو حدوث كارثة طبيعية، والمساعدة المحدودة التى يقدّمها طبيب أو صناعى. ولكن هذه المساعدة المحدودة، والتى تحرّكها قناعات شخصية، تكتسب قيمة رمزية وعاطفية، وبالتالى تكون أكثر قوة وتأثيراً. فعن طريق مثل هذه المبادرات تُبنى الأخوة بين أهل الجنوب وأهل الشمال.

باريس ـ الجمعة ٩ نيسان/إبريل ١٩٩٩

وفق ما يقول صديقى مصطفى نياس، فإن لوران-ديزيريه كابيلا على استعداد للقائى فى باريس.

يمكن للفرنكفونية أن تلعب دوراً مفيداً فى الحوار الداخلى فى الكونغو. أنا على اتصال متواتر بممثل جماعة سانت إيجيديو، الأب دون ماتيو زوبّى. التقيتُ كل القادة الكونغوليين، وقادة الشتات المقيمين فى باريس وبروكسيل، ومؤيدى موبوتو سابقًا، وقادة الثوار. ولكن يجب التوافق أيضًا على موعد للقاء غير رسمى، يعقد فى روما، برعاية سانت إيجيديو، وهى مؤسسة دينية تُعنى بالدبلوماسية. قبل الرئيس زنسو أن يترأس هذا الاجتماع، على أن يكون دون ماتيو زوبّى مقرّراً، أما أنا فأبقى فى الكواليس.

أُغتيل رئيس النيجر ابراهيم باريه ماعيناسّارا على يد أفراد من حرّاسه المقرّبين. إنه تدهور جديد يصيب إفريقيا. لاقت أنديرا غاندى المصير نفسه. أذكر أن عيدى أمين دادا، الذى أمر ببناء «بيت صغير» له ثلاثة مخارج، شرح لى بأنه لا يجب الوثوق بأحد، وخصوصًا بالحرس الخاص. وقد وجدتُ متعة لا تخلو من الخبث

فى أن أنقل أقواله إلى قائد حرسى الخاص الكولونيل أحمد الحفناوى، الذى امتعض لسماع ذلك. لم يكن يتمتع بروح الدعابة ...

موناكو - الثلاثاء ١٣ نيسان/إبريل ١٩٩٩

موناكو، فى الليل، تذكّرنى بالإسكندرية. النسيم البحرى، وحفيف شجر النخيل الذى يتمايل برفق حين يلامسه هواء الربيع. الإسكندرية، حيث اكتشفت نشوة المغامرات العاطفية التى نعيشها فى الخفاء وفى صمت وراء الستائر المقفلة التى تشكّل حاجزاً واهيًا فى وجه نور شمس الصيف التى لا ترحم. إنه النور الذى يذيب الألوان، ويبتلع الظلال، ويطرد الغيوم، ويسحق العواطف الملتهبة. فيما كنا نتنزه أنا وليا، وابن أخى يوسف فى شوارع موناكو، باحثين عن مطعم إيطالى، تفرض هذه الصور وهذه الذكريات نفسها علىّ بقوة لا يمكن مقاومتها. لماذا هذا المساء بالذات؟ لا يجب أن أترك الماضى يجتاحنى. إنى هنا لأترأس الاجتماع الأول لوزراء الاقتصاد والمال الفرنكفونيين.

يوسف، هو من يمثل مصر. إنها مناسبة لكى أستعلم عن آخر تطورات السياسة فى القاهرة. علىّ أن أنسى القاهرة حيث عشت شبابى المناضل، والإسكندرية، التى احتضنت حكايات حبى الأولى!

هذا المساء، فيما أنا أستمع إلى يوسف، فى هذا المطعم الإيطالى، يتبيّن لى أن مصر لا تزال تسكننى، مصر الماضى، ولكن بالأخص مصر المستقبل. يوسف لا يُغلب حين يتعلق الأمر بالأرقام والإحصائيات، ولكن من الواضح أنه قليلاً ما يهتم «لمكائد القصور»، مع أنها تشكّل الخلفية التى تستند إليها السلطة السياسية.

موناكو - الأربعاء ١٤ نيسان/إبريل ١٩٩٩

نحن متحلّقون أمام الفندق لاستقبال الأمير رينيه. يصل، وكعادته يبدو لطيفًا وودوداً. يبدو عليه التعب والإرهاق. نرافقه إلى غرفة الاجتماعات، حيث يحتل

مكانه على المنصة. في خطابه، يطلق نداء من أجل التضامن والحفاظ على حقوق الإنسان، قبل أن يتوجّه إليّ بالكلام مباشرة:

«لقد أتيتَ عدة مرات إلى موناكو. وفى كل مرة، كنتَ تحمل لنا معك صوت النزعة الإنسانية، وصوت الحكمة. للمرة الأولى، أنتَ فى موناكو بصفتك أمينًا عامًا للفرنكفونية. ستكون إذن مزاياك الكبيرة فى خدمة قضية تضع الإنسان فى قلب اهتماماتها. ولا يمكن لبلد صغير مثل موناكو، إلا أن يتمنى أن تأخذ المواجهة بين القوى الكبرى بعدًا إنسانيًا...».

آخذ الكلام بدورى، لأعلن بأنه لا توجد دول صغيرة على الساحة الدولية. ثم أتابع بأن الفرنكفونية تنوى، من الآن فصاعداً، بلورة تضامن اقتصادى. إنه رهان واقعى، ولو لم يرقْ ذلك للبعض؛ لأن الفرنكفونية غنية بخبرتها التى تمتد لثلاثين عامًا فى مجال التعاون بين الشمال والجنوب. من الأكيد أن المنظمة الدولية للفرنكفونية لا تدّعى القيام لوحدها بما تقوم به أساسًا منظمات أخرى، تمتلك إمكانيات أكثر ضخامة. عليها أن تعمل بالتعاون مع هذه المنظمات، وبالأخص مع مؤتمر التجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولى، الممثّلَين على هذه المنصة. أُعطى الكلام إلى روبنز ريكوبيرو، هذا المناضل البرازيلى فى سبيل العالم الثالث، الذى شدّتنى إليه دومًا أواصر صداقة كبيرة. يتلخّص موضوع مداخلته فى الآتى: «إيجاد حلّ جماعى، وبالتعاون مع الفرنكفونية، لمشكلتين شكّلتا إخفاقًا للقرن العشرين: الفقر والبطالة».

يحدّثنا ألاسّان أواتارا، المدير المساعد لصندوق النقد الدولى، عن التكامل الإقليمى فى إفريقيا، كمحطة أساسية للتكامل العالمى. يضيف أن الدول النامية لن تفلت من العولمة، ولا يجب عليها بالتالى أن تحاول وضع نفسها خارج سياق هذه العولمة.

(فى نهاية بعد الظهر...) أوقّع اتفاق تعاون بين المنظمة الدولية للفرنكفونية ومؤتمر التجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة. تبادل وثائق، تأشيرات على كل ورقة، نسخ مصوّرة. كم مرة شاركتُ فى هذه التقاليد الاحتفالية، فى هذا «الهوس» بعقد الاتفاقات الذى أجده، مع ذلك، ضروريًا.

روما ـ الاثنين ١٩ نيسان/إبريل ١٩٩٩

لقاء مع دون ماتيو زوبّي، السفير المتجول لـ سان إيجيديو في إفريقيا. تعمل جماعة سان إيجيديو منذ عدة سنوات في المجال الدبلوماسي. توسّط ممثلوها في لبنان، وألبانيا، والعراق، والجزائر، وجواتيمالا، وكوسوفو، والكونغو، وبوروندي. تسنّى لي حين كنتُ في الأمم المتحدة، أن أتعاون بشكل وثيق مع أعضائها، الذين كانوا بشكل أساسي وراء اتفاق السلام الذي عُقد في موزمبيق عام ١٩٩٢.

يعود دون ماتيو زوبّي من جولة في منطقة البحيرات الكبرى، وهي منطقة تمزّقها حرب لا تزال تتسبّب بمئات الضحايا، وسط لامبالاة تامة. تحادثَ مطوّلاً إلى القادة الكونغوليين الأساسيين. تساورني الشكوك في أنه يريد تهميش الفرنكفونية، لكي يتفرّد بالوساطة في جمهورية الكونغو الديمقراطية. أحدّثه بكل صراحة عن مخاوفي، مع التمني له بالتوفيق في مهمته. المهم هو التوصل إلى إطلاق حوار بين مختلف المتنازعين. وإذا نجح من دون مشاركتنا، أكون أول من يهنّئه على ذلك.

ينفي أن يكون لديه نوايا كهذه، ويجزم بصدقيته في الشراكة التي تجمعنا، وبضرورة أن نتابع العمل معًا. ثم يضيف: «إن الحكومة الإيطالية التي تتابع الموقف عن كثب تدعم بقوة هذا التعاون، سيما وأنه بقيادتك ...». هل يجب أن أصدق كلامه كما أصدق الإنجيل؟

روما ـ الثلاثاء ٢٠ نيسان/إبريل ١٩٩٩

يستقبلني الأسقف توران في المقر البابوي، ويسأل:

«لماذا لم تطلب مقابلة قداسة البابا؟».

أجيب:

«أعلم أنه مرهق، وأتردد في إزعاجه في كل مرة آتي بها إلى روما».

الأسقف جان ـ لوي توران هو رئيس الدبلوماسية في الفاتيكان. إنه دبلوماسي

متمرّس يتقن دراسة ملفّاته، يتكلم بحذر، ويصغي أكثر مما يتكلم. في هذا الجو المريح، وفي قاعة الاستقبال هذه التي يمتزج فيها البذخ، والتاريخ، والتقشف، أكتشف كل مكوّنات الدبلوماسية الكلاسيكية كما توصف في كتب التاريخ. يبدي المونسنيور توران بعض الحذر من المبادرات التي تُقدم عليها جماعة سانت إيجيديو والتي تكون غير ملائمة أحيانًا. ينصحني باتخاذ أعلى درجات الحيطة. وحين آتي على ذكر نشاطات الفرنكفونية، واجتماع موناكو، والإعداد لقمة مونكتون، أراه يبدي انشراحًا ويؤكد لي كامل دعمه لهذه الحركة القادرة على أن تلعب دوراً مهمًا في التنظيم الجديد للعالم.

باريس ـ السبت ١ أيار/مايو ١٩٩٩

فيما أنا وليا نتناول الغداء بهدوء في حديقة نادي الحلفاء، برفقة إحدى صديقات الطفولة، مارَغريت بيتان، «يهجم علينا» ـ بالمعنى الحرفي للكلمة ـ الصحافي محمد هيكل وزوجته، ويأتيان لمعانقتنا بحرارة، وإبداء كل مظاهر التودد.

هذا الرجل بالذات، ومنذ أسابيع قليلة، أوسعني شتمًا في مقال لاذع تناول فيه كتابي «طريق القدس»، ولم يتورّع عن اللجوء إلى شتى أنواع الافتراءات! لقد أضمر دومًا حقداً عنيفًا وشرسًا إزاء الرئيس السادات الذي أقصاه عن الحياة العامة. لم يتوقّف قط عن اتهام الرئيس السادات بأنه خان فلسطين وباعها من أجل استعادة سيناء. وهو يعتبر نفسه القائد والعقل المفكر لمؤيدي خط النضال العربي النقي والمتشدّد الذي نادى به جمال عبد الناصر في زمانه.

لا تهدف مظاهر التودد الاستعراضية هذه، إلا لإعطائه إمكانية القول أمام أصدقائنا المشتركين في القاهرة، إني لا أكنّ له أية ضغينة، وإن علاقاتنا ممتازة.

يجب أن أعترف بأن الشراسة التي يلاحقني بها في كتاباته، منذ ذاك اليوم من شهر نوفمبر ١٩٧٧، الذي طلب إليّ فيه الرئيس السادات أن أرافقه إلى القدس، لم تزدني إلا صلابة؛ لأن هذه الرحلة التاريخية ستبقى، وحتى وفاتي، ذروة مسيرتي السياسية.

باريس ـ الأربعاء ١٢ أيار/مايو ١٩٩٩

هذا الصباح، أستقبل آلان ميشال وفابيان فوابيه، اللذين قرّرا تكريس كتاب خاص لمسألة العقوبات المفروضة على العراق، وسيكون عبارة عن سلسلة مقابلات مع كلود شيسّون، وشيمون بيريز، وجان-بيار شوفنمان، وغيرهم من الشخصيات العامة.

أتحمّس لهذا المشروع الذى يحوز على كامل دعمى. لقد قلتُ دومًا إن الحصار الاقتصادى المفروض على العراق، وبعده القصف الأمريكى والإنجليزى، يشكّلان جرائم بحق الإنسانية، تأخذ شرعيتها من تفسير خاطىء لقرارات مجلس الأمن.

بعد عشر سنوات من العقوبات، تراجع العراق نصف قرن إلى الوراء. إنها فضيحة حقيقية، أتحمّل مسؤوليتها، إلى حد ما، بصفتى أمينًا عامًا للأمم المتحدة. لقد سعيتُ جاهداً لتخفيف آثار هذا الحصار الاقتصادى، عبر التصويت على قرار «النفط مقابل الغذاء». وقد كلّفنى ذلك القيام بمعركة سياسية على جبهتين فى آن: التغلّب على اعتراضات الحكومة العراقية ذاتها، التى رفضت هذا القرار؛ خشية ان يمتد الحصار إلى ما لا نهاية؛ التغلّب على معارضة أمريكا وإنجلترا اللتين، على عكس ذلك، كانتا على قناعة بأن تطبيق هذا القرار سوف يُسهم فى فك الحصار المفروض على العراق.

لقد تساءلتُ أحيانًا كثيرة عن العامل الذى رجّح كفة العقوبات، أهو جنون العظمة لدى صدام حسين، أو سلبية الدول العربية، أو لامبالاة المجتمع الدولى، أو حب الانتقام الأمريكى ـ الإسرائيلى. ما أعرفه بالتأكيد أن الشعب العراقى هو الذى يتألم ويعانى.

لاهاى، باريس ـ الأربعاء ١٩ أيار/مايو ١٩٩٩

أحضر فى قصر الإليزيه حفل تسليم وسام جوقة الشرف إلى بوليت لوبى. هناك نصف دستة من السعداء الذين وقع عليهم الاختيار، وقد اصطفّوا بانضباط، أحدهم بجانب الآخر. يعرض الرئيس شيراك باقتضاب مسار المحتفى به، الذى

يتقدم ليُعلّق على ثنية سترته الوسام الذى طالما انتظره، ثم يعود إلى مكانه، مفسحًا المجال للذى بقربه لكى ينال بدوره نصيبه من المديح ويحظى بالوسام.

انتهى الاحتفال. يتحلّق «حاملو الأوسمة» والمدعوون حول الرئيس شيراك لالتقاط صورة «تاريخية». يلمحنى جاك شيراك مع الجمهور ويأتى لمصافحتى، بلطفه المعهود:

«من أجل مَن جئت هنا؟». ثم يضيف دون أن ينتظر جوابى: «من أجل بوليت لوبىَ على ما أظن... إنها رائعة، وفائقة النشاط حقًا!».

باريس ـ الخميس ٢٠ أيار/مايو ١٩٩٩

أفتتح مع ديان مارلو «معرض الفرنكفونية» فى المركز الثقافى الكندى. إقبال مشجّع أمام الواجهات واللوحات الإعلانية والكتب المخصصة للفرنكفونية وللقمة المقبلة فى مونكتون.

إن عزم كندا على جعل الفرنكفونية قوة ثقافية وسياسية هو بالنسبة إلىّ مصدر إلهام ودعم لا يقدر بثمن. حين نقارن دينامية وحماس الحكومة الكندية بتكاسل الحكومة الفرنسية، لا بد وأن نقرّ بأن خلاص الفرنكفونية سوف يأتى من العالم الجديد.

(بعد الظهر...) فى ظل زخارف قاعة استقبال فى مجلس الشيوخ، أتسلّم الجائزة الفرنسية ـ اللبنانية على كتابى «طريق القدس». خطابات، صور فوتوغرافية، أقراص حلوى، محاصرتى من قبل معجبات لبنانيات تنتمين إلى جيل والدتى. . . اختارت الشبيبة اللبنانية، كما الشبيبة المصرية، أن تتكلم الإنجليزية!

لاهاى ـ الجمعة ٢١ أيار/مايو ١٩٩٩

بعد ظهر اليوم يتسلّم القاضى محمد بدجاوى كتابه التكريمى. يجرى الاحتفال فى القاعة الكبرى لمحكمة العدل الدولية.

تعود بى الذاكرة أربعين سنة إلى الوراء، إلى العام ١٩٥٢ . كنتُ أحضر للمرة الأولى جلسة فى المحكمة الدولية. أسترجع المشهد بأدق تفاصيله. دخل القضاة الخمسة عشر إلى القاعة بخطى متهادية ومشية احتفالية. كان من بينهم القاضى المصرى عبد الحميد بدوى. ثم دخل كاتب المحكمة. أعطى الكلام لمحامى إحدى الدول. كانت تلك بالنسبة إلىّ، وأنا الذى أدرّس القانون الدولى، لحظة زاخرة بالمشاعر الجياشة ونادرة. كنت مقتنعًا، فى تلك الفترة، بأن العدالة الدولية هى الحل المثالى من أجل التسوية السلمية للنزاعات الدولية. كان يكفى أن تقبل الدول بالتحكيم الإلزامى للمحكمة. علمتُ لاحقًا أن القضاة لم يكونوا فى مأمن من الضغوطات السياسية، وأن القانون الدولى لم يكن الوسيلة الفضلى لتسوية نزاع ما، وأن السياسة - أى تلك القائمة، إلى حد كبير، على غلبة الأقوى - تبقى السلاح المفضّل للدول فى إدارة خلافاتها الدولية. بالاختصار، لا تدخل العدالة الدولية فى حساب سياسة الدول، إلا إذا كانت قواها متعادلة.

فى هذا العام ١٩٩٩ أجلس على المنصة التى يتربّع عليها القضاة عادة. أتهيّأ لقراءة خطاب أعددته بعناية تكريمًا لمحمد بدجاوى. أصبحت المناظرة الخطابية عادة بيننا، إذا لم نقل لعبة، وعلىّ أن أكون اليوم بدرجة التألق التى كان عليها هو العام الفائت فى باريس، يوم تسلّمتُ فى اليونيسكو كتابى التكريمى:

«هناك صنفان من رجال القانون: المحافظون والمشاكسون. أصنّف محمد بدجاوى تلقائيًا فى النوع الثانى. طيلة حياته حقّق مأثرةً فى أن يكون فى الوقت عينه جامعيًا بكامل مواصفاته، ورجلاً منخرطًا فى الحياة العملية. أحسّ أن تسريع حركة التاريخ وبروز العالم الثالث أسهما كثيرا فى خلخلة قيمنا ومرجعياتنا الفكرية ومفاهيمنا ونظمنا. وكم كان أساسيًا أن نعيد التفكير فى قواعد مستقبلنا الجماعى، وأن نسعى لبث قيم ديمقراطية جديدة فى سلوكيات الأطراف الفاعلة فى الحياة الدولية.

إنه هذا المفهوم المُلزم للقانون الذى قاد محمد بدجاوى، مرات عدة، إلى الإصرار على إدخال الفكرة الديمقراطية إلى النظام القانونى الدولى. كيف يمكن أن نرسى الديمقراطية فى نظام مكوّن من دول ذات سيادة؟».

وأختم بهذا البيت من الشعر لأبى نواس، أحد شعرائنا العرب:

«قدّم لخلانك أحلامًا ملوّنة   حرارة الأرض أو شمس المغيب»

«اسمحْ لى، يا عزيزى محمد، أن أختار الهدية الثانية: غياب الشمس. ليس فقط لما يحمل من رمزية لدى الفراعنة، وليس فقط كمقابل للنياق العشرين البيض التى وعدتنى بها يومًا، ولكن لأن قوس الشمس فى سماء موطنى مصر يشكّل همزة وصل أبدية بين مشرق أحلامنا ومغرب طفولتك».

خطاب غير متوقع، يتمايز عن الكلام القانونى الذى طبع الخطابات الأخرى. تسرّ إلىّ روزالين هيغنز، وهى المرأة الأولى التى تنضم إلى المحكمة الدولية، بابتسامة ساحرة:

«يبدو واضحًا أنك تعرف محمد بدجاوى جيدًا. لقد رسمته بأسلوب انطباعى».

خلال الاستقبال الذى أعقب الاحتفال، يخبرنى سفير بلغاريا المعتمد فى لاهاى، بأنه يمتلك رسالتين أصليتين كتبهما جدى بطرس باشا، فى مطلع القرن. يعدنى بأن يرسل إلىّ نسخة مصورة منهما.

باريس ـ الثلاثاء ٢٥ أيار/مايو ١٩٩٩

لقد تسلّمتُ هذا الصباح، الطبعة الروسية لكتابى «طريق القدس». إن مقارنة غلافات الإصدارات المختلفة أمر مثير للاهتمام إن لم نقل حافل بالمعانى. فالتنوع الثقافى يظهر هنا من خلال اختيار الصور. لقد اختار الروس صورتى مع موشى دايان ـ والتى ظهرت على غلاف الطبعتين الأمريكية والإسرائيلية ـ، بعد أن أضيفت إليها منحوتة فرعونية وغصن زيتون. أما الصينيون، فلم يروا من المناسب اعتماد هذه الصورة، واستبدلوها بتمثال نصفى لأحد الفراعنة، وخلفه الأهرامات. فمصر القديمة هى التى تحظى باهتمام الجمهور قبل أى شىء آخر. وليس فى ذلك مكافأة لمن خدم مصر الحديثة ما يقارب الخمسين سنة! لكن يمكننا

دومًا أن نجد العزاء بأن نقول لأنفسنا أننا نتحدّر من الفراعنة! الإصدار العربى، الذى طبع العدد الأكبر من النسخ، وضع صورتى لوحدها، من دون موشى دايان. لا يتمتع الزعماء الإسرائيليون البتة بشعبية لدى القرّاء المصريين...

باريس - الاثنين ٧ حزيران/يونيو ١٩٩٩

تُرجمت مقتطفات من كتابى الجديد حول الأمم المتحدة إلى العربية، وتولّت نشرها مجموعة من الصحف اليومية فى مختلف البلدان. ولم تتأخر التلفزيونات العربية عن مواكبة الحدث. بعد ظهر اليوم، قبلتُ أن أشارك فى برنامج على قناة «الجزيرة»، وأن أجيب مباشرة عن أسئلة المشاهدين. «الجزيرة» هى محطة تلفزيونية تموّلها إمارة قطر. عُرف عنها بأنها قفزت فوق كل الممنوعات، وهى توجّه باستمرار انتقادات لاذعة وتشنّ هجومات عنيفة على الكبار والعظماء فى العالم العربى.

يستقبلنى الصحّافى سامى حداد فى ستوديو التسجيل الذى استأجره فى وسط باريس. إنه رجل فى سن النضوج، يكلّل الشيب رأسه، ويوحى مظهره بالطيبة. يؤمّن لك فوراً جواً من الارتياح، يُطريك بذكاء، ويكلّمك حتى عن مشاكله الشخصية بلهجة من يأتمنك على أسراره. ما إن يبدأ البرنامج حتى يتحول هذا الشخص الذى يمكن أن تخاله خجولاً أو ممن يفرطون فى المجاملة، إلى محقّق كبير، ويبدى عدائية قل نظيرها. إن فى ذلك ما يجعل زمام الأمور يفلت من يدك! بالطبع، تلك هى اللحظة التى يختارها مصوّر البرنامج لكى يركّز الصورة على وجهك المرتبك والمذهول. وهى لحظة مهمة جداً، بلا شك، بالنسبة إلى المشاهدين الذين يروا ضيف الشرف يفقد شيئًا من مهابته. لم أشذّ عن القاعدة، ووقعتُ أنا أيضًا فى الشرك. لكننى أعود لأتمالك نفسى بسرعة وأردّ عليه بعدائية أكبر:

«من الواضح أنك لم تقرأ كتابى، وأنك اكتفيت بالمقتطفات التى نُشرت فى الصحف. إن معلوماتك ناقصة، وأسئلتك خارج الموضوع».

هذه العدائية سوف تزداد حين يطرح على المشاهدون بدورهم أسئلة تحد اختيرت وحُضِّرت بعناية دون شك.

فى أثناء الوقفة الاعلانية يلومنى سامى حداد، الذى استعاد هدوءه فجأة، على لهجتى القاسية :

«على هذا النحو، لن يتجرأ المشاهدون على طرح الأسئلة عليك».

أقترح عليه أن يفكّر فى أسئلة بنّاءة أكثر، كإصلاح مجلس الأمن، وحق الفيتو، ومسائل نزع السلاح، وعمليات حفظ السلام فى الصومال وقبرص وموزمبيق، والقصف الإسرائيلى على قانا.

أعلم لاحقًا أن هذا البرنامج هو من الاستعراضات الرائجة جدًا. الهدف بسيط : دفع الضيف للخروج عن طوره، وإحراجه، وحمله إذا أمكن على الاستسلام، مما يمنح المشاهدين متعة مشاهدة الثور وهو يقع على ركبتيه، قبل أن يعاجله مصارع الثيران بالضربة القاضية.

إن وسائل الإعلام العربية لا تزال مشدودة إلى التى يغلب عليها الطابع الشكلى التقليدى، حتى إذا ما أعطيت هامشًا من الحرية ـ كما هو الحال مع «الجزيرة» ـ انتقلت من اللغة الشكلية التقليدية إلى لغة الأفاعى. مع ذلك، لا يجب أن نتوقّع شيئًا آخر، ما دام الإعلام فى العالم العربى خاضعًا للرقابة، والرقابة الذاتية، وعبادة الأشخاص.

نيويورك ـ الاثنين ١٤ حزيران/يونيو ١٩٩٩

احتفال فى الأمم المتحدة. فى هذا اليوم ترفع الستارة عن صورتى المرسومة، التى ستُضم إلى صور أسلافى الخمسة. لا تعجبنى هذه اللوحة التى رسمها فنان نرويجى. كنتُ أفضّل لو عُهد تنفيذها لفنان مصرى، إلا أن بريت زوجة أخى، وهى نرويجية، أصرّت علىّ كثيرًا لكى أكلّف إيفن ريكاردسون بهذه المهمة، إلى أن قبلت فى نهاية المطاف.

جمهور غفير يتدافع فى الممر. أُجرى احتفالٌ مماثل عام ١٩٩٢، تكريمًا لسلفى خافيير بيريز ديكويار، الذى خلّده الرسام السويسرى هانز أرنى. وبصفتى أمينًا

عامًا جديدًا، ألقيتُ فى تلك المناسبة خطابًا يتضمن الكثير من الإشادة، وقد أجاب عليه بيريز ديكويار بحس مرهف لا يخلو من الدعابة.

ينتظر كوفى أنان أن يجهّز كل شىء لكى يحضر. يلقى خطابًا يبالغ فيه بالإطراء وينسب إلى فيه المبادرة فى أهم الإصلاحات والإنجازات التى حققها.

أجيب، بالإنجليزية أولاً، متوجهًا إلى الأمين العام وزوجته السويدية:

«من تريغفى لى إلى كوفى أنان، تتواصل المسيرة. إن الرجال والنساء الذين يقومون اليوم بخدمة الأمم المتحدة، إنما يُسهمون بتنظيم بناء القرن المقبل. لكن البناء لا يكفى وحده، بل يجب كذلك الدفاع عن هذه المؤسسة فى وجه الانكفاء على الذات، والأنانية القومية، والتعصب الدينى».

أتابع بالفرنسية:

«أصدقائى، زملائى الأعزاء، من أعلى هذا الجدار الذى «علّقتمونى» عليه، سوف أراقب باهتمام كبير تطور الأمم المتحدة... أتعهّد بأن أساعد الأمم المتحدة من خلال المنظمة الدولية للفرنكفونية التى أتولّى إدارتها، وأتعهد بمساعدتها كذلك، من خلال التزامى الشخصى ووفائى للرجال وللنساء الذين يناضلون من أجل السلام».

انتهى الاحتفال. تهانى، معانقة، تأثر يختلط ببعض الفضول أحيانًا، معاونون نلتقيهم بعد سنتين، وقد ظهر على بعضهم التقدم فى السن، فيما بدا آخرون أكثر شبابًا.

غداء فى دار الأمين العام، القائمة فى الرقم ٣ من سوتون بلاس. أجد المكان كما تركته. لم يتغيّر شىء. حافظ خلفى على الستائر نفسها، والأثاث نفسه. كل شىء فى مكانه بالتحديد. وحدها لوحات كبار الرسّامين التى كانت تزيّن الجُدر استعادتها المتاحف. لوحة بونّار، المعلّقة فوق المدخنة لجهة الشمال فى قاعة الاستقبال، والتى كانت تبعث فىّ البهجة - امرأة مسترسلة للنوم، وحلمها مجسّد فى اللوحة. لوحة - دوفى، فوق المدخنة لجهة

اليـمين، التى كـانت تذكّرنى بشـبابى، وبلقـائى مع الرسّام فى فون ـ رومو عـام ١٩٤٧ .

أما غرفة الطعام التى كنا نُطلق عليها اسم «الغرفة الروسية» لاحتوائها منحوتة لأرشيبانكو، ولوحة رائعة لكاندنسكى، فتبدو فجأة على درجة كبيرة من الخواء والتقشف.

يبدو جوزيه رئيس المائدة الذى تولّى خدمتنا طيلة خمس سنوات، خائفًا. وهو لا يدرى إن كان عليه أن يحتفى بنا بحرارة، أو أن يتحفظ قليلا، لئلا يثير حساسية رؤسائه الجدد. لكنه قام بالتفاتة ودود تجاهنا، بأن قدّم مع الغداء نبيذ «شاتو-تالبو» التى تحبه ليا كثيراً.

دعا كوفى عنان أصدقائى وأقرب معاونىّ. بعد الغداء نذهب لارتشاف القهوة فى الحديقة. أسترسل فى محادثة طويلة مع سفير فرنسا آلان دوجاميه، كما لو كنتُ لا أزال فى منزلى... لا يلبث أن يأتى أحدهم ويذكّرنى بلباقة بأن المدعوين ينتظرون مغادرتى لكى ينسحبوا، أى باختصار، بأن الاحتفال قد انتهى.

(فى نهاية بعد الظهر ...) يقيم صديقى لوك دو كلابييه استقبالاً للاحتفال بصدور كتابى. دعا ممثلين للصحافة الدولية. أصادف الصحافى جايسون أبشتاين، ولم نكن قد التقينا منذ الخلاف الذى نشب بيننا فى قضية اختيار عنوان كتابى. بحركة واثقة، يخفى انزعاجًا ظاهراً، يبرز نسخة من الكتاب، ويطلب أن أكتب له إهداء، فأفعل بطيبة خاطر، خصوصًا وأنه ليس من المدلّلين لدى أرباب العمل الجدد فى «راندوم هاوس».

ألتقى كذلك بول لويس من «نيويورك تايمز» وزوجته. لم يكن فى يوم من الأيام ودوداً إزائى، لكننا نتصافح بحرارة.

المنظر المطل على «سنترال بارك» يبعث على النشوة، وفى اللحظة التى تغيب فيها الشمس فى سماء صافية، يفعل السحر فعله. أغرق فى التأمل، ناسيًا للحظة المقابلات، والإهداءات، والفرحة العابرة التى تمتلكنا لدى إصدار كتاب جديد.

نيويورك ـ الخميس ١٧ حزيران/يونيو ١٩٩٩

شاركتُ هذا الصباح فى تجربة لم يسبق أن تعرّضتُ لها، وذلك فى ستوديو تسجيل أنيق فى وسط نيويورك، وقّع عقداً مع حوالى عشر محطات إذاعية فى دول مختلفة. تتناوب هذه الإذاعات على إجراء مقابلة معى لمدة تتراوح بين خمس وعشر دقائق حول كتابى. تتكرّر الأسئلة أحيانًا، وتتشابه الأجوبة فى أكثر الأحيان. لحسن الحظ، يتبدل المستمعون. لقد تم ضبط الوقت، ويجرى التنفيذ بدقة ساعة سويسرية، باستثناء محطة لم تكن جاهزة للبث على الهواء حين تم الاتصال بها، فيقول لى مقدّم البرنامج، وهو شخص غاية اللطف: «سيتيح لك ذلك أن تتنفّس لخمس دقائق، وأن تشرب كوب ماء.» ثم يضيف: «لقد وصلت إلى جمهور من المستمعين يُعدّ ببضعة ملايين. لاحظ أنه يجب أن تأخذ بالاعتبار الفرق فى التوقيت. إنها مثلاً الساعة السابعة صباحًا فى سان فرانسيسكو، والناس يتناولون فطورهم. أما فى شيكاغو فيسمعونك وهم فى سيارتهم فى أثناء توجههم إلى مكاتبهم.

ـ وهل يجدون كتابى فى المكتبات؟

ـ ليست مشكلتى، بل مشكلة الناشر. أنا مكلّف بالدعاية للكتاب، وهو مكلّف بالبيع».

بعد أداء استمر لأكثر من ساعتين، أغادر الاستوديو مشوّش الذهن، ولكن مندهشًا بهذه المأثرة التقنية التى شاركت بها.

نيويورك ـ الجمعة ١٨ حزيران/يونيو ١٩٩٩

لدىّ موعد فى الصباح الباكر فى مكاتب المندوبية الدائمة للمنظمة الدولية للفرنكفونية لدى الأمم المتحدة، مع وزير خارجية جزر القُمر سويف محمد الأمين. أقلّ ما يُقال فى الوضع هناك بأنه معقّد، وذلك منذ عقود. فأرخبيل القُمر ـ وهو مستعمرة فرنسية تضم جزر مايوت، والقُمر الكبرى، وأنجوان، وموهيلى ـ نال استقلاله عام ١٩٧٥، باستثناء جزيرة مايوت التى بقيت تحت إدارة فرنسية. يتولّى أحمد عبدالله الرئاسة، فتتم الإطاحة به بعد شهر على تسلّمه الحكم.

تتوالى الانقلابات والاغتيالات، دون المطالبة بإعادة النظر فى وحدة الجزر الثلاث.

خطر جديد يهدّد جمهورية جزر القُمر: فى أغسطس عام ١٩٩٧، يطالب انفصاليون فى جزيرة أنجوان، ومن طرف واحد، بالاستقلال، ويعبرون عن رغبتهم فى إقامة إدارة ذاتية. الاستفتاءُ الذى ينظمونه فى أكتوبر حول تقرير المصير، يعطى للاستقلال شرعيته لكن المجتمع الدولى يشجبه. تتدخّل حينها منظمة الوحدة الإفريقية فى محاولة للتوسط بين الحكومة والانفصاليين.

فى إبريل ١٩٩٩ يُعقد مؤتمر للجزر الثلاث فى أنتاناناريفو، برعاية منظمة الوحدة الإفريقية، تُطرح فيه أسس «اتحاد جزر القُمر»، التى تقضى بمنح الجزر الثلاث حكمًا ذاتيًا موسّعًا. يرفض وفد جزيرة أنجوان توقيع اتفاق أنتاناناريفو، فتقوم تظاهرات عنيفة ضد الأنجوانيين القاطنين فى القُمر الكبرى، وذلك فى العاصمة مورونى. يتدخّل الجيش القُمرى ويطيح بالحكومة، ويسلّم السلطة للكولونيل أزالى أسّومانى.

هذا الصباح، يتناول وزير خارجية الكولونيل أزالى أسّومانى، بمهارة كبيرة، الدور المهم الذى يمكن أن تلعبه الفرنكفونية فى تسوية الأزمة القُمرية. أذكّره بأنه يعود لمنظمة الوحدة الإفريقية أن تلعب هذا الدور فى الوقت الحاضر. ومن جهة أخرى، بما أن الأمم المتحدة قد تبنّت قرارات هذه المنظمة، فإنه من غير الوارد أن نتدخل. إن لدينا مبدأ واضحًا فى هذا الخصوص: عدم القيام بدور مواز لما تقوم به المنظمات الدولية الأخرى، وعدم الإكثار من الوسطاء.

(بعد الظهر ...) أشارك فى ستوديوهات الـ سى. إن. إن برنامج «دبلوماتيك ليسانس» المخصّص لنشاطات الأمم المتحدة. يقترح علىّ مقدّم البرنامج أن نبدأ بمشاهدة بعض اللقطات المركّبة.

تظهر مادلين ألبرايت على الشاشة الصغيرة، مرتدية فستانًا أزرق تبدو فيه أقل بدانة، وقد علّقت عليه مشبكًا. تكيل لى المدائح: «إنه رئيس دولة حقيقى. إنه قائد يحوز على إعجابى بسبب العمل المتميّز الذى يقوم به فى الأمم المتحدة». ثم نرى

مادلين ألبرايت، بعد سنة أو سنتين، بنفس الفستان الأزرق، ولكن المشبك مختلف: «لم يكن الأمين العام مؤهلاً لقيادة الإصلاحات الضرورية التى تتيح للأمم المتحدة فعالية أكبر، وكفاءة تنفيذية أعظم. يجب أن يرحل إذا كنا نريد أن تحلّ أمريكا الأزمة المالية التى تعانيها هذه المؤسسة». اللقطة التالية: يصرّح السناتور بوب دول: «لن أقبل أبداً أن يقود بطرس بطرس غالى الجيش الأمريكى».

انتهى الريبورتاج.

«ما هى الأفكار التى توحى لك بها هذه الصور التى رأيتَها؟».

جوابى مقتضب:

«إنها سياسة المناورات أو مناورات السياسة».

ـ ليس لديك أى تعليق آخر؟

ـ كلا، هذه العبارة تلخّص تماماً ما أفكر به».

ويلتون ـ السبت ١٩ ـ الأحد ٢٠ حزيران/يونيو ١٩٩٩

عطلة نهاية الأسبوع عند أخى واصف الذى يملك بيتاً فى ويلتون، على بعد حوالى مائة كيلومتر من نيويورك فى ولاية كونّاكتيكوت. جو من الراحة والصفاء، بعيداً عن حركة نيويورك وضجيجها.

لطالما كانت الأشجار بالنسبة إلىّ، وبالأخص الأشجار الباسقة، رفاقاً مخلصين. عندما أكون بينها أتحد بالأرض، كما الفلاح المصرى، الذى يقول عنه عبد الرحمن الشرقاوى: «وجوده هو الأرض، وحياته الأخرى هى الأرض أيضاً».

نيويورك ـ الاثنين ٢١ حزيران/يونيو ١٩٩٩

ألتقى هنرى كيسينغر فى نادى المتروبوليتان. أقدّم إليه نسخة من كتابى عليها

إهداء. ولدى ذكر مادلين ألبرايت، لا يوارب فى الكلام: «إنها امرأة غير كفوءة، ومدّعية، ومنحرفة». ثم يسترسل فى الضحك: «إنها تكرهنى، ولكنها تكره هولبروك أكثر».

ريتشارد هولبروك، هو سفير متمرّس ينتظر على مضض أن يصبح فى وقت قريب وزيراً للخارجية، ويكتفى فى الوقت الحاضر بمنصب الممثل الدائم للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة.

السفير جوزف ريد ـ الذى نناديه «يوسف»، يفرح لذلك كثيراً؛ لأنه شغوف بكل ما يتصل بالعروبة، مذ كان سفيراً للولايات المتحدة فى المغرب ـ، يقيم غداء عامراً فى «الريفر كلوب» للاحتفال بصدور كتابى. «الريفر كلوب» هو مكان مقفل، يقتصر الانتساب إليه على البورجوازية الأمريكية، وهو نموذج مطابق للأندية اللندنية. كنتُ، فيما مضى، عضواً فى هذا النادى الرفيع المستوى، وكنتُ أسدّد اشتراكًا سنويًا مرتفعًا جداً. كنتُ أنوى الإفادة من حوض السباحة، ولكنه سرعان ما تبيّن لى أن حمّام السباحة الوحيد الذى سنح لى الوقت بأخذه خلال سنة، كانت كلفته مرتفعة جداً. استقلتُ مثيراً غضب جوزف ريد الذى كافح من أجل قبولى فى النادى.

إنه صديق مخلص، وقد قال لى فى منتصف ديسمبر ١٩٩٦، بعد أن كان كوفى عنان قد انتُخب: «بعد الآن، لن يأتى أحد ليزورك فى مكتبك، باستثناء السفير يوسف». إنه جمهورى صلب، يكنّ عداوة مستميتة لبيل كلينتون، ومادلين ألبرايت، ولكل ما يشبه من قريب أو من بعيد عضواً فى الحزب الديمقراطى. إنه على علم بكل الفضائح الصغيرة فى واشنطن، وفى البيت الأبيض؛ لأنه كان لسنوات عديدة رئيس البروتوكول لدى جورج بوش.

نيويورك ـ الأربعاء ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٩٩

أقوم برفقة ليا بزيارة سايروس فانس. لقد حافظ على وقاره، على الرغم من المرض الذى يفتَك به. يطلّ مرتديًا بذلة «برنس دو غال» أنيقة، وقميصًا أبيض

منشّى، وربطة عنق ملائمة تمامًا. يبدو أنه عرفنا، ولكنه لا يقول شيئًا، وتبقى نظرته خالية من أى تأثر. تتولّى زوجته غاى الحديث. يقاطعها أحيانًا، لكن مداخلاته تأتى خارج الموضوع تمامًا. نودّع عائلة فانس متأثرين.

سايروس فانس، ذو الذكاء المتوقد، الذى قاد مفاوضات اتفاق السلام مع إسرائيل، والذى كان يمتلك فن إيجاد الكلمة أو الصيغة القانونية المقبولة من الفريقين، والذى كان يجيد التدخل فى اللحظة الحاسمة حين كان النقاش يحتدم بين موشى دايان وبينى، والذى ترك مكتبه فى المحاماة فى نيويورك ليتوجّه إلى يوغوسلافيا من أجل إيجاد حل يضع حداً للمجازر، هذا الرجل المتوقد الذكاء يجد نفسه اليوم سجين صمت مرعب، تقطعه شذرات غير مفهومة. ذكاء ميت فى جسد يعاند من أجل الحياة.

نيويورك ـ الخميس ٢٤ حزيران/يونيو ١٩٩٩

أعقد اجتماع عمل مع السفراء الفرنكفونيين المعتمدين لدى الأمم المتحدة، برئاسة آلان دوجاميه. أشدّد على ضرورة تعريف غير الفرنكفونيين بالفرنكفونية.

عشاء عند السفير أحمد أبو الغيط برفقة بعض الأصدقاء الصحافيين، وآبى روزانتال وزوجته. تحضر كذلك لويز فليشات، نائبة الأمين العام للأمم المتحدة. على الطريقة الأمريكية، راح كل واحد يسرد قصة صغيرة حصلت معه، وأنا بطلها. للأسف، نسيتُ سمّاعتى، وأجد صعوبة فى سماع المديح الذى يكيله لى كل بدوره. بكل لطف تقبل لويز فليشات، الجالسة عن يمينى، بأن تكرر بصوت عالٍ أقوال الجميع. أتوجّه إليها بالسؤال:

«أليس لديك ما تقولينه، عزيزتى السفيرة؟» فتجيب بابتسامة مليئة بالدعابة:

«إنى أقوم بدور الناطق باسم هذا الجمع اللطيف، ألا تجد أن ذلك يكفى؟».

نيويورك، بور أو برانس ـ الأحد ٢٧ حزيران/يونيو ١٩٩٩

أسافر إلى هايتى، برفقة رضا بوعَبيد، ممثلنا الدائم لدى الأمم المتحدة، وهو

دبلوماسي تونسي. أقيم في الفندق الذي اعتدت النزول فيه في أثناء إقامتي في بور ـ أو ـ برنس.

في نفس المساء نتلقى الدعوة للعشاء عند الرئيس جان-برتران أريستيد. لقد عرفته حين لم يكن سوى «تيتيد»، كاهن الأحياء الفقيرة، ثم عندما أصبح المناضل المنفي، المسكون بحلم العودة إلى هايتي. وفي وقت لاحق أيضًا، عندما استعاد السلطة، وغدا الرئيس المنتصر، والخطيب الذي يلهب الجماهير من أعلى منبره.

هذا المساء، إنه رب العائلة الذي يدعونا على عشاء حميم، برفقة زوجته وابنتيه. لم يتغيّر، لكن ربما زاد وزنه قليلاً. نفس العذوبة في صوته. يتكلم كعادته بفرنسية ممتازة. إنه متأكد من كونه الرئيس المقبل للجمهورية، كما هو متأكد من حصوله على أغلبية ساحقة في مجلسي الشيوخ والنواب، أي على السلطة المطلقة. لا يقول ذلك صراحة، بالطبع، لكن لا حاجة إلى الكلمات كي تعبر عن هذا اليقين الذي أصبح ملموسًا، لشدة وضوحه.

بور أو برنس ـ الاثنين ٢٨ حزيران/يونيو ١٩٩٩

مقابلة مع رئيس الجمهورية رينيه بريفال، الذي أُعلمه بآخر التحضيرات لقمة مونكتون. يعدني بالحضور. يؤكد لي أن الانتخابات التشريعية سوف تجري في مواعيدها المقررة، على أن تكون الدورة الأولى في نهاية نوفمبر، والدورة الثانية في مطلع ديسمبر. ستقوم الفرنكفونية بتقديم المساعدة الانتخابية؛ لكي تُسهم في حسن سير هذه العملية.

محادثة مع رئيس الوزراء جاك إدوار ألكسيس. في أثناء انعقاد قمة هانوي عام ١٩٩٧، تقدمت هايتي رسميًا بترشيحها لاستضافة القمة في العام ٢٠٠١. بدوره دخل لبنان في المنافسة، ليحرز قصب السبق في النهاية، بدعم من الرئيس جاك شيراك. يعود رئيس الوزراء إلى هذا الملف. إن هايتي التي تحتفل في العام ٢٠٠٤ بالذكرى المئوية الثانية لاستقلالها، تقترح استضافة القمة الفرنكفونية التي ستنعقد عام ٢٠٠٣، كمقدمة لهذه الاحتفالات، أو قمة العام ٢٠٠٥، فتشكّل تتويجًا لها.

ألفت انتباهه إلى أن الشبكة الفندقية فى الجزيرة لا تتيح فى الوقت الحاضر إمكانية انعقاد اجتماع لرؤساء الدول. يؤكد لى أن الحكومة عازمة على تطوير القطاع السياحى، وبناء مجموعة من الفنادق الفخمة، أسوة بالجار الأقرب، جمهورية الدومينيكان، التى تستقبل سنويًا ما يزيد على مليونى سائح. كان بودى أن أقول له إنه طالما بقى الوضع السياسى غير مستقر، فلا أمل فى استقطاب المستثمرين او السائحين، لكنى أحجمتُ عن ذلك.

غداء فى سفارة فرنسا. على سيارتى التوقف عند نقطة الحرس. يطلب الحارس تسليمه كل الأسلحة التى بحوزتنا قبل دخول حرم السفارة، عندها أكتشف بذهول أن السائق يضع عند قدميه رشاشًا حربيًا، وأن الحارس الجالس بقربه بحوزته مسدسين. أود ألا أتخيّل الترسانة التى كانت تحملها سيارة الشرطة التى كانت تتبعنا والتى مُنعت بكل بساطة من الدخول إلى حديقة السفارة. كيف يمكن أن نتخيل مهرجانًا سياحيًا فى جو مماثل من انعدام الأمن، وبوجود أسلحة بهذه الكثافة؟

لا يخفى السفراء الفرنكفونيون المجتمعون حول الطاولة تشاؤمهم، ويرون أن الوضع الاقتصادى أكثر سوءًا من الوضع السياسى. كما يشككون كثيرًا فى إمكانية إجراء الانتخابات التشريعية فى مواعيدها المقررة.

تبيّن المحادثة التى أُجريها بعد الظهر مع أعضاء المجلس المؤقت للإشراف على الانتخابات، أن السفراء على ما يبدو كانوا على حق. أستغرب كيف أن أعضاء المجلس لم ينجزوا أى شىء من أجل إصدار البطاقات الانتخابية. يحدّثونى عن آلات متطورة جدًا ينوون توزيعها فى كل أنحاء البلاد يمكنها طباعة بطاقات تتضمّن صورًا فوتوغرافية. أسألهم إن كان لديهم المال الكافى للحصول على هذه الآلات، وإن كان هناك احتمال انقطاع للتيار الكهربائى فى القرى النائية، وإذا كان لديهم تقنيون جاهزون للتدخل فى حال تعطّلت هذه الآلات البالغة الحساسية. أقترح عليهم اعتماد وسائل أقل كلفة وأكثر أمانًا. لكن لا يبدو أن اقتراحى قد أعجبهم. مع ذلك، أصرّ وأقترح عليهم قبول مساعدة الفرنكفونية، إن فى المرحلة التحضيرية للانتخابات، أو فى أثناء سير العملية الانتخابية. لكن يبدو أنهم مهتمون بآلاتهم، أكثر من اهتمامهم بوجود مراقبين من قبل الفرنكفونية.

بور أو برانس ـ الثلاثاء ٢٩ حزيران/يونيو ١٩٩٩

أزور المكتب التابع للوكالة الجامعية للفرنكفونية، والذى يديره بول فارماند، أحد المدافعين الشرسين عن الفرنكفونية. الفرنسية هنا فى تراجع مستمر. فهى «محشورة» بين اللغة الكريولية التى تنطق بها الغالبية العظمى من السكان، والإنجليزية التى تنتشر أكثر فأكثر، مما يجعلها لغة «مهمّشة»، يُقتصر استعمالها على البورجوازية الراقية.

فى «ليسيه ماري ـ جانّ» فى بور ـ أو ـ برانس ألتقى بنات هذه البورجوازية، فى غرفة كبيرة غير مبرّدة، تم تحويلها كيفما تيسّر إلى قاعة محاضرات. الحرارة خانقة. رقصات، أغانى، خطابات، توزيع جوائز. يا للمفاجأة: تُهدى كل واحدة من هؤلاء الطالبات قاموسًا للفرنكفونية! وحين أشير إلى بول فارماند بأنه كان بإمكانه أن يجد هدية تشجّع الطالبات أكثر، يكتفى بالإجابة بشىء من الاستسلام الظاهر:

«هذا كل ما تمكنّا من إيجاده فى مخازننا».

حديث إلى رئيسة الجمعية الهايتية للشبيبة الفرنكفونية، التى أُنشئت إثر التجمع الكبير الذى نُظّم فى جنيف فى ٢٠ مارس الفائت. لا تزال تنتظر مدّها بالإمكانيات التى تتيح لها مساعدة الهايتيين الشباب على الإفادة من التكنولوجيات الحديثة للإعلام والتواصل!

أغادر إلى نيويورك. يصر سفير إندونيسيا الذى ألتقيه فى المطار على معرفة انطباعاتى حول الوضع فى هايتى. لا أقول له إلى أى حد أحزنتنى هذه الزيارة. هايتى التى تعاقب عليها الطغاة واستغلّوا بؤس الشعب، و«تونتون ماكوت» الذين زرعوا الرعب فى قلوب الناس، وجماعة «الفودو» الذين أخضعوا أرواح أهلها، هايتى تلك، هى اليوم أكثر فقرًا، وأكثر يأسًا مما كانت عليه لبضع سنوات خلت. وجلّ ما أخشاه هو أن تضيع كل الجهود التى يبذلها المجتمع الدولى، ومنظمة الدول الأمريكية، والفرنكفونية أو الأمم المتحدة، وأن ينحصر التغيير يومًا من الاستعاضة عن «بابا دوك» بـ«بابا أريستيد».

أوتاوا ـ الاثنين ٥ تموز/يوليو ١٩٩٩

ألتقي رئيس الوزراء جان كريتيان، الذي يغمرني بالود، كما هو حاله دومًا تجاهي. ألتقي في مكتبه السفير كلود لافيردور ممثله الشخصي في المجلس الدائم للفرنكفونية، وديان مارلو، وبرنار لورد رئيس وزراء برونسويك الجديدة، وهو شاب في مقتبل العمر، طويل القامة، نحيل، تشعّ نظرته بالذكاء، ولا تتواءم طلته الفتية مع أهمية مسؤولياته. يبدو عليه الارتباك. ومن المحتمل أنها المرة الأولى التي يلتقي فيها جان كريتيان.

نتناول بالبحث التحضير لقمة مونكتون. يقول لي رئيس الوزراء:

«هناك حوالي عشرين رئيس دولة وحكومة أكّدوا مشاركتهم في القمة. والبقية تأتي». أقدّم تقريرًا حول الأوضاع السياسية في توغو، والنيجر، وغينيا ـ بيسّاو، وجمهورية الكونغو الديمقراطية، وهايتي. يهتم جان كريتيان بصورة خاصة بالوضع في هايتي؛ أولاً لأن هناك جالية هايتية مهمة في مونتريال، وثانيًا لأن هايتي هي البلد الوحيد الفرنكفوني في المحيط الأمريكي.

يقترح أن نتابع هذه المحادثة بيني وبينه. ينسحب معاونونا. حين نصبح لوحدنا، أسلّمه نسخة من كتابي «رجل لا يقهر». من دون مواربة، يفتش رئيس الوزراء عن اسمه في «فهرس الأعلام»، فيجد أنه قد ذُكر ثلاث مرات. يبادر إلى القول:

«إن في نيتي أخذ عطلة لمدة أسبوع. هكذا سوف تتاح لي الفرصة لكي أقرأ كتابك بمتعة واهتمام... لقد عشنا معًا أوقاتًا صعبة حين حاولنا إيجاد حل لمشاكل اللاجئين «الهوتو» في مخيمات غوما. يطيب لي التفكير أن عملنا ساعد في عودة الغالبية العظمى من اللاجئين إلى وطنهم وقراهم». ثم يضيف، دون أن يتوقف:

«آمل في أن تترشّح لولاية جديدة».

أجيب بـ «نعم» ملتبسة. في الواقع لم أتخذ قراري بعد. تستهويني العودة إلى مصر ومعاودة نشاطاتي السياسية، حتى ولو لم أكن في واجهة القرار. من جهة أخرى، يستهويني بنفس القدر البقاء في باريس لأربع سنوات إضافية، مع فكرة

تدعيم الفرنكفونية. يتأرجح قلبى ما بين الاحتمالين. ولن أنسى كذلك أن عدد الأقمار يتضاءل تدريجيًا...

أتحادث بعدها إلى ديان مارلو، ثم إلى وزير الخارجية لويد أكسورثى، الذى يفضّل التكلم بالإنجليزية. يتطلّع إلى مفهوم جديد، «الأمن الإنسانى»، وقد طرحه على بساط التفكير والتدقيق مع عدة منظمات دولية، من بينها مجموعة الدول الثمانى الصناعية الكبرى، والكومنولث. يأمل أن تقوم الفرنكفونية بدراسته بدورها.

إنى مؤيد لنوع جديد من حقوق الإنسان، «الجيل الثالث» لحقوق الإنسان. لأنه، فى مواجهة العولمة المتوحشة، أصبح من الضرورى قطعًا حماية النساء والرجال الأكثر فقراً، هؤلاء المتروكين لقمة سائغة لاقتصاد السوق. مع ذلك، يجب الاعتراف بأنه يُخشى مع تعدد القوانين التى تتقاطع أحيانًا كثيرة، أن ينشأ نوع من الضبابية يقود إلى التفسيرات الأكثر خبثًا.

(بعد الظهر ...) استكشاف على متن طائرة مروحية للمواقع التى ستجرى عليها ألعاب الفرنكفونية فى العام ٢٠٠١، بعضها فى أوتاوا، والبعض الآخر فى هول الواقعة فى منطقة كيبيك. أوتاوا-هول هى فى الظاهر مدينة واحدة، لكن الأمر يختلف سياسيًا.

عشاء فى السفارة المصرية، حيث ألتقى النواب الخمسة الذين يؤلفون البعثة المصرية المشاركة فى الدورة الخامسة والعشرين للجمعية البرلمانية الفرنكفونية. ثلاثة من بينهم لا يتكلمون سوى العربية. أبدى استغرابى لدى سفير مصر حمدى ندا:

«لماذا أتوا لحضور هذا الاجتماع هنا فى أوتاوا، إذا كانوا لا يتكلمون الفرنسية، ولا حتى الإنجليزية؟» يهمس السفير فى أذنى:

«طرحتُ السؤال نفسه على رئيس البعثة، فأجابنى أن مجلس الشعب اعتمد نظام التناوب، لكى يتسنّى لكل نائب أن يقوم على الأقل برحلة إلى الخارج فى أثناء ولايته. ولو كنا نريد حصر هذا الامتياز فى النواب الذين يتكلمون لغة أجنبية فقط،

فإن «المختارين» سوف يكونون قلة ضئيلة. ولسوف يؤدى ذلك إلى إغضاب الأكثرية الساحقة من النواب».

ينحشر النواب الثلاثة الذين لا يتكلمون سوى العربية، وهم متحدرون من أقاصى الصعيد، فى زاوية صغيرة، لعدم تمكنهم من التحادث إلى الشخصيات الفرنكفونية والأنغلوفونية التى غصّت بها قاعة الاستقبال فى السفارة. أقترب من «النواب» الثلاثة، وأحادثهم بلهجة مداعبة:

«هل تعرفون النكتة الأخيرة حول أهل الصعيد، والتى أضحكت الرئيس مبارك كثيراً؟» (يجب لفت الانتباه إلى أن معظم القصص المضحكة فى مصر أبطالها من أهل الصعيد الذين يظهرون فى دور البسيط المغفّل)

يُبدى رفاقى الثلاثة فضولاً مقروناً بالانشراح، لسعادتهم بالخروج من عزلتهم. أروى لهم الحكاية:

«طلبت بعثة من أهل الصعيد لقاء الرئيس مبارك. يشتكون لديه السخرية الدائمة التى يتعرّضون لها، ويرجونه أن يقوم بخطوة علنية تعيد لهم كرامتهم. إذ ذاك يقترح الرئيس مبارك أن يخضع رئيس البعثة «أبو سعود» لامتحان بسيط من المؤكد أنه سينجح فيه، مما يتيح إعادة الاعتبار لهم. يقبل أهل الصعيد خاطر اقتراح الرئيس، الذى يطرح السؤال الأول: «كم يساوى خمسة زائد سبعة؟». يأخذ رئيس البعثة وقته فى التفكير قبل أن يجيب باعتزاز: «عشرة». وعندما رأوا الخيبة ترتسم على وجه الرئيس، صاحوا بصوت واحد: «أعطه فرصة ثانية!». يتابع الرئيس: «كم يساوى سبعة زائد سبعة؟». يجيب أبو سعود مجدداً: «عشرة». تبدو على الرئيس علامات الغيظ المتزايدة. لكن أهل الصعيد يصرّون: «أعطه أيضاً فرصة أخرى!». ولما كان الرئيس مستعجلاً لإنهاء هذه القضية، يأخذ أبو سعود على انفراد ويقول له: «يبدو أنك تحب كثيراً الرقم عشرة. سوف أسألك كم يساوى خمسة زائد خمسة، فتجيب: عشرة». - «كم يساوى خمسة زائد خمسة؟». يجيب أبو سعود بلهجة المنتصر: «عشرة». فما كان من مواطنيه إلا أنّ صاحوا: «أعطه أيضاً فرصة أخرى!».

يضحك النواب الثلاثة بكل طيبة. نلتقى فى اليوم التالى فى مجلس العموم.

أوتاوا ـ الأربعاء ٧ تموز/يوليو ١٩٩٩

جلسة احتفالية فى مجلس العموم، لافتتاح الدورة الخامسة والعشرين لجمعية البرلمانيين الفرنكفونيين، بحضور رئيس الوزراء جان كريتيان، ورئيس الجمعية الوطنية الفرنسية لوران فابيوس، ورئيسى مجلس الشيوخ ومجلس العموم الكنديين جيلداس مولغا وجيلبير باران، ورئيس جمعية البرلمانيين الفرنكفونيين السناتور جان ـ روبير غوتييه.

فى الوقت الذى أدخل فيه إلى القاعة، يقف النواب الثلاثة الذين اتخذوا مكانهم بين البرلمانيين، وينشدون بصوت واحد، وبالعربية: «أعطه أيضًا فرصة أخرى!». يُصاب عناصر فريق الأمن بالذهول، ويسألونى فى الحال: «صاحب السعادة، هل لديك أى مشكلة؟». فأجيب مطَمئنًا: «كلا، كلا، كل شىء على ما يرام. إنهم مواطنىّ يهتفون لى ...».

باريس، الجزائر العاصمة ـ الأحد ١١ تموز/يوليو ١٩٩٩

أسافر إلى الجزائر حيث علىّ أن أحضر قمة منظمة الوحدة الإفريقية. عند الوصول، هناك حشد أمام الجمارك. يُطلب إلىّ الجلوس فى قاعة انتظار صغيرة، ريثما أتسلّم حقائبى، ويستعيد ضابط الأمن المكلّف بحراستى سلاحه.

يرافقنى لياشى ياكر، وهو وزير سابق فى عهد الرئيس الجزائرى بومدين، إلى الفندق وهو مبنى جديد شُيّد على شاطىء البحر. نُصبت خيم كبيرة على الرمل لاستقبال رؤساء الدول والحكومات. فى الوقت الحاضر، نراهم يتنزهون على الشاطىء مستسلمين لشعور باللامبالاة، يلتقون مصادفة، يتوقفون، يتبادلون التحية، ويتبادلون بضع كلمات، قبل أن يُكملوا نزهتهم. ألمحُ الرئيس بوتفليقة. نتعانق. كوفى أنان هنا ايضًا، وقد خلع سترته، وشبك يده بيد زوجته، على طريقة بيل وهيلارى كلينتون. ربما يكون مستشاروهما اللذين هما على تواصل بينهما قد

أقنعوهما بأن إبراز صورة «الزوجين» فى تناغم وانسجام، يُسهم فى مضاعفة شعبيتهما.

يطول هبوط الليل فى تموز، ويبدو أن فترة الغسق هذه تستهوى رؤساء الدول، فيستمتعون بها حتى رمقها الأخير. أفيد من ذلك لأصافح أكبر عدد ممكن من الأشخاص المهمّين، ولأحمل عاليًا لواء الفرنكفونية.

أتناول العشاء برفقة مجموعة مصرية فاعلة: إبراهيم نافع رئيس تحرير «الأهرام» - وهى تطبع مليون نسخة من جريدة الأهرام اليومية، بالإضافة إلى نصف دستة من المجلات -، ومحفوظ الأنصارى مدير وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية، وعمرو موسى وزير الخارجية. هنا أيضًا على تريكى مستشار العقيد القذافى لشؤون إفريقيا، ووزير خارجية بوركينا فاسو يوسف أوادراوغو. نمضى سهرة من أكثر السهرات لطافة ومرحًا. ترن الضحكات من كل صوب. نمرح مثل التلامذة. يقبل على تريكى بطيبة خاطر بأن يكون هدفًا لدعاباتنا.

الجزائر العاصمة - الاثنين ١٢ تموز/يوليو ١٩٩٩

جلسة افتتاح احتفالية لقمة رؤساء دول وحكومات منظمة الوحدة الإفريقية، والتى تشارك فيها الفرنكفونية للمرة الأولى. آخذ مكانى إلى جانب مراقبى المنظمات الدولية. أجلس بقرب الأمين العام للكومنولث، شيف إيميكا أنياوكو. يلقى الرئيس عبد العزيز بوتفليقة خطابًا رائعًا، بلغة عربية فصحى يتقنها تمامًا، بعكس بعض القادة الجزائريين الآخرين الذين يطعّمون هذه اللغة بتراكيب فرنسية. ثم يرتجل بالفرنسية، وسط الارتياح الكبير للفرنكفونيين الذين يبلغون أكثر من نصف الدول الأعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية.

أعزف عن المشاركة فى العشاء الرسمى الذى سيبدأ عند العاشرة ليلاً وينتهى فى ساعة متأخرة. علينا أن نعرف كيف نراعى صحتنا...

الجزائر العاصمة - باريس - الثلاثاء ١٣ تموز/يوليو ١٩٩٩

فى الطائرة التى تقلّنى إلى باريس، ألتقى لانسانا كوياتى وجاك ضيوف، المدير

العام لمنظمة الأغذية والزراعة، والرئيس إيميكا أناياوكو، وكل الذين أتوا مثلى إلى الجزائر بصفة تمثيلية. هذه الصفة وجه مهم للدبلوماسية يجب أن نعرف كيف لا نهمله.

باريس - الأربعاء ١٤ تموز/يوليو ١٩٩٩

هذا الصباح، أحضر بصفتى التمثيلية أيضًا، استعراض الرابع عشر من يوليو، إلى جانب سفيرة فلسطين فى باريس، الشخصية اللطيفة والمناضلة، ليلى شهيد.

(بعد الظهر ...) أغادر إلى لندن برفقة كلود بوشيه. يأتى نائل الأسعد لاستقبالى فى محطة القطار، ونتناول العشاء معًا. يود هذا اللبنانى الشيعى الذى يعرف إفريقيا جيدًا، أن يلعب دورًا فى الفرنكفونية، وبالأخص فى إطار قمة بيروت.

لندن - الخميس ١٥ تموز/يوليو ١٩٩٩

توقيع اتفاق تعاون بين المنظمة الدولية للفرنكفونية والكومنولث.

مقر الكومنولث - مارلبوروغ هاوس - هو قصر حقيقى، يضاهى قصر الإليزيه أو قصر ماتينيون فى باريس. وبالمقارنة، تبدو الأماكن التى تشغلها الفرنكفونية وكأنها أكواخ. يلى حفل التوقيع غداء فى غرفة طعام فخمة، حيث يبدو ظاهراً للعيان بذخ يليق ببلاط الأمراء.

بعد الظهر، حفلة لترويج كتابى «رجل لا يُقهر»، فى مكتبة بوردر، فى لندن. يحضر جمهور من الشباب مثير للاهتمام ومهتم. أوقّع حوالى مائة نسخة، وهو عدد مفروض من صاحب المكتبة، الذى بدا لى راضيًا عن أدائى وكذلك الناشر.

أعود إلى باريس عند منتصف الليل، وأنا أهجس بمظاهر البذخ فى مارلبورغ هاوس. لم يكن بوسعى الحصول من الحكومة الفرنسية على مكاتب للفرنكفونية مماثلة، فالأمر بعيد المنال. وأخشى إن أردتُ الاستمرار فى إقامة المقارنات، أن أفقد حماسى للفرنكفونية.

باريس ـ الأحد ١٨ تموز/يوليو ١٩٩٩

أقوم، ولمدة سبع ساعات، بتسجيل برنامج لقناة أوربت العربية، ثلاث ساعات فى الصباح، وأربع ساعات بعد الظهر، يفصل بينها غداء سريع.

قصة حياتى، طفولتى، دراستى فى القاهرة وباريس، مرحلة التدريس الجامعى، ذهابى مع الرئيس السادات إلى القدس، انتخابى فى الأمم المتحدة، رحيلى عن نيويورك، وأخيراً الفرنكفونية. يحلو للصحافى، الطويل القامة والمتسلّط حمدى قنديل، أن يلعب دور كبار المحققين. أقوم بتحجيمه أكثر من مرة، فلا يبالى، ويكتفى بابتسامة هادئة، قبل أن يعاود، وبصوته العذب ذاته، طرح الأسئلة المتحدية.

بيلاجيو ـ الأربعاء ٢١ تموز/يوليو ١٩٩٩

وعدتُ ليا بأن نأخذ عطلة لمدة أسبوعين. اخترنا بيلاّجيو فى إيطاليا، على ضفاف بحيرة كوم. فندق قديم، تذكّر أجواؤه بزمن ولّى. عشاء على أنغام أوركسترا تلعب ألحانًا تعود إلى الخمسينيات، فيما تتولّى خدمتنا على المائدة «كتيبة» من موظفى الفندق يتحلّق أفرادها حول طاولتنا، وهم يتكلمون الفرنسية باعتزاز.

حوض السباحة فى الهواء الطلق ليس دافئًا. المنظر فردوسى، لكن الضجر سرعان ما يتسلّل إلى شقتنا، وإلى نفوسنا.

بيلاجيو ـ الجمعة ٢٣ تموز/يوليو ١٩٩٩

وجدتُ علاجًا لضجرى. ينتابنى ألم أسنان شديد، بعد حادثة ألم «طاقم الأسنان» المعهودة. فى أثناء العشاء، وفى لحظة مثلى حيث الأوركسترا تنتهى من عزف مقطوعة موسيقية، تسقط أسنانى فى الصحن. أنا متأكد من أن الضجة التى تحدثها لن تمر دون أن تلفت الانتباه. يخطر فى بالى، للحظة سريعة مشحونة بالغضب، طبيب الأسنان الكمبودى، الذى يبدو جليًا أنه لم يقم بعمله جيداً منذ بضعة أشهر، فى بنوم بن. فى القرية التى نحن فيها، لا يفتح طبيب الأسنان

عيادته، إلا ثلاث مرات فى الأسبوع. أطلب من مدير الفندق أن يتدخل لديه لكى يستقبلنى استثنائيًا فى صباح الغد.

هذا المساء، علمتُ بوفاة ملك المغرب الحسن الثانى. إنه من أحد أكبر وجوه العالم العربى. ملك أصيل، وأنيق، يتمتع بذكاء وسحر رهيبين. «قبضة حديدية، فى قفاز مخملى».

شخصية مرهفة الحس، قوية الحدْس، تسنّى لى تلمّس أبعادها فى المحادثات التى جمعتنا، خصوصًا فيما يخص ملف الصحراء. يجب الاعتراف بأن ما شدّنى إليه أكثر هو دقة تحليلاته، وبالأخص، مقدرته الفائقة على استكشاف الخلفيات الذهنية لمحدثه، والتى كان يقدم الجواب عليها قبل أن يقوم هذا الأخير بالإفصاح عنها. كانت محادثاتنا تجرى بالعربية أو بالفرنسية، لا فرق. علمًا بأن اللهجة المغربية التى كان يستعملها لم تكن دائمًا مفهومة منى، أنا المصرى. كان يكفى فى هذه الحال أن أكمل المحادثة بالفرنسية حتى ينتقل هو بدوره إلى استعمال هذه اللغة.

شخصية جذّابة. كان ينتقل من الدعابة إلى الجدّ، آتيًا غالبًا على ذكر الله، مذكّرًا بذلك أنه عاهل علوى، يتحدر مباشرة من سلالة الرسول.

تعود بى الذاكرة إلى عشاء رسمى فى القصر. فكما يحدث غالبًا فى مثل هذه المناسبات الرسمية والبروتوكولية، ساد صمت بارد وثقيل. وفى محاولة لإدخال بعض الارتياح إلى الجو توجّهتُ إلى الملك الحسن الثانى بالكلام لألفت انتباهه إلى أن لائحة الطعام تذكر نوعين من التحلية، ولكن لا شىء يدل على وجوب اختيار واحدة منهما. أجابنى، مشاركًا فى لعبتى: «حضرة الوزير، لقد أظهرتَ عنادًا فى التفاوض، وكعقاب لك أنتَ مُلزم بتناول كلا النوعين».

نادرًا ما كان العاهل يكشف عن الإنسان الذى فى داخله، باستثناء ما كان يحصل ربما فى أثناء مقابلاته التى كانت تتم فى أغلب الأحيان بحضور ولديه حيث كان يردد فى كل مفصل من حديثه العبارة التالية: «باسم أغلى شيئين لدى فى العالم»، ويشير بحركة عطوف إلى الشابين اللذين جلسا عن يمينه وعن يساره.

فى المقابل، كنتُ على معرفة بذوقه الخاص ـ المشابه لذوقى ـ الذى يميل إلى البذلات الجيدة التفصيل، والتى كان يوصى عليها لدى فرانشيسكو سمالتو. كنا نراقب بعضنا خلسة ويتفحّص واحدنا ثوب الآخر من طرف العين، ولكننا لم نتكلم عن هذا الموضوع قط. إنه أمر تافه، جدّ اعتيادى...

آخر ما أذكره كان عام ١٩٩٥، بمناسبة الذكرى الخمسين للأمم المتحدة. كان الحسن الثانى قد أُصيب بالمرض، واضطر للخضوع للمعالجة فى أثناء إقامته فى نيويورك. ذهبتُ إلى الفندق بعد خروجه من المستشفى. وجدتُ أمامى رجلاً مرهقًا ومنهكًا. ولكنى حين أثرتُ ملف الصحراء، دبّت فيه الحيوية، ناسيًا فجأة مرضه، ومستعيدًا كامل صفاء ذهنه وروحه السياسية القتالية.

بيلاجيو ـ السبت ٢٤ تموز/يوليو ١٩٩٩

يفحصنى طبيب أسنان القرية. يُثبت ما أمكن أسنانى الثلاثة المصابة بالخلل، ويصف لى مضادًا حيويًا. يحذّرنى بشكل قاطع من ركوب الطائرة فى الوقت الحاضر.

أمتنع بكل أسف عن حضور مراسم دفن ملك المغرب.

بيلاجيو ـ باريس ـ الخميس ٢٩ تموز/يوليو ١٩٩٩

أتمكّن من السيطرة على ألم أسنانى. يبقى الآن أن أستبدل الأسنان التى أعادها طبيب القرية بصورة مؤقتة إلى مكانها. نغادر هذه الجنة التى عفا عليها الزمن بغير أسف، على الرغم من المنظر المذهل، وطراوة المناخ، والنزهات الطويلة على شاطىء البحيرة، والأوركسترا وأنغامها القديمة، وعلى الرغم من هذا الجو الذى يذكر بفترة انحطاط إمبراطورية، ونهاية حقبة، أو بالأحرى بتلك الأيام الفريدة التى تسبق انقلابًا كبيرًا، أو ثورة.

الانقلاب الكبير، هو باريس التى تستعد لاستقبال شهر أغسطس.

باريس ـ الجمعة ٣٠ تموز/يوليو ١٩٩٩

إنه لعمل بطولى ان تجد طبيب أسنان يعمل فى باريس نهار ٣٠ يوليو!

هونفلور ـ السبت ٧ آب/أغسطس ١٩٩٩

أنا فى هونفلور لأحضر افتتاح معرض عمر المجدى، بدعوة من راعية أعماله فرانسين هاينريش، التى كانت تمثّل اللجنة الأوربية فى القاهرة، بكثير من الكفاءة والدينامية.

إنها مناسبة لكى أكتشف هذه المدينة الصغيرة الرائعة، وأكتشف فى الوقت عينه رسومات عمر المجدى، وهو قيمة أكيدة للفن المصرى المعاصر، يستوحى أعماله من مصر العليا، ومن الحكايات الشرقية، ومن «صور الفيوم». خلاصة متناغمة تجمع ما بين صور الحياة اليومية لمصر المعاصرة، والتراث الفرعونى. يشرح لى أنه بعد أن استخدم لفترة طويلة الألوان الحمراء والزرقاء، التى هى مزيج من الألوان الدافئة والباردة، يلجأ الآن إلى الورق المذهّب. هذا الحضور الغريب وغير المألوف لمصر فى هونفلور يغمرنى بالفرح.

فى الكتيّب الذى وُزّع عن المعرض، تبرز جملة صغيرة لشاعرنا الكبير المتنبى، الذى كنتُ أحفظ أشعاره فى المدرسة، وكان علىّ أن أعرف كيف أحللها. هذه الجملة تقول: «بالإبداع نقضى على الموت».

لقد مرّ أكثر من نصف قرن على ذلك. كنا آنذاك نحلل دون أن نفهم. اليوم، نحن نفهم ولكننا لم نعد نريد أن نحلل.

باريس ـ الثلاثاء ١٠ آب/أغسطس ١٩٩٩

جلسة عمل طويلة مع أنياس فونتين. أعمال ترجمة كتاب «سنواتى فى البيت الزجاجى» تتقدم. ستتضمّن الطبعة الفرنسية الفصلين المخصصين لنشاط الأمم المتحدة فى موزمبيق والسلفادور، وكان همّ الربح قد دفع الناشر الأمريكى إلى

حذفهما . استناداً للحسابات التى نُفذت على الحاسوب ، فإن ما يمثله سعر المبيع بالنسبة إلى عدد النسخ المباعة ولتكلفة الطباعة ، هو الذى حدّد عدد صفحات الكتاب لكى يضمن هامش الربح للناشر . وقد انصعتُ مكرهًا لقاعدة السوق . سوف أتمكّن الآن من استعادة الفصلين .

باريس ـ الأربعاء ١١ آب/أغسطس ١٩٩٩

يخبرنى على التريكى بأن الرئيس الليبى معمر القذافى يود لقائى على عجل ليستشيرنى فى مشاكل إفريقية . وستوضع طائرة خاصة تحت تصرفى .

باريس ـ الجمعة ١٣ آب/أغسطس ١٩٩٩

أدخل مستشفى فال ـ دو ـ غراس ليوم واحد من أجل إجراء فحص عام . صورة سكانر ، فحص دم ، تصوير شعاعى . يكتشف الأطباء ورمًا لمفاويًا درجة أولى وغير متطور . يريدون أن يطمئنونى . لا يحتاج هذا الورم إلى أى علاج إذا لم تظهر علامات تطوره . يجب عليهم بكل الأحوال أخذ عينة من جسمى لتحليلها ، قبل أن يؤكدوا تشخيصهم .

أتصل هاتفيًا بعلى التريكى وأطلب إليه إبلاغ اعتذارى للعقيد القذافى ؛ لأنى مضطر لإرجاء الزيارة لدواعٍ صحية .

باريس ـ الاثنين ١٦ آب/أغسطس ١٩٩٩

كان ذلك فى منتصف أغسطس عام ١٩٤٩ على ما أعتقد ، حين قطعتُ عطلتى الصيفية لأسافر على عجل إلى باريس ، لكى أرى ، وألمس ، وأتحسس بلطف أطروحتى للدكتوراه ـ «مساهمة فى دراسة الاتفاقات الإقليمية» ـ التى طُبعت ونُشرت فى دار «بيدون» (الكائن فى المبنى ١٣ من شارع سوفلو) .

لن أنسى أبدًا شعور الفرح العارم والاعتزاز الذى خالجنى لدى رؤيتى «الكتابى الأول» ، وقراءتى مجددًا للمقدمة التقريظية التى كتبها أستاذى شارل روسّو .

لقد مرّ خمسون عامًا. وأنا ما زلتُ اليوم أتصفّح بعض المقاطع بنفس المتعة. أتراه اهتمام مبالَغ بالذات؟ لا أظن ذلك. إنه بالأحرى هذا الشعور بالارتياح بأن أقول لنفسي إني تمكّنتُ أن أجسّد في الواقع الدولي، الأفكار التي بلورتها حين كنتُ طالبًا شابًا. نادرًا ما يُتاح لطالب جامعي أن يختبر على أرض الواقع الأفكار والمفاهيم الأثيرة لديه.

إنها بالضبط الفرصة التي أُتيحت لي؛ لأني في «الخطة للسلام» التي قدّمتها إلى مجلس الأمن وإلى الجمعية العمومية إلى الأمم المتحدة في يونيو ١٩٩٢، رجعتُ إلى الفكرة القائلة إن للاتفاقات الإقليمية دورًا مهمًا تلعبه في نظام الأمم المتحدة. هذه الفكرة وُضعت في الحال موضع التنفيذ: في أثناء ولايتي، وللمرة الأولى، انطلقت عمليات لحفظ السلام، بالتعاون مع منظمات إقليمية. ولقد التقيت مرتين ممثلي هذه الهيئات في الأمم المتحدة، وهو أسلوب مجدِّد حافظ عليه من أتى بعدي.

يجب أن أقرّ، بالمقابل، أن بعض القناعات والطموحات التي عبّرتُ عنها عام ١٩٤٩ بقيت للأسف في خانة التنظير. فلقد كنتُ حينها على قناعة بأن «الاتفاق الإقليمي قد يكون مرحلة للوصول إلى الحكومة العالمية»، وذهب بي الأمر إلى حد اقتراح إنشاء جهاز جديد داخل الأمم المتحدة، «يُطلق عليه اسم مجلس المنظمات الإقليمية، ويكون هدفه تشكيل هيئات إقليمية في كافة أنحاء العالم». ما حصل هو أن الواقع الذي كنت أشكو منه ازداد تجذرًا، مما حدا بي لأن أكتب في خاتمة كتاب آخر: «هل هو عجز المنظمة الدولية (منظمة الأمم المتحدة) الذي يشرّع قيام تحالفات وتحالفات مضادة، تتصرف على غرار كبار الإقطاعيين أو المماليك، الذين يقدمون ولاءً شكليًا للحاكم، بينما يحتفظون بالسلطة العسكرية الفعلية بين أيديهم».

مونكتون ـ السبت ٢٨ آب/أغسطس ١٩٩٩

نقيم منذ مساء أمس في فندق بوسيجور، في الغرفة نفسها التي نزلت فيها خلال زيارتي السابقة، قبل عام. استقبال الكنديين الحار ينسينا عناء السفر.

ألتقي رئيس وزراء برونسويك الجديد، برنار لورد، الفتي والحديث العهد في

منصبه . من المؤكد أن طلته الشبابية تُكسبه مودة الآخرين . يتكلم الفرنسية والإنجليزية بالسهولة نفسها . وعلى الرغم من أن الخبرة تنقصه ، فهو يثبت بشكل كامل أنه على مستوى الدور المهم الذى سيقع على عاتقه خلال القمة .

غداً صباحًا تبدأ الاجتماعات على مستوى ممثلى رؤساء الدول والحكومات ، أولاً ، ثم على مستوى وزراء الخارجية . ليس فى جدول الأعمال أية نقطة مثيرة للجدل . فى المقابل ، أخبار الكواليس ، والأحاديث على انفراد تأخذ مداها . وعد الرئيس ميشال غيبو بتقديم استقالته هنا ، فى مونكتون ، على أثر نشر تقرير عن إدارته للوكالة الجامعية .

مونكتون، كيبيك ـ الخميس ٢ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

رحلة ذهاب وإياب إلى كيبيك لحضور الجمعية العمومية للوكالة الدولية لرؤساء البلديات الفرنكفونيين ، التى أنشأها جاك شيراك عندما كان رئيسًا لبلدية باريس ، والتى أصبحت منذ ذلك الحين ، أحد الوكالات فى الفرنكفونية .

إنه سحر كيبيك الخاص فى هذا النهار المشمس . تطل القلعة بجلال على نهر سان ـ لوران العريض الذى يتلألأ بالأنوار المختلفة . الحرس يسهرون مسمرين فى مواقعهم ، بستراتهم الحمراء وقلنسواتهم كأنهم فى انتظار عدو لن يأتى أبداً بعد اليوم . اللهم إلا إذا حصل اجتياح لغوى . عندها لن يكون بمقدور حراس القلعة المحاصرة إيقافه .

احتفال كبير بحضور حوالى مائة رئيس بلدية فرنكفونى جاءوا من كل القارات . إلى جانبى ، على المنصة ، رئيس بلدية باريس جان تيبيرى ، ورئيس بلدية كيبيك جان ـ بول لالييه ، وجاك شيراك ، الرئيس الفخرى للجمعية الدولية لرؤساء البلديات الفرنكفونيين .

عند نهاية الاحتفال ، نغادر سيراً على الأقدام فى موكب يمشى فى شوارع كيبيك حتى نصل إلى ساحة صغيرة سيدشنها جاك شيراك ، إنها ساحة الفرنكفونية . كل هذا فى حالة من الفوضى لا توصف . زحمة ناس ، تدافع ، مصورون ، رؤساء

بلديات، متسكعون: يحاول الحراس إبعاد الناس لفتح الطريق وللحفاظ على الأمن، ولو صوريًا.

لدى عودتى إلى مونكتون، أطلب مقابلة مع الرئيس اللبنانى، إميل لحود. غرفته تقع مقابل غرفتى. من الباب الذى يبقى مشرعًا على الرغم من أن اثنين من المخبرين السريين يسدانه، يمكن رؤية الرئيس، متخففًا من سترته، يتحدث إلى معاونيه. يوافق على مقابلتى فوراً، وألمح الرئيس من خلال أكتاف الحارسين الشرسين وهو يلبس سترته من جديد ليستقبلنى. محادثة غاية فى اللطف. إنه شخص بسيط ولطيف تعلو وجهه ابتسامة لا تفارقه. يقول لى:

«طلبت من معاونىّ أن يشاركوا فى كل النشاطات التى تنظم هنا، وأن يرصدوا كل شىء حتى أدق التفاصيل، وأن يدونوا ملاحظاتهم؛ كى نفيد منها من أجل أن تنجح قمة بيروت، فى ٢٠٠١.

ـ فى الحقيقة، يا سيدى الرئيس، إن للأشهر التى تسبق القمة أهمية تضاهى أهمية القمة نفسها. فهى فترة عمل دبلوماسى دؤوب من أجل الحصول على تأكيد من رؤساء الدول والحكومات لمشاركتهم الشخصية فى المؤتمر ولعدم إرسالهم إلى وزير أو إلى مبعوث خاص لكى يمثلهم. فنجاح تظاهرة كهذه يقاس أولاً بعدد رؤساء الدول الذين تتمكن من جمعهم. من أجل ذلك، ستحتاج إلى أن تبعث برسائل، وبمبعوثين، وإلى أن تسافر شخصيًا إلى إفريقيا؛ لأنك بذلك تصيب عصفورين بحجر واحد: تحصل على موافقة مبدئية يقولها لك بلسانه رئيس الدولة، وتستفيد من إقامتك لكى تلتقى الجالية اللبنانية المهمة والمهمشة، أحيانًا، والتى ستشعر بالدعم من خلال تحركك».

مونكتون ـ الجمعة ٣ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

الجلسة الافتتاحية للقمة الثامنة للفرنكفونية تُجرى فى ملعب ضخم حُوِّل للمناسبة إلى قاعة مؤتمرات فخمة. نأخذ ـ أنا وليا ـ مكاننا عند المدخل، إلى جانب جان كريتيان وزوجته، وبرنار لورد وزوجته، لاستقبال رؤساء الدول والحكومات الذين يدخلون وفق نظام بروتوكولى مضبوط بدقة.

على بعد بضعة أمتار فقط من المدخل، تحت حراسة أمنية مشددة، مجموعة من المتظاهرين الأفارقة يدعمهم مؤيدون كنديون يرفعون يافطات كبيرة ويهتفون: «كابيلا وبويويا وساسو، قتلة!».

سلسلة من الخطابات. يدعى كوفى أنان، بدوره إلى إلقاء كلمته. يتكلم بصوت خافت يكاد لا يسمع. تزعجنى الصورة التى يعطيها عن الأمم المتحدة: إن الخلف دائمًا على خطأ فى نظر السلف!

الشباب هم الذين يحركون المشاعر، حين يصعدون إلى المنصة ليقرأوا كل بدوره النص الذى أعدوه والذى يعبرون فيه بصدقٍ مؤثر عن تطلعاتهم وعن آمالهم التى يضعونها فى الفرنكفونية.

فى نهاية الاحتفال نلتقى على مائدة غداء أقمتها بصفتى أمينًا عامًا. إلى طاولتى، جاك شيراك، جان كريتيان، إميل لحود، وكوفى أنان الذى يشرح لنا أن التزامات مهمة تدعوه للعودة إلى نيويورك وأنه سيغادر عقب انتهاء الغداء.

يسأله الرئيس لحود بكل براءة إن كان يعرفنى. يجيب كوفى أنان بابتسامة مرحة: «لقد كان رئيسى فى الأمم المتحدة».

وبينما نحن نغادر القاعة، يوشوشنى رئيس بنين، ماتيو كيريكو، بمكر: «خلال احتفال هذا الصباح كنت نائمًا لكن خطابك أيقظنى».

نعود إلى فندق بوسيجور لنعقد فيه أول جلسة عمل. أقدم إلى رؤساء الدول والحكومات قائمة بنشاطات منظمتنا منذ هانوى.

يطلب رئيس جمهورية جيبوتى مقابلتى على عجل لمسألة مهمة. يقول لى: «فى كتابك عن الأمم المتحدة تكتب أن وزير خارجية جيبوتى قبل فى اللحظة الأخيرة أن يُعدّل الخطاب الذى كان ينبغى له أن يلقيه فى الجمعية العامة، وأن بلدى عزف عن دعم ترشيحك. لكن وزير خارجيتى لم يشارك فى الجمعية العامة، بل إن ممثلنا الدائم لدى الأمم المتحدة، هو الذى تكلم فى ذلك اليوم».

أعتذر للرئيس وأعده بتصحيح هذا الخطأ فى الطبعة المقبلة للكتاب. ثم أسأله: «ما هى المشكلة الطارئة التى أردت أن تقابلنى من أجلها؟».

يجيبنى بكل بساطة: «إنها بالذات التى ذكرتها لتوى».

يقام العشاء فى فندق على بعد حوالى خمسين كيلومتراً من مونكتون. أتشارك الطاولة مع جان كريتيان، وبرنار لورد، ولوسيان بوشار. المعارض لاستقلال الكيبيك، جان كريتيان، والمطالب باستقلال الكيبيك، لوسيان بوشار، يستعيدان ذكريات طفولتهما المشتركة. إنهما ينتميان إلى عائلة الكيبيك الفرنكفونية نفسها، ولديهما كثير من الأمور التى كان من المفروض أن تقرب بينهما، لكن السياسة هى قبل كل شىء مشروب روحى قوى يصعد بسهولة إلى رأسك ويجعلك أحياناً سريع الغضب، صعب المراس، وغير قادر على الإصغاء إلى الآخر وفهمه.

مونكتون، السبت ٤ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

إفطار مع رئيس جمهورية رومانيا، إميل كونستانتينيسكو. نتحدث فى كل شىء: باستثناء الفرنكفونية، ورومانيا. لن أفتح الملف الذى أعده معاونىّ. حديث شيق بين أستاذين جامعيين، عن عبء التاريخ. أتذكر بول فاليرى الذى يقول إن التاريخ مستشار سيىء، لأنه يغذى الحقد بين الأمم.

مونكتون، الأحد ٥ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

تنتهى أعمال القمة بخطاب رئيس البلد المضيف للقمة المقبلة، لبنان. يشكر الرئيس لحود رؤساء الدول والحكومات على اختيارهم لبيروت. يرفع صوته. لست أدرى إن كان ذلك سببه الحياء أم لينتشل رؤساء الدول من حالة الارتخاء التى أغرقتهم فيها هذه الاستفاضة الجماعية فى الكلام والتى لا يمكن تجنبها.

علينا الآن أن نخضع للتمرين التقليدى: المؤتمر الصحفى الختامى. جان كريتيان، جاك شيراك، لوسيان بوشار، برنار لورد، ماتيو كيريكو، وأنا، نتوجه سيراً على الأقدام إلى مسرح صغير فى الشارع الرئيسى حيث ينتظرنا الصحفيون.

إميل لحود رفض الانضمام إلينا على الرغم من أن صفته كرئيس للبلد المضيف للقمة المقبلة تفرض عليه المشاركة فى هذا المؤتمر الصحفى، وعلى الرغم من إلحاحنا جميعًا أيضًا. المجموعة التى تظاهرت هذا الصباح تأتى لتستقر أمام فندق بوسيجور ولا تكف عن إطلاق صرخات الاستهجان ضد بعض الرؤساء الأفارقة.

مؤتمر صحفى شائك. الجو «مكهرب». يشتكى الصحفيون من أن الأماكن التى خصصت لإقامتهم بعيدة عن وسط المدينة، ومن أنهم لم يستطيعوا الاحتكاك برؤساء الدول والحكومات. يوجه جورج غرو، الأمين العام لاتحاد الصحفيين الناطقين باللغة الفرنسية احتجاجًا إلى منظمى القمة، يقول فيه: «لم تعرف الصحافة قط قبل اليوم هذه الدرجة من سوء المعاملة. لم يتمكن الصحفيون من أن يقوموا بمهماتهم بالطريقة التى كانوا يتمنونها. ويضيف، من هذه الناحية، هذه القمة فشل ذريع».

يجاوب برنار لورد بنبرة هادئة ورصينة، أنه سيطلب تحقيقًا لمعرفة الأسباب الحقيقية لهذا الخلل الذى يوجه إليه اللوم عليه. يعتذر بأناقة ولباقة. بعد أن انتهى المؤتمر الصحفى يهمس لوسيان بوشار، وهو السياسى المتمرس، فى أذن زميله: «برافو ليس هناك جواب آخر».

أزور على التوالى رئيس التوغو غناسينغبى إياديما، ورئيس غينيا، لانسانا كونتى. مجرد زيارة مجاملة توفر للصحفيين الذين يواكبونهما مادة يغذون بها برامج التلفزيون الوطنى. على إثر كل مقابلة، تصاريح معهودة أمام عدسات آلات التصوير، تركز على أهمية اللقاء وأهمية الروابط بين الفرنكفونية والدولة التى أزور رئيسها. «ومع هذا فإننى لا أقلل مطلقًا من الأهمية الدبلوماسية لهذه اللقاءات الجانبية التى تجرى على هامش المؤتمرات الكبرى. وكثيرًا ما كنت أقول للدبلوماسيين الناشئين الذين يرافقونى إن اللقاء مع رئيس دولة فى أثناء مؤتمر دولى يعادل اللقاء معه فى أثناء زيارة نقوم بها لبلده، والفارق هو توفير الوقت والجهد. ففى الحالة الأولى أنت بحاجة إلى ساعة واحدة لترتيب اللقاء المنشود، أما فى الحالة الثانية فقد تحتاج شهرا كاملا؛ نظرًا لضرورة تبادل المراسلات والتحضير للرحلة فضلا عن الرحلة ذاتها.

(فى المساء. . .).

أُستقبل البروفسور وليم زارتمان، وهو أستاذ جامعى كرّس مؤلفات عديدة للمفاوضات الدبلوماسية وكلّفه الرئيس كليتنون بمهمة للمصالحة بين الرئيس ساسو ـ نغيسو وخصمه الرئيسين، برنارد كوليلا وباسكال لاسوبا. وقام بالرحلة من نيويورك إلى مونتكون خصيصًا للتشاور معى. واعترفت له بأنى لا أستطيع أن أزوده بمعلومات كثيرة. والتقيت السفير هنرى لوبيز عدة مرات من أجل ترتيب لقاء مع الرئيس ساسو ـ نغيسو، ولكن بدون طائل. وأبلغنى هنرى لوبيز أنى سأتسلم رسالة من الرئيس الذى أبدى أسفه لعدم تمكنه من مقابلتى.

وليم زارتمان يبدو يائسًا إلى حد ما. ليست فكرة التخلى عن مهمته بعيدة عن ذهنه. أقنعه بألا يفعل شيئًا مماثلاً على الرغم من الصعوبات. فقد انسحبت الفرنكفونية من هذه القضية على الرغم من أن الرئيس بونغو يشجعنا على المضى فى وساطتنا. من جهتى، إنى مقتنع بأن الرئيس الغابونى مخول أكثر من غيره للنجاح فى هذه المهمة؛ أولاً لأنه تزوج بابنة الرئيس ساسو ـ نغيسو، ثم لأن باسكال لاسوبا، الذى ينتمى إلى القبيلة التى ينتمى إليها الرئيس بونغو، وهو قريب له. هذه الروابط العائلية مع طرفى النزاع تمنحه أفضلية أكيدة على سائر الوسطاء المحتملين. لست أدرى إذا كان كل هذا من شأنه أن يطمئن زارتمان الذى يصغى إلىّ بانتباه، وفى يده كأس من الويسكى. سيُعلم الرئيس كارتر بمحادثتنا. تصرُّ عليه ليا لكى يبقى على العشاء. يطول بنا الحديث حتى وقت متأخر من السهرة. نعرض للصراع الإسرائيلى ـ الفلسطينى. وليم زارتمان يريد أن يحتفظ بتفاؤله. فيما يخصنى، أخشى كثيراً أنه سيلزمنا سنوات طويلة من الجهود والمتاعب قبل أن نتوصل إلى حل. بينما هو يستعد للمغادرة، أسأله كيف استطاع أن يتجاوز الحزام الأمنى الكبير الذى يحوِّل الفندق بل المدينة بأكملها إلى حصنٍ منيع. يلفت انتباهى بابتسامة معبرة، إلى أن الجواز الأمريكى يبقى أفضل إذن للعبور، حتى على أرضٍ فرنكفونية.

باريس، الجمعة ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

حديث شيق إلى نبيل خورى أحد أهم الصحفيين والذى يملك شبكة علاقات مهمة مع كبار المسؤولين فى العالم العربى. قمنا معًا، منذ ما يناهز الثلاثين عامًا بمهمة استطلاعية فى ألمانيا لحساب الجامعة العربية. كان يرافقنا «إخصائى أمريكى» مكلف من قبل الجامعة العربية بأن ينظم لنا لقاءات مع الصحافة. جبنا البلاد طولاً وعرضًا، عاقدين الاجتماعات فى غرف التحرير فى فرانكفورت، وكولونيا، وهامبورج، وبرلين. موضوع وحيد كان محور هذه الاجتماعات: القضية الفلسطينية.

يسألنى: «لمَ لا تتم الموافقة على قبول سوريا داخل المنظمة الفرنكفونية. إن ابن الرئيس، بشار الأسد، الذى سيخلف والده منفتح على العالم الغربى. وسينتهج سياسة أكثر ليبرالية، ويبدو لى أن الوقت مناسب للمبادرة والتحضير لدخول سوريا فى المجموعة الفرنكفونية. أنت تعرف مثلى أن العلاقات بين سوريا وفرنسا ممتازة».

لم أجرؤ على أن أقول لنبيل الذى كان ليسارع إلى نشر ذلك فى أعمدة صحيفته، إننى قمت بمساع من أجل القيام باتصالات، منذ الآن، مع دمشق، ومن أجل أن تُوجه إلى الرئيس السورى دعوة لحضور الجلسة الافتتاحية للقمة المقبلة.

بريبنيان، الأحد ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

أغادر إلى بريبنيان لحضور حفل تسليم جائزة المتوسط التى مُنحت لى، السنة الماضية، على كتابى «طريق القدس». الفائز لعام ١٩٩٩ هو جان دانيال الذى مُنح الجائزة على كتابه «مع الوقت». نتناول الغداء فى أحد بيوت الصيادين على بعد بضعة كيلومترات من بريبنيان، قبل جلسة توقيع الكتاب فى دار بلدية القرية.

فى المساء يقيم رئيس المجلس الإقليمى، ميشال فوزيل، عشاءً فى قصر ملوك مايوركا. أجلس إلى جانب نوويل شاتليه، التى يسحرها الجو المسيطر فى هذا المكان. تقول لى: «إن الحجارة تتكلم».

أصغي بانتباه وتوجس كبيرين. لكن، من المؤكد أن حجارة المعابد المصرية، وحدها، هي التىّ تنطق بالنسبة إلىّ. يقلقني قليلاً ميلى إلى اعتبار مصر مركز العالم. أحاول يائسًا أن أسمع حجارة قصر ملوك مايوركا. فى المقابل، أجد وجه نوويل شاتليه الجميل ناطق ومعبّرجداً.

باريس، شنغهاى ـ الثلاثاء ١٤ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

فى صالون الشرف فى مطار شارل ديغول، وفد جاء لاستقبال رئيس وزراء غينيا ـ بيساو. يؤكد لى هؤلاء السادة أن السلام والازدهار يعمان فى بلدهما الذى يفخر بأنه عضو فى الفرنكفونية.

عند وصولنا إلى شنغهاى، ليا، جوس، وهبه، وأنا، كان فى انتظارنا مساعدو رئيس بلدية المدينة، وسفير مصرَ فى بيجين، محمد نعمان جلال، والقنصل العام لمصر فى شنغهاى، عبد الفتاح عزيز.

المدينة تغيرت كثيراً. ناطحات السحاب تنبت كالمطر. فى كل مكان طرقات سريعة للسيارات تتسلل بين الأبراج الشاهقة.

شانغهاى ـ الأربعاء، ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

دعيت لإلقاء محاضرة فى إحدى جامعات شانغهاى عن مستقبل الأمم المتحدة. جمهور من الشباب حتى ولو أن أساتذة كثر أخذوا أماكنهم فى القاعة. بعد أن أنتهى من تقديم عرضى، أقترح البدء بالنقاش: «لا تترددوا فى أن تطرحوا على أسئلة غير دبلوماسية. وأنا سأقدم إليكم إجابات غير دبلوماسية». اعتدت أن تضفى هذه الجملة جواً من الارتياح. لكن هنا لا تثير أية ردة فعل. تختلف روح الفكاهة والدعابة من قارة إلى أخرى.

يطرح علىَّ أستاذ أشيب سؤالاً تقنيًا حول آليات العمل فى الأمم المتحدة. السؤال غير الدبلوماسى يأتى من طالب شاب: «هل تشكّل الولايات المتحدة النموذج الأمثل للديمقراطية؟».

صمت فى القاعة. يمكن سماع طنين ذبابة تطير. أجيب باقتضاب: «على صعيد السياسة الداخلية، الولايات المتحدة ديمقراطية، وهذا أمر لا نقاش فيه. على صعيد السياسة الخارجية، هى ليست ديمقراطية».

(فى المساء ...).

يشترك قنصل عام مصر وقنصل عام فرنسا فى الدعوة إلى حفل استقبال فى فندق كبير فى المدينة. لا يعرف قنصل مصر العام الذى تسلّم منصبه فى شانغهاى منذ بضعة أيام، إلا عدداً قليلاً من الناس. هكذا تكفل القنصل الفرنسى بتوجيه الدعوات، وأخذ القنصل المصرى على عاتقه ترتيب الحفل لهذا الجمع المحترم.

يتكلم القنصل العام لفرنسا الصينية بطلاقة. يلقى كلمته باللغة الصينية. من جهتى، أقرر التكلم باللغة العربية؛ لأن مصر هى التى تقيم الاحتفال، فى نهاية الأمر. أحد أصدقائى وهو متحمس جداً للفرنكفونية يلومنى بشدة؛ لأننى لم أخاطب المدعوين، الذين ينتمون فى غالبيتهم إلى الجماعة الفرنكفونية فى شانغهاى، باللغة الفرنسية.

شانغهاى ـ الخميس ١٦ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

أستفيد من هذه الصبيحة الحرة لأكتشف الشوارع المجاورة للفندق. مما لا شك فيه أن هذا الحى لا يعطى فكرة حقيقية عن شانغهاى. شوارع غنية، محلات تجارية مليئة بكل أنواع البضائع المعروضة للسواح الذين سيبلغ عددهم ٥٠ مليون نسمة فى السنوات القادمة، إذا سلمنا بما تقوله السلطات الصينية.

زيارة لمتحف شانغهاى الجديد. مجموعة رائعة من البرنزيات. تلفت ليا انتباهى إلى العناية المولاة للإشارة إلى أسماء واهبى بعض القطع النادرة، وعلى الأخص، إلى رجل المال ساسون الذى أثرى فى شانغهاى، فى مطلع القرن! علامة على أن الصين ـ شانغهاى فى كل الأحوال ـ تنفتح على العالم الخارجى دون أن تتنكر لشىء من ماضيها الاستعمارى.

(بعد ذلك بقليل ...) ألتقى مجدداً برئيس بلدية شانغهاى، شين ليانغيو، وهو أحد قيادات البلاد. يتذكر لقاءنا الأول. كنت حينها أميناً عاماً للأمم المتحدة. حديث شيق باللغة الإنجليزية عن أخطار العولمة وعن ضرورة الحفاظ على التنوع الثقافى.

شانغهاى، داليان ـ الجمعة ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

نغادر هذا الصباح إلى داليان حيث يستقبلنا نائب رئيس البلدية. فرش السجاد الأحمر. أطفال صغار يقدمون إلينا باقات الزهور. لوحات رقص، وأغانى.

استقبال رسمى فى دار البلدية. مئات من الأولاد يلبسون ثياباً حمراء، يرددون بصوت واحد على وقع طبولهم شعاراً أسأل المترجم الذى يرافقنا عن معناه:

ـ «يمكن أن نترجمه بطريقتين: «صحة طيبة للجد» أو «صحة طيبة للرجل العظيم».

ـ لو كان لى الاختيار لاخترت «الرجل العظيم».

لكنه يشرح لى أن دلالة الاحترام والمحبة التى تتضمنها لفظة «جد» أكبر من تلك التى تتضمنها عبارة «الرجل العظيم»؛ ذلك لأن هذه اللفظة تشير فى الوقت نفسه إلى حكمة السنين؛ وإلى الرقة والحنان تجاه من هم أكبر سناً.

داليان ـ السبت ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

نزور هذا الصباح قلعة بور ـ أرثور التى تقع على مسافة حوالى ثلاثين كيلومتراً من داليان. هناك جرت سنة ١٩٠٥ المعركة الشهيرة بين الروس واليابانيين والتى انتهت بهزيمة الروس.

منظر البحر الذى نطل عليه من هنا يذكرنى بقصيدة بول فاليرى «المقبرة البحرية»... فى الصين. أهى لعبة تطابق بسيطة أو ردة فعل لا إرادية تستبدل مكاناً بآخر؟ إنه ترحّل الهوية الثقافية التى تحملها معك فى حقائبك من غير أن تدرى.

كونمينغ ـ الأحد ١٩ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

تقع مدينة كونمينغ فى الطرف الآخر من البلاد، فى مقاطعة يونّان، على مقربة من الحدود بين الصين وبورما، ولاوس وفيتنام. كونمينغ تستضيف فى الوقت الحاضر معرضًا ضخمًا للزهور. أعلم سفير مصر السلطات أننى أنوى تدشين الجناح المصرى. يقول لى:

«كتبت إلى القاهرة لأطلب قدوم شخصية مصرية لتدشن الجناح المصرى. لكننى لم أتلقَ أى جواب. أنا سعيد لأنك قبلت أن تكون هنا اليوم. بفضلك أنقذ شرفنا».

يمتد المعرض على مساحة عشرات الكيلومترات ونتنقل فى سيارات صغيرة تسير على الكهرباء. الجناح المصرى يسعى للتشبه بمعبد فرعونى «حديث». مكبرات الصوت تسكب صوت مطربتنا القومية الكبيرة، أم كلثوم. يهيئ إلى أننى فى القاهرة. تبادل الخطب، النشيد الوطنى الصينى بعد النشيد الوطنى المصرى.

نتابع زيارتنا للمعرض. فيما نحن نمر فى أحد البيوت البلاستيكية الضخمة، تتوقف دليلتنا الصينية الشابة أمام باقة من الأزهار لم تتفتح بعد براعمها وتبدأ بالغناء بصوت حنون. آنئذ أشهد مذهولا أحد أكثر العروض قدرة على إحداث الدهشة: الأزهار تتفتح الواحدة تلو الأخرى كأن هذا اللحن يفعل فيها فعل السحر. نبقى صامتين من شدة الإعجاب.

دالى ـ الاثنين ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

نطير فى وقت مبكر جدًا إلى دالى حيث يستقبلنا رئيس البلدية. نتابع سفرنا بالسيارة لنذهب لزيارة أحد الأماكن السريالية تمامًا الذى يقع على بعد ساعة من هنا: إنها غابة متحجرة. رئيس البلدية الذى يدرك الفائدة التى يمكن أن تعود بها على المدينة هذه الظاهرة الطبيعية المدهشة ينوى تنظيم عرض صوت وضوء فى هذا المكان.

كونمينغ، بيجين ـ الثلاثاء ٢١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

أربع ساعات من الطيران بين كونمينغ وبيجين، نفس المسافة تقريبًا بين باريس والقاهرة. حجز لنا جناح فى فندق بيجين الكبير. من أحد النوافذ نلمح قسمًا من ساحة تيان أنمين الكبرى حيث سيجرى العرض العسكرى فى ١ أكتوبر بمناسبة العيد الخمسين للثورة.

(فى المساء...)

نحن مدعوون من قبل أعضاء جمعية الأمم المتحدة فى الصين إلى مأدبة عشاء فى فندق قريب. نقع فى ازدحام سير يجعلنا نكاد نتأسف على زحمة سير باريس فى ساعات الذروة. يلزمنا أكثر من ساعة لنجتاز بضع مئات من الأمتار تفصلنا عن الفندق.

نصادف المشكلة ذاتها فى العودة، حبل طويل من السيارات.

بيجين ـ الأربعاء ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

منذ أيام قليلة، فى شانغهاى، ألقيت محاضرة أمام الشباب الصينى. اليوم جاء دور المسنين. أخاطب هذا الصباح أعضاء لجنة الشؤون الخارجية فى المؤتمر الاستشارى لشعب الصين، جمعية يمكن مقارنتها بمجلس الشيوخ فى الغرب. أمامى حوالى ستين شخصًا من السفراء والمحافظين القدامى. ألمح السفير غيو جيادينغ الذى يشارك فى أعمال مجموعة الخبراء الدوليين فى لجنة الديمقراطية والتنمية، فى اليونيسكو.

الأسئلة التى يطرحها المستمعون تدل على أنهم يتابعون باهتمام كبير تطورات الواقع الدولى الراهن. يلفتنى أسلوب مداخلاتهم الهادئ تمامًا والواضح تمامًا كما تلفتنى دقة تحليلهم. هل يعود ذلك إلى ثقافتهم الماركسية أم إلى خبرتهم الطويلة فى الحياة السياسية والدبلوماسية؟

تُعلّق الجلسة عند الظهر. خلال ساعة سيمنع السير فى كل الشوارع الأساسية

الكبرى. فاليوم هو يوم التمرين استعداداً للاستعراض الكبير فى الأول من أكتوبر.

نحن إذن فى إقامة جبرية فى الفندق، حيث يمكننا مشاهدة الاستعراض الكبير. آلاف وآلاف من الجنود، والعمال، والفتيات يمرون بجلال وسط عربات كرنفال ضخمة صممت على شكل قطارات أو سفن، أو منازل. يتقدم هذا الموكب الضخم المنتظم فى صفوف، نحو الساحة الكبرى. لكل شىء هنا قياس مختلف.

بيجين - الخميس ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

رئيس بلدية داليان، بو كزيلاى، وهو حاليًا فى زيارة عابرة لبيجين مع زوجته، يود أن يمنحنى لقب مواطن شرف فى مدينته الجميلة. مدير التشريفات الذى يعلمنى بذلك يرى من واجبه أن يطلعنى على الميزات التى سيمنحنى إياها ذلك. يقول لى: «سيحفر اسمك على النصب التذكارى المكرس لمواطنى الشرف، ستستفيد من رخصة إقامة، ستكون ضيف شرف فى كل الاحتفالات التى تنظمها المدينة، الأراضى والمساكن التى ترغب فى شرائها ستباع لك بنصف سعرها.»

الشرف الأكبر: سأتمتع بحق الإدلاء بتعليقات أو التعبير عن اقتراحات تتعلق بطريقة إدارة المدينة.

(فى فترة بعد الظهر ...) يستقبلنى رئيس الوزراء، لى بينغ وزوجته. أعرض لمضيفى نشاطات الفرنكفونية التى يبدو واضحًا أنها تحوز على اهتمامه. من جهته، يحدثنى عن الملفات الثلاثة التى تشغل السياسة الصينية فى الوقت الحاضر: العلاقات مع تايوان، ونشاطات طائفة فالونلونغ التى يعيش زعيمها فى الولايات المتحدة كما يقول رئيس الوزراء باستياء واضح، ودخول الصين فى المنظمة العالمية للتجارة.

بيجين - الجمعة ٢٤ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

محادثة إلى لى شين شينغ، وزير الخارجية الذى كتب مقدمة الطبعة الصينية

لكتابي «طريق القدس». ما أقول له عن الفرنكفونية يستحوز على اهتمامه، وخصوصًا، موضوع القمة المقبلة: حوار الثقافات.

بعد الظهر أستقبل في جناحي في الفندق مترجمة كتابي «طريق القدس»، ثم البروفسور وانغ لي كسو، وهو عضو في «مجلس الشيوخ» الصيني، وقد حضر المحاضرة التي ألقيتها بالأمس. نعرف بعضًا من قبل. هذا السياسي وهو فنان أيضًا متخصص في رسم البامبو، قد أهداني في الأمم المتحدة، في مارس ١٩٩٥، إحدى لوحاته. لوحة ضخمة طولها متر وخمسين سم وعرضها ١٢ مترًا، وجب علي لعدم توفر مكان يتسع لها، أن أقبل بإيداعها في شقتي، ملفوفة بعناية.

باريس، لوزان ـ السبت ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩

أصل إلى باريس في ساعات الفجر الأولى. بعد ذلك بقليل أطير إلى لوزان حيث يجب أن أحضر أعمال اللجنة المكلفة بعملية إصلاح اللجنة الأولمبية. أجد هنري كيسنجر وهو أيضًا عضو في هذه اللجنة. انتهى لتوه من قراءة كتابي الأخير «الذي يكشف عن عجز وطيش مادلين ألبرايت». من المؤكد، أن هناك أشخاصًا أكثر عدائية تجاه هذه السيدة من الأمين العام السابق للأمم المتحدة.

باريس ـ الأربعاء ٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩

يقيم سفير المملكة العربية السعودية حفل استقبال كبير على شرف مواطنه، غازي القصيبي، المرشح لمنصب الأمين العام لليونيسكو. إنه يتنافس مع سفير اليابان في باريس، كويتشيرو ماتسورا، ومع صديقي إسماعيل سراج الدين. حرصت على الحضور كي أُظهر للسعوديين أنني سأدعم ترشيح مرشحهم إذا انسحب إسماعيل الذي قمت بحملته الانتخابية، لا سيما أن غازي كان طالبًا عندي في الخمسينيات، في جامعة القاهرة.

باريس ـ الجمعة ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩

لقاء مع ألكسي تامبوي موامبا، أحد زعماء الثوار في غوما. إنه يتولى

الشئون الخارجية داخل التجمع الكونغولى من أجل الديمقراطية. يقول لى:

«إن التجمع الكونغولى من أجل الديمقراطية، يؤكد من جديد أن الكونغو يبقى بلداً فرنكفونياً ويتمسك بأن تكون المنظمة الدولية للفرنكفونية ممثلة فى لجنة الوساطة من أجل الحوار الداخلى فى الكونغو، لا سيما أننا واجهنا صعوبات جدية فى التواصل وفى ترجمة الوثائق من الإنجليزية إلى الفرنسية ومن الفرنسية إلى الإنجليزية، خلال مناقشات لوساكا». ثم يضيف:

«لكن لنا تحفظات بالنسبة إلى اختيار الرئيس زينسو كوسيط».

أشرح لمحدثى أن الفرنكفونية ملتزمة بتشجيع الحوار الداخلى فى الكونغو منذ سنة ١٩٩٨، أى قبل توقيع اتفاقات لوساكا بوقت طويل، وأنها تعمل على هذا الملف بتعاون وثيق مع جماعة سانت إيجيديو. أوضح جيداً أنه ليس لدى فى أى حال من الأحوال النية لاستبدال الرئيس زينسو كوسيط، لا اليوم ولا فى المستقبل.

تامبوى موامبا مناضل قديم لـ موبوتو وكان قد شغل منصب وزير الأشغال العامة بعد أن أدار شركة للمناجم فى الكيفو. ترك لدى انطباعاً جيداً: إنه رجل ماهر، فخور، ونشيط. إنه ينتمى إلى الطبقة المثقفة الكونغولية التى حاولت أن تصنع من الكونغو أمة. ما هو الوزن الحقيقى لهذه الحركة الانفصالية اليوم؟

نتفق على أن نلتقى مع «الرئيس» إميل إيلونغا، رئيس التجمع الكونغولى من أجل الديمقراطية، فى ٢ نوفمبر المقبل.

(فى نهاية فترة بعد الظهر ...) أحضر فى اليونيسكو حفل تسليم الكتاب التكريمى لـ كاريل فازاك. فيديريكو مايور يتحدث بحرارة عاطفته الكاتالانية عن الصداقة الطويلة التى تربطه بكاريل فازاك.

أتكلم بدورى:

«عزيزى كاريل، (...) أنت صورة ما عن رابليه. ليس لأنك فقط تحب الحياة، بل لأنك وبطريقة أكثر رهافة رمز للعطاء، لعطاء يفتح الطريق إلى العالمية.

بالمناسبة، لا أستطيع مقاومة الرغبة فى أن أذكر هذه الحادثة التى سردتها لى يومًا، والتى تدل على أحد المكونات الأساسية لشخصيتك، وهى روح الفكاهة. كنت قد اخترت الحصول على الجنسية الفرنسية. وكان عليك أن تقوم بواجب مضجر يقتضيه ملء الاستمارة الإدارية حيث يطلب منك أن تقدم ببضع كلمات المحطات المتميزة فى سيرتك. الموظف المندفع المكلف بتفحص وتقييم قدرتك على التأقلم فى المجتمع الفرنسى، لم تبهره اللائحة الطويلة لشهاداتك. واكتفى بمنح ملفك درجة «جيد». لكن جاءتك فجأةً فكرة عبقرية: أن تذكر أنك أيضًا تحمل شهادة فى صناعة النبيذ. ربما كان يجب البدء من هنا؛ لأن الخبير بأنواع النبيذ الجيدة والمتذوق لها تفوق على حامل شهادة الدكتوراه فى القانون. وغلب أيضًا بالطبع الموظف الذى شطب نهائيًا كلمة «جيد» ليستعيض عنها بعبارة «جيد جدًا» طنانة».

ينتهى الاحتفال بخطاب ذى طابع شخصى جدًا لـ كاريل فازاك، يشكر فيه زوجته وأولاده الستة الذين منحوه بدورهم أحد عشر حفيدًا. تضىء وجهه ابتسامة رضا عندما يختم خطابه متحدثًا عن معتقد تشيكى:

«فى بلادى، اعتاد الفلاحون القول إن أسعد الرجال هو الذى لديه ستة أولاد: أربعة صبية وبنتان. وهذا حالى بالضبط. أربعة أبناء لأنه لا بد من أربعة رجال لإنزال النعش فى التراب، وابنتان للإحاطة وللاهتمام بالتى ستبقى من بعده. هل هذه الصورة حزينة؟ بالنسبة إلىّ إنها صورة السعادة القصوى...» يختم كاريل فازاك بصوت يتهدج من الانفعال.

باريس ـ السبت ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩

هذا الصباح، جلسة التقاط صور غير اعتيادية. فى خلفية الصورة برج إيفل والعد العكسى الذى يلمع فى أضوائه بانتظار العام ٢٠٠٠. بين يدى وضعت قبعة زرقاء، تلك التى يضعها رجال فرق الأمم المتحدة لحفظ السلام. على القبعة حمامة بيضاء، أخالها محنطة. لكن لا ألبث أن ألاحظ أن الحمامة حية فعلاً، وأنها ربما تفضل أن تطير، لكن قوائمها ربطت بالقبعة بواسطة خيط. الغرض

من هذا الأداء: ألبوم يضم صوراً بعدد أيام السنة بحيث يكون لكل يوم صورة تمثل إحدى الشخصيات تظهر فيها مع الشيء الأكثر دلالةً على العمل الذي قامت به.

ستراسبورج ـ الثلاثاء ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩

أنا في ستراسبورج لكي أقوم بالدعاية لكتابي المعنوّن «سنواتي في بيت من الزجاج».

قبل ذلك، ألتقي سكرتير المجلس الأوربي، وهو نمساوي، يقول إنه مستعد للتعاون مع المنظمة الدولية للفرنكفونية. ثم ألقي محاضرة قبل أن أقصد مكتبة كليبير حيث ألقي محاضرة أخرى. الموضوع هو نفسه ـ دور الأمم المتحدة ـ لكن الجمهور مختلف كليًا.

الطائرة التي يجب أن تعيدني إلى باريس تتأخر. أستفيد من هذه الاستراحة القسرية لأزور الكاتدرائية، والشوارع الصغيرة المخصصة للمشاة التي تحيط بها. إنها المرة الأولى! على الرغم من أنني جئت عدة مرات إلى ستراسبورج. قيود الحياة الدبلوماسية. الانتقال من مدينة إلى مدينة، ومن بلدٍ إلى بلد، دون أن ترى منظراً آخر سوى زخرف غرف الفنادق المعقمة وقاعات الاجتماعات التي تشبه بعضها بعضًا.

باريس ـ السبت ١٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩

أحس بشعور بالرضا، بل بالامتلاء. أمضيت ثماني ساعات متواصلة في تحضير المحاضرة التي يجب أن ألقيها في طوكيو في شهر ديسمبر المقبل. ليس للموضوع أية فرادة، لأنني اخترت أن أتحدث عن السلام والتنمية والديمقراطية وهو موضوعي المحبب منذ عدة سنوات، لكن العالم يتغير وتبقى هذه الضرورات ملحة، وربما اليوم أكثر من الأمس.

بريست ـ الثلاثاء ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩

أتابع جولتي للدعاية الأدبية. بعد ستراسبورج، بريست. أصل في الوقت الذي يعلن فيه عمال سفينة شحن مصرية تخضع للتفتيش في مرفأ بريست، الإضراب؛ لأنهم لم يقبضوا أجورهم.

هذا يذكرني بوصولي إلى بوغوتا، سنة ١٩٨٠، حيث جئت لأطلب مشاركة، ولو رمزية، للفرق الكولومبية في القوة المتعددة الجنسيات التي كان يجب أن تأخذ موقعها في سيناء، على الحدود بين مصر وإسرائيل. لم تكن الصحافة تتكلم حينها إلا عن توقيف السلطات المصرية لطباخ كولومبي شاب مع خطيبته، كلاهما يعملان على ظهر سفينة كانت تنقل بالخفاء كميات كبيرة من المخدرات. «هل سيحكم عليهما بالإعدام؟ تعرف أنهما بريئان. فقد كانا يجهلان كل شيء عن حمولة السفينة. وحده القبطان مسؤول. من جهة أخرى، هناك حالات مماثلة حصلت في السابق» . . .

حاولت بلا جدوى أن أشرح لصحيفة كولومبية عدائية ومهتاجة أن الأمر بين يدي القضاء المصري، وأنني كوزير للخارجية، لا أملك أية سلطة في هذا المجال.

لحسن الحظ لم تشكل حادثة سفينة الشحن المصرية اليوم، في بريست إلا موضوع مقابلة تلفزيونية قصيرة ويتيمة.

المكتبة التي تستقبلني نظمت الأمور بطريقة ممتازة.

بعد الغداء ألتقي مجموعة من الأطفال في حوالي العاشرة من عمرهم. أحاول أن أشرح لهم دور الأمم المتحدة متوسلاً كلمات بسيطة ومألوفة. يطرحون عليّ بعد ذلك الأسئلة التي حضّروها مع أساتذتهم، والتي يقرأونها باجتهاد كبير. ألزم نفسي بالعزوف عن الشروحات التقنية التي أقدمها عادة إلى الكبار. إنها بالنسبة إليّ تجربة جديدة، صعبة، وتتطلب مني جهداً خاصاً.

(في فترة بعد الظهر ...) ألقي محاضرة في جامعة فيكتور سيغالين. كان واضحاً

فى الإعلان أن الدخول حر ومجانى. وهذا ما يفسر بلا شك أننى وجدت مدرجًا مليئًا حيث يجلس جنبًا إلى جنب الطلاب والمتقاعدون.

أعود إلى باريس، منهكًا بمعنى الكلمة. لقد بدأت أشك فى فائدة تنقلات كهذه، سواء بالنسبة إلى الفرنكفونية أو بالنسبة إلى كتابى. دار نشر فايار عازمة أيضًا على أن ترسلنى إلى مارسيليا، وليون، وديجون. أخذت قراراً بإلغاء هذه الجولة الجديدة. سأقترح على الناشر أن ينظم لى سلسلة من المقابلات على الراديو أو التلفزيون، فى باريس.

بروكسيل ـ الاثنين ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩

أغادر إلى بروكسيل مع ليا، حيث نعود من جديد إلى فندق أميغو، الذى أحبه بشكل خاص.

تود الملكة فابيولا أن تلتقى بنا، ستتناول العشاء هذا المساء مع ليا. أهديها نسخة من كتابى «سنواتى فى البيت الزجاجى» كتبت عليها إهداء. لا يزال سحر الملكة وسلطتها الرقيقة يؤثران فىّ.

من جهتى، سأذهب لأتعشى مع وزير الخارجية، لويس ميشال، ومع سفيره فى باريس، آلان رينس، الذى كان سفيراً لبلاده فى القاهرة عندما كنت مكلفًا بإدارة الدبلوماسية المصرية.

يشرح لى الوزير البلجيكى، وهو رجل ضخم القامة، استراتيجيته فى إفريقيا بصوت هادىء وواثق. يتكلم بوضوح ودقة، على طريقة بيروقراطيى الاتحاد الأوربى فى بروكسيل. يعيب على الدبلوماسية الفرنسية أنها تريد التفرد. ألفت انتباهه إلى أن الفرنكفونية ليست بالضرورة الدبلوماسية الفرنسية. معرفته لإفريقيا، اهتمامه الحقيقى بهذه القارة يؤثران فىّ. فأنا لم ألقَ لدى المسؤولين الأوربيين خلال السنوات الأخيرة الماضية، إلا عدم التفهم واللامبالاة والتشاؤم.

باريس ـ الثلاثاء ٢ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٩

أستقبل إميل إيلونغا، زعيم التجمع الكونغولى من أجل الديمقراطية ـ مجموعة غوما. الرجل مهذب ومرن. يظهر فطنة وتبصرًا. يرافقه ألكسى تامبوى مياومبا، الذى التقيته فى مطلع شهر أكتوبر، وميدار مولنغولا لواكابوانغا.

بعد أن أكد لى تمسّكه بالفرنكفونية، يشرح لى الأسباب التى تدفع حركته إلى الشعور بالحذر تجاه الوسيط الذى اختارته الفرنكفونية، الرئيس إميل ديرلين زينسو. يقول:

«لقد جاء عدة مرات إلى كينشاسا لكنه لم يخطر بباله قط أن يأتى للقائنا فى غوما. فكيف بإمكانه أن يقود وساطة وهو يتجاهل أحد طرفى النزاع؟».

أذكِّره بأننا حاولنا عدة مرات القيام باتصالات مع التجمع الكونغولى من أجل الديمقراطية، لكننا لم نفلح فى ذلك. يمكنه أن يكون واثقًا بحيادنا التام. فلا غاية لدينا سوى المساهمة فى إيجاد حل سلمى. يصرُّ إميل إيلوغا. ويقترح علىّ تعيين نيسيفور سوغلو محل الرئيس زينسو. أردُّ عليه:

«ليس فى نيتى أبدًا أن أستبدل الوسيط. وإن رفضت مختلف الأطراف هذا الاختيار فالفرنكفونية ستكون مستعدة بكل بساطة للانسحاب الكامل».

لكنه لا يلقى سلاحه ويقترح أن تدعو منظمة الوحدة الإفريقية والفرنكفونية إلى اجتماع مصغر يضم حوالى خمسة عشر شخصًا من أجل تعيين وسيط جديد.

أجيبه:

«هذا سيُضيع علينا وقتًا ثمينًا، كما أنه سيكون من الصعب إيجاد مصادر التمويل الضرورية. يبدو لى أن توجيه دعوة إلى اجتماع غير رسمى لحوالى عشرة ممثلين لمختلف التيارات السياسية كى يتمكنوا من تبادل وجهات نظرهم على هامش اتفاقيات لوساكا، ولكى يحددوا المراحل الأولى للتطبيق الفعلى لهذه الاتفاقات، هو أكثر صوابًا».

إميل إيلونغا سيذهب إلى بروكسيل فى محاولة للقاء الوزير لويس ميشال ولإطلاعه على مختلف الخيارات الممكنة من أجل إطلاق عملية السلام.

نتولى كازادى، مستشارى للشؤون الإفريقية، ينقل لى آنفًا أن إميل إيلونغا ومعاونيه مرتاحون جداً للمحادثات التى دارت بيننا إلا أنهم لا يستطيعون التخلى عن حذرهم تجاه الرئيس زينسو ويعزى ذلك إلى الاستقبال الحماسى الذى خصته به كينشاسا عند زيارته الأولى.

باريس ـ السبت ٢٧ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٩

رسالة من جاك شيراك، الرئيس الحالى للجنة المحيط الهندى، تدعونى إلى المشاركة فى قمة رؤساء الدول والحكومات فى جزيرة الريونيون.

أذكر أنه خلال قمة مونكتون، وبينما كنت أعدد الاتفاقات التى عقدتها المنظمة الدولية للفرنكفونية مع منظمات دولية مختلفة، طلب الكلام الرئيس راتسيراكا، وهو رئيس مدغشقر، ليلومنى بشىء من الحدة على أننى لم أعقد اتفاقًا مع لجنة المحيط الهندى. هذه المؤسسة التى أنشئت سنة ١٩٨٤، كانت تضم فى البداية، مدغشقر، وجزر موريس، وسيشيل، وهى دول انضمت إليها لاحقًا، سنة ١٩٨٦، فرنسا من خلال جزر الريونيون، وهى مقاطعة فرنسية، وجزر القمر. وذلك يمثل ١٦ مليون نسمة، ومليون كيلومتر مربع من الأراضى الجزيرية، ومنطقة اقتصادية مساحتها سبعة ملايين كيلومتر مربع فى المحيط الهندى. والحقيقة أن هذه المنظمة مرتبطة بالفرنكفونية، بحكم الواقع؛ ذلك لأن الدول الخمس الأعضاء فيها هى كذلك أعضاء فى المنظمة الدولية للفرنكفونية، بالإضافة إلى أن مقر جامعة المحيط الهندى هو فى جزر الريونيون، ومقر المعهد الفرنكفونى لإدارة المشاريع هو فى جزر موريشيوس.

باريس ـ الثلاثاء ٣٠ تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٩٩

افتتاح مؤتمر الوزراء الفرنكفونيين فى مركز كليبير. يترأس الدورة الوزير

الكندى، رولان دوهاميل، وهو رجل ودود، بسيط وصريح، يحضر اليوم لأول مرة، ذلك لأن مشاكل صحية خطيرة منعته من أن يشارك فى مونكتون. علىَّ الاعتراف بأنه يضبط هذا الاجتماع جيداً متمتعاً بمزاج حسن وبحيوية تبعث الحماس لدى الجميع.

سان ـ دنيس فى الريونيون ـ الأربعاء ١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

إنها إقامتى الأولى فى جزيرة الريونيون، التى غالبًا ما يُشبهونها بجزيرة موريشيوس. من جهتى، لا أجد هنا السحر الخاص المميز لجزيرة موريشيوس. أقضى يومى الأول منعزلاً فى غرفتى، فى فندق كريوليا، أقرأ تقرير لجنة المحيط الهندى الذى يتضمن الكثير من التوقعات المستقبلية. المشاريع فيه أكثر بكثير من الإنجازات.

هذا النوع من التقارير شائع جداً فى المنظمات الدولية، التى تخفى قصور نشاطها تحت ستارة استشرافات مستقبلية متحذلقة. حاولت كثيراً أن أعالج هذه الحالة فى تقارير الأمم المتحدة، ولكن شرحوا لى أن الإشارة إلى المشاريع المستقبلية تشكل خطوة على طريق الفعل لا يمكن تجاهلها...

سان ـ دنيس فى الريونيون ـ الخميس ٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

الوزير الفرنسى المنتدب للتعاون والفرنكفونية، شارل جوسلين، يدعونا إلى العشاء فى فندق ظريف فى سان ـ جيل، بُنى بمحاذاة الشاطىء الرملى الوحيد فى الجزيرة.

بما أننى أول الواصلين، أثرثر طويلاً معه فيما نحن نحتسى كأسًا من الروم، وهو نوع من الكحول يُصنع من عصير قصب السكر وتختص به الجزيرة. أتحدث مجدداً عن المشروع الذى أفكر به وهو ضم إيطاليا للفرنكفونية. كهوبير فيدرين، يجد الفكرة ممتازة، لكنه يضيف أنه لا بد من الحصول على موافقة ودعم الحكومة الإيطالية.

كانت لى فرصة التحدث فى ذلك إلى جوليو أندريوتى، هذا الوجه البارز فى السياسة الإيطالية، الذى أظهر اهتمامًا ووعدنى بالتفكير بالأمر حتى موعد لقائنا المقبل. لكن عملية دبلوماسية مماثلة لا تتم على مستوى الأمين العام للفرنكفونية.

سان - دينيس فى الريونيون - الجمعة ٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

افتتاح احتفالى لقمة رؤساء الدول والحكومات للجنة المحيط الهندى فى المسرح البلدى شانفلورى. جاك شيراك بوصفه الرئيس الحالى للجنة هو الذى يستقبل سلطان شذور، رئيس جزر القُمر، ونافيشندرا رامغولان، رئيس جزر موريشيوس، وديديه راتسيراكا، رئيس مدغشقر، وفرانس ألبير رونيه، رئيسة سيشيل. . . خطاب الرئيس المنتهية ولايته، جاك شيراك، ثم خطاب الرئيس الجديد، ديديه راتسيراكا.

بعد انتهاء الجلسة الافتتاحية ننتقل إلى قاعة مداولات المجلس الإقليمى، وهى أقل ضخامةً، لكنها مريحة أكثر. نوقف بسرعة اجتماعنا المكرس لمشاكل التكامل الإقليمى لكى نقصد فيللا مقاطعة الريونيون، حيث يجتمع الرؤساء فى جلسة مغلقة على غداء عمل. نجلس فى القاعة الملاصقة.

بعد الظهر، جلسة عمل طويلة أتولى فيها الكلام. أطلب كذلك من بياترو سيكورو، وهو أحد معاونىّ ومسؤول عن قطاع التقنيات الحديثة، أن يعرض لرؤساء الدول والحكومات برامج الفرنكفونية المختلفة فى هذا المجال. عرضه تقنى جدًا، ولدى خشية كبيرة من أن يضجر المستمعون بسرعة.

لم ينس الرئيس راتسيراكا اللوم الذى وجهه إلىّ فى مونكتون على أننى لم أعقد اتفاقا مع لجنة المحيط الهندى. أجيبه أن ذلك سيحصل بعد ظهر اليوم، فى الوقت نفسه الذى سيقوم بخلافة جاك شيراك الرئيس الحالى للجنة.

أطلب إعداد نص الاتفاق الذى أوقعه مع الأمين العام، كآبى إلياخروتو، وأسلمه للرئيس ديديه راتسيراكا فى نهاية العشاء الذى يقيمه جاك شيراك فى فندق كريوليا. يُسر الرئيس الذى يغتبط للسرعة وللبراعة التى نفذت بها هذه المهمة.

لاريونيون، تاناناريف ـ ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

تلبية لدعوة من الرئيس راتسيراكا نطير إلى مدغشقر على متن الطائرة الرئاسية. أجلس إلى جانب وزيرة الخارجية الرائعة، ليلا راتسيفندريهامانانا، الشغوفة بالأدب والتى تهدينى كتابها الأخير «فاتحة» حيث يمتزج الشعر والنثر بنبرات الجزيرة التى وُلدت فيها:

المحيط حول الجزيرة حيث مسقط رأسى

يداعب أطراف الشواطىء الساحلية

ويكشف فى وضح النهار عن بريق لا يضاهيه نور

له ظل الحب تحت سماء استوائية ...

تاناناريف ـ الأحد ٥ كانون الثانى/ديسمبر ١٩٩٩

دعانا سفير مصر، محمد سمير عبد الوهاب إلى الغداء فى مكان إقامته الذى يقع خارج المدينة. أصرّيت على أن يقدموا إلينا أطباقًا مصرية. إنها فيللا جميلة تطل حديقتها على بحيرة صغيرة. منظر ريفى، تزيده سحراً اليوم، سماء ملبدة حيث تتنازع الغيوم شمسًا متعبة. نجلس فى الصالون.

أجد نفسى فجأةً أعود ربع قرن إلى الوراء. كان ذلك فى سنة ١٩٧٤، كنت مكلفًا من قبل الجامعة العربية القيام بجولة فى بعض الدول الإفريقية، ومن بينها مدغشقر، وذلك للدعوة إلى تعاون مؤسساتى بين الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الإفريقية، يكرسه اجتماع القمة العربية ـ الإفريقية، فى القاهرة، فى مارس ١٩٧٧.

لدى مرورى فى مدغشقر، رتب لى سفير مصر، عزالدين شرف ـ وهو شخص خارق، متعطش للعمل، يطفح بالحيوية، وتتعبه اللامبالاة التى تقابل بها القاهرة اقتراحاته المتكررة ـ عشاء على انفراد مع الكولونيل ريشار راتسيماندرافا الذى سيصبح منذ مطلع سنة ١٩٧٥، رجل النظام القوى.

شرح لى الضابط الشاب مطولاً وبالتفصيل، فى ذلك المساء، خطته للإصلاح الزراعى، نوع من حكم الجمعيات القروية. وهو يرى أن التجديد فى مدغشقر إنما سيأتى من الأرياف. بعد أن أصغيت إليه بانتباه، رددت عليه بأن هذه الصيغة التى تستلهم التجربة الصينية، ليست قابلة ربما للنقل إلى الجزيرة. يبدو لى فى المقابل، أنه يمكنه أن يثبت سلطته بشكل أفضل بالاعتماد على العاصمة وعلى المدن. تحدثنا حتى ساعة متأخرة من المساء. كان يعطى انطباعًا بأنه يلتهم أقوالى. حتى أنه، فى وقت ما، أخرج من جيبه دفتراً صغيراً ليدوّن عليه بعض الملاحظات. لكن أكثر ما يضحك فى كل هذا، كانت تدخلات السفير المصرى الذى كان لا يتوقف عن مقاطعتنا وهو يصيح بالعربية:

«رائع، رائع، سيكون بمقدورنا أن نقيم علاقات مميزة بين مصر ومدغشقر!».

وذلك يعنى نهاية فترة بطالته! وبداية عصر جديد!

عند منتصف الليل، أعلنت أنه يجب أن أغادر. ولم أكن لأتكل فى ذلك على السفير الذى توسل إلىَّ بهذه العبارات حرفيًا:

«أرجوك، أرجوك، من فضلك، باسم مصر وطننا، استرسل فى هذه المحادثة. إنها فرصة مناسبة لن تتكرر بعد اليوم».

بعد ذلك ببضعة أشهر، أُغتيل الكولونيا ريشار راتسيماندرافا، فى شوارع تاناناريف، ستة أيام بعد وصوله إلى سدة المسئولية.

تاناناريف ـ الاثنين ٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

أبدأ نهارى بزيارة مجاملة لرئيس الجمعية الوطنية، وهو شخص لطيف، ومثقف، ومغرم بفلسفة السياسة. نتحدث عن نشر حقوق الإنسان، عن احترام حكم صناديق الاقتراع، عن رفض تداول السلطة بقوة السلاح.

ألتقى بعد ذلك الدكتور سيزير رابينورو، رئيس الأكاديمية الوطنية للفنون والآداب والعلوم فى مدغشقر، حيث ألقى محاضرة. ليس هذا هو العرض الأول

الذى أؤديه فى هذه الأمكنة، ذلك لأننى ألقيت خطابًا هنا بالذات سابقًا، سنة ١٩٨٥، خلال زيارة رسمية كنت أقوم بها كوزير دولة للشؤون الخارجية فى مصر.

قاعة مليئة حيث يجلس الأساتذة الجامعيون والطلاب والدبلوماسيون والبرلمانيون جنبًا إلى جنب. أتحدث، بالطبع، عن الفرنكفونية قبل أن أجيب على الأسئلة الفطنة والمباشرة أحيانًا التى يطرحها المستمعون:

«ماذا يمكن للفرنكفونية أن تفعل لمواجهة آفة مرض الإيدز الذى يهدد إفريقيا؟».

«ما هى أبعاد القرارات التى اعتمدتها جمعية البرلمانيين الفرنكفونيين؟».

«ما هى النتائج المترتبة عن الدور المسيطر الذى تلعبه فرنسا فى الفرنكفونية؟».

«ما هى الإجراءات التى اعتمدت استكمالاً لقمة مونكتون المخصصة للشباب؟».

لقاء مع رئيس الوزراء، قبل أن أقصد مكتب الوكالة الجامعية. هذا المكتب ينزع إلى أن يمثل بشكل أوسع مجموع الأجهزة التنفيذية فى الفرنكفونية. ترك لدى الفريق العامل هنا انطباعًا إيجابيًا. نقطة ضعف، مع ذلك، الطابع «الفرنسى» جداً لهذا الفريق. طالما سينظر إلى الفرنكفونية كملحق لوزارة التعاون الفرنسية، ستكون حظوظها قليلة فى أن تفرض نفسها كمنظمة دولية متعددة الأطراف.

(فى آخر فترة بعد الظهر ...) يستقبلنى رئيس الجمهورية فى أحد أجنحة القصر الرئاسى الذى بقى سليمًا بعد أعمال التخريب والنهب التى جرت خلال الاضطرابات التى هزت البلاد. يرحب بى ديديه راتسيراكا بالعربية متلفّظًا ببعض العبارات التى تعلمها خلال لقاءات إفريقية. إنه مبتهج بالاتفاق الذى أبرم بين لجنة المحيط الهندى والمنظمة الدولية للفرنكفونية. يستعلم عن وضع المفاوضات بين أطراف النزاع الداخلى فى الكونغو، ويذكرنى بأننى أسهمت بإنقاذ السلام فى موزمبيق، قبل أن ينتقل بالحديث إلى موضوع مختلف تمامًا:

«عدونا الجديد، هو الجراد ووباء الكوليرا. لقد صرفنا ثمانية ملايين للقضاء على هذا الوباء».

بعد صمت قصير، ينطلق بدون تمهيد في هجاء عنيف للولايات المتحدة، كأن الحديث عن وباء الكوليرا ذكّره بوباء آخر:

إنها مختبر كل الأمراض... البلد الوحيد الذى لم يوقّع على اتفاقية حقوق الأطفال».

أستمع إليه دون أن أعترض. لا أشاركه عداءه العنيف لأمريكا، حتى ولو كان عليّ الاعتراف بأننى أتفق معه فى بعض النقاط.

ونحن نودع بعضنا، يسترجع الرئيس كل هدوئه، ويصافحنى بحرارة ولياقة. وجدته متعبًا، منشغل البال، متحمسًا أحيانًا، يصعب متابعة أفكاره.

تاناناريف، موريشيوس ـ الثلاثاء ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

مؤتمر صحفى قبل المغادرة إلى جزيرة موريشيوس. أبدأ بتوجيه شكر إلى السلطات المحلية على الاستقبال الحار والودى الذى خصتنا به.

«ما الذى تتوقعه من مدغشقر؟»، سؤال لأول صحفى.

ـ أن تُفعِّلوا لجنة المحيط الهندى التى يترأسها الآن بلدكم. صيد الأسماك، التجارة، مكافحة المخدرات كلها أهداف تشكل أولويات.

ـ ما هى المشكلة الأهم التى تهدد إفريقيا؟

ـ تهميش القارة وعدم مبالاة المجتمع الدولى أمام الآفات التى تصيبها.

ـ ألا تشكل الهيمنة الثقافية الفرنسية خطراً بالنسبة إلى مدغشقر؟

ـ بل على العكس، إنها باب مفتوح على أوربا سيسمح بإخراج الجزيرة الكبيرة من عزلتها».

نصل بعد الظهر إلى موريشيوس. وفد كبير أتى لاستقبالنا والاحتفاء بنا: سفير مصر، فايز بكداش، الذى كان فيما مضى أحد أقرب معاونىّ، وسفير فرنسا، وماري ـ فرانس روسيتى، سفيرة موريشيوس فى فرنسا وصاحبة فكرة هذه الزيارة.

الليل لطيف. تأتى الأمواج لتداعب الشاطىء بعناية لامتناهية كأنما لتحافظ على الصمت الذى يغلف الليل. سماء رائعة مضاءة بالنجوم لم تعد المدن الملوثة تنعم بها.

موريشيوس ـ الأربعاء ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

يستقبلنى على انفراد رئيس الجمهورية، كسام أوتيم، فى القصر الرئاسى، وهو عبارة عن فيللا كبيرة تقوم على قمة هضبة، وتعرف باسم متواضع «الكوخ».

للرئيس لحية بدأ يضربها الشيب، مُشذَّبة بعناية فائقة، تضفى عليه أناقة ووقاراً، فى آن معًا.

«لم تعرف موريشيوس فترة جفاف مماثلة منذ خمسين عامًا. وتأثير ذلك كارثى فى إنتاج قصب السكر، السلعة الأساسية التى تصدرها الجزيرة.

ـ فى مصر، اعتمدنا فى الأراضى الصحراوية نظام الرى بالتقطير.

ـ إنه نظام لا نستخدمه إلا جزئيًا، للأسف.

أتطرق بعد ذلك إلى مشاريع التعاون بيننا وبين لجنة المحيط الهندى:

«علينا أن ننشّط هذه المنطقة، أن ندعم جامعة المحيط الهندى، أن نرفع مستوى التعاون الإقليمى، وأن نجعل من هذه المجموعة قوة اقتصادية حقيقية ...».

أشير كذلك إلى تعاوننا مع الكومنولث وإلى البعثة المشتركة التى أرسلناها إلى سيشيل، فى فترة الانتخابات، وإلى المؤتمر الذى سننظمه معًا، فى كانون الثانى المقبل، فى ياونديه، حول موضوع الديمقراطية فى المجتمعات التعددية.

يبتهج الرئيس هذا التعاون مع الكومنولث، خصوصًا وأن موريشيوس هى عضو فى الكومنولث والفرنكفونية فى آن معًا.

«يمكنك الاعتماد علىَّ لتدعيم هذا التعاون. ويضيف، إننى مضطر لأن أستنتج أنه إذا كانت اللغة الفرنسية تتطور فى جزيرتنا، فاللغة الإنجليزية هى التى تسيطر».

يشير كذلك إلى وجود اللغات الآسيوية، ولا يخفى خشيته من أن يرى هذه المجموعات اللغوية المختلفة تنغلق على نفسها، مما يلحق الأذى بوحدة الجزيرة.

القسم الثانى من الفترة الصباحية مخصص لزيارة الجامعة. تستقبل هذه الجامعة التى أنشئت سنة ١٩٦٨، أربعة آلاف طالب. كل شىء هنا، سواء من الناحية التنظيمية أو التعليمية يعكس التأثير البريطانى. اللغة الفرنسية تبدو فى مرتبة هامشية. خلال المؤتمر الصحفى الذى أعقده أنطلق فى مرافعة للدفاع عن التعددية اللغوية مذكرًا أننى عندما كنت أستاذًا جامعيًا كنت أعلّم باللغات الثلاث: العربية والإنجليزية والفرنسية...

بعد ذلك، يستقبلنى رئيس الوزراء نافينشاندرا رامغولام، ابن سور سيووزاغور رامغولام، الذى كان رئيسًا للوزراء بين ١٩٦٨ و١٩٨٢، والذى كان أب الاستقلال فى جزيرة موريشيوس. وقد كان وزير خارجيته هارولد والتر أحد الخطباء القلائل، الذين دافعوا عن رحلة الرئيس السادات إلى القدس، فى قمة الخرطوم، سنة ١٩٧٨. وقد حصلت حينها من الرئيس السادات على موافقته على مقابلة رامغولام الأب. بعد ذلك صرت ألتقيه بصورة منتظمة خلال دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة. يستقبلنى رامغولام الابن الذى سررت بلقائه مساء البارحة فى حفل الاستقبال الذى أقامه سفير مصر، بحرارة وتأثر.

«يجب أن تصبح موريشيوس مركزًا جامعيًا دوليًا. نعتمد فى ذلك على الفرنكفونية ووكالتها الجامعية».

الغداء العامر الذى تبع ذلك أقامه فى كلو سان ـ لويس، وزير الفنون والثقافة م.ت.ف.هـ. تاسانغ كين، وهو صينى. كل الجنسيات تبدو ممثلة فى هذه الحكومة

التى يجتمع أكثر من نصف أعضائها حول الطاولة . وبما أن وزير الفنون عليه أن يذهب إلى اجتماع مهم، لا يستغرق الغداء وقتًا طويلاً . أبتهج منذ الآن لفكرة أننى سأعود إلى «البنغالو» الجميل فى فندق ترو ـ أو ـ بيش . لكن مارى ـ فرانس روسيتى تقترح أن نزور حديقة النباتات . «ستكون مناسبة لتستغرق فى التأمل أمام مدفن صديقك العزيز ، السير سيووزاغور رامغولام» .

أتردد قليلاً . كنت قد تخيّلت نفسى وأنا أنعم بحمام بحر تتبعه قيلولة تغسل عنى التعب . لكن مارى ـ فرانس روسيتى تصر أكثر قليلاً . أجد نفسى أخيرًا أمام مدفن أب الاستقلال الموريسى ، قبل أن أكتشف ، عند منعطف أحد الممرات ، صفًا من الأشجار الفريدة .

كل واحدة من هذه الأشجار تتفتح فيها كل مئة عام ، زهرة بيضاء ، وتموت إثرذلك . تتركنى هذه الظاهرة المؤثرة والسامية المغزى أغرق فى بحر من التأملات . أمكث مسمّرًا عند أقدام هذه الشجرة التى يبلغ عمرها مئة سنة والتى أعطت الحياة لتوها لهذه الزهرة البيضاء التى تحمل إليها خبر موتها . يا للرمز الغريب ، الرائع!

تقطع علىّ تأملى المسؤولة عن الحديقة :

«نحن نعرف بدقة الوقت الذى سترى فيه كل شجرة من هذه الأشجار زهرتها تتفتح . خلال عامين مثلاً بالنسبة إلى هذه الشجرة ، وخلال خمسة أعوام بالنسبة إلى تلك ...

ـ والزهرة البيضاء ...

ـ ستذبل رويدًا رويدًا وتموت قبل أن تموت الشجرة نفسها» .

بضعة أشهر انقضت على رحلتى إلى الصين حيث شاهدت زهرة تتفتح على إيقاع ألحان ينشدها صوت امرأة شجى . اليوم ، فى جزيرة موريشيوس ، أكتشف شجرةً تستغرق مائة سنة لتعطى زهرة ، قبل أن تنتهى إلى الأبد . تبقى هاتان الصورتان تجسدان أكثر الأوقات غنىً فى سنة ١٩٩٩ هذه ، التى ستنتهى قريبًا .

سنغافورة ـ الخميس ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

أذهب مباشرة من مطار سنغافورة إلى الفندق لأمضى نهارى نائمًا. مكالمة هاتفية من البروفسور تومى كوه، وزير خارجية سنغافورة السابق، والذى كان أحد الدبلوماسيين القلائل الذين دافعوا عن مصر فى قمة عدم الانحياز، فى كوبا، سنة ١٩٧٩. تفاجئنى كثيراً هذه المكالمة لدرجة أنه لم يخطر ببالى أن أسأله كيف علم بوجودى. يدعونى إلى المشاركة هذا المساء فى عشاء مع بعض الدبلوماسيين. لكننى أعتذر بسبب التعب. يبعث لى بكتبه الأخيرة التى سأعمد إلى قراءتها فى الطائرة.

طوكيو ـ السبت ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

أفتتح فى مبانى جامعة الأمم المتحدة، وبحضور رئيس وزراء اليابان، المؤتمر الذى ينظم بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيس معهد العلاقات الدولية.

طوكيو ـ الأحد ١٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

أتعرف إلى رئيس جامعة الأمم المتحدة، وهو هولندى. عندما كان المنصب شاغراً أعلنت عن دعمى لترشيح ياسوشى أكاشى، الذى كان لديه معرفة ممتازة بالواقع، لكنه لم يكن لديه بلا شك الخبرة الجامعية الطويلة. ولربما كان ليحصل، إضافةً إلى ذلك، على الدعم المطلق من السلطات اليابانية. لكن فيديريكو مايور فضّل المرشح الهولندى. فى النهاية، أعتقد أنه كان على حق. فلربما أثار تعيين يابانى لإدارة جامعة دولية تتخذ مقرها فى اليابان، بعض الحساسية. فيما عدا ذلك، يعطينى الرئيس الجديد الانطباع الأفضل. إنه مصمم على أن يحاول تجربة فريدة وشجاعة: أن يصحح، من طوكيو، المركزية الأوربية التى لا تزال تتسم بها آليات الأمم المتحدة، على مستوى الذهنية وعلى مستوى التنفيذ.

طوكيو ـ الاثنين ١٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

لا أستطيع أن أغادر طوكيو قبل القيام بحجى التقليدى إلى معبد الأميرال–

توغو. ترافقني مستشارة السفارة، امرأة شابة رائعة تتابع طقوس الاحتفال باهتمام وفضول. البرد يخترق العظام ذاتها، على الرغم من كنزات الصوف والمعطف والجوارب السميكة.

نغادر مباشرة إلى المطار حيث نصل مبكرين على موعد الطائرة. وفيما نحن ننتظر، ألاحظ أنها تشعل سيجارتها الخامسة:

«ألم تحاولى التوقف عن التدخين؟

ـ أنوى التوقف عندما أجد عريسًا، تجيبنى وهى تبتسم.

أصل إلى باريس فى نهاية فترة بعد الظهر، بعد اثنتى عشرة ساعة من الطيران. ألقى لِيا التى عادت هذا الصباح من نيويورك.

باريس ـ الثلاثاء ١٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

سأقوم بزيارة لكويتشيرو ماتسورا، المدير العام الجديد لليونيسكو؛ كى أتأكد من أن مشروع نشر حصيلة أعمال لجنة الديمقراطية والتنمية، الذى أعمل عليه، لن يتأجل. ليس نادرًا، فى الواقع، أن نرى التقارير الطويلة التى تعدها اللجان العلمية منسية فى أدراج اليونيسكو...

كويتشيرو ماتسورا رجل قصير القامة، نحيل، على وجهه مسحة تواضع، لكن وراء نظارتيه، نظرة تنفذ منها إرادة حديدية. لديه النية فى ضبط نظام هذا البيت الكبير الذى يريد إعادة تأهيله. حلم جميل؟ فى النهاية، لا يمكن لمنظمة دولية أن تستمر بدون قسط من الحلم. هل سيكون بمقدوره أن يفرض رؤياه للأمور على مؤسسة محكومة بالمركزية الأوربية؟

بيروت ـ الثلاثاء ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

يستقبلنى على التوالى الثلاثة الكبار: رئيس الوزراء السنى، رئيس مجلس النواب الشيعى، ورئيس الجمهورية المارونى. الثلاثة يبدون الحماسة نفسها فى

التحضير للقمة الفرنكفونية، التى يجب أن تعقد فى أكتوبر ٢٠٠١ . وُضع الملف فى عهدة نائب رئيس مجلس الوزراء، ميشال المر .

القاهرة ـ الجمعة ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

مكالمة هاتفية من نتولى كازادى الذى ينبئنى بخبر انقلاب عسكرى فى أبيدجان . يحزننى هذا النبأ . كان ساحل العاج يجسّد صورة لبلد مستقر ومزدهر، أى بمعنى ما، قدوة بالنسبة إلى البلدان المجاورة ـ بوركينا فاسو والنيجير ومالى وتشاد . جرت خلافة هوبوييت ـ بواغنى بشكل طبيعى . وها هو انقلاب عسكرى يأتى ليطيح فى غضون ساعات قليلة بالاستقرار والازدهار والديمقراطية .

القاهرة ـ الأحد ٢٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

لدىّ موعد مع عصمت عبد المجيد، الأمين العام للجامعة العربية، كى أتحدث إليه عن مؤتمر أرغب فى تنظيمه سنة ٢٠٠٠ ، فى باريس، حول موضوع الحوار بين العالم العربى والفرنكفونية .

يؤيد كثيراً هذا المشروع الذى سيعهد بتحضيره إلى ممثل الجامعة العربية فى باريس .

القاهرة ـ الجمعة ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩

دعانا الرئيس حسنى مبارك لمشاهدة العرض الذى سيقدمه جان ـ ميشال جار عند سفح الأهرامات . لدهشتنا الكبيرة يجلسوننا إلى طاولة الرئيس وزوجته . معنا رئيس الوزراء وزوجته، والسيدة جيهان السادات، ووزير الثقافة، فاروق حسنى، صانع هذا الحدث الكبير . من الخيمة الرئاسية التى نصبت على رأس هضبة صغيرة نلمح فى الوادى، على مستوى أدنى، حشد هائل يغنى ويرقص على إيقاع موسيقى جان ـ ميشال جار المعدنية .

منتصف الليل . ننهض لتقبيل الأصدقاء والمعارف، ولنتمنى سنة طيبة لكل

الذين يحيطون بنا حتى يأتى رئيس البروتوكول ليلفتنا إلى أن الرئيس قد عاد ليجلس فى مكانه وليحثنا على القيام بالمثل. المؤثرات الضوئية الباهرة التى ترافق العرض يفسدها للأسف الضباب وعاصفة رملية خفيفة.

ينسحب الرئيس مبارك وزوجته، البروتوكول يخولنا أن نحذو حذوه. وفيما نحن نتجه إلى السيارة فى شبه عتمة، يقترب منى الوزراء وزملاء قدامى. نتلقى - أنا وليا - فى بضع دقائق كمًا من المديح والإطراء يفوق ما تلقيته خلال كل سنواتى فى مَصر. تناول العشاء على الطاولة الرئاسية، بينما هؤلاء الذين يحكموننا موزعين على طاولات صغيرة، يحيطنى بهالة لا مثيل لها، فى عيون حاشية الرئيس مبارك!

«لديك ضعف تجاه مناخ المداهنة هذا، تقول لى ليا، فيما أنا أقاوم السعال الحاد الذى تسببت لى به العاصفة الرملية.

- هذا مشجع من وقت لآخر. لكن كى تُعرف قيمته يجب أن تتخلله أسفار وتأملات فى الصحراء، أوقات طويلة من الوحدة ودخول إلى الذات».

ينتهى العام باستعراض صوت وضوء ضخم. معرض هائل للأوهام، عند أقدام الأهرامات، التى تزعجها عاصفة رملية جاءت، مرةً أخرى، لتغمر أرضنا ولتذكرنا أيضًا بأن الصحراء - هذا المحيط الميت من العطش - ستستمر فى حماية رموز مصر التى تعود لآلاف السنين، وستغمر بالرمال، فى الوقت نفسه، تمنينا.

٢٠٠٠

القاهرة ـ السبت ١ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

عندما كنت شابًا كنت أستعجل الزمن كى تتحقق أمنيتى بأن أشهد ولادة العام ألفين، ربما لأن للرقم سحره. وما كان يهمنى لو انطفأت شمعة حياتى بعد ذلك.

وها قد تحققت أمنيتى فى هذه الصبيحة حيث أشعة الشمس تدخل غرفتى وتداعب ملاءات سريرى، تمامًا كما تسكب نورها على معبد أبى سنبل لتعلن ولادة نهار جديد. لكننى لست ممتنًا للآلهة التى أهدتنى هذا اليوم الأول من الحياة فى سنة ألفين. وكأن الهدية تلك حق مكتسب لى. إنه الجحود : الصفة الأولى بدون شك للإنسان.

أسوان ـ ٢ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

تذكرنى أسوان بعهد الطفولة حين كنت آتى إليها لأنعم بمناخها الجاف الذى كان يساعد فى معالجة نوبات مرض الربو الذى كنت أشكو منه.

وتذكرنى أسوان كذلك بعهد الصبا حين كنت أزورها فى عطلة عيد الميلاد للقاء الأهل الذين كانوا يمضون فيها شهرى ديسمبر ويناير وينزلون فى فندق Old Cataract.

وتذكرنى أسوان أيضًا بفترة من حياتى الدبلوماسية، عندما كان يكلفنا الرئيس

السادات باستقبال رؤساء الدول الأجانب الذين يزورون مصر أو عندما كان يدعونا ببساطة إلى اجتماعات عمل.

أسوان هي أكثر المدن غموضًا في العالم، يزيد في سحرها فندق Old Cataract الذي يعود بناؤه إلى مطلع القرن العشرين. ولعل الآغا خان قد اكتشف سرها هو الذي كان يزورها كل عام للاختلاء بنفسه والتأمل في النيل وآلهته الخفية. وقد أوصى، وفق تقليد فرعوني قديم، بأن يُدفن فيها على قمة هضبة من الرمال الصفراء تقع في الضفة الغربية للنهر. فقد كان الفراعنة يوصون بأن يُدفنوا على ضفة النهر لجهة مغيب الشمس عند الأفول، لاعتقادهم بأنهم سيولدون من جديد في اليوم التالي على الضفة الشرقية منه.

لقد حرص الرئيس فرانسوا ميتران، قبل وفاته بفترة وجيزة، على أن يزور أسوان. وقد أسرّ لي في باريس بأن إقامته فيها سوف تساعده على تحمل آلامه الأخيرة. وقد سرت إشاعة بين العاملين في فندق Old Cataract الذي اتخذه مكانًا لإقامته مدة الزيارة، بأنه كان يتمنى لو تفاجئه المنية وهو في هذه المدينة.

حجزنا الجناح الملكي حيث ينزل عادة الملوك ورؤساء الدول الذين يحجون إلى أسوان. وفيه شرفة كبيرة تطل على النيل الذي ترتفع على سطح مياهه في هذا الموقع صخور أصبحت ملساء بفعل مرور الزمن وارتفاع منسوب المياه. الطقس دافىء. كأنها ليلة صيف. بينما الطقس في القاهرة شتاء.

أتيت إلى أسوان بحثًا عن صور من الماضي وذكريات وانطباعات. جئت لأعانق مصر العميقة، لأتأمل وأشكر الآلهة التي أنعمت عليّ بأن أشهد ولادة الألفية الثالثة. بالأمس عندما كنت في القاهرة، كنت أحس بأن ذلك طبيعي، وبأنه حق مكتسب. اليوم، أمام جمال أسوان الفريد أكتشف من جديد أنه لا وجود لحق مكتسب وأن الحياة عود على بدء، وأن كل يوم جديد تمنحه الحياة لنا هدية تستحق الشكر.

أسوان ـ الاثنين ٣ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

أعثر فى حديقة الفندق على الصخرة التى كنت أحب أن أتسلقها عندما كنت طفلاً. كنت أشعر حينها أننى أسيطر من هذا العلو على الحديقة التى كانت مخيلتى تحولها إلى سهل فسيح. لقد ضاع «السهل»، التهمه فندق قبيح من عشرة طوابق، شُيد فى الفترة الناصرية ـ السوفيتية، فشّوه أسوان الجميلة.

وأعثر على صخرة أخرى، تلك التى بقربها فى ليلة مقمرة من شهر ديسمبر فكرت جديًا فى أن أتزوج بـ ن. م. فتاة جميلة فرعونية القسمات ذات سحر خلاب، إرث ثمين من مصر الخالدة. فى اليوم التالى تنزهنا معًا بين جنبات زهر الجهنمية... بينما كانت عيون أهلى ترمقنا بكثير من الرضا. فالأميرة الفرعونية تنتمى إلى قبيلتى، وقد حان الوقت بالنسبة إليهم كى أستقر. لكن عودتى إلى باريس لأنهى دراستى وضعت حداً لهذا الحلم الشتوى.

أسوان ـ الثلاثاء ٤ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

تتكفل السياسة وتبعاتها بطرد ذكرياتى القديمة، إذ يتصل بى معاونىّ من باريس لمعرفة التصريح الذى يمكن الإدلاء به والموقف الممكن اتخاذه من العملية الانقلابية فى أبيدجان. يكمل تقلب الطقس مهمة تبديد أحلامى، إذ تتدنى الحرارة فجأةً. لن نستطيع أن نتناول طعام العشاء على الشرفة.

شىء غريب. تُذكرنى ليالى الصيف الدافئة والسماء الممتلئة بالنجوم فى الريف المصرى، وتعيد إلىّ مَاضيًا رومانسيًا، بينما ترُدُنى الأمسيات الباردة والسماء الملبدة إلى اللحظة الحاضرة وإلى مشاكل الحياة اليومية.

أسوان ـ الأربعاء ٥ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

ليا تلح. يجب أن نتمكن من أن نغادر هذا الفندق الساحر. هى تود أن تذهب لزيارة معبد فيلة، وللتنزه فى أسواق المدينة. فقد وضع محافظ أسوان بتصرفنا

سيارة وحارسًا شخصيًا. نقرر أن نذهب لزيارة المتحف الجديد وقد بُنىَ على الطراز المعمارى الفرعونى ليضم مجموعة جميلة جدًا من المنحوتات القديمة.

فى المساء نلتقى بعبد العزيز حجازى وزوجته. كنا زملاء دراسة فى جامعة القاهرة، فى الخمسينيات، وزوجته كانت إحدى طالباتى. وقد تسلق بنجاح كل مراتب النفوذ حتى أصبح رئيسًا للوزراء فى عهد السادات. بعد ذلك ترك السياسة للعمل فى القطاع المصرفى. استمتعنا باستذكار حكايات ماضية عشناها، عندما كان ينشر مقالاته فى «الأهرام الاقتصادى»، وهى الجريدة الاقتصادية والسياسية التى أسستُها والتى كانت تطمح إلى أن تكون على غرار مجلة «الإكونوميست» Economist البريطانية.

يقلقنى هذا الميل للحديث عن الماضى ولتغييب الحاضر. إلى الرغم من أننا، حجازى وأنا، قد لعبنا دوراً سياسيًا فى تاريخ مصر الحديث. هل نتجنب الحديث عن مشاكل بلدنا الراهنة ونفضل اجترار الماضى لأننا لم نعد فى موقع السلطة؟ ربما.

نعود إلى جناحنا فى الفندق ذات الأثاث القديم، نشاهد فيلم «زوجة الخباز» لمارسيل بانيول يعرض على شاشة التلفاز، وكنا قد شاهدناه من قبل مرات عديدة يصعب إحصاؤها لكن ذلك لم يؤثر فى متعة المشاهدة.

القاهرة ـ الجمعة ٧ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

على مدى عشرات السنين اعتاد أمين عبد النور الذى تزوج بقريبة لى أن يقيم فى يوم عيد الميلاد لدى الطائفة القبطية حفل استقبال فى داره يدعو إليه كل الشخصيات فى القاهرة. بين الحضور رئيس الوزراء عاطف عبيد إضافةً إلى العائلة والأصدقاء.

أتبادل أطراف الحديث مع ميلاد حنا أحد كُتَّاب جريدة «الأهرام» والذى حاز على جائزة بوليفار Prix Bolivar، العام الفائت فى اليونيسكو. يعرب لى عن قلقه على مستقبل الأقباط فى مصر فى مواجهة الموجة الأصولية التى تجتاح المنطقة.

يعترف بأن ظاهرة تشدد الهوية ممكنة دائمًا وخطرة خصوصًا عندما تأخذ طابع صحوة إسلامية أصولية، لكنه مقتنع بأن الانعكاسات الايجابية للعولمة ستظهر حتى فى القرى البعيدة فى أقاصى صعيد مصر، وأنها ستشكل لقاحًا وقائيًا قويًا ضد سموم الأصولية.

باريس - السبت ٨ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

سعيد بأن أعود إلى مدينة الأنوار. أتلقى خبر ضياع السلطة نهائيًا من يد الرئيس كونان بيدييه فى ساحل العاج. سأتصل به هاتفيًا لأعرب له عن محبتى. فقد فرضت على نفسى قاعدة لا أحيد عنها أبداً: التعبير عن صداقتى لمن يخسرون السلطة.

باريس - ١٢ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

هذا المساء يقيم شهريار خان سفير باكستان فى باريس حفل استقبال على شرف الأمير الحسن بن طلال، ولى عهد الأردن، الذى لم يرقَ إلى العرش؛ لأن أخيه الملك حسين قد عيّن ابنه، قبل وفاته بأيام، وريثًا له فى السلطة بدل أخيه.

الحسن بن طلال رجل قصير القامة، ممتلىء الجسم، له ضحكة صاخبة رنينها كؤوس بلور تتكسر. يتمتع بروح النكتة وبثقافة سياسية عالية. يصافحنى بحرارة ويشرح لى أنه يبحث عن مركز فى إحدى المنظمات الدولية، وأنه يفكر فى مركز رئيس المفوضية العليا للاجئين وكان قد شغله فى الماضى أمير آخر، هو صدر الدين آغا خان. أعده بأن أساعده فى هذه المغامرة الجديدة على الرغم من أننى كنت بعيداً عن أروقة الأمم المتحدة.

حدثنى شهريار خان عن كتاب قد انتهى للتو من إعداده تحت عنوان «بدايات بوبال» The Beguns of Bhopal يروى فيه تاريخ عائلته. لديه الآن مشروع كتاب آخر، عن تجربته فى راوندا. إنه دبلوماسى لامع ينتمى إلى الأرستقراطية المسلمة فى باكستان. نعرف بعضنا منذ سنوات عديدة. ولا أزال أذكر زيارتى الأولى إلى

إسلام أباد حين كان أمينًا عامًا لوزارة الخارجية فى بلاده. فبينما كانت الحجارة تنهال على سيارتنا المصفحة، يرمينا بها جمع غفير من الناقمين على الأمم المتحدة، كان شهريار خان يتابع حديثه بإنجليزية خريج أكسفورد، دون أن تهتز فى رأسه شعرة واحدة.

وبعد سبعة وثلاثين عامًا من الخدمة الجيدة والشريفة لبلده، انكفأ ليعيش فى لندن. فطلبت منه حينها أن يكون ممثلى الخاص إلى راوندا بعد أن طلب جاك - روجيه بوه - بوه وزير خارجية الكاميرون السابق إنهاء مهمته. أسباب عديدة كانت تدفعنى لتكليف شهريار خان بهذه المهمة: صفاته الحميدة كدبلوماسى، جنسيته الباكستانية، التى كانت تشكل ضمانة لموقف حيادى من الأطراف المتنازعة فى راوندا، وكذلك معرفته الممتازة باللغة الفرنسية التى كان يتقنها ببراعة تمامًا كما الإنجليزية. فقبل بأن يخرج من عزلته الهادئة فى لندن ليلتزم بهذه المهمة الصعبة والخطرة. التقيته فى كيغالى فى تموز ١٩٩٥. اجتمعنا معًا بالبرلمانيين الراونديين. ثم قصدنا نيابوى حيث الكنيسة التى قُتل فيها مئات الراونديين، وحيث رائحة الموت والمجزرة كانت لا تزال تفوح. ومعًا دخلنا فى مفاوضات مع قادة راوندا الجدد.

باريس - الخميس ١٣ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

عشاء على شرف السفير جان - دافيد ليفيت الذى ترك منصبه كمستشار دبلوماسى للرئيس جاك شيراك ليتسلم مهمته فى نيويورك كسفير لفرنسا لدى الأمم المتحدة. هو رجل لامع يعرف كيف يعلمك بأخبار سيئة بطريقة تنسيك أنها سيئة، وذلك فن مفيد فى عالم السياسة...

عشنا معًا وعبر الهاتف فصول المواجهة بينى وبين الإدارة الأمريكية فى الشهور الأخيرة من العام ١٩٩٦. إنه ينظر بعين الرضا إلى مركزه الجديد. لكننى أتساءل إن لم تكن مهمته فى باريس إلى جانب الرئيس جاك شيراك أكثر أهمية من تلك التى تنتظره فى الأمم المتحدة.

يحضر حفل العشاء سفير المملكة العربية السعودية، الشيخ فيصل العجلان، ترافقه زوجته الرائعة نهى، وهما يشكلان معًا زوجًا يفخر به العالم العربى. ليس الدفاع عن صورة المملكة العربية السعودية أمرًا هينًا بالطبع. لكن هذين الشخصين المهذبين المتأنقين فى تصرفاتهما كانا شديدى البعد عن الصورة التقليدية السائدة عن المملكة.

وكنا قد وجهنا كذلك دعوةً للسيدة جندرو ـ مسالو ولزوجها. وقد حلت محل ميشال غييو على رأس الوكالة الجامعية الفرنكفونية التى جعل منها هذا الأخير خلية نحل تنشط من أجل ازدهار الفرنكفونية. إن هذه السيدة القصيرة القامة التى قد نخالها طرية العود بسبب نحافتها إنما تتمتع بدينامية هائلة.

حفل العشاء جميل. فقد اختارت ليا طعامًا مصريًا: كباب، وأرز بالزبيب، وسلطات شرقية. وهى تشرح لمدعويها ببساطة وصراحة أنها تجنبت أن تدخل أطباقها فى منافسة مع المطبخ الفرنسى المميز.

من الطريف الملاحظة أن الجميع يتردد فى أن يسكب لنفسه السَلَطات الشرقية المختلفة التى يمكن تذوقها كمقبلات تؤكل مع الخبز العربى أو مع الكباب، والتى كان التعريف بها مادةً لمتابعة الحديث عندما تحل دقائق طويلة وغير متوقعة من الصمت الثقيل.

باريس ـ الجمعة ١٤ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

أجرى حديثًا طويلاً على الهاتف مع الرئيس المالى ألفا عمر كونارى نتبادل خلاله وجهات النظر حول الأحداث فى أبيدجان. يُعرب لى عن قلقه العميق ـ يال توتر الوضع هناك لما لساحل العاج من دور أساسى فى المنطقة، وتحديدًا بالنسبة إلى البلدان المجاورة: غينيا، مالى، النيجير، بوركينا فاسو. وهو بصفته رئيسًا لمجموعة دول إفريقيا الغربية، عازم على التدخل لإنقاذ الديمقراطية فى ساحل العاج.

باريس ـ السبت ١٥ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

اجتماع مجلس إدارة أكاديمية القانون الدولى فى لاهاى .

يكاد المرء ينسى السنّ المتقدم للمشاركين، وهو شرط لعضويتهم، لما يتميز به النقاش من حيوية ونشاط وحماس . أشاهد مبارزات فكرية حقيقية تملؤنى غبطة .

الرئيس نيقولا فاتيكوس، وهو من قدامى الشخصيات الصعبة المراس فى مكتب العمل الدولى، أكثرنا ديناميـة . إنه من الملتزمين بقضايا العالم الثالث . كيف لا واليونان بقيت حتى الأمس القريب تنتسب إلى هذا العالم؟ يجب أن أعترف أيضًا بأنى معجب بروح الفكاهة التى يتمتع بها والتى كانت تضفى بعضًا من الحيوية على هذا الوسط من علماء قانون متشددين وإداريين هولنديين صارمين .

باريس الثلاثاء ١٨ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

غداء يجمعنا نحن الاثنين فقط : هوبير فيدرين وأنا فى وزارة الخارجية الفرنسية . أعتقد للأسف أن دعوته هذه موجهة إلىّ كوزير خارجية سابق لمصر أو كأمين عام سابق للأمم المتحدة أكثر مما هى موجهة إلى كمسؤول فى الفرنكفونية . نتحدث طويلاً عن «القوة الأمريكية البالغة التفوق» وهى عبارة يفضلها هوبير فدرين على عبارة «القوة العظمى» .

أقول لمحدثى :

ـ فرنسا لا تستثمر إمكانيات الفرنكفونية كما يجب .

يشاركنى الرأى ويوافقنى فيما ذهبت إليه من أن الفرنكفونية تتلخص بالنسبة إلى اليسار الفرنسى فى أنها شكل من الاستعمار الجديد المقنع، وتتلخص بالنسبة إلى اليمين، من أنها شكل من المناهضة لأمريكا .

نتكلم عن التوسع الحاصل للفرنكفونية والذى تقتصر الاستفادة منه فى الوقت الراهن على دول أوربا الوسطى والشرقية .

أعود لأؤكد على الفائدة التى ستجنيها الفرنكفونية لو انضمت إليها إيطاليا وهى قوة كبرى على المتوسط، ودولة تهتم بمشاكل العالم الثالث خصوصًا فى شمال إفريقيا وجنوبى الصحراء، كما يجمعها بالإضافة إلى كل ذلك تاريخ مشترك مع فرنسا.

يوافقنى هوبير فدرين على ذلك لكنه يركّز على صعوبة هذه العملية. أعتقد أن التفاوض فى هذا الشأن يجب أن يتم من خلال محادثات ثنائية بين فرنسا وإيطاليا فى مرحلة أولى. ولكن إذا كانت فرنسا لا تهتم بالفرنكفونية إلا من بعيد، فالاحتمال يبقى ضعيفًا بأن يكون لديها الرغبة فى إعطاء الفرنكفونية دينامية جديدة، وبأن تعمل على الحصول على مشاركة إيطاليا. والواقع ان الدولتين الأكثر قربًا من المجموعة الفرنكفونية من وجهة النظر التاريخية والثقافية وحتى الجغرافية، أعنى بذلك إيطاليا والجزائر، ليستا من بين الدول الأعضاء فى المجموعة الفرنكفونية.

نصل إلى التحلية فلا يأكل منها الوزير إلا القليل. أذكّره بأن اتفاقية المقر بين فرنسا والمنظمة الدولية للفرنكفونية لم توقع بعد على الرغم من مرور عامين عليها، وأن الإدارة قد تأخرت كثيراً فى دفع مساهمتها فى ميزانية المنظمة. يسجل هوبير فدرين هذه الملاحظات بعناية على دفتر صغير.

ياونديه - الأحد ٢٣ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

غريب أن أرتاد الأمكنة نفسها. يبدو أن هذا هو قدرى. إنها طريقة للسفر دون الشعور بالاغتراب، ذلك أننى، فى ياونديه أعود من جديد إلى نفس الجناح الذى كنت أشغله سنة ١٩٩٦ عندما جئت إلى هنا فى خضم حملة إعادة انتخابى للأمانة العامة للأمم المتحدة، طالبًا دعم منظمة الوحدة الإفريقية.

صالون واسع الأرجاء يتصل بغرفة طعام مجهزة بمطبخ صغير. غرفة نوم كبيرة جدًا حتى أن ردهتها تتسع بسهولة لسرير كبير. لذلك يلزمك دقيقتان كى تتنقل بين أول هذا الجناح وآخره، وعدد أكبر من الدقائق كى تطفىء كل الأنوار فيه والتى

يتركها عمال الخدمة فى الفندق مضاءة دائمًا. أسارع كل مساء إلى إطفاء كل الأنوار مخافة أن يهاجمنى البعوض.

ياونديه ـ الاثنين ٢٤ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

هذا الصباح، أشارك فى الجلسة الافتتاحية لحلقة دراسية تنظمها الكاميرون والفرنكفونية والكومنولث حول موضوع «الديمقراطية فى المجتمعات التعددية».

أكاد لا أتعرف إلى القاعة الكبرى فى قصر المؤتمرات فى ياونديه، على الرغم من أننى قد حققت فى هذا المكان بالذات، عام ١٩٩٦، أحد أكبر انتصاراتى السياسية عندما حصلت على دعم قمة الوحدة الإفريقية لانتخابى لدورة ثانية لمركز أمين عام الأمم المتحدة، على الرغم من الحملة التى شنتها الدبلوماسية الأمريكية ضد هذا الانتخاب.

يلقى الزعيم إميكا أنياكو خطابه بلغة إنجليزية رفيعة المستوى. أتكلم بدورى، بالفرنسية، منوهًا بالتعاون الوثيق الذى بدأ منذ عامين مع الكومنولث. فلقاؤنا هذا ليس الأول من نوعه لأننا كنا منذ ١٩٩٨ قد أرسلنا بعثة مشتركة إلى جزر السيشيل لمراقبة الانتخابات هناك. كذلك فإن الكومنولث كان ممثلاً فى احتفال اليوم العالمى للفرنكفونية الذى جرى فى باريس، فى ٢٠ مارس ١٩٩٨، كما فى مؤتمر وزراء الاقتصاد الفرنكفونيين فى موناكو، فى إبريل ١٩٩٩. من جهتها شاركت المنظمة الدولية للفرنكفونية فى مؤتمر وزراء الاقتصاد لدول الكومنولث الذى انعقد فى أوتاوا، خريف ١٩٩٨. وقد وقعنا اتفاقية تعاون فى يوليو ١٩٩٩.

وكلنا أمل أن تستطيع هذه المبادرات إقناع كل هؤلاء ـ وكم هم كثر ـ الذين لايزالون يعتقدون أن لا رسالة للفرنكفونية سوى أن تدفع خارج المجال الثقافى الفرنسى كل من ينطق بالإنجليزية.

ياونديه ـ الثلاثاء ٢٥ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

أجرى محادثات مع أوغسطين كونتشو كويومينني وزير خارجية

الكاميرون. إلى جانبه وزيران، أحدهما لشؤون الكومنولث، والآخر للعالم الإسلامى.

لطالما كنت أطمح إلى أن يأتى يوم تعين فيه وزارة الخارجية المصرية إلى جانب الوزير وزيرين أحدهما مكلف بالشئون العربية والآخر مكلف بملفات إفريقيا والسودان. لكن نظام الإدارة المصرى الذى لا يضاهيه تصلبًا أى نظام إدارى آخر قد حال دائمًا دون ذلك، للأسف.

ألتقى رئيس الجمهورية، بول بييا، يدور بيننا حديث صريح وأخوى وهادئ. أكلمه عن لقائى بزعيم المعارضة الأنكلوفونى، جون فرو ندى. يتذكر أنه حين التقينا فى جنيف منذ بضع سنوات اقترحت عليه أن يعين هذا الرجل سفيراً فيبعده بذلك عن البلاد ويرضى به فى الوقت نفسه الكاميرونيين الناطقين باللغة الإنجليزية.

أتوجه إلى الرئيس أسأله:

ـ لماذا لم توجه إليه دعوة للمشاركة فى الحلقة الدراسية عن الفرنكفونية والكومنولث؟ ذلك أن إشراكه فى هذا النوع من النشاطات الرفيعة المستوى، وسيلة ناجحة لإيقاف عدائيته وقدرته على الإضرار بالآخرين.

يجيبنى بهدوء:

ـ إنه يرفض أن يشارك فى الاحتفالات التى أترأسها.

فلا أُلحّ.

بول بييا مرتاح للمؤتمر الذى يجرى فى هذا الوقت بالذات فى ياونديه والذى يأخذ جيداً بعين الاعتبار الازدواجية اللغوية الفرنسية ـ الإنجليزية فى الكاميرون. يقلدنى وسامًا ثم يهدينى كرسيًا يليق بزعيم: مقعد مزين بالنقوش وبتماثيل صغيرة من البرنز.

أزور مركزاً للنشر مجهزاً بمطبعة ضخمة. حشد من الناس لاستقبالى وتُرى هنا

وهنالك رايات كبيرة تزهو بألوانها، رُفعت للترحيب بى. أتجول فى المطبعة، أدوِّن كلمة فى الكتاب الذهبى، وأتفحص باهتمام رزمة كبيرة من الكتب المدرسية. يشرحون لى أن تكلفة طباعة الكتب هنا أقل بضعفين من تكلفة طباعتها فى فرنسا. أثمّن هذه المبادرة بكلمة مقتضبة أختتمها بالقول إنه لا يمكن اعتبار الكتب المدرسية مجرد سلعة، ولا مادة للربح. يُسَرّ بذلك الحضور.

ياونديه ـ الأربعاء ٢٦ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

الحفل الختامى لأعمال مؤتمر الفرنكفونية والكومنولث. يقدم مقررو الجلسات خلاصة لأعمال المؤتمر، تُقر التوصيات، وتُلقى الكلمات الاختتامية وكانت للزعيم أنياكو، ولرئيس الوزراء بيتر مافانى موزونجه، ولى.

أعقد مع الأمين العام للكومنولث مؤتمراً صحفيًا قصيراً، نذهب بعده إلى معهد الكاميرون للعلاقات الخارجية الجاثم على قمة هضبة. أتذكر أنى ألقيت محاضرة فى هذا المعهد منذ حوالى عشرين عاماً، عندما كنت أجوب إفريقيا كسفير للجامعة العربية مدافعًا عن مشروع إنشاء منظمة عربية ـ إفريقية. لكن الأوضاع فى المعهد تقهقرت كثيراً منذ ذلك التاريخ. فالمكتبة فى حالة مزرية. كتبى تقبع بجلال على طاولة صغيرة. لكن ذلك لا يبعث فى نفسى أى شعور بالرضا. بل على العكس، أحزن كثيراً حين يقع نظرى على كل الكتب المهترئة، الممزقة، المتسخة، الغارقة فى بحر من الإهمال. وكيف لى أن لا أحزن، أنا الذى يحيط كتبه بعناية تكاد تبلغ حد الوسوسة، أنفض عنها الغبار بانتظام، أعالجها بحيطة لا متناهية، وألّمع أغلفتها الجلدية.

أمصادفة هى؟ أعود إلى غرفتى فألتقط على جهاز التلفاز المحطة المصرية: الرئيس مبارك يفتتح، فى نقل مباشر، معرض الكتاب. مصر الحبيبة تلاحقنى حتى هنا فى قلب إفريقيا.

باريس ـ الأربعاء ٢٧ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

أقوم بزيارة لرئيس النيجير الجديد مامادو تاندجا. برفقتى أندره ساليفو الذى

يتدخل بمهارة ليقود النقاش. لدى الرئيس، وهو عسكرى سابق، تصور صارم للإدارة الجيدة...

باريس ـ الأحد ٣٠ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

أُدخلت إلى مستشفى بيجين Béjin. غداً علىّ أن أخضع لفحص بالمنظار.

باريس ـ الاثنين ٣١ كانون الثانى / يناير ٢٠٠٠

نتائج الفحص بالمنظار ممتازة، لكن الصورة الطبقية كشفت عن وجود خرّاج على شكل نصف حلقة حول القولون. سيكون علىّ أن أبقى فى المستشفى لمدة أطول.

باريس ـ الأربعاء ٢ شباط / فبراير ٢٠٠٠

لقد تمّ تنظيف الخرّاج من القيح بواسطة الأشعة. أطلب من الطبيب أن يشرح لى ماذا سيحدث بعد ذلك:

ـ والآن، ما هو مصير الخرّاج؟

ـ نتطلع إلى اختفائه.

باريس ـ الخميس ٣ شباط / فبراير ٢٠٠٠

جاك شيراك على الهاتف. علم بمتاعبى ويريد أن يطمئن على صحتى وأن يعرف متى أغادر المستشفى. تتسبب هذه المكالمة بشجار بينى وبين زوجتى ليّا التى بادرتنى بالقول: «أنت تقصّر بالقيام بلفتات طيبة كهذه. رئيس الجمهورية يجد الوقت لذلك بينما تدّعى أنت أنه ليس لديك وقت أبداً للاهتمام بمعاونيك».

باريس ـ السبت ٥ شباط / فبراير ٢٠٠٠

السيدة مارى ـ جوزى جاكوبس وزيرة شؤون المرأة فى دولة اللوكسمبورج

تطلبني على الهاتف لتخبرني بأن المؤتمر النسائي الفرنكفوني الذي كنت قد حضّرت له ولكنني لم أستطع أن أحضره، قد تكلل بالنجاح. لقد تمسكت كثيراً بهذا المشروع. كان ذلك يعني، في ذهني، إعداد قائمة بالمبادرات التي قامت بها الدول والحكومات في المجموعة الفرنكفونية، بعد مرور خمسة أعوام على المؤتمر النسائي في بيجين، وتنظيم لقاء تشاوري بين نساء ينتمين إلى مختلف البلدان الفرنكفونية مما من شأنه أن يقوي موقفهن وأن يؤمن لهن فعالية أكبر في الدورة غير العادية للأمم المتحدة التي ستنعقد في نيويورك، في يونيو القادم. وكان ذلك يعني أيضًا بلورة وإطلاق عدد من المشاريع العملية التي تدعم حضور المرأة في قطاعات السلطة والتنمية. وقد شكلت هذه المشاريع محاور مركزية في المؤتمر.

في هذا المجال، يجب أن ننظر بعين الحذر إلى الأفكار المسبقة في الغرب التي تعتبر أن البلاد النامية أو التي هي في مرحلة الانتقال تراكم كل مظاهر التخلف. إذ إنه يكفي أن نرى المكانة التي تحظى بها المرأة في بعض الحكومات، والبرلمانات والمراكز الدبلوماسية في بلدان العالم الثالث، كي يتضح لنا خطأ هذا الاعتقاد. على كل لم تنتظر الأمهات المرضعات في إفريقيا أو في آسيا أن تُعطين السلطة لكي تؤمنّ استمرارية الحياة لعائلاتهن ولقراهن ولمناطقهن. لكن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى ضرورة إعطائهن الأدوات التي تمكنهن من السير نحو الأفضل، والوسائل اللازمة خصوصًا لتأهيلهن، وعلى أرفع مستوى.

وكما أنا مقتنع بأن اجتثاث بذور الأصولية الإسلامية يتم عبر تحرير المرأة، كذلك فإني مؤمن بأن مشاركة المرأة في السلطة ستمكننا من أن ننمّي قيم الحرية والديمقراطية والسلام في العالم. إن الديكتاتوريات، وانتهاك حقوق الإنسان، والحروب ما كانت يومًا من صنع النساء. بل كنّ هن دائمًا ضحاياها في الدرجة الأولى.

باريس ـ الأربعاء ١٦ شباط / فبراير ٢٠٠٠

جلسة عمل طويلة مع جيلكريست أولمبيو. ليس لديه أية نية للمساعدة على

إنجاح الحوار الداخلى فى التوغو. فهو يسعى لهدف واحد: رحيل الرئيس إياديما. لذلك فإن حضوره المحادثات لن يسهّل عملية المصالحة.

باريس ـ الاثنين ٢١ شباط / فبراير ٢٠٠٠

عاد الخرّاج حول القولون ليظهر من جديد. نبأ مزعج حمله إليّ الإخصائى الذى أضاف: «لكن ثمة تعزية، إنه أصغر حجمًا من المرة السابقة». يُجمع الأطباء على ضرورة إجراء عملية جراحية.

باريس ـ الاثنين ٦ آذار / مارس ٢٠٠٠

يأتى الأمير الأردنى الحسن بن طلال لعيادتى فى المستشفى ترافقه ثلة من الحرس الشخصى. يرغب بمعرفة رأيى فى ترشيحه لمنصب المفوض السامى للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين.

ـ اسمح لى يا صاحب السمو أن أتحدث إليك بصراحة. إن حظوظك ضئيلة جدًا فى الحصول على هذا المنصب. أولاً لأنك أردنى، وثانيًا لأنك أمير هاشمى، من سلالة النبى. وأخيرًا لأن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ستتحكم فى سياسة الشرق الأوسط للسنوات القادمة.

يشكرنى على صراحتى الأخوية، ويتمنى لى الشفاء العاجل ويستأذننى بالمغادرة فيما تبدو عليه علامات الانزعاج مما قلته له. ربما أكون على خطأ... فقد أخبرنى بنفسه عند وصوله بأنه حصل على دعم الأمريكيين، وأن الشخصيات الكثيرة التى تكلم معها بالموضوع، وبينها رئيس البنك الدولى، جيم ولفنسن، قد شجعته على ذلك. وإذ يراودنى الشك فجأةً، أتصل بولفنسن فى واشنطن. يقول لى إنه التقى الأمير بالفعل لكنه يعتقد أنه ليس لديه أى حظ بالفوز بهذا المنصب. ثم يردف: «لكن إياك أن تقول له شيئًا». من المؤكد أن جيم ولفنسن بدا أقل صراحة منى. لقد أفقدنى أسبوعان فى المستشفى لباقتى الدبلوماسية...

باريس ـ ٧ آذار / مارس ٢٠٠٠

لفتة جميلة من الرئيس حسنى مبارك وزوجته، فقد اتصلا بى تليفونيًا فور تبليغهما نبأ دخولى إلى المستشفى.

باريس ـ الأحد ١٢ آذار / مارس ٢٠٠٠

أخيرًا أعود إلى البيت. أحس هذا المساء بنهم شديد للعمل. أُحضِّر الاجتماع المقبل للجنة الخبراء الدوليين، فى اليونيسكو. تمنحنى الكتابة متعة كاملة، نوعًا من الفرح يصعب تحليله. حتى أننى أجد لذةً فى التعب الجسدى الذى أحس به بعد عدة ساعات من الكتابة.

باريس ـ الاثنين ١٣ مارس / آذار ٢٠٠٠

أمضى نهارى على الهاتف. أتصل بمحافظ الإسكندرية لأحدد معه موعد الاجتماع المقبل للمجلس الدائم للفرنكفونية والذى يجب أن ينعقد فى هذه المدينة على هامش الاحتفالات بالذكرى العاشرة لتأسيس جامعة سنغور.

باريس ـ الخميس ١٦ مارس / آذار ٢٠٠٠

أتسلم كتاب «ماسينيون فى قلب الزمن». وكان جاك كيرييل الذى تولى جمع النصوص التى أعدها للإسهام بهذا الكتاب حوالى خمسة عشر كاتبًا، قد طلب منى أن أكتب مقدمته. أقرأ النص من جديد وأشعر برضا عن النفس أكيد. نحب أن نقرأ ما كتبناه. تمامًا كما نستمتع بصورتنا فى المرآة بعد الحلاقة.

نحن مدينون بالكثير للويس ماسينيون، المسافر فى رحلة حج دائم من ضفة إلى أخرى على المتوسط. أدين له بالكثير. لكن خلاصة ما علمنى وما أتمسك به هو فهم أفضل للعالم العربى، وأنا أعترف له بهذا الفضل. قبل أن أتعرف إليه كنت أنظر إلى العالم العربى من داخله. لقد علمنى أن أنظر إليه من الخارج من منطلق «الاغتراب الروحى».

وثمة درس مهم آخر علمنا إياه وهو كيف ننفتح على الرأى الآخر، وكيف نتمسك بقناعاتنا بغير تشدد، كيف نصغى إلى الآخر بمحبة وكيف نتحاور معه باحترام، فيصبح الآخر العدو، الآخر الغريب، أخًا لأنه الوجه الآخر للذات وفق منطق الجدلية العزيز على قلب ماسينيون.

باريس ـ الاثنين ٢٠ مارس / آذار ٢٠٠٠

أتحادث هاتفيًا إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية، عصمت عبد المجيد، حول مؤتمر الفرنكفونية والعالم العربى الذى أنوى تنظيمه فى باريس خلال الأشهر المقبلة.

باريس ـ الاثنين ٢٧ مارس / آذار ٢٠٠٠

يصلنى كتاب «السلام الميؤوس منه» للسفير إلياهو بن أليسار الذى مات فى ظروف خاصة جداً. يحمل إهداء كتبته زوجته الرائعة، نيترا: «مع أجمل الذكريات. ومع صداقتى».

كان إلياهو بن أليسار أول سفير لإسرائيل فى مصر. وعندما تُوفى كان سفيراً لإسرائيل فى باريس.

تثير اهتمامى طريقته فى رواية أحداث عشناها معًا، إذ إن رؤياه تختلف جذريًا عن تلك التى عبرت عنها فى كتابى «طريقً القدس».

يذكر فى الصفحة ٣٩٩ من كتابه مقالةً لى كنت قد كتبتها فى عام ١٩٧٥ أرى فيها أن الصراع العربى ـ الإسرائيلى صراع إيديولوجى بين استعمار إسرائيلى وحركة تحرر فلسطينية، وأقارن بينه وبين الصراع الدائر فى جنوب إفريقيا حيث تتواجه الأكثرية الإفريقية السوداء والأقلية العنصرية البيضاء.

يعارض بن أليسار فى كتابه هذا الرأى الذى يتفق حوله العالم العربى بأكمله. فهو يعتبر، من جهته، أن الصهيونية حركة تحرير وطنية للشعب اليهودى. ويؤكد بالتالى أنه لا يمكن اعتبارها بأى حال من الأحوال حركة استعمارية.

قد نسلم جدلاً بأن الصهيونية ربما كانت فى بداياتها حركة تحرر لليهود، لكن يبدو أن السفير قد نسى أنها تحولت بسرعة إلى احتلال استعمارى فُرض بالقوة على السكان المحليين من الفلسطينيين.

سأكتب رسالةً إلى نيترا لأشكرها على لفتتها الجميلة. هى امرأة محببة، لطيفة، وساحرة، تختلف كثيراً عن زوجها الذى كان رحمه اللهَ متباهيًا، مدعيًا ووقحًا.

باريس ـ الخميس ٣٠ مارس / آذار ٢٠٠٠

أستقبل هذا الصباح واحداً من هؤلاء الملهمين الذين يريدون تغيير العالم حتى يصبح على صورة أحلامهم. يطلب إلىّ التدخل لدى السلطات المصرية حتى يتمكن من تنفيذ مشروع حفر نفق بين هضبتين فى سيناء. وهو يرى فى تنفيذ هذا المشروع رمزاً لإقامة الحوار بين الإسرائيليين والعرب. لا أستطيع أن أمنع نفسى عن التفكير فى الرسام جان فيرام الذى قصدنى منذ حوالى عشر سنوات برفقة ليلى دى روتشيلد التى تبرعت بتمويل مشروع كان يود تنفيذه: طلاء صخور سيناء بالألوان. والمدهش أننى استطعت أن أحصل على موافقة محافظ سيناء وأنه بالفعل قد قام بطلاء سبع أو ثمان صخور ظهرت صورها فى عدة مجلات فنية. لا أعلم الآن ماذا بقى من هذا العمل الفنى المعرض للزوال تحت تأثير الشمس والعواصف الرملية. بالفعل يجب أن يشعر المرء بالامتنان لمثل هؤلاء الحالمين الذين يضفون على حياتنا اليومية لمسةً من الخيال المبدع والشعر.

باريس ـ ٣١ مارس / آذار ٢٠٠٠

يتحتم علىّ أن أجد وسيطًا جديداً للفرنكفونية فى توغو يحل مكان مصطفى نياس الذى عُين رئيسًا للوزراء. وقد وقع اختيارى بعد المشاورات على عيدى أومارو، وزير خارجية النيجير السابق والأمين العام السابق لمنظمة الوحدة الإفريقية. أتصل هاتفيًا بكوفى بانو لأخبره بما يجول فى رأسى. يبلغنى أنه

سيستشير الرئيس إياديما لأنه من الضرورى أن يحوز الوسيط الجديد على ثقة الرئيس التوغولى إذا كان القصد تسريع عملية المصالحة الوطنية فى التوغو .

باريس ـ السبت ١ إبريل / نيسان ٢٠٠٠

تزيدنى قناعة قراءتى اليومية لصحيفة «الأهرام» ولل«هيرالد تريبيون» وال «فيجارو» بأن بلادى لا تزال متخلفة عن الركب . فهى تركض وراء الأحداث دون أن تتمكن من التوصل إلى إدراك المتغيرات التى تهزاليوم الكرة الأرضية، ولا التحكم بها والتأثير فيها . يكفى للتأكد من صحة ذلك القيام بمقارنة بين هذه الصحف اليومية الثلاث . فنحن فى مصر نعير أهمية للأحداث الثانوية ونمارس فن سفسطة قروسطية متكلفة . بينما نجد فى الصحافة الغربية تحليلات قصيرة محكمة البناء تُقدم إلى القارىء رؤيا شاملة . الفارق كبير بين هذه المقالات المكثفة التى تتضمن عناوين داخلية تلفت الانتباه، وبين النصوص المعسولة، المحشوة بالنعوت الطنانة الرنانة مثل «تاريخى»، «لا ينسى»، «عظيم» . لازلنا فى بلداننا المتخلفة نكتب بأسلوب قصص ألف ليلة وليلة !

باريس ـ الاثنين ٣ إبريل / نيسان ٢٠٠٠

الاجتماع الثالث والأخير للخبراء الدوليين فى إطار لجنة «الديمقراطية والتنمية» التى أترأسها فى اليونيسكو .

أشعر بشىء من عدم الارتياح ؛ لأن لدى انطباعًا أكيدًا بأن نقاشاتنا تبقى على مستوى المبادئ الكبرى والاعتبارات النظرية، مغفلة النواحى العملية للمسألة . طبعًا ينتظر البعض منا أن نصدر عددًا من التوصيات لكننا لم ننجح بعد فى بلورتها .

أفتتح الجلسة بتهنئة كويتشيرو ديماتسورا على انتخابه لمنصب المدير العام لليونيسكو، وبتوجيه الشكر إليه على الدعم الذى يقدمه لاجتماع الخبراء الدوليين الذى يضمنا .

أقترح بعد ذلك أن نبدأ النقاش حول العلاقة بين التنمية الديمقراطية والعقوبات الاقتصادية. أقدم للنقاش بعرض مقتضب للإشكالية: إن كل عمل يهدف إلى إعاقة التنمية له تأثير مباشر فى الديمقراطية. فبين الحرب العالمية الأولى وعام ١٩٩٠ أُصدرت قرارات بفرض عقوبات ونُفذت أكثر من ١١٥ مرة. غير أن هذه العقوبات كانت انتقائية لأنها تطال إجمالاً الدول الصغيرة، البلدان الأقل تقدمًا، بل أكثر من ذلك الطبقات الأقل حظًا فى مجتمعات هذه البلدان. ولأكرر عبارة صادمة أقول: «إن العقوبات الاقتصادية تشكل انتهاكًا لحقوق الإنسان باسم حقوق الإنسان»... يُضاف إلى ذلك الخسائر اللاحقة بدول العالم الثالث التى تطبق عليها هذه العقوبات، والتى يُشار إليها فى لغة العسكريين «بالخسائر الجانبية».

كيبا مباى يشاركنى الرأى ويدعمه بحجة إضافية لم تخطر ببالى: «إن العقوبات الاقتصادية ليست فى الواقع عقوبات؛ لأن كل عقوبة يجب أن تقع على مذنب. لكن الدول ليس لها أقدام لتمشى كما أنه ليس لديها جسد لتحس. قادة الدول هم المسئولون».

يرى بعض المشاركين الآخرين فى الاجتماع أن هذه المسألة لا تقع فى نطاق اهتمامات اليونيسكو ومن ثم فإنها لا تندرج فى نطاق عمل لجنتنا. لا أوافق على وجهة النظر هذه طالما نحن هنا للتفكير فى العوائق التى تقف فى وجه تنمية الديمقراطية.

المسألة الثانية التى أطرحها على الزملاء تتعلق بالعلاقة بين المساعدات الدولية والتنمية الديمقراطية. فمنذ نهاية الحرب الباردة ظهر ميل إلى ربط منح المساعدة على التنمية بعملية السير نحو الديمقراطية. بعبارة أخرى، تحل الشراكة القائمة على رؤيا سياسية مشتركة محل العلاقة بين مانح وممنوح. فبعض المانحين يضيف إلى شرط السير نحو الديمقراطية شرطًا آخر: «الإدارة الجيدة». هل تسهم هذه الشروط فعلاً فى تقدم الديمقراطية أم على العكس، تساعد على تراجعها بإنتاج أنظمة ليس لها من الديمقراطية إلا الواجهة؟

تعبر أكثرية المتداخلين عن دعمها لمبدأ المساعدة المشروطة على أن تحدد هذه

الشروط بالاتفاق مع الدول المستفيدة. فى المقابل، يعارض هذا التوجه غيو جيدينغ مذكراً بأن بلده، الصين، قد أعطى مساعدات للدول الأقل تقدمًا دون أن يفرض عليها أى شرط سياسى أو اقتصادى. هذا صحيح : يكفى أن تتنقل فى إفريقيا لتستنتج كم أن الصين كريمة.

الموضوع الثالث الذى أقترح معالجته يتعلق بالعلاقة بين اللامركزية والتنمية الديمقراطية لما تؤمنه اللامركزية للمجموعات المحلية من هامش حرية المبادرة التى تساعد على إرساء ديمقراطية المشاركة. وهى تمكّن كذلك المدن والمناطق من إدارة مشاكلها بطريقة تتلاءم مع الواقع على الأرض. لكن على الرغم من ذلك، لا يجب أن نقلل من المخاطر التي يمكن أن تكمن فى اللامركزية، خصوصًا بالنسبة إلى الدول الفتية التى لا تزال تسعى، وهى فى مرحلة التأسيس، إلى وحدة إدارية وسياسية. أعنى بذلك خطر إيقاظ أو تأجيج العصبيات المحلية.

يتفق المجتمعون على الاعتراف بأن كل دولة تشكل حالةً خاصة، لكنهم يلفتون الانتباه إلى أن أحد الأخطار التى تهدد الديمقراطية هو بدون شك احتكار السلطة، وإلى أن اللامركزية وسيلة لتوزع السلطة.

الموضوع الرابع الذى نتناوله هو : الأقليات والتنمية الديمقراطية. إن كل مجتمع هو بطريقة ما تعددى، ذلك أن لكل فرد انتماءات متعددة. ويجب أن تحكم هذه الانتماءات تراتبية وأن تُوجَه بشكل صحيح؛ كى لا تنحرف فتشكل حواجز حقيقية أمام الديمقراطية. إن التعددية المنضبطة والتى تُحسن إدارتها هى مصدر غنى، ومدرسة تسامح وحوار. كيف نحقق تنميةً ديمقراطية فى مجتمع متعدد الإثنيات ؟ أى خطة ننتهجها لمواجهة نماذج من المجتمعات حيث التكتلات السياسية قائمة على قاعدة إثنية أو دينية أو لغوية ؟ كيف نضمن حقوق الأقلية فى وجه قاعدة الأغلبية؟ أشير إلى أن منظمة الوحدة الإفريقية قد تداولت فى كل هذه المشاكل مع الكومنولث، فى ياونديه، فى يناير المنصرم.

يرى عبيد حسين أن الديمقراطية لا تعنى فقط حق الأغلبية وأن للأقليات الحق فى المشاركة فى الحياة السياسية. إن إدارة الدولة تكون جيدة عندما تؤمّن الدولة

الشعور بالأمان للأقليات وعندما تكون هذه الأقليات عنصر استقرار فى الدولة. ذكّر غييو جيادينغ بدوره أن الصين تتألف من ٥٦ مجموعة إثنية، وأنه على الرغم من أن إثنية «هان» تشكل الأكثرية، فإن جميع الأقليات على اختلافها تتمتع بحقوق مضمونة وبامتيازات خاصة. أما بيار كورنييون فله مقاربة أكثر براغماتية. فهو يميز بين وضع الأقليات المتجمعة فى بقعة واحدة من الأرض، ووضع الأقليات المنتشرة على كل مساحة الأرض. محمد بنونة يعود ليؤكد على الانعكاسات السيئة لزرع النظام الديمقراطى فى بلد متعدد الإثنيات. فإدخال الديمقراطية أدى فى العديد من الدول إلى تفجير الصراعات الإثنية لأن الحملات الانتخابية غالبًا ما ترتكز على التجمعات الدينية والإثنية. وهذا ما يحصل اليوم فى إفريقيا: إنه وجه جديد للعصبية القبلية. هناك نوعان من العلاج لهذا الوضع: احترام التنوع الثقافى ورفض أن تكون الخصوصيات الإثنية أوالثقافية أو السياسية معيار الوصول إلى السلطة. هانغ سونغ ـ يو يقترح، من جهته، ثلاث وسائل لمعالجة جدلية العلاقة بين الأكثرية والأقلية. الأولى تتصل بالتربية وبنشر ثقافة التسامح. الثانية سياسية تقضى بإرساء نظام فيدرالى يقيم التوازن بين الأكثرية والأقلية. أما الثالثة فتقوم على تقديم الدعم للأقليات المهمشة. فى المقابل، تعرب روزوسكا دارسى دى أوليفييرا عن عدم اقتناعها بأن التمثيل السياسى يكفى لحل مشكلة الحوار بين الأكثرية والأقليات.

ماذا نستخلص من هذا التبادل الغنى فى الرأى؟

١ ـ يجب الأخذ بعين الاعتبار تنوع الظروف التى تعيشها الأقليات تبعًا لكونها محصورة فى جزء من الأرض أو متوزعة على كامل مساحتها، وتبعًا لما تشكله من وحدة متماسكة تمكنها من الدخول فى منافسة مع الأكثرية.

٢ ـ لا يمكن أن تختصر الديمقراطية فى قاعدة غلبة الأكثرية.

٣ ـ إن التمثيل السياسى ليس حلاً كافيًا للمشكلة؛ بل يجب أن يستكمل بمقاربة شاملة وثقافية واقتصادية.

٤ ـ لا يجب أن تعطى الأقلية حق الفيتو.

٢٠٠٠

هكذا نصل إلى الموضوع الأخير لاجتماعنا : دولة القانون، أو ما يعرف عند الإنجليز والأمريكيين بـ «قاعدة القانون»، وعند العرب بـ «سيادة القانون».

يرى هيساشى أووادا أن دولة القانون تتأسّس على ثلاثة مبادىء : مشروعية السلطة، مسؤولية السلطة، وشفافية السلطة. إن هذه العناصر الثلاثة أساسية لتنمية الديمقراطية. بالنسبة إلى محمد بنونة، تحدد دولة القانون بأنها تتناقض مع المقولة الاعتباطية ـ «الدولة أنا» ـ التى يصبح معها من المستحيل أن نتوقع اليوم ما سيحدث غدًا. ذلك أن حدًا أدنى من الثقة والاقتناع ضرورى لنمو الاقتصاد. يتفق أعضاء مجموعة الخبراء على أن قواعد دولة القانون لا تُرسى بين ليلة وضحاها. بل إن ذلك يفترض ثقافة قانونية، وتشريعًا. فى هذا المجال، يعيد أليكسى فاسيلييف طرح سؤال كونفوشيوس : «لمن تكون الغلبة لشعب طيب أم لقوانين جيدة؟»، ليجيب فى النهاية، أن التربية شرط أساسى لقيام دولة القانون. يستكمل عبيد حسين هذه الفكرة فيقول : «كى تطبق القوانين يجب أن تكون سهلة ومفهومة من الجميع. يجب كذلك أن تواكب تطور المجتمع»؛ ثم يضيف وفى صوته حسرة : «فى بلادى قوانين تعود إلى عام ١٩١٨ مما يشكل صعوبات جدية». ثم يكمل بعد وقفة قصيرة : «قد تكون القوانين عادلة لكن القضاة لا يتحلون جميعًا بالنزاهة المطلوبة».

تريد روزيسكا دارسى دى أوليفييرا أن تبرز الحواجز التى قد تعيق سيادة القانون : سواء تعلق الأمر بإحقاق العدالة، أو بممارسات القضاة التى تمليها اعتبارات ترتبط بالانتماء إلى طبقة معينة أو بالتمييز بين الرجل والمرأة.

باريس ـ الثلاثاء ٤ إبريل / نيسان ٢٠٠٠

اليوم الثانى لاجتماع مجموعة الخبراء. علينا اليوم أن نتوصل إلى التوصيات التى ستُعرض على المدير العام لليونيسكو كويشيرو ماتسورا. إنه يوم صعب. ذلك أن الكلمات تستعيد كل أهميتها ما إن يتعلق الأمر بصياغة تقرير أو قرار أو توصيات. ولم يخرج الخبراء عن القاعدة، فاختلفوا خلال الجزء الأكبر من فترة ما

قبل الظهر على معنى بعض الكلمات، وعلى دلالة بعض الجمل، وعلى النوايا الخفية لمن يتمسكون بصياغة ما دون غيرها. ومما لا شك فيه أن صديقنا الصينى غييو جيادينغ هو الأصعب مراساً. أبدى أسفه لأن غالبية التوصيات مرتكزة على ثقافة قانونية وسياسية غربية لا تتطابق مع الثقافة الصينية، وهو محق فى رأيه بكل حال. لذلك يتوجب علينا كى نتوصل لتوافق أن نعيد النظر فى كثير من التوصيات بل أن نحذف بعضها.

فى الساعة الخامسة، وكما هو مقرّر فى اليونيسكو، تنتهى اجتماعاتنا. أشكر المشاركين الذين يشكروننى بدورهم، ونتفرق مرتاحين لما حققنا، لكن منهكين من هذا الماراثون الفكرى الحقيقى.

إنها تجربة شيقة. لكن تبقى فى النهاية معرفة ما ستسفر عنه خلاصة مناقشاتنا، وكيف سيتقبلها الجمهور. تعهدت لمجموعة الخبراء بكتابة التوصيات وخلاصة الملف التى ستعرض على المدير العام لليونيسكو.

فى ذهنى تصور لنص التوصيات التى أود توزيعها على ثلاثة محاور: أثر العولمة فى التنمية الديمقراطية، الشروط القانونية للتنمية الديمقراطية، والشروط الاجتماعية والاقتصادية للتنمية الديمقراطية.

باريس - الخميس ٦ إبريل / نيسان ٢٠٠٠

يقيم المندوب العام للكيبيك فى باريس، ميشال لوسييه مأدبة غداء على شرف رئيس وزراء بلاده، لوسيان بوشار، الذى قدم إلى فرنسا فى زيارة رسمية. كل الشخصيات السياسية حاضرة: ليونيل جوسبان، شارل جوسلين، جان بيار شوفينومان.

إن صورة الكيبيك فى فرنسا كثيرة التنوع. فالكيبيك بالنسبة إلى البعض «قطعة من فرنسا متروكة فى الشمال الكبير». وبالنسبة إلى البعض الآخر، يسهم الكيبيك فى تفرد كندا كأمة ثنائية اللغة يشترك فى الولاء لها شعبان مختلفان. وهو بالنسبة إلى آخرين رمز للدفاع عن اللغة الفرنسية.

هناك قومية إثنية، وقومية دينية، وقومية لغوية. فى الكيبيك تسيطر قومية لغوية قوية أحترمها لكننى أعتقد أنها تتحول أحيانًا إلى شوفينية عدائية. مما يحملنا بالتالى على أن نتساءل إن لم يكن الكيبيك يرغب فى احتكار الفرنكفونية فى كندا، وإن كان يعير أية أهمية للجيوب الفرنكفونية الضائعة فى خضم محيط أنغلوفونى. من وجهة نظرى، إن فاعلية الكيبيك فى الدفاع عن اللغة الفرنسية ستكون أكبر لو اتخذت من المقاطعات الأنجلوسكسونية فى كندا مجالاً لها بدل بلدان إفريقيا وأوربا الشرقية الأعضاء فى المجموعة الفرنكفونية. لقد كان حلم بيار إليوت ترودو أن يجعل من كندا أمة ثنائية اللغة بالفعل، من شواطىء الأطلسى إلى شواطىء المحيط الهادى. وقد تناقشنا فى ذلك مطولاً لدى زيارته إلى مصر فى التسعينيات.

وبالمناسبة، ما زالت هذه الزيارة تقترن فى ذاكرتى بمصادفة غريبة بعض الشىء جرت خلال القمة. فلقد شاءت الصدفة أن يكون الرئيس ليوبولد سيدار سنغور مقيمًا فى القاهرة فى الفترة نفسها. فخطرت لى بصورة مفاجئة فكرة أن أنظم لقاء بين الرئيس السادات والرئيس سنغور وبيار إليوت ترودو. لكن كان ينبغى أن يوافق الرئيس على هذا اللقاء المرتجل وأن يسمح جدول أوقاته المحسوب بالدقيقة بعقده. لكن سرعان ما أُعجب أنور السادات بالفكرة، فكلفنى الاتصال بالشخصيتين الأخريين اللتين قبلتا الدعوة. فعُين موعد الاجتماع عند الظهر، فى اليوم نفسه. لطالما كنت أكره الارتجال، لكن الفرصة كانت جميلة جدًا. لم يكن لدى من الوقت قبل أن أذهب إلى فيللا الرئيس السادات إلا ما كان يكفى لإعلام الصحافة. وبينما كنت أحدثه عن بعض الملفات الراهنة، وصل ليوبولد سيدار سنغور، وتبعه بعد قليل بيار إليوت ترودو. لم يكن لدى مكاتب الرئاسة التى علمت متأخرة باللقاء الوقت الكافى لإحضار مترجم. فتكفلت بترجمة الأحاديث التى كان الرؤساء الثلاثة يتبادلونها فى تلك الصبيحة، من العربية إلى الفرنسية ومن الفرنسية إلى العربية، وكانت تدور حول العلاقات بين كندا والعالم الإفريقى. وبعد أخذ الصور التذكارية قال بيار إليوت ترودو للرئيس السادات إنه سيكون سعيداً بتعريفه إلى ابنه الشاب، ساشا، الذى كان يرافقه فى سفره. فأجابه الرئيس السادات أنه يعشق

الأولاد وأنه يسعده التعرف إليه. كان ساشا يعود لتوه من زيارة إلى حديقة الحيوانات حيث قضى فترة قبل الظهر. فبادره والده قائلاً بنبرة اعتزاز:

ـ أعرفك يا ساشا برجلين كبيرين يشهد لعظمتهما التاريخ، رئيس مصر ورئيس السنغال.

فأجابه الصبى الصغير بالعفوية التى يتحلى بها الصغار والتى تشكل مصدر قوتهم وظرفهم:

ـ شاهدت الساعة فى حديقة الحيوانات أربع زرافات، وثلاثة فيلة، والآن ألتقى برئيسين.

فقهقه ليوبلد سيدار سنغور بضحكة عالية، بينما احمرّت وجنتا بيار إليوت ترودو. أما أنا، فاخترت ألاّ أترجم رسالة الجيل الكندى الجديد. لدرجة أن الرئيس السادات الذى كان مقتنعًا بأن ما قاله ساشا إنما هو تعبير عن إعجابه، انحنى على الولد ليقبله بحنو وابتسام.

رافقت إلى الباب بيار إليوت ترودو الذى شكرنى بحرارة باسمه وباسم ساشا على هذه المقابلة الرائعة، ثم عدت إلى الرئيسين السادات وسنغور اللذين كانا يكملان الحوار، أو بالأحرى يتكلمان دون أن يتواصلا؛ لأن المترجم الذى كنته قد غاب لبضع لحظات.

باريس ـ الجمعة ١٤ إبريل / نيسان ٢٠٠٠

أحضر فى قصر الإليزيه احتفال تقليد وسام جوقة الشرف لفرنسين هاينريش. فرنسين متحمسة لفلسطين وللعرب وللعالم الثالث ولشيراك. وقد اعتُبرت السفيرة الأكثر شعبية والأكثر جاذبيةً عندما كانت تمثل المجموعة الأوربية فى القاهرة. فوحدها حفلات الاستقبال التى كانت تقيمها نجحت فى استقطاب بعض من وزرائنا الذين يكرهون الحفلات الاجتماعية الدبلوماسية.

أعود إلى المكتب أتصل هاتفيًا برئيس توغو، غناسينغبى إياديما. يوافق على

اقتراحى تعيين عيدى أومارو في منصب وسيط للفرنكفونية محل مصطفى نياس. لكنه حزين لرحيل هذا الأخير الذى كان موضع ثقته. بل إنه يأمل أن يستطيع نياس أن يتابع مهمته حتى بعد تسلمه مسؤولياته الجديدة كرئيس وزراء للسنغال.

باريس ـ الجمعة ٢٨ إبريل / نيسان ٢٠٠٠

يزورنى هذا الصباح إتيان تشيسكيدى وهو مناوء لموبوتو. يفصح لى عن أمله فى أن تتدخل الفرنكفونية بفاعلية أكبر فى مأساة الكونغو. أحس بحزنه وبتشاؤمه، على الرغم من أنه ما زال يتحلى بدينامية المناضل. تشاء الصدفة أن تسمح لى روزنامة مواعيدى بأن ألتقى فى اليوم ذاته برئيس بوستوانا السابق، كيتوميلى مازيرى، الذى أوكلت إليه منظمة الوحدة الإفريقية مهمة القيام بوساطة بين الجهات المتناحرة فى الكونغو، وفقًا لاتفاقيات لوساكا. إنه رجل قصير القامة، خجول، يعبر عن رأيه بتواضع أظنه مصطنعًا. يرافقه شاب إنجليزى يبدو لى أنه الموجه الخفى لهذه الوساطة. وإن كان تعيين الرئيس مازيرى قد حصل على موافقة الدول الأنغلوفونية ـ أوغندا، زيمبابوى، راوندا التى تقدم نفسها فى الآونة الأخيرة كدول أنغلوفونية على الرغم من انتمائها للمنظمة الدولية للفرنكفونية ـ فإنه لم يرضِ لوران ديزيريه كابيلا، وحلفاءه الأساسيين: أنغولا وزامبيا.

أعرض على كيتوميلى مازيرى أن أضع بتصرفه أحد معاونىّ ليساعده فى مهمته. يقبل عرضى بلا حماس. لدى انطباع أنه لن يكون على مستوى الدور المنوط به فى قضية الكونغو المعقدة. لا أعرف أى الأمرين أكبرهما خسارة: استبداله بشخصية أخرى أم التمسك به. فإحدى الصفات التى يجب أن يتحلى بها الوسيط، انتماؤه إلى بلد كبير يشكل القوة التى يسند ظهره إليها. والرئيس مازيرى ينتمى إلى دولة صغيرة جدًا، تديرها سياسة حكيمة بالطبع، لكنها لا تتمتع بثقل كبير على الساحة الدولية.

باريس ـ الثلاثاء ٢ أيار/مايو ٢٠٠٠

حفل استقبال رسمى فى مجلس الشيوخ الفرنسى ينظم على شرفى. قواعد

بروتوكولية صارمة تتحكم بكل التفاصيل. يجب أن يبدأ الاحتفال في الساعة الثالثة إلا ربعًا. نصل إلى شارع فوجيرار قبل الموعد المحدد مما يحمل السائق على أن يقوم بجولة في منطقة اللوكسمبورج لمرتين أو ثلاث مرات. أستمتع بمشاهدة شارع غينومير وشارع أسّاس اللذين كنت فيما مضى مواظبًا على ارتيادهما.

أخيراً، ندخل إلى باحة قصر مجلس الشيوخ. في أعلى الدرج يقف رئيس مجلس الشيوخ، كريستيان بونسُليه، الجنرال موليان، وجاك لوجاندر وهو العصب الناشط في الجمعية البرلمانية الفرنكفونية؛ ينزلون الدرج بتؤدة لاستقبالي لدى خروجي من السيارة. نتوجه إلى صالون صغير فخم جداً، يتقدمنا الحجاب الذين ارتدوا ثياب الاحتفالات البهية. أتردد بالجلوس إلى أن يدلني الرئيس بونسُليه على المقعد المخصص لي. يُقَدّم إلى أعضاء مكتب المجلس، أوقّع الكتاب الذهبي.

في الوقت المحدد، نغادر الصالون. أجتاز مع الرئيس بونسُليه الردهة المؤدية إلى قاعة الاجتماعات والتي اصطفّ على جانبيها الحرس الجمهوري. جميع أعضاء مجلس الشيوخ قد لبوا الدعوة إلى الاحتفال، القاعة ممتلئة. يقرأ كريستيان بونسُليه خطابًا يغمرني فيه بالكثير من الإطراء. ولولا لون بشرتي (الذي يشير إليه الأصوليون الأمريكيون بتعبير يحمل دلالات سلبية للغاية «البشرة السمراء» التي تُرادفها بالفرنسية لفظة «بشرة مبرنزة») لكان احمرّ وجهي خجلاً، على ما أظن. أصعدُ بدوري إلى المنصة لأقرأ خطابًا كتَبَته لي وأعادت كتابتَه مرات عديدة آني ديكمَنز. أتحدث مطولاً عن رهانات الفرنكفونية وعن تحدياتها الحالية. أعلن أني أعمل من أجل «فرنكفونية بلا تأشيرة دخول». وأنه من الضروري زيادة المنح والدورات التدريبية لتحقيق التفاعل بين الشمال والجنوب، وبين دول الجنوب فيما بينها. وأضيف أن «معركة الديمقراطية تبدأ بتأمين حرية انتقال الأشخاص والأفكار والمواهب بين دول المجموعة الفرنكفونية». ثم أشير بعد ذلك بلحظات قليلة إلى أن بعض الدبلوماسيين الفرنكفونيين يتكلمون بالإنجليزية بينما لا شيء يجبرهم على ذلك، فيعبر أعضاء مجلس الشيوخ عن إعجابهم بالتصفيق.

بعد أن ألقي خطابي أتوجه إلى مكتبة مجلس الشيوخ حيث أوقّع نسخًا من كتبي

يحتفظ بها مجلس الشيوخ. أشعر بالتأثر حين أقع على نسخة من أطروحة الدكتوراه التى أعددتها والتى نُشرَت فى دار بودون، سنة ١٩٤٩. لقد مرّ على ذلك أكثر من نصف قرن... لم يبقَ أمامى من الزمن إلا فسحة صغيرة. لحسن الحظ، يقطع كريستيان بونسُليه حبل هذا التأمل فى الميتافيزيقا ويأخذنى إلى صالونات رئاسة المجلس حيث يجب أن نعقد مؤتمرًا صحفيًا. عبثًا نترك القاعة لبضع دقائق على أمل أن تمتلىء، فهى لن تمتلىء... من المؤكد أن الصحفيين الفرنسيين غير مهتمين بالفرنكفونية!

حفل استقبال فى صالونات بوفران poffrand. عند افتراقنا يخاطبنى الرئيس بونسُليه بمودة صادقة قائلاً: «لقد كلفنى الرئيس شيراك بتقبيلك مرتين»، ثم يُضيف بظرف: «والآن سأطبع على وجنتيك قبلاتى الشخصية» ويختم قائلاً: «أرجو أن لا تتردد أبدًا بالمجىء لرؤيتى كلما شعرت أنك بحاجة إلى ذلك».

إن هو إلا وعد باللقاء لأن الاحتفالات تستمر فى السهرة حيث يُعرض فيلم مصرى فى إحدى قاعات قصر اللوكسمبورج، إنه «شحّاذون ومتكبرون» الذى استوحيَت قصته من رواية لألبير قُصرى. الكاتب هنا، قامة شيخ نحيل، وصوت ضعيف كأنه تمتمة. أبادره بالقول إنى أذكر أن كتابه قد طُبع فى القاهرة أولاً، وأن السيدة أفلاطون، وكانت ممن يدعمون الإبداع الأدبى، رأت من واجبها العمل على نشره وتوزيعه. وأذكر كذلك أن هذه الطبعة كانت مزينة برسوم للتلمسانى. يبتسم ألبير قُصرى ابتسامة كئيبة وهو يسمعنى أستحضر هذه الذكريات.

لقد قرأت الكتاب بحماسة عند صدوره فى الأربعينيات، لكنها المرة الأولى التى أشاهد فيها الفيلم وهو من إخراج أسمى البكرى التى جاءت لمشاهدة العرض. نكتشف فيه مصر كما كانت خلال السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، فقيرة ومزدهرة فى الوقت نفسه، ذلك أن معظم المعارك كانت تدور فى الصحراء الليبية بينما كان وجود جيوش الحلفاء فى القاهرة يؤثر إيجابًا فى الاقتصاد المصرى. ففقراء ألبير قصرى هم من البورجوازيين الصغار الذين يملكون المال الكافى لارتياد بيوت الدعارة أو لتدخين الحشيشة. زد على ذلك أن بطل الفيلم محاسب فى بيت

للدعارة. لا تختلف كثيراً الأحياء التى كنت أرتادها، الأزبكية والفجّالة، عن أحياء القاهرة القديمة التى تشكل الإطار الجغرافى فى رواية قُصرى.

باريس ـ الجمعة ٥ أيار/مايو ٢٠٠٠

أُصدر بيانًا أستنكر فيه قصف إسرائيل لأهداف مدنية فى لبنان، وهو عضو فى المجموعة الفرنكفونية. لم أعد أحصى عدد التصاريح التى أدليت بها خلال الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة لشجب الاعتداءات الإسرائيلية. بلا فائدة. لكن ذلك ليس سببًا لنصمت!

لو يعلم الإسرائيليون مدى الحقد الذى يغذونه فى نفوس العرب. لو يعلمون مدى إسهامهم فى نسف إمكانيات الحوار بقيامهم بمثل هذه الاعتداءات. فأنا أعتقد أن الآخر بمواقفه واستعداده النفسى للحوار هو الذى يولد لديك الرغبة فى أن تصل بقدراتك الدبلوماسية إلى حدودها القصوى. لكن كى ينجح الحوار لابدّ أن يصدر عن رغبة صادقة وعن إحساس بالأخوة الإنسانية. أجدنى اليوم عاجزاً عن إطلاق حوارٍ من هذا النوع، لما يجتاحنى من شعور عميق بالمرارة تجاه الإسرائيليين.

باريس ـ ١١ أيار/مايو ٢٠٠٠

سهرة خيرية يعود ريعها لمؤسسة ترأسها شانتال كومباورى. أجلس على طاولة الشرف بين السيدة جيسكار ديستان والسيدة ساسو نغيسّو. تُدعى للرقص كل من السيدة الأولى فى بوركينا والسيدة الأولى فى الكونغو. لا أعرف إذا كان البروتوكول يسمح لى بأن أدعوهما بدورى. لحسن الحظ تنقذنى من حيرتى سفيرة جزر موريشيوس، مارى ـ فرانس روسيتى التى تجرنى إلى الحلبة بحيويتها المعهودة. أعتذر للمغادرة عند منتصف الليل. لقد مضى وقت طويل دون أن أرقص على أنغام الأوركسترا. فى الماضى، زمن الشموس الساطعة التى تشُق الفجر، كنت أرقص حتى الساعات الأولى من الصباح.

باريس ـ الجمعة ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٠

جاء دور وفد كرواتى للاستعلام عن الخطوات التى يجب اتخاذها للالتحاق بالمنظمة الدولية للفرنكفونية. لا أستطيع أن أمتنع عن طرح السؤال:

ـ ما هى دوافعكم الحقيقية؟

يجيبوننى بصراحة مُربِكة:

ـ إنها الرغبة فى مواجهة السيطرة الأمريكية والألمانية فى بلادنا.

(بعد الظهر ...)

أقوم بزيارة مجاملة لرئيس جمهورية ساوتومى وبرنسيبى، ميغال تروفووادا، الذى أقام فى فرنسا خلال فترة منفاه. يروى لى كيف غضب الرئيس ماريو سواريس عندما أنبأه بقراره الانضمام إلى الفرنكفونية. أُطمئنه بهذا الصدد:

ـ نحن لسنا فقط على علاقة ممتازة بمجموعة الدول الناطقة بالبرتغالية، بل أكثر من ذلك نحن نتعاون مع هذه المنظمة.

يردف قائلاً:

ـ لا داعى لأن تطمئننى لأننى أكثر تمسكًا بالفرنكفونية من الفرنكفونيين أنفسهم.

باريس ـ الاثنين ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٠

أشارك فى حفل افتتاح معرض عن الفن القبطى فى معهد العالم العربى. كنت قد كوّنت على مدى سنوات عديدة مجموعة من الأقمشة القبطية القديمة لكننى بددتها بتوزيعها هدايا فى المناسبات غير مدرك للقيمة التى اكتسبتها مع مرور الزمن. وقد أُهديت بدورى، حين كنت مقيمًا فى نيويورك، قطعتان صغيرتان من القماش القبطى القديم علقتُهما فيما بعد على حائط فى غرفة مكتبى فى شارع بورغونيى. تجد ليّا هذه الأقمشة مكفهرة وحزينة. ليست على خطأ. فهذه الأقمشة، هى فى النهاية، أكفان لم يطرأ عليها أى تلف على مدى قرون عديدة؛ لأن الموتى كانوا يُدفنون فى رمال الصحراء؛ والرمل يحمى من الرطوبة.

فى إطار هذا المعرض فى معهد العالم العربى، أدعى للمشاركة فى حلقة إذاعية. تجتاحنى رغبة بأن أجيب عن الأسئلة قائلا إن كونى قبطيًا لا يعنى أنى مُلِمٌّ بالفن القبطى. لكننى أمتنع. إذ ربما تُفسر هذه الأقوال تنكرًا لـ «قبطيتى» ... أو شعوراً بالخجل من كونى قبطيًا. أشرح إذن كيف بدأت حياة التنسك فى مصر، وكيف لجأ النساك الأقباط المضطهدون إلى الصحراء وشيدوا فيها أديرتهم، وكيف أن موقع الصحراء بالقرب من وادى النيل قد سهّل عليهم العيش فى هذا المنفى الطوعى.

باريس - الأربعاء ١٧ أيار/مايو ٢٠٠٠

ألقى خطابًا فى مبنى الكوليج دو فرانس بمناسبة جائزة سانت أكزوبيرى التى تُمنَح على كتب تتوجه إلى الشباب. تلازم الأفكار يعيد إلى ذهنى كتاب «الأمير الصغير». أتذكر أن فتاة مصرية جميلة عاش أجدادها فى صيدنايا، قرب دمشق أهدتنى هذا الكتاب الجميل، هذا الحلم الجميل.

هو ليس فى الواقع كتابًا للأطفال. إنه كتاب للكبار يعيدهم بلطف إلى جنة الطفولة الضائعة.

باريس - الخميس ١٨ أيار/مايو ٢٠٠٠

أشارك فى مؤتمر يعقد فى اليونيسكو إحياءً لذكرى هوشى مينه. القاعة الصغيرة تمتلىء حتى الاختناق بالفيتناميين وبالمعجبين بهوشى مينه. يزودنا سفير فيتنام، لمزيد من الحرص، بسيرة رسمية للزعيم الفيتنامى أعدّها الحزب.

أتحدث عن «نغييان الوطنى»، رأس حربة النضال ضد الاستعمار، وعن حلمه بفيتنام مستقلة وموحدة. أتكلم عن ذاك الذى حارب بلا هوادة خلال نصف قرن، تارةً شاعراً وطوراً مناضلاً، تارةً فى الخفاء وطوراً مكللاً بالمجد، تارةً رجل مقاومة وطوراً رئيسًا؛ لأخلص إلى القول إنه جسّد فى النهاية، فى «هذه المنطقة التى صنعها التاريخ وجهد البشر الدؤوب»، جوهر فيتنام، أعنى بذلك تاريخًا طويلاً من المقاومة.

باريس ـ الجمعة ١٩ أيار/مايو ٢٠٠٠

اتصلت بى ليّا من نيويورك حيث جرت للتو مراسم دفن والدتها. كانت بولين حماتى امرأة رائعة. ترملت باكراً فعكفت على تربية أبنائها الثلاثة وابنتها. تركت فى مصر ثروتها التى وضع النظام المصرى اليد عليها، وبدأت حياة جديدة فى نيويورك. لم نسمعها يومًا تتذكر الماضى المجيد أو تأسف عليه. تعلمت طريقة فى الكتابة خاصة بالعميان كى تتمكن من تعليمهم. كانت تتابع دروسًا فى الجامعة، وتزور المتاحف على كرسى متحرك. لقد عاشت حياة مليئة فعلاً حتى آخر رمق.

باريس ـ الأربعاء ٢٤ أيار/مايو ٢٠٠٠

إنى مدعو إلى مأدبة غداء يقيمها رئيس بلدية باريس، جان تيبيرى، على شرف السفراء الأفارقة، فى القصر البلدى. فى نهاية المأدبة، تأتى كزافييرا تيبيرى لتجلس إلى جانبى، وكانت فى أوج مشكلاتها مع القانون. أتفاجأ كثيراً حين تسألنى:

ـ أنت الذى خضت معارك قاسية خلال حياتك، أى نصيحة يمكنك أن تسديها إلى؟

أجيبها من غير تردد:

ـ إذا بدأتِ بمعركة يجب أن تخوضيها حتى النهاية. إياك والاستسلام.

باريس ـ الجمعة ٢٦ أيار/مايو ٢٠٠٠

يستقبلنى الرئيس أبدولاى واد فى مقر سفارة السنغال فى باريس. يحيط به مجموعة من التكنوقراط الشباب، وهم صامتون ومتهيّبون. بعضهم درس وتدرّب فى الولايات المتحدة، وتعرّف إلى شىء آخر غير العالم الفرنكفونى.

يلومنى أبدولاى واد؛ لأنى لم أقبل كأمين عام للمنظمة الدولية للفرنكفونية، أن أتوسّط فى نزاعه مع عبده ضيوف فى أثناء الانتخابات. أشرح له بأنه لم يكن

بإمكانى أن أفرض نفسى، طالما أن عبده ضيوف رفض وساطتى. لا يبدو الرئيس الجديد للسنغال مقتنعًا بما أقول.

باريس ـ الثلاثاء ٣٠ أيار/مايو ٢٠٠٠

الجلسة الافتتاحية لمؤتمر «الفرنكفونية والعالم العربى» فى القاعة الكبرى لمعهد العالم العربى. إن هذا الحدث ـ الذى يحضره مدير عام اليونيسكو، كويتشيرو متسورا، وأمين عام الجامعة العربية، أحمد عصمت عبد المجيد، ومدير عام المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الإيسيسكو)، عبد العزيز عثمان التويجرى ـ يعطى إشارة الانطلاق للتفكير ضمن المجموعة الفرنكفونية فى موضوع حوار الثقافات الذى سيشكل محوراً أساسيًا للقمة الفرنكفونية المقبلة، فى بيروت.

باريس ـ الاثنين ٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٠

تطلب وزيرة خارجية النمسا، بنيتا فيريرو ـ فالدنير أن تلتقى بى. تريد أن أتدخل لدى الرئيس شيراك كى يحمل الاتحاد الأوربى على رفع الحصار الدبلوماسى الذى تعانيه النمسا منذ تسلم المستشار ولفغانغ شوسل مهامه. أقول لها:

ـ وما الذى تقدمونه بالمقابل؟

ـ لا شىء إلا نوايا بلادى الطيبة.

ـ ولِمَ لا نترك الأمور تهدأ. فالعقوبات رمزية أكثر مما هى فعلية.

ـ لو كان الأمر يعود لى لفعلت غير ذلك، لكن الرأى العام فى بلادى قد ضاق ذرعًا بالوضع القائم. إنه يشعر بالإذلال وينتظر من الحكومة أن تعبر بشدة عن سخطها تجاه أوربا.

ـ وهل تنوون مغادرة الاتحاد الأوربى؟

ـ قطعًا لا. فمشاركتنا فى أوربا أساسية للنمسا.

أعدها بأن أبلغ جاك شيراك بمسعاها.

باريس ـ الثلاثاء ٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٠

ألتقى الكولونيل أزالى، رئيس جمهورية جزر القُمُر، يرافقه وزير خارجيته الذى درس فى القاهرة والذى يتكلم العربية باللهجة المصرية. أبادره:

ـ لم تحترموا الروزنامة الانتخابية.

ـ ألا تعتقد أنه يجب أن نبدأ بالسعى إلى تحقيق المصالحة مع جزيرة أنجوان قبل تنظيم الانتخابات؟

أعترف بأنه محق.

أتناول طعام الغداء فى مبنى وزارة الداخلية بدعوة من جان بيار شوفينومان. معنا على الطاولة هنرى لوبيس وستيليو فارانجى. كلنا نستمع باهتمام لجان بيار شوفينومان يصف ما أحس به عندما خرج من الغيبوبة. يروى أنه كتب كلمة «اختطاف» ثم أنه بعد ذلك أخذ يتلفظ بكلمات لاتينية. فقلق الأطباء لذلك كثيراً: «إنه يكلمنا باللاتينية!».

نطلب بعد ذلك من هنرى لوبيس أن يقلّد فديريكو مايور الذى يتكلم الفرنسية بلكنة إسبانية قوية. فيفعل، وتبهجنا موهبته الكبيرة.

بعد الغداء أقصد قصر الإليزيه حيث أتحادث إلى الرئيس شيراك وأنقل إليه رسالة بينيتا فالدنير. يطلب منى أن أطمئنها إلى أن فرنسا لا تضمر للنمسا أى عداء، وأنه شخصيًا يدعم حلاً سريعًا وعادلاً للنزاع الدائر بين النمسا والاتحاد الأوربى.

أعود إلى مقر المنظمة، أتصل هاتفيًا ببينيتا وهى فى إسبانيا وأبلغها بالحديث الذى دار بيننا.

باريس ـ الجمعة ١٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٠

أحيط علمًا بنبأ إصابة نبيل خورى بأزمة قلبية دخل على أثرها فى الغيبوبة. إنها لخسارة كبيرة. فهو من أفضل الأقلام فى الصحافة العربية.

نبيل خورى يمثل بالنسبة إلىّ فرح الحياة، الحيوية، روح الدعابة، سرعة الخاطر، والأسلوب العذب البسيط المقتضب.

باريس - الأربعاء ٢١ حزيران/يونيو ٢٠٠٠

ألتقى هذا الصباح سفير كندا فى بيروت، هايغ سارافيان. هو ابن أشهر الخياطين فى القاهرة. يتكلم العربية والإنجليزية والفرنسية والأرمنية. يقوم بتحليل بسيط وواعٍ للوضع السياسى فى لبنان، فيقول: «الوجود السورى سيستمر. قد يقللّ السوريون من حجم قواتهم لكنهم لن يغادروا البلد طالما أنه لم تعقد أية اتفاقية بين سوريا وإسرائيل». أوافقه تمامًا فى هذا الرأى. وأضيف أنهم لن يغادروا لبنان طالما أن إسرائيل لم تعد إليهم أراضى الجولان.

باريس - الجمعة ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٠

أقوم بزيارة لرئيس وزراء كندا، جان كريتيان الذى يقوم بزيارة رسمية لفرنسا. أستعرض معه بسرعة آخر أعمال المنظمة الدولية للفرنكفونية كذلك النشاطات القادمة. يبادرنى قائلاً:

- برافو. يبدو أنك فى عز نشاطك. آمل أنك تطمح لولاية جديدة.

- حضرة السيد رئيس الوزراء، أنا أحذو حذوك، إذ إنى فهمت أنك تحضر، بدورك، لانتخابك لولاية جديدة.

حين أعود إلى المكتب أجد أن الجميع قد علم أنى أطلعت جان كريتيان على أننى أنوى ترشيح نفسى لمنصب رئاسة المنظمة لمرة ثانية. فسرعة انتقال الخبر هى فى باريس أكبر منها فى القاهرة.

باريس - الأحد ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٠

أقيم فى مقر المنظمة مأدبة عشاء على شرف روزاريو غرين، وزير خارجية

المكسيك، ولويز فليشيت، المندوبة الدائمة السابقة لكندا فى الأمم المتحدة، والتى تشغل حاليًا منصب أمين عام مساعد لهذه المنظمة : إنهما سيدتان بارعتان سررت بالتعاون معهما عندما كنت فى الأمم المتحدة. دعوت كذلك السفير كلود دى كيمولاريا الذى يستأثر بالحديث ويُضفى على العشاء حيوية. يتحدث بصوت عال ونبرة جهورية مؤكدًا أن تركيا لن تنضم أبدًا إلى الاتحاد الأوربى، على الرغم من الضغوطات التى تمارسها أمريكا لدعم هذا الانضمام.

يرن الهاتف. إنه كوفى أنان يُهدينى تحيات الصداقة ويطلب أن يتكلم مع لويز فليشيت. كوفى أنان، الذى كان فى مكان ما فى الشرق الأوسط، يعلم إذن أن لويز فليشيت تتناول العشاء هذا المساء فى بارِيس عند رئيسه السابق... من المؤكد أن الأخبار تنتقل بسرعة أكبر يومًا بعد يوم!

باريس ـ الثلاثاء ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٠

أعيش هذا الصباح تجربة صعوبتُها تعادل غرابتَها. يطلب منى البروفسور كاربانتيه أن ألقى خطابًا فى مبنى مستشفى جورج بومبيدو الجديد، فى حفل افتتاح مؤتمر «جراحة العام ٢٠٠٠» الذى يجتمع فيه اختصاصيون فى جراحة القلب أتوا من مختلف بلدان العالم الثالث، وبالأخص من البلدان الإفريقية الفرنكفونية. أقرأ بتأن الخطاب الذى أُعدّ لى. ثم أستمع بانتباه إلى مداخلات الإخصائيين المحترمين الحاضرين فى القاعة، بينهم البروفسور باكى، من هيوستون، ومجدى يعقوب، كبير جراحى مصر الذى يعيش حاليًا فى لندن.

عند الانتهاء من إلقاء المداخلات، يطلب منى البروفسور كاربانتيه أن ألقى كلمة الاختتام. ولم أكن مستعدًا لذلك. لكننى لحسن الحظ كنت قد سجلت بعض الأفكار فى أثناء المناقشات، فارتجلت كلمة قلت فيها :

١ ـ تجتاح إفريقيا أوبئة خطيرة : السيدا، الملاريا، السل، فلا يجب أن يكون الاهتمام بجراحة القلب التى تستوجب استثمارات مالية ضخمة، على حساب مكافحة هذه الأوبئة.

٢ ـ يجب تشجيع التعاون بين دول الجنوب، وهذا ما قمت به عندما كنت مسؤولاً عن السياسة المصرية فى إفريقيا. وهذا يعنى الاهتمام بإنشاء مستشفيات جامعية إقليمية تسهم فيها عدة دول إفريقية، وتكون على علاقة وثيقة بمستشفيات كبيرة فى الغرب.

٣ ـ لا يجب التقليل من أهمية مشكلة الصيانة. فجراحة القلب والشرايين تحتاج إلى معدات متطورة. مما يجعل إعداد التقنيين أمراً يوازى فى أهميته إعداد الجراحين. وسيكون من الضرورى إخضاع هؤلاء لدورات إعادة تأهيل مستمر.

باريس ـ الجمعة ٣٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٠

أقوم بزيارة لمستشفى بيجان، إنما كمريض هذه المرة. البروفسور فيردروس راض عن نتائج التصوير الطبقى المحورى. لكن يجب فى كل الأحوال أن أخضع لعملية جراحية يعود بعدها كل شيء إلى طبيعته. لذلك أمتنع عن المشاركة فى القمة الإفريقية التى ستنعقد فى لومى خلال الأيام القليلة المقبلة.

باريس ـ الاثنين ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠٠

حفل افتتاح المؤتمر العالمى لاتحاد أساتذة اللغة الفرنسية.

إنه مشهد مؤثر: القاعة الكبرى فى قصر المؤتمرات تعج بالناس. ثلاثة آلاف معلم أتوا من كل أنحاء العالم، سبع مائة منهم من الولايات المتحدة الأمريكية وحدها. من الواضح أن هذا الاتحاد يمثل بالنسبة إلى الفرنكفونية مصدر قوة يفوق فى أهميته بعض المؤسسات التابعة للمنظمة الدولية للفرنكفونية. يجب أن نجد الوسيلة لنضمه إلى المنظمة. من المؤكد، أن هؤلاء الذين يشعرون بالحنين إلى وكالة التعاون الثقافى والفنى سينظرون إلى ذلك باستياء. لكن المستقبل هو ملك للمجتمع المدنى، الذى له الحق فى الإسهام الكامل بأعمال المنظمات الدولية. إن أساتذة اللغة الفرنسية هم أفضل سفراء للفرنكفونية؛ أولاً لأن الاتحاد الذى يضمهم

هو اتحاد دولى، وثانيًا لأن هؤلاء الأساتذة هم بحكم اختصاصهم مؤمنون بضرورة نشر اللغة الفرنسية. وأخيرًا، لأنهم على احتكاك بآلاف الشباب ممن يشكلون فرنكفونيي الغد.

باريس ـ السبت ٢٩ تموز/يوليو ٢٠٠٠

ابن أخي يوسف يشعر ببعض الخيبة. فالوضع الاقتصادى فى مصر صعب. أنصحُه بأن يبدأ بالاهتمام بصحته إذا كان يرغب بالاستمرار فى مزاولة عمله السياسى. كذلك أنصحه بأن يخفف من عدائيته، وبأن لا يعمل على إبراز كفاءته كإخصائى فى علم الاقتصاد، وبأن لا يظهر تفوقه العلمى. يجب أن لا ننسى أبدًا أنه فى الحياة العامة لا وجود لإنسان لا يمكن الاستعاضة عنه بآخر. لكن ثمة عزاء: هو أن نعتقد بأنه لا يمكن أن يحل أحد مكاننا فى قلوب من نحب.

باريس ـ الخميس ٣ آب/أغسطس ٢٠٠٠

يُعرض فيلم للمخرج المصرى محمد خان على شاشة التلفزيون. يخنقنى الفقر فى بلادى. إن الفقر أشد قسوةً فى المدن الكبرى ربما لأنه يظهر فيها بشدة أكثر، ووضوح أكبر، ووقاحة أشد. يراودنى من جديد شعور بالذنب. أليس وجودى فى القاهرة أكثر فائدة لبلدى من وجودى في باريس؟ أتراني أغذّى فى نفسى حُلُم إسماعيل، بطل رواية يحيى حقى «قنديل أم هاشم»؟ يعود إسماعيل إلى القاهرة بعد غياب سبعة أعوام قضاها فى إنجلترا حيث تابع تحصيله الجامعى ونال شهادة فى الطب:

«كانت مصر بالنسبة إليه كما فى الحكاية أميرة نائمة لمستها بعصاها ساحرة شريرة فغرقت فى ثبات عميق مرتدية ثياب العرس متزينة بالحلى. انتظرها كى تستيقظ: متى ستستيقظ مصر؟ متى؟ كلما ازداد حبه لمصر، ضاق ذرعًا بالمصريين. لكنهم أقرباؤه، وليس الذنب ذنبهم، فهم ضحية الجهل والفقر والمرض والاستبداد المزمن. لقد رأى الدكتور إسماعيل الموت مرات عديدة، ولمس البُرص، وتنفس

لهاث المصابين بالحمى. فهل سيهرب الآن ليتجنب الاحتكاك بهذه المجموعة البشرية التى تُشكّل لحمه ودمه؟ أقسم بحبه لمصر أن ينبرى لمحاربة كل اعوجاج (...).

لم يكن من العبث أن يذهب هو إلى أوربا ليعيش فيها ويتعلم منها تقديس العلم ومنطقه. كان يعلم أن الصراع سيكون طويلاً بينه وبين من سيواجههم، لكن شبابه كان يسهل عليه الكفاح والتعب. كان يتمنى أن تأتى اللحظة التى سيخرج فيها إلى الحلبة. كان يترك فكره يسافر به على أجنحته: لو كان يمارس الكتابة فى الصحف أو لو كان خطيبًا فى إحدى هذه الجمعيات لاستطاع أن يعبر عن رأيه وعن قناعاته أمام الجمهور».

هكذا قرر إسماعيل أن يبقى فى مصر كى يحاول أن يشفى إخوته المصريين من المرض ومن العلل الكامنة التى تعمل فى الخفاء: كالفقر والجهل.

أما أنا فما عساها تكون مساهمتى؟ مجرد نقطة ماء فى الصحراء ... وبعد، ألم أتجاوز سن النضال من أجل نشر الكلمة الطيبة؟ ألم أكرس أكثر من نصف قرن من حياتى للنضال من أجل بلدى؟ حجج واهية لا تكفى لتبدد شعورى بعدم الرضا.

باريس - الاثنين ١٤ آب/أغسطس ٢٠٠٠

أُحضّر نفسى للسفر قريبًا إلى كندا برفقة كليمان دوهيم وكلود بوشيه. إن كندا بحكومتيها - الكيبيك وبرونزويك الجديدة - هى بلا منازع الفاعل الأكثر دينامية فى الفرنكفونية، حتى ولو كانت الأهمية التى توليها للكومنولث أكبر. تنبغى الإشارة هنا إلى أن هذه المنظمة أكثر قدمًا من المنظمة الفرنكفونية وأنها، على الأخص، أكثر تنظيمًا وأكثر قدرة على الابتكار. ويتمتع أمينها العام بصلاحيات أكبر من صلاحيات أمين عام المنظمة الفرنكفونية. أذكر أن الزعيم أنياكو أخبرنى بأنه كان يلتقى دوريًا رئيس وزراء بريطانيا، وأنه كان على اتصال دائم مع مكتب الخارجية. بينما لم تجر بينى وبين رئيس الوزراء الفرنسى أى محادثة منذ وجودى فى باريس؛ أما وزير الخَارجية فقد التقيته مرة واحدة خلال عامين، هذا كل شىء.

بياريتز ـ الثلاثاء ١٥ آب/أغسطس ٢٠٠٠

أنا مسرور بالعودة إلى فندق لو بالى Le Palais. في المقابل، لا تروقني كثيراً قراءة مقالة فهمي هويدى في الأهرام. انتقاد نمطي لاتفاقيات كامب ديفيد (الموقعة منذ أكثر من عشرين سنة) والتي أسهمت في رأيه في إضعاف العالم العربي، وتركت ياسر عرفات وحده ليدافع عن القدس. لكنه يتحاشى تحليل تراجع العالم العربي، وانحطاطه، والانكفاء على الذات والتعصب الديني، كما أنه ينسى أن يشير إلى وقاحة الإسرائيليين: وكلها عوامل تساهم في إنتاج الأزمة التي تعيشها البلاد العربية في هذه الآونة.

بياريتز ـ الأربعاء ١٦ آب/أغسطس ٢٠٠٠

المحيط، انتظام حركة الأمواج التي تأتي لتتكسر على الشاطىء وعلى الصخور كل ذلك يسهم في صنع سحر بياريتز. أما الراحة التي يؤمنها فندق لو بالى Le Palais، فتتكفل بالباقي.

بياريتز ـ الخميس ١٧ آب/أغسطس ٢٠٠٠

ألتقى فرانك فيزنر الذى شغل منصب سفير للولايات المتحدة في القاهرة، وكان مساعداً لوزير الدفاع عندما كنت في الأمم المتحدة. ترك السلك الدبلوماسي ليعمل في القطاع الخاص حيث «يكسب المال الوفير لأول مرة في حياته ...». يكشف لي عن حقيقة مدهشة. إن تدخل الولايات المتحدة في الصومال، عام ١٩٩٢، لم يكن له من هدف سوى إعطاء حجة إضافية للجنرال كولن باول كي يتجنب إرسال قوات إلى يوغوسلافيا. خلف النوايا الإنسانية النبيلة (التي لا يستطيع الرأى العام والكونجرس الأمريكي إلا تشجيعها) كانت تختفي، في الواقع، دوافع أقل براءة.

هذا ما يجعلني أكثر اقتناعاً بأننا في الأمم المتحدة لم نكن مزودين بالمعلومات الكافية. وفي المحصلة، كنا نعرف جيداً أن الدول الأعضاء في مجلس الأمن التي كانت تطلب معلومات عن الصومال أو عن يوغوسلافيا أو عن مناطق صراع

أخرى، كانت أكثر معرفةً منا بالوضع السياسى والعسكرى، لكنها كانت تحرص على ألا تستفيد الدول الأخرى أو منظمة الأمم المتحدة التى كانت تنتمى إليها، من المعلومات المتوفرة لديها.

(فى المساء ...).

يقيم جاك طاجان وزوجته الرائعة ميرونى، وهى يابانية الجنسية، مأدبة وداعية فى دارهما القائمة فى ضواحى بياريتز والتى قررا بيعها. نذهب برفقة السفير دو كيمولاريا وزوجته شانتال التى كانت تصحب معها كلبتها، أوفيليا. كلود دو كيمولاريا يقود السيارة بالحماس نفسه الذى يتسم به كل ما يفعله، لدرجة أننا نشعر جميعًا بالانزعاج، حتى الكلب الذى ما لبث أن تقيأ على مقعد السيارة.

نقضى سهرة ممتعة جداً. الجو احتفالى بامتياز (غناء ورقص)، لكننا نشعر بأن مضيفتنا يخالجها شعور بالحسرة وهى تستعد لمغادرة هذا المكان الساحر. فى طريق العودة، يروى لنا كلود دو كيمولاريا، الذى لا يكلّ، وبالتفاصيل الدقيقة، كيف لقى الأمين العام الثانى فى الأمم المتحدة، داغ هامرشولد، حتفه فى حادث طائرة فى الكونغو، عام ١٩٦١. وقد أنسته حماسة الراوى أن يتوقف عند بياريتز التى تجاوزناها لنجد أنفسنا على الحدود الإسبانية! حيوية دو كيمولاريا غير معقولة.

بياريتز - الأحد ٢٧ آب/أغسطس ٢٠٠٠

يبدو أن حكومة الرئيس أزالى وانفصاليى أنجوان قد توصلوا إلى اتفاق. فقد وقّعوا بالأمس، فى فومبونى، نص اتفاق يقضى على وجه الخصوص بإيجاد صيغة جديدة فى جزر القمر تضمن لها نوعًا من الاستقلالية المالية والإدارية.

باريس - السبت ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

انتهت العطلة. نعود إلى باريس. فى صحيفة التايمز الأمريكية أربع صفحات عن كوفى أنان «الذى ورث الحكمة التى يتحلى بها عن التقاليد القَبَلية فى غانا». صحيفة الأوبزرفر الإنجليزية تخصنى بمقالة أقلّ لطفًا، تتهمنى بأنى «قمت ببيع

أسلحة إلى راوندا». بعد قراءة متمعنة للمقال يُفهم أن مصر هى التى باعت السلاح إلى راوندا، وكان ذلك قبل انتخابى فى الأمانة العامة للأمم المتحدة. عَلَقَت ليّا بحكمة، وقد أثارتها المقالة: «لكى يُكرّس كوفى أنان، يجب أن تُسّود صفحة بطرس».

باريس ـ الأحد ٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

يستقبلنى الرئيس مبارك لدى مروره فى باريس. يَخُصُّنى باستقبال حار وودى. أُحدثُه عن النشاطات التى تنوى الفرنكفونية تنظيمها فى الإسكندرية فى الأيام القليلة المقبلة، بمناسبة الذكرى العاشرة لإنشاء جامعة سنغور. لا أستطيع الامتناع عن تذكيره «بقصة المصعد الشهيرة».

ففى يوم افتتاح الجامعة القائمة فى الطابقين الخامس والسادس من برج القطن فى الإسكندرية، تعطل أحد المصعدين. وقد كنت ألحّيت طبعًا على السلطات المعنية فى المدينة بأن تتأكد من أن المصعد الثانى يعمل جيداً. تمّ الصعود بغير مشاكل. فى المقابل، فى الهبوط توقف المصعد فجأةً. كان يستقله كل من الرؤساء ضيوف وميتران وموبوتو ومبارك وسنغور، وولى العهد فى بلجيكا، وعدد لا يستهان به من الحرس. غرق الجميع فى عتمة مطبقة خلال أكثر من عشر دقائق. غنىٌ عن القول إن الشرطة كانت فى حال اضطراب شديد ظنًا منها أن الأمر ربما يكون اعتداء. أخيراً عندما تحرك المصعد من جديد وهبط الجمع سالمًا، أسرّ لى رجل من بطانة الرئيس مبارك: «الرئيس غاضب منك». فسألته بقلق عن السبب. أجابنى وعلامات التآمر على وجهه: «سأخبرك فيما بعد...» وتركنى أسبح فى أوهامى.

بعد مرور سنة على ذلك التقيت بملك بلجيكا بودوان، فسألنى عن الجديد فى جامعة سنغور، ثم أضاف وابتسامة ذكية ترتسم على وجهه: «حدثنى ابن أخى عن حادثة المصعد، كان الأمر فعلاً كالهبوط إلى الجحيم!».

وبعد مرور عشر سنوات على ذلك، لا يزال الرئيس مبارك عاجزاً عن الابتسام عندما يتذكر ذلك «الهبوط إلى الجحيم».

باريس ـ الاثنين ٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

يحمل إليّ معاونيّ، وقد انتابهم شعور بالقلق، مجموعة مقالات صدرت في الصحافة البلجيكية، إثر الخبر الذى نشرته الأوبزرفر والمتعلق بموضوع بيع الأسلحة إلى راوندا. لا تشير هذه الصحيفة إلى أى تاريخ، مما يوحى بأن الصفقة تمت خلال فترة تولىّ مهام الأمانة العامة للأمم المتحدة. إن سوء النية لدى الصحافيين واضح! من المؤكد أن مصانع الأسلحة فى مصر قد باعت أسلحة لراوندا كما لغيرها من البلدان الإفريقية. ومن موقعى كوزير دولة مكلف بالشؤون الإفريقية على وجه الخصوص، لم أكن أجهل حدوث مثل هذه الصفقات، لكن ذلك حدث بين ١٩٨٩ و١٩٩٠، أى قبل ثلاثة أعوام على انتخابى لمنصبى فى الأمم المتحدة.

باريس ـ الثلاثاء ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

ألّبى دعوة وجهها رئيس الجمعية الوطنية الجديد، ريمون فورنى إلى مأدبة غداء فى فندق ده لاسيه. يُذكرنى أننا تشاركنا طعام الغداء هنا فى القاعة نفسها عام ١٩٩١، وأنه كان يعرف فى ذلك الوقت أننى سأكون الأمين العام المقبل للأمم المتحدة. وأنا الذى كنت أعتقد أن انتخابى لهذا المنصب سر لا يعلمه إلا فرنسوا ميتران ورولان دوما!

باريس ـ الاثنين ١٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

ألتقى الرئيس عبده ضيوف فى منزله. أجدنى أمام رجل متصالح مع نفسه ومع خسارته للسلطة:

ـ لدى الوقت من جديد للمطالعة، لرؤية أولادى وأحفادى. ليس لدى النية البتة لأن أترشح لمنصب أمين عام للفرنكفونية. ثم أنه لدينا أمين عام جيد يجب أن يستمر فى مهمته.

ـ ولكن على الرغم مما تقوله، سيدى الرئيس، فى حال غيّرت رأيك، سأكون أول من يدعم ترشيحك.

باريس ـ الثلاثاء ١٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

الفرنكفونية «واحدة ومتعددة»، لن تكون هذه الجملة إلا مجرد شعار!

اقترحت في مجلس التعاون أن نطلق مجلة تشترك فيها كل المؤسسات العاملة في الفرنكفونية وتهدف إلى إعطاء صورة شاملة عن نشاطات المنظمة. مسّ بالمقدسات! فكل مؤسسة تتمسك بأن يكون لها نشرتها الخاصة، التي تحمل شعارها الخاص، وتوقيع المسؤول عنها بأحرف كبيرة على الصفحة الافتتاحية. عقلية الإقطاع حتى في مجال التواصل. أعزف عن إهدار طاقتي للدفاع عن هذا المشروع. ثمة معارك أخرى أكثر صعوبة تنتظرني.

أتناول طعام العشاء مع المدير التنفيذي للجماعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا، لانسانا كوياتي. لقد زاد وزنه وبدا أنه تجاوز المائة كيلو. يُقرّ بمرحٍ وفكاهة أن عليه أن يبدأ باتباع نظام غذائي صحي. أعترف له بأنني حين قابلت رئيسه، لانسانا كونتي، بمناسبة قمة مونكتون، طلبت إليه أن يمارس سلطته عليه كي يقنعه بتخفيض وزنه. يقول: «أعلم ذلك، فالرئيس قد أطلعني على هذه المحادثة».

لانسانا كوياتي مُرَشح لمنصب أمين عام منظمة الوحدة الإفريقية. وهو حاصل على دعم بلاده، غينيا، وعلى دعم نيجيريا وهي قوة كبيرة في إفريقيا. يقودنا الحديث إلى موضوع ترشيحي الشخصي. يؤكد لي أنه واثق بانتصاري. «فالأمر ليس كما في نيويورك حيث تملك بعض الدول حق الفيتو».

وفي سياق آخر، يبدي تشاؤمه من الوضع في ساحل العاج وقلقه بالنسبة إلى بلاده التي لا تتمكن من منع تدخل الليبراليين وغيرهم من مثيري الفتن. وبما أن مقر الجماعة الاقتصادية لدول غرب إفريقيا الغربية Cedeao في أبوجا، تحدثنا مطولاً عن نيجيريا التي تلعب دوراً بالغ الأهمية في هذه المنطقة من إفريقيا، سواء على الصعيد الاقتصادي أو العسكري. ولا يزال الرئيس السابق، إبراهيم بابنجيدا، الرجل الأقوى في نيجيريا. ومن المعلوم أنه ساهم في نجاح الرئيس الحالي، أولسيغون أوباسنجو، في الانتخابات. أُذَكر لانسانا بمبادرتنا المشتركة في الأمم

المتحدة للحصول على إطلاق سراح أوباسنجو الذى لم يُقدّر قط حجم جهودنا. ولكن حتى لا نلقى عليه اللوم، يجب الاعتراف بأن جهودنا لم تثمر.

باريس، القاهرة ـ الأربعاء ٢٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

عودتى إلى مدينتى تثير فيّ المشاعر. ذكريات الشباب، طعمه، عطره كلها تعود إليّ من جديد.

يحتفل الخادمان بعودتنا إلى المنزل ويبديان علامات الاهتمام الشديد، مسارعين لتلبية رغباتنا. يجرانى بفرح الأطفال إلى المكتبة الكبيرة فى الطابق الثانى لأنظر بإعجاب إلى الكتب التى من المفترض أنهم أزالوا عنها الغبار.

الحر خانق. والتبريد فى غرفة النوم معطل.

ـ «لماذا لم تقوما بإصلاحه قبل مجيئنا؟».

ـ «كنا ننتظر تعليماتكم...».

أقضى ليلتى دون أن أستطيع النوم.

القاهرة، الإسكندرية ـ السبت ٢٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

نغادر إلى الإسكندرية عن طريق البر، ليّا فى سيارة السفير سمير صفوت، وأنا فى سيارة أخرى مع رئيس جامعة سنغور، أحمد القشيرى.

لقد طرأت تغييرات كثيرة على الإسكندرية فى السنوات الأخيرة بتشجيع محافظ المدينة عبد السلام المحجوب. لكن على الرغم من جهود التحديث والنظافة، لا تزال المدينة تحتفظ بكل خصائص المدن المكتظة بالسكان فى العالم الثالث. بينما كانت تبدو لى فى سبتمبر ١٩٥٦، حين التقيت بـليّا، شبيهة بمدينة نيس.

نقوم بزيارة مجاملة لمحافظ المدينة الذى يستقبلنا بحرارة كبيرة.

أقول له: «آمل أن تُعطى كل التسهيلات لعائلة أنييلى القادمة إلى الإسكندرية

على متن طائرة خاصة». يتصل بمدير المطار الذى يُعلمه أنه كان قد أنبىء بخبر قدوم السيد فيات.

الجناح الذى حُجز لنا فى فندق ميتروبول قديم الطراز علاوةً على كونه ينم عن ذوق ردىء فى فن الديكور. أما الغرفة فأكثر غرابة. وحده الحمّام يشبه ما هو متوقع فى فندق من هذه الفئة. يبدو أن مليونيراً من الخليج اشترى المبنى ورممه، ومن المؤكد أنه من المسلمين المتشددين؛ لأن الفندق لا يُقدّم نقطة واحدة من الكحول.

إن منع تناول الكحول فى الأماكن العامة ليس وسيلة لتأمين الموارد السياحية الضرورية فى البلاد النامية!

(فى المساء...).

دعونا إلى العشاء جيوفانى أنييلى وأخته سوزانا التى كانت وزيرة خارجية بلادها عندما كنت فى الأمم المتحدة. وجهنا كذلك دعوة إلى رئيس مجلس النواب، فتحى سرور، وزوجته، وإلى أحمد القشيرى. وقد أسفنا جميعًا لعدم وجود بول ديمارى معنا. فهو وجيوفانى أنييلى قد ساهما برعاية جامعة سنغور عندما كانت فى طور الانشاء.

وُفقنا فى اختيار «السلملك» مكانًا لإقامة ضيفنا الكبير، وهو قصر يقوم وسط حدائق المنتزه كان مقراً للملك فاروق، وقد تحول منذ بضع سنوات إلى فندق. إنه مكان هادئ وأنيق ولا يزال طيف الملك فاروق وهو واقف ليتصور مع زوجته الأولى، الملكة فريدة، يخيم عليه إلى الآن. نتناول الأطباق الشهية ونحن نتبادل الأحاديث الخفيفة تارةً، والجدية تارةً أخرى. جيوفانى أنييلى يَصفُ غروب الشمس على المتوسط. فتحى سرور، فى خضم، حملته الانتخابية، يشرح تحديات الانتخابات التشريعية المقبلة. هاتفه المحمول يرن دون توقف. إنهم معاونوه يطلعونه بين دقيقة وأخرى على تطورات الوضع، وعلى المواجهات العنيفة، والدامية حتى، فى بعض الأحيان، بين ممثلى الأحزاب المختلفة. نعود إلى فندق المتروبول. هدوء الليل يتأخر. ضوضاء الشارع تملأ الغرفة. أبقى مستيقظًا، تداهمنى أفكارى. الأثاث القديم، سعال ليّا، التأثر بعودتى إلى «الإسكندرية

السعيدة»، مدينة كافافى ودوريل، مدينة شبابى ... والبحر الذى مازال كما كنت أتأمله خلال تلك السنوات التى انقضت مسرعة، والذى أراه هذا المساء من خلال هذه الستائر القبيحة.

هناك حالات من القلق اللطيف الذى نتغلب عليه بالقراءة، وحالات أخرى من القلق المتوتر حيث يصبح النوم هاجسًا نحاول عبثًا أن نطرده فنتقلب فى سرير لا يأوى إلا مخاوفنا. أدشن الليلة نوعًا جديدًا من القلق حيث أستعرض صور الماضى الجميل على إيقاع دقات قلب غير منتظمة.

الإسكندرية ـ الأحد ٢٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

احتفال ضخم بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس جامعة سنغور. يأخذ مقعده على المنصة فى القاعة الكبرى فى الجامعة كل من: مفيد شهاب وزير التعليم العالى الذى يحمل رسالةً من الرئيس مبارك، وفتحى سرور، وأحمد القشيرى، وجيوفانى أنييلى. وأنا كذلك.

فى رسالته يُذكّر الرئيس مبارك بإسهام فرنسا فى تأسيس مصر الحديثة، عن طريق علمائها ومهندسيها، وكذلك بواسطة نخبة من المصريين الذين تابعوا تحصيلهم العلمى فيها... رفاعة الطهطاوى، طه حسين، توفيق الحكيم.

فتحى سرور الذى يرأس المعهد الدولى للقانون الفرنسى التعبير والنهج (IDEF)، يَذكر إسهام هذه المؤسسة فى الفرنكفونية. من جهتى، أعود لأستعرض الظروف التى تمّ خلالها تأسيس جامعة سنغور، وهى جامعة ناطقة بالفرنسية فى بلد ناطق بالعربية، بتمويل إيطالى، لتدريب اختصاصيين أفارقة فى الإدارة. الكلمة الأخيرة يلقيها أحمد القشيرى الذى يقدم عرضا إلى النشاطات التى قامت بها الجامعة.

(فى المساء...).

يجب أن لا نعود أبدًا إلى مراتع الشباب الجميلة. يوجه محافظ الإسكندرية إلىّ تحمل رؤساء الدول دعوة إلى العشاء فى النادى السورى. هذا هو على كل حال

الاسم الذى كان يحمله هذا النادى الأنيق قبل أربعين عامًا ولم يكن يفتح أبوابه إلا للنخبة اللبنانية السورية. منذ ذلك الوقت تغير اسمه ليصبح «نادى الإسكندرية». إن هذه الأماكن التى شاخت اليوم، والتى يغلفها ضوء حزين تقتل صورتها الساحرة التى احتفظت بها فى ذاكرتى.

القاهرة ـ الأربعاء ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

علىّ أن أذهب للموعد الذى حدده لى الرئيس مبارك فى الساعة الثامنة والنصف صباحًا. فهو معتاد هذه المواعيد الصباحية. من جهتى، أشعر بأن إجراء محادثات فى ساعة أكون عادةً فيها مستغرقًا فى النوم، أمر شاق فعلاً.

أستعرض مع الرئيس نشاطاتنا الأخيرة فى الإسكندرية، قبل أن ألتمس منه موافقته على إطلاق حملة إعادة انتخابى. يسألنى:

ـ ما هو رأى جاك شيراك؟

ـ يدعمنى لولاية ثانية.

ـ هل أنت متأكد من دعم فرنسا؟

ـ هذا على كل حال ما يؤكدونه لى فى الوقت الحاضر.

القاهرة ـ الخميس ٢٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠

ليًا تعبة. ينصحها الطبيب بألاّ تستقل الطائرة غدًا. أستغل هذا اليوم الإضافى فى القاهرة كى أبحث بين أوراقى عن بعض العبارات التى كنت قد دونتها فى دفتر صغير، منذ عدة سنوات، استعدادًا لكتابة قصة كان يمكن أن تحمل عنوان «أحمد باشا». كنت أنوى أن أروى فيها قصة والدى... لكننى لا أجد ما أبحث عنه. وعلى الرغم من ذلك فأنا لا أزال أرى نصب عينى غلاف الدفتر الأصفر الذى دونت فيه تلك العبارات.

باريس ـ الأربعاء ١١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

خلوة مع وسيط منظمة الوحدة الإفريقية من أجل الحوار الداخلى فى الكونغو، الرئيس كيتوميلى مازيرى الذى أصبح دوره موضع انتقاد.

أبادره:

ـ لقد أرسلت مبعوثًا خاصًا كى يستشير الرئيس لوران ديزيريه كابيلا ووزير خارجيته، يروديا، بشأن إنشاء مكتب للفرنكفونية فى كنشاسا. يبدو أنه ليس لديهم أى مانع، شرط ألاّ يتعارض ذلك مع الوساطة التى تقومون بها.

يستقبل الرئيس مازيرى ما أقوله بصمت تام، مما يحملنى على التكلم بصراحة أكبر:

ـ عندما لا تتوفر لك ثقة أحد أقطاب الصراع، وعندما يكون واضحًا أن وساطتك ليست مرغوبة فأنت تعرض نفسك لخسارة مؤكدة.

ـ أوافقك الرأى تمامًا.

ـ لماذا لا تستقيل، إذن، وتترك المجال لتدخُّل وسيط آخر؟

ـ إن الدول التى كلّفتنى بهذه المهمة تطلب منى الاستمرار على الرغم من الصعوبات التى ذكرتَها.

أنهى الحديث مؤكدًا له أننى سأوفر له كل الدعم اللازم فى هذه الوساطة التى بدأت متعثرة.

بلوا ـ السبت ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

أسافر بصحبة آنى ديكمّانز إلى بلوا. فقد دعانى جاك لانغ، عمدة المدينة، للمشاركة فى السلسلة الثالثة من حلقات «موعد مع التاريخ» المخصصة هذه السنة لليوتوبيا.

النقاش شيق جداً فى الطاولة المستديرة حول موضوع السلام الدائم وهو مفهوم بلوره بشكل خاص الفيلسوف كنط فى عام ١٧٩٥ ، وكذلك بعض من المفكرين القدامى والمعاصرين... بيار دوبوا، دانتى، إيراسموس، سوللى، إيميريك كروزويه فى كتابه «سيرسيه الجديدة» والذى يحمل عنوانًا ثانويًا أكثر دلالة: «مبحث فى فرص ووسائل إقامة سلام شامل وضمان حرية التجارة للجميع».

لقد مضت الآن عدة سنوات على دراستى المُعمّقة لمختلف هذه النصوص قبل أن أشرع بإعداد كتاب عن النظام العالمى، أشرت فيه إلى أن الأدبيات السياسية عند العرب تتضمن أفكاراً وتصورات مشابهة لتلك النصوص، وخصوصًا «المدينة الفاضلة» لأبى نصر الفارابى، و«أم القرى» لعبد الرحمن الكواكبى. ومن المؤسف أن الدراسات الغربية لا تأتى على ذكر هؤلاء المفكرين المشرقيين الكبار.

إن نظرية السلم الديمقراطى التى طالما نُعتت بالطوباوية (اليوتوبيا) عادت بقوة فى الثمانينيات تدعمها الدراسات والأبحاث التجريبية حتى شكلت المبدأ الذى ارتكزت عليه إدارة كلينتون. وقد تزامنت فى فترة الحرب الباردة مع الموجة الغربية والعالمية التى كانت تدعو إلى الديمقراطية وتندرج ضمن استراتيجية تهدف بشكل أساسى إلى مواجهة انتشار الشيوعية. وهى تستند، منذ نهاية الحرب الباردة، إلى حجتين أساسيتين : الديمقراطية تساعد على التنمية، الديمقراطية تساعد على السلام. بعبارة أخرى، تفترض هذه النظرية أن إحلال أنظمة ديمقراطية يؤدى إلى عالم أكثر سلمًا؛ لأنه من المفترض أن الديمقراطيات لا تتحارب فيما بينها.

ربما يجب القول، توخيًا لمزيد من الدقة، إن نظرية السلم الديمقراطى ترتكز على فكرة أن الديمقراطيات لا تصل فى حال الخلافات فيما بينها إلى الصراع، أكثر مما ترتكز على مبدأ سلمية الديمقراطيات. وذلك مرده لعدة أسباب : ضغط الرأى العام، أحكام الدساتير، وعلى وجه التحديد فصل السلطات التشريعية والتنفيذية، وتعقيد آليات القرار. وثمة تفسير آخر كثيراً ما يحتج به مفاده أن الثقافة السياسية للديمقراطيات تحث عند حصول نزاعات بين الدول، على البحث عن حل عبر التفاوض، ناقلةً إلى المستوى الدولى، القواعد والأحكام والإجراءات التى تسهل

إيجاد تسوية وتساعد على التوصل إلى توافق بين أطراف متنازعة على الساحة الوطنية.

يمكن أن يقال الكثير حول هذه النقطة الأخيرة. ذلك أنه إذا كان صحيحًا أن الديمقراطيات لا تتحارب فيما بينها، إلا أنها في المقابل، لا تبدو مسالمة في علاقاتها مع الدول المعروفة أو المحسوبة كدول غير ديمقراطية، خارجة عن القانون، أومارقة. فمن الفتوحات الاستعمارية إلى الحركات الانقلابية التي تدعمها الدول الغربية في بعض البلدان، الأمثلة كثيرة التي تؤكد ما ذهب إليه توكفيل بأنه «إن كان من طبيعة الدول الديمقراطية أن تسعى إلى السلم فمن طبيعة الجيوش الديمقراطية أن تسعى إلى الحرب».

باريس، مونريال ـ الاثنين ١٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

عند نزولنا من الطائرة، يستقبلنا تيمور مصطفى سرّى، قنصل مصر في مونريال وهو شاب ديناميكي لامع. ما إن نصل إلى الفندق حتى يأتي لزيارتنا ابن خالتي يحيى شاروبيم مع زوجته وابنه، وهم يقيمون في مونريال. فجأة أنتبه إلى حجم عدد المنتشرين من العائلة في بلاد المهجر: ابنة أخي التي تعمل في هندسة البناء، وابني بالتعميد الذي يعمل في القطاع المصرفي، يعيشان في نيويورك. وإحدى بنات الأسرة تعمل في جامعة إدموتون في كندا. لي أيضًا ابن أخ تُحتّم عليه أعماله أن يعيش متنقلاً بين سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس.

تشكل هذه الهجرة الطوعية ظاهرة لدى الأجيال الجديدة. كان يمكن لكل هؤلاء الشباب المنتمين إلى الطبقة البورجوازية أن يعيشوا برفاه في مصر. لكن يبدو أنه عندما يتذوق المرء طعم العالم الواسع في أمريكا وكندا، تبدو له مصر بحجم قرية صغيرة. وهؤلاء الشبان الطامحون يفضلون أن يكونوا في الدرجة الثالثة في روما على أن يكونوا في الدرجة الأولى في قريتهم.

أما أنا، فما خطر يومًا ببالي أن أغادر قريتي. وذلك بلا شك لأنني لا أنتمي إلى هذا الجيل المتجاوز للحدود.

مونريال ـ الثلاثاء ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

إنه حفل تدشين المبانى الجديدة للوكالة الجامعية للفرنكفونية بحضور كل الشخصيات المهمة فى تاريخ هذه المؤسسة، ما عدا الرئيس مشيل غيبو الذى تخلى عن مهامه فى ظروف شائكة. بالمناسبة أتذكر جملة قالها لى مراراً وايزمان عندما كان يشغل منصب وزير الدفاع الإسرائيلى، وكنا نناقش فى واشنطن اتفاقية سلام بين بلدينا: «الأصعب بالنسبة إلى طائرة حربية هو الهبوط بعد إنجاز المهمة». (وقد كان وايزمان طياراً فى سلاح الجو الملكى البريطانى إبان الحرب العالمية الثانية). إن فى هذه العبارة من الحكمة والعمق ما لا يبدو جليًا فى ظاهرها.

كيبيك ـ الأربعاء ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

أقوم بزيارة إلى معهد الطاقة والبيئة التابع للفرنكفونية؛ وهو إحدى تلك المؤسسات الفرعية التى تتكاثر تبعًا لرغبات الدول والحكومات الأعضاء المستعدة لإمدادها بالمبالغ اللازمة لعملها. إن تكاثر هذه الإقطاعيات الصغيرة فى مختلف القارات لا يساعد على وحدة التمثيل وعلى التواصل داخل المجموعة الفرنكفونية. ذلك أن هذه المؤسسات تسعى غالبًا إلى المحافظة على استقلاليتها من خلال التأكيد على خصوصيتها. وقد لاحظت الظاهرة نفسها فى الأمم المتحدة. وهى كما أظن سمة ملازمة للبيروقراطية، محليةً كانت، أم وطنيةً، أم دولية.

أوتاوا ـ الخميس ١٩ أكتوبر / تشرين الأول ٢٠٠٠

ألتقى فى قصر «ريدو هال» الحاكم العام الجديد لكندا، أو ربما يجب أن أقول بالأحرى الحاكمة العامة الجديدة، تماشيًا مع الاستعمال الواسع الانتشار هنا لتأنيث أسماء الجنس. السيدة أدريان كلاركسون صينية الأصل، ولدَت فى هونغ كونغ وهاجرت إلى كندا وتزوجت بكندى أصيل: الكاتب جون رَالستون سول. تدهشنى وتعجبنى جدًا جرأة كندا فى مجال التعددية الثقافية. فإن تعيين مواطن من أصل أجنبى فى منصب كهذا، أمر لا يُعقل فى الولايات المتحدة، وأكثر من ذلك ربما، فى الديمقراطيات الأوربية العريقة.

أُدخلت إلى بهو هو في الوقت نفسه قاعة مكتبة. تستقبلني امرأة قصيرة القد نحيلة ترتدي سروالاً وسترةً. تتكلم الفرنسية بلكنة إنجليزية خفيفة. لقد أتيت طبعًا لأحدثها عن مزايا الفرنكفونية. إلا أن دخول زوجها إلى القاعة يقطع علينا الحديث بصورة مؤقتة. يهديني اثنين من كتبه المترجمة إلى الفرنسية: «الحضارة اللاواعية» و«تأملات أخ سيامي».

يصفه النقاد بأنه «المناضل الروحي». سأكتشف لاحقًا ـ وهذا دليل على إهمالي لمجال الأدب المعاصر ـ أنه شخصية أدبية كبيرة في كندا، وأنه مؤلف عدد من الكتب والروايات التي حازت على جوائز عدة، في بلاده، كما في البلدان الأجنبية. ثم لا يلبث أن يغادرنا بسرعة: فهو يستقل الطائرة إلى أوربا خلال ساعات قليلة.

بعد ذلك ببضع لحظات، يسُدُّ الباب رجل عملاق يبلغ طوله مترين ويرتدي بذلة عسكرية، يعلمنا بأن المقابلة انتهت.

إن المقابلات التي يمنحها الكبار محسوبة دومًا بالدقيقة، ومما لا شك فيه أن ذلك يهدف إلى إبراز أهميتها.

أنسحب بعد أن أقبل يد الحاكمة العامة الرائعة، وأجتاز سيراً على قدمَي حديقة «ريدو هال». أقف بحنين عند الشجرة التي كنت قد زرعتها سنة ١٩٩٨، إنها ترمز للديمومة بينما السلطة ليست إلا أمراً زائلاً.

وينيبيغ ـ الجمعة ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

دعاني رولان دوهاميل وزير كندا للشئون الفرنكفونية لزيارة منطقة نفوذه، وهي مقاطعة مانيتوبا التي تشكل مساحتها ضعفي مساحة مصر أو فرنسا، والتي لا يسكنها إلا مليونا نسمة، نصفهم يعيش في عاصمتها، وينيبيغ.

أقوم بمحادثات مع السلطات المحلية، وأشارك في نقاش على مأدبة غداء وألقي محاضرة في جامعة سان بونيفاس قبل أن أشاهد حفلة باليه لفرقة وينيبيغ، في مسرح حديث بامتياز تبدو مقارنةً به مسارح العواصم الأوربية كلها باهتة.

سأحتفظ في ذاكرتي دائمًا بصورة لـ وينيبيغ ترتبط بذلك الأداء الفني الرائع في ذلك المسرح الذي يقوم وسط مساحات شاسعة من السهول غير الآهلة. وستبقى في ذاكرتي صورة تلك الأقلية الفرنكفونية التي تكافح باستمرار للحفاظ على لغتها وثقافتها في مواجهة الموجة الأنجلوسكسونية التي تجتاح وسائل الإعلام والأماكن العامة... والحياة اليومية بمجملها.

باريس ـ الأحد ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

في جانبي على منصة قاعة المحاضرات الكبرى في السوربون، برونسلاو جيميريك، وزير الخارجية السابق في بولندا، وإيلي فيزيل، والأمير الحسن بن طلال. ثلاث شخصيات شديدة الاختلاف فيما بينها: إيلي فيزيل يطالعك دائمًا بوجه ترتسم عليه ملامح الشقاء كأن عذابًا يعرف أن يبدأ ولا يعرف أن ينتهي يلازمه كالقناع حتى غدا رمزًا لمأساة المحرقة اليهودية.

الأمير الحسن يدعو إلى حوار الأديان بصوت جهوري متوسلاً الإنجليزية في بعض الجمل بين الحين والآخر.

يوشوش في أذني برونسلاو جيميريك الذي لم يفقد شيئًا من مرحه ومن روح الفكاهة لديه: «المرة الأخيرة التي التقينا كمتحدثين في المؤتمر نفسه كانت في الأمم المتحدة، وكنت أُمثل إحدى منظمات المجتمع المدني. وما إن انتهيتَ من إلقاء كلمتك حتى غادر المصورون والصحافيون. فلم يبقَ لي إلا القبول بأن أتحدث في غياب الشهود...».

باريس ـ الاثنين ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

شاهدت هذا المساء، ولمرة ثانية فيلم «خارج إفريقيا». أي خيبة أمل!! أعتقد أن سحر هذا الفيلم حين شاهدته للمرة الأولى بنسخته الإنجليزية كان ينبع من اللكنة الاسكندنافية التي كانت تتحدث بها البطلة. فاللغة ليست فقط مجرد ناقل للقيم، هي أولاً إيقاع موسيقي. ويتضح لي عند التفكير مليًا أنه غالبًا ما تجذبني عند المرأة نبرة صوتها وطريقتها في الكلام.

باريس ـ الثلاثاء ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

أنا في برلين لأتحدث عن كتابي الأخير الذي خصصته لموضوع الأمم المتحدة. أدين بذلك لناشري الشاب، هوفمان، الذي أسس دار نشر «ديسكورسي» والذي جاذف بترجمة كتابي إلى الألمانية ـ Hinter den Kulissen Der Welt Politik ـ فكان باكورة إصداراته. هذه الطبعة هي الأنجح بين الطبعات التي صدرت في بلاد مختلفة.

لكن أفراح الكاتب الصغيرة تتلاشى حين أتلقى نبأ الانقلاب الذي قام به الجنرال غاي في أبيدجان، والذي أعادني إلى الواقع القاسي في إفريقيا.

هامبورج ـ الخميس ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

في هذه المدينة شيء ما يطبعها بالنبل. ينتظرني سائق في المطار. هو لا يتكلم الفرنسية، لكن لديه سهولة في التعبير بالإنجليزية. يُصَرِّح لي بأن مدينة هامبورغ تكُنُ لي مشاعر الامتنان. لا أرى سبب ذلك. لكني أمتنع عن طرح السؤال عليه. بعد برهة من الصمت الذي كان من الواضح أنه يتعمده، يعطيني تفسيراً لذلك:

ـ الفضل يعود لك في أن مدينتنا تمكنت من استضافة المحكمة الدولية لقانون البحار. بالمناسبة سنمر بعد ظهر هذا اليوم أمام الأبنية التي دشنتها أنت منذ أربع سنوات. سترى، لقد انتهت كل أعمال البناء. إنه صرح جميل يليق بمدينة هامبورج. ثم يضيف: آمل أن تقبل بأن تكتب لي إهداءً على الصفحة الأولى من كتابك الذي تتحدث فيه عن سنواتك في الأمم المتحدة.

ألتقي بقنصل مصر العام، السيدة منى سعودي، وهي مصرية لكن لشدة سمرتها تخالها سودانية. إنها تتوقد ذكاءً. تحدثني عن المشاكل التي تواجهها مع الجالية المصرية في هامبورج: عمال مخالفون للقانون، تهريب مخدرات، بحارة في حالة سُكر...

(بعد الظهر).

أتوجه إلى «كوليج دو لوروب» حيث يجب أن ألقى محاضرة. يتوقف سائقى قليلاً، كما وعد، أمام مقر المحكمة، ويؤكد لى من جديد امتنان كل أهل هامبورج.

المحاضرة تطول. الجمهور شباب متحمس. الأسئلة ذكية. كل ذلك يحفزنى ويحثنى على متابعة النقاش. يلاحظ ناشرى بسرور أن عدد نسخ الكتاب التى وقّعتها يفوق العدد الذى وقّعته بالأمس فى برلين إثر المحاضرة التى ألقيتها مع وزير الخارجية، كلاوس كينكل.

باريس، ديجون ـ السبت ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

أتوجه إلى ديجون بصحبة ليّا والسفير كيمو لاريا الذى يطلب فى أثناء الطريق على هاتفه المحمول الرئيس كونان بيدييه، ثم يناولنى الهاتف كى ألقى بدورى تحيات الصداقة على الرئيس. يرسم على وجهه ابتسامة ذكية وينبهنى إلى أنه يجب إحاطة الذين يفقدون السلطة بكل الاهتمام.

تنتظرنا سيارة عند محطة القطار فى ديجون كى توصلنا إلى قصر Château du Clos de Vougeot حيث حُجزت لنا غرفة جميلة جداً. هذا المساء سأُقلّد ميدالية ضابط أكبر فى مجموعة فرسان تذوق النبيذ.

من المفروض أن أبرهن على استحقاقى لهذا الشرف وذلك من خلال التحدث عن أنواع النبيذ التى أستسيغها وعن طريقة تعاملى معها. أبادر إلى إلقاء خطاب حول موضوع ليس لى فيه إلا خبرة قليلة، لكنه يملؤنى غبطة:

«أيها الأصدقاء، لنبدأ بالأصعب. يجب أن أعترف بأننى كمصرى أصيل يحمل إرث سبعين عامًا من الاحتلال البريطانى ـ والويسكى البريطانى ـ، طالما عرفت أيامًا لا تشرق فيها الشمس، أقصد أننى طالما تناولت وجبات طعام لا يرافقها النبيذ. لكن سمائى ما لبثت أن أضاءت، مُذّ أتيت لأقيم فى فرنسا منذ العام ١٩٤٥ كى أتابع دراستى. طبعًا لم أتخل فوراً عن الويسكى لأستبدله بالنبيذ الفرنسى، بل

أعترف أننى قد مررت بمرحلة انتقالية كنت أمزج فيها النبيذ الخفيف بالماء وأبتلعه، أكثر مما كنت أتذوقه، جالسًا على طاولة فى زاوية حانة صغيرة ! لكن كونى مقتنعًا كمارتن لوثر بأن من لا يحب النبيذ والنساء والغناء محكوم بأن يظل أبلهًا مدى الحياة، لم أتأخر بالعمل على شحذ ذكائى إيمانًا منى بالنظرية التالية : لو توقف الإنسان عن إنتاج النبيذ سينتج عن ذلك فراغ صحى وعقلى، بل نقص تفوق مضاره تلك التى تترتب عن الإكثار من تناوله. ذلك أن النبيذ لا يُنمّى فقط حاسة الذوق، بل يحرر الروح ويلهم المخيلة أيضًا.

بعد ذلك اكتشفت خلال حياتى المهنية كدبلوماسى أن للنبيذ فضيلة أخرى ليست أقل فضائله أهمية. وهى أنه يساعد على التواصل الاجتماعى وعلى المصالحة. لدرجة تجعلنى أرى أنه يجب أن يُنصَح بتقديم النبيذ على كل طاولات المفاوضات. وأضيف أن الدبلوماسيين قد يكونون أكثر حكمة لو تثنى لهم الإلمام بعلم المُدام. فالفوارق تتلاشى بين مستويات المدعوين حين يلتقون حول طاولة؛ لأن الكأس التى تدور عليهم تملؤهم بمشاعر التسامح والصداقة تجاه جلسائهم وتجعلهم أكثر تفهمًا. لذلك وقبل أن أكون قد أدليت بقَسَم التكريس، يمكننى القول إننى سخَّرت قواى الناشطة لصالح الخمور الفرنسية، بصورة عامة، ولصالح نبيذ منطقة البورغونيى، بصورة خاصة.

وكوزير للخارجية المصرية أولاً، يجب أن أبوح لكم باعتراف آخر فى هذا المجال. نحن فى مصر نُنتج النبيذ. ومن السهل أن تعرفوا طبعًا أن انتمائى الوطنى كان يفرض علىّ أن أقدمَ إلى ضيوفى نبيذًا مصريًا. لكنى أدين لاستقامة ولعناية رئيس البروتوكول بأننى وضعت حدًا لهذه الممارسة فى أحد الأيام؛ لأن الضيوف كانوا يشتكون فى اليوم التالى أوجاعًا فى الرأس. لذلك استعضت عن النبيذ المصرى بالنبيذ الفرنسى وخصوصًا بنبيذ منطقة بورغونيى. وهل تصدقون ؟ كأنه سحر ساحر، توقفت اعتذارات اللحظة الأخيرة، وتضاعف عدد الضيوف خلال وقت قصير. منذ ذلك الحين أصبحت الزجاجات «الملهمة» رفيقة كل الحفلات.

بعد ذلك أصبحت شديد العناية بالتفاصيل؛ حتى أننى كأمين عام للأمم المتحدة

في نيويورك أمضيت خمس سنوات في بيت من الزجاج . بالطبع كان هناك الكثير من الكؤوس الزجاجية ، بعضها كان نصفها ملآن وبعضها الآخر نصفها فارغ . ومن الكذب القول بأن نبيذ البورغونيي اللذيذ كان ينسكب مدراراً . بل إن سمّ السيانور كان يطغى غالبا .

لكن ثمة أمر أفضل ! يجب أن تعلموا أن مكتبي كأمين عام للمنظمة الدولية للفرنكفونية يقع في باريس في شارع بورغونيي Rue de Bourgogne وهو اسم لم أخترعه بالطبع !» .

بعد ذلك ، حفل عشاء كبير يحضره مائتا مدعو يرتدون بذلات السموكنج وأثواب السهرة . المأدبة ثرية جداً بالمآكل الشهية . الأطباق ذات المذاق الرفيع تترى وكذلك بالطبع أفضل النبيذ . كل ذلك في جو يُذَكّر بعالم رابليه : أغاني ، ومرح ، وفكاهة . على طاولتنا يجلس رئيس الجمعية وزوجته وسفير الهند في باريس وكذلك السفير كلود كيمو لاريا .

تقول لي ليّا في طريق العودة إنها منذ فترة طويلة جداً لم ترني في هذه الحالة من الارتياح والابتهاج والفرح . الأغاني التي أنشدناها هذا المساء هي نفسها التي كنت أغنيها عندما كنت في مصر عضواً في فرقة وادي النيل الكشفية والتي كانت تضم شباباً فرنكفونيين . كنا حينها نغني دون أن نعرف أين تقع منطقة البورغونيي ، ودون أن نعرف طعم خمرها الممتاز . أما هذا المساء فقد غنيت وأنا عالم بكل ذلك .

باريس، باماكو ـ الثلاثاء ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠

أستقل الطائرة إلى باماكو حيث يجب أن تنعقد الندوة الفرنكفونية حول الديمقراطية . ننزل في فندق سلام وهو مبنى جميل جداً وجديد . عساه يبقى كذلك دائمًا ... إن مجرد النظر إلى الحالة المزرية التي آل إليها تدريجيًا فندق الصداقة الذي كانت مصر قد أنشأته منذ عدة أعوام يكفي للشك في ذلك . والواقع أنه يمكن رصد الظاهرة نفسها في بلادي حيث تتلف المباني الرسمية ببطء لكن بصورة مؤكدة ، وذلك لقلة العناية بها . في يوم ما تتوقف المصاعد عن العمل حتى ولو أن بقشيشًا

صغيراً لصبي المصعد يكفي لإعادة تشغيله من جديد. الحمامات لا تعود صالحة للاستعمال وإن استعملت يحدث تسرب في المياه فتمتلىء الموكيت بالبقع والثقوب وترشح من كل شيء رائحة رطوبة قوية وعفن.

باماكو ـ الأربعاء ١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠

افتتاح ضخم للندوة في قصر المؤتمرات في باماكو. على المنصة، الرئيس ألفا عمر كوناري، ووزير الخارجية إبراهيم فال الذي يمثل الأمم المتحدة، وأنا. بعد أن ينتهي الجميع من إلقاء الخطب، أرافق الرئيس إلى باب الخروج بينما تعزف فرقة موسيقية لحناً خفيفاً لأغنية «ليحيا هواء الشتاء» الأمر الذي لم يخل من الغرابة إذ إن الحرارة في باماكو كانت تبلغ ٣٥ درجة مئوية.

المؤتمر يتابع أعماله. يرافع روبير بادنتير بحماسة شديدة مدافعاً عن محكمة الجنايات الدولية. إتقانه لفن الخطابة وكذلك اندفاعه وتألقه يثير حماسة المستمعين. بالطبع هو يتكلم دون أن يكون لديه نصاً مكتوباً. فهو شغوف بهذه القضية.

باماكو ـ الخميس ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠

محادثة مع الرئيس عمر كوناري في قصر الرئاسة الجاثم على رأس هضبة تطل على المدينة والنهر. يُذكّر هذا البناء بمناخ استعماري على الرغم من التغييرات التي طرأت عليه. فقد يخال المرء أنه في أحد تلك المنازل لحاكم لبلاد الهند في زمن مضى حيث لم يكن التبريد قد وُجد بعد، لكن لم يكن ينقص شيئاً للحفاظ على طراوة مريحة.

يبادر منذ بداية الحديث لطرح مسألة إعادة انتخابي قائلاً:

ـ أنا أؤيد ولايةً ثانيةً لك. فقد حوّلتَ هذه المؤسسة التي كانت تحتضر إلى منظمة دولية حقيقية. لكن عمر بونغو ضدك وهو يدعم ترشيح لوبيس، وكذلك السفير ساسو نغيسو، ولا تنسى أن بونغو هو صهر ساسو نغيسو.

نتحدث بعد ذلك عن الوساطة فى توغو . يرى أن الرئيس إياديما سيتحايل للفوز بولاية ثالثة . لكن من أجل ذلك سوف يلزمه أن يعدل الدستور . أمتنع عن التعليق على الرغم من أننى أشاطره الرأى .

عند انتهاء المحادثة تطلب حرم الرئيس أن تلتقينى . يَشُعُ منها مزيج لطيف من الجمال والذكاء . إنها مثقفة فى سدة السلطة ، أو لمزيد من الدقة ، إنها امرأة متزوجة برجل سلطة ، وهذا من شأنه أن يسمح لها بمتعة التأمل والتفكير والكتابة . تحدثنى عن مجلة تهتم بها وتود لو يتم توزيعها بشكل أوسع .

(فى المساء ...) .

أتحادث مطولاً إلى ممثل «مراسلون بلا حدود» ، روبير مينار ، خلال حفل الاستقبال الذى دعوت إليه فى حدائق فندق سلام . هو رجل فى الأربعين من العمر لكنه ينتمى إلى هذا الصنف من الرجال الذين يحافظون على مظهر شاب وهم يتقدمون فى السن . وذلك يعود بلا شك إلى أن مظهرهم الخارجى هو على صورة القضية التى يعملون لأجلها . أمامى شاب ناضج ، نحيف ، عصبى ، عنيد : إنه النموذج الأصلى للمناضل المتحمس ، المؤمن بأن وحده الكفاح العنيد يسمح بتحطيم جمود الأنانيات الجماعية التى لا تزال تتسبب فى التعديات المختلفة التى تحدث فى كثير من الدول ، وبالأخص ، فى دول العالم الثالث التى يسهل إخضاعها أكثر من سواها للرقابة والإدانة .

أشرح له بكثير من الأناة أن ندوة باماكو هذه عن الديمقراطية سبقٌ كى لا نقول ثورة حقيقية ، وذلك باعتبار أن المنظمات غير الحكومية استطاعت ، شأنها تمامًا شأن الدول وغيرها من الأطراف الفاعلة على الساحة الدولية ، أن تفاوض حول نص الإعلان الذى سيصدر فى نهاية المؤتمر . لكن لا شىء مما أقوله يثير دهشته أو يبعث لديه ارتياحًا لقناعة راسخة لديه بأن ذلك إنما هو حق مستحق كان يجب ممارسته منذ مدة طويلة . إنه يريد الآن أن يشارك فى تطبيق الإعلان ، بمعنى آخر ليس أن يُستشار فقط ، بل أن يشترك فى التحقيقات . أحاول إقناعه بأنه يجب فى هذا المجال البرهنة عن قدرة على الصبر والانتظار . لكن لا يبدو أن أقوالى هذه تعجبه . يتولد لدى

شعور بأنه غير صبور، مصمم على قلب كل شيء، وعلى عدم السكوت عن أى أمر.

أتركه لأتحادث إلى الديلوماسيين الذين تشغلهم بكل تأكيد مسائل تقع على طرفى نقيض من تلك التى تشغل باله.

باماكو ـ الجمعة ٣ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٠

أقيم مأدبة غداء فى فندق الصداقة. لايزال هذا المبنى مرتبطًا فى ذهنى بالمساومات التى جرت بينى وبين حكومة مالى طيلة سنوات، كنت خلالها وزير دولة للشؤون الخارجية، وذلك من أجل التفاوض حول تقسيط الديون التى ترتبت لمصر عن تشييد هذا البناء وعن شق طريق يبلغ طوله مئات الكيلومترات. كنت أعرف أكثر من أى إنسان آخر أن هذه الديون لن تسدد وكذلك الفوائد، لكن كان يجب الأخذ بعين الاعتبار المسائل التى كانت تشغل بال وزير الاقتصاد المصرى الذى كان يريد تجنب خلق أية سابقة فى هذا المجال.

اجتماع مغلق مع وزراء الخارجية للتصديق على الإعلان بصيغته النهائية. إنه وقت شديد الدقة: إذ يكفى أن يتقدم وزير ما باقتراح تعديلات تكون مثار خلاف أو أن يعترض على النص كليًا وببساطة، حتى ينهار، فى بضع لحظات، كل هذا البناء، وهو ثمرة سنة من الجهود والتفاوض. أستبق الأمر مشيراً إلى أن وزير راوندا لفت انتباهى، وكان محقًا فى ذلك، إلى أن كلمة «إبادة عرقية» لا تظهر فى نص الإعلان. أقترح إذن تعديلاً بهذا الاتجاه فيُوافَق عليه بالاجماع. يتدخل بدوره الوزير الفرنسى شارل جوسلان ليطلب إيضاح الصياغة المتعلقة بتعليق عضوية دولة ما فى المنظمة إثر حدوث انقلاب فيها، قائلاً إن المقصود هنا هو انقلاب عسكرى يطيح بنظام نتج عن انتخابات ديمقراطية.

بعد الموافقة على هذا التعديل الثانى أسارع لأخذ الكلام من جديد وأقول بنبرة أقرب إلى التأكيد منها إلى السؤال: «هل من تعديلات أخرى، تمت الموافقة على الإعلان»!

أتنفس الصعداء! لقد جرى كل شيء على أفضل وجه. تُرفَع الجلسة. نلتقى فى نهاية فترة بعد الظهر فى الحفل الختامى حيث يتم إلقاء الخطابات وتبادل التهانى.

رئيس الوزراء السابق فى الكونغو - برازافيل، برنار كوليلاس، الذى علم بوجودى فى فندق الصداقة، يطلب أن يقابلنى. بعد انتهاء الاجتماع، أصعد إلى الغرفة التى يشغلها مع زوجته فى الطابق الأخير. يبدو تعبًا لكنه لا يعير أى اهتمام لذلك. يحدثنى عن عدم شرعية نظام ساسو نغيسو، وعن أهمية الحوار ما بين الفرقاء المتنازعين فى الكونغو. يطلب منى أن أتدخل لدى الرئيس شيراك ولدى السلطات الفرنسية. فمن منفاه المؤلم البعيد يواصل المعركة، وما يشد من عزيمته، إيمانه بأن مناصريه ينتظرون عودته. أحاول أن أشجعه للبدء بمفاوضات مع برازافيل. يستقبل اقتراحى بحذر. فهو كجميع المنفيين السياسيين الذين صادفتهم لا يزال يحلم بالعودة إلى البلاد وبالرجوع إلى السلطة، مقتنعًا بأن عودة المصالحة والسلام إنما هى رهن بذلك.

لدى انطباع مزعج وأنا أتركه بأنه خسر نهائيًا الحرب على الرغم من دعم أنصاره الشديد، وبأنه محكوم بأن يعيش أبدًا فى المنفى وفى عدم الاستقرار. إنه من الحكام القلائل الذين لم يستفيدوا من وجودهم فى السلطة ليُحوّلوا إلى الخارج أموالاً تحميهم إذا ما الحظ يومًا خانهم...

باريس - الثلاثاء ٧ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٠

أشارك فى مؤتمر يعقد فى اليونيسكو تحت عنوان «الهوية الثقافية والعولمة» ويحضره المدير العام كويتشيرو ماتسورا.

أركز فى خطابى على أخطار العولمة وهى بالطبع مسار لا عودة فيه إلى الوراء، لكنه قابل لتعديلات كثيرة:

الخطر الأول هو ذوبان الدولة فى السوق وما يستتبع ذلك من إضعاف تدريجى للنظم الديمقراطية. وبالفعل نشهد فى الوقت الحاضر أزمة فى التمثيل السياسى، وفى وعى المواطنة. فلدى الأفراد اليوم ميل إلى الشعور بأنفسهم كمستهلكين أكثر

مما هم مواطنين. والأسوأ من ذلك أنهم يشعرون بأنهم لم يعودوا مُمثَلين، وبالتالى، بأنهم مبعدون، مهمّشون.

الخطر الثانى هو تشكل مجموعات تنغلق على ذاتها بعدائية باسم الاختلاف وذلك لما يمكن أن يؤدى إليه إضعاف فكرة الديمقراطية من تعبير عن طموحات وعن مطالب خارج الفضاء السياسى. ويخشى أن تصبح هذه الظاهرة أكثر بروزاً بسبب الإرادة المعلنة لنشر وتعميم لغة واحدة أو ثقافة واحدة.

الخطر الأخير هو تحطيم روابط التضامن التقليدية، وسقوط أفراد وبلدان ومناطق كاملة على الكرة الأرضية فى هاوية الفقر التى لا تنفك تزداد عمقًا.

كيف التصدى لهذه الأخطار؟

أولاً، بالتشجيع على قيام ديمقراطية عالمية حقيقية كى تتمكن الشعوب والأمم من التعبير عن نفسها بحرية. إنها ديمقراطية تُحتّم إصلاح منظمة الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات المتعددة الأطراف، كما تُحتّم مشاركة أكبر لقوى المجتمع المدنى.

ثانيًا، بإقامة الحوار بين الثقافات وتنفيذ سياسات من شأنها الحفاظ على التنوع الثقافى.

وأخيراً بإقناع أنفسنا بأن علينا أن نتضامن مع الدول النامية.

(فى المساء...).

أقيم حفل عشاء فى مقر الأمانة العامة على شرف عبده ضيوف وزوجته. لقد دعوت ميشال روكار وزوجته، جاك أتالى وزوجته، سفير مصر على ماهر وزوجته، فخرى عبد النور. مناخ السهرة لطيف ومرح وخفيف.

مشهد يثير الاهتمام: عبده ضيوف حكيم متبصر، ميشال روكار كعادته متحمس متوقد الذهن، جاك أتالى يتقن فن التحدث بالأرقام والكلمات، على ماهر يجيد دور الدبلوماسى المتمرس، فخرى متيقظ وفضولى، وفى المساحة

الخلفية للوحة، تظهر الزوجات. لقد نجحت الكيمياء فى سحرها، وفى المحصلة، كان حفل الاستقبال ناجحًا.

باريس ـ الخميس ٩ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٠

اجتماع عمل مع مديرى البرامج فى الوكالة الحكومية للفرنكفونية. بعضهم لامعون ويعرفون ملفاتهم جيداً. وبعضهم الآخر ضعفاء الذهن للغاية. نضع الإصبع هنا على المشكلة الأساسية فى المنظمات الإقليمية. فهى فى معظم الأحيان لا تنجح إلا فى اجتذاب عناصر بشرية من الدرجة الثانية، ذلك أن الدبلوماسيين والخبراء الأكفاء يفضلون العمل لإداراتهم الوطنية أو للأمم المتحدة ولوكالاتها المتخصصة. فلا يبقى للمنظمات الإقليمية إلاّ من لم ترغب منظمات أخرى فى الاستعانة بهم أو من تمنعهم أسباب سياسية من العمل فى بلدانهم...

باريس ـ السبت ١١ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٠

أتلقى هذا الصباح زيارة غير متوقعة: إنه جورج غورس. وهو الأستاذ الذى علمنى الأدب الفرنسى فى الليسيه المصرية-الفرنسية فى مصر الجديدة، بضواحى القاهرة. أذكره كما كان حينها، شابًا لامعًا أنيقًا. التقيته بعد ذلك بعدة سنوات، عام ١٩٩٥، فى جلسة استماع أمام لجنة الشؤون الخارجية فى الجمعية الوطنية التى كان يرأسها فاليرى جيسكار ديستان.

لقد احتفظت له فى ذاكرتى بصورة لم تتغير لأستاذ ممتاز عرّفنى على عبقرية اللغة الفرنسية. وكان لديه كغيره من المدرسين هوس بموضوع ثابت: حادثة المادلين فى رواية «من جهة سوان» التى كان يرجع إليها مراراً.

اليوم، أمامى رجل مُسن هزيل، قلق، ويائس.

أُذّكره بسنواتنا فى مصر، حين كنا، هو الأستاذ الشاب، وأنا التلميذ المشاغب المتمرد على النظام. ترتسم على وجهه ابتسامة حزينة ثم يقف ويستأذننى بالخروج قائلاً:

ـ لا أعرف لماذا أتيت لأراك ... ؟

أقول لنفسي في هذه اللحظة إنني لا أخاف الموت، على أن يأخذني بضربة واحدة. لكنني أخاف كثيراً من الشيخوخة الحزينة.

باريس ـ الاثنين ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠

ألتقي من جديد وبفرح كبير عند السفير جان ـ بيار فيتوفاغليا، إدوار برونير أحد الرجال الذين تزهو بهم الدبلوماسية السويسرية. وقد كان ممثلاً شخصيًا للأمين العام للأمم المتحدة في جورجيا. وكان حينها سفيراً لسويسرا في باريس، أي في وضع أقل ما يقال فيه إنه هادئ ومريح. لكن ذلك لم يمنعه من القيام بتحليل واضح وشامل للوضع. وأذكر أنه كان يروي الأحداث بروح من الفكاهة التي كانت تجعل المآسي التي شاهدها تبدو أقل وطأة.

باريس ـ السبت ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠

يتسلم دافيد روكفلر وسام جوقة الشرف من رتبة الصليب الأكبر من كبير الوزراء في احتفال مؤثر انتظره طويلاً. لم أنسَ في الواقع الحسرة في صوته وهو يقول لي بعد أن علم بنبأ تسلمي هذا الوسام من فرانسوا ميتران:

ـ لقد حاز والدي على وسام الصليب الأكبر، أما أنا فلا.

وبينما كنت أستذكر العبارات التي قالها لي الرجل السعيد المحتفى به اليوم، إذا بسفير الولايات المتحدة، فيليكس روهاتيم يبوح لي بالحسرة التي يشعر بها في اللحظة الحاضرة:

ـ لو كان لي فقط شَعر مثل شَعرك... فأنا أفقد شعري، والقليل المتبقي منه لا يكفي لإنقاذ المظاهر.

وبما أننا نتكلم عن الحسرة، أقول في نفسي لو أنني أملك نسبة واحد في المائة من

ثروة دافيد روكفلر، وعشر السلطة السياسية والدبلوماسية التى يمتلكها فيليكس روهاتيم، فمن المؤكد أننَى لن أشعر أبدًا بالحسرة ...

باريس ـ الاثنين ٢٠ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٠

احتفال آخر، ولكن هذه المرة فى بنك دو فرانس. يُقلد حاكم المصرف، جان- كلود تريشيه، صديقى ماكدونوغ، حاكم مصرف نيويورك الفيدرالى، وسام جوقة الشرف الفرنسى. وقد أحضر هذا الأخير العائلة كلها. الجميع يصغى بخشوع للخطابات تتتالى بلغة فرنسية لا يفهمونها.

لطالما كانت صداقة بيل ماكدونوغ وزوجته غالية بالنسبة إلىّ. ولم نكن نُفَوت مناسبة لنلتقى، عندما كان يمر فى باريس أو عندما كنت أزور نيويورك. إنهما شخصان مثقفان، من عشاق الفن والموسيقى والمواقع الأثرية.

باريس ـ الثلاثاء ٢١ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٠

أُصرّ على الكولونيل أسومانى حاكم جزر القُمُر كى يتفاوض مع المعارضة المتمثلة فى الطقم السياسى القديم الذى يصفه بالديناصورات. أقول له:

- ربما كنت لأوافق منذ فترة قصيرة على وجهة نظرك التى تقضى بإيجاد حل لمشكلة الحركة الانفصالية فى جزيرة أنجوان، قبل إطلاق الحوار بين الأطراف المتنازعة فى جزر القُمُر. أما اليوم، وأمام معارضة المجتمع الدولى الواضحة، فإنى أنصحك بأن تعمل أولاً على تقوية موقعك داخل البلاد، قبل أن تبدأ بمفاوضات مع الانفصاليين فى جزيرة أنجوان. وإذا كانت هذه المقاربة للمشكلة تناسبك، أنا مستعد لأن أرسل إليك خلال بضعة أيام بعثةً من المنظمة الدولية للفرنكفونية كى تساعدك على إطلاق الحوار وعلى استدراج أنجوان بعد ذلك إلى طاولة المفاوضات.

ينظر إلىّ الكولونيل طويلاً قبل أن يقول:

ـ أقبل بعرضك وأنتظر بعثتك.

باريس ـ ٢٣ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٠

يبلغنى جاك شيراك بموافقته على المشاركة فى الندوة التى تعقد فى ٢٠ مارس ٢٠٠١، بمناسبة اليوم العالمى للفرنكفونية. الرئيس جواكيم شيسانو، من موزمبيق أكدّ منذ الآن حضوره للندوة بصفة رئيسا لمجموعة البلدان الناطقة باللغة البرتغالية. يبقى أن نجد رئيسًا يمثل القمة الإيبيرية ـ الأمريكية، ومجموعة الدول الناطقة باللغة الإسبانية.

نعرض بسرعة لموضوع انتخاب أمين عام المنظمة فى بيروت:

يقول لى الرئيس شيراك:

ـ حظوظ لوبيس، وهو صديقى، ضئيلة بأن يُنتخب. بكل الأحوال، إنه ليس إفريقيًا حقيقيًا، إنه خلاسى. ثم يضيف بابتسامة مُعبرة: «وأنت أيضًا لست إفريقيًا حقيقيًا».

الرباط ـ الجمعة ٢٤ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٠

قبل أن ألتقى بالملك محمد السادس حرصت هذا الصباح على زيارة ضريح الملك الحسن الثانى. وقت قصير من التأمل العميق. أمام قبر الملك المتوفى، أفكر من جديد بالدور الذى لعبه فى العالم العربى. فى نجاحاته: كيف استطاع أن يرمم العلاقات بين المغرب وباقى العالم العربى، مخرجًا بذلك بلده من العزلة التى وضعه فيها نظام الحماية الفرنسى. كيف عرف أن يقيم علاقات جديدة مع المملكة العربية السعودية ومع إمارات الخليج. وأفكر فى إخفاقاته أيضًا: فى مشكلة الصحراء الغربية، وفى العلاقات بين المغرب والجزائر...

يستقبلنى الملك محمد السادس، وإلى يمينه أخوه الأمير مولاى رشيد. يقف إلى جانبى وزير الخارجية.

يبادرنى الملك:

ـ أنت تعرف جيدًا هذه القاعة.

ثم يضيف :

ـ المرة الأولى التى التقينا فيها كانت فى فيتيل، فى القمة الفرنسية ـ الإفريقية عام ١٩٨٣ .

أجيبه :

ـ بالفعل، يا جلالة الملك. وأذكر جيداً أنك سألتنى كم لغة أتكلم. فأجبتك : «ثلاث. العربية والفرنسية والإنجليزية». ولفتّ انتباهى عندها بشىء من الاعتزاز إلى أنك تتكلم أربع لغات.

يُعلّق مداعبًا :

فى تلك الفترة، كان ينقصنى التواضع، يا حضرة الأمين العام...

عرضنا إلى ملف الفرنكفونية الذى يتمسك به المغرب كثيراً. يعبر الملك عن اهتمام كبير بالقمة التى ستنعقد فى بيروت والتى ينوى أن يشارك فيها شخصيًا. أطلعه على الفكرة التى لدى بتنظيم مؤتمر كبير جديد عن الديمقراطية، استكمالاً لندوة باماكو، يضم ممثلين عن جميع الأحزاب السياسية فى فضاء الفرنكفونية. ويمكن عقد هذا المؤتمر فى الرباط أو فى الدار البيضاء، فى ٢٠٠٢ .

يردّ على اقتراحى بكلامٍ ينم عن حكمة كبيرة :

أنا لا أرغب كثيراً، فى الوقت الحاضر، بأن أجمع فى المغرب ممثلين عن أحزاب المعارضة فى بعض البلدان الأعضاء فى الفرنكفونية. فذلك لن يروق لرؤساء دول البلاد المعنية. وطالما أننى لم أتوصل إلى حل لمسألة الصحراء الغربية، يجب أن أُظهر الكثير من الحذر، وأن أكرس كل جهودى للخروج من هذه المشكلة الشائكة. لكن بلدى مستعد لاستقبال أية تظاهرةٍ كبيرةٍ أخرى ترغب الفرنكفونية بتنظيمها.

(بعد وقت قصير ...).

أقوم بزيارة لرئيس الوزراء عبد الرحمن اليوسفى، أحد رموز منظمة الاشتراكية الدولية، الذى أعرفه منذ وقتٍ طويل. يخُصّنى باستقبال حار. وإذ يلاحظ أننى

أنظر بعين الانتباه والإلفة إلى الأثاث وإلى اللوحات والتماثيل الموجودة فى الغرفة، يقول لى بشىء من المكر:

ـ لقد جئت كثيراً إلى هذا المكان فى زمن عبد اللطيف الفيلالى رئيس الوزراء السابق...

ـ هذا صحيح، حضرة السيد رئيس الوزراء. إنك دقيق الملاحظة. فنظرتى لم تَفُتك وقد قرأت أفكارى.

يُظهر لى اهتماماً كبيراً بالفرنكفونية ويعدنى بكل المساعدة اللازمة لنمو وازدهار هذه المؤسسة.

الرباط ـ السبت ٢٥ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٠

أزور مبانى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) حيث ألتقى بالمدير العام الدكتور عبد العزيز عثمان التويجرى. أدلى بتصاريح للصحافة والتلفزيون. جلسة لأخذ الصور. يُرينى قطعة الأرض التى سيشيد عليها المقر الدائم للإيسيسكو، ويقدم إلىّ لمحة سريعة عن المنشآت التى سيتم بناؤها فى المستقبل: قاعة مؤتمرات، مكتبة، مكاتب... تلاحقنى تلك النزعة التى لا تقاوم إلى عقد المقارنات مع مبانى الفرنكفونية فى فرنسا...

نتوافق على توقيع اتفاق تعاون على مستوى الكوادر. تلتزم الإيسيسكو بترجمة أعمال مؤتمر «الفرنكفونية والعالم العربى» إلى العربية. وكانت المنظمة الدولية للفرنكفونية قد نظمت ذلك المؤتمر فى مايو المنصرم.

باريس ـ الثلاثاء ٢٨ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٠

مؤتمر صحفى لإطلاق الدورة الرابعة للألعاب الفرنكفونية. القاعة شبه خاوية. أحصيت بالتمام والكمال ستة عشر شخصاً، معظمهم من رواد المكان المعتادين أو من الصحفيين...

لفتة صغيرة مؤثرة ومشجعة فى هذه الأمسية الخائبة: لقائى بشابة فرنسية حائزة على بطولة فى لعبة الجيدو. تشرح لى كيف تفوقت عليها منافستها المصرية، التى لم تعد تذكر اسمها الكامل، وتطلب منى أن أساعدها على أن تجد طريقة للاتصال بها...

لومى ـ الجمعة ١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

خلوة على العشاء مع كوفى بانو. من الواضح أنه متعب. إنه شديد السمنة ويأكل كثيراً. نتناقش فى العلاقات الصعبة بين توغو والاتحاد الأوربى.

ـ جيلكريست أولمبيو نجح فى إقناع معظم الدول الأعضاء فى الاتحاد الأوربى، وألمانيا، على وجه الخصوص، بأنه طالما أن الرئيس إياديما باقٍ فى السلطة، لن تكون ديمقراطية ولا حقوق إنسان فى توغو.

لومى ـ السبت ٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

أمضى فترة قبل الظهر فى لقاءات مع مسؤولى الأحزاب السياسية المختلفة فى محاولة لتنشيط الحوار بين الفرقاء المتنازعين فى الكونغو.

لومى، كارا ،كوتونو ـ الأحد ٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

أسافر برفقة البروفسور برنار دوبريه، ورئيس الوزراء كوفى أبو إبو على متن طائرة رئاسية، إلى كارا، مسقط رأس غناسينغبى إياديما.

يخبرنى برنار ديبريه بأن كوفى بانو قد أصيب مساء البارحة بنوبة قلبية لكن حياته لم تعد فى خطر. وكنت قد نصحته أول من أمس، عندما التقينا على العشاء، أن ينتبه إلى صحته، لكنه كان يعتقد ـ مثلنا جميعًا بكل حال ـ أن النوبات القلبية لا تصيب إلا الآخرين.

كارا فى عيد ـ وهى بالنسبة إلى إياديما مثل قرية أبو الكوم بالنسبة إلى السادات،

وياماسوكرو بالنسبة إلى هوفوويت ـ بوانيى، أو بادوليتى بالنسبة إلى موبوتو. فى كل مكان فى الشوارع، لافتات كبيرة ترحب بنا. استقبال صاخب. يستقبلنى الرئيس إياديما على مدخل القصر الرئاسى. منذ عشرين عامًا، فى ١٩٧٨، جئت إلى كارا لأُسلّمَه رسالة من الرئيس السادات. لم تكن كارا حينها إلا قرية، ولم يكن مقر الرئيس سوى منزل بورجوازى بسيط.

الرئيس التوغولى يقلدنى وسامًا خلال احتفال مختصر، قبل أن يدعونا إلى مأدبة غداء، برنار ديبريه وأنا. يجلس الوزراء وغيرهم من الشخصيات فى قاعة متاخمة. يُسّر لى برنار ديبريه بأنه من المقربين للرئيس لدرجة أن هذا الأخير كان مصممًا على مصالحته مع أخيه بعد وفاة والدهما. بمعنى آخر، أنه أراد أن يقوم مقام الوالد. إضافة إلى ذلك، أمضى برنار ديبرييه شهر عسله فى توغو، وهو يعود إليه بانتظام ليجرى عمليات جراحية للمرضى فى كارا أو لومى.

كوتونو ـ الاثنين ٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

لن أعرف أبدًا من يحرك ويحرّض على المأساة ـ الملهاة التى أتابع فصولها هذا الصباح من غرفتى فى الفندق.

كان من المقرر أن ألقى كلمة خلال جلسة الافتتاح الاحتفالية للمؤتمر الرابع للأمم المتحدة حول الديمقراطيات المستحدثة أو المستعادة، وذلك بصفتى أمينًا عامًا للمنظمة الدولية للفرنكفونية. حتى أُعلَم بأنى لن أكون على المنصة حيث سيجلس الرئيسان كيريكو وكونارى وكذلك الأمين العام للأمم المتحدة، ولكن سيُخصص لى مقعد فى القاعة، فى الصف الأول، إلى جانب الرئيس زينسو، كما أننى سألقى كلمتى بعد جلسة الافتتاح. ما هكذا تصوّرت الأمور، فى البداية. فالمعادلة بسيطة فى ذهنى: إما أن أكون على المنصة فألقى كلمتى، قبل أو بعد الرؤساء والأمين العام للأمم المتحدة، أو أرفض المشاركة فى حفل الافتتاح.

يجىء إلىّ الرئيس زينسو. يصر علىّ كى لا أحدث ضجة كبيرة وكى أقبل الجلوس إلى جانبه. كريستين دوسوش تتصل بى مرتين من مكان المؤتمر لترجونى

ألاّ أقاطع الاحتفال. لكنى أتمسك بموقفى. بصفتى أمينًا عامًا لمنظمة دولية ـ المنظمة الدولية للفرنكفونية ـ ساهمَت فى إعداد وتمويل هذا المؤتمر، يجب أن أحظى بنفس المعاملة التى يحظى بها الأمين العام للأمم المتحدة ورؤساء الدول.

تتأخر جلسة الافتتاح لأن رئيس مالى لم يصل بعد. خلال هذا الوقت تستمر المحادثات فى جو يشبه بالنسبة إلى الوسطاء مأساة للكاتب الفرنسى كورناى، ويشبه فى نظرى، مسرحية كوميدية للكاتب الفرنسى موليير. عبث كل تلك المحاولات. فى نهاية المطاف يلجأ الرئيس زينسو إلى الرئيس كيريكو وإلى كوفى أنان اللذين يرحبان بوجودى إلى جانبهما من غير أن يفهما جيدًا السبب الذى رُفض من أجله صعودى إلى المنصة.

لم أعرف قط إن كانت هذه المؤامرة الصغيرة تستهدف المنظمة الدولية للفرنكفونية، التى يُراد التقليل من أهمية مشاركتها أم أنها كانت رسالة موجهة إلىّ مباشرة.

باريس ـ الجمعة ٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

حديث طويل مع وزير الثقافة فى لبنان، غسان سلامة، المكلف بالتحضير للقمة الفرنكفونية فى بيروت. أشعر بأنى أكثر طمأنينة منذ أن عُهد إليه بهذا الملف. يبقى الخوف من الأمور التى ليست فى الحسبان. كأن تقرر إسرائيل، مثلاً، إرسال طيرانها الحربى ليحلق فوق بيروت، دون أن تخشى أية محاسبة. فهذه الدولة تتمتع بحصانة تضمنها القوة العظمى. تكفى حادثة من هذا النوع حتى تلغى أكثرية كبيرة من رؤساء الدول والحكومات مشاركتها فى اللحظة الأخيرة.

(مساء ...).

ليّا وأنا نتناول العشاء مع السيدة سوزان مبارك، برفقة السفير على ماهر وزوجته شيرى. لا يزال سحر سيدة مصر الأولى وذكاؤها وتواضعها يأسرنى. أتكلم خلال الحديث عن دور المنظمات الدولية غير الحكومية، وعن خطيئة اللامبالاة التى ترتكبها حكومتنا ودبلوماسيتنا تجاه هذه القوى الجديدة الفاعلة فى السياسة الدولية.

يكفى أن نرى مثلاً عدم الاهتمام تجاه منظمة الاشتراكية الدولية منذ أن استقلت من منصب نائب الرئيس، فى سنة ١٩٩٢، بينما رؤساء وزراء ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى هم أعضاء فاعلون فى هذه المنظمة.

سوزان مبارك تصغى إلىّ باهتمام. إنها تشاركنى همومى. فهى فى مقدمة المناضلين لتفعيل دور المجتمع المدنى فى مصر، ولكنها تعلم، مثلى تمامًا، أنه ربما يكون أسهل أن تحرك الأهرامات من أن تخرج البيروقراطية المصرية من جمودها.

باريس - السبت ٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

الرئيس بيار بويويا، رئيس بوروندى، والذى ألتقيه بعد ظهر هذا اليوم يتوقع الكثير من مؤتمر الدول المانحة الذى سيُفتتح هذا الصباح، فى باريس. يبدو مطمئنًا واثقًا على الرغم من الحرب الأهلية التى لا تزال تعصف ببلاده. لدىّ شعور بأنه سيبقى طويلاً فى السلطة، ذلك أنه طالما استمرت الاضطرابات العسكرية وطالما أنه لم يتم التوصل إلى اتفاق حقيقى مع الثوار، فإنه لا مصلحة لبوروندى فى تغيير رئاسى. أعى تمامًا أن ما أفكر به يتناقض مع روح اتفاقات «أروشا».

مدريد - الاثنين ١١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

قبلت دعوة فيديريكو مايور إلى المشاركة فى المؤتمر الدولى الكبير الذى ينظمه فى جامعة خوان كارلوس الجديدة، على بعد حوالى عشرين كيلومترًا من مدريد، حول موضوع الثقافة والسلام. إنها طريقة لتدشين المؤسسة التى أسسها منذ أن ترك اليونيسكو.

ليًا وأنا، نتناول طعام الغداء فى الفندق بصحبة دانييل ميتران. لم تفقد شيئًا من ديناميتها ومن التزامها بالنضال من أجل فقراء العالم.

(فى فترة بعد الظهر ...).

جلسة افتتاح احتفالية بحضور ملك وملكة إسبانيا.

في أثناء حفل الاستقبال الذى يلى الجلسة أقدم تحياتى إلى الملك خوان كارلوس الذى يحيط به حشد من المدعوين. يسألنى:

ـ ماذا تفعل فى الوقت الحاضر؟ ثم يتابع قبل أن ينتظر الجواب:

ـ أريد أن تذهب إلى المغرب كى تتحدث إلى الملك الشاب. المحاط أيضًا بمعاونين شباب. أنا لا أضمر شيئًا ضد الشباب لكن قد يكون من المفيد أن تتاح له فرصة الاستماع إلى وجهة نظر رجل ذى خبرة.

وقبل أن أتلفظ بكلمة واحدة حال حشد المعجبين بينى وبينه. لم يُتَح لى الوقت كى أجيبه أننى لا أتمتع قطعًا بأى صفة تُخَوِّلُنى أن أكون مستشارًا للملك.

أجد بين المدعوين إيما بونينو التى تطلب منى بحماستها المعهودة أن أحثّ الدول الأعضاء فى الفرنكفونية على أن تلتزم بوضوح العمل على إلغاء حكم الإعدام ما وعلى التصديق على قانون إنشاء المحكمة الجنائية الدولية.

فى هذه الزوبعة المجنونة اقترب منى شخص غريب جدًا. أخبرنى بأن الرئيس الأكبر لقبيلة الهوبى، وهى قبيلة هندية فى أمريكا يود مقابلتى لأمر طارئ. كنت قد استقبلت هذا الأخير فى الأمم المتحدة سنة ١٩٩٥، فتحققت بذلك نبوءة فى كتاب الحكمة الذى يؤمن به «الهوبى» تحدد موعد ومكان هذا اللقاء: تلك السنة، وفى بيت زجاجى. أمام موقفى الشديد التحفظ يعدنى ببطاقة طائرة فى الدرجة الأولى. يقترب منى أحد القادمين فأنتهزها مناسبةً لأنهى الحديث معه بلباقة. جهد ضائع. أجده فى مساء اليوم نفسه، فى الفندق. أشرح له أن مسؤولياتى لا تسمح لى فى هذه الفترة بالقيام بسفرة من هذا النوع، وأسأله بدون مقدمات عن رأيه فى انتخاب جورج بوش. يأخذ وقتًا للتفكير قبل أن يجيب:

ـ ستكون حكومة حرب باردة بدون حرب باردة.

تعجبنى العبارة. لعلها تستحق شروحاتٍ طويلة.

مدريد ـ الثلاثاء ١٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

تختلف كثيرًا المبانى التى تنعقد فيها القمة الإيبرية ـ الأمريكية، هى أيضًا، عن

مبنى المنظمة الدولية للفرنكفونية فى شارع بورغونيى . أبحث مع المسؤولين أشكال مساهمتهم فى مؤتمر ٢٠ مارس ٢٠٠١ ، فى باريس .

(مساءً ...) .

نتناول العشاء مع فيديريكو مايور ، وعائلته ومجموعة من أعضاء المؤتمر . فى الغرفة المجاورة ، امرأة شابة تعزف على القيثارة لحنا لموريس رافيل . تتزاحم الصور فى رأسى فإذا بى أنسى تمامًا كل ما حولى . السيدة المحترمة الجالسة إلى يمينى ، الجو المرح ، نكهة الشمس فى النبيذ الإسبانى ، كل ذلك يتوارى . فى لحظة واحدة ، أجدنى فى القاهرة ، وأرى «دهبية» على النيل ، عند شمس الأصيل . لا ألبث أن أعود لأكمل حديثى مع السيدة المحترمة ، ثم ألتفت إلى يسارى لأرضى فضول جارتى الأخرى ، امرأة سمينة تود أن تعرف إن كنت أفضل العيش فى نيويورك أم فى باريس .

مدريد ـ الأربعاء ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

أتلقى اتصالاً هاتفيًا من الرئيس شيسانو الذى يعرض علىّ أن نلتقى خلال يومين ، فى باريس ، لنتحدث عن مؤتمر ٢٠ مارس ٢٠٠١ .

أستفيد من هذه الإقامة القصيرة فى مدريد لأزور متحف فيلاسكيز ، ثم متحف البرادو ، حيث تقدم إلينا أمينة المتحف شروحات موسعة وغنية بالمعلومات عن لوحات غويا . تطلعنا على التفاصيل التى لم نرها ، وعلى قصة ولادة كل لوحة ، وعلى الرسالة التى يهدف الفنان إلى إيصالها من خلالها . إنه إحساس مختلف تمامًا عن ذلك الذى يحدثه الاستسلام للانفعال الذى يثيره فينا عمل فنى ، فلا نبحث عن معرفة أو عن فهم معناه العميق .

(بعد الظهر ...) .

أتلقى نبأ الفوز النهائى لجورج بوش . أشعر بارتياح كبير ! كان لدىّ خشية كبيرة أن يربح آل غور ؛ لأنه أكثر صهيونيةً من أشد الصهاينة تعصبًا .

باريس ـ الخميس ١٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

مجمل عن النشاطات التي قامت بها المنظمة منذ قمة مونكتون، أمام أعضاء مكتب جمعية البرلمانيين الفرنكفونيين. أتحاور مع المشاركين. يطرح السناتور الكندي لائحة طويلة من الأسئلة تدل على معرفته الكاملة بملفات الفرنكفونية.

أترك بسرعة البرلمانيين كي أذهب للقاء الرئيس شيسانو. إنه قادم من جامعة أكسفورد حيث دعاه مساعدي السابق، سير ماراك غولدنغ إلى إلقاء محاضرة. يبدو منشرحًا وهو يقول لي أن هذا الأخير أخبره بأنني أقرأ بتأن كل التقارير لأعيدها معدلةً كليًا في اليوم التالي. ثم يبادرني وهو يوجه إليّ نظرة ثاقبة:

ـ إنك لم تتغير. قل لي ما هو سرُّك؟

ـ إنه العمل، سيدي الرئيس. العمل يحافظ على النشاط.

نتكلم عن ألفونسو دلاكاما. ألاحظ أنه لا يزال يشعر تجاهه بالنفور. لا تتوفر لنا مطلقًا متعة الاسترسال في الحديث، فقد كان عليه أن يغادر من جديد.

ـ ستقول لجاك شيراك إنني سوف أشارك إلى جانبه في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر ٢٠ مارس.

باريس ـ الثلاثاء ١٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

أستقبل هذا الصباح تيرانس نسانزيه. إنه ينتمي إلى مجموعة التوتسي في البوروندي. عندما عرفته كان سفيرًا لبوروندي في الأمم المتحدة. فكر في الترشح لمنصب الأمين العام، حتى أنه حين انتُخبتُ سنة ١٩٩١، وصل به الأمر لأن يشرح لي أنه أسهم في انتخابي وأنه قد يقبل منصب أمين عام مساعد. ثم التقيته خلال زيارتي لبوجومبورا في ١٩٩٤. كان حينها يترأس حزبًا لا يتجاوز عدد أعضائه أصابع اليد الواحدة.

إنه زرب اللسان، معتاد الاستطرادات الطويلة التي يكرُّها كحبات سبحة،

بصوت أخنّ، وبنفَس لا ينقطع. جاء لينبئنى بأنه سيصبح الرئيس الجديد لبوروندى بعد رحيل الرئيس بويويا.

أسأله:

ـ وهل يعلم الرئيس بويويا بنواياك؟

ينظر إلىّ وقد بدت على وجهه علامات الدهشة والانزعاج:

ـ الرأى العام فى بوروندى يعرف نشاطى السياسى ويدعمنى. ويضيف بلا تمهيد:

ـ بانتظار ذلك، إذا كان لديك مهمة دبلوماسية تكلها إلىّ فى إطار الفرنكفونية سأقبل بها عن طيب خاطر.

أؤكد له أننى سآخذ رغبته بعين الاعتبار.

باريس ـ الخميس ٢١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

رئيس الوزراء السابق لجزر القُمُر، على مرودجا، يعلن بوضوح احتقاره الكبير للعسكريين الذين يحكمون البلاد:

ـ لقد استمرأ الكولونيل أزالى السلطة ولن يتخلى عنها فى المستقبل القريب. أما الكولونيل عابد الذى يعيث فساداً فى أنجوان، فهو عسكرى متقاعد خدم فى الجيش الفرنسى وجىء به من تولوز. ومن الحرى القول بأنه دمية فى أيدى رجال المافيا الذين سيجهزون عليه فى الوقت المناسب. وهو فى كل حال، لا يتمتع بدعم الشعب وسيفقد السلطة فى وقت أقرب مما تعتقد.

باريس ـ الجمعة ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

الوضع يسوء من جديد فى بانجى. أتصل هاتفيًا بالرئيس أنج-فيليكس باتاسيه الذى يؤكد لى أنه يسيطر على الوضع. أشارك العديد من المراقبين الرأى بأن أنج ـ فيليكس باتاسيه ليس الرجل القادر على تحقيق المصالحة الوطنية.

باريس ـ السبت ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

أخيراً انتهيت من إعداد مقدمة الطبعة الألمانية للخطط الثلاث من أجل السلام والتنمية والديمقراطية، التى كنت قد أعددتها فى الأمم المتحدة. أركّز على علاقة التفاعل بين هذه الأهداف الثلاثة التى تشكل المحاور الكبرى لنشاطى فى الأمم المتحدة، والتى تكلمت عنها بالتفصيل فى خطاب القسم فى ٣ ديسمبر ١٩٩١ عندما أصبحت سادس أمين عام للأمم المتحدة. إنها أهداف ثلاثة لن أتوقف عن الدفاع عنها ويجب أن تبقى، اليوم أيضًا، بمثابة خارطة طريق ووسيلة إبحار تسمح باكتشاف فضاء المستقبل الغامض.

باريس ـ الأربعاء ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

فى مبانى اليونيسكو التى هجرها الموظفون الدوليون الذين أخذوا عطلتهم، أوَقع مع كويتشيرو مانسورا اتفاق تعاون بين المنظمة الدولية للفرنكفونية والمنظمة الدَولية للتربية والعلم والثقافة. نلتزم بأن ندّعم التعاون بين منظمتينا فى المجال الثقافى.

أستقبل ميشال بازى الذى يعزم على أن يحصل من بعض الشركات الكبرى على تمويل حوالى ألف منحة للشباب الفرنكفونيين. مساعدىَّ يشككون فى إمكانية نجاحه. أقترح أن نبدأ بطلب مائة منحة نضعها بتصرف الوكالة الجامعية للفرنكفونية للعام ٢٠٠١ـ ٢٠٠٢. وليكن ما يكون. لكن من البديهى أنه إن لم ننجح فى الاستفادة من مصادر تمويل خاصة، وإن لم نؤسس لتعاون نشيط مع كبريات المؤسسات المالية الدولية، فإن الفرنكفونية ستبقى مؤسسة هواة.

باريس ـ الأحد ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠

قررنا هذه السنة أن نمضى سهرة رأس السنة فى منزلنا، فى باريس، مع مجموعة صغيرة من الأصدقاء: أخى واصف، إخوة ليا، فريد وإيمانويل، السفير على ماهر، والسفير شهريار خان.

قبل منتصف الليل بقليل، ننتقل إلى المطبخ حيث يمكننا رؤية برج إيفل لنشهد لعبة الأضواء التي وُعد بها الباريسيون: ها هو برج إيفل المزين بأضواء زرقاء اللون. كثير من الضجة للاشيء، فالتحول ليس مقنعًا. ينسحب المدعوون الواحد تلو الآخر، ونجدنا معًا نحن الاثنين وحدنا نستقبل العام الجديد.

٢٠٠١

باريس ـ الاثنين ١ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

يزورنى جان-كلود إيميه، مدير مكتبى السابق فى الأمم المتحدة، وهو هاييتى كان أعداؤه يلقبونه «تونتوت ماكوت فى الطابق ٣٥». لكن كل مدير مكتب له أعداء كثر.

لديه معرفة جيدة بملف الشرق الأوسط وذلك لأنه عمل عدة سنوات فى الأردن. يقول لى:

ـ أعتقد أن طاقمًا سياسيًا جديداً سيستلم السلطة فى إسرائيل وأنه سيعود إلى المشروع القديم الذى لا يزال ملائمًا للواقع الراهن، وهو الخيار الأردنى الذى يقضى بأن تَضُمَّ الأردن الأراضى الفلسطينية المُحَرَرة وأن تتشكل حكومة فلسطينية فى عمان.

باريس ـ الأربعاء ٣ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

يريد الكولونيل أزالى أسومانى أن تُوجَّه إليه دعوة لحضور القمة الفرنسية ـ الإفريقية فى ياونديه. أعتقد أنه يجب إرضاؤه؛ وذلك لأنه أسهمَ بصورة بنَّاءة فى إيجاد حل سلمى للأزمة فى جزر القُمُر. يبدو أن الوزير شارل جوسلين موافق على مشاركته. لكن لميشال دوبوش، مستشار الرئيس جاك شيراك، رأى مخالف يعبر

عنه قائلاً: «نحن نحترم قرارات منظمة الوحدة الإفريقية التي لا تسمح له بالمشاركة في المؤتمرات الإفريقية الكبرى».

أتصل هاتفيًا بالرئيس إياديما، وهو الرئيس الحالي لمنظمة الوحدة الإفريقية. يُعرب عن ارتياحه للموقف الجديد الذي يعتمده الكولونيل أزالي، ولا يرى بالتالي أيَ ضرر من أن يشارك هذا الأخير في قمة ياونديه. أوافقه الرأي. لكن عبثًا أحاول إقناع الذين يعارضون مشاركة رئيس القُمُر في القمة الفرنسية ـ الإفريقية.

لم تنتصر وجهة نظر الوزير جوسلين.

باريس ـ الجمعة ٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١

محادثة هاتفية مع الرئيس ديديه راتسيراكا. يشتكي الانتقادات التي وجهها ضده وضد نظامه نائب فرنسي.

أقول له:

ـ لست مسؤولاً عن العلاقات الثنائية بين فرنسا ومدغشقر...

ـ لكنك أمين عام للفرنكفونية، وفرنسا ومدغشقر دولتان عضوان في منظمتك!

إن منطقه لا يُرَدّ. أعده أن أوصل شكواه إلى السلطات الفرنسية. أتصل على الفور بميشال دوبوش، في الإليزيه، وكان قد تلقى اللوم نفسه من تاناناريف، ولا يبدو أنه يعير اهتمامًا كبيراً لشكاوى الرئيس المالغاشي.

باريس ـ الاثنين ٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١

قبل الجنرال أمادو توماني توري القيام بمهمة تشجيع الإرادة الطيبة لدى رؤساء الدول الأعضاء في الفرنكفونية الذين لم ينضموا حتى الآن إلى اتفاقية أوتاوا حول نزع الألغام ضد الأشخاص. إن هذا الجنرال وهو الرئيس السابق لمالي، وجه إفريقي كبير. فبعد أن استحوذ على السلطة، تركها للمدنيين. إنه رجل نشيط وذكي ومنفتح. تنبعث منه طيبة وتواضع يجعلانه محببًا جداً.

يقطع علينا الحديث مجيء فيليب شاباس من الجمعية الدولية للإعاقة، وهو مناضل ملتزم تابع نشاطى فى الأمم المتحدة من أجل مكافحة الألغام ضد الأشخاص. يُسَلِّمُنى رزمة كبيرة من ألف صفحة ويعتذر لكونها كُتبت بالإنجليزية. هذه الموسوعة حقيقية تصور حالة الوضع فى كل بلد من البلدان. أستنتج بأسف أن مصر التى تصنع ألغامًا لم توقع حتى الآن على اتفاقية أوتاوا. أتعهد بإثارة الموضوع مع سلطات بلادى عند زيارتى المقبلة للقاهرة.

نتوجه نحن الثلاثة إلى قاعة المؤتمرات حيث ينتظرنا الصحفيون. أمادو توماني تورى يصف مهمته بكلمات قليلة ويعلن أنه سيبدأها بزيارة إلى الكونغو ـ برازافيل ثم إلى بوروندى وإلى جمهورية الكونغو الديمقراطية. ثم يتابع كلامه قائلاً: «بصفتى عسكريًا عَلَّمتُ رجالى كيف يضعون الألغام. واليوم وبصفتى مبعوثًا للنوايا الطيبة، سأشرح للدول كيف ولماذا يجب أن تقضى عليها».

باريس ـ الثلاثاء ٩ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

كل المؤسسات الفاعلة فى الفرنكفونية تجتمع فى مجلس التعاون. أتوجه إلى جان ستوك مدير محطة ت. ف. ٥ التلفزيونية (T.V.5):

ـ ألا يمكنكم أن تعرضوا بعض «المقاطع» الإعلانية للمساعدة على تعريف أفضل بالفرنكفونية وعملها؟

تتميز إجابته بالصراحة:

ـ لو نظر إلينا المشاهدون كعضو فى الفرنكفونية المؤسساتية، أو كناطق باسمها، لكنت واثقًا بتراجع نسبة عددهم. مع ذلك، نحن نعمل بطريقة غير مباشرة على تشجيع مؤسستك دون أن نشير إليها.

من المؤكد أن الأجهزة التنفيذية الكبرى للفرنكفونية ليست متعاونة كثيراً.

احتفال لتبادل التهانى فى مطلع السنة الجديدة فى مركز كليبير الدولى بحضور العاملين فى المنظمة الدولية للفرنكفونية، وممثلى رؤساء الدول والحكومات فى البلدان الأعضاء.

ألقى خطابًا متفائلاً، أعرب فيه عن ثقتي بالمستقبل، وأعبر عن عزمي على الاستمرار في الدفاع عن منظمة يظهر جليًا أن قسمًا كبيراً من الفرنسيين ومن الفرنكفونيين يعتبرها غير قابلة للتسويق. «كيان بيروقراطي صغير لا شكل له ولا لون ولا أهمية ولا مستقبل؟».

لا بد أنني أنزع إلى تعذيب نفسي بإصراري على الدفاع عن ما لا يدافع عنه. الدفاع عن السلام في الشرق الأوسط، بينما لا يزال مجرد الأمل في السلام يبتعد. الدفاع عن الأمم المتحدة، بينما تزداد ضعفًا يومًا بعد يوم. الدفاع عن الفرنكفونية، وعن حوار الثقافات، وعن التضامن بين الشمال والجنوب، بينما تفرز العولمة المتوحشة إيديولوجيا التنميط والأنانية الضيقة.

باريس ـ الجمعة ١٢ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١

حديث طويل على الهاتف مع الرئيس ألفا عمر كوناري. إننا نتشاطر القلق نفسه بالنسبة لاحتمال مواجهة بين مسلمين ومسيحيين في ساحل العاج، كما حصل في نيجيريا. لقد دفعت أفريقيا ضريبة كبيرة من الدم للحروب القبلية. فهل ستغرق أيضًا في عنف الحروب الدينية التي طبعت بظلاميتها كل حقبة القرون الوسطى؟

باريس ـ الاثنين ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١

دون ماك كينون، وهو الأمين العام الجديد لمنظمة الكومنولث، رجل طويل القامة، ودود، يتمتع بروح النكتة. جاء يزور مباني الفرنكفونية. وكان قد استضافني في أوكلند عندما كان وزيراً لخارجية نيوزيلندا. لا أنا ولا هو نستطيع أن نتذكر في أية سنة ولا بالطبع في أي شهر قمت بهذه الزيارة. الشيء الوحيد الأكيد هو أن ذلك كان في فصل الشتاء، وأنه عندما نزلت من الطائرة كان المطر ينهمر بغزارة. يرافقه اليوم اثنان من معاونيه يتكلمان الفرنسية بطلاقة. وهذه مبادرة تقدير بريطانية تجاه الفرنكفونية. أحدهما هندي نباتي، أما الثاني فسيدة من جزر موريشيوس.

أستعرض إنجازات الفرنكفونية فى مجال الديمقراطية ودولة القانون وحقوق الإنسان. وأعود إلى مختلف المراحل التى أوصلتنا إلى إعلان باماكو، الذى أعطت بموجبه الفرنكفونية لنفسها الوسائل التى تُمكّنها من الرد بقوة على كل تعطيل للعملية الديمقراطية وعلى الانتهاكات المتمادية لحقوق الإنسان.

يشرح لى دون ماك كينون أن الكومنولث لم تتمكن من أن تمنح نفسها آلية مشابهة إلا مؤخراً فى سنة ١٩٩٥، فى الفترة التى كان الجنرال باباغيندا، حاكم نيجيريا، يُعدمُ فيها معارضيه شنقًا. فتألفت لجنة من أربعة أو خمسة وزراء للخارجية كى تنظر فى هذا الأمر. ومنذ ذلك الحين يحُقّ لهذه اللجنة أن تقرر تعليق عضوية أى دولة يحصل فيها انقلاب أو تعطيل للعملية الديمقراطية.

نتحدث بعد ذلك عن المشاكل الاقتصادية، وعلى الأخص، عن النقص فى عدد الخبراء فى مجال التجارة الدولية. رسالة الكومنولث هى تقديم المساعدة إلى الدول الصغيرة فى منطقة الكاريبى والمحيط الهادئ التى تلقى صعوبات كبيرة فى مواجهة العولمة بسبب افتقارها للوسائل وللإخصائيين المدربين على القواعد الجديدة للعبة الاقتصادية.

باريس ـ الثلاثاء ١٦ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

أقرأ فى جريدة لوموند مقابلة رائعة مع ميشال كامديسوس، المدير العام السابق لصندوق النقد الدولى، وهو اليوم رئيس هيئة «العدالة والسلام» فى الفاتيكان حاليًا. يتكلم عن الرؤيا الإنسانوية للكنيسة الكاثوليكية فى مواجهة عولمة متوحشة.

باريس ـ الخميس ١٨ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

توقيع اتفاق تعاون بين المنظمة الدولية للفرنكفونية والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، (الإيسيسكو). كنت قد عملت على إعداد هذا الاتفاق مع مدير عام الإيسيسكو الدكتور عبدالعزيز عثمان التويجرى خلال زيارتى السابقة للرباط.

دُعى صحفيون عرب إلى حفل التوقيع وعقدنا مؤتمرًا صحفيًا قصيرًا. أذكر أن

أكثرية الدول الأعضاء في الإيسيسكو أعضاء أيضًا في المنظمة الدولية للفرنكفونية. وأشير إلى أن هذا الانتماء المزدوج يُسَهِّل التعاون الثقافي والتقني بين المنظمتين. ويؤكد عبد العزيز عثمان التويجرى أن الفرنسية مثلها مثل العربية والإنجليزية، لغة رسمية داخل المنظمة الإسلامية.

باريس ـ الجمعة ١٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١

جاء سفير اليمن ليحدثني عن اهتمام بلاده بالفرنكفونية ... يتكلم عن الدور الذي قمت به من أجل حلّ الخلاف الدائر بين اليمن وإريتريا، ويُذكّر بأن بلاده قد اختارت دون تردد أن تقوم فرنسا بدور الوسيط في هذا الصراع. أعرض عليه التقرب، في مرحلة أولى، من الوكالة الجامعية للفرنكفونية التي التحقت بها أكثر من عشر جامعات في العالم العربي.

لا أستطيع أن أفسّر لنفسي الحماس الذي تبديه للفرنكفونية بعض الدول العربية التي لا تمت بصلة إلى الفرنكفونية. الحقيقة أن العديد من الدول الصغيرة في العالم الثالث يبحث بشدة عن بلد أو عن منظمة أو عن حركة تستطيع أن تساعده ولو قليلاً جدًا على مواجهة الأحادية التي تفرضها عليه القوة العظمى، وعلى الخروج من العزلة ولفت انتباه المجموعة الدولية إلى وجوده وإلى مشاكله.

باريس، داكار ـ الأحد ٢١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١

في الطائرة التي تقلُّني إلى داكار أقرأ باهتمام دراسة عن العولمة. «إن الأساس الذي ترتكز عليه القيم المشتركة التي تعطي للعولمة وجهها الإنساني هي كرامة الإنسان... إن أنسنة العولمة تقتضي الانتقال من العلاقات الآثمة القائمة بين الدول والبنوك الضخمة والشركات الكبرى إلى علاقات «فاضلة». هذه الكلمة تُذكِّرني بالفيلسوف العربي، الفارابي، الذي وضع في القرن العاشر الميلادي تصورًا لـ «المدينة الفاضلة» والذي يعتقد أن مجموع المدن الفاضلة يُفضي إلى تكوّن «المعمورة الفاضلة». وكثيرًا ما استشهدت به في كتاباتي وخُطَبي. إحدى المرات الأخيرة كانت بمناسبة تنصيبي أمينًا عامًا للأمم المتحدة، في ديسمبر ١٩٩١.

إن حمايتنا من الآفات التى تتخذ من العالم فضاءها الهندسى، تشكل قضية «المعمورة الفاضلة» مما يفترض وجود سلطة عامة ذات أهلية عالمية.

الوصول إلى داكار. أصَّر مصطفى نياس على أن ننزل بضيافته فنقيم فى مقر رئيس الوزراء. وهو قصر يشرف على المرفأ، وعلى جزيرة غوريه التى تلوح فى الأفق.

داكار، مركز الحكومة التى كانت تدير شؤون إفريقيا الغربية فى فترة الاستعمار الفرنسى.

داكار، أول هزيمة عسكرية للجنرال ديغول الذى حاول فى سبتمبر ١٩٤٠ أن يستولى عليها بمساعدة فرقة عسكرية إنجليزية.

داكار، مكان أليف بالنسبة إلىَّ، تمامًا مثل الفجالة، الحى الذى وُلدت فيه فى القاهرة. زرتها عدة مرات كأستاذ جامعى، وكوزير للخارجية، وكأمين عام للأمم المتحدة!

داكار ـ الاثنين ٢٢ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

لأسباب خفية لم أستطع إدراكها، لم أُدعَ لإلقاء كلمة فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الإقليمى عن العنصرية والتى يرأسها الرئيس أبدولاى واد ومارى روبنسون، المندوب السامى للأمم المتحدة لحقوق الإنسان. يُمثلنى فى الاحتفال معاونى كزافييه ميشال.

لا يهم! عسى أن يساعدنا هذا المؤتمر على محاربة آفة العنصرية التى تفرض نفسها بقوة كمشكلة راهنة، على الرغم من القضاء على نظام التمييز العنصرى. إن نظام العبودية الذى انتهى منذ قرنين لا يزال حقيقة قاسية فى مطلع الألفية الثالثة، بغض النظر عن الأقليات المضطهدة، والشعوب الأصلية المطرودة من أرضها، أو مئات اللاجئين والنازحين المحرومين من حق العيش بكرامة.

ولا يجب أن ننسى العنصرية العادية بأشكالها العنيفة وأنانياتها المخاتلة التى تعبر عن نفسها فى الحياة اليومية والحياة المهنية والحياة السياسية، وفى شروط استقبال وتنقل الأجانب.

إن المشوار لا يزال طويلاً! ليس فقط على صعيد النصوص بل على صعيد العقليات أيضًا. فالشياطين القديمة لا تموت أبدًا بصورة نهائية، ويمكن للاضطرابات التى تُحدثها العولمة أن توقظها بسهولة. يكفى لنتأكد من ذلك أن نرى النزعات المتطرفة، وهواجس الخوف من الآخر، والأصوليات المختلفة التى تزدهر هنا وهناك وتتغذى من الخوف على المستقبل ومن القلق أمام التغيير، ومن الفقر أيضًا ومن التهميش، وكلها أشكال أخرى ماكرة للتمييز.

عند الظهر يستقبلنى الرئيس واد فى غرفة صغيرة مليئة بالكتب وبخليط من الأشياء.

يقول لى: «لقد قطعت وعدًا بأن أدعم ترشيح هنرى لوبيس لمنصب الأمانة العامة للفرنكفونية».

أشكره على صراحته. يضيف:

ـ على كل حال، إن أحدًا منكما، أنت أو لوبيس، لن يحتل هذا المنصب، بل رجل ثالث...

ـ هل تُلَمِّح إلى عبده ضيوف؟

ـ لا أعتقد، كان ليُعلمنى لو كان لديه النية للترشح. حتى الآن، لم يُلَمِّح لى بأى شىء يتعلق بهذا الخصوص.

ننتقل بعد ذلك إلى موضوع آخر، وبالتحديد، إلى الرابطة الدولية للأحزاب الاشتراكية والديمقراطية الإفريقية. وكنا قد تحدثنا عن ذلك مطولاً فى حَرار، عام ١٩٩١، خلال الاجتماع الأخير للمؤتمر الذى تمَّ خلاله انتخاب عبده ضيوف على رأس هذه المنظمة التى كان يمكن أن تكون النِدّ غير الحكومى لمنظمة الوحدة

الإفريقية . ولكن منذ ذلك الحين ، فقدت هذه الرابطة الدولية من ديناميتها بينما تبدو الدول متحفظة فى تشجيع عقد لقاءات بين الأحزاب السياسية الإفريقية .

داكار ـ الثلاثاء ٢٣ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

يعود مصطفى نياس فجراً من جولة انتخابية فى جنوب البلاد . ألقاه فى مكتبه المُطّل على المرفأ وعلى المدينة . يثير موضوع القمة الفرنسية ـ الإفريقية الأخيرة التى انعقدت مؤخراً فى ياوندبه . يقول : «لا شك فى أن بعض الرؤساء الأفارقة قد تناولوا موضوع انتخاب الأمين العام المقبل للمنظمة الدولية للفرنكفونية . وقد عبّر عمر بونغو بصراحة عن دعمه لترشيح هنرى لوبيس» .

أعقد مؤتمراً صحفيًا فى وزارة الخارجية أشرح فيه للمرة المائة ما هى الفرنكفونية وما هو عملها وما هو الدور الذى تريد أن تقوم به : طرق لانتقال المعلومات ، إذاعات ريفية ، إرساء الديمقراطية ، تعاون بين الجامعات ... أعتقد أن الصحفيين مهتمون بشكل العرض الذى أقدمه أكثر من مضمونه .

منتصف الليل ، يرافقنا مصطفى نياس وزوجته الجميلة إلى سُلم الطائرة . الليل حار بيد أن صداقة مصطفى التى بقيت صامدة أمام السنين والمصاعب والمسافات ، تفوقه حرارة .

باريس ـ الأربعاء ٢٤ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

زوجة الرئيس المالى آدامى با كونارى ، تُقَدِّمُ فى اليونيسكو كتابها المعنون : «لُبُّ الكلام أو علم تكوين السلطة» . عرضها للكتاب رائع . أليست أستاذة فى دار المعلمين العليا ، فى باماكو ، لمادة تاريخ البلدان الإفريقية الواقعة جنوبى الصحراء؟ فالتاريخ ليس فى نهاية المطاف إلا وصفًا للسلطة . لقد انكببتُ طويلاً على دراسة نظرية السلطة عندما كنت أستاذًا للعلوم السياسية ، وأجد متعة كبيرةً الآن وأنا أصغى إلى سيدة مالى الأولى ، حتى ولو كنت لا أشاركها دائمًا الرأى فى مقاربتها للمفهوم . وقد قرأت كذلك كتابها بمتعة أكبر لما يتضمنه من الحكمة والتواضع

اللذين يجب أن يكونا مدعاة تأمّل لهؤلاء الذين يريدون الحصول على السلطة، ولهؤلاء الذين يمارسونها، وكذلك أولئك الذين أضاعوها.

باريس ـ الجمعة ٢٦ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

يجب قراءة ملخص جلسات العمل التى عقدتها لجنة الديمقراطية والتنمية مرةً ثانية وتصحيحه وإعادة النظر فى بنيته. إن ذلك لأشبه بجهد النمل الدؤوب لما يتطلبه من عناية دقيقة بالتفاصيل. وقد سلّمتنى المديرة المساعدة لقسم العلوم الاجتماعية والإنسانية، فرانسين فورنييه، صياغة أوليّة من الواضح أنها غير كافية. أعرض على سيمون درايفوس التى تمتلك مزايا كاتب مصرى قديم، أو صفات راهب بنيديكتى، أن تترجم إلى الفرنسية المداخلات المكتوبة بالإنجليزية وأن تعيد النظر فى مجموع النصوص. كما أنه يجب العثور فى مرحلة لاحقة على مترجم من الفرنسية إلى الإنجليزية؛ لأن الوثيقة يجب أن تنشر باللغتين. سأتولى بنفسى كتابة المقدمة والخاتمة التى سأصيغها فى شكل توصيات.

باريس ـ السبت ٢٧ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

يقيم آل الفيلالى حفل استقبال بمناسبة عيد ميلاد لوك كلابييه الذى بلغ الخامسة والخمسين. سهرة بزى خاص مستلهم من موضوع «البستانى». حفل تنكرى صغير. أجد لذةً فى الرقص. شعور بالراحة والفرح. إنها حسنات التنكر الذى ينسيك للحظة ما أنت فيه. فى الماضى كان الكرنفال يؤدى وظيفته كتطهير للنفس؛ إنه القوة الدافعة للقدرة على تغيير الهوية.

باريس ـ الاثنين ٢٩ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

حفل غداء فى القنصلية المصرية على شرف عمرو موسى وزير الخارجية المصرية الذى يمر فى باريس. بين المدعويين هيرفيه دو شاريت الذى كان وزير خارجية فرنسا عندما انتزعت منى الأمانة العامة للأمم المتحدة، وليلى شهيد سفيرة فلسطين المتألقة فى فرنسا.

أحد المدعوين، وقد دبَّت فيه الحمية، يعلن :

«إن المساكنة تجعل السياسة الخارجية لفرنسا عاجزة. فاليمين كما اليسار لا يرغبان فى إثارة استياء القوة العظمى مخافة أن تتدخل هذه الأخيرة لتُرَجِّح كفة أحد الطرفين فى ميزان القوى. أمام الخيارات الكبرى هما متفقان دائمًا. لكن السياسة الخارجية تتكون من عدد كبير من الخيارات الصغيرة اليومية، وهنا بالضبط يصبح الأمر مزعجًا».

أصغى إلى الحديث وأمتنع عن التعليق. بعد أن ينتهى النقاش، يلقى عمرو موسى خطابًا يُثَمِّن فيه سياسة هيرفيه دو شاريت الداعمة للعرب عندما كان وزيراً للخارجية.

باريس - الثلاثاء ٣٠ كانون الثانى/يناير ٢٠٠١

جاءنى مؤرخان هولنديان، البروفسور ألبير كورستن والدكتور شونراد، المكلفان من حكومتهما بكتابة تقرير عن مجزرة سبرينيتسكا، يريدان الاستماع إلى شهادتى. لقد قرآ كل ما كُتِبَ حول هذا الموضوع وبإمكانهما أن يعيدا رسم مجرى الأحداث لحظةً بلحظة. أكثَر من ذلك، إنهما يعرفان بالتفصيل كل ما قمت به من أعمال ومبادرات وما أدليت به من تصريحات خلال تلك الفترة. يسألاننى :

«ما رأيك بمناطق الحزام الأمنى؟ هل صحيح أن اتفاقية سرية تمت بين الجنرال جانفييه والسلطات الصربية لوضع حد للقصف الجوى مقابل تحرير عناصر قوات الأمم المتحدة المحتجزين كرهائن؟ هل صحيح أن فرنسا فكرت فى وقت ما فى أن تعيد السيطرة على سبرينيتسكا؟».

أجيب : «على الرغم من مطالباتى المتكررة فإن مجلس الأمن لم يعط قط تحديداً دقيقًا لمناطق الحزام الأمنى. وقد احترم الصرب فى غالب الأحيان هذه المناطق على الرغم من أن البوسنيين قد استخدموها أحيانًا كمناطق لسحب جنودهم بعد الهجوم ... لم يكن هناك قط على حد علمى أى اتفاقية بين الجنرال جانفييه

والقوات الصربية لإطلاق سراح الرهائن. إنها المرة الأولى اليوم التى أسمع فيها أن الحكومة الفرنسية كان لديها النية فى أن تعيد السيطرة على سبرينيتسكا».

لدينا ميل إلى أن ندفن فى أعمق مكان فى الذاكرة الأوقات الأصعب أو الأكثر مأساوية فى حياتنا. لذلك فأنا أجد صعوبة فى أن أتذكر مأساة سبرينيتسكا حيث تتحمل الأمم المتحدة والأمين العام مسؤولية كبيرة.

باريس ـ الجمعة ٢ شباط/فبراير ٢٠٠١

سيحصل هيرفيه بورج على رئاسة الاتحاد الدولى للصحفيين الذين يكتبون بالفرنسية. إنها فرصة ثمينة لهذه المؤسسة المصابة ببعض الجمود وكذلك للفرنكفونية التى تعانى لامبالاة الرأى العام الفرنسى، وكذلك لامبالاة وسائل الإعلام وبعض الأوساط القيادية.

(فى فترة بعد الظهر ...) طاولة مستديرة على محطة «فوروم» التلفزيونية حول موضوع «الأقباط: أقلية فى مصر». «أقلية» إنها كلمة مرفوضة فى مصر لدى الأقباط كما لدى المسلمين، وذلك لانتمائهم الواحد للأمة نفسها. تلك هى الرؤيا الرسمية التى تفرض نفسها فى مصر كما فى الخارج.

يشترك فى هذا النقاش الذى يديره دومينيك برومبرجيه كل من شريف الشوباشى، وهو كاتب وصحفى مصرى، السفير أندريانى، كلود لاريو، وهو صحفى فى الفيجارو ومؤلف كتاب عن مسيحيى الشرق، فرانسوا تووال، وهو أستاذ فى معهد القوات المسلحة، وأنا. أهمس للشوباشى لصُباحى بأنى القبطى الوحيد حول هذه الطاولة. يجيبنى بأنه المسلم الوحيد. يدافع عن وحدة الشعب المصرى مع اعترافه بالاختلاف بين هذين العنصرين المكونين للأمة.

فرانسوا تووال الذى لديه معرفة جيدة بهذا الملف وببعده الدولى، يُذَكِّر بأن الكنيسة القبطية فى إريتريا قد طلبت من البطريرك القبطى فى القاهرة، شنودة الثالث، أن يعترف رسميًا بها وذلك للتميّز عن الكنيسة القبطية فى أثيوبيا. ويُضيف أن الانتشار القبطى فى كندا واستراليا والولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا سيساهم

فى إعطـاء دفع للكنيسـة القبطية المصريـة التى كـان لديهـا ميـل إلى الانكماش على نفسـهـا خـلال قـرون وإلى الحذر من كل احتكاك مع الكنائس المسيحـيـة الأخرى.

لديه قناعة بأن انفتاح مصر على العالم الخارجى، وعلى العالم الغربى، على وجه الخصوص، سيسمح بإضعاف الأصولية الإسلامية وفى تدعيم الكنيسة القبطية. وفى الواقع، إن التمييز الذى يقع ضحيته الأقباط فى مصر ليس من صنع السلطة ولا حتى من صنع الإسلام، بل سببه الأصولية.

يعلن السفير أندريانى بدوره أنه لا وجود لاختلاف فى العرق، أو فى الشكل الخارجى، أو فى الحياة الاجتماعية بين الأقباط والمسلمين. وهم متواجدون فى المدن كما فى الأرياف، وفى جميع الطبقات الاجتماعية المصرية.

عند عودتى إلى منزلى أفكر من جديد فى هذه المسألة المهمة بالنسبة إلى مستقبل بلادى. لم تُتَح لى الفرصة ولا الوقت فى هذا النقاش كى أعبر عن تفكيرى العميق. هناك متعصبون بين الأقباط كما بين المسلمين. هؤلاء لا يمكن إقامة التفاهم بينهم وهم يسعون للمواجهة. إنهم يشكّلون أقلية ضئيلة، فى الهامش، لكنها فاعلة جداً. ثم هناك المعتدلون أو اللامبالون، الذين يعيشون مع بعضهم، مع إمكانية انحيازهم إلى جانب المتطرفين، فى حالات التوتر. وأخيراً هناك الليبراليون، العلمانيون، المدافعون عن فصل الكنيسة عن الدولة، لكنهم مهمشون ومستضعفون بسبب الأصوليين، من مسلمين ومسيحيين الذين يعتبرونهم ملحدين.

باريس، نجامينا ـ الأحد ٤ شباط/فبراير ٢٠٠١

أسافر إلى تشاد حيث سينعقد اجتماع المجلس الدائم للفرنكفونية ومؤتمر الوزراء الفرنكفونيين. استأجر مكتب خدمة السفر فى الفرنكفونية طائرة خاصة. الخطأ الأول: الطائرة مهيأة للمسافات المتوسطة وليس للمسافات الطويلة، إطلاقًا. فى السفر لمسافة قصيرة يمكن احتمال توفر القليل من شروط الراحة، لكن ذلك يصبح

صعب الاحتمال في سفر كهذا. نضطر إلى التوقف، في توزور، فى تونس، للتزود بالوقود. نضيّع ساعة كاملة. أترك مقعدى وأتجه نحو السلم حيث يمكن مشاهدة مغيب الشمس على الصحراء.

نحاط علمًا بأن عاصفة رملية ستهب هذا المساء على نجامينا. لن نقلع من جديد إلا بعد أن نتأكد أنه بإمكاننا الهبوط فى تشاد. يطول الانتظار. نقلع أخيراً. بعد بضع ساعات، يعلن قائد الطائرة أننا سنهبط أخيراً فيشعر الجميع بالارتياح. لكننا لا نلبث أن ندرك أن مرحلة الهبوط ستستغرق وقتًا أكثر من المتوقع. الواقع أن قائد الطائرة يصارع العاصفة الرملية التى تضرب بجنون. بعد محاولة فاشلة ثالثة يعزف عن الهبوط. فالهبوط فى هذه الظروف، بل أكثر من ذلك، فى ظلمة الليل، خطر. وليس لدينا من الوقود ما يكفى لنعود إلى توزور. يجب إذن العثور على مطار مفتوح يقع على مسافة قريبة ما فيه الكفاية. ينفد صبر الركاب ويزداد شعورهم بالتعب والتوتر خصوصًا أنه لم يبقَ فى الطائرة شيء للأكل أو الشرب. بعد عدة اتصالات نحصل على إذن بالهبوط فى مطار ياونديه الذى فُتحَ من جديد، خصيصًا لأجلنا. لكن متاعبنا لم تنته بعد. بينما كان الركاب المنهكَون يسارعون إلى درج الطائرة آملين أن يجدوا فى المطار ملاذًا يأخذون فيه قسطًا من الراحة ويروون عطشهم، نُبَلَّغ أننا لم نعطَ الإذن بمغادرة الطائرة، بسبب عدم حصولنا على تأشيرة دخول إلى الكاميرون. وسبب ذلك أننا تصورنا ببراءة أننا سنقوم برحلة دون توقف، من باريس إلى نجامينا. يتمكن موريس أولريش من التفاوض مع السلطات. سيفتحون لنا قسمًا من قاعة الانتظار فى المطار. ما إن نغادر الطائرة حتى تهاجمنا سحابة من البعوض وموجة خانقة من الحر والرطوبة. من يحالفه الحظ من الركاب يجد مقعدًا خاليًا للاسترخاء عليه. لكن التبريد معطل. ننتظر بفارغ الصبر أن تتحسن الأحوال الجوية فى نجامينا حتى نغادر. يتمّ ذلك بعد ثلاث ساعات. نأمل هذه المرة أن تصدق توقعات الطقس. يهبط قائد الطائرة فى نجامينا فى الصباح الباكر وسط عاصفة من التصفيق. يتأجل المؤتمر الذى كان يجب أن يُعقد فى الساعة التاسعة إلى ما بعد الظهر.

نجامينا ـ الخميس ٨ شباط/فبراير ٢٠٠١

اجتماع السلطات الفرنكفونية يقارب على الانتهاء. لقد كشفت هنا بوضوح أكثر من أى وقت مضى، عن بطء حركتها وعن ميلها إلى التكرار. المجلس الدائم للفرنكفونية يجتمع كمجلس إدارى للمنظمة الحكومية للفرنكفونية ثم كعضو فى القمة. وينعقد الاجتماع الوزارى الفرنكفونى خلال ثلاثة أيام: سلسلة من الخطابات لا تنقطع ومن المداخلات التى تكرر نفسها أمام الجمهور نفسه أو يكاد.

لحظة تأثر وحيدة: حين يسلّم الوزير الكندى رونالد دوهامال مهمة رئاسة المؤتمر الوزارى إلى وزير الثقافة اللبنانى، غسان سلامة.

باريس ـ الثلاثاء ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠١

ربما يحتاج قصر ماتينيون إلى تجديد وإلى طلاء. فكل شىء فيه يبدو مستهلكًا، قديمًا متعبًا، باستثناء الحديقة التى تحافظ على روعتها. لا أستطيع التمتع بالاسترسال فى تأمل تنسيقها. أدعى إلى الدخول إلى مكتب رئيس الوزراء حيث يجلس كل من الوزير المفوض للفرنكفونية، شارل جوسلين، وسيرج تيل، وهو مستشار شاب لرئيس مجلس الوزراء مكلف بشؤون الفرنكفونية.

أُطلع ليونيل جوسبان على مغزى تحركى: أريد أن أحصل على دعمه من أجل ولاية ثانية. ها قد مضت ثلاث سنوات ونصف على مجيئى لمقابلته بصحبة السفير على ماهر، حين كنت مرشحًا للمرة الأولى. شرح لى حينها أن القرار يعود إلى رئيس الجمهورية فيما يتعلق بالفرنكفونية. وهذه طريقة أنيقة لعدم الإعلان عن موقفه. اليوم، يصرح بأنه ليس علىّ اطّلاع على الملف، وأنه لم يفكر فى هذا الموضوع قط. سيستشير شارل جوسلين ووزير الخارجية، هوبير فيدرين. ثم يضيف: «يريد جاك شيراك إرضاء الجميع. لقد وعدك بدعمه لكن يمكنه أن يفعل الشىء نفسه مع مرشح آخر. الأمر الأكيد هو أنك ستعرف موقف فرنسا فى أقرب وقت».

بعد ذلك ببضع لحظات بينما كنا ننزل الدرج متجهين إلى البوابة الخارجية يعلمنى شارل جوسلين الذى كان برفقة سيرج تيل أنه خلافًا لما جرى فى هانوى،

لن تقوم فرنسا بالضغط على رؤساء الدول كي تضمن انتخابى، للمرة الثانية. وأن القرار يعود لإفريقيا.

أيكون انتخابى للمرة الثانية عالقًا فى غابة «المساكنة»؟ أحترس من أن أطرح عليه السؤال.

أقوم بزيارة لرفيق الحريرى فى قصره الباريسى فى ساحة إيينا، مقابل برج إيفل. تظن أنك فى قصر أمير سعودى... اثنان من الأسود محشوان بالقش يتصدران البهو على مدخل القصر. أنتظر بضع لحظات فى صالون صغير. لا يلبث الحريرى أن يأتى لملاقاتى، يقدم إلىّ زوجته. أتكلم مباشرة عنّ موضوع انتخابى لمرة ثانية. يستمع إلىّ بانتباه. ثم يقول: «فى كل الأحوال، لديك دعم لبنان». نعرض بسرعة لموضوع التحضير لقمة بيروت. يستكمل الشرح وزير الثقافة غسان سلامة الذى أُوكل إليه ملف الفرنكفونية.

أستأذن مضيفى بالمغادرة لحضور حفل تقديم كتاب السفير شهريار خان فى اليونيسكو، وهو كتاب يقع تحت عنوان: «قبور راوندا المظلمة». آخذ مكانى على المنصة إلى جانب الكاتب والجنرال الكندى غى توسينيان الذى يخلف الجنرال روميو دالير بعد أن أصيب بانهيار عصبى من جراء مشاهدته لكمٍّ كبير من الفظائع ولعجز الأمم المتحدة أمامها. شهريار خان خطيب ممتاز. يكشف لنا عن رؤيته للمأساة الراوندية، ويُثنى على شجاعتى عندما كان علىَّ مواجهة البرلمانيين الراونديين والتحدث إليهم عن أهمية المصالحة والعفو. يُذَكّر بحديثى وبجملتى الشهيرة «العدالة لا الثأر» التى قُوبلت بكثير من عدم الفهم.

عند انتهاء الاحتفال ألتقى بسيرج تيل الذى كان بين الحضور، فيقول لى:

«لقد عشتَ اليوم حدثين: لقاء مع رئيس الوزراء ولقاء جديد مع مأساة راوندا».

يبدو لى أن وضع لقائى بـ ليونيل جوسبان على المستوى نفسه من الأهمية لمأساة راوندا، فيه بعض المبالغة. لكن المقاييس التى يعتمدها مساعد متحمس مختلفة بدون شك، عندما يتعلق الأمر برئيسه.

القاهرة ـ الأربعاء ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠١

أسافر إلى القاهرة حيث يجب أن أشارك فى مؤتمر وزراء الشباب والرياضة الفرنكفونيين، وفى اجتماع مكتب المتابعة لمؤتمر وزراء العدل. يستقبلنى عند وصولى وزير الشباب فى مصر، على الدين هلال، الذى كان من طلابى فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ثم صار مساعداً لى. أعدَّ شهادة دكتوراه فى كندا ثم أصبح بعد ذلك عميداً للكلية. وقد استطاع بفضل ذكائه وديناميته وطموحه أن يرتقى تدريجيًا على سلم السياسة والإدارة المصرية.

يجب أن يترأس اجتماع وزراء الشباب الفرنكفونيين لكنه لا يتكلم الفرنسية، وهو فى ذلك ليس أفضل من وزير العدل، سيف النصر. فى الواقع، إن ثلاثة وزراء فقط فى الحكومة هم فرنكفونيون ـ ابن أخى يوسف، وهو وزير الاقتصاد، ومفيد شهاب، وهو وزير التعليم العالى والبحث، وممدوح البلتاجى، وهو وزير السياحة ـ وكذلك رئيس مجلس الشعب، فتحى سرور. لكن ثلاثة وزراء من أصل ثلاثين يشكل نسبة ١٠٪، بينما نسبة الفرنكفونيين فى مصر لا تتجاوز ٢٪ أى ما يعادل مليون إلى مليون ونصف نسمة موزعين وفق هرم معكوس للطبقات الاجتماعية. فالبورجوازية الغنية تتكلم ثلاث لغات، العربية، والإنجليزية، والفرنسية؛ البورجوازية المتوسطة ثنائية اللغة مع غلبة للغة الإنجليزية على الفرنسية؛ أما باقى الشعب فلا يتكلم إلا العربية.

أجد متعة كبيرة وأنا أعود من جديد إلى أحياء القاهرة، أشعر أننى لم أغادرها قط وأنها لم تغادرنى قط كأن كل العواصم الأخرى، كل المناظر الأخرى لم تكن سوى أسفار إلى بلاد الأوهام. نفس الشعور يخالجنى فى شقتى: إنه الزمن يعود إلى الوراء. على مكتبى رزمة من الرسائل التى لم يُعد إرسالها إلىّ، كأنها بانتظارى. صناديق الكتب العائدة من نيويورك والتى لم أفتحها بعد، وقد مضت أربعة أعوام على وصولها. لكن الكتب فى كل مكان حتى فى الزوايا الصغيرة.

«من الضرورى أن نعيد طلاء الشقة من جديد»، تقول لى ليا، حازمةً: إن شمس مصر بلا رحمة. تمتصُّ الألوان وتذويبها فى ضوئها الأبيض.

القاهرة ـ الخميس ١٥ شباط/فبراير ٢٠٠١

وضعت الرئاسة تحت تصرفى سيارة مصفَّحة. أذهب إلى وزارة الخارجية حيث سألتقى عمرو موسى. يخبرنى بأنه قد عُرض عليه منصب الأمين العام للجامعة العربية. يسألنى: «ماذا علىّ أن أختار، فى رَأيك؟».

أجيبه: «إنه سؤال بلاغى محض. ففى نظامنا السياسى، نحن لا نختار، لكن الرئيس يختار لنا. ومع ذلك فلو كنت مكانك لرغبت بالتجربة الجديدة. إن الجامعة العربية على الرغم من ضعفها الذاتى، تستحق أن تُرفَد بالدعم وبالحيوية. وخصوصاً وأنه مع أزمة الأمم المتحدة سيكون للمنظمات الإقليمية دور متزايد الأهمية».

أُحدثُه بعد ذلك عن اتفاقية أوتاوا حول الألغام ضد الأفراد والتى لم توقعها مصر حتى الآن، وعن تصميم المنظمة الدولية للفرنكفونية على تشجيع جميع الدول الأعضاء فيها على توقيع هذه الاتفاقية. يعدنى بأن يدرس الملف. وقبل أن نفترق، يعرض علىّ أن أستعمل طائرته للسفر إلى ليبيا حيث سأشارك فى المؤتمر الإفريقى الذى يُعقد فى سيرت.

«إنها نفس الطائرة الصغيرة من طراز «ميستير» التى كنت تستعملها فى أثناء جولاتك الإفريقية والآسيوية، عندما كنت وزيراً».

يُقيم ابن أخى يوسف حفل استقبال كبير هذا المساء على شرفنا. ألتقى مجدداً بعمرو موسى. لم يعد لديه الخيار: لقد أعلن رئيس الجمهورية اليوم بعد الظهر أن مصر قدَّمَت رسميًا ترشيح وزير خارجيتها لمنصب الأمين العام للجامعة العربية، وأن ملوك ورؤساء الدول الأعضاء قد أكدوا له دعمهم.

إنه موضوع الحديث الوحيد فى هذه السهرة. تكثر التعليقات. البعض يرى فى ذلك تعيينًا، والبعض الآخر يرى فيه نهاية جميلة لمسيرة مهنية.

القاهرة ـ السبت ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠١

القصر الرئاسى بارد جداً. فالغرف تفتقر إلى التدفئة. اجتماع مع الرئيس

مبارك. أقدم إليه عرضًا سريعًا لمختلف النشاطات الحالية للفرنكفونية. يسألني بدون مقدمات:

ـ مَن في نظرك أهل لخلافة عمرو موسى في وزارة الخارجية؟

أجيبه:

ـ في المرة الأخيرة التي طرحت عليّ مثل هذا السؤال، سنة ١٩٩١، اقترحت عليك ثلاثة أسماء. هذه المرة لن أقترح إلا واحدًا، السفير علي ماهر، حتى ولو أني أعتقد أنه يجب تعيين وزيرين للإحاطة بكامل الملفات وللتمكن من المشاركة، على مستوى وزاري، في عشرات المؤتمرات الدولية التي تنعقد كل سنة في أنحاء الكرة الأربعة. بكل حال، حتى رحيلي سنة ١٩٩١ كنا اثنين، وكنا بالكاد نستطيع أن نسجل حضوراً في كل هذه اللقاءات.

ـ أمامي أكثر من ثلاثة أشهر لأقوم بهذا الاختيار، يقول الرئيس، ولأسمع كل الشائعات التي ستنتشر في القاهرة حول وزير الخارجية العتيد.

يبدو أن هذه الفكرة تروقه.

ـ هل تسمح لي، سيدي الرئيس، بأن أروِّج إشاعة تقول بأنني بين المرشحين المتوقعين مما يزيد من هيبتي في باريس؟

يُطلق الرئيس ضحكة رنانة ويقول:

ـ بعد لقائنا هذا الصباح سيعُمُّ الخبر بصورة تلقائية...

أتلقى اتصالاً هاتفيًا من جزر القُمُر: لقد وقَّع ممثلو الجزر الثلاث، في جزيرة فومبوني، اتفاقية تعاون على مستوى الكوادر لتنظيم المجموعة الجديدة: «كونفيدرالية جزر القمُر».

أسيوط ـ الأحد ١٨ شباط/فبراير ٢٠٠١

أسيوط، حيث دعيت إلى إلقاء محاضرة، هي عاصمة مصر العليا. لقد كانت

خلال السنوات الأخيرة مسرحًا لمواجهات بين السلطات والأصوليين المسلمين .

فى كل مكان فى الشوارع لافتات تعلن عن المحاضرة التى سألقيها حول السياسة الدولية فى الألفية الثالثة . إنه عنوان طنان رنان اختارته الجامعة .

أدخل إلى مدرج ضخم حيث جلس أكثر من ألف طالب . إلى جانبى ، على المنصة رئيس الجامعة ومحافظ المنطقة ، اللذان يُقدِّمان لمحاضرتى ببعض الكلمات . بعد ذلك أقدم شرحًا عن التحولات التى يشهدها المجتمع الدولى بعد نهاية الحرب الباردة وهو يواجه العولمة وثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال . بعد انتهائى من إلقاء المحاضرة أحاول الإجابة بأكبر قدر ممكن من الاقتضاب عن الأسئلة التى تُطرح علىّ كى يتمكن أكبر عدد ممكن من الطلاب من التعبير عن آرائهم . كل شىء يجرى على ما يرام إلى أن أصرِّح فى معرض إجابتى عن أحد الأسئلة أن التفاوض وصنع السلام أصعب من شن الحرب ، احتجاجات قوية يطلقها شبان إسلاميون ، يضع لها حدًا رئيس الجامعة ، فأتابع حديثى دون مشاكل .

إنه نهار منهك ، لكنى سعيد بأن أسجل حضورى فى مصر العليا ، هذه المنطقة المُهَمشة إذا ما قُورنت بالقاهرة التى تستقطب النُخَب كما يجتذب الضوء الكاذب فراشات الليل التى لا تستطيع مقاومة سحره الخطر .

القاهرة - الاثنين ١٩ شباط/فبراير ٢٠٠١

أفتتح مكتب المتابعة لمؤتمر وزراء العدل الفرنكفونيين فى إحدى القاعات الكبرى فى فندق كونراد ، إلى جانب وزير العدل المصرى ، فاروق سيف النصر . كل الهيئة القضائية المصرية هنا ، رئيس المحكمة الدستورية ، رئيس مجلس الدولة ، رئيس محكمة الاستئناف .

إن أهمية دور القانون فى تطور الفرنكفونية فى القاهرة تفوق الوصف ، ويعود ذلك لعشرات السنين . فغداة الحرب العالمية الأولى ، بعد أن أصبحت مصر خاضعة لنظام الحماية البريطانى وفُرض عليها مشروع لتعديل المحاكم المختلطة يهدف إلى

منع استعمال اللغة الفرنسية، قُوبل هذا المشروع بثورة عارمة. ونشرت جريدة المحاكم المختلطة فى نوفمبر ١٩١٨ مقالةً كُتب فيها: «إن أول مشكلة يجب حلَّها هى مشكلة لغات القانون. إن هذه القضية ليست بالنسبة إلينا مجرد مسألة لغة: فالمرافعة أمام المحاكم الجديدة بالفرنسية أو بالإنجليزية، لا تعنى استعمال هذه اللغة أو تلك للتعبير عن الأفكار نفسها. بل إن استعمال لغة أو أخرى يقود بطبيعة الحال إلى التعبير عن أفكار مختلفة. إنه من غير المجدى وغير المناسب اعتماد التعبير بالإنجليزية طالما أن جوهر القانون يبقى لاتينيًا، كما هو اليوم (...) نحن مرتبطون بشعوب أوربا اللاتينية لأننا نستمد من فكرهم القانونى، وقد تغذت أفكارنا من مناهجهم ومفاهيمهم فى مجال القانون خلال مدة طويلة حتى أصبح جوهر التشريع المصرى لاتينيًا. يبدو من غير المنطقى أن تُستعمل فى المرافعة أو فى إصدار الأحكام لغة أخرى غير تلك التى وُلد فيها هذا التشريع والتى أعطته مصطلحات مركّبة ودقيقة، وتركت عليه بصمة عبقريتها الخاصة التى تتسم بالاتزان والوضوح، نعنى بذلك اللغة الفرنسية».

يتأكد لى يومًا بعد يوم أن القانونيين الفرنكفونيين يشكّلون فى العالم العربى، على وجه الخصوص، جماعة علمية مميزة.

أستأذن على عجل من زملائى لأذهب إلى مقهى الفيشاوى، فى القاهرة القديمة، حيث سأسجّل للقناة الفرنسية الثالثة، حلقة من برنامج «لا يجب أن نحلم». أمران يسترعيان انتباهى: أولاً مستوى الاحتراف الرفيع لدى فريق التقنيين والصحفيين الذى يعمل بارتياح تام فى هذا المكان المؤقت فى القاهرة القديمة. ثم الوجود الكثيف لرجال الشرطة بلباس مدنيين، والذين نتعرف إليهم من خلال أجسامهم القوية والأحذية السوداء نفسها التى ينتعلونها جميعًا. لكن مقهى الفيشاوى الذى تُغازله الشمس يبدو غير آبه أبدًا لهذا التطفل الإعلامى. تدخل القطط وتخرج باحثةً عن سر خفى. مدخنو النرجيلة شاردو النظر كأنهم يحدقون إلى صحراء يتخيلونها، يتركون الوقت يجرى على وقع النفسَات المفعمة بالروائح التى تنشر الضباب فى أدمغتهم.

خلال المقابلة أتحدث بحماس وانفعال عن القاهرة القديمة، التي تجسد الروح المصرية الأصيلة والتي تختلف كثيراً عن القاهرة الحديثة حيث أقيم: قاهرة الفنادق الكبيرة والمباني الفخمة التي تمتد على ضفاف النيل.

بيروت - الخميس ٢٢ شباط/فبراير ٢٠٠١

يُعلمني الرئيس إميل لحود الذي تحدثت إليه هذا الصباح أنه ينوي أن يوجه دعوة إلى الرئيس السوري وإلى ملك الأردن لحضور القمة كضيفَي شرف. ويضيف «إنه قرار ذو طابع سياسي مميز، وسيكون متعلقًا إلى حد ما بالوضع في المنطقة في (أكتوبر) المقبل. فتصبح قمة بيروت نقطة انطلاق لحوار فرنسي - عربي جديد».

أشاركه تمامًا وجهة نظره. يبقى معرفة إن كنا نستطيع أن نتغلب على كل الصعوبات الملازمة لهذه العملية.

القاهرة - الاثنين ٢٦ شباط/فبراير ٢٠٠١

أمضي الصبيحة متحدثًا على الهاتف. أولاً مع الكولونيل أزالي أسوماني من جزر القُمر؛ يعبّر عن استيائه لعدم دعوته إلى قمة منظمة الوحدة الإفريقية في سيرت. ثم مع رئيس كوستاريكا الذي لن يستطيع أن يشارك في المؤتمر الذي سينعقد في ٢٠ مارس. أخيراً مع وزارة الخارجية التي تبلغني، للمرة الثالثة، بتوقيت الطائرة التي سأستقلها مع عمرو موسى إلى سيرت.

القاهرة - سيرت - الأربعاء ٢٨ شباط/فبراير ٢٠٠١

استقبال ليبي حار، وعناقات أخوية. ألتقي موسى كامارا، الممثل الدائم للمنظمة الدولية للفرنكفونية لدى منظمة الوحدة الإفريقية في أديس أبابا، ومحمد الحسن ولد لباط، وزير خارجية موريتانيا السابق، والمبعوث الخاص للمنظمة الدولية للفرنكفونية إلى مفاوضات أروشا.

علي التريكي، الوزير الليبي المكلف بالشؤون الإفريقية، يدعونا، عمرو موسى وأنا، إلى منزل أحد أصدقائه، وهو مهندس صمم شبكة الفنادق الأساسية في سيرت. أتنشق من جديد جو الدبلوماسية العربية الشديد الخصوصية والمختلف كثيراً عن الدبلوماسية البحتة. نخلع جميعًا أحذيتنا قبل أن نجلس على وسائد بمستوى الأرض لنتذوق الشيش كباب. يفصح لي التريكي عن نيته تعريب الفرنكفونية... فيضحك الجميع الذين لا يزالون لا يفهمون لماذا أهتم بالفرنكفونية.

سيرت - الخميس ١ آذار/مارس ٢٠٠١

ألتقي رئيس ساحل العاج، لوران غباغبو الذي يؤكد لي دعمه القوي كي أحظى بولاية ثانية.

أتحادث بعد ذلك إلى رئيس توغو غناسينغبي إياديما. يبدو في حالة ممتازة، ويقدم إليّ كأسًا من الشمبانيا أتسرع برفضه ثم أندم إذ أتذكر بعد فوات الأوان أن الخمر ممنوع في ليبيا مما كان ليعطي لهذه الشمبانيا نكهةً خاصة.

الجلسة الافتتاحية للمؤتمر التي كان من المتوقع أن تنعقد في الساعة الثالثة بعد الظهر، لا تبدأ إلا في السادسة. في بلداننا مفهوم الوقت مختلف عن المفهوم الغربي حيث «الوقت من ذهب»

سيرت - القاهرة، الجمعة ٢ آذار/مارس ٢٠٠١

بانتظار القذافي، يتبادل دينيس ساسو نغيسو، وعمر بونغو، وألفا عمر كوناري، وبواري موسوفوني، وفريديريك شيلوبا وغيرهم أحاديث سياسية - دبلوماسية، متربعين على أرائك وثيرة.

يلّمح لي الرئيس بوتفليقة أنه سيأتي إلى قمة بيروت إذا وُجهت إليه دعوة من نظيره اللبناني.

باريس ـ الثلاثاء ١٣ آذار/مارس ٢٠٠١

يتصدر الصفحة الأولى من «جريدة الصحافة الفرنكفونية» عنوان: «إسرائيل تطرق باب الفرنكفونية: كتاب مفتوح إلى بطرس غالى». يكتب صاحب المقالة، كلود سيبون، «إنى مقتنع، بأنك ستعمل جاهداً على تيسير دخول إسرائيل إلى الفرنكفونية وذلك بتشجيع التقارب الثقافى بين إسرائيل والشعوب العربية».

كيف لا يمكنه أن يفهم العداء القوى الذى يضمره العالم العربى لإسرائيل؟ مقتل أربعمائة فلسطينى، آلاف الجرحى الذين سيبقى بعضهم مشوهين مدى الحياة. لن يكون السلام ممكناً فى هذه المنطقة الدامية من العالم، طالما أنه لا وجود لدولة فلسطينية قابلة للحياة ومزدهرة. عند قيام هذه الدولة ربما سيكون بمقدور الفرنكفونية، أن تسهم فى تشجيع الحوار العربى ـ الإسرائيلى، أولاً من خلال البلدان الفرنكفونية، وبعد ذلك من خلال كل المجموعة العربية.

باريس ـ الاثنين ١٩ آذار/مارس ٢٠٠١

السماء تمطر. الطقس كريه. نهاية بعد الظهر مكفهرة، حزينة. تنزلنى السيارة أمام فندق ويستمنستر، حيث يجب أن أقابل الجنرال أزالى أسومانى. ينتظرنا فى البهو دبلوماسى شاب أو أحد الحراس الشخصيين، ربما. يقودنى مع حارسى الشخصى، نتولى كازادى، إلى مصعد صغير حيث يجد بصعوبة مكانه معنا.

يستقبلنى الكولونيل أزالى أسومانى بابتسامة عريضة. يرتدى قميصاً أحمر من المستغرب أو بالأحرى من غير المتوقع أن يرتديه رئيس دولة، وهو يبدو فيه كأحد عرّابى المافيا فى الأفلام الأمريكية. لقد وصل هذا الصباح إلى باريس على متن نفس الطائرة التى أقلّت رئيس موزمبيق، يواكيم شيسانو الذى تحدث إليه مطولاً. وقد شرح له هذا الأخير أن «السلام عملية مستمرة، وأن توقيع اتفاقية سلام ليس إلا مرحلة أولى». أشارك تماماً وجهة نظر الرئيس شيسانو. إن وضع اتفاقية سلام موضع التطبيق واحترامها أصعب بكثير من المفاوضات التى أدت إلى التوصل إليها.

يُصغى إلىّ محدثى بأناة ثم يناولنى ورقة كُتب عليها :

«حصتى من السلام هى المال الذى أحتاج إليه لأعقد اللجان التى ستعمل على تحضير الفترة الانتقالية، ولأدفع كل التكاليف المترتبة ...

ـ سأدرس طلبك وأحولُّه إلى الهيئات المختصة.

ـ إنها حقًا لخيبة أمل، يا حضرة الأمين العام. كنت أعتقد أنك ستعطينى شيكًا أُنشِّط به عملية السلام!

ـ أنوى أن أضع بتصرفك مبلغ مائتين ألف فرنك، وسأتشاور مع الاتحاد الأوروبى لأتأكد أنه سيتكفل بنفقات عمل اللجنة المشرفة على الانتخابات».

تحسنت العلاقات بين الجنرال أزالى أسومانى والوزير الموزمبيقى، ماديرا الذى يمثل منظمة الوحدة الإفريقية فى جزر القُمُر. أُصِرّ على ضرورة أن يُتركَ لمنظمة الوحدة الإفريقية دورها القيادى. أما الفرنكفونية فستكتفى بدور المساعد النشيط. أضيف أننى قررت أن أفتح فى مورونى مكتبًا للمنظمة يعمل خلال الفترة الانتقالية. سيقوم بإدارته الجنرال المالجاشى شارل راهيمنجارا. يوافق الجنرال أزالى أسومانى على هذا الاختيار. أما بالنسبة إلى مبعوثى الخاص، البروفسور ساليفو، وهو وزير خارجية سابق فى النيجير، فسيستمر فى المشاركة بالاجتماعات.

أختار أن أنهى محادثتنا ببضع كلمات باللغة العربية لما تتضمنه هذه اللغة من عبارات بليغة للتعبير عن الأمل والتشجيع لا تخلو من ذكر الله. فأقول: «إن الله سيساعدنا وسيعُمُّ السلام والازدهار من جديد فى جزر القمر» ـ ذلك هو فى اللغة العربية الاسم الشاعرى المتميز لجزر القُمُر.

غداً هو اليوم الدولى للفرنكفونية. ننظم مؤتمراً كبيراً للمناسبة بالتعاون مع الناطقين باللغة الإسبانية وباللغة البرتغالية. ستجرى الجلسة الافتتاحية فى المُدرَّج الرئيسى فى السوربون بحضور الرئيس جاك شيراك، ورئيس الإكوادور، غوستافو نوبووا بيجارنو، ورئيس موزمبيق، يواكيم أليبرتو شيسانو.

أثارت السيدة ميشال جاندرو ـ ماسالو المخاوف فى نفسى وهى تقول لى :

«ينبغي ما لا يقلُّ عن ألف ومائتي شخص ليمتلىء المُدَرَّج. بأقل من ذلك نكون معرضين للفشل مهما كان مستوى المؤتمر جيدًا ومهما بلغ شأن الشخصيات المدعوة رفعةً».

هذا المساء، أقوم مرةً تلو الأخرى بعمليات حسابية مختلفة متصوراً شتى أنواع السيناريو. لقد وَجَّهنا مائتي وثلاثة آلاف دعوة. الأكثر تشاؤمًا يؤكدون أنه يمكننا الاعتماد على نسبة الثلث. أما الأكثر تفاؤلاً فيتوقعون أن ترتفع النسبة إلى النصف. هذا إذا كان الطقس جيداً. هذه الليلة لم أعُدّ الخراف كي أتمكن من النوم، بل عددت المدعوين على أمل أن يمتلىء بهم المُدرَّج الرئيسي في السوربون.

باريس ـ الثلاثاء ٢٠ آذار/مارس ٢٠٠١

لقد خيب الطقس أملنا. برودة شتوية، مطر مُثلج، وريح قوية. مما من شأنه أن يثبط من عزيمة أشدّ الناس تمسكًا بالنوايا الطيبة. يستقبلني رئيس السوربون بكثير من اللطف. نتوجه إلى غرفة صغيرة في الكواليس. أحاول جاهداً أن أخفي مخاوفي. إن القسم الذي أستطيع رؤيته من المُدرَّج الكبير نصف فارغ. والأوراق المُلَوَّنة التي تتضمن البرنامج والتي وُضعَت على مساند المقاعد، تُبرز بوضوح أكثر المقاعد الشاغرة. أطلب من معاونيّ نزَعها كلها على الفور وتوزيعها عند المدخَل. قرر الرئيس أن يُبقي البلكونات في الظلمة. فهي ستبقى فارغة، في كل الأحوال.

يعلموني بوصول رئيس الإكوادور، رجل ملتح ضخم، ذو صلعة كبيرة يضع على عينيه نظارتين واسعتين يعطيانه بغرابة مظهر الأستاذ الجامعي والرجل البسيط في آن معًا. أرافقه من مدخل السوربون إلى الغرفة الصغيرة عبر ممر شديد البرودة.

لا أستطيع الامتناع عن إلقاء نظرة على المُدرَّج. يكاد يمتلىء. لا أملك الوقت لأتنعم بشعوري بالارتياح. يعلمونني بوصول رئيس موزمبيق، يواكيم ألبيرتو شيسانو. أترك مدعوينا لأذهب لاستقباله على أسفل الدرج.

إنه رجل جذاب، مبتسم، ذو نظرة ثاقبة، وذو لحية صغيرة مدببة بدأ الشيب يضرب فيها. يعانقني بحرارة. عندما تعرفت إليه فيً دار السلام كان أحد قادة

حركة التحرير. ثم عدت والتقيته حين أصبح وزيراً للخارجية فرئيساً للدولة. وفيما نحن نسير، أكلمه عن الجنرال أزالى أسومانى الذى سافر معه على نفس الطائرة الليلة الماضية. يقول لى إنه راضٍ عن اتفاق فومبونى. لا نتمكن من الاستمتاع بمتابعة الحديث. فقد وصل الرئيسُ شيراك. أعبرُ مرةً أخرى الممر المتجلد لأستقبل الرئيس الفرنسى. كالمعتاد يبدو ودوداً، يصافح كل الذين أخذوا أماكنهم على الدرج، غير آبهٍ بالمطر الذى كان يتساقط بلا انقطاع.

ينطلق الرؤساء الثلاثة الذين التقوا فى الكواليس، فى حديث قسم منه بالإسبانية، وقسم آخر بالفرنسية التى يتقنها الرئيس شيسانو. ثم أقدم إلى الرؤساء الثلاثة الأمناء العامين الأربعة للمنظمات المدعوة للمشاركة فى المؤتمر: دولشى ماريا بيريرا، وهى سيدة برازيلية رائعة تشغل منصب الأمين العام التنفيذى لمجموعة البلاد الناطقة باللغة البرتغالية، وخورخى ألبيرتو لوزويا، الأمين العام للتعاون الإيبيرى ـ الأمريكى، وفرانشيسكو خوسى بينون، وهو المدير العام لمنظمة الدول الإيبرية ـ الأمريكية، وبيرناردينو أوزيو، الأمين العام للاتحاد اللاتينى.

نأخذ أماكننا على منصة المُدرَّج الرئيسى. فى جهة، الرؤساء الثلاثة يتربعون على أرائك مُذَّهبة، وفى جهة أخرى، الأمناء العامون الأربعة يجلسون على كراس بسيطة حول طاولة مستطيلة، وفى الوسط، منصة صغيرة أتوجه نحوها لأفتتحَ الاحتفال.

بعد أن أتوجه بالشكر إلى الرؤساء الذين يُشرفون المؤتمر بحضورهم، أعطى الكلمة لغوستافو نوبووا، الذى يلقى خطاباً بالإسبانية. وفيما أنا أصغى إليه أعدُّ الأشخاص الذين أخذوا أماكنهم فى القاعة. جاء دور الرئيس الموزمبيقى ليلقى كلمته. يتكلم بالبرتغالية. بعده، يلقى جاك شيراك خطاباً رائعاً مرصعاً بالذكريات الشخصية. ثم يقول متوجهاً إلىَّ: «اليوم، أيها العزيز بطرس، أودُّ أن أُوَجِّه إليك تحية تقدير؛ لأنك منذ قمة هانوى، فى ١٩٩٧، ابتكرت دور الأمين العام للفرنكفونية وأكدته تماماً».

إن الاستماع إلى الرئيس وهو يعلن دعمه لهذه الفرنكفونية التعددية، المنفتحة على العوالم الثقافية الأخرى، لمتعة كبيرة:

«أنت وأنا، أيها العزيز بطرس، نتشارك القناعة نفسها. فى عالم حيث الانفتاح على الأفكار كما الانفتاح التجارى فى تزايد مستمر، لا يمكن لأية مجموعة أن تعيش منغلقة على نفسها (...) إن الفرنكفونية لا تستطيع بمفردها أن تخوض هذه المعركة، وهى ليست معركتها وحدها. إن ما يجمع الفرنكفونيين اليوم ويشكل أساسًا لعملهم ـ روح التعاون، شغف التنوع، إرادة صنع عولمة يستفيد منها الجميع، هاجس الحفاظ على كل فرص المستقبل ـ هو ما يجمع أيضًا عائلات لغوية وثقافية أخرى، تربط بينها الملامح المشتركة والأهداف نفسها.

«منذ عام، وبمبادرة منك، استضاف معهد العالم العربى أول لقاء بين ناطقين باللغة العربية وناطقينَ بالفرنسية. اليوم يجتاز حوار الثقافات مرحلةً جديدة. إذ نؤسس للتقارب الطبيعى، والبديهى، والأخوى بين مجموعاتنا الناطقة بالإسبانية وبالبرتغالية وبالفرنسية وبالإيطالية، وذلك لأن بيننا الأمين العام للاتحاد اللاتينى».

يقول جاك شيراك ما وددت قوله مُدعَّمًا بالأرقام:

«عبر منظماتنا الخمس، تسع وسبعون دولة وحكومة، فى كل القارات، وهم يمثلون مليار ومائتى مليون امرأة ورجل، يعبرون عن رغبتهم فى أن يبقوا على أصالتهم، وأن يضعوا العولمة بمتناولهم، وأن يزنوا بكل ثقلهم السياسى والاقتصادى والديموغرافى. أبعد من الرهانات الآنية، تجمعنا رؤيا مشتركة للعالم. ما يربطنا هو الأمل والإرادة التى تمكننا من تحقيق هذه الرؤيا بالطريقة الأفضل».

تنتهى الجلسة الافتتاحية. يترك الرؤساء الثلاثة المنصة بينما تفرغ القاعة من نصف الحضور. أستنتج، بكثير من الدهشة، أن وجود المقاعد الخالية الذى كنت أخشاه كثيرًا، ليس بالحجم الذى كانت تلمح به السيدة جندرو ـ ماسالو.

جاء دور كل من الأمناء العامين الأربعة ليلقى كلمته. أما كلمة الختام فتعود لخورخى سيمبرون، وهو ضيف الشرف. خطاب مرتجل رائع يزخر بالتاريخ وبالرموز. يذكرنا، هذا الصباح، بأن قوات فرانكو عندما دخلت برشلونة، سارعت إلى منع اللغة الكاتالانية جاعلة من الإسبانية اللغة الوحيدة المسموح بها.

إن التعدد اللغوى يساعد على ازدهار الديمقراطية. بينما تقترن الأحادية اللغوية، فى كثير من الأحيان، بالانغلاق على الذات والنظام الشمولى.

باريس ـ الأربعاء ٢١ آذار/مارس ٢٠٠١

يعود البروفسور ساليفو من جزر القُمُر. المصالحة الوطنية تسير قُدُمًا. مطلوب فى هذه المرحلة أن تقدّم المنظمة الدولية للفرنكفونية مساعدة مالية: «حصص السلام». ذلك سيكون صعبًا. لكن إذا كانت المنظمة الدولية للفرنكفونية تسعى إلى أن تلعب دورًا سياسيًا، فيجب أن توفر لنفسها الوسائل لمواكبة جهود الدول الأعضاء خلال مرحلة دقيقة هى تثبيت السلام. فنحن نعرف جيداً أنه لا يكفى أن تساعد بلداً ما فى التوصل إلى اتفاق، بل ينبغى مضاعفة التيقظ والانتباه بعد توقيع الاتفاق.

ينبغى أيضًا أن تقبل الأجهزة التنفيذية فى المنظمة الفرنكفونية أن تعطى لنفسها قدرة أكبر على الفعل، ليس فقط فى الظروف الحسنة، بل فى حالات الأزمة، وأن تُنَفِّذ فى البلدان المعنية برامج تعاون تتناسب مع حاجاتها الراهنة. إن إرسال كتب مدرسية إلى بلدان تجتاحها المجاعة عمل يفتقر إلى اللياقة.

باريس، جنيف ـ الخميس ٢٢ آذار/مارس ٢٠٠١

يتأخر إقلاع الطائرة إلى جنيف ساعةً تلو أخرى نتيجة لإضراب المراقبين الجويين. خمس ساعات من الانتظار الذى لا ينتهى. أخيراً نهبط فى جنيف لنكتشف أن أمتعتنا قد ضاعت.

أنا يائس فعلاً حين أفكر أنه علىّ أن أعيش بلا مشط ولا فرشاة أسنان ولا آلة حلاقة ولا ثياب أستبدل بها ملابسى التى أرتديها. ومن يدرى كم سيدوم ذلك؟ ليّا تشعر بوطأة المصيبة أكثر منى.

يستقبلنى مايك مور، المدير العام لمنظمة التجارة العالمية، برفقة ج. دنيس بيليل، مدير مركز التجارة الدولى. إنه رجل يتمتع بذكاء متوقد يزيده تألقًا ظرف أنجلو ـ سكسونى خالص.

يقول لى : «أكرّس ٥٠٪ من وقتى للبلدان التى تشكل ١٪ من التجارة العالمية. إن المنظمة الدولية للفرنكفونية تساعدنا وهى تستطيع أن تقدم إلينا مزيداً من العون فى مجال المساعدة التى نؤمنها للبلدان الأقل نمواً. يجب أن نُوثّق التعاون بيننا».

(بعد ذلك بقليل ...).

أجرى محادثة مع الأمين العام للاتحاد الدولى للاتصالات، يوتشيو أوتسومى، وهو يابانى، قصير القامة. يبدو متحفظًا ومندهشًا إزاء مسعاى. إنه يواجه فى الوقت الحاضر صراعًا دبلوماسيًا بين جنيف وتونس، إذ إن كلتا العاصمتين تطمح لاستضافة القمة العالمية لمجتمع المعلومات. ألّح عليه لأعرف أيًا من المدينتين يفضّل. يلفت انتباهى إلى أن عدة وكالات للأمم المتحدة ترعى هذا المؤتمر وأنه عليه أن يحصل على موافقة كل هذه المؤسسات قبل أن يبدى رأيه لصالح ترشيح هذه المدينة أو تلك. لكنه يفضل أن يجرى المؤتمر فى جنيف، وهى مقر كل الوكالات، غير أن العالم الثالث يدعم تونس.

نتفق على إقامة تعاون بين الاتحاد الدولى للاتصالات والمنظمة الدولية للفرنكفونية فى مجال تقنيات المعلومات والاتصالات.

جنيف ـ الجمعة ٢٣ آذار/مارس ٢٠٠١

بالنسبة إلى الأمور الأكثر التصاقًا بالواقع المعيشى، نجد أخيراً أمتعتنا الضائعة فى مطار «رواسى». كأنى رجل جديد، أشارك فى المؤتمر الذى ينظمه المعهد الجامعى للدراسات الدولية العليا بمناسبة إحالة البروفسور جورج أبى صعب إلى التقاعد.

عندما التقيت جورج أبى صعب كان يتابع دراسته فى هذا المعهد كطالب. ثم أصبح مستشاراً قانونيًا لدى وزارة الخارجية المصرية قبل أن تُعرض عليه وظيفة قاضٍ فى المحكمة الدولية فى لاهاى التى تنظر فى قضية الجرائم التى وقعت فى يوغوسلافيا. بعد مرور عام على تعيينه، زارنى فى الأمم المتحدة ليخبرنى بعزمه على الاستقالة، بحجة أنه لا يستطيع الجمع بين نشاطاته الأكاديمية ومهامه كقاضٍ.

لقد كلّفني تشكيل هذه المحكمة انتقادات لاذعة من قبل الأصوليين المسلمين الذين كان لسان حالهم يقول: «لا وجود لقاض مسلم واحد في هذه المحكمة المسماة «دولية»، ومصر تقرر أن يمثلها مسيحي!» كان يجب عليّ أن أشرح لهم، أولاً، أن الدول الأعضاء المسلمة هي وحدها المسؤولة عن هذا الواقع، وذلك لأنها لم تقدم أي مرشح، وثانيًا، أن تعيين القضاة لا يعود إلى الأمين العام للأمم المتحدة بل هو من صلاحيات الجمعية العامة وحدها، ولكن هذا التفسير كان جهدًا ضائعًا.

عينت وزارة الخارجية المصرية، بناءً على طلبي، خلفًا لجورج أبي صعب، فؤاد رياض، وهو مسلم وواحد من زملائي وأصدقائي. فادعى الأصوليون أن هذا التعيين إنما يعود إلى تدخلاتهم.

كثيرون هم اليوم في جنيف الزملاء والمعجبون والطلاب، الذين أتوا ليعبروا عن محبتهم وصداقتهم لجورج أبي صعب. أمام هذا الحشد من الأساتذة الذين أمضيت فترة طويلة في معاشرتهم والذين لا يزال حماسهم للقانون الدولي كاملاً كما كان في شبابهم، ولم يطرأ عليه أي تغيير، ألقي خطابًا عن الصلات التي تربط بين الديمقراطية والقانون الدولي، هذا القانون الذي شُغلت عنه منذ عدة سنوات لألتفت إلى السياسة الدولية، مذعنًا للقاعدة التي قال بها غريشام: العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة.

أستفيد من إقامتي القصيرة في جنيف لألتقي المدير العام للمنظمة العالمية للملكية الفكرية، السوداني كمال إدريس. يقودنا الحديث بسرعة إلى العلاقات بين القاهرة والخرطوم. يقول: «أعتقد أن للرئيس الأوغندي موسيفيني دوراً يستطيع أن يلعبه للمساعدة على إيجاد حل للصراع الدائر بين شمال بلاده وجنوبها. من المؤكد أن موسيفيني يدعم الجنوبَ، لكن الأهم من ذلك هو أنه حائز على دعم الولايات المتحدة وبريطانيا».

يحيطني علمًا بمشاكله مع الأمين العام الحالي للأمم المتحدة، كوفي أنان. أكتفي بالإصغاء، ملتزمًا بالقاعدة الذهبية التي اتخذتها لنفسي: الامتناع عن إطلاق الأحكام على من يسبقني أو يخلفني في تحمل المسئولية.

ثم ينطلق كامل إدريس فى مرافعة حماسية عن حق دخول السودان فى المنظمة الدولية للفرنكفونية، كعضو مراقب. يقول: «يجب مساعدة السودان على الانفتاح على العالم الخارجى وعلى اعتماد النموذج الغربى».

أجيبه: «إن القرار لا يعود إلىّ»، وأقترح عليه حضور مؤتمر وزراء الثقافة الفرنكفونيين الذى سيُعقد فى حزيران، فى كوتونو. يرحب بذلك بحماس.

باريس - الاثنين ٢٦ آذار/مارس ٢٠٠١

يقوم حاليًا إيف برتولو، الأمين العام السابق للجنة الاقتصادية للأمم المتحدة لشؤون أوربا، مع مجموعة من أصدقائه بإعداد دراسة تقع فى عدة أجزاء حول الأفكار والمفاهيم الجديدة التى قدّمتها الأمم المتحدة إلى المجتمع الدولى خلال الخمسين سنة الفائتة.

يعرض علىّ تسجيل سلسلة من الأحاديث الطويلة التى ستصاغ كتابةً، لتوضعَ من ثم فى متناول الباحثين المكلفين بإعداد هذه الدراسة. أجيبه «إن كل ما له علاقة بالبحث يثير اهتمامى. ثم إن الأمم المتحدة كانت بلا منازع مختبراً للأفكار الجديدة».

باريس - الثلاثاء ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠١

يصلنى بعد الظهر خبر مفاده أن الرئيس السابق لبوروندى، سيلفستر نتيبانتونغانيا، يرغب فى مقابلتى خلال مروره فى باريس. أحدد له موعداً على الفور. لا أزال أذكر جيداً لقاءنا الأخير فى بوجمبورا، فى يوليو ١٩٩٥. كانت زوجته الأولى قد أُغتيلت، وعندما جئت لمقابلته فى منزله، عرّفنى باعتزاز على المرأة الجميلة التى كان قد تزوجها منذ فترة وجيزة. لا أزال أذكر الجو الثقيل لفترة بعد الظهر تلك، الأصوات المتقطعة لطلقات الرشاشات ولانفجارات القنابل وهى تخرق الصمت المقلق. كنت أرى أمامى رئيساً عصبيًا، قلقًا، يتمتع بسلطة وهمية أكثر منها فعلية. أجد اليوم أمامى رجلاً مطمئنًا، هادئًا وواثقًا بنفسه. أسأله:

«سيدى الرئيس، ألا تخشى العيش وسط العاصفة السياسية فى بوجمبورا؟»

يجيبنى:

ـ «يجب أن نتعلم التغلب على الخوف. طبعًا يبقى الخوف موجودًا لكنه يصبح تحمله ممكنًا».

ـ لقد مضى على لقائنا فى بوجمبورا ما يناهز السنتين، فكيف ترى الوضع فى بلادك فى الوقت الراهن؟

ـ إنه باق على ما هو عليه. لقد فرض علينا نلسون مانديلا اتفاق أروشا دون حلٍ لمشكلة «وقف إطلاق النار» مع المعارضة المسلحة، وهكذا فالحرب مستمرة.

ـ لكن اللقاء الذى عُقد فى ليبريفيل بين الرئيس بويويا وزعيم الهوتو، جان بوسكو ندايكينغوروكيى، برعاية عمر بونغو، يُعتبر خطوة أولى مشجعة.

ـ أجل شرط أن لا تكون مبادرة ليبريفيل منافسة لمبادرة أروشا، بل أن تأتى لتكملها. آمل أن يتم التعاون الوثيق بين وزير جنوب إفريقيا، زوما، المكلف بمتابعة ملف البوروندى، وبين الرئيس بويويا، لتجنب هذا النوع من المنافسة، ذلك أنه يبدو أن الثوار الهوتو يميلون إلى التفاوض فى الوقت الحاضر.

ـ هل لاحظت اختلافات بين سياسة يوليوس نييريرى الخارجية وسياسة خلفه، نيلسون مانديلا؟ أنا شخصيًا عرفت هذين الرجلين العظيمين عن قرب، لكننى كأستاذ جامعى وكباحثٍ، أطرح عليك هذا السؤال.

ـ إن دبلوماسية نيريرى كانت تقوم على طول الأناة. فقد كان قادرًا على الإصغاء لساعات طويلة دون أن تبدو عليه أى علامة تنم عن نفاد الصبر أو الضجر. مما كان يتيح لنا أنَّ نعبر عن كل مكنوناتنا وعن مخاوفنا وعن طموحاتنا المكبوتة. أما نيلسون مانديلا فقد توسل، على العكس، أسلوب الصدمة وفرض علينا الحلول. ومع ذلك، فإننى لا أرى حلاً دائمًا لمأساتنا الوطنية طالما أننا لم نتوصل إلى آلية لتثبيت ومراقبة وقف إطلاق النار.

ـ ألا يستطيع الرئيس بويويا الذى أعرفه وأحترمه أن يجد حلاً لهذه المشكلة؟

ـ لم يستطع الرئيس بويويا أن ينهى الحرب. وهو يواجه فضلاً عن ذلك معارضةً داخل صفوفه. ثم أنه لم يفعل شيئًا لتقدم المرحلة الانتقالية التى نصّ عليها اتفاق أروشا.

ـ سيدى الرئيس، هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً جريئًا؟ هل تعتقد أنه يمكن قيام الديمقراطية فى بلادك مع وجود أكثرية من الهوتو التى تنتمى إليها، وأقلية من التوتسى المتمسكة بالسلطة وبامتيازاتها؟

ينفعل الرئيس لدى سماعه هذه الكلمات ويقول:

ـ إن الاعتقاد بأنه يجب أن تترتب أوتوماتيكيًا على اعتماد الديمقراطية سيطرة للهوتو، خاطىء تمامًا. ففى سنة ١٩٩٣، بدأت حكومة الهوتو، وهى حكومة الأكثرية، عملية استيعاب أتاحت للهوتو وكذلك للتوتسى فرصة تبوّء مراكز المسؤولية والعمل معًا».

قبل أن نفترق، وبلباقة ونبرة استسلام يعترف لى الرئيس بالصعوبات التى يجدها هو وزوجته فى إيجاد عمل؛ ففى كل مرة يتقدمان فيها بطلب عمل يواجه الطلب بردات فعل مستغربة ورافضة: «أيعقل أن يطلب رئيس جمهورية سابق أو زوجته، عملاً ... !»

أترك الرئيس مسرعًا لأذهب إلى موعد مع طبيب الأسنان. فى الطريق، يجتاحنى فجأةً شعور بالحزن الشديد. يتسلل قلق إفريقيا إلى نفسى ويثير لدىّ إحساسًا بالضيق، حتى أننى أكاد أشعر بالارتياح على كرسى طبيب الأسنان وأستقبل بسرور هذا الألم الجسدى الصغير والمؤقت، الذى ينسينى حزنى الإفريقى الذى يتغلغل فى كيانى ويعذبنى. إنه الألم الذى يقطع عليك أنفاسك فى الوقت الذى لا تكون بانتظاره أبدًا فتغرق فيه. إن ما يبعث فى نفسى هذا الشعور بالإحباط والقلق العميق هو تارةً مشهد البؤس واليأس، وطورًا رائحة الحرب والدم، وكذلك الإحساس بأن تحسن الأوضاع لا يزال بعيد المنال رغم نصف قرن من الجهد الدؤوب.

موناكو ـ الخميس ٢٩ آذار/مارس ٢٠٠١

السفير كلود دى كيمولاريا منهمك فى مشروعه وهو تأسيس نادى موناكو الذى سيعالج المسائل الأوربية ـ المتوسطية بالتعاون الوثيق مع معهدين للأبحاث، المعهد الفرنسى للعلاقات الدولية، فى باريس، ومعهد الدراسات السياسية الدولية، فى ميلانو. يطلب منى أن أرأس هذا النادى الذى سيضم شخصيات من مختلف البلدان الواقعة على المتوسط والذى سيكون مقره فى موناكو، بما أن الإمارة مستعدة لتأمين تكاليف نشاطاته.

سأدعم باستمرار وبحماس شديد كل ما من شأنه أن يكون همزة وصل بين الشمال والجنوب بشكل عام، وبين شمال المتوسط وجنوبه، بشكل خاص. ذلك أنه يجب الإقرار بأن أوربا على الرغم من العلاقات التاريخية والثقافية المميزة، فى كثير من الأحيان، التى تربط بين الشعوب على ضفتى المتوسط، قد حولت نظرها تدريجيًا خلال فترة بنائها الذاتى عن بلدان الجنوب.

إن قيام السوق المشتركة سنة ١٩٥٧ كان فى خدمة دول الشمال. كما أن ضم كل من إسبانيا والبرتغال واليونان إلى هذه السوق بعد بضع سنوات، كان من نتائجه تهميش اقتصادى لبلدان المتوسط الجنوبية كالمغرب مثلاً. من جهة أخرى، فإن توسيع أوربا سنة ١٩٩٥ إنما جاء ليؤكد هذه النزعة، فضلاً عن أن الاتحاد الأوربى يستعد اليوم للانفتاح على أوربا الشرقية.

وكما قال لى مؤخرا دبلوماسى مصرى شاب: «إن بناء أوربا قد أحدث تغييراً عميقًا فى طبيعة العلاقات التى كانت تقوم فى الماضى. فالعلاقات الثنائية والمتعددة الأطراف بين الدول على ضفتى المتوسط قد اضمحلت لصالح علاقات «من طرف واحد» إذا جاز القول، بين اتحاد أوربى يستمد قوته من كتلة مؤلفة من خمس عشرة دولة متقدمة جداً من جهة، وبين اثنتى عشرة دولة نامية متفرقة، من جهة أخرى». ثم يضيف: «تعرف جيداً أن العالم العربى لن يكون قادراً على الاتحاد قبل مرور سنوات عديدة».

بالطبع هناك مؤتمر برشلونة الذى انعقد سنة ١٩٩٥ والذى كان من المفروض أن

يتوصل إلى إنشاء منطقة يعم فيها السلام والاستقرار والازدهار الذى يستفيد منه الجميع . لكن بعد مرور ست سنوات على هذه المبادرة، لا زالت الحصيلة دون مستوى التوقعات والرهانات .

يردُّ البعض على هذا المنطق بأن أوربا لا تستطيع أن تكون على كل الجبهات فى وقت واحد، وأنه يجب عليها أن تثابر على تدعيم وتقوية وتنظيم نفسها فى فضائها الخاص؛ كى تتمكن فى مرحلة لاحقة من أن تبادر إلى تنشيط تعاونها مع دول جنوب المتوسط . لكن قد يكون من الخطر تصور أنه يمكن، تبعًا لما تمليه الحاجات والظروف، فك الارتباط بين الضفتين الشمالية والجنوبية للمتوسط . إن ما يجمع هذه البلدان ليس فقط تاريخ مشترك وقدر مشترك، بل الجغرافيا والمكان أيضًا . وثمة حقائق لا مفر منها تظهر نتائجها فى الوقت الحاضر أو ستظهر فى القريب العاجل ليس فقط فى جنوب المتوسط، بل فى شماله أيضًا .

أنا لست متأكدًا مثلاً أن الأوربيين يقدّرون جيدًا تأثيرات النمو الديموغرافى فى الجنوب . فحسب التوقعات السائدة سيبلغ عدد السكان فى هذه البلدان فى العام ٢٠٥٠ ما يوازى عدد السكان فى أوربا . ويتضح لنا فورًا ماذا ينجم عن ذلك بالنسبة إلى بلدان جنوب المتوسط : صعوبة الاندماج الاجتماعى لهذا العدد المتزايد باستمرار من السكان، والذى سيتشكل نصفه، على مشارف الـ ٢٠٥٠، من الشبان الذين تقل أعمارهم عن خمسة عشر عامًا؛ واستحالة التوزع السكانى المتناسب لهذا العدد المتزايد من السكان على المساحة الجغرافية؛ وذلك لأن الصحراء تحتل فى معظم هذه البلدان مساحةً كبيرة، والنتيجة الطبيعية لذلك تضخم جنونى ومقلق فى عدد السكان فى المدن الكبرى، والتى تشكل القاهرة نموذجًا مثاليًا لها .

وفى الوقت ذاته، ستشهد الخمسون سنة المقبلة نقصًا فى عدد السكان فى أوربا . فيجد الإتحاد الأوربى نفسه مضطرًا لاستقبال ١,٦ مليون من المهاجرين سنويًا، وفقًا لتقرير حديث للأمم المتحدة؛ وذلك ليسد النقص المترتب عن حاجته لليد العاملة، وليحافظ على نسبة نموه الحالى .

كما أننى لست متأكدًا كذلك أن الأوربيين على وعى تام بتفاقم الفوارق بين

ضفتى المتوسط . والتى لم تكن يومًا أكثر بروزًا مما هى عليه اليوم . فنصيب الفرد من الناتج الوطنى الإجمالى يبلغ فى مصر ، حوالى ٣٠٠٠ يورو ، فى مقابل ٢٠٠٠٠ يورو فى فرنسا! والناتج الوطنى الإجمالى للفرد فى ألمانيا يفوق سبع مرات الناتج الوطنى الاجمالى للفرد فى المغرب .

إن هاتين الحقيقتين مثقلتان بالانعكاسات الآنية والمستقبلية . يُخشى أولاً حصول عدم استقرار اجتماعى وسياسى فى مجمل حوض المتوسط ، كما يخشى ازدياد حدة التعصب والأصولية التى تجد كما نعلم أرضًا خصبة فى واقع يومى يبدو للشباب خاصة مرادفًا للبؤس والحرمان والبطالة وانعدام آفاق المستقبل . يمكن أخيرًا أن نتوقع ودون احتمال الوقوع فى الخطأ ، ازدياد الإقبال على الهجرة . إن الهجرة من الجنوب تشكّل إذن بالنسبة لأوربا أحد التحديات الكبرى التى يجب علينا مواجهتها فى السنوات القادمة . وهو تحد لا تستطيع أن تواجهه باتخاذ إجراءات دفاعية ، أو باتباع سياسات للهجرة قصيرة الأمد تمليها احتياجات سوق العمل وحدها .

للمرة الأولى منذ القرون الوسطى أصبح الإسلام حقيقة واقعية فى أوربا المسيحية . إن هذا اللقاء وهذا التعايش بين ديانتين مختلفتين وثقافتين مختلفتين لا يجب أن يترك للارتجال . بل يجب أن يتم التحضير له وتنظيم قواعده من خلال سلسلة من المبادرات التى تقوم على مبدأ التعاون المتبادل : تعليم اللغة العربية ، ترجمة الكتب ، انتقال المنتوجات الثقافية ، حوار الأديان ...

كل ذلك قد يكفى للبرهان على ضرورة تدعيم التعاون الأوربى ـ المتوسطى . لكن ثمة حقيقة ثالثة لا مناص منها ويجب على أوربا مواجهتها : الوضع السياسى المأساوى الذى يهدد بلدان جنوب المتوسط . هناك الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، طبعًا ، لكن ثمة صراعات أخرى محتملة أو كامنة يمكنها بدورها أن تشعل المنطقة . ولن تستطيع أوربا ادّعاء البقاء بمنأى عنها : الصراع بين تركيا واليونان حول جزيرة قبرص ، مسألة الصحراء الغربية التى ما زالت عالقة ، المشكلة العراقية . فضلاً عن الصراعات التى يمكن أن تنفجر ، والتى سبق وكادت تنفجر مرات عديدة ، والتى

تتعلق بقضية المياه. يكفى النظر إلى الخلاف العراقى ـ السورى ـ التركى حول مياه الفرات، أو إلى النزاع الإسرائيلى ـ السورى حول مياه نهر الأردن. ومن المنظور نفسه، يتضح لنا إلى أى حد تشكل الموارد البترولية التى تتركز نسبة ٦٠٪ منها فى هذه المنطقة من العالم، رهانًا استراتيجيا مهمًا، وبالتالى مصدراً للصراع، بالنسبة إلى كثير من البلدان الغربية وفى طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية.

وإذ تقع مناطق هذه الصراعات القائمة أو الكامنة على أبواب أوربا، نجد أن من يتخذ المبادرات ومن بيده القرار إنما هى القوة العظمى المتمثلة فى أمة لا تنتمى إلى العالم الأوربى. على أووبا، إذن، أن تواجه تحديًا آخر: أن يكون لها فعليًا سياسة خارجية دفاعية وأمنية موحدة من خلال رؤيا لعالم متعدد الأقطاب ومتعدد الأطراف.

عندما أرى أوربا اليوم تتطلع إلى شواطىء ما وراء الأطلسى، إلى اقتصادها وثقافتها وتقنياتها وقوتها؛ عندما أراها تنظر إلى البلدان الأوربية الشرقية، إلى أراضيها وإمكانياتها الكامنة وتجارتها، أعى حجم المهمة، وأقول لنفسى ربما أخطأت بقبولى رئاسة هذا المنتدى الأوربى ـ المتوسطى الجديد.

واغادوغو ـ الثلاثاء ٣ نيسان/إبريل ٢٠٠١

بعد ظهر هذا اليوم تمنحنى جامعة واغادوغو دكتوراه فخرية. المدرج يعج بالناس. أجهزة التهوية تبدو بلا فعالية. يجرى الاحتفال وسط حر شديد. تنطلق الأوركسترا فى مقطوعة موسيقية تشبه الجاز قبل أن تعزف نشيد الفرنكفونية الذى أُلّف خصيصًا للمناسبة. تُقرأ القرارات التى أُمنح رسميًا بموجبها هذا اللقب الفخرى. وتلقى كلمة تقريظ تستعرض مسيرتى المهنية والجامعية والسياسية والدبلوماسية. بعد ذلك أُدعى إلى ارتداء ثوب الأستاذية وهو باللونين البنفسجى والأحمر، وأن أعتمر قبعة صغيرة. فجأةً، تصبح الحرارة التى كانت حتى اللحظة صعبة الاحتمال، لا تطاق. أخاف أن أختنق فى ثوبى الجامعى الجديد.

يحملنى الجو الحار على أن أغيّر مطلع كلمتى. أعزف عن التوجه تباعًا إلى الشخصيات الحاضرة فى القاعة، كما فعل قبلى رئيس الجامعة ووزير التعليم

العالى. أكتفى بعبارة «أصحاب المعالى» وأتبعها بـ «أيها الطلاب، إخوتى الأصغر» مما يثير ضجيجًا كبيراً يدوم عدة دقائق. أستفيد من هذه الفرصة كى أمسح العرق عن وجهى وأزيل البخار عن زجاجات نظارتى. أتابع إلقاء خطابى بنشاط، ويقاطعنى التصفيق الحار عدة مرات، لكن عندما أشير إلى يوم العفو الوطنى الذى أقرته الحكومة منذ بضعة أيام، يحتج الطلاب بقوة. إنهم يطالبون بإقامة العدالة، وبإنزال العقوبات بالمذنبين. أتابع بحماس أكبر، وأطلق فى الختام نداءً إلى إفريقيا، المتصالحة مع نفسها أخيراً.

ينتهى الاحتفال. لا أفكر إلا بشىء واحد، أن أستطيع خلع ثوبى. لكن ما زال علىّ أن أتحمل إزعاج حفلة التقاط الصور.

عشاء فى سفارة فرنسا. دعا موريس بورتيش وزوجته الرائعة، الوزراء وكل الشخصيات البوركينابية. عند الانتهاء من تناول الطعام يبدأ نقاش مرتجل عن الفرنكفونية. ألفت الانتباه، وأنا أشعر بشىء من المرارة، إلى أن فرنسا لا تهتم كثيراً بالفرنكفونية. يوافق السفير على ما أقول بدبلوماسية، قبل أن يضيف أنه ينبغى على إفريقيا أن تحمل الشعلة من جديد. قد يكون محقًا، ففى نهاية الأمر، وُلدت الفرنكفونية فى إفريقيا مع الحبيب بورقيبة، وليوبولد سيدار سنغور، وهمانى ديورى، ومع نوردوم سيهانوك كذلك الذى غالبًا ما يغفل ذكره لأنه ليس إفريقيًا.

لكل تعريفه للفرنكفونية. وهو تعريف ذاتى تمامًا. واحد يقول لى: «عندما أنطلق بأقصى سرعتى حين أقود السيارة، أكون أفكر باللغة الفرنسية»، وآخر يقول: «الفرنكفونية هى الانفتاح على الفضاء الواسع»، وثالث يسألنى: «وأنت أيها الأمين العام، ماذا تمثل الفرنكفونية بالنسبة إليك؟» فأجيب: «إنها بالنسبة إلىّ تعنى الكثير من الأمور، لكنها بشكل خاص وسيلة لمتابعة الحوار بين الشمال والجنوب».

واغادوغو - الأربعاء ٤ نيسان/إبريل ٢٠٠١

يستقبلنى رئيس الجمهورية بليز كومباورى. لقد ازداد بدانة، لكن نظرته لا تزال

تشع حيوية ولا تزال لديه الابتسامة الرضية. يبدو أن الهدية التى أقدمها إليه باسم المنظمة الدولية للفرنكفونية تعجبه: فخارية زهرية اللون مطعمة بفيلة بيضاء. يقول لى: «لدى فيلة فى مزرعتى». أجيبه متودداً: «كنت أعلم أنك تحب الفيلة»، ثم أتطرق بدون مقدمات إلى موضوع عزيز على قلبى: يوم السادس من مارس وهو اليوم الذى أقرته بوركينا يوماً وطنياً للغفران، لغفران يشمل كل المظالم وكل الجرائم التى ارتُكبت.

على مدخل الفندق الذى ننزل فيه يافطة كُتب عليها أن الغفران لا يمنع من تنفيذ العدالة. أعتقد على العكس أن الغفران يجب أن يتقدم على العدالة.

أشير إلى لجنة الحقيقة التى أُلّفت فى السلفادور لغاية وحيدة هى الكشف عن الفظاعات المرتكبة وعن الانتهاكات الجماعية لحقوق الإنسان، لكن دون أية نية للمعاقبة وذلك من أجل الحفاظ على فرص المصالحة الوطنية. ووفقًا للتوجه نفسه، ترأس ديسموند توتو المحكمة المكلفة بأن تكشف النقاب عن الجرائم التى ارتكبها نظام الفصل العنصرى باسم الفصل العنصرى.

(مساءً...).

فى الطائرة التى تقلّنى إلى باريس، وخلال توقفنا فى مطار باماكو، يطلب شاب فرنسى التحدث إلىّ: «أودُّ أن أتحدث إليك فى مسألة شخصية. أنا بهائى. وقد أُلقى فى السجن عدد من أتباعنا فى مصر بجرم الدعوة إلى هذا الدين».

يشعرنى هذا الانتقاد بالإهانة. إنى مستاء من حكومة بلدى التى غالبًا ما تقع تحت وطأة أصولية القرون الوسطى: فوحدها الديانات السماوية الثلاث معترف بها فى مصر. من المستحيل بناء معبد هندوسى أو بهائى. بل أسوأ من ذلك، يُعتبر البهائيون هراطقة ويُسجنون.

إن لم تكف مصر عن ذلك وإن لم تفتح الأبواب والنوافذ للحريات الأساسية التى أقرها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، ستنزلق قريبًا فى هوة التخلف العقلى الذى نقدر حجم نتائجه فى أفغانستان وإيران والسودان.

أشعر بغضب كبير تجاه الجمود المسيطر على حكومتنا حتى أنني لا أتمكن من النوم. تتسرب إلى أذني عبر السماعات موسيقى مقطوعة «فالس الإمبراطور» لجوهان شتراوس التي يتضمنها برنامج الموسيقى الكلاسيكية على متن الطيران الفرنسي. أستمع إليها للمرة الألف وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن يطلع الفجر الجديد على باريس.

باريس - الخميس ٥ نيسان/إبريل ٢٠٠١

تبدأ الطائرة هبوطها في مطار «رواسي». قمر أصهب يضيء فجراً خافتًا. متى يضيء القمر الذي أنتظره؟ متى ستتحقق نبوءة المنجّم الهندي؟

عبر الطاقة أرى عدداً من الأنوار الصغيرة التي تدلّ على وجود المجمّعات السكنية والقرى المحيطة. إن فرنسا غنية بالكهرباء، غنية بالأنوار، غنية بالأفكار. الفارق كبير بين العاصمة التي غادرتها منذ وقت قليل وتلك التي أعود إليها من جديد في هذا اليوم وهو الخامس من إبريل. فارق مناخي أيضًا. البارحة في واغادوغو كانت درجة الحرارة ٣٨ درجة مئوية، وهذه الصبيحة الحرارة في باريس هي ثماني درجات.

(بعد الظهر ...).

أستقبل عيدي أومارو الذي يعود من مهمة قادته إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية، وإلى الكونغو - برازافيل. لقد التقى جوزيف كابيلا الذي أصرّ على التذكير بانتمائه إلى الفرنكفونية، وطالب بأن تسعى المنظمة الدولية للفرنكفونية إلى تأمين مساعدة تقنية ودبلوماسية أكبر وأكثر فاعلية خصوصًا في مجال الحوار بين الدولتين في الكونغو.

بالنسبة إلى الوضع في الكونغو - برازافيل، يبدو عيدي أومارو متفائلاً. ذلك أن مختلف المسؤولين الذين ألتقى بهم يريدون المصالحة والسلام؛ فقد تعبوا من هذه الحروب المتتالية التي دمرت بلادهم خلال عشر سنوات. والجميع يتطلع بأمل إلى الحوار الوطني.

يقول: «حين نرى البؤس الفظيع فى إفريقيا، نتساءل إن لم يكن الإصرار على إقامة النظام الديمقراطى من قبل المجموعة المتأثرة بالغرب مجرد حلم ليس له أية صلة بالواقع ...».

أتجنب الإجابة مباشرة وأقول:

«حتى ولو كانت إفريقيا منهوبة، مخربة، محبطةً، سابحةً فى بحر من الدماء، فهى بحاجة إلى الحلم. إنها على الرغم من كل شىء غنية بذكائهاً، بطاقتها الإبداعية وبإنسانيتها التى لا تكّل».

باريس ـ الجمعة ٦ نيسان/إبريل ٢٠٠١

يعلمنى هاتفيًا برنار كوليلا، رئيس وزراء الكونغو ـ برازافيل السابق، الذى يعيش فى المنفى بنيته الذهاب إلى برازافيل للمشاركة فى المرحلة النهائية للحوار الوطنى الذى لا يستثنى أحدًا. أسأله إن كان قد قام باتصالات مع السلطات الكونغولية أو الغابونية لتأمين شروط عودته. يتجاهل سؤالى ويشرح لى أن وجوده ضرورى، إذا ما أريد للحوار أن ينجح. أنصاره ينوون كذلك الذهاب إلى برازافيل.

أقول له: «لقد دُعيت إلى المشاركة فى الاحتفال الختامى، وسنكمل فى برازافيل نقاشنا الذى بدأ فى واشنطن وتابعناه فى باماكو».

باريس ـ الخميس ١٢ نيسان/إبريل ٢٠٠١

يصلنى خبر مفاده أن السلطات الكونغولية قد منعت برنار كوليلا من الدخول إلى أراضيها. إن ذلك لم يعد يمت بصلة للحوار الوطنى الذى لا يستثنى أحدًا.

يبلغنى رئيس إفريقيا الوسطى، فيليكس باتاسى، الذى شارك فى الجلسة الافتتاحية للحوار، فى ١٧ مارس، أنه لن يشارك فى الاحتفال الختامى، والسبب «أن ذلك لم يعد حواراً بل مهزلة ...».

فأقول: «تُلمح الصحف إلى أن هناك أحكامًا قضائية أصدرتها المحاكم الكونغولية بحق كوليلا وأنه إذا حاول العودة إلى الكونغو، فسيُلقى عليه القبض على الفور.

ـ إذا كان الرئيس ساسو ـ نغيسو يريد حواراً حقيقيًا عليه أن يصدر منذ اليوم حكمًا بالعفو. من جهة أخرى، كان يجب اتفاق وقف إطلاق النار والكف عن الأعمال العدوانية الذى وُقّع فى ديسمبر ١٩٩٩، بعفو شامل، ختم الرئيس باتاسى.

يشير علىّ عيدى أومارو الذى طلبت منه النصح، بعدم العزوف عن السفر إلى برازافيل؛ «لأن كوليلا والسلطات الكونغولية الحاكمة سيتصالحون فى نهاية المطاف».

أتحادث إلى جيرار كامندا، وزير خارجية موبوتو السابق. يرغب فى أن يتوسطنى للفت انتباه جوزيف كابيلا إلى أهمية الشتات الكونغولى الذى يتألف من ثلاث مجموعات سياسية: تحالف الخيار الديمقراطى الذى يترأسه، مجموعة ١٦ أكتوبر ـ وهى المعارضة غير المسلحة فى الخارج ـ، وقوى التجديد من أجل الجمهورية. يضيف أن أول الأحزاب التى اعتُرف بها رسميًا بعد الإطاحة بنظام الحزب الواحد، هو حزب التشيسكيدى، وهو حزبه، وحزب جوزيف إليو، الذى تُوفى. يذكرنى بالمفاوضات التى خضناها معًا مع الرئيس زينسو فى مقر المنظمة الدولية للفرنكفونية.

«لقد استقبلت إتيان تشيسكيدى، وألكسى تامبوى موامبا، وليون كينغو وا دوندو وكثيرين غيرهم من الزعماء الكونغوليين. فأنت تعرف قيمتهم وتعلم أى دور يمكنهم القيام به فى عملية المصالحة الوطنية».

أعده أن أنقل رسالته إلى جوزيف كابيلا، لكنى أحرص على أن أقول له إن وزير خارجية بلجيكا، لويس ميشال، أسرَّ لى بأنه مكلف من قبل الرئيس كابيلا بالتفاوض مع الجاليات الكونغولية فى الخارج.

باريس، برازافيل - الجمعة ١٣ نيسان/إبريل ٢٠٠١

تقلع الطائرة التابعة لشركة الطيران الفرنسية والتى يجب أن تقلّنى إلى برازافيل فى الوقت المحدد. أخذت معى زاداً كافياً من الجرائد والمجلات، فمدة الرحلة سبع ساعات وأربعون دقيقة. أقرأ مقالة جيدة لإدوار بالادور. تبدأ بلهجة انفعالية: «إن رفض العولمة مرادف لرفض التغيير، ومرادف للتعصب القومى، وللانعزال. إنه الحنين إلى ماض مآله الزوال، وقد بدأ فعلاً يزول». إن ذلك ينطبق أيضاً وبصورة أبرز على الواقع فى الدول العربية والإسلامية. كيف التحرر من الحنين إلى الماضى؟

فى برازافيل يستقبلنى جهاز التشريفات وسفير مصر، محمد الخضراوى الذى استدعى كل موظفى السفارة والمصريين العاملين فى قطاع التعاون. يبادرنى قائلاً: هؤلاء هم رجالك. فأنت الذى استحدثت فى سنة ١٩٧٩ الصندوق المصرى للتعاون مع إفريقيا».

أمامى يقف منتظمين كالعسكر حوالى عشرين موظفاً أصافحهم فرداً فرداً. بينهم سيدة تشكرنى بحرارة قائلةً: «بفضلك استطعت المجىء إلى برازافيل. فقد تدخلت لصالحى، العام الماضى». أسألها:

- ما هو اختصاصك؟

- أعلّم الرياضيات فى مدرسة ثانوية.

لا أستطيع أن أعبر عن الفرح الذى أشعر به وأنا أرى هذه المؤسسة التى أنشئت منذ أكثر من عشرين عاماً مستمرة فى تأدية دورها وعلى أفضل ما يرام.

ليس لدى من الوقت إلا ما يكفى لتبديل ملابس فأرتدى بذلة من الكتّان بدل بذلتى الشتوية. ذلك أن وزير الخارجية قادم إلىّ فى زيارة مجاملة. أحدثه عن قضية برنار كوليلا الذى رفضت السلطات دخوله إلى الأراضى: «لكنكم تصفون الحوار بأنه لا يستثنى أحداً». يبدو جازماً: «أراد كوليلا أن يخلط الأوراق وأن يفشل المصالحة الوطنية. لذلك كان يجب منعه من المشاركة فى الاحتفال. لو كان أبدى

رغبة فى الدخول فى الحوار قبل اليوم، لكننا استقبلناه بطيبة خاطر. لا تنسى أنه كان حليفًا للرئيس ساسو».

أرى أن الاستمرار فى هذا النقاش «الذى لا يستثنى أحدًا» أمر لا طائل تحته.

برازافيل ـ السبت ١٤ نيسان/إبريل ٢٠٠١

إنه أطول يوم فى حياتى الدبلوماسية خلال السنوات الثلاث الماضية. نهار يبدأ فى التاسعة لينتهى فى الثالثة من صباح اليوم التالى. إنه اليوم الكبير: عيد المصالحة الوطنية.

أخذنا أماكننا فى القاعة الكبرى لقصر المؤتمرات الذى بناه الصينيون فى زمن مختلف، والذى نرى نموذجه يتكرر فى كل العواصم الإفريقية ما عدا القاهرة. فقصر المؤتمرات عندنا شكَّل موضوع خلافات حادة بين الإدارات المصرية المختلفة قبل وخلال وبعد فترة بنائه. فقبل البناء، كان كل يريد أن يعزو إلى نفسه فضل الحصول على هذه الهدية الصينية القيمة. كل يريد كذلك أن يفرض المكان الذى يراه مناسبًا لهذا المبنى: على مقربة من الأهرامات، بالنسبة إلى البعض، فى جزيرة الجزيرة، بالنسبة إلى البعض الآخر، بالقرب من نصب الجندى المجهول حيث دُفن السادات، بالنسبة إلى فريق ثالث. مشادات كذلك لا نهاية لها حول الجهة التى ستعود إليها مسؤولية إدارته: هل هو وزير الخارجية، أم مدينة القاهرة ومحافظها، أم رئاسة الجمهورية ...

فى قاعة الاستقبال، ثلاث أرائك كبيرة مخصصة بالتراتب لكل من رئيس جمهورية الكونغو، الوسيط الدولى ـ وهو لقب عمر بونغو الجديد ـ ورئيس ساوتومر وبرنسيبى، ميغال تروفوروادا. إلى اليسار، أربع أرائك أصغر حجمًا يشغلها الوزراء الذين يمثلون كل من أنغولا، وتوغو، والكاميرون، وجمهورية الكونغو الديمقراطية. آخذ مكانى إلى اليمين، بين مساعد الأمين العام لمنظمة الوحدة الإفريقية، الجزائرى أحمد حجاج، وزوجة الرئيس ساسو نغيسو، وهى سيدة بالغة اللطف ومضيفة ممتازة. نقف لاستقبال الوسيط الدولى، ترافقه زوجته

الشابة، وهى ابنة الرئيس ساسو نغيسو. تُوزع كؤوس الشمبانيا مع قطع الحلوى الصغيرة.

نتوجه إلى قاعة المحاضرات التى تغُصّ بالحضور. معزوفة الخطابات تقطعها ابتهالات من أجل أن يعمَّ السلام والازدهار. ينتهى الاحتفال فى الثالثة بعد الظهر بعزف النشيد الوطنى وتقديم العلم لرئيس الدولة الذى يتسلمه من مجند فى فوج الطلائع يسير بخطوات عسكرية متقطعة.

نغادر القاعة فى موكب. نضيع بين الحشود التى تتحرك على إيقاعات موسيقى الرقص التقليدية المحمومة. الحر خانق. الشمس حارقة. يتوقف الرئيس ساسو نغيسو أمام كل مجموعة من الراقصين ومن الموسيقيين. كذلك الموكب. نصل أخيراً أمام منصة مسقوفة حيث نأخذ أماكننا وفق ما تمليه قواعد البروتوكول المدروسة بعناية، لنحتفل بإطلاق «شعلة السلام». يتقدم قائد القوات المسلحة لطلب الإذن بإشعال بضع مئات من البنادق المصادرة أو التى سلمتها المعارضة إلى الجيش، والتى كُومت على شكل محرقة مخروطية. يعطى الوسيط الدولى الإذن ونرى اشتعال المحرقة الذى سيدوم لفترة طويلة بعد أن نترك المنصة.

فى الساعة العاشرة ليلاً يستقبلنا الرئيس ساسو نغيسو بمنتهى البساطة. نتوجه إلى الطاولة الرئاسية. أجلس إلى جانب وزيرداخلية أنغولا الذى يسكب لنفسه مرتين من كل الأطباق. يستغرب من شهيتى الضعيفة نسبيًا ويسألنى إن كنت منزعجًا صحيًا. أجيبه أن المحافظة على المظهر الرشيق تحتم بعض الصيام. فيرد بمرحٍ: «إنه يوم السلام وأنا آكل كثيراً حتى يتدعم السلام».

ثم يتابع بنهم التهام الدجاج واللحم والأسماك والحلويات.

بعد ذلك بقليل يرقص الرؤساء وزوجاتهم والمدعوون على أنغام الموسيقى العصرية. الجو مرح. يقدم إلىّ ممثل برنامج الأمم المتحدة الإنمائى U.N.D.P ـ شابةً كونغولية يقول، إرضاءً لغرورى، أنها تحلم بأن تراقصنى»، فأستجيب لرغبتها بكل سرور.

فى الساعة الثانية صباحًا ينهى الرئيس ساسو نغيسو الاحتفالات. وعندما أعود إلى غرفتى فى الفندق تشير الساعة إلى الثالثة صباحًا. لقد كرس هذا اليوم انتصاراً سياسيًا لساسو نغيسو بعد انتصاره العسكرى منذ بضعة أشهر.

سألنى لتوه أحد الصحفيين من مجلة Africa International: «ما هى تعليقاتك حول الغائبين عن الاحتفال؟» كان يشير بالطبع إلى الرئيس باسكال ليسوبا وإلى رئيس الوزراء السابق برنار كوليلا اللذين لم يشاركا فى الحوار «الذى لا يستثنى أحدًا»، الأول بمحض إرادته، والثانى رغمًا عنه. كدت أجيبه «الغائب هو دائمًا على خطأ»، لكن يجب أن يكون المرء إيجابيًا، فأقول:

«ليس هذا الحوار سوى مرحلة أولى، خطوة أولى نحو المصالحة. وفى الوقت المناسب، سيتمكن الغائبون من الدخول فى الحوار...».

المدينة تعيد بناء ذاتها من جديد، معارضو الأمس أصبحوا مؤيدى اليوم الذين جاءوا هذا المساء يعبون الشمبانيا على الطاولة الرئاسية. الكونغو بلد غنى لديه الموارد البترولية، والأراضى الزراعية، وعدد قليل من السكان؛ لدى هذا البلد كل المقومات ليصبح نمر إفريقيا. لكن إضافةً إلى ذلك يجب أن لا ينقطع الحوار وأن تكون النخبة أقل فساداً.

برازافيل، كينشاسا ـ الأحد ١٥ نيسان/إبريل ٢٠٠١

بعد الظهر، نجتاز النهر فى قارب صغير متجهين إلى كينشاسا. لا يستغرق العبور أكثر من بضع دقائق لكن تكلفته باهظة: مائة دولار.

ألغىَ حفل الاستقبال الذى كانت ستنظمه وزارة الخارجية على شرفى، وذلك بسبب تعديل وزارى. فقد أُزيح كل الفريق الذى كان يعمل مع كابيلا الأب واستُبدل بفريق من التكنوقراط الشباب.

أتناول العشاء مع إيدى أومارو. إنها واحدة من أغرب الأمسيات. اليوم هو الأحد وقاعة الطعام فى الفندق مقفلة. لكن ثمة وجبات تُقدم، فى الخارج، فى بهو

صغير حيث تساعد المراوح الاثنتا عشرة على التخفيف من شدة الحرارة. المفاجأة الأولى: لا يقدمون نهار الأحد سوى طبق اللحم المغمس فى الجبن المغلى والتوابل؛ لكن مديرة الفندق تقبل بأن تشذ عن القاعدة لتقدم إلينا طبق اسكالوب مشوى. المفاجأة الثانية: يبث الراديو فى يوم أحد الفصح هذا قداسًا أرثوذكسيًا. المفاجأة الثالثة: فجأةً، تتوقف المراوح عن العمل، فالزبائن يشتكون أن حركتها تتسبب بانطفاء النار التى يغلى عليها الجينى فى المقالى المخصصة لإعداد طبق اليوم. تأخذ الحرارة بالارتفاع على وقع الأناشيد حتى تفوق حد الاحتمال. لا أستطيع حتى اليوم أن أنسى هذا العشاء الفصحى الغريب، فى كينشاسا.

كينشاسا ـ الاثنين ١٦ نيسان/إبريل ٢٠٠١

وزير الخارجية الذى لم يشمله التعديل الوزارى مطمئن ومرتاح بلا شك؛ لأن الرئيس جوزيف كابيلا أبقاه فى منصبه.

يقول لى: «لقد ساءت العلاقات بين راوندا وأوغندا لكن لديهما أهدافًا استراتيجية واحدة. لن يكون هناك حوار داخلى فى الكونغو طالما أن الجيوش الغريبة لا تنسحب من أراضينا. إن مقتل أحد عشر لبنانيا عمل إجرامى وهناك لجنة تحقق فى ذلك وسيعاقب المذنبون. نريد أن نحصل على مزيد من دعم الفرنكفونية. إن المنظمة الدولية للفرنكفونية لم تتبنَ قراراً واحداً يدين التدخل الأجنبى فى بلدنا».

يعلمنى بأن الرئيس بويويا سيلتقى غداً، الثلاثاء، جان بوسكو زعيم المنشقين، فى ليبرفيل. وهو يأمل أن يسهم هذا اللقاء فى تحسين الوضع فى منطقة البحيرات الكبرى. أشير إلى أهمية البدء بحوار مع الجالية الكونغولية فى الخارج وأؤكد على الدور الإيجابى الذى يمكن أن تلعبه. هكذا أكون قد وفيت بالوعد الذى أعطيته لجيرار كامندا وا كامندا عندما التقيته فى باريس.

ينتهى الحديث. علينا أن نتوجه معًا لمقابلة جوزيف كابيلا. نتجاوز عدة صفوف من العسكر قبل أن نصل إلى مكتب الرئيس. إنه شاب يافع. و يبدو حين يبتسم أصغر سنًا مما هو عليه.

خلال الحديث، وإذ أقول زائير مشيراً إلى بلاده، يصحح الرئيس خطئي قائلاً «بل الكونغو، من الآن وصاعداً». يبدو له اتفاق لوساكا ناقصاً لكنه يضيف: «نحن مزمعون على احترامه». يشكرني على أنني وضعت الوزير محمد الحسن ولد لباط تحت تصرف الوسيط، الرئيس مازيري. يُهيىء لي أنه ليس لديه ثقةً كاملة في وساطة الرئيس مازيري، الذي تبقى الكونغو بالنسبة إليه ـ ويجب الاعتراف بذلك ـ بلداً غريباً لا يعرفه أكثر من معرفته لإيسلندا أو بيرو. لكن الخطر الحقيقي حسب اعتقادي لا يكمن في معرفة الرئيس مازيري الناقصة للواقع الكونغولي بقدر ما يكمن في النتائج التي يمكن أن تترتب عن ذلك وفي مقدمتها تدخل وسطاء آخرين. عندها قد يكون هناك خطر إضافة صراع جديد إلى الصراع الداخلي في الكونغو، هو الصراع بين الوسطاء.

يعرض الرئيس لمسألة ترشيحي لولاية ثانية، ويؤكد لي دعمه. يقول لي إيدي أومارو إنه يكفي أن يدعم الكونغو الصغير مرشحاً ما حتى يبادر الكونغو الكبير إلى دعم مرشحٍ آخر.

باريس، الثلاثاء ١٧ نيسان/إبريل ٢٠٠١

يتصل بي نائل الأسعد هاتفياً من لندن. صديقه برنار كوليلا متشبث بموقف انتحاري. يريد بأي ثمن أن يذهب إلى برازافيل، ومهما تكن النتائج المترتبة عن مثل هذا القرار. يرجو مني أن أوافق على إجراء مكالمة هاتفية نكون خلالها نحن الثلاثة على الخط في محاولة لإقناعه بالعزوف عن قراره. بالانتظار، أتصل بميشال دوبوش في قصر الإليزيه، يقول لي:

«النصيحة الوحيدة التي يمكن أن تسديها إليه هي أن يذهب إلى ليبرفيل للقاء الرئيس بونغو الذي قد يقوم بوساطة لصالحه. في كل الأحوال، نحن لا نريده في باريس حيث يمكنه أن يهدد المصالحة التي لا تزال هشةً».

اتصال جديد من نائل الأسعد الذي يصلني مباشرة ببرنار كوليلا، الذي يكلمني من أبيدجان:

«يرفض عمر بونغو استقبالي. ولمعلوماتك إن وزير داخلية الكونغو موجود في أبيدجان في الوقت الحاضر، وأخشى الأسوأ بالنسبة إلى حياتي... في وضع كهذا، أفضل أن أموت في برازافيل».

على مدى عشر دقائق أحاول أن أحمله على الرجوع عن قراره وأن أقنعه بالسفر إلى واشنطن وبالانتظار شهراً أو شهرين ريثما تهدأ العاصفة. أضيف:

«أنت في حالة من العصبية الشديدة. احرصْ على أن لا تتصرف تحت تأثير الانفعال، أيّاً كان القرار الذي تنوي اتخاذَه. إن كنت تحب بلدك عليك في الوقت الحاضر أن تصرف النظر عن العودة إلى برازافيل. فأنت تجازف بأن تهدد بالكامل عملية المصالحة التي كانت كلفتها باهظة.

ـ عليّ مسؤولية أمام شعبي، يجيبني كوليلا وكأنه لا يسمعني.

ـ حضرة السيد رئيس الوزراء، أطلب منك فقط أن ترجيء عودتك إلى برازافيل إلى موعد لاحق».

بعد وقت قليل، يتصل بي نائل الأسعد ليعلمني بأن تدخلي كان له تأثير إيجابي.

باريس ـ الخميس ١٩ نيسان/إبريل ٢٠٠١

يأتي لزيارتي وفد من أربعة جنرالات كونغوليين ممن خدموا سابقًا في جيش موبوتو. بينهم الجنرال باراموتو. كنا قد قمنا معًا بمفاوضات تتعلق بالتعاون العسكري بين مصر وزائير. الأربعة من أصحاب البنيات الجسدية المتينة. قامات كبيرة تكاد تبلغ المترين، أجساد قوية لدرجة أنني شعرت حين دخلوا إلى مكتبي بأنهم يكتسحونه. يقولون لي إنهم علموا بنبأ سفري إلى كنشاسا، وأنهم يمثلون، هم الأربعة، قوة عسكرية من ثمانية آلاف رجل يعيشون في المنفى. «لقد خدمنا الأمة الكونغولية طيلة سنين عديدة ونريد اليوم أن نعود إلى بلدنا، أن نتقاضى معاشاتنا التقاعدية، وأن نكون مفيدين كذلك».

أجيبهم: ـ لِمَ لا تحاولون الانخراط فى أحد التجمعات السياسية الثلاثة؟

فيشرحون لى أن أحد المنتمين إليهم قام بتمثيلهم فى اجتماعات سياسية، لكن الجالية الكونغولية فى الخارج «تناقش وتناقش لكنها لا تفعل».

«إن حظوظكم بالعودة إلى بلادكم تكون أكبر، فى اعتقادى، إن انضويتم تحت لواء حزب سياسى. وعلى العكس من ذلك، ستثير صفتكم العسكرية الحذر والشك».

يبدو أن هذه النصيحة لم تعجبهم لكنهم ينوون استشارة زملائهم والعودة لزيارتى.

فيلنيوس ـ الاثنين ٢٣ نيسان/إبريل ٢٠٠١

أسافر بصحبة كلود بوشيه إلى فيلنيوس فى ليتوانيا، حيث سأشارك فى مؤتمر تنظمه اليونيسكو حول حوار الثقافات.

فيلنيوس مدينة رائعة شهدت مبانيها أعمال ترميم مهمة لكنها لم تفقد شيئًا من طابعها المميز. أرى صفًا من البيوت الصغيرة المؤلفة من طابقين والمطلية بألوان زاهية. الفندق الذى ننزل فيه هو بناء قديم رُمم بعناية. من نافذة غرفتى أستطيع بنظرة عين واحدة أن أرى برج قصر Gedymina ـ وكمّا مدهشًا متموجًا من الأجراس الباروكية الطراز، تبدو كأنها منقوشة على خط الأفق.

يستقبلنا رئيس الجمهورية، فالد أدامكوس، الذى عاش مدة طويلة فى شيكاغو قبل أن يعود إلى بلده لينخرط فى العمل السياسى. لا يخفى دهشته حين أشرح له أن علة وجود الفرنكفونية هى تشجيع التنوع الثقافى، ويعقب: «كنت مقتنعًا بأن رسالة هذه المنظمة هى الدفاع عن سياسة فرنسا الخارجية». بالطبع هو مهتم كثيراً بالبعد الدولى لمنظمتنا. لا أستطيع أن أهرب من أسئلته عن الأحداث المأساوية فى الشرق الأوسط:

ـ كل هذه الصور على الشاشات التلفزيونية فظيعة. إن الشعور بالكراهية

لـدى الأطفـال الفلسطينيـين ولـدى الجنـود الإسـرائيليـين لا يبشـر بالخيـر فى المستقبل.

ـ حضرة الرئيس إن علاقات الكراهية بين الألمان والفرنسيين تركت مكانها للمصالحة والسلام بعد ثلاثة حروب.

لا يبدو أن هذه المقارنة التاريخية تقنعه.

يبدو أن الأمسية ستكون من الأمسيات الأكثر مرحًا. دُعى كل المشاركين فى المؤتمر إلى عشاء فى نزل صغير. ألتقى برئيس أوكرانيا، ليونيد كوتشما، الذى يخصنى بعناق رجولى يرفقه بسؤال يطرحه بالإنجليزية بنبرة مرحة «كيف حالك يا بطرس بطرس؟» ألقى الاستقبال الحار نفسه من قبل الرئيس البولندى، ألكسندر كفازنيفسكى. أجلس بين زوجة رئيس ليتوانيا، وهى سيدة متوسطة العمر على مستوى رفيع من الأناقة، وسفير فرنسا. الأوركسترا وكذلك الويسكى والفودكا تساعد على خلق جو من البهجة العارمة. يبدو المدير العام لليونيسكو كويتشيرو ماتسورا تائهًا بعض الشىء وسط هذا الجمع المرح. يتكلم الرئيس البولونى بصوت رنان يطغى على الألحان الصاخبة التى تعزفها الأوركسترا. يشرب كثيرًا لكنه يأكل قليلاً. يسرُّ لى: «إننى أتبع نظاما غذائيا صارما». نتجاذب أطراف الحديث بينما تفصل بيننا سيدة ليتوانيا الأولى التى اضطرت أن تبقى مسمرة الظهر على مقعدها. يقول لى إنه قرأ كل خطاباتى واستمع إلى كل مداخلاتى على الشاشات التلفزيونية. ويضيف:

«إنك الخادم الدولى الحقيقى للجماعة الدولية».

فيلنيوس ـ الثلاثاء ٢٤ نيسان/إبريل ٢٠٠١

حفل افتتاح مهيب للمؤتمر فى القاعة الكبرى للقصر الجمهورى ذات الجُدر الناصعة البياض التى تزيد من ألق الأرابيسك المذهبة على طراز الباروك.

صادفت، عند وصولى صديقىَّ، محمد سيد أحمد وسيد ياسين، وهما كاتبان

وصحفيان في جريدة الأهرام. نلتقي من جديد خلال مأدبة الغداء الفخمة. بعد أن يعرب لي محمد سيد أحمد عن قلقه بالنسبة إلى بلدنا، يعرفني على وزير الثقافة الإيراني الذي يتكلم العربية بإتقان تام. يخبرني بأن كتابي «طريق القدس» قد ترجم إلى الفارسية وأنه يلقى نجاحًا كبيراً. لا أجرؤ على سؤاله إن كان الناشر الإيراني قد حصل على موافقة مسبقة من ناشري الأمريكي، راندوم هاوس. على كل حال، العلاقات مقطوعة بين طهران وواشنطن.

ـ حضرة الوزير، لقد نشرت بعد هذا الكتاب كتابًا آخر حول السنوات التي قضيتها في الأمم المتحدة.

يسارع إلى تدوين عنوان الكتاب ويعدني بأن يتم ترجمته إلى الفارسية. يتدخل الرئيس البولندي الذي كان يستمع لحديثنا، مازحًا:

ـ عزيزي بطرس، خلال الحديث الذي أدليت به للتو، استعرت من خطابك الجملة التالية «يجب العمل من أجل أن تصبح العولمة ديموقراطية قبل أن تشوه العولمة طبيعة الديمقراطية». آمل أن لا أواجه مشاكل تتعلق بحقوق المؤلف.

ـ حضرة الرئيس، إني أنتمي إلى منطقة من العالم لا تطبق قانون حقوق المؤلف.

باريس ـ الأربعاء ٢٥ نيسان/إبريل ٢٠٠١

اجتماع عمل مع موسى كامارا، وجوزي لويس روشا، وكزافييه ميشال، ورضى بوعبيد، ممثلينا الدائمين في أديس أبابا، وبروكسيل، وجنيف، ونيويورك على التوالي. إنهم السفراء المعتمدون للفرنكفونية لدى المنظمات الدولية المتمركزة في هذه العواصم. يشتكون أن المعلومات التي تأتيهم من باريس تصلهم مع بعض التأخير. يرغبون في حضور اجتماعات المجلس الدائم للفرنكفونية كي يتمكنوا بصورة أفضل من تقديم صورة عن أنشطتنا إلى المنظمات الأخرى. أشجعهم على تطوير العلاقات الثنائية بين المكاتب المختلفة دون المرور بباريس. وهذا مسار ترفضه غالبًا الدبلوماسية الحكومية التي تريد أن تكون وزارة الخارجية مصدراً مركزيًا للمعلومات كافة.

باريس ـ الخميس ٢٦ نيسان/إبريل ٢٠٠١

في أثناء اجتماع المجلس الدائم للفرنكفونية الذى ينعقد اليوم، يود كل من ممثل مصر، وممثل لبنان، أن نتبنى قراراً بشجب الاعتداء الإسرائيلى على لبنان، البلد المضيف للقمة المقبلة. من جهته، يرغب ممثل بوركينا فاسو، بأن نصدر قراراً ندعم بموجبه ترشيح وزير خارجيته السابق أبلاسيه أويدراووغو، لمنصب مدير عام مساعد لمنظمة التجارة العالمية. أما ممثل تونس، فيعرب عن عدد من التحفظات بالنسبة إلى الآلية التى تزمع الفرنكفونية اعتمادها استكمالاً لإعلان باماكو، الذى ينص تحديداً على تدخل الأمين العام فى حال حدوث تعطيل للديمقراطية نتيجة لعمل انقلابى، أو لتعديات جسيمة على حقوق الإنسان. باستثناء هذه المناكفات الصغيرة، جرى الاجتماع بشكل جيد وبعث الارتياح لدى الجميع.

باريس ـ السبت ٢٨ نيسان/إبريل ٢٠٠١

أتابع حتى الثانية بعد منتصف الليل مشاهدة برنامج «٢٤ ساعة فى القاهرة، هذا يعنينى» على شاشة القناة الفضائية الفرنسية TV5.

يتحدث فيها روبير سوليه عن النيل، عن القاهرة الشاعرية، مصدر إلهام الكتاب والشعراء، وكذلك عن القاهرة «ملتقى العشاق».

ألمح يسرى نصرالله، وهو سينمائى لامع، يشرح الخصائص المميزة للقاهرة القديمة. فايزة هيكل، وهى أستاذة فى تاريخ مصر القديمة تتحدث عن التراث الفرعونى. من مزايا هذا البرنامج العديدة أنه أظهر مدى انتماء النخبة المصرية للفرنكفونية.

باريس ـ الثلاثاء ٨ أيار/مايو ٢٠٠١

أتناول العشاء مع كوفى بانو القادم من توغو. نتحدث بالطبع عن الخلاف الذى حدث مؤخراً بين الوسيط الألمانى، بول فون شتولبناغيل، وإيدى أومارو، وسيط الفرنكفونية. نتفق فى الرأى. إن تدخلات فيليب بارديو مساعد الوسيط الفرنسى،

برنار ستازى، تعقد الوساطة أكثر مما تسهلها. يبدو أنه وزع بيانًا صحفيًا دون أن يستشير الوسطاء الثلاثة الآخرين، مما أثار ردة فعل عنيفة لدى إيدى أومارو. نعتقد أنه على الرغم من مساعيٍّ لدى رومانو برودى، لا يزال الاتحاد الأوربى غير مستعد لرفع العقوبات عن توغو. فى هذا الوضع، من الأفضل الاستغناء عن الوسطاء وإجراء انتخابات دون مراقبة الاتحاد الأوربى.

لاهاى ـ السبت ١٢ أيار/مايو ٢٠٠١

مجلس إدارة أكاديمية القانون الدولى. أقوم بمداخلة لشجب التمثيل المتدنى لآسيا فى الدورة المقبلة. فالصين والهند، على وجه الخصوص، بما لديهما من رجال قانون ممتازين يمكنهما إغناء البعد الدولى للأكاديمية. يوافق زملائى الفقهاء على ذلك متذرعين فى الوقت نفسه بصعوبة الاتصال بأولئك المشرعين. إنهم متمسكون بمركزية أوربا، وسيبقون كذلك دائمًا.

باريس ـ الاثنين ١٤ أيار/مايو ٢٠٠١

يزيدنى اقتناعا اجتماع مجلس التعاون الذى انعقد هذا الصباح أن الشلل الذى تعانيه منه الفرنكفونية وأجهزتها العاملة المختلفة يعود إلى تعقيد دورة إعداد البرامج. فالبرامج تعتمد لفترة سنتين، زد على ذلك، تشكّل البرامج التى يرتبط تمويلها بشروط معينة ٧٠٪ من المجموع العام. مما يضيّق هامش التحرك. فيصبح مستحيلاً فى ظروف كهذه الاستجابة بمساعدة دقيقة وفاعلة عند وقوع أزمة، أو دعم مصالحة وطنية أو المساهمة فى حل سلمى لنزاع. هذا يعنى، للأسف، أن الدول الأكثر حاجة لمساعدة سريعة أو لبرنامج تأهيل عليها أن تعزف عن طلب المساعدة. لكن أليست هذه الدول هى التى تستحق أن تكون لها الأولوية فى الاستفادة من هذه البرامج؟

باريس ـ الثلاثاء ١٥ أيار/مايو ٢٠٠١

غداء عمل مع فرانسوا لونكل، رئيس لجنة الشؤون الخارجية فى الجمعية

الوطنية، ومع فرانسوا ليوتار، الوزير السابق للدفاع، نتناقش خلاله في مأساة سبيرنيتسكا. أشرح لهما موقفي بكل وضوح:

١ ـ إن العملية التي نفذتها الأمم المتحدة تمت استناداً إلى الفصل السادس. وهي عملية كانت تهدف إلى حفظ السلام. لكننا لم نكن نمتلك لا الأسلحة ولا القوات التي يمكنها التدخل عسكريًا، كما ينص الفصل السابع.

٢ ـ إن واجبي كان يقضي بحماية القبعات الزرق الذين عهدت إليّ بمسؤوليتهم الدول الأعضاء حين أرسلتهم في مهمة لحفظ السلام، أي كقوة فصل لا يمكنها في حالٍ من الأحوال أن تتدخل عسكريًا لصالح أحد طرفي النزاع.

٣ ـ لم تُحَدد أي منطقة أمنية على الرغم من طلباتي المتكررة التي رفعتها إلى مجلس الأمن.

٤ ـ تملك الدول الأعضاء والولايات المتحدة، على وجه الخصوص، معلومات عما يجري على الجبهة تفوق تلك المتوفرة للأمم المتحدة، لكن هذه الدول تحرص على أن لا تشرك أحداً في الاطلاع على المعلومات التي تملكها.

٥ ـ إن قرار اللجوء إلى القصف الجوي اتخذه بموافقتي مبعوثي الخاص، أكاشي، بعد استشارة العسكريين والدبلوماسيين الذين كانوا يفاوضون في جنيف، وكذلك المسؤولين عن المساعدات الإنسانية.

٦ ـ من السهل انتقاد قصور الأمم المتحدة عندما ننظر إلى الوراء. لكن هذا ليس سببًا لأقلل من حجم مسؤوليتنا في مذبحة سيبرينتسكا.

يطرح فرانسوا لونكل وفرانسوا ليوتار الأسئلة، كمحققين بارعين، لكنهما يتجنبان التعليق.

باريس ـ الأربعاء ١٦ أيار/مايو ٢٠٠١

مقابلة مع سفير ألبانيا في فرنسا، لويان راما. أعلمه بنيتي القيام بزيارة رسمية إلى مقدونيا. يبتهج لهذه المبادرة ويأمل أن أتمكن من توظيف خبرتي الدبلوماسية

لتشجيع المقدونيين على إطلاق مبادرة صلح بين السلافيين والألبانيين المقدونيين الذين يشكلون نسبة تفوق ٣٠٪ من مجموع سكان البلاد. يجب بأى ثمن إرساء التعايش بين هاتين المجموعتين على أسس قانونية.

ألبي دعوة ريمون كريتيان، سفير كندا في باريس، إلى مأدبة غداء يقيمها على شرف ميشال فونا، رئيس بنك إنماء كندا. إنه لأمر غريب، ما أثار اهتمامي يومًا عالم الأعمال والمال. أعرف أنني مخطيء، خصوصًا وقد رأيت طوال حياتي إخوتي وإخوة زوجتي يكسبون المال، يديرون المال، يفكرون بالمال، ويخسرون المال.

بروكسيل ـ الجمعة ١٨ أيار/مايو ٢٠٠١

أجرى حديثًا يذهب في كل الاتجاهات مع بورفيرو مونيوز ليدو، سفير المكسيك الجديد المعتمد لدى الاتحاد الأوربي. نعرف بعضنا منذ مدة طويلة وتجمعنا رغبة مشتركة في إقامة حوار متكافىء بين أغنياء الأرض وفقرائها يرتكز على أسس ثابتة. إنه رجل مربوع القامة، مليء بالأفكار والمشاريع، يحركه طموح كبير. كان أستاذًا في جامعة المكسيك، ثم دبلوماسيًا وسياسيًا ومرشحًا خاسرًا لرئاسة الجمهورية. هو اليوم صديق وحليف للرئيس الجديد في المكسيك، فينسنت فوكس، الذي وضع نهاية لقرن كامل من سيطرة الحزب الثوري المؤسس.

نحن متفقان على ضرورة ابتكار جدلية جديدة تعيد التوازن إلى نظام إدارة الكرة الأرضية. لقد انتهت الجدلية القديمة بين معسكر شرقي ومعسكر غربي، بعد الانتصار الذي حققته الولايات المتحدة مع حلف الأطلسي ضد الاتحاد السوفيتي. كذلك فإن نهاية نظام الاستعمار ونظام الفصل العنصري قد أفرغت جدلية الشمال ـ الجنوب من مضمونها. أمام غياب الجدلية القائمة على الإيديولوجية، تنشأ اليوم جدلية ثقافية، وذلك لأن الثقافة تشكل بالنسبة إلى الدولة ـ الأمة حصنًا أخيرًا يصمد أمام العولمة، ووسيلةً للحفاظ على الهويات الثقافية. «من هذا المنظور بالضبط، «ترى الفرنكفونية دورها» أقول موضحًا. من جهته، مونيوز ليدو يشجع ظهور محور لاتيني ـ أوربي. يجب أن يضاهي عدد الطلاب القادمين من أمريكا

الجنوبيـة إلى أوربا عـددهم فى الولايات المتـحدة الأمـريكيـة. إن سيـاسة المكسيك الخارجية، على الرغم من علاقة التبعية مع الولايات المتحدة، أو بالأحرى بسبب تلك العلاقة، تسعى إلى إعادة التوازن، عن طريق التقارب مع البرازيل.

يلفت انتباهى مونيوز ساندوز إلى أن حديثنا يدور باللغة الفرنسية. يقول: «كان يمكننا أن نتحدث بالإنجليزية لكننا بعفوية اخترنا الفرنسية. فهى لغة عالمية ستساعدنا على إنقاذ التنوع الثقافى».

بروكسيل ـ السبت ١٩ أيار/مايو ٢٠٠١

اجتماع مع وزراء المال ومع السفراء الفرنكفونيين للبلاد الأقل نموا، تحضيراً للمؤتمر الثالث للأمم المتحدة الذى سيبدأ غداً.

موضة التورية لم تفلت المنظمات الدولية من النزوع نحو استخدام التورية. من المؤكد طبعًا أن عبارة «البلدان الأقل نموا» أقل فجاجةً وأقل إيذاءً من عبارة «الدول الأكثر فقراً فى الأرض». أشرح باقتضاب طبيعة مشاركتنا فى المؤتمر، لكن النقاش لا يستطيع أن ينطلق.

عند عودتى إلى الفندق، أضع مع آنى، مساعدتى الموهوبة، اللمسة الأخيرة على الخطاب الذى سألقيه غداً. وهو خطاب ينحو منحى المساءلة: فى نهاية المطاف، هذا المؤتمر هو الثالث الذى تخصصه الأمم المتحدة للبلدان الأقل نموا فى العالم. هل سيكون مجرد معرض للأوهام؟ مع ذلك، إنى أفضل هذه الاجتماعات الاحتفالية الكبرى على اللامبالاة وعدم الالتزام الذى تبديه الدول الغنية.

إنه خطاب يهدف كذلك إلى التذكير بحقائق لم يعد يمكن لأحد تجاهلها؛ لأنه إذا كان العالم قد أصبح قرية كونية حيث تنتقل الأموال والأفكار والمعلومات بحرية، فبالمقابل، لم يعد باستطاعة أولئك الذين يمتلكون المعلومات، بل المتخمين بها حتى السأم، أن يكتفوا بمشاهدة مأساة مئات الملايين الآخرين الذين يواجهون كل يومٍ تحديًا كبيراً هو الحفاظ على حقهم فى الحياة.

إنه خطاب لإطلاق دعوة إلى أن ننظر نظرة واعية إلى العولمة التى تسهم فى تعميق عدم المساواة، وإلى ضرورة تحرير البلدان الأقل نموا من عبء الديون، وإلى ضرورة إطلاق جدى لبرنامج المساعدة على التنمية الذى يتراجع باستمرار، وإلى ضرورة الاستجابة إلى الإصلاحات التى تقوم بها البلدان الأكثر فقراً بتوظيف الأموال لتنفيذ المشاريع وبفتح الأسواق أمام منتوجاتها، إلى ضرورة إطلاق ورشة كبرى فى مجال التربية والتأهيل، إلى ضرورة توسيع انتشار التقنيات الحديثة التى تفتح الطريق لتنمية لا تعير أهمية للحدود، إلى ضرورة مكافحة الأضرار التى يتسبب بها انتشار مرض الإيدز ومرض السل بين الشعوب التى نطلب منها فى الوقت نفسه أن تكون منتجة.

بروكسيل ـ الأحد ٢٠ أيار/مايو ٢٠٠١

نعيش منذ بضع ساعات حالة من البلبلة الدبلوماسية. ترفض سفيرة السويد التى ترجع إليها إدارة أعمال المؤتمر بحكم أن بلدها يترأس الاتحاد الأوربى، أن أشارك فى الجلسة الختامية. بالطبع ليس شخصى هو موضوع هذا الرفض بل المنظمة التى أمثلها. وهى تدافع عن موقفها بحجج عديدة: أولاً، لم يعلمها رونبس ديكوبيرو بمشاركتى فى الجلسة الختامية. ثانيًا لماذا تُعطى فرصة الكلام للفرنكفونية ولا تُعطى للكومنولث؟ مع ذلك، تقول موضحةً، نحن نكن احترامًا كبيراً للرئيس السابق للأمم المتحدة...

يتولى كلود بوشيه مهمة القيام بالمفاوضات: أرفض المشاركة فى هذه الجلسة إذا لم أكن متأكدًا من أن مقعدى سيكون على المنصة ومن أننى سألقى كلمة. تتالى العروض والعروض المضادة من أجل التوصل إلى تسوية. تقبل السيدة السويدية أن تعطينى الكلام بشرطين: أن لا أُقدَّم بصفة الأمين العام للمنظمة الدولية للفرنكفونية، بل كأمين عام سابق للأمم المتحدة، وأن لا يتضمن خطابى أية إشارة إلى الفرنكفونية. ثم تُعرض علىّ بعد ساعات قليلة تسوية جديدة: لن يُذكر أى من ألقابى. التسوية الأخيرة: ستوضع منصتان. يجلس على الأولى روبنس ريكوبيرو، والسفيرة السويدية، وأحد وزراء بلدها الذى قدم من استوكهولم خصيصًا للمناسبة. وأجلس

أنا على المنصة الثانية، فى مستوى أدنى، إلى جانب ممثلى الاتحاد الأوربى، وبلجيكا، والمؤسسات غير الحكومية، وأكون أول المتكلمين. لا وجود فى هذا الاتفاق لأى رقابة رسمية على كلمة «فرنكفونية»، لكن السفيرة أخذت من كلود بوشيه وعداً بأن يبقى خطابى على مستوى العموميات.

تبدأ الجلسة الختامية. يقدم المقررون خلاصاتهم، تقر خطة العمل وكذلك الإعلان، ثم أُعطى الكلام من دون أن يُذكر لقبى الحالى. أبدأ بالطبع بالإشارة إلى المنظمة الدولية للفرنكفونية فأقول: «ليس فى نيتى أبداً استخلاص العبر من هذا المؤتمر. لكننى أسعى لأن أشرككم فى نظرتى إلى الواقع من حولنا، خارج حدود هذه القاعة. إنها فى الوقت نفسه نظرة الإفريقى والأستاذ الجامعى، والدبلوماسى الذى نذر حياته للجنوب، ونظرة الأمين العام لمنظمة ـ المنظمة الدولية للفرنكفونية ـ التى يبلغ عدد أعضائها خمساً وخمسين دولةً وحكومةً منهم أربعة وعشرون بلداً من البلدان الأقل نموا... ».

من المكان الذى أنا موجود فيه، لا أستطيع أن أرى السفيرة السويدية. لكن سيخبرنى مستشارىّ فيما بعد بأنها كانت شديدة العصبية خلال إلقائى كلمتى، وأنها لم تستطع أن تخفى ردة فعلها الغاضبة حين لفظت كلمة «فرنكفونية».

أقاطع بالتصفيق مرات عدة، وعلى الأخص، حين أقول أمام الملأ: «ليكن لدينا الوعى الكافى لنعترف بأن إفريقيا أصبحت تنظر إلى نفسها بواقعية أكبر يوماً بعد يوم، وأنها أصبحت أكثر تشددا مع نفسها، وأن ما تطمح فيه لنفسها أكبر فأكبر، وأن إفريقيا تعرف نفسها أكثر مما يمكن لأى كان أن يعرفها. لنعترف أن الأفارقة هم الذين رفعوا الصوت بقوة ليشجبوا الفساد الذى عليهم التصدى له، وكذلك غياب الحريات والديمقراطية. إن هذا النقد الذاتى الذى لا تساهل فيه يفرض علينا اليوم أكثر من أى وقت مضى مساعدة هذه البلدان وهى تسير على درب طويل وشاق، درب دولة القانون وحقوق الإنسان والسلام».

فى المقابل، يخبرنى مستشارىّ بأن ممثل الولايات المتحدة لم يستطع، بدوره، أن يخفى علامة الاستياء على وجهه عندما تابعت بهذه العبارات:

«ليكن لدينا الوعى الكافى لكى نعترف بأن العولمة لا يجب أن تعنى تعميم النموذج الحضارى الغربى.

ليكن لدينا الوعى الكافى لنعترف بأن التقدم، والتنمية ليس أن نلهث وراء نموذج يأتى من الخارج أو يفرضه الآخرون.

ليكن لدينا الوعى الكافى كى نعترف بأن التقدم والتنمية ليس أن نصبح ما لسنا نحن عليه متنكرين لهويتنا الحقيقية».

أستمع لمداخلات الخطباء الآخرين ثم إلى كلمة صديقى روبنس ريكوبيرو، وأغادر القاعة فى الوقت الذى كان رئيس الجلسة، الوزير السويدى يستعد ليأخذ الكلام. فأنا لا أريد أن يفوتنى القطار إلى باريس...

أعتقد أنه علىّ القيام بجولة فى الدول الاسكندنافية لأشرح لهم ما هى الفرنكفونية، وما الذى تريد أن تفعله، وما الذى تستطيع أن تفعله، ولأقنعهم خاصةً بأن الروابط اللغوية، والثقافية، والقانونية التى تجمع الدول الأعضاء فى المنظمة الفرنكفونية تشكل عنصراً إضافياً فى خدمة التعاون والتنمية. وأعتقد أن لى الحق كمناضل عنيد من أجل التحرر من الاستعمار، فى أن أقول إن الاستعمار الجديد الذى يمارسه الاتحاد الأوربى وكذلك المؤسسات الاقتصادية العالمية هو أخطر بالنسبة إلى البلاد الأقل نموا ولإفريقيا، من الاستعمار الذى كانت تمارسه كل من فرنسا وبلجيكا وإنجلترا والبرتغال وإسبانيا وإيطاليا، كدول مستعمرة. وذلك لأن هذه الدول، على الرغم من الأفعال التى تستحق الشجب التى اقترفتها، كانت فى نهاية المطاف، أكثر قدرةً على فهم مشاكل إفريقيا الحقيقية من التكنوقراط الذين يعملون فى المنظمات الدولية، الحكومية وغير الحكومية. إن الدول التى لم يكن لديها إمبراطوريات استعمارية تعتبر نفسها، لهذا السبب بالذات، متمتعةً بكل الصفات وبحق الأفضلية، لمراقبة وتقرير برامج المساعدات لدول العالم الثالث، بينما هى تتصرف غالبًا بكبرياء وتعنت المهتدين الجدد. ومع ذلك، أعترف، عن طيب خاطر، بحسن نية هذه الدول وبالتزامها تجاه الدول الأقل نموا وتجاه إفريقيا.

باريس ـ الثلاثاء ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠١

حفل استقبال فى صالون مجلس الشيوخ بمناسبة صدور كتاب أحمد يوسف الأخير، تحت عنوان «كوكتو المصرى». مقدمة رائعة بقلم جان لاكوتور الذى يعرف بلادى جيداً والذى كان عنوان أحد كتبه الأولى: «مصر تتحرك».

إن مغامرة جان كوكتو المصرية مزيج ناجح حيث يتداخل الشرق الخيالى الأبدى والأفكار السائدة فى أوربا خلال فترة ما بين الحربين ـ «حشيش ـ بقشيش» ـ، مع الرؤيا الميتافيزيقية لمصر القديمة. لكن ما لفت انتباهى خصوصاً هو التنويه بتلك العلاقة المشبوهة بين جان كوكتو والأمير وحيد الدين. لقد عرفت وحيد الدين جيداً، فوالدته، الأميرة شويكار، كانت صديقة حميمة لوالدتى. كانت مصادقته موضع اعتزاز، ذلك أنه كان يمثل نوعاً من «المرجعية»، وكان مدعاة فخر لمن يقول: «الأمير وحيد الدين سيكون الليلة من بين ضيوفنا». لقد عاش سقوط الملكية فى مصر محافظاً على عزة نفسه على الرغم من الإذلال الذى عاناه على يد الفئة العسكرية الحاكمة خلال الفترة الناصرية.

تجربة ناجحة لأحمد يوسف، الذى يضع بين أيدينا هذا المؤلف المكتوب بلغة فرنسية شاعرية. هو اليوم من أكثر المتحمسين للدفاع عن الفرنكفونية المصرية، بينما كان يكاد لا يتكلم الفرنسية، حين جاء إلى باريس منذ حوالى عشر سنوات.

سكوبيا ـ الخميس ٢٤ أيار/مايو ٢٠٠١

زيارة رسمية لمقدونيا. نصل إلى سكوبيا، بعد توقف قصير فى زوريخ، أنا، وكلود بوشيه، وضابط أمن. يستقبلنا سفير مقدونيا فى باريس، جوردان بليفن، وهو كاتب بوهيمى الطلة، منفوش الشعر.

يقول: «إن الوضع خطير جداً. فبلادنا تجتاز أزمةً تهدد مستقبلها. بالأمس توصل الزعيمان الألبانيان اللذان يشاركان فى الحكومة الائتلافية، إلى اتفاق مع قادة المنشقين فى جيش تحرير كوسوفو UCK الذين يسيطرون على شمال البلاد. إن هذا الاتفاق الذى كان من المفروض أن يكون سرياً هو اليوم علنى. وقد رفضته دول

حلف الأطلسى، والولايات المتحدة، والاتحاد الأوربى. والأسوأ أن راعى هذا الاتفاق هو عميل مخابرات أمريكى، روبير فرونيك ... ومن المرجح أنه منافس لـ هولبرووك ... ».

أسأله من هو قائد الجيش الألبانى؟ يجيب: « إنهم كثر، لكن على أحمدى هو الأكثر شهرة».

إن توتر محدثى يتناقض مع هدوء المنظر الريفى حيث ترسم الهضاب على الأفق خطًا مريحًا للنظر. لا شىء ينبىء أن البلاد تكاد تشتعل.

استراحة فى الفندق لمدة عشر دقائق فقط قبل أن نبدأ جولتنا الدبلوماسية. زيارتنا الأولى لوزيرة الخارجية؛ هى امرأة شابة جميلة جداً وأستاذة للأدب الفرنسى فى جامعة سكوبييه. بدا عليها الانفعال الشديد وخانتها الكلمات حين أتت على ذكر العضوين «الخائنين» فى الحكومة. بالنسبة إلى ملف الفرنكفونية أكدت على أن منظمتنا تحظى بالاهتمام الكامل فى بلدها. «فللفرنكفونية تاريخ عريق فى مقدونيا، وقد كان كل قادة الحركة القومية، فى نهاية القرن التاسع عشر، من المثقفين الناطقين باللغة الفرنسية، والذين تغذوا بمبادىء الثورة الفرنسية، وحصلوا على دعم مباشر من فرنسا ... ».

بعد ذلك، يستقبلنا رئيس الجمهورية، بوريس ترايكوفسكى. أفاجأ حين أعرف أنه قس بروتستانتى بينما الأكثرية الساحقة من المواطنين هم من الأرثوذكس. أتعرف إلى رجل شاب، طويل القامة، تتدلى على جبينه غرة شقراء. يحدثنى بالإنجليزية مذكراً بأننا التقينا سنة ١٩٩٢ فى معهد كارتر فى أطلنطا. يبدو عليه التعب الشديد. يوشوشنى السفير: «إنه لم ينم منذ أربع وعشرين ساعة. فقد كان للضربة التى وجهها المنشقون ولخيانة اثنين من وزرائه وقع سيئ جداً فى نفسه. هو رجل سلام أصيل ... ».

يشكرنى الرئيس بحرارة قائلاً: «إن وجودك فى سكوبيا يعطينا دعمًا معنويًا وسياسيًا كبيراً. فأنا أتردد فى استعمال القوة المسلحة لتحرير القرى التى يسيطر عليها المنشقون. ولا يزال لدىّ الأمل فى التوصل إلى حل لهذه الأزمة عن طريق

الحوار والتفاوض. لكن ذلك سيكون شاقًا بسبب أن اثنين من وزرائنا قد وقّعا اتفاقًا مع المنشقين، وأن الرأى العام، خصوصًا، يضغط مطالبًا بعملية عسكرية لطرد المنشقين».

إنها الرابعة بعد الظهر، وهو وقت ملائم لأخذ قسط من الراحة. غير أننا نبَلَّغ أن جيورجى إفراموف، رئيس أكاديمية العلوم والفنون حيث سينعقد غداً مؤتمر «دول البلقان فى الألفية الثالثة» والذى سأشارك فيه، ينتظرنا على الغداء. إلى مائدة الغذاء كذلك عضوان من الأكاديمية. يدور بيننا نقاش مفيد جدًا يساعد على فهمٍ أكبر للمخاوف العميقة فى هذا البلد.

هناك أولاً خطر المنشقين الألبان من جيش تحرير كوسوفو UCK الذين يشجعهم الأمريكيون على محاربة سلوبودان ميلوسوفيتش والذين انقلبوا على أسيادهم، تمامًا كصنيعة فرانكشتين. وما يثير المخاوف أيضًا هو أن كوسوفو بعد أن سقط فى يد المافيا الألبانية، أصبح مركز الانطلاق لأعمال تهريب المخدرات وللدعارة. لكن ما يبعث القلق هو خاصة مشروع ألبانيا الكبرى التى تضم إضافة إلى ألبانيا، كوسوفو، وقسمًا من مقدونيا. وهو مشروع ظهر فى ظل الاحتلال الألمانى بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥. ذلك أنه إذا تحققت الوحدة مع ألبانيا وكوسوفو، فإن المقدونيين السلاف الذين يشكّلون حاليًا ٨٠٪ من عدد السكان، سيصبحون أقليةً.

لا أستطيع الامتناع عن إقامة المقارنة مع الأكثرية اليونانية الأرثوذكسية فى قبرص والأقلية التركية المسلمة. لكن لا أذكر شيئًا من هذا القبيل أمام مضيفى؛ لأننى أعرف أن الدول تنزعج فى غالب الأحيان من المقارنات، وتفضل التمسك بالاعتقاد أن مشاكلها فريدة من نوعها وأنها خاصة بها.

بعد نهاية هذا الغداء المتأخر، أقوم بزيارة إلى الرئيس السابق للجمهورية، كيرو غليغوروف الذى انتهى مؤخراً من كتابة سيِّرته الذاتية. يقول لى: «أستشهد بك عدة مرات فى هذا المؤلف». فهو يعود إلى لقاءات كثيرة جمعت بيننا حين كنت أسعى إلى جانب سايروس فانس لحل النزاع بين مقدونيا واليونان. كان رئيس الوزراء اليونانى، قسطنطين ميتسوتاكيس، يتصل بى فى نيويورك بشكل منتظم.

كان يقـول لى : «لا أملك فى البرلمان إلا صوتًا مرجِّحًا، وإذا لم يتم التوصل بسرعة إلى تسوية لمشكلة مقدونيا فإن حكومتى ستسقط».

أقصُّ عليه كذلك الزيارة السرية التى قام بها إلىّ، ملك اليونان، فى مقر إقامتى فى نيويورك. قال لى يومها بصوت يخنقه الانفعال والغضب: «لقد انتهكوا حرمة علم العائلة المالكة، علم الإسكندر الكبير». وقد كان اليونانيون الذين فرضوا حصاراً اقتصاديًا على مقدونيا يلّحون على هذا البلد لكى يغير اسمه ويغير علمه ويغير دستوره وذلك لأن هذه العناصر كانت تحمل على الاعتقاد بأن للمقدونيين مطالب على الأراضى اليونانية.

يقدم إلى كيرو غليغوروف عرضًا دقيقًا للمطالب الألبانية: «إنهم يريدون أن يجعلوا من مقدونيا دولة ألبانية-مقدونية، تتألف من شعبين مختلفين، السلاف المقدونيون، والألبان المقدونيون. السلاف الألبان يطالبون بحق الفيتو وباستقلالية الأراضى التى يسيطرون عليها. وإذا لجأنا إلى القوة، فإننا نخاطر باندلاع حرب أهلية تتسبب فى مجازر لكلا الطرفين. لقد تأخرت الحكومة بالمبادرة. كان يجب عليها اللجوء إلى القوة العسكرية منذ البداية، منذ أن سيطر المنشقون على أول قرية».

نزهة ليلية فى المدينة القديمة على الرغم من اعتراض حراسى الشخصيين. دليلنا السياحى، السفير جوردان بايفنس كان يستخرج من كل مبنى أثرى، من كل حجر، قطعة من تاريخ مقدونيا التى طالما كانت خاضعة للبلدان المجاورة».

سكوبيا ـ الجمعة ٢٥ أيار/مايو ٢٠٠١

افتتاح أعمال المؤتمر المخصص لدول البلقان. يلقى البروفسور جيورجى إفراموف كلمة ترحيب ثم يترك الكلام للرئيس بوريس ترايكوفسكى الذى يلقى خطابًا باللغة الإنجليزية. بدورى ألقى كلمةً أُذَكِّر فيها بالمكانة المتزايدة الأهمية التى تحتلها دول أوربا الوسطى والشرقية فى منظمتنا مما يفتح مجالاً جديداً للتعاون بين الشرق والغرب. يبدأ البروفسور إيف بيرى كلمته متحدثًا باللغة الفرنسية ثم يختار

أن يكمل بالإنجليزية. من المؤكد أن الخيانة لا تأتى إلا من المقرَّبين. فى المستقبل القريب سيكون الفرنسيون أكثر المتحمسين للدفاع عن اللغة الإنجليزية كلغة تواصل دولية ...

تُرفع أعمال المؤتمر. صديقنا السفير يستعيد عصا الدليل السياحى ليقودنا إلى كنيسة المُخلِّص التى بنيت فى مستوى أدنى من جامع مصطفى باشا كى لا ينافس جمال قبة جرسها روعة وفخامة مئذنته. لكن تواضعها ليس إلا ظاهريًا. تسحرنا روعة الأيقونات والمنحوتات الخشبية التى تزيّن داخل الكنيسة. فى البهو الملاصق، ضريح أب التحرير فى مقدونيا، غوس دلسيف. كان يجب انتظار عام ١٩٤٦ حتى ينقل جثمانه الذى بقى حتى ذلك التاريخ فى بلغاريا، إلى أرض الوطن. تأخذ السفير الحماسة وهو يروى تاريخ الحركة القومية المقدونية. مما يذكرنى بحدة القومية القبرصية اليونانية المهددة من الأتراك، وبحدة القومية الجيورجية المهددة من الأبخاز، وبحدة القومية الأرمنية المهددة من الأذربيجانيين. الهواجس نفسها: الحفاظ على استقلالية الكنيسة، وعلى اللغة القومية، والحنين إلى ماضٍ مجيد ولكنه بعيد.

بينما نحن نتناول طعام الغداء فى السفارة الفرنسية، يصلنا خبر مفاده أن الجيش المقدونى يقصف القرى التى يسيطر عليها الثوار. كان السفير الفرنسى جان-فرانسوا تيرال قد اقترح على السلطات المقدونية إرسال ممثلين للصليب الأحمر إلى هذه القرى تفاديًا لكل تجاوز.

لو بقى الاتفاق بين الوزيرين الألبانيين والمنشقين سريّا لكان من الممكن ربما تفادى الوصول إلى هذه الحال. كان من الممكن أن ينسحب الثوار بعد انتدابهم الوزيرين للبدء فى مفاوضات تفضى إلى تحقيق مطالبهم. من الواضح الآن أن الحكومة ستفرض على الوزيرين أن يلغيا هذا الاتفاق، ومن المحتمل أنهما سيرفضان ذلك. يجب أن نأمل فى أن يكون المبعوث الخاص للاتحاد الأوربى قادرًا على إيجاد حل سريع لهذه الأزمة.

روما ـ الاثنين ٢٨ أيار/مايو ٢٠٠١

استكمالاً لمؤتمر ٢٠ مارس الماضى، أعقد اجتماع عمل مع الأمين العام للاتحاد اللاتينى، السفير برناردينو أوزيو، ومع الأمينة التنفيذية لمجموعة البلدان الناطقة باللغة البرتغالية، دولشى ماريا بيريرا، ومع مدير منظمة الدول الإيبيرية ـ الأمريكية، فرانشيسكو خوسى بينون، فى مقر معهد دانتى أليغيرى، وهو معهد مهمته العمل على نشر الثقافة الإيطالية عبر العالم.

لم تؤخذ أية احتياطات لتأمين الترجمة. كأنه برج بابل. فالسيدة الرائعة دولشيه ماريا بيريرا تتكلم بلغة فرنسية غير مفهومة، وفرانشيسكو بينون لا يتكلم إلا الإسبانية، أما أنا فلا أفهم الإسبانية ولا الإيطالية ولا البرتغالية. لكن الإرادة الطيبة تنتصر، ونتوصل فى النهاية إلى الاتفاق على إنشاء موقع مشترك على الإنترنت وعلى عقد اجتماع ثان خلال قمة مدريد، فى نهاية ٢٠٠٢.

(بعد الظهر ...).

نحتفل بيوم اللاتينية فى إحدى قاعات قصر الكيرينال بحضور رئيس جمهورية إيطاليا الحالى، كارلو أزيغليو، ورئيس الجمهورية السابق، أوسكار لويدجى سكالفارو. ألقى كلمة بالفرنسية حرص الاتحاد اللاتينى على ترجمتها إلى الإيطالية وتوزيعها فى القاعة.

أفصح عن أملى فى أن تلتقى الدول اللاتينية ـ التى تنطق بالإيطالية أو الإسبانية أو البرتغالية، أو الفرنسية ـ حول قيم جمالية وأخلاقية واحدة، وإيمان مشترك بالإنسان، ذلك أن أية ثقافة حتى ولو كانت غنية لا تموت إلا بسبب ضعفها الذاتى.

وأختم قائلاً:

«لنجد ما يوحدنا، ولنتمتع بما يميزنا، ولنتجنب ما يفرّقنا، لأننا معًا جميعًا نستطيع أن نشكّل ثقلاً فى الميزان. بتوحيد قوانا نستطيع الإسهام فى إرساء قواعد الحوار بين جنوب المتوسط وشماله، نستطيع الإسهام فى تقريب المسافات بين الشعوب فى الشرق والغرب، وفى جنوب الأطلسى؛ نستطيع الإسهام فى تأسيس

عالم متعدد الأقطاب، يحترم الدول الأكثر ضعفًا ويكفل لها المساعدة ويحترم التعددية الثقافية، ويتمسك بالديمقراطية فى إدارة العلاقات الدولية».

فى نهاية الاحتفال يعترف لى رئيس الجمهورية بأنه يشاركنى تمامًا الأفكار التى دافعت عنها للتو.

إنها المرة الأولى التى تحتفل فيها روما بيوم اللاتينية، والمرة الأولى التى تصغى فيها إلى صوت الفرنكفونية.

باريس ـ الأربعاء ٣٠ أيار/مايو ٢٠٠١

أترأس اجتماعًا فى مبنى المجلس الأعلى للفرنكفونية القائم فى ٣٥ شارع سان ـ دومينيك. يسجل البروفسور جان إيف موران بعناية مختلف الاقتراحات التى سنقدمها بعد الظهر إلى الرئيس شيراك، الذى يرأس المجلس الأعلى.

يسعفنى ستيليو فارانجى فى توليه مهمة إعطاء الكلام للأعضاء الذين لا أعرف أسماء معظمهم. إن تشجيع التنوع الثقافى ـ وهو محور اجتماعنا ـ موضوع يصعب الاحاطة به، تمامًا كدور المجلس الأعلى. لقد أنشأ فرانسوا ميتيران منذ ما يزيد على عشرين عامًا هذه المؤسسة الفرنسية التى تضم أساتذة جامعيين وكتابًا وسينمائيين ومثقفين ينتمون إلى مختلف البلدان الفرنكفونية. وهى منذ ذلك الحين تثابر على إبراز عظمة الثقافة الفرنسية أكثر مما هى تحتفى بالثقافة الفرنكفونية، وذلك من خلال المؤتمرات، والدورات السنوية، التى لا تكاد تنعقد حتى تسقط فى النسيان، ومن خلال المطبوعات المهمة وإن كانت لا توزع بصورة جيدة.

إن فرنسا ـ رئاسة وحكومة ـ قد قررت أن تُلحق المجلس الأعلى بالمنظمة الدولية للفرنكفونية. والواقع أن الوكالة الحكومية للفرنكفونية والمجلس الأعلى يعملان بالطريقة نفسها : تنظيم اجتماعات، ومحاضرات ومؤتمرات تُنشر أعمالها؛ لكن على الأرض، لا يحدث إلا القليل؛ نظرًا لتواضع الإمكانيات المادية المتوفرة. إلا إذا اعتبرنا أن تنظيم تلك النشاطات فى هذا البلد أو ذاك من البلدان الفرنكفونية هو بمثابة عمل على أرض الواقع.

على الرغم من ذلك فقد كانت نقاشاتنا هذا الصباح بنّاءة جدًا. لكن يبقى أن تتوفر الإمكانيات المادية والسلطة السياسية كي تُترجَم الأفكار المطروحة إلى أفعال.

بعد الظهر، يجمع الرئيس شيراك أعضاء المجلس الأعلى فى الإليزيه. يعلن رسميًا مشروع إلحاق هذه المؤسسة بالمنظمة الدولية للفرنكفونية، وفى الوقت نفسه، تعيين أعضاء جدد فيها بعد أن انتهت ولاية الأعضاء القدامى بمرور خمس سنوات على تعيينهم. فهو يترأس إذن هذا الاجتماع للمرة الأخيرة.

عند انتهاء الجلسة، ألتقى مع الرئيس شيراك فى مكتبه على انفراد. يلومنى على أننى صرحت أن فرنسا لا تدعم ترشيحى لولاية ثانية. أوضح له أن هذه الإشاعات مصدرها الوزارة الاشتراكية. لكن جاك شيراك يبدو حاسمًا، ويقول:

«أنا المسؤول عن اختيار الأمين العام للفرنكفونية، وليس قصر ماتينيون. وأُصِرُّ على أن أؤكد لك أن فرنسا تدعمك. مع ذلك، إذا تقدم عبده ضيوف بترشيح وحصل على تأييد الرئيس أبدولاى واد، فينبغى عندئذ أن ندرس الوضع معًا».

أبلغه الرسالة التى حمّلنى إياها رئيس جمهورية مقدونيا، والتى يعرب فيها عن رغبته فى أن يقوم جاك شيراك بزيارة رسمية إلى سكوبيا لمدة يوم واحد. يستمع إلىّ الرئيس شيراك لكنه لا يدلى بأى تعليق. ينهى المحادثة بالقول: «امضِ فى حملتك الانتخابية وأعلمْنى بالمستجدات».

باريس - الخميس ٣١ أيار/مايو ٢٠٠١

عبثًا أحاول الاتصال بسفير مقدونيا لأعلمه بأننى بلّغت الرسالة للرئيس شيراك.

يبدو أن الوضع يسوء فى سكوبيا. فالمواجهات مستمرة فى شمال مقدونيا، ولن يكون من السهل طرد المنشقين الذين يستطيعون اللجوء إلى كوسوفو فى أى وقت. اقترح الرئيس بوريس ترايكوفسكى إصدار عفو شامل عن أعضاء جيش تحرير كوسوفو لكن الاقتراح قُوبل بالرفض. مما لا شك فيه أن مشاركة جيش تحرير كوسوفو فى المفاوضات حول مستقبل الألبان المقدونيين ستساعد على حل الأزمة.

لكن وكما تأكد لى بوضوح، ليس لدى الرئيس المقدونى أو لدى وزير خارجيته أية نية فى التفاوض مع إرهابيين. فى المقابل، هما مستعدان لإطلاق الحوار من جديد داخل المؤسسات الديمقراطية بين الإثنيات المختلفة. الواقع أن الألبان يريدون المساواة أمام القانون مع المقدونيين، ويريدون كذلك الاعتراف باللغة الألبانية لغة رسمية ثانية للبلاد. من المؤكد أن أوجه الشبه كثيرة مع الصراع القائم بين القبارصة اليونان والقبارصة الأتراك. مع فارق وحيد هو أن القبارصة الأتراك يمكنهم الاعتماد على مساندة دولة كبيرة ـ تركيا ـ بينما الألبان المقدونيون لا يمكنهم الاعتماد إلا على مجموعة من الإرهابيين ـ جيش تحرير كوسوفو.

باريس ـ الجمعة ١ حزيران/يونيو ٢٠٠١

ألتقى الجنرال عبيد الذى قاد الحركة الانفصالية فى جزيرة أنجوان. إنه شخص بدين ذو لحية بيضاء ووجه مستدير. لم يبتسم ولو مرةً واحدة على مدى الساعة التى استغرقتها المحادثة بيننا. يرافقه اثنان من معاونيه، برهام عبدالله و سام جعفر. يتحدث بلغة فرنسية ممتازة. يقول:

«ينص اتفاق موهيلى للتعاون على مستوى الكوادر الذى وُقِّع فى ١٧ فبراير ٢٠٠١ على إعطاء مساعدة خاصة لجزيرة أنجوان، المعزولة اقتصاديًا. لكن من الواضح أن لا شيء قد تمَّ من هذا القبيل. فموظفو أنجوان لم يقبضوا رواتبهم منذ ثلاثة عشر شهرًا».

أذكِّرُه بأننى عيّنت ممثلاً خاصًا للمنظمة الدولية للفرنكفونية، الجنرال شارل رابيمننجرا، وقد كُلِّف باستشارة السلطات فى أنجوان كى يتمَّ تحديد الصيغ التى ستأخذها المساعدة التى سنمنحها. أشير بالمناسبة إلى مساوىء الانتماء القومى الضيق. فيقاطعنى أحد معاونيه الشباب قائلاً:

«إن ما حدث فى أنجوان ليس سببه الانتماء القومى الضيق، إنه خلاف عائلى».

أحرص على ألاّ أعارضه وأنهى المحادثة بكلمات تشجيع أوجهها إلى الكولونيل عبيد:

«اصمدْ. انسَ الماضى واحترسْ من انتكاسة يمكن أن تنجم عن توقف عملية السلام».

باريس ـ السبت ٢ حزيران/يونيو ٢٠٠١

أقرأ فى جريدة إنترناشونال هيرالد تريبيون أن الرئيس المقدونى قد استقبل الأميرال الأمريكى، جايمس إليس، الذى جاء يعرض عليه خطة حلف الأطلسى من أجل إيجاد حل للأزمة. هذا مثال جديد على فقدان الإرادة السياسية لدى أوربا ولدى فرنسا، وكذلك لدى الفرنكفونية التى كان يمكنها أن تلعب دور الوسيط فى هذه الدولة العضو فى المنظمة.

نفس النقص فى الإرادة وفى الوسائل، فى الطرف الآخر من العالم. أتلقى فاكسًا يائسًا من أندريه ساليفو، المبعوث الخاص للفرنكفونية فى جزر القُمُر، هذا نصه:

«إن أصدقاءنا فى جزر القُمُر لا يزالون مؤمنين بالمنظمة الدولية للفرنكفونية. ومع ذلك، فهم اليوم يشعرون بالاستياء حين يرون أن هذه المنظمة لم توافق حتى الآن على إعطائهم الدعم الاقتصادى الذى يساعد على وضع اتفاق التعاون على مستوى الكوادر موضع التنفيذ. حتى مبلغ المائتى ألف فرنك فرنسى الذى كنت قد طالبت به منذ شهر مارس المنصرم لم يصل بعد».

تعلمنى ليا التى تواظب على مشاهدة التلفزيون أن ملك النيبال قد لقى حتفه فى ظروف مأساوية. فجأةً أتذكر لقائى الأول مع الملك. كان ذلك فى إبريل ١٩٨٠. كنت قدمت إلى النيبال حاملاً رسالة من الرئيس السادات إلى الملك بيرندرا بير بيكرام. كان يرافقنى مدير مكتبى، أحمد ماهر الذى عيّن منذ شهر خلفًا لعمرو موسى على رأس وزارة الخارجية. كان علىَّ أن أصبر لمدة أسبوع حتى يستقبلنى الملك. ففى كل يوم كان يأتينى وزير جديد ليُعلمنى أن موعد المقابلة قد حُدّد بعد ظهر اليوم نفسه، أو فى صباح اليوم التالى. بعد أن زرت كل المعابد وحلّقت بالطائرة فوق جبل إيفرست، قلت لنفسى ربما يجب أن أستشير عرّافًا كى أعرف

موعد المقابلة. فالعرّافون فى النيبال شخصيات مهمة جداً ولهم كلمة مسموعة فى اليوم السادس أعلنت أننى سوف أغادر البلاد. ولم يكن وارداً على الإطلاق أن أبلغ الرسالة إلى شخص يمثل الملك. . . تمت المقابلة فى فترة بعد الظهر من اليوم نفسه. وجدتنى فى حضرة رجل لطيف، مهذب، متوسط القامة، له شارب أسود صغير، يخفى عينيه وراء نظارتين شمسيتين. كان يصغى إلىّ بمودة حتى قبل أن يأخذ علمًا برسالة الرئيس السادات الذى يؤكد له فيها دعم مصر لاقتراحه إعلان النيبال منطقة سلام. أعرب لى عن ارتياحه للمبادرة الشجاعة التى اتخذها الرئيس السادات من أجل السلام. كنت أعرف أن الملك بيرندرا كان يتابع باهتمام الوضع فى الشرق الأوسط وأنه كان قد استقبل موشيه دايان قبل عدة سنوات.

فى صبيحة اليوم التالى، عند مغادرته كاتماندو، كان أحمد ماهر مضطرب القسمات وكان يظهر عليه بوضوح أنه يريد أن يخفى عنى شيئًا. ألَحُ عليه كى يتكلم فيحزم أمره ويكشف لى عن سبب شعوره بالإحراج. إن صورتى مع الملك تتصدر الصفحة الأولى فى الجريدة، صورة مزيفة بالطبع، إذ يبدو فيها الملك بقامة أكبر بكثير من قامته الحقيقية وهو يتسلم رسالة الرئيس السادات من القزم بطرس غالى.

لم أقابل الملك بعد ذلك إلا مرة واحدة خلال قمة دول عدم الانحياز، فى هرارى، سنة ١٩٨٦. اليوم يصلنى خبر اغتياله. أتساءل إن كان العرّافون الذين يسيطرون على الحياة السياسية النيبالية قد تنبأوا بنهايته المأساوية.

باريس ـ الأحد ٣ حزيران/يونيو ٢٠٠١

حسب صحيفة الأهرام المصرية، تنبأ العرّافون النيباليون بالفعل بنهاية فظيعة فى حال أقدم ولىُّ العهد على الزواج قبل بلوغه سن الخامسة والثلاثين. وقد تزوج هذا الأخير فى السر، وهو فى الثانية والثلاثين، وضد إرادة أهله، خصوصًا والدته، ابنة وزير الخارجية. إنها حكاية جديرة بحكاية تريستان وإيزوت أو بسيناريو فيلم هوليودى.

أتناول طعام العشاء برفقة مصطفى خليل وزوجته وبعض الأصدقاء. وهو

الأقرب إلىَّ بين رؤساء الوزراء الخمسة الذين أتيح لى التعاون معهم خلال خمسة عشر عامًا من العمل فى وزارة الخارجية. لا يزال يحتفظ برونقه وهو فى الثمانين من العمر، ويدير بعقل راجح وذكاء لم تضعفهما السنون أحد أكبر البنوك المصرية. نتحدث بالطبع عن الوضع فى مصر، ثم عن نشاط ابن أخى يوسف، الذى ينتمى إلى الجيل الخامس فى العائلة من الوزراء الذين يضعون أنفسهم فى خدمة الدولة.

باريس ـ الأربعاء ٦ حزيران/يونيو ٢٠٠١

يقيم ستيليو فارانجى ومارى ـ جورج بوفيه حفل استقبال فى وزارة الشباب والرياضة بمناسبة صدور كتاب عن المجلس الأعلى للفرنكفونية تحت عنوان «الرياضة والفرنكفونية»، تحضيراً للدورة الرابعة للألعاب الفرنكفونية التى ستجرى فى أوتاوا ـ هال فى ١٤ يوليو.

وقد نُصبت خصيصًا للمناسبة خيمة من الكتان أمام مدخل المبنى الحديث الذى تحتله وزارة الشباب والرياضة. يسيطر جو من الحر الثقيل الذى يؤذن بالعاصفة. هنا أيضًا، الأشخاص ذاتهم الذين نصادفهم فى كل حفلات الاستقبال. ينطلق شارل جوسلين فى خطاب لا ينتهى. كلمة مارى ـ جورج بوفيه طويلة جدًا، هى أيضًا. أكتفى ببضع كلمات. ينتظر الحضور فى أماكنهم استعداداً للانقضاض على البوفيه حتى قبل أن ينتهى التصفيق.

شارل جوسلين عائد من تونس، وقد ترك لقاءه بصديقى محمد شرفى، القانونى اللامع الذى طلبت منه المشاركة فى اجتماع الخبراء فى لجنة الديمقراطية والتنمية التابعة لليونيسكو، كبير الأثر فى نفسه. يلمح لى الوزير الفرنسى أن الرئيس أبدولاى واد سيدعم ترشيح عبده ضيوف إلى منصب أمين عام للفرنكفونية. لا أكترث بهذا الخبر؛ لقد سئمت من هذه الحملة الانتخابية التى تبدو لى يوما بعد يوم سخيفة وغير مجدية.

باريس ـ الخميس ٧ حزيران/يونيو ٢٠٠١

حكومة سكوبيا منقسمة على نفسها وهى تواجه وضعًا يزداد خطورة. يرتأى

رئيس الوزراء ليوبكو جيورجيفسكى إعلان الحرب واللجوء إلى التعبئة العامة، وإصدار قرار بمنع التجول يشمل البلد بأكمله. أما الرئيس بوريس ترايكوفسكى فهو أكثر تحفظًا. إنه يؤمن بالتفاوض.

المشكلة المنتظرة والمتوقعة هى أعمال العنف التى قد ترتكبها، الأكثرية المقدونية ضد الجماعة الألبانية، بعد مقتل جندى مقدونى. إن المجتمع الدولى عاجز عن تدارك هذه الأزمة. وهو سيتدخل لكن بعد فوات الأوان، عندما تكون المأساة قد انفجرت. يكتفى، فى الوقت الحاضر، بالتوصيات: «حافظوا على الاعتدال».

باريس ـ الجمعة ٨ حزيران/يونيو ٢٠٠١

أنتظر فى إحدى صالات الشرف فى مطار رواسّى، حيث سأستقل الطائرة إلى الكاميرون ثم إلى ساحل العاج، ثم بنين، وتوغو. أكتشف نظرًا للحضور الكثيف للحراس الشخصيين أن الرئيس كلينتون موجود فى الصالة الملاصقة. أُعلم أحد أولئك الحراس الأشاوس أننى أرغب فى إلقاء التحية عليه. يغيب الحارس.

بعد لحظات ألتقى برجل يبدو أصغر من سنه، يتمتع بالحيوية ويشعُّ وجهه ذكاءً. أسأله:

«كيف تشعر منذ أن غادرت السلطة؟».

يجيب بيل كلينتون:

ـ «أنا سعيد، حر، ومفعم بالنشاط. أتيت للاستمتاع فى باريس لمدة ثلاثة أيام، وهذا ما لم يكن بمقدورى القيام به قبل الآن. لكن لا بد من الاعتراف بأننى اشتقت إلى العمل وإلى المسؤوليات. كنت أحب ذلك العمل، وأحب تلك المسؤوليات التى كانت على عاتقى. لا يعنى ذلك أن النشاطات تنقصنى، لدى مكتب فى هارلم وأنوى الاهتمام بالناس الأكثر فقرًا. أتابع كذلك باهتمام شديد الخطوات الأولى لزوجتى فى مجلس الشيوخ. فكرت فعليًا فى وقت ما بأن أترشح لمنصب حاكم نيويورك، وهو منصب رائع، لكنه لا يتناسب مع موقعى السابق.

ـ من المؤسف، أقول، ألآ تتاح لرؤساء الولايات المتحدة السابقين، مع ما يتمتعون به من الخبرة، إمكانية متابعة القيام بدور سياسى. فى بعض دول أمريكا الجنوبية تعرض على الرؤساء السابقين سفارات مهمة.

ـ البعض اقترح أن يعين الرؤساء السابقون تلقائيًا فى مجلس الشيوخ، لكن لم يؤخذ بهذا الاقتراح. وأنت ماذا تفعل فى الوقت الحاضر؟

ـ حضرة الرئيس، إنى أحضّر لولاية ثانية على رأس الفرنكفونية، على الرغم من أننى سأبلغ فى الخريف المقبل التاسعة والسبعين. فلدى قناعة راسخة أنه يجب على الإنسان أن يعمل حتى الرمق الأخير».

يترك الرئيس مساحةً للصمت قبل أن يضيف بقناعة ظاهرة:

إنى معجب بمفهومك للأمور. فمع تطور الطب، نحن نعيش مدةً أطول، ولا يعقل أن يكف المرء عن ممارسة أى نشاط عند بلوغه الستين أو السبعين من عمره.

يدخل أحد حراسه فينتهى حديثنا. يودعنى بيل كلينتون بحرارة وهو يقول:

«اسمع، لا تتردد فى الاتصال بى إن احتجت لمساعدتى فى أى من مشاريعك العديدة. ويضيف:

لا تنس أنى لا أتكلم الفرنسية».

أبيدجان ـ السبت ٩ حزيران/يونيو ٢٠٠١

أستطيع من الطابق الحادى والعشرين فى فندق إيفوار حيث أقيم أن أرى منظراً بانوراميا لمدينة أبيدجان ولخليجها الصغير. تخال أنك فى شيكاغو، أو بالأحرى فى ريو دو جانيرو. مع فارق بسيط هو أن المساكن الشعبية فى البرازيل معلقة على خاصرة الهضبة بينما تمتد هنا بمحاذاة الخليج نفسه.

أستقبل هذا الصباح أمارا إيسى وهو وزير الخارجية السابق فى حكومة كونان بيديه والذى كان يترأس الجمعية العمومية للأمم المتحدة خلال فترة ولايتى. قدم

ترشيحه بدعم من لوران غباغبو لمنصب أمين عام لمنظمة الوحدة الإفريقية. وقد أرسل رئيس ساحل العاج رسائل وممثلين إلى مختلف زعماء الدول الأفارقة لدعم هذا الترشيح. وفقًا للسفير المصرى سامى يسى عبد الشهيد، إن الرئيس الجديد يسعى للتقرب من مسلمى الشمال. وأمارا إيسى مسلم وعضو فى المعارضة، فى الوقت نفسه. ويفضى التحليل إلى أن انتخابه مناسب جدًا لإعادة البريق إلى السياسة الخارجية لساحل العاج بعد أن خفَّ قليلاً بسبب الأحداث السياسية فى العامين المنصرمين.

وهو يواجه منافسين: وزير خارجية ناميبيا، تيو بن غوريراب، والأمين التنفيذى للجماعة الاقتصادية لدول إفريقيا الغربية Cedeao، لانسانا كوياتى. يسافر أمارا إيسى غدًا إلى القاهرة فى بعثة يرأسها رئيس الوزراء السابق وهى مكلفة بتسليم الرئيس حسنى مبارك رسالة من الرئيس غباغبو لدعم مرشحه.

أبيدجان - الاثنين ١١ حزيران/يونيو ٢٠٠١

لقاء مع وزير الاقتصاد السابق، سام مامادو كوليبالى، الرئيس الحالى للجمعية الوطنية. إنه طويل القامة، يبدو جادا خلف نظارتيه. درس الاقتصاد فى الولايات المتحدة. يجيد فن الإصغاء.

أحدثه عن الدور المهم الذى يمكن أن يؤديه البرلمانيون لكى تسود الديمقراطية العلاقات الدولية، وعن ضرورة إشراك العاملين غير الحكوميين فى بلورة النظم وفى أخذ القرارات. أذَّكر بشعارى المفضّل: يجب أن تصبح العولمة ديمقراطية حتى لا تشوه العولمة طبيعة الديمقراطية.

لقد عُلِّقت عضوية ساحل العاج فى جمعية البرلمانيين الفرنكفونيين على أثر المحاولة الإنقلابية. يأمل محدِّثى أن تستعيد البلاد عضويتها خلال اجتماع مكتب البرلمان فى كبيك، فى يوليو المقبل. ثم يتناول مشكلة منطقة الفرنك فى أفريقيا، والتى تعود صلاحية إدارتها إلى فرنسا وحدها. فيقول: «إن الطريقة التى تدار بها هذه المنطقة يجب أن تكون ديمقراطية، هى أيضًا».

يقودنا الحديث إلى قمة بيروت، فيسألنى:

ـ «هل أنت متأكد من الوضع الأمنى؟».

أجيب:

ـ «سيكون الأمن ممتازاً. فكل شىء تحت السيطرة».

زيارتى الثانية هى لوزير الخارجية، وهو رجل قانون وأستاذ جامعى حائز على شهادة دكتوراه من جامعة نيس، سنة ١٩٧٩. يتكلم عن عزلة ساحل العاج نتيجة لاضطرابات الأعوام الأخيرة. ويتساءل عن الطريقة التى تمكنه من العودة إلى سابق عهده متمنيًا أن أدعم مسعاه من أجل إعادة الاعتبار إلى بلاده.

نتوجه معًا إلى المقر الرئاسى، وهو قصر آخر. غرفة انتظار فخمة، ذات سقف عال يبلغ ارتفاعه ما يزيد على عشرة أمتار، تزين وسطه ثريا ضخمة. ألفت نظره إلى أن الوزراء فى إفريقيا يركبون سيارات المرسيدس، وأن الرؤساء يبنون لأنفسهم قصوراً فخمة، بينما يتنقل المسؤولون فى الهند فى سيارات أوستن صغيرة ذات بابين موديل ١٩٣٠، ويقيمون فى منازل متواضعة. كذلك فإن المبانى الوزارية فى الهند تعود إلى عهد الإمبراطورية الإنجليزية، ولم أرَ هناك إطلاقًا أى مبنى جديد. أسارع لأضيف أن مصر، هى الأخرى، مصابة بمرض العظمة: أسطول من سيارات الليموزين، قصور جُدرها من الرخام، ثريات هائلة الحجم. يظهر أن ما أقوله لا يلقى ترحيبًا لديه.

إن موبوتو هو من قال لى يومًا: «إن الشعب يفخر بأن يقيم رئيسه فى قصر ... كما لو أنه يشاركه السكن فيه». طبعًا امتنعت عن أى تعليق. فالمقارنة التى أقمتها منذ ذلك الوقت، بين أنماط السلوك فى الهند وفى إفريقيا لم ترق بتاتًا له.

ها قد مضت ساعة بانتظار أن يستقبلنا الرئيس لوران غباغبو. جاء من يخبرنا بأن المقابلة أرجئت إلى موعد لاحق سيعلمنا به البروتوكول الذى يبدو أنه لا يفقه شيئًا من بديهيات اللياقة.

أبيدجان ـ الثلاثاء ١٢ حزيران/يونيو ٢٠٠١

لقاء مع السيدة الأولى، سيمون غباغبو فى إحدى قاعات البرلمان. تزودت بدفتر صغير وقلم حبر لعزمها بالطبع أن تسجل ملاحظات خلال حديثنا. أعرض لها باقتضاب أنشطة الفرنكفونية. تقول:

«كان لدى معرفة بوكالة التعاون الثقافي والفنى، بل إننى قمت بدراسة عن هذه الوكالة منذ بضع سنوات، لكن لم أكن لأتصور كل هذه التحولات التى طرأت على الفرنكفونية منذ أربع سنوات».

لديها رغبة بالمساهمة فى تلميع صورة ساحل العاج على الساحة الدولية.

«إن الاضطرابات التى عصفت ببلدى حدثت قبل أن يتسلم زوجى السلطة، وهو يحاول منذ ذلك الحين تشجيع المصالحة الوطنية بين التيارات المختلفة.

أقول لها:

ـ اسمحى لى بأن أسدى إليك نصيحة من يكبرك سنًا.

تجيبنى وقد بدت على وجهها ابتسامة ذكية:

ـ بكل سرور، ، فأنت فى سن والدى.

ـ كونى سفيرة فوق العادة لبلدك. شاركى فى المؤتمرات الدولية. قابلى رؤساء الدول. فصورتك ستنعكس على صورة بلادك.

ليس فى ما أقوله أى تملق. فأنا أعتقد بصدق أن سيمون غباغبو تتمتع بصفات سفيرة عظيمة، تمامًا كما أنى لا أزال على اعتقادى بأن النساء أقدر بكثير من رجال السياسة على إعطاء صورة مغايرة عن الصورة السائدة لإفريقيا.

المقابلة المتوقعة بعد الظهر مع الرئيس لوران غباغبو تتأجل للمرة الثانية. إنها الفوضى الكاملة. فوزير الثقافة المكلف بمرافقتى خلال مدة إقامتى لم يُبلَّغ بهذا الإلغاء. ما قاله لى على مائدة الغداء أحد ممثلى البنك الدولى الذى حرص على أن لا يُعرف اسمه يخلو من أية مبالغة:

«إن الطاقم الجديد فى الحكم يتألف من جامعيين شباب ليس لديهم أية خبرة سياسية. إنهم يتسمون كغيرهم من المبتدئين بعدم الكفاءة وبالعجرفة. الرئيس نفسه يشعر بأن المسؤولية أكبر منه. إنه يستقبل بعد ظهر اليوم رؤساء الدول الذين سيقررون مستقبل شركة الطيران الإفريقية. أعتقد أن حظوظك قليلة فى مقابلته. ثم أضاف بخبث: لكنك تحدثت إلى السيدة الأولى التى لا تقل أهمية عن الرئيس».

كوتونو ـ الخميس ١٤ حزيران/يونيو ٢٠٠١

افتتاح مؤتمر وزراء الثقافة الفرنكفونيين. يلقى الرئيس ماتيو كيريكو كلمته بحيوية وحماس على الرغم من كبر سنه، فهو يحافظ على دينامية فائقة.

بدورى، أعرض المحاور الكبرى التى ألهمت الإعلان وخطة العمل اللذان سيقدمان إلى الوزراء: وضع سياسات لغوية تشجع على تدعيم اللغة الفرنسية واللغات الأخرى فى الوقت نفسه. تحسين إمكانية وصول المبدعين الفرنكفونيين إلى الأسواق الدولية. تسهيل التبادل بين المبدعين. حماية الملكية الفكرية. تنمية الصناعات الثقافية، وتقنيات المعلومات ووسائل الإعلام السمعية والبصرية.

إن هدفنا ليس فقط محاربة الأحادية اللغوية والثقافية والفكرية، بل إعادة التوازن إلى العلاقات الثقافية داخل المجال الفرنكفونية ذاته بحيث تكون فى خدمة الدول الأقل حظا. ذلك أنه إذا كان علينا أن نبتهج بأن الصناعات الثقافية الأوربية تنشط لتزن بكل ثقلها على الساحة العالمية فإنه علينا أن نتوصل أيضًا إلى حقيقة مفادها أن مبدعى الجنوب مضطرون فى كثير من الأحيان إلى اختيار المنفى كى تعرف أعمالهم، كما أنه يجب علينا الاعتراف بأن بعض الثقافات، وبعض التراثات، التى تعتبر من بين الأغنى، متروكة للنسيان بحجة قوانين السوق.

(فى المساء ...).

يدعو الرئيس كيريكو إلى حفل استقبال فى القصر الرئاسى. أدخل بمعية رئيسة المحكمة الدستورية.

أقول للرئيس كيريكو: «كما ترى، إنى أستند إلى الدستور.

يجيبنى مازحًا:

ـ يجب على الأخص أن لا تعتدى عليه.

ـ ذلك صعب يا سيدى الرئيس بالنسبة إلى رجل فى سنى.

أشير إلى صبية فى ريعان الصبا، رائعة الجمال تغنى لتدخل البهجة إلى عشائنا وأقول:

«أرأيت، يا سيدى الرئيس، فى هذه الحالة أنا مستعد للاعتداء على الدستور.

ـ إنه اعتداء على قاصر، يا حضرة الأمين العام، وعقابه حكم بالسجن مدى الحياة.

ـ لكنى لا أشك فى الحصول على عفو رئاسى».

انتهى العشاء بدخول الحرس الخاص. لم يكن الرئيس كريكو مرتاحا.

كوتونو ـ الجمعة ١٥ حزيران/يونيو ٢٠٠١

أعلن اختتام أعمال مؤتمر وزراء الثقافة الفرنكفونيين بالعبارة التالية: «كان التنوع الثقافى حتى هذه اللحظة مجرد مفهوم، أما الآن فهو سياسة ...».

لومى ـ السبت ١٦ حزيران/يونيو ٢٠٠١

أقضى الفترة الصباحية فى استقبال رؤساء الأحزاب السياسية المختلفة: أوديم كودجو، الذى يبدو على الرغم من لباسه التقليدى أقرب فى مظهره إلى مثقفى الحى اللاتينى منه إلى زعيم حزب فى توغو، ليوبولد غنينفى، زاريفو أييفا ـ الحالم ـ، بوب أكيتانى، ممثل حزب جيلكريست أولمبيو الذى يبقى، بلا منازع، الأكثر عدائيةً والأكثر عنفًا، وأخيراً فومباريه كاتارا ناتشابا ومساعدوه وهم منتمون إلى تيار الرئيس.

لا أزال أنتظر تحديد موعد لمقابلة الرئيس إياديما . ليس باستطاعة البروتوكول أن يعطينى جوابًا شافيا . أقرر الاتصال بالرئيس هاتفيًا . يخبرنى بأنه لم يبَلَّغ بأنى سأستقل الطائرة مساءً إلى باريس، ويقول : «تعال على الفور، أنا فى إنتظارك» .

يعبر الرئيس عن ارتياحه للرسالة التى وجهها إليه مؤخراً الاتحاد الأوربى، والتى وللمرة الأولى كُتبت بأسلوب دبلوماسى :

«إن الاتحاد الأوربى أعرب فى مناسبات عديدة عن سروره بالتقدم الذى حققه الحوار الداخلى فى توغو (...). إن تنظيم انتخابات تتسم بالحرية والشفافية والديمقراطية من شأنه أن يؤدى إلى إعادة العلاقات إلى طبيعتها بين الاتحاد الأوربى وتوغو (...). كذلك قد يكون لمطالبة صريحة بمساعدة اقتصادية من أجل العملية الانتخابية يرفعها الطوغو إلى الاتحاد الأوربى وإلى غيره من الممولين مساهمة فعالة فى إخراج الوضع من جموده الحالى ...» .

يعتزم الرئيس أن يرد على هذا العرض بموقف إيجابى وأن يُجرى الانتخابات فى موعدها المحدد بين ١٤ و٢٨ اكتوبر . أطلعه على أن جميع ممثلى الأحزاب السياسية الذين التقيت بهم هذا الصباح ينتظرون منه مبادرات تشجيعية «جسور عبور تمكنهم من الدخول فى حوار معه» . فقد مضت شهور على انقطاع الاتصال بينهم وبينه . يتجهم وجهه ويقول لى بصوت خفيض :

«عندما استدعيتهم رفضوا المجىء» .

يصمت قليلاً ثم يتابع بجدية صادقة : «إن بيتى مفتوح لهم دائمًا» .

قبل أن نفترق، يصرُّ على أن نشرب كأس شمبانيا ونرفع نخب توغو ... والانتخابات المقبلة .

باريس ـ الأربعاء ٢٠ حزيران/يونيو ٢٠٠١

أشارك إلى جانب الرئيس أبدولاى واد فى لجنة التحكيم فى مسابقة فى المرافعة بين محامين فرنكفونيين شباب . فى الميدان سبعة متبارين، بينهم سنغالى واحد

وتونسي واحد. بدايةً يلقى نقيب المحامين خطابًا يغدق فيه من المديح على الرئيس السنغالي الجديد ما من شأنه أن يجعله يسقط عن كرسيه. نستمع بعد ذلك إلى مختلف المتنافسين قبل أن نختلي للتداول. تعطى الجائزتان الأولى والثالثة لفرنسيين، وتُعطى الجائزة الثانية لسنغالي شاب على الرغم من أنه لم يبرهن عن ألمعية تميزه عن الآخرين.

في حديث على انفراد، يقول لي الرئيس واد: «عندي خبر جميل لك. ولن أقول أكثر..».

هل يلمح إلى أنه يعارض ترشيح الرئيس ضيوف؟

باريس- الخميس ٢١ حزيران/يونيو ٢٠٠١

يبدو أن تنبؤات الرئيس المقدوني تتحقق. فالأزمة بين الجماعتين السلافية والألبانية لا تنفك تزداد خطورة. الأقلية الألبانية تقع ضحية تجاوزات القوى الأمنية، والاعتقالات الاعتباطية، وعمليات الاختطاف. نحن نواجه خطر عملية «تطهير عرقي» جديدة، ويمكن المراهنة على أن جيش تحرير كوسوفو سيضاعف عملياته الهجومية الناجحة ضد الجيش المقدوني.

إنه لأمر غريب. لديّ انطباع وأنا أتابع باهتمام شديد تطورات الوضع في مقدونيا بأني أُخرج من حيز اهتماماتي تدهور الوضع في الجزائر والمواجهات العنيفة في منطقة القبائل. لمَ هذا الموقف؟ هل لأنني مكلف بمعالجة ملف مقدونيا وأنني كنت مؤخراً في زيارةَ إلى سكوبيا؟ لكنني أحسُّ أن الجزائر أقرب إليّ بكثير. فقد تحمست لمختلف مراحل نضالها من أجل الاستقلال، ورافقت عن قرب معظم القادة الجزائريين، وأمضيت ليالي بكاملها ساهراً أبحث عن حل لمشكلة الصحراء الغربية، التي تبقى في نهاية المطاف، صراعًا بين المغرب والجزائر.

أعتقد أني وجدت الجواب: في علاقتي مع الجزائر، أمارس لعبة الفرار، فرار أبرره بحجة التركيز على الوضع في مقدونيا؛ لأنني أعرف أن المأساة الجزائرية تؤثر في أعماق نفسي.

(بعد الظهر ...) .

أتلقى زيارة من جوزيف تسانغ مانغ كين ، وهو رجل من جزر موريشيوس ، صينى الأصل . كان يشغل منصب وزير للثقافة عندما ذهبت فى زيارة رسمية إلى بلاده فى ديسمبر ١٩٩٩ . يغمرنى بوابل من عبارات المديح معبراً المرة تلو الأخرى عن الاحترام والإعجاب الذى يشعر به تجاهى ، قبل أن يخبرنى بأنه مرشح لمنصب الأمين العام للفرنكفونية وأنه سيحصل قريبًا على دعم رسمى من رئيسه الذى تربطه به علاقة صداقة تعود إلى عهد الصبا .

أُذَكّره بأنى قد قدمت ترشيحى لهذا المنصب وبأنى أحصل على دعم أكثرية البلدان الإفريقية والبلدان المموّلة . يبدو أن ذلك لا يقلقه . عند استئذانه بالمغادرة يتنحنح كطالب خجول ويضيف مبتسمًا : «إن غيرت رأيك ، فكّر فى أن تدعمنى ... » .

أتلقى اتصالاً هاتفيًا من جاك شيراك الذى يقول لى إن تفسيرى لجملة الرئيس واد الغامضة كان صحيحًا . فهذا الأخير ولأسباب سياسية يرفض أن يدعم ترشيح عبده ضيوف ويوافق على عدم الاعتراض على انتخابى لمرة ثانية . من جهته ، عمر بونغو وافق على أن يتحدث إلى غناسينغبى إياديما بشأن ترشيحى ، خلال القمة المقبلة لمنظمة الوحدة الإفريقية .

باريس ـ الجمعة ٢٢ حزيران/يونيو ٢٠٠١

تستعد قوى حلف شمال الأطلسى العسكرية لنزع سلاح جيش تحرير كوسوفو وذلك لتجنب تفتيت مقدونيا . أليست هذه القوى هى نفسها التى سلحت جيش تحرير كوسوفو كى تفتت بلغراد؟ إن انقلاب السياسات رأسًا على عقب يبعث على الذهول . كلا ، يجيبك المدافعون عن السياسة الأمريكية . ليس هناك أى وجه شبه بين وضع الألبان فى مقدونيا ، الذين يشاركون فى الحكومة ، ووضع الألبان فى كوسوفو الذين اضطهدوا عندما كان سلوبودان ميلوسوفيتش يسيطر على بلغراد .

جنيف ـ الأحد ٢٤ حزيران/يونيو ٢٠٠١

جنيف مدينة تشعرنى بالطمأنينة والسكينة. مناخها مناسب للتفكير وللكتابة، بعيدًا عن ضوضاء العواصم الكبرى. أشعر هنا بنفس الإحساس الذى كان يخامرنى فى لاهاى؛ ربما لأننى أمضيت سنين عديدة فى مكتبات هاتين المدينتين فى مراجعة كتب القانون الدولى.

إن فندق انتركونتيتال هو أيضًا ملىء بالذكريات، مقابلات ومفاوضات سرية. ففى هذا الفندق تمَّ أول لقاء بين عازار وايزمان وإحدى قيادات منظمة التحرير الفلسطينية. وفى هذا الفندق أيضًا أخفقت محاولتى للتوصل إلى إقامة الحوار بين «رئيس» «الجمهورية الصحراوية»، محمد عبد العزيز، والجنرال المغربى، قديرى. وفى هذا الفندق أيضًا، تحدثت مطولاً بل مطولاً جدًا مع الرئيس السورى حافظ الأسد عن ماضى ومستقبل العالم العربى. بدا أنه مهتم بالأستاذ الجامعى الذى كنته يومًا أكثر من اهتمامه بى كأمين عام للأمم المتحدة.

برن ـ الاثنين ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٠١

أسافر إلى برن وفقًا لقواعد البروتوكول المنتظمة بدقة الساعات السويسرية.

الساعة ١١: أُستقبل فى قصر واترفيل، وهو مسكن جميل من القرن الماضى تتدرج حدائقه بهدوء نزولاً باتجاه النهر. مقابلة لمدة خمس عشرة دقيقة مع جوزيف ديس، المستشار الفيدرالى المكلف بالشؤون الخارجية. يتحدث عن التزام سويسرا المتزايد داخل الفرنكفونية، عن رغبتها فى لعب دور يتزايد نشاطًا باستمرار. أسمح لنفسى بأن أُلّمح له بأن تزيد برن من مساهمتها المادية، قائلاً: «لقد ضاعفت كندا من مساهمتها المادية لصالح الوكالة الجامعية»، فى محاولة لدفعه فى هذا الاتجاه. يعد جوزيف ديس بأن يدرس اقتراحى بعناية.

الساعة ١٥ , ١١: تبدأ المحادثات الرسمية بين الوفدين. يضمُّ الوفد السويسرى ستة دبلوماسيين، من جهتنا لم نكن أكثر من ثلاثة: كزافييه ميشال، جان فرانسوا

باروز، وأنا. نتحدث على وجه الخصوص عن المؤتمر الوزارى الفرنكفونى المقبل، الذى سينعقد فى لوزان، فى ديسمبر ٢٠٠٢.

الساعة ١٢: أتنزه بصحبة جوزيف ديس فى حديقة قصر واترفيل. للحظة، يحدق إلى النهر صامتًا حالمًا. بديهى أنه ليس من الرجال الذين يحلمون طويلاً. نعود إلى القصر وندخل غرفة الطعام حيث أقول لمضيفىّ إننى تناولت فيها طعام الغداء سنة ١٩٧٨. كنت حينها قد حصلت على تعيين سعيد حمزة، وكان رئيسًا للبروتوكول، سفيرًا فى برن. بعد شهر من تقديم أوراق اعتماده، اتصل بى يطالبنى كصديق بزيارة إلى العاصمة السويسرية. أجبته: «لا أعلم يا سعيد إن كنت تدرك جيدًا أننى منشغل أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين بالمفاوضات مع إسرائيل». ألحَّ قائلاً: «قد يأتى يوم ستحتاج فيه إلى سويسرا... كلاجىء سياسى». كانت حجته قوية.

بعد ذلك بفترة قليلة قمت بزيارتى الرسمية الأولى إلى سويسرا.

الساعة ١٤,٣٠: زيارة مجاملة لرئيس الفيدرالية السويسرية، موريتس لينينبرجر، وهو رجل سوداوى المزاج، قليل الكلام، يكتفى بأن يهز رأسه وبأن يتمتم معبرًا عن موافقته. لم يقرأ ربما الملفات التى أُعدت له، حتى أنه يعطى انطباعًا بأن الفرنكفونية تنتمى، بالنسبة إليه، إلى كوكب آخر. بلباقة الدبلوماسى، التزم السفير فيتوفوغليا، وهو الممثل الشخصى لرئيس الدولة، بالصمت خلال المقابلة وجهد فى إخفاء شعوره بالإحراج. عند مغادرتنا، اكتفى بأن يقول لى:

«لقد كان رئيسى كثير الصمت...».

بدورى حاولت أن أبدو متحفظًا فتجنبت التعليق.

الساعة ١٥,١٥: لقاء مع وفد من البرلمانيين أعضاء لجنة السياسة الخارجية. سيذهبون إلى كيبيك فى يوليو المقبل للمشاركة فى الدورة السنوية للجمعية البرلمانية الفرنكفونية.

الساعة ١٦: ألتقى السفير المصرى، محمد ناجى الغطريض، الذى جاء لتقديم

أوراق اعتماده في برن . نتحدث عن الوضع المأساوي في فلسطين، وعن مصر بالطبع، وتحديداً عن دورها في منظمة التجارة العالمية . تعجبني حيوية فكره، ويؤثر فيّ انفعاله وهو يتكلم عن الوضع الاقتصادي في مصر .

الساعة ١٦,٣٠ : أتوجه إلى مطار برن وهو ليس سوى مطار ريفي صغير، خلافًا للمتوقع . يشرح لي رئيس البروتوكول أن الأهالي عارضوا دائمًا إنشاء مطار دولي يتسبب في تلوث البيئة وفي إحداث الكثير من الضجيج . وفي النهاية، لا يبعد مطار زوريخ إلا مسافة ساعة واحدة، وهي المسافة نفسها التي يستغرقها الانتقال من مركز المدينة إلى المطار في أكثر العواصم الكبرى .

باريس ـ الثلاثاء ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠١

أقرأ في صحيفة الفيجارو الصادرة هذا الصباح مقالة للعماد ميشال عون الذي أوكل إليه رئاسة الحكومة رئيس الجمهورية أمين الجميل عند نهاية ولايته في سبتمبر ١٩٨٨ . هو الذي أعلن في مارس ١٩٨٩ «حرب التحرير» ضد سوريا .

يكتب : «كيف يمكن تصور انعقاد قمة فرنكفونية في بيروت في أكتوبر القادم، حول موضوع «حوار الحضارات» في ظل الاحتلال السوري ـ كيف يمكن اختيار هذا الموضوع للمناقشة في بلد يمنع الحوار بين أبنائه ولا يستمر إلا من خلال العسف على الرغم من تبجحه باحترام دولة القانون؟» .

قد تكون قمة بيروت صعبة ...

باريس ـ ننارلوفوا ـ الأحد ١ تموز/يوليو ٢٠٠١

ننزل في مانوار ريشيليو وهو قصر قديم يقع في مكان لا مثيل له، وسط مساحة واسعة من الأراضي الخضراء تحدها هضاب زرقاء . أفهم الآن أفضل من ذي قبل فن الرسم الكندي المعاصر . يلتقط ضابط الأمن معنى النظرة في عيني فيقول لي وهو يشعر بالرضا : «إنك تحب بلدنا، شارلوفوا» .

شارلوفوا ـ الاثنين ٢ تموز/يوليو ٢٠٠١

استراحة المحارب الذى يشيخ. ألتقى جان بيلوتيه، مدير مكتب جان كريتيان فيقول لى: «الأخبار ممتازة. لقد خرج عبده ضيوف من اللعبة وأصبحت إعادة انتخابك مؤكدة. كندا دائمًا إلى جانبك».

شارلوفوا ـ الثلاثاء ٣ تموز/يوليو ٢٠٠١

أتناول طعام العشاء مع لويز بودوان، وزيرة خارجية الكيبيك، وزوجها فى L'auberge des Trois Canards. إنها امرأة قصيرة القامة، نحيلة القوام، مشدودة الأعصاب، زرقاء العينين، ثاقبة النظرة. تعرف كيف تبدو رائعة وساحرة، لكنها تتمتع بطبيعة متحمسة تجعلها مستعدة لشنق خصومها دفاعًا عن القضية التى تؤمن بها.

يدور بيننا حديث مفعم بالانفعال. لويز بودوين تبدو بكامل نشاطها. فقد لعبت الجولف هذا الصباح، تفيض نشاطًا وحيوية عند الظهر، وهى مستعدة لأن تغزو الكوكب هذا المساء. تهاجم بشدة السياسة الفرنسية حيال الفرنكفونية. كم أشاركها غضبها!

تحدثنى عن مؤتمر الاتحاد الدولى لمعلمى اللغة الفرنسية الذى انعقد فى ريو دى جانيرو. أشاركها الاعتقاد بأن هؤلاء الأساتذة يمثلون قوة أساسية فى الدفاع عن الفرنكفونية. يجب إشراكهم، بل يجب إدماجهم فى المنظمة الدولية للفرنكفونية. ألفت نظرها إلى أن ديناصورات المنظمة سيعتبرون ذلك هرطقة، وأنه يجب تغيير الميثاق لتحقيق هذا الهدف. يبدو لى أنه من المنطقى أكثر العمل، فى مرحلة أولى، على توقيع اتفاق تعاون بيننا وبينهم ودعوة المعلمين إلى المشاركة فى مجلس التعاون.

فى المقابل، هى متحمسة لقرار جاك شيراك إدخال المجلس الأعلى للفرنكفونية فى منظمتنا.

الخميس ٥ تموز- السبت ٧ تموز/يوليو ٢٠٠١

عطلة نهاية أسبوع طويلة فى أملاك بول ديماريه، أحد المتبرعين الذين أسهموا فى إنشاء جامعة سنغور. نتعرف أنا وليا إلى زوجته الرائعة التى تتمتع بطبع مرح يبعث السرور من حولها. بول ديماريه يرأس إمبراطورية مالية تتشكل من حافظة مليئة بالأسهم فى شركات منتشرة على مساحة الكرة الأرضية.

ليس جمال الأمكنة الأخّاذ هو فقط ما اكتشفناه وأحببناه خلال فترة إقامتنا، بل بساطة بول ديماريه وزوجته واستقبالهما الحار لنا. يجد من المسلى أن أوضح له أن اسم بول يقابله بالعربية بولس وأن اسم بطرس يقابله بالفرنسية بيار. لكن كيف يُترجم اسم جاكلين؟ لست أدرى. سأستعلم عن ذلك.

أوتاوا- الأربعاء ١١ تموز/يوليو ٢٠٠١

مقابلة مع رئيس الوزراء جان كريتيان الذى فاز بالانتخابات مؤخراً. إنه يتمتع بصحة جيدة، وشباب متجدد وشعور بالارتياح ومزاج ساخر.

نتحدث كمحاربَين من المحاربين القدماء خاضا معركة السياسة، عن الانتخابات التى خاضها كل منا. يذكرنى بفشله عندما أراد الوصول إلى رئاسة الحزب بعد رحيل ترودو.

أقول له: «وأنا لم أتمكن من الفوز فى انتخابات الأمانة العام للأمم المتحدة عندما ترشحت لولاية ثانية، على الرغم من دعمك لى».

يجيبنى رئيس الوزراء: «لم ينقصك سوى صوت واحد».

أبدأ بحثى لمعرفة الترجمة العربية لاسم جاكلين. أتصل بأخى واصف فى ويلتون فى الولايات المتحدة، ثم بابن عمى يحيى فى مونريال. «ما هى الترجمة العربية لاسم جاك؟»، أسأله. يجيب: «يعقوب». فأستنتج أن ترجمة جاكلين إلى العربية هى يعقوبة. أطلع بول ديماريه على نتيجة أبحاثى. فيطلق ضحكة عالية ويقول: «يعقوبة، إن رنة هذا الاسم هندية أكثر مما هى قبطية».

أوتاوا ـ الجمعة ١٣ تموز/يوليو ٢٠٠١

يتصل بى هاتفيًا من لوساكا، حيث تنعقد فى هذا الوقت قمة منظمة الوحدة الإفريقية، رئيس النيجير، مامادو طاندجا. يخبرنى بأن عمر بونجو قد جمع عددًا من رؤساء الدول الأفارقة كى يحصل على دعمهم لترشيح هنرى لوبيس. لقد تبدلت الريح. أشكر الرئيس على اتصاله الهاتفى وعلى الصداقة التى يبديها تجاهى بإطلاعى على هذه المعلومة، وأقول له: «إننى أنوى أن أخوض الحملة حتى النهاية. فلن أتراجع فى وسط المعركة».

أوتاوا ـ السبت ١٤ تموز/يوليو ٢٠٠١

الافتتاح الرسمى للدورة الرابعة لألعاب الفرنكفونية. حشد كبير فى الملعب يصفق بحرارة للوفود وهى تمر بألوانها المشرقة مرتدية الملابس الوطنية حاملة أعلام بلادها. كل البلدان الفرنكفونية تقريبًا تكبدت عناء الانتقال وحرصت على أن تبعث بأفضل مواطنيها لتمثيلها كما ينبغى فى المسابقات الرياضية والفنية التى ستبدأ غدًا. باستثناء موناكو الممثلة بشخصين فقط: حامل العلم وشاب وحيد يبدو أشبه بموظف منهوك القوى منه بلاعب رياضى.

أوتاوا ـ الأحد ١٥ تموز/يوليو ٢٠٠١

مساعى عمر بونجو تذهب أدراج الرياح. فرؤساء الدول الذين «حشدهم» بونجو رفضوا توقيع البيان الذى كان قد عمل على إعداده. بعض الوزراء فقط وافقوا فى النهاية، وتحت الضغط، على وضع تواقيعهم عليه. «إنها لعبة تنكرية مثيرة للاشمئزاز»، يقول لى الرئيس إياديما القادم من لوساكا، والذى رفض أن يشارك فى الاجتماع «غير الاعتيادى» الذى دعا إليه عمر بونجو.

فى سياق آخر، وفيما يتعلق بقارة أخرى، يثير اهتمامى وأنا أتناقش مع دبلوماسى كندى تابع عن قرب النزاع اليونانى ـ المقدونى، خبر مفاده أن طرفى النزاع قد توصلا منذ بضعة أشهر إلى اتفاق على الاسم النهائى لجمهورية مقدونيا،

وهو : «غورنا ماكادونيا» ويمكن ترجمته إلى الفرنسية بـ«مقدونيا العليا» . لكن التطورات الأخيرة للصراع الألباني ـ المقدونى قد قلبت الوضع من جديد .

(فى بداية فترة بعد الظهر ...) طلب الوزير الكندى للفرنكفونية ، رونالد دوهاميل أن يلتقى بى فى الفندق . بينما يستعد مساعدو كل واحد منا للالتحاق بنا ، يطلب الوزير أن أجتمع به على انفراد :

يقول لى : «لدى شىء مهم أطلعك عليه» .

عندما نصبح لوحدنا أحس أنه يشعر بالإحراج : «لا أعرف تمامًا كيف أخبرك بذلك» .

لأنى نظرا لانشغالى بأومرى الخاصة وحيث إنى مسكون بهاجس انتخابى مرة ثانية ولأن مسعى عمر بونجو ، فى لوساكا ، يسيطر على تفكيرى ، كنت أتوقع أن يخبرنى بأن كندا قد تراجعت تحت ضغط إفريقيا عن دعمها لى .

لكنه يبادرنى قائلاً : «إن مرض السرطان الذى أعانيه قد عاد للظهور من جديد . أعتقد أنه علىَّ الخضوع من جديد للعلاج ولن أستطيع حضور الحفل الختامى لألعاب الفرنكفونية» .

فى هذه اللحظة أشعر بانفعال لا يعادله سوى خجلى . خجلى من تمحورى حول ذاتى ، خجلى من هواجسى التافهة .

يضيف : «أرجو منك أن تحتفظ لنفسك بما أخبرتك به . فلا شىء أسوأ من نظرات العطف والشفقة» .

بعد أن تخفّف من عبء هذا الاعتراف ، يتابع الحديث كأن شيئًا لم يكن معلوما عن حملتى الانتخابية . لم تعد لدىّ رغبة فى الحديث عن ذلك . فأنا لا أستطيع الامتناع عن عقد مقارنة بين سخافة هذا السباق للفوز فى الانتخابات ، وخطورة ما سيكون على رونالد دوهاميل مواجهته . يتابع :

«التقيت شارل جوسلين الذى لا يزال موقفه غامضًا . لكنى أكدت له مرة أخرى أن كندا ستحارب من أجلك» .

أرافق رونالد دوهاميل إلى المصعد. أضمه بحرارة. تغرورق عيناه بالدموع وأتمالك نفسي عن البكاء. يراقبنا مساعدونا بقلق. سيكون الباب مفتوحًا للتخمينات والتكهنات.

أوتاوا ـ الاثنين ١٦ تموز/يوليو ٢٠٠١

الجلسة الختامية لاجتماع وزراء الشباب والرياضة. يلقى رونالد دوهاميل بروح الفكاهة التى يتمتع بها وبمزاجه المرح كالعادة كلمةً مقتضبة موضحًا أنها آخر كلمة يلقيها. فالواقع أن النشاطات الفرنكفونية قد شارفت على نهايتها، لكننى أعلم أن هذه الجملة غنية بالمعانى، وأود أن أعبّر له فى هذه اللحظة، حيث التقت نظراتنا، عن كل إعجابى. آمل أنه يكون قد فهمنى...

باريس ـ الخميس ١٩ تموز/يوليو ٢٠٠١

أنا على موعد مع فرانسوا هولاند فى مقر الحزب الاشتراكى فى شارع سولفيرينو. يسعدنى أن ألتقى من جديد بصديقى آلان شونال، وهو أحد مناضلى الحزب القلائل المتحمسين بشكل واضح للعرب.

أذكر أنه خلال أحداث مايو ٦٨، وبينما كنت أتنزه فى أحد الأيام فى الساحة الكبرى لجامعة السوربون حيث أقامت مختلف التنظيمات السياسية المنصات، ألتقيت صدفة بآلان شونال، الذى كان فى تلك الفترة طالبًا عندى فى كلية الحقوق فى باريس.

كلمته على انفراد وقلت بنبرة تنطوى على قدر من المرارة: «لا يوجد منصة لفلسطين».

أجابنى: «عد غدًا»، دون أن يضيف أى تعليق.

فى اليوم التالى أشار إلى منصة فلسطين التى وضعت فى آخر الفناء.

أفاتح فرانسوا هولاند بانزعاجى من الموقف المعادى الذى تتخذه حكومة

الاشتراكيين حيال مسألة انتخابى للمرة الثانية. يؤكد بمنتهى الجدية: «ليس هذا هو موقف الحزب الاشتراكى».

يرافقنى آلان شونال ويعلن بابتسامة ساخرة: «هناك كثيرون من المعادين للعرب داخل الحزب».

باريس ـ الثلاثاء ٢٤ تموز/يوليو ٢٠٠١

يستقبلنى رئيس بلدية باريس الجديد، برنار دولانووى. يبادرنى متبسما: «إنك تعرف جيداً هذا المكتب». أجيبه: «بالطبع، فقد كان جاك شيراك يستقبلنى فيه عندما كنت أزور باريس كوزير فى الحكومة المصرية، ثم عندما أصبحت أميناً عاماً للأمم المتحدة».

إنه مكتب فخم تفوق فخامته مكتب رئيس الجمهورية فى قصر الإليزيه، أو مكتب رئيس الحكومة فى قصر ماتينيون.

رئيس البلدية الجديد رجل متواضع، لطيف، مجامل. نتحدث عن الرابطة الدولية لرؤساء البلديات الفرنكفونيين، وهى أحد الأجهزة التنفيذية فى المنظمة الدولية للفرنكفونية، وقد أصبح برنار دولانووى رئيساً لها خلفاً لـ جان تيبيرى.

يقول لى: «إنى مستعد لأن أضع بتصرفك كل إمكانيات مدينة باريس. فأنا مقتنع بصدق بأهمية الفرنكفونية وبأهمية العلاقات المتعددة الأطراف. أنا أدافع عن فرنكفونية تعددية. أن يكون رئيس بلدية القاهرة لا يتكلم الفرنسية، ليس سبباً كى لا نؤسس لتعاون وثيق مع مدينة القاهرة. لكن يجب أيضاً أن أطلع على كيفية عمل المنظمة الدولية للفرنكفونية. على كل حال، إن فى نيتى الاشتراك فى قمة بيروت».

أغادر القصر البلدى متوجهاً إلى وزارة الخارجية فى الـ كى دورسيه، حيث ألاقى هوبير فيدرين، هادئاً، مطمئناً على غير العادة. مما يدفعنى إلى أن أسأله إن كان ينام جيداً. جوابه قاطع: نعم. كلانا يعرف الاضطرابات التى يتعرض لها وزير

الخارجية : التنقل المستمر ، السفر بالطائرة ، اختلاف التوقيت ، التوتر العصبى الذى تسببه مفاوضات صعبة .

يقول لى : «كان الوزير الذى سبقنى يتناول حبوبًا كى ينام وأخرى كى يستيقظ» .

أعترف له بأنى أعتمد على الأدوية المنومة منذ أكثر من عشرين سنة ، وأحرص على تغيير الصنف ؛ كى لا يعتادها جسمى ، وعلى الامتناع عن تناولها فى كل ليلة يليها يوم عطلة .

بعد هذه المقدمة ندخل فى صلب الموضوع : إعادة انتخابى ، ومعارضة عمر بونجو ، واحتمال التمديد لمدة سنة إضافية . إنها علاوة إضافية كنت قد رفضتها فى الأمم المتحدة عندما عرضها على وزير الخارجية الأمريكى ، وارن كريستوفر ، فى يونيو ويوليو ١٩٩٦ .

عند المغادرة أقول له إننى علمت أن كتابه الأخير قد تُرجم مؤخرًا إلى الإنجليزية . يجيبنى : «بالفعل . حتى أنى أضفت على الطبعة الإنجليزية قسمًا لا تتضمنه الطبعة الفرنسية» .

يهدينى نسخةً عليها إهداء جميل .

باريس ـ الأربعاء ٢٥ تموز/يوليو ٢٠٠١

يعلمنى كل من أحمد ماهر ، وزير خارجيتنا الجديد ، وأخيه على ماهر ، سفيرنا فى باريس بالمحادثة التى أجرياها مع جاك شيراك . لقد طلب منهما العمل على حل مشكلة إعادة انتخابى . فمن الواضح أنه إذا أردنا فى قمة بيروت اللجوء إلى التصويت فإنى سأحصل على الأغلبية المطلوبة ، لكن التقليد يقضى باعتماد التوافق ، وتفادى التصويت .

لقد توصل جاك شيراك إلى تسوية مع عمر بونجو . تمديد ولايتى لمدة سنة واحدة مقابل ولاية لمدة ثلاث سنوات لهنرى لوبيس . تمنى طلب جاك شيراك منهما أن يحاولا إقناعى بقبول هذه التسوية . أرفض دون تردد . فقد رفضت قبل ذلك

العرض الذى قدمه إلىّ فى الأمم المتحدة الرئيس كلينتون ولا أجد أى سبب كى أقبل الآن عرضًا مماثلاً فى الفرنكفونية.

يقول لى الأخوان وهما يغادران: «خذ وقتك فى التفكير».

تونس ـ الخميس ٢٦ تموز/يوليو ٢٠٠١

أجرى حديثًا مع حبيب بن يحيى، الذى عاد إلى منصبه كوزير للخارجية، بعد أن شغل لمدة قصيرة منصب وزير للدفاع. إلى جانبه مدير عام وزارة الخارجية صادق فايالا الذى كان يشغل منصب أمين الاتحاد الاشتراكى فى إفريقيا خلال الفترة التى كنت فيها عضواً فى المكتب السياسى للاتحاد الاشتراكى، فى السبعينيات. يقع مكتب وزير الخارجية فى بناية فخمة، مزخرفة على الطراز التونسى لكنها قاصرة عن منافسة المقر السابق للوزارة وهو قصر قديم كان يسكنه حاكم تونس، بل هو متحف حقيقى.

أشعر تجاه حبيب بن يحيى بإعجاب عميق، إنه دبلوماسى محنك، لامع، يتمتع بمزية الصبر وهى أساس فى علم الدبلوماسية. لكن أيمكن الحديث عن علم الدبلوماسية؟ إذا كانت الدبلوماسية قبل كل شىء فن التفاوض، فهى علم بقدر ما هى فن.

لقد خضنا معًا مفاوضات طويلة وصعبة خلال قمة منظمة الوحدة الإفريقية فى أديس أبابا، سنة ١٩٨٩. كان هدفنا الحصول على موافقة على مبدأ الوساطة من قبل السنغاليين والموريتانيين الذين كانوا فعليًا فى حالة حرب. ثم التقينا بعد ذلك عدة مرات فى الأمم المتحدة. كنت أستمتع دائمًا بمناقشاتنا الطويلة وبالتوجهات الفكرية المتقاربة التى تجمعنا.

هذا النهار، يشكل إعلان باماكو النقطة الأساسية فى حديثنا، وعلى وجه الخصوص، الفصل الخامس منه الذى ينص على أنه عند حدوث تعطيل للديمقراطية أو عند حدوث انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان تضع السلطات الفرنكفونية يدها على المسألة لكى تبادر إلى اتخاذ كل الإجراءات التى تحول دون تدهور الوضع ولكى تساهم فى إيجاد حل للمشكلة.

يقول لى حبيب بن يحيى: «إن علاقتنا بهذا الإعلان وثيقة وملتبسة. فالمنظمات غير الحكومية تستعين به لتوجه إلينا المساءلات وللتدخل فى شؤوننا الداخلية. والواقع، إننا نواجه عدوين: الأصوليين الإسلاميين، والمدافعين الفرنسيين المزيفين عن حقوق الإنسان. هؤلاء وأولئك يتعادلون فى مستوى الضرر الذى يلحقونه ببلدنا».

وإذ يعود إلى نص الإعلان، يضيف:

«ما المقصود بانتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان؟ وكيف تعرّف تعطيل الديمقراطية؟».

أجيب:

«إنها الإبادة الجماعية، فى الحالة الأولى، والانقلاب العسكرى الذى يطيح بالنظام الديمقراطى، فى الحالة الثانية. وأضيف أن هذا الإعلان هو وثيقة سياسية وأن الوفد التونسى يمكنه أن يبلور تفسيره الخاص فى مشروع برنامج العمل الذى لم يُقَرّ بعد».

يتدخل مساعدو الوزير بدورهم. وكى يزداد الطين بلة، وضعت سكرتيرتى فى ملفى النسختين الإنجليزية والعربية للإعلان ونسيت النسخة الفرنسية، فأجدنى مضطراً للرجوع تارةً إلى النص العربى، وتارةً أخرى إلى النص الإنجليزى. لحسن الحظ تسعفنى الدبلوماسية التونسية إذ تؤمّن لى نسخة بالفرنسية. وبما أن المناقشة تطول، يقترح حبيب بن يحيى أن نتابع النقاش فى عشاء عمل، هذا المساء.

عند عودتى إلى الفندق أقرأ بتمعن مع معاونيَّ النص الفرنسى للإعلان. نستكمل المناقشة على مائدة العشاء وأنا أتذوق طبقًا تونسيًا لذيذًا. من جملة الأشياء التى ألفت النظر إليها، التذكير بأن هذا الإعلان قد ووفق عليه بالإجماع من قبل وزراء الخارجية والعدل للدول الأعضاء، باستثناء فيتنام ولاوس، اللذين رفضا أن تكون التعددية الحزبية أحد الأسس التى ترتكز عليها الديمقراطية، بدل أن تكون هدفًا ممكن التوصل إليه. أُلمّح كذلك إلى أنه سواء وُجِد هذا الإعلان أم لم يوجد،

فإن المنظمات الفرنسية غير الحكومية ستواصل توجيه انتقاداتها للحكومة التونسية .

يرد حبيب بن يحيى : «إن المنظمات الدولية غير الحكومية لا تحمل قيمًا إنسانية سامية . بل هى أدوات جديدة فى خدمة سياسة السيطرة التى تمارسها الدول الكبرى» .

ثم يضيف متحدثًا عن سياسة الكيل بمكيالين التى تنتهجها الدول والمنظمات غير الحكومية حيال انتهاك حقوق الإنسان :

«إن التطبيق الانتقائى لمبدأ التدخل يثبت أنه ليس سوى حجة تتقنع بأهداف سامية» .

يزايد عليه صادق فايالا فيقول :

«إنه الاستعمار متقمصًا شكلاً جديدًا» .

يشرف العشاء على نهايته . يرافقنى حبيب بن يحيى بضع خطوات إلى باب المطعم ، ويقول لى :

«غدًا ، بكل تأكيد ، سيبحث رئيس الجمهورية معك فى هذه المشاكل . لن أستطيع ، للأسف ، حضور هذه المحادثة ، إذ إن علىَّ إلقاء محاضرة خارج العاصمة .

تونس ـ الجمعة ٢٧ تموز/يوليو ٢٠٠١

الرئيس بن على يأتى لمقابلتى ويبدو منتعشًا ويتمتع بمزاج رائع . نتعانق ، ويبادرنى قائلاً : منذ زمن طويل لم تأتِ لزيارتى فى تونس ... » .

انتظرنا بضع ثوان كى يتسنى للمصورين أخذ الصور . إلى جانب الرئيس ، مستشاره الخاص ، عبد العزيز بن ضياء ، ومدير عام وزارة الخارجية صادق فايالا .

أول ما ينطق به الرئيس كلمات مباشرة ، إذ يقول :

«إن تونس تدعم دون أى تردد انتخابك لولاية ثانية».

ثم نعرض، كما هو متوقع، لإعلان باماكو. موقف الرئيس واضح:

«إن تونس ومعها مجموعة من الدول تعتزم طلب إجراء تعديلات مهمة على نص الإعلان، صحيح أنه قد تمت المصادقة عليه على المستوى الوزارى، لكن ينبغى له أن يحصل على موافقة رؤساء الدول. نحن ملتزمون بالديمقراطية وبالدفاع عن حقوق الإنسان لكننا لا نستطيع القبول بأن تتدخل المنظمة الدولية للفرنكفونية فى شؤوننا الداخلية، أو أن تعطى للمنظمات الدولية غير الحكومية أى دور.

ـ سيدى الرئيس، إن المنظمة الدولية للفرنكفونية لا تستطيع التدخل إلا عند موافقة الدولة العضو المعنية. وفى كل حال، إن هذا التدخل لا يكون إلا فى حالتين محددتين بدقة: فى حال حدوث تعطيل للديمقراطية، أى بعبارة أخرى، عند حدوث انقلاب عسكرى، من جهة، وعند وقوع انتهاك خطير لحقوق الإنسان، أى فى حال حصول إبادة جماعية، من جهة أخرى.

ـ لماذا إذن لا يقال ذلك بعبارات واضحة، بدل الصيغ العمومية والمبهمة التى تترك الباب مفتوحًا لانحرافات التفسير؟

ـ تونس دولة ذات سيادة. ولها الحق الكامل فى أن تفسر كما تريد الصيغ المستعملة فى الفصل الخامس من الإعلان، دون أن تفرض لهذا السبب تعديلاً على الإعلان.

يبدو أن اقتراحى أثار اهتمام الرئيس.

بعد الظهر، يخبرنى صادق فايالا الذى يرافقنى إلى المطار، بأن الحكومة مهتمة بنصائحى:

«نحن ننوى أن نبعث برسالة رسمية كى نوضح فيها تفسيرنا لبعض مواد الفصل الخامس من إعلان باماكو».

باريس ـ الاثنين ٣٠ تموز/يوليو ٢٠٠١

إنه يوم خانق. أنا مضطر لأن أقرأ جالسًا قرب المروحة. إن الحر فى باريس أو فى روما لا يهادن، ولا حتى فى الليل. فى القاهرة، يخف الحر مع نهاية النهار ويتحول إلى ليلة صيفية دافئة تعبق برائحة الياسمين اللطيفة وزهر الليمون.

باريس ـ السبت ٤ آب/أغسطس ٢٠٠١

يتصل بى هاتفيًا السفير على ماهر:

«هل قرأت المقالة عن الفرنكفونية فى صحيفة الفيجارو الصادرة اليوم؟». كأن الأمر صدفة، لم تصل إلينا اليوم صحيفة الفيجارو ونحن مشتركون فيها.

لقد أثار على ماهر فضولى. أقرر أن أنزل لأشترى الصحيفة. كل الأكشاك مقفلة. أتابع سيرى حتى مقهى دو فلور. إنها لسعادة حقيقية. لقد مضى وقت طويل لم أتنزه خلاله فى شارع سان جيرمان. واجهات المخازن، المطاعم، الأحياء الصغيرة الملاصقة. فترة كاملة من شبابى تعود إلى ذاكرتى. أنا أعيش حياة بيروقراطية بامتياز، منظمة، مبوّبة، لا روح فيها. كل يوم أغادر شقتى لأذهب إلى المكتب، وأغادر المكتب لأذهب إلى حفلات الاستقبال أو للإدلاء بتصريحات للأجهزة الإعلامية. مما يعنى أنها حياة لامكان فيها للخيال أو للارتجال. هذا الصباح، لدىّ انطباع بأننى تحررت من البرمجة. الجلوس بكل بساطة فى شرفة أحد المقاهى والنظر إلى الحياة فى الشارع. أى ببساطة، أن أعيش.

مع وفى نهاية المطاف أتمكن من شراء الجريدة، وأقرأ المقالة التى كتبتها فرانسواز دى بيلوتييه تحت عنوان: «حرب خفية على خلافة بطرس غالى». إنه نص يقسو علىّ بشدة. يقول إن العالم العربى، بما فيه لبنان، سيدعم المرشح الذى سيحصل على العدد الأكبر من الأصوات. الخطأ الأول: إن حصيلة ما أنجزتُه تتلخص فى أننى أخرجت الفرنكفونية من حيز الحميمية. الخطأ الثانى، الذى قد يجلب لى سخط الكيبيك: إن كندا تدعمنى؛ لأننى «دافعت دائمًا عن الوحدة الكندية». الخطأ الثالث: إن إعلان باماكو قد أدخل المنظمات الدولية غير الحكومية كشركاء

رسميين، «وهو توجه لا تستسيغه فرنسا كثيراً». ما من كلمة واحدة عن الإنجازات التى حققتها خلال الأربعة الأعوام المنصرمة.

ليا التى قرأت بدورها المقالة غاضبة، تقول لى:

«أنت لا تحسن التحدث إلى الصحافة. ليس هناك جملة واحدة جيدة فى حقك. هل تعرف هذه الصحفية؟ يجب أن تكتب لها».

لطالما كنت عاجزاً عن الدفاع عن نفسى تجاه الإعلام الذى كان دائمًا ضدى. لقد نصحنى الرئيس بوش الأب يومًا قائلاً:

«لا تقرأ أبداً المقالات المجحفة بحقك. لقد أعطيت تعليماتى كى لا يُشار حتى إلى مثل هذه المقالات أمامى».

مع ذلك، لم ينجح فى أن يُنتخب مرة ثانية.

باريس ـ الأحد ٥ آب/أغسطس ٢٠٠١

يبدو أنه تمَّ التوصل أخيراً إلى اتفاق بين الألبان والمقدونيين. ستكون اللغة الألبانية لغة رسمية فى الأراضى التى يشكل فيها عدد السكان الذين يتكلمون الألبانية نسبة لا تقل عن ٢٠٪ من مجموع السكان. وسيسمح باستعمال الألبانية فى البرلمان، وستكتب القوانين باللغتين الألبانية والمقدونية. إنها خطوة أولى، لكن المشكلة الحقيقية هى نزع سلاح جيش تحرير كوسوفو. لم يتم التوصل إلى حل مشكلة نزع السلاح فى الصومال، لكنها حلت فى السلفادور وإلى حد ما فى هايتى، وفى موزمبيق. فى الحالة الراهنة، يبدو الوضع أكثر تعقيداً؛ لأنه، إضافة إلى المشاكل المتعلقة باللغة وبالأمن، هناك أزمة ثقة كبيرة بين المسلمين والمسيحيين، وهى أزمة يعود تاريخها إلى الوجود التركى الذى استمر حتى مطلع القرن الماضى.

بياريتز ـ السبت ٧ آب/أغسطس ٢٠٠١

يتلخص نشاطى الفكرى فى قراءة الصحف وفى تحضير المحاضرة التى سألقيها

في بيجين. في صحيفة الهيرالد تريبيون لهذا اليوم، مقالة لـ دون ماك كينون، الأمين العام للكومنولث يقوم فيها بالدعاية لمنظمته: يتحدث تحديداً عن المساعدة التي تقدمها إلى لدول الصغيرة مثل سوازيلاند، وليزوتو، و تانغا. من الواضح أن الكومنولث يواجه المشكلة نفسها التي تواجهها الفرنكفونية: لامبالاة الرأى العام.

بياريتز- الأربعاء ٨ آب/أغسطس ٢٠٠١

رسالة من وزير خارجية بلغاريا. لقد ترك لي رقم هاتفه المحمول كي أتصل به. وهذا ما أفعله. أتكلم بالفرنسية، لكنه يفضل أن أنتقل إلى الإنجليزية. وبما أني من المدافعين المتحمسين عن الفرنكفونية، أنفّذ طلبه في الحال. يخبرني بأن رئيس الوزراء- وهو ملك بلغاريا السابق، سيميون - سيدعم ترشيحي، في بيروت. ويأمل في أن أقوم بزيارة لبلاده.

بياريتز- السبت ١١ آب/أغسطس ٢٠٠١

في سنة ١٩٧٥ - ولست واثقًا بصحة هذا التاريخ- نشرت في كتاب ألفته مجموعة من الكتاب تحت عنوان «نفط الشرق الأوسط، الصراع والأمل» The Middle East Oil Conflict and Hope مقالة بعنوان: «الجواب العربي على التحدي الإسرائيلي» The Arab Response to the Challenge of Israel شرحت فيه على وجه الخصوص مقولة مفادها أن سلاح الفلسطينيين الأفعل، هو الانفجار السكاني الذي يعتبر أكثر فتكا من انفجار قنبلة ذرية.

في صحيفة الهيرالد تريبيون الصادرة هذا الصباح، عرض للتحليل الذي يقدمه البروفسور أرنون سوفير، من جامعة حيفا، حيث يتوقع أنه في العام ٢٠٢٠ ستكون نسبة عدد السكان العرب في أراضي إسرائيل وغزة والضفة الغربية ٥٨٪. أهم من ذلك أيضًا يلاحظ أن نسبة المواطنين العرب في إسرائيل تمثل ٣٢٪ من عدد السكان الذين بلغوا سن الانتخاب.

عندما حاولت منذ أكثر من عشرين سنة أن أناقش هذه المسألة مع موشى دايان وعازار وايزمان، قالا لى بصوت واحد:

«قد تكون توقعاتك صحيحة، لكن هذه ليست مشكلتنا. إنها مشكلة الأجيال القادمة. فى الوقت الحاضر لدينا ما يكفينا من المشاكل التى ينبغى علينا معالجتها، ونحن بغنى عن الاهتمام بمشاكل إضافية قد تنشأ بعد خمسين عامًا».

رددت على ذلك بأن السياسة هى بالضبط فن إدارة المستقبل، وأن الأمور الآنية إنما هى من شأن الإدارة.

«واضح أنك أستاذ جامعى»، ختم موشى دايان بنبرة ساخرة متعالية.

ربما يعود رفض عرفات لتسوية عرجاء فى كامب ديفيد، منذ بضعة أشهر، إلى إدراك عميق لديه لقوة القنبلة الديموغرافية الفلسطينية، ففضّل أن يترك للأجيال الجديدة التى تعانى الألم والمهانة جرّاء الاحتلال العسكرى الإسرائيلى فرصة أن تصنع قدرها بنفسها.

بياريتز- الأحد ١٢ آب/أغسطس ٢٠٠١

يتصل بى أندره ساليفو من مورونى. حصل انقلاب فى أنجوان. ألقى القبض على الكولونيل عبيد وعائلته. بالتأكيد، لا يزال حل الأزمة فى جزر القُمر بعيداً.

باريس- الأربعاء ٢٢ آب/أغسطس ٢٠٠١

يأتى الجنرال عون لمقابلتى فى المنزل. إنه رجل معتدل القامة، نحيل، مستقيم الظهر، نشيطًا جداً على الرغم من صحته الضعيفة. ليس فى مظهر هذا الرجل الذى أطلق عليه أعداؤه اسم نابوليون ما يوحى بنزعة عسكرية.

يدخل مباشرة فى صلب الموضوع:

«إن الوضع فى لبنان خطير جداً، انتهاك لحقوق الإنسان، واعتقالات

عشوائية ... كيف يمكن للفرنكفونية التى تدافع عن قيم الديمقراطية أن تعقد اجتماع القمة فى بيروت؟».

بمثابة جواب، أعرض عليه كأس ويسكى أو كأس عرق لبنانى. إنه لا يشرب الكحول، لكنه يقبل أن يتناول كوبًا من عصير الليمون، ويتابع قائلاً:

«إن عقدتم هذه القمة فى بيروت، ستقوم مظاهرات ضخمة».

ـ فى هذه الظروف، ما هو اقتراحك أيها الجنرال؟ تأجيل القمة، أم إلغاؤها، أم تنظيمها فى عاصمة فرنكفونية أخرى؟ سيكون فى ذلك إهانة للبنان الذى عانى كثيرًا حتى الآن.

ـ إن الإهانة ستكون موجّهة ضد النظام اللبنانى، وليس ضد دولة لبنان أو شعب لبنان.

ـ إن التمييز دقيق. ولست متأكدا أن الرأى العام اللبنانى أو الرأى العام الدولى قادر على القيام بمثل هذا التمييز. إن القمة فرصة فريدة للبنان كى يطوى صفحة من تاريخه وكى يظهر بصورة جديدة. إن كان علينا إلغاء هذه القمة فسيكون ذلك إهانة وطنية. ما أقترحه عليك هو المساهمة فى إنجاح هذه القمة.

ـ أنا مع تحقيق المصالحة، لكن لا تستهنْ بخطورة الموقف فى لبنان، يقول لى وقد بدا عليه عدم الارتياح.

إن الجنرال عون هو نفسه الذى أعلن «حرب التحرير» ضد سوريا. هل يعى أن حربه التحريرية الشهيرة كانت خطأ فادحًا، وأن حصيلة تلك المواجهة الدامية الأخيرة بين الفرقاء المسيحيين كانت عددًا من القتلى يفوق ما خلفته كل سنين الحرب السابقة؟ لقد آمن الجنرال بدعم إسرائيل له بغض النظر عن رأيه فى ذلك. فى هذه النقطة أيضًا، أخطأ كثيرًا... أفضّل ألاّ أتكلم معه عن الماضى. تشرف المقابلة على الانتهاء، فأقول له:

«أيها الجنرال، إنى مستعد للقيام بدور الوسيط إذا طُلب منى ذلك». وأضيف بالعربية: «أنت تعرف المكانة الخاصة التى يحتلها لبنان فى قلبى».

بدا كما لو أن تعبًا هائلاً أحاط به فجأةً. ملامح وجهه تداعت. رسمت شفتاه علامة اليأس والتعب وتمتم:

«شكرًا لكل ما تقوم به من أجل لبنان».

باريس ـ الخميس ٢٣ آب/أغسطس ٢٠٠١

«حصاد أساسى»، إنه اسم عملية جمع الأسلحة من المجموعات المسلحة الألبانية، التى أطلقها حلف شمال الأطلسى.

كم هو كبير التقدم الذى تحقق خلال بضع سنوات! عندما أفكّر فى أن الأمريكيين قد رفضوا جمع الأسلحة فى مقديشيو، حتى أنهم منعوا القوات الفرنسية من القيام بهذه المهمة مخافة حصول أية مواجهة يمكن أن تنسف نظريتهم القائمة على عدم التسبب بوقوع ضحايا. الخطوة الأولى تحققت فى هايتى حيث تم تجميع الأسلحة بطريقة سرية متكتمة. واليوم يتم القيام بالخطوة الثانية: أصبح جمع الأسلحة هدفًا معلنا لحلف الأطلسى.

باريس ـ الجمعة ٢٤ آب/أغسطس ٢٠٠١

طلبت من ألكسندر أدلير قراءة نص المحاضرة التى سألقيها فى بيجين، خلال الأيام المقبلة، حول سياسة الصين الخارجية. أثار نصى اهتمامه، لكنه لفت انتباهى إلى أن الصين التى تعارض كل تدخل من أجل المساعدة الإنسانية، كما أشرت، قد أرسلت مع ذلك مراقبين إلى تيمور الغربية. أجيبه: «إن هذا التدخل تمَّ بناءً على طلب إندونيسيا. ما ترفضه الدبلوماسية الصينية هو التدخل من طرف واحد».

نحن متفقان على أن الصين ستشكل القوة الكبرى فى المستقبل، أى القوة المناهضة للقوة الأمريكية المتفوقة. مع ذلك، فالصين على عكس الاتحاد السوفييتى أو بريطانيا العظمى، لا تطمح إلى لعب دور على مستوى الكرة الأرضية.

نتبادل انطباعاتنا عن القادة الصينيين: الرئيس جيانغ زيمين، رئيس الوزراء سو رونغيى، رئيس الوزراء السابق، لى بينغ، وولى عهد رئيس الوزراء، هو جينتاوو.

يعرف كل شيء عن حياتهم المهنية، عن الروابط العائلية التى تجمعهم. نتحدث عن كونفوشيوس وحبه للعدالة. لا ينفك ألكسندر أدلر يدهشنى. لقد تمكنت اليوم من مجاراته فى الحديث؛ وذلك لأننى قرأت فى بياريتز سلسلة من الكتب عن الصين. أما هو فيكفيه أن ينهل من ذاكرته المدهشة حقًا.

صوفيا ـ الاثنين ٢٧ آب/أغسطس ٢٠٠١

أسافر إلى صوفيا فى زيارة رسمية لمدة يومين.

ينتظرنا فى مطار صوفيا السفير الجديد لبلغاريا المعتمد لدى الفرنكفونية، مارين رايكوف، وسفير مصر أسامة محمد توفيق. نتوجه إلى وزارة الخارجية. يستقبلنا على المدخل الوزير، سالومون باسى، وهو رجل شاب، ذو نظرة ذكية، قلقة. تبدأ المحادثة باللغة الإنجليزية، وهذا ما يزعج مترجمتنا الرائعة. ولأنى حريص على إرضائها، وعلى إرضاء الفرنكفونية، أقرر بعد بضع دقائق أن أتكلم بالفرنسية مما يسمح للمترجمة بأن تستعيد مكانتها.

سالومون باسى يكرر تأكيده لى بأن بلغاريا تدعم ترشيحى لولاية ثانية فى منصب الأمين العام. ثم يعلمنى بأن بلاده تخوض معركة مع بيلاروسيا من أجل انتخاب الأعضاء غير الدائمين فى مجلس الأمن. وسيكون سعيداً لو حصل على دعم الدول الفرنكفونية فى الأمم المتحدة. وفى النهاية، يعرض لملف الأطباء والممرضين البلغار الذين يعملون فى إطار اتفاق التعاون والمتهمين بمسؤوليتهم عن موت مئات الأطفال نتيجة للوباء الذى ظهر فى مستشفى بنى غازى، فى ليبيا. يسألنى:

«هل بإمكانك التدخل بسرية لدى الليبيين؟».

أذَكّره بأننى تدخلت سابقًا فى السنة الماضية، بطلب من صوفيا، وأن السلطات الليبية ردت علىَّ بأن الأمر فى يد القضاء.

تأخرنا عن الموعد المحدد ورئيس الوزراء، الملك سيميون الثانى دو ساكس ـ

كوبورغ ـ غوتا ينتظرنى. يستقبلنى بحرارة. أتوجه إليه بعبارة «صاحب الجلالة»، بعد أن انسحب معاونونا... لقد عاش فترة شبابه فى الإسكندرية، ودرس فى كلية فيكتوريا، الذى كان يرتادها شباب الطبقة الراقية فى الإسكندرية والعالم العربى. فبين أصدقائه فى تلك الفترة كان الملك حسين، ملك الأردن، وملك العراق.

يبوح لى بكل بساطة: «أجد صعوبة كبيرة فى إصلاح الإدارة فى بلادى. أعمل خمس عشرة ساعةً فى اليوم. ينصحنى أبنائى بأن أخفف من العمل. يقولون لى: «ما ينتظرك ليس عدواً سريعًا قبيل الوصول إلى الهدف، بل عدو طويل».

يتحدث بدوره عن قضية انتخاب بلغاريا فى مجلس الأمن، وعن قضية الأطباء الموقوفين فى ليبيا. بعد ذلك بقليل، وبينما هو يرافقنى إلى باب مكتبه، يقول لى بلباقة الملوك:

«ستلقى بعد قليل محاضرة عن الفرنكفونية فى نادى ميثاق الأطلسى. إنى أود أن أستمع إليك».

إنها لمفاجأة سارة أن ألتقى فى الردهة بوزير الخارجية السابق، ستويان غانيف، الذى انتخب رئيسًا للجمعية العامة للأمم المتحدة خلال فترة ولايتى. كان متردداً فى العودة إلى بلاده لأسباب سياسية. قلت له جازمًا: «يجب عليك أن تعود إلى بلغاريا، فبلادك بحاجة إليك».

يقول لى وهو يسير بضع خطوات إلى جانبى: «لقد استمعت إلى نصائحك كما ترى، وعدت إلى صوفيا».

ليس لدى من الوقت إلا ما يكفى للوصول فى الموعد المحدد إلى نادى ميثاق الأطلسى. يعقب محاضرتى نقاش متحمس حول الأمم المتحدة، ونزع السلاح، والوضع فى الدول الواقعة على حدود مقدونيا، والتدخل المسلح فى يوغوسلافيا، الذى أؤكد من جديد على عدم شرعيته؛ لأنه تقرر دون الحصول على موافقة مجلس الأمن. يبدو أن هذه الإجابة تلقى إعجابًا فى القاعة.

يعود رئيس الجمهورية، بيتار ستويانوف الذى ألتقيه بعد المحاضرة مباشرة،

ليؤكد على قضية مجلس الأمن وقضية الأطباء والممرضين البلغار فى ليبيا واللتين تحدث عنهما هذا الصباح كل من وزير خارجيته ورئيس وزرائه، الملك.

صوفيا ـ الأربعاء ٢٩ آب/أغسطس ٢٠٠١

أقضى الفترة الصباحية فى المعهد الفرنكفونى للإدارة الذى يديره أستاذ شاب ونشيط هو جان بينيتو. أتجول فى الصفوف، ألقى خطابًا، أتصور، مع أعضاء الهيئة الإدارية ومع الطلاب. هذا المعهد هو نموذج مقنع للفرنكفونية المؤسساتية فى بلغاريا. فهو لا يستقبل الطلاب البلغار فحسب، بل أيضًا الطلاب الرومانيين والمقدونيين والألبان والصرب والكروات. إنه فى وضع يسمح له بأن ينافس جامعة سنغور، فى الإسكندرية.

باريس ـ الجمعة ٣١ آب/أغسطس ٢٠٠١

أستقبل السفير الجديد المعتمد لجيبوتى لدى فرنسا والفرنكفونية، محمد غومانيه غيرى. إن هذا المنصب هو أول منصب دبلوماسى يشغله. فقد كان يعمل من قبل فى قطاع الاقتصاد، فى جمهورية جيبوتى. أستفسر عن صحة الرئيس السابق غولاد. يخبرنى بأنه «حزن جدًا على فقدان زوجته». خلافًا للعديد من الحكام المسلمين، لم يتخذ الرئيس غولاد سوى زوجة واحدة على الرغم من أنهما لم يستطيعا الإنجاب قط.

لقد استقبلنا، أنا وليا، الرئيس وزوجته خلال زيارتهما الرسمية إلى القاهرة. وعندما سألت ليا زوجة الرئيس عن تفاصيل جولتهما الأخيرة فى أوربا، أجابتها: «لقد استقبلتنا دوقة لوكسمبورج، قبل أن نمضى بضعة أيام فى أدغال هذا البلد الجميل».

أما الرئيس غولاد، فكان يستسيغ، من جهته، أن يوجه إلىَّ العتاب جهارًا: «إنك تعدنى بكثير من الأشياء لجيبوتى، لكن وعودك تبقى فى الهواء ...».

عبثًا أُعدد الوعود التى نُفذت (إرسال أطباء، وأساتذة، ومترجمين،

ومستشارين قانونيين مصريين)، فهو لا يتذكر إلا الوعود التى لم يكن بمستطاعى أن أفىَ بها.

إنه حكيم أفريقى، تُخشى أقواله ويُحسب لها حساب. أذكر مداخلاته الملفتة سواء فى قمة منظمة الوحدة الإفريقية، أو فى القمة الفرنسية ـ الإفريقية، أو فى القمة الفرنكفونية. أذكر أنه كان دائمًا مستعدًا لرفع صوته فى وجه أصحاب الأصوات القوية الذين كانوا يحرصون على عدم الرد نظرًا لكبر سنه، أو مخافة التعرض لعنف ردوده السريعة.

باريس ـ الأحد ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

تقول صحيفة الأهرام الصادرة هذا الصباح أن واحدًا وستين قائدًا فلسطينيًا قد اغتيلوا خلال السنوات الأخيرة على يد المخابرات الإسرائيلية. ما يؤلمنى أكثر من أى شىء هو صمت المجتمع الدولى، وصمت الإعلام والمنظمات غير الحكومية أمام إرهاب الدولة هذا. إنه مثال ساطع على الأسلوب الانتقائى الذى تنتهجه المنظمات الدولية غير الحكومية. فقد تلقيت من هذه المنظمات مئات الرسائل التى تستنكر انتهاك حقوق الإنسان فى هايتى، وفى تونس، وفى ساحل العاج ... فى المقابل، ما من كلمة واحدة عن القمع الإسرائيلى، عن مئات القتلى، وآلاف المعوقين، عن المنازل المهدمة، والأراضى المنهوبة، عن تعذيب الأطفال، هذا التعذيب الذى تشير إليه الصحف الإسرائيلية نفسها. أين المدافعون عن حقوق الإنسان؟ لماذا لا يجرأون على رفع الصوت ليستنكروا؟ هل يخافون أن يتهموا بالعداء للسامية أو بالعداء لإسرائيل؟ اللهم إلا إذا كانت المنظمات الدولية غير الحكومية تأتمر بتعليمات بعض جماعات الضغط أو بعض الدول. لم يستطع أريل شارون أن يضمن الأمن لشعبه، كما وعد. وخلافًا لما تعتقده شريحة من الرأى العام الغربى، يبدو الانتحاريون الفلسطينيون أبطالاً فى نظر مليار مسلم. و مع ذلك، فأنا أول من يستنكر العمليات الإرهابية التى ينفذها هؤلاء الانتحاريين الذين يقتلون أناسًا أبرياء، والذين يعطون صورة سلبية عن النضال الفلسطينى من أجل الحرية.

هل أستطيع غداً أن أدين دولة فرنكفونية قامت بسجن صحفى أو بمنع منظمة دولية غير حكومية، بينما حكومة إسرائيل تقتل، واحداً وستين قائداً فلسطينياً على مرأى من المجتمع الدولى الصامت، مفلتة من أى عقاب؟ من الواضح أن حماية حقوق الإنسان فى غالبية دول العالم الثالث ليست سوى شعارات تضعها القوى الكبرى فى خدمة مصالحها. لكن ما يشعرنى بالإهانة وأكثر ما يؤلمنى هو عجز العالم العربى. فإذا استثنينا الشعارات والعبارات المكررة، يبدو العالم العربى مشلولاً تماماً، كأنه يغرق فى ثبات عميق. الفلسطينيون وحدهم يعانون هذه المأساة الرهيبة.

باريس - الثلاثاء ٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

أستقبل هذا الصباح فيتالى يوخنا، الوزير المستشار فى سفارة أوكرانيا. لقد تعاملت مراراً فى الأمم المتحدة مع دبلوماسيين أوكرانيين: إنهم مفاوضون عنيدون ومتشبثون برأيهم. رفضت اللجنة المكلفة بدراسة طلبات الانضمام للفرنكفونية قبول أوكرانيا بصفة عضو مراقب، باعتبار أن اللغة الفرنسية ضعيفة الانتشار فيها أو أن انتشارها غير كاف. ينبرى الوزير المستشار لدحض هذا الرأى مسلحاً بالحجج. ألم يتزوج الملك هنرى الأول ابنة أمير كييف إيراوسلاف لوساج سنة ١٠٥١، فأصبحت بهذا الزواج ملكة لفرنسا؟ ثم إن اللغة الفرنسية لغة ثالثة فى أوكرانيا، يعلمها أربعة آلاف وثلاث مائة أستاذ، معظمهم أعضاء فى الجمعية الدولية لأساتذة اللغة الفرنسية.

أحاول أن أخفف من حماس محدثى شارحاً له أن رأى اللجنة المكلفة بدراسة طلبات الانضمام استشارى، وأن وزراء الخارجية، وخصوصاً رؤساء الدول والحكومات يمكنهم عند انعقاد القمة تجاوز هذه التوصية. يبدو كأنه لا يسمعنى ويتابع مرافعته بحماس مدافعاً عن فرنكفونية أوكرانيا. أصغى إليه بطول أناة.

هل يجب «تعميق» الفرنكفونية أم «توسيعها»؟ تختلف آراء الدول والحكومات فى ذلك. لكن جميعهم دون استثناء، ينسون شرطاً أولاً ضرورياً: زيادة موازنة المنظمة كى تحسب حساب القادمين الجدد.

باريس ـ الأربعاء ٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

أخيراً، اتخذت الجماعة اليهودية فى فرنسا موقفًا إزاء جنون أرييل شارون الذى يساوره شك مرضى، على كل حال، إزاء كل ما هو فرنسى. فصحيفة لوموند تنشر اليوم الكتاب المفتوح الذى وجهه إليه تيو كلاين، المسؤول السابق عن (المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية) فى فرنسا، (CRIF). نبرة لا لبس فيها: «إن هذا الموقف عبثى لأنه لا يؤدى إلا إلى تغذية الحقد والكراهية، ولأنه يدفع الشعب الفلسطينى إلى الالتفاف حول من يعتبرهم مناضليه، ولأنه يغذى لدى الشعب الإسرائيلى وهم الحصول على أمن مزيف».

على الصفحة ذاتها: «نداء للتعقل» وقعه حوالى ستين شخصًا من الباحثين والمفكرين الذين يدعون إلى تقسيم البلد موضحين أنه «لا يمكن تحقيق سلام دائم إن لم يكن لكلتى الدولتين اللتين تنشآن عن هذا التقسيم سيادة كاملة على أراضيها ... ولا يمكن قيام دولة فلسطينية مستقرة إن كانت تضم مستوطنات وطرقًا تؤدى إليها. وقد أظهرت تجربة المستوطنات فى سيناء أنه يمكن التخلى عن المستوطنات فى جو سلمى. .».

أعتقد أنى أعرف رد أرييل شارون على هذه الطروحات: «ليس لأحد أن يلقننا دروسًا، وخصوصًا الجالية اليهودية فى الخارج التى إن كانت تريد أن يُسمع رأيها فلتأت لتستقر فى إسرائيل».

باريس ـ السبت ٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

إن المؤتمر العالمى لمناهضة العنصرية الذى نُظّم فى دوربان أعطى برهانًا جديدًا على ازدياد الهوة بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة. فالحرمان المتفاقم، والإذلال اليومى، والتهميش، والإقصاء، مشاكل تزداد صعوبة التعايش معها وتحملها، يومًا بعد يوم: هذا هو المعنى الحقيقى لمؤتمر دوربان.

بالطبع هناك أيضًا شبه إجماع على شجب العنجهية الإسرائيلية المدعومة من القوة الأمريكية العظمى: طريقة أخرى تتوسلها دول العالم الثالث للتعبير عن الغضب.

هؤلاء الذين كانوا يعتقدون أن الصراع بين الشمال والجنوب سينتهى بجلاء الإستعمار عن إفريقيا ـ وهى آخر مسرح للاستعمار ـ وباجتثاث نظام الفصل العنصرى، وأن نهاية الحرب الباردة ستشهد ولادة حركة ارتقاء لدول العالم الثالث، كانوا على خطأ كبير. ذلك أن هذه التحولات ستدعّم الأحادية الأمريكية أو الانعزالية الأمريكية الجديدة. بل أكثر من ذلك، ستقود هذه التحولات البلدان الغنية إلى أن إحكام غلق حدودها أمام فقراء الجنوب الساعين وراء سراب الشمال، وتمنعهم من أن يطأوا أرضها وأن يستفيدوا من ثرواتها.

خلال ساعة سأستقل الطائرة إلى بيجين، العاصمة الأولى فى العالم الثالث التى سيأتى يوم تقود فيه حركة جديدة للدفاع عن العالم الثالث. من المؤكد أن فشل حركة عدم الانحياز، وفشل حركة التجمع الإفريقى ـ الآسيوى، وفشل العالمية الماركسية ليس من شأنه أن يشجع الصين أو الهند على تحمل مسؤولية دور قوة مضادة جديدة، وحدها قادرة على الحيلولة دون خراب هذا الكوكب. ذلك أنه فى غياب قيادة تجمعها، ستبقى دول العالم الثالث مقسّمة، خاضعة لسيطرة الدول المتقدمة، وستستمر الهوة فى الاتساع بين الشمال والجنوب.

(أغادر إلى الصين ...) السفر بالطائرة ليلاً متعب، فأنا لا أتمكن من النوم. أصغى إلى برنامج موسيقى يبث أغان عربية «مستغربة». فالمغنون المعاصرون يميلون إلى اعتماد فرق كورس وتوزيعات موسيقية لا تمت بصلة إلى الموسيقى العربية. ما من أغنية واحدة، لكبار المغنين التقليديين أمثال أم كلثوم، وعبد الوهاب، أو فريد الأطرش، الذين لا يزالون لحسن الحظ يحتلون مكانة مميزة فى البرامج الإذاعية فى العالم العربى.

بيجين ـ الأحد ٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

أعيد بناء مطار بيجين ليكتسب أبهة تليق بهذه الحضارة العريقة التى تعود إلى آلاف السنين. المدينة التى تستعد لاستقبال الألعاب الأولمبية سنة ٢٠٠٨ تبدو ببروجها العالية وشوارعها المشجرة كأنها مدينة أخرى. فقد تكفّل رئيس بلدية

بيجين بتخصيص ٤٠٪ من المساحة للمساحات الخضراء. خلافًا لما نلاحظه فى جميع العواصم الكبرى نجح المهندسون فى إضفاء الطابع الصينى النموذجى على ناطحات السحاب. يلفت انتباهى نقطة واحدة: رجال البوليس، سائقو السيارات، نادلو المقاهى جميعهم يلبسون القفازات البيضاء؛ وهذا ترف لا نجده لا فى أوربا ولا فى أمريكا ولا فى العالم الثالث، ولم يستطع أحد أن يعطينى تفسيراً له.

بيجين ـ الاثنين ١٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

فى التاسعة تمامًا، افتتاح مؤتمر «الصين والعالم فى القرن الحادى والعشرين»، بحضور العديد من نجوم السياسة: زبيغنيو بريزينسكى، الذى فاوضت معه معاهدة الصلح مع إسرائيل سنة ١٩٧٩، هانغ سونغ ـ يو، وزير الخارجية السابق فى كوريا، روبير هاوك، وبول كيتينغ، وهما رئيسا وزراء سابقان فى استراليا، كيفو توشيكى، رئيس الوزراء السابق فى اليابان، الأميرال جاك لانكساد، وجاك سانتير، وهو الرئيس السابق للجنة الأوربية، هلموت كول الذى يظهر بمزاج جيد وصحة ممتازة، على الرغم من متاعبه السياسية والشخصية. كذلك دُعيت كبار الشخصيات الصينية إلى حفل الافتتاح.

(بعد الظهر ...) مداخلات مختلف الخطباء حول موضوع «أى دور للصين فى القرن الحادى والعشرين؟».

يوحى إلىّ هذا الموضوع بأفكار ثلاث:

١ ـ إن الصين تزعج العالم الغربى نظرا لأنها تنتزع منه مكانته المركزية التاريخية. من الواضح أنها تزعزع الطمأنينة الفكرية للغرب، وتؤثر فى الإيرادات التى تؤمنها له مكانته التاريخية، وموقعه المميز.

٢ ـ إن الصين المتشربة بمبدأ «wuwei» ومعناه الحرفى «عدم التحرك»، وهو فى الواقع فن التحلى بالصبر، فن ترك الزمن يفعل فعله، ليست مستعجلة أبدًا للعب الدور الأول على مستوى الكرة الأرضية. أو بتعبير آخر، وكما قال لى

المسؤولون الصينيون: «الصين لا تطمح إلى لعب دور قيادى على المستوى الدولى».

٣ـ على الرغم من تصميمها الاستراتيجى على إعطاء الأولوية للسياسة الداخلية على السياسة الخارجية، فإن الصين تجد نفسها أكثر فأكثر معنية بالنظام السياسى والإقتصادى العالمى، متورطة فيه، بل محاطة به. كما أن عضويتها الدائمة فى مجلس الأمن، ومشاركتها فى عشرات المنظمات الدولية، وانضمامها إلى منظمة التجارة العالمية تشكل كلها التزامات تقودها إلى تحمل مسؤوليات على الصعيد العالمى.

بناءً على ذلك، يمكن أن نلخص فى ست نقاط المبادئ الكبرى التى توجه سياسة الصين الخارجية، وهى مبادئ يجب أن تطبق على مستوى الكرة الأرضية بأكملها.

المبدأ الأول: إن سياسة خارجية تقوم على حفظ السلام والاستقرار تخدم التنمية.

المبدأ الثانى: تتطلب المحافظة على السلام بلورة مفهوم جديد للأمن يتأسس على التخلى عن الحالة التى كانت سائدة خلال فترة الحرب الباردة والسباق على التسلح. لكن ذلك ليس بالأمر السهل؛ لأنه يفترض ليس فقط تغييراً فى السياسة بل تغييراً فى المفاهيم، على الأخص. فالمفاهيم التى سادت وترسخت خلال أربعين عامًا، وتمخضت عنها مؤسسات، ومجموعات ضغط حقيقية، كانت تتمحور حول فكرة «العدو»، ولا يهم إن كان هذا العدو حقيقيًا أم وهميًا. على كل حال، إن هذا العدو هو الذى كان يحمل الشعوب على الإذعان ويعطى المبرر الشرعى للتسلح. يكفى أن ننظر إلى الشعارات المتداولة فى تلك الفترة: «الشيطان الأكبر»، «الخطر الأصفر» والتى لم يكن لها غاية سوى الحصول على مساندة الرأى العام.

باختصار، وفقًا لهذا المفهوم الجديد، لا يمكن أن يكون السلام مرادفًا لتوازن القوى، كما لا يمكن أن يكون السلام مفروضًا بالهيمنة كالسلام فى الإمبراطورية

الرومانية pax romana أو السلام فى الإمبراطورية البريطانية pax britannica، ماضيًا، أو السلام فى الإمبراطورية الأمريكية pax americana، حاضرًا؛ لأن الهيمنة تؤدى حتمًا إلى خلل فى توازن القوى وإلى سباق على التسلح. الأمر يتعلق، إذن، بمفهوم جديد للأمن الجماعى العالمى pax orbica.

المبدأ الثالث: يجب أن تقوم العلاقات الدولية على الديمقراطية المتأسسة على مبدأ سيادة القانون. وهذا يتطلب، على الأخص، نشر مبدأ تعدد الأقطاب، وتدعيم التضامن الدولى لتفادى الهوة بين الشمال والجنوب، وأخيرًا، إصلاح الأمم المتحدة، وهذا ما ناديت به خلال مدة ولايتى لمنصب أمين عام للأمم المتحدة.

المبدأ الرابع: الاحترام الكامل لسيادة الدولة القومية ورفض كل تدخل فى الشؤون الداخلية للدولة. فى هذا المجال، يعتبر مفهوم التدخل للمساعدة الإنسانية غريبا كليًا عن القانون الدولى ويشكل انتهاكًا للمبادىء التى أعلنها ميثاق الأمم المتحدة. أكثر من ذلك، إن هذا التدخل يطبق بأسلوب انتقائى، ولطالما اعتمدت الدول الغربية سياسة الكيل بمكيالين.

المبدأ الخامس: تشكيل مجموعات إقليمية سواء فى المجال الاقتصادى أو فى مجال الأمن والسلام.

المبدأ السادس: حماية حقوق الإنسان تبقى أولوية. لكن يجب عند تطبيقها أن تؤخذ بعين الاعتبار خصوصيات الثقافة الصينية.

ومع ذلك، فإن هذه المبادئ أقل أهمية من مستقبل العلاقات بين بيجين وواشنطن. ما هو مصير هذه العلاقات؟ نرى اليوم مواجهةً بين مدرستين فكريتين. الأولى ترى أن الحرب الباردة الصينية - الأمريكية واقعة حتمًا، وهذه وجهة نظر بعض الخبراء الصينيين وبعض الخبراء الأمريكيين، على السواء.

ففى رأى الخبراء الصينيين الذين لا يزال العنف التاريخى للاستعمار محفوظًا فى ذاكرتهم، ستلتقى أوربا وأمريكا دائمًا فى مواجهة الصين. بهذا المعنى، تبقى أوربا تابعة للولايات المتحدة. ويبقى الغرب مصرا على فرض رؤياه للأمور وإملاء القاعدة الدولية.

بالنسبة إلى الخبراء الأمريكيين الذين تربوا فى مدرسة الحرب الباردة، فإن الاستراتيجية التى تنتهجها بلادهم لا تسمح بأن يكون لقوة كبرى غيرها سياسة خارجية مستقلة. وليس إنشاء حزام مضاد للصواريخ، والدعم العسكرى لتايوان إلا وسيلتين بين وسائل أخرى، لتدارك خطر تطور القوة العسكرية الصينية والحد منه.

من الواضح أن موقفًا كهذا لا يمكن إلا أن يؤدى إلى سباق على التسلح، ذلك أن الصين تجد لزامًا عليها مضاعفة عدد صواريخها البعيدة المدى وتبّنى استراتيجية تمكنها من تحدى الحزام الأمريكى المضاد للصواريخ. هكذا يجب انتظار أن يتوصل الطرفان إلى توازن فى القوى حتى يتمكنا من اعتماد مبدأ التعايش السلمى فى علاقاتهما الثنائية.

أما المدرسة الثانية التى تجد مدافعين عنها فى بيجين كما فى واشنطن، فهى ترى أنه بالإمكان تمامًا الوصول إلى هذا التعايش السلمى دون المرور بمرحلة السباق على التسلح. وأن العلاقات الاقتصادية بين الصين والولايات المتحدة هى التى ستسمح بتجاوز الخلاف السياسى والعسكرى والعقائدى.

إن اللقاء السلمى فى تايوان سيحدث عاجلاً أم آجلاً على أساس المعادلة التالية «بلد واحد ونظامان مختلفان»، وهى معادلة برهنت نجاحها فى هونج كونج، وفى ماكاوو. فضلاً عن ذلك، ثمة صلات وثيقة جدًا تربط اليوم بين ضفتى مضيق تايوان: أكثر من عشرين مليون تايوانى ذهبوا إلى الصين حيث استثمروا مليارات الدولارات. إن القوة المُقنعة التى يتمتع بها الاقتصاد وكذلك الدبلوماسية قد تنتصر على قوة السلاح الرادعةَ. يكفى للتأكد من ذلك النظر إلى العلاقات التجارية مع اليابان، وهى الشريك التجارى الأول للصين، إذ يبلغ حجم التبادل التجارى بينهما مبلغ ٦٦ مليار دولار سنويًا، وإلى العلاقات التجارية مع أوربا إذ تفوق قيمة التبادل التجارى معها ٥٥ مليار دولار سنويًا. من جهة أخرى، فإن انضمام الصين إلى منظمة التجارة العالمية، وتطورها المنقطع النظير حيث بلغت نسبة نموها الاقتصادى هذه السنة ٧٪، على الرغم من الركود الاقتصادى العالمى، من العوامل التى تجعل توقع التخلى عن منطق الحرب الباردة فى المستقبل القريب، ممكنًا.

تثير لدى المدرسة الأولى مخاوف وتسمح لى المدرسة الثانية بأن أحلم. لكن وحده المستقبل سيقول لنا أى الخيارين سينتصر. ربما أيضًا ستفتح الظروف الدولية والعولمة أمامنا سبلاً أخرى لا نعرفها بعد.

(فى المساء ...).

نحن مدعوون إلى وليمة كبيرة. إلى جانبى، زبيغنييف بريزينسكى. نتحدث عن الوضع الإسرائيلى-الفلسطينى، يقول لى: «إن السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط تكشف عن غباء هائل أو عن صلافة لا تقلُّ هولاً. أعنى بهذا أن الأمريكيين ينتظرون كى يتدخلوا أن يتعب المتصارعان من حربهما الدامية».

بيجين-الثلاثاء ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

يلقى بريزينسكى خطابًا رائعًا. إنه مؤمن بأن تفوق القوة العظمى الأمريكية فى العشرين سنة المقبلة أمر لا ريب فيه. يتساءل إن كانت الصين قادرة على متابعة السير على طريق التحولات والتطور الاقتصادى، اللهم إلا إذا وافقت على أربعة شروط: التوصل إلى توازن بين التحولات الاقتصادية والتحولات السياسية، التغلب على اتساع الهوة بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة، التصدى لحلف محتمل بين أصحاب المشروعات والمافيا، وتجنب الصراع الإيديولوجى. من وجهة نظره، العلاقات الصينية-الأمريكية جيدة وستحل المسألة التايوانية سلميًا مع الوقت. إنها طريقة أخرى لقول ما عبر عنه صباح أمس كيان كيشين بالجملة التالية: «لدينا من الصبر ما يكفى للانتظار»؛ وهذا موقف يعزى فى رأيى إلى تأثير الفلسفة الصينية.

أعتذر عن تلبية دعوة إلى العشاء هذا المساء؛ لأننى منهك من السفر واختلاف التوقيت والوتيرة الضاغطة لأعمال المؤتمر. نقرر ليا وأنا أن نتناول وجبة خفيفة فى الغرفة. بينما أنا أقرأ نص المداخلات لهذا اليوم، تشاهد ليا الأخبار على محطة الـ CNN. أسمعها فجأة تصرخ: «اعتداء على البرجين التوأمين لمركز التجارة العالمى، وقصف على وزارة الدفاع الأمريكية!» بعد لحظة ذهول، أهرع إلى الشاشة

الصغيرة. أشعر كأنى أشاهد فيلمًا سينمائيًا من نوع أفلام الخيال العلمى. لحظة بعد لحظة، تعيد المحطة بث صورة انهيار البرجين التوأمين. احتمال أن يكون الاعتداء عملاً إرهابيًا إسلاميًا.

ردة فعلى الأولى، شعور بالارتياح. فلن يقع إلا القليل من الضحايا لأنها السابعة صباحًا فى نيويورك. لكن ليا تصحح خطئى على الفور: إنها الساعة التاسعة والنصف وفى هذه الساعة يضم البرجان آلاف الرجال والنساء...

ردة الفعل الثانية: فقد الحزام المضاد للصواريخ قسمًا كبيراً من مبررات وجوده. فالأراضى الأمريكية ليست منيعة. على الرغم من أن بعض المتداخلين شرحوا بالأمس أن هذا الحزام ليس سلاحًا دفاعيًا إنما وجد لحماية الولايات المتحدة من ضربات ثأرية يمكن أن تقوم بها دولة ما تقع ضحية تدخل عسكرى أمريكى. فكم بالأحرى أن لا يكون اليوم المدافعون عن الحزام المضاد للصواريخ أقرب إلى التخلى عن وجهة نظرهم.

ردة الفعل الثالثة: أخشى من حرب صليبية ضد المسلمين وذلك لأن الرأى العام الأمريكى لا يميز بين المسلمين الحقيقيين ـ وهم المسلمون المعتدلون وبين الأصوليين المتشددين.

ردة الفعل الرابعة: أخشى أن تتذرع إسرائيل بهذه الكارثة كى تحتل الأراضى الفلسطينية وتزيد من شدة القمع.

بينما أنا أُدَوِّن على عجل بعض الملاحظات، تثور ليا. تلومنى على عدم اكتراثى إزاء المأساة الإنسانية التى تحدث: «هل خطر ببالك أن أخى يسكن نيويورك وأن صادق يعمل فى بنك ستانلى مورغان؟». نحاول الاتصال بهما هاتفيًا، لكن الخطوط مشغولة. أرتأى أن نتناول حبوبًا منومة كى نتمكن غداً من التفكير بهدوء ومن أن نفعل شيئًا، خصوصًا وأن المعلومات التى تصلنا لا تزال تتضمن الكثير من الفجوات. ليا لا تسمع. أمضت الليلة فى مشاهدة الـ CNN والـ BBC.

بيجين، باريس ـ الأربعاء ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

على الرغم من المنومات، أستيقظ فى وقت مبكر جداً لأستعلم عن آخر الأخبار. أراجع الملاحظات التى دونتها مساء أمس، فى أثناء المأساة. أود هذا الصباح أن أضيف أن الخطر الكبير الذى يهدد السلام بعد اعتداءات نيويورك وواشنطن، هو البحث عن عدو، كما فى الماضى، البحث عن «الشيطان الأكبر» أو عن «الخطر الأصفر». أخشى أن تكون لواشنطن النية فى أن تجعل من الإرهاب شيطاناً جديداً فى العالم العربى وفى العالم الإسلامى اللذين دفعا ضريبة باهظة للأصولية الإسلامية: إن الحروب الداخلية فى الجزائر، وفى كراتشى، وكذلك اغتيال السواح فى مصر ما هى إلا أمثلة على الصراع المستمر الذى على الحكومات العربية والإسلامية أن تخوضه، كل فى بلدها، ضد الإرهابيين.

إضافة إلى ذلك، وخلافاً لانطباعى الأول، إنى مقتنع الآن بأن أحداث الأمس المأساوية تثبّت المدافعين عن الحزام المضاد للصواريخ فى مواقفهم، وتعطيهم الحجة المقنعة، وهى أن الإرهابيين لن يتأخروا فى امتلاك الصواريخ. إن السباق الجديد على التسلح أمر مؤكد. وستكون الصين مضطرة لأن تضاعف مئة مرة عدد صواريخها العابرة القارات وهو عشرون أو ثلاثون صاروخاً. هى حرب باردة تمتد على مساحة الكرة الأرضية.

يُستأنف المؤتمر. وإذ أصل متأخراً، يفوتنى للأسف الاستماع إلى المداخلة القصيرة لزبيغنيف بريزينسكى. يبدو ساهماً ومهموماً. خلال الغداء، يخبر أحدنا الآخر عن ردات فعله. يقول لى:

«إن المشكلة هى معرفة من ستستهدف عمليات الثأر الأمريكية التى ستكون على مستوى الاعتداء الإرهابى. لا معنى لإسقاط بعض القنابل على أفغانستان».

أكشف له عن خشيتى من موجة معادية للعرب وللإسلام. يشاركنى القلق نفسه.

«لكن هناك أمرا آخر هو أن هذه الأحداث يمكن أن تزيد من التعبئة الأصولية.

ولابدّ أن هذا «الانتصار الكبير» قد رسخ لديهم الاعتقاد بقدرتهم على الانتصار».

خلال فترة بعد الظهر، يوجه أحد المتحدثين تعازيه إلى بنك ستانلى مورغان الذى خسر معظم موظفيه. أدرك فجأةً أن صادق، وهو ابنى بالمعمودية، يعمل لبنك ستانلى مورغان. ينتابنى هلع فجائى. أهرع إلى غرفتى للاتصال بنيويورك. يرفع صادق السماعة متفاجئًا، فالساعة فى نيويورك هى الرابعة صباحًا. عندما يعرف سبب مكالمتى، يبدو مندهشًا: «تعرف أن مكتبى بعيد جدًا عن مركز التجارة العالمى..». لقد أرهقنى هذا الخوف الكبير.

(قبيل المساء...) يستقبلنا لى بنغ وزوجته. يعود للحديث عن المؤتمر ويهنئنى على خطابى «الملائم جدًا». نتحدث عن الاعتداءات فى نيويورك: يدين الإرهاب. يسألنى بعد ذلك عن رأيى فى الأزمة الاقتصادية التى تظهر أعراضها فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى أوروبا. أجيبه:

ـ إنى متفائل. أعتقد لأن الأوضاع ستتحسن فى نهاية العام...

ـ أنا أقل تفاؤلاً منك...

ـ حضرة الرئيس أنت اقتصادى كبير، وما أنا إلا سياسى صغير، وهذا بلا شك ما يفسر اختلاف وجهات النظر بيننا».

خلال حفل العشاء الذى تقيمه على شرفى الجمعية الصينية فى الأمم المتحدة، يسألنى أحد المدعوين: «بغض النظر عن الضحايا، يجب الإقرار بأن أحداث الأمس كانت مصدر ارتياح لدى الرأى العام فى العالم الثالث؛ لأنها برهنت على أن أمريكا ليست القوة التى لا تقهر. لهذه الأحداث دلالة رمزية. فقد دُمّر مركز القوة الاقتصادية فى نيويورك ومركز القوة العسكرية فى واشنطن. وربما ستؤدى أخيراً هذه الإهانة المزدوجة إلى التخفيف من صلافة القوة العظمى. على كل حال، إن من شأنها أن تشدّ من عزيمة كل الضعفاء فى هذا الكوكب، الذين أصبحوا مقتنعين بأنهم يمتلكون الوسائل لإسماع صوتهم.

باريس ـ الجمعة ١٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

أقوم بزيارة لوزير خارجية توغو، كوفى بانو، الذى يمر فى باريس. يوافق معى على أن سجن ياووفى أغبوييبو، رئيس لجنة العمل من أجل التحديث، وهى حزب معارض، ليس لصالح صورة الحكم فى توغو. أقدم مرافعة لإطلاق سبيله.

أخوض مناقشة شيقة وأخوية مع الجنرال المالى، أمادو تومانى تورى: إنه مصمم على ترشيح نفسه للانتخابات الرئاسية المقبلة. خلال بضعة أيام سيستقيل من الجيش. لدى قناعة بأنه سيكون رئيس دولة عظيم، ليس فقط لأنه عرف أن يكوّن شبكة من العلاقات فى أوربا وفى الولايات المتحدة، بل لأنه محترم جدًا أيضًا فى إفريقيا بسبب دور الوسيط الذى قام به فى النزاعات المختلفة. بالطبع، يبقى عليه أن يخطب ود الأحزاب السياسية المالية، وأن يترأس تحالف قوى المعارضة.

باريس ـ السبت ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

قرأت هذا الصباح بسرور وارتياح الكتاب المفتوح الذى وجهه جان دورموسون إلى الرئيس بوش. يقول فيه: «لو تجرأت لناشدتك ألاّ تكون بالنسبة إلى الجماهير المسلمة، من المغرب إلى إندونيسيا، مثل شارون بالنسبة إلى الفلسطينيين...».

لكن ما لا يقوله دورموسون، هو أن الإرهابيين الذين ماتوا وهم يطلقون الطائرات المدنية قنابل على البرجين التوأمين لمركز التجارة العالمى، وعلى مبانى البنتاجون قد أصبحوا شهداء فى نظر الجماهير المسلمة، تمامًا كشهداء المسيحية الأوائل، الذين ماتوا وهم ينشرون إيمانهم، قبل أن يصبحوا قديسين. وأعتقد أنه يجب أن نأخذ بالاعتبار، بالإضافة إلى تصريحات التضامن مع الشعب الأمريكى التى أدلت بها الحكومات المسلمة والعربية، الارتياح الذى شعرت به الجماهير المسلمة، من المغرب حتى إندونيسيا وهى ترى الضعفاء يسحقون الأقوياء. ليس فى ما أكتبه أى شىء من العداء لأمريكا.

أتناول طعام العشاء مع هكتور غرو إسبيال. بصفته رجل قانون بارع، يرى أن اعتداءات ١١ أيلول تشكل وضعًا لا سابق له ولم يحتط له القانون الدولى: إعلان

حرب على مجموعات إرهابية وليس على دول. هذا دليل إضافى على أن الدولة القومية تتنافس مع قوى فاعلة جديدة لا علاقة لها بمفهوم بالدولة. ورأى فى ذلك أيضا دليلا واضحا على انحسار دور الأمم المتحدة.

بيروت ـ الأربعاء ١٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

يستقبلنى الرئيس إميل لحود ببشاشة وحرارة وتفاؤل. يرتدى بذلة بيضاء، صيفية. فالطقس لا يزال فى بيروت صيفيًا. أُركِّز وأنا أتحدث عن المؤتمر الذى شاركت فيه فى بيجين على النقاش الذى دار بيننا هناك حول الحزام المضاد للصواريخ: هل هو سلاح هجومى أم سلاح دفاعى يهدف إلى حماية أراضى الولايات المتحدة فى حال تدخل عسكرى أمريكى فى بلد ما. يشرق وجهه وتبدو عليه علامات انتباه متزايد. إنه الرجل العسكرى الذى يجد من جديد الموضوعات التى كانت تشكل محور اهتماماته.

نتحدث عن التحضيرات للقمة. لقد أجرى مؤخراً محادثات هاتفية مع جاك شيراك وجان كريتيان اللذين يدعمان الإبقاء على المؤتمر على الرغم من عمليات الثأر الأمريكية المحتملة فى أفغانستان أو فى مكان آخر.

أقول له: «اسمح لى أن أقترح إرسال مبعوثين إلى رؤساء الدول والحكومات لطمأنتهم على أن كل الاحتياطات الأمنية اللازمة قد اتخذت لتأمين مجيئهم».

يرد علىَّ الرئيس بجلال واعتزاز، أن النظام والأمن مستتبان فى بيروت.

مقابلة مع رئيس مجلس النواب، نبيه برى. يشرح لى مطولاً نظريته فى الأصولية الإسلامية التى تجد جذورها بشكل أساسى، من وجهة نظره، فى الاعتداء الإسرائيلى ضد الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين.

أزور مواقع القمة. أُنجزت أشغال مهمة: رصف طرقات، ترميم مبان، تنظيم مساحات خضراء. لقد خلقت القمة الفرنكفونية حالة تعبئة وطنية حقيقية. ولا أحد يجرؤ على الإشارة إلى إمكانية تأجيلها أو إلغائها.

باريس ـ الجمعة ٢١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

أستقبل سفير باكستان الجديد فى باريس، موسى جواد شوهان. يتحدث بوقار عن الوضع البالغ الصعوبة الذى تجتازه بلاده. يشرح لى بالتفصيل الظروف فى أفغانستان: قبائلها المختلفة، وفرقها الشيعية والسنية، وسياسة الدول المجاورة. للحظات أرى التوتر على تعابير وجهه. يقول: «لن يُسلّم الطالبان أسامة بن لادن أبدًا: إنه ضيفهم والضيف لا يُمَس». الأصوليون أقلية فى باكستان، لكنهم أقلية نشيطة جدًا».

أجيبه: «فى الوقت الحاضر، لا أرى إمكانية إلا لتوجهين كبيرين. بادىء ذى بدء، شرح ومزيد من الشرح لخطورة الخلط بين الإسلام والإرهاب. بعد ذلك، أعتقد أنه يجب محاولة إقناع المجتمع الدولى أنه فى حال حصول تدخل عسكرى، فيجب أن يكون متعدد الأطراف وفى إطار الأمم المتحدة».

باريس ـ السبت ٢٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

أحاول أن أجد فى مكتبتى الطبعة العربية من ميثاق الأمم المتحدة. أقع بالمصادفة على محاضراتى القديمة فى القانون الدولى والتى تعالج مسألة الحروب العادلة والحروب غير العادلة، حسب تصنيف هوغو غروتيوس.

ينص الطبعة العربية من ميثاق الأمم المتحدة على أن الحروب غير عادلة طالما أنها لم تحظَ بضمانة مجلس الأمن. عندما يحدثنا جورج بوش عن «الصليبية» ـ وهى كلمة مزعجة ـ وعن قوى الخير فى مواجهة قوى الشر، فهو يقول لنا بطريقة أخرى إن حربه ضد الإرهابيين حرب عادلة. فى الوقت نفسه، إن الجهاد الذى يدعو إليه بن لادن ضد أعداء الإسلام هو حسب القرآن والشريعة حرب عادلة بالمعنى الذى يقصده غروتيوس. يجب مهما كلف الأمر الحذر من اعتماد لغة الصراع بين الخير والشر، والتذكير بأن البلاد التى عانت أكثر من غيرها من الإرهاب الإسلامى خلال العقود الأخيرة هى البلاد الإسلامية.

كيف ستكون طبيعة وحجم الرد الأمريكى؟ ما هى السياسة التى ستنتهجها

أمريكا تجاه فلسطين؟ أعرف جيداً أن مجموعات الضغط الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية ستبذل جهدها لإقناعنا بأنه ليس بين الصراع العربي ـ الإسرائيلي وبين جهاد أسامة بن لادن سوى مجرد علاقة بسيطة، وأن ما يؤجج رغبة هذا الأخير القتالية هو وجود الجيش الأمريكي في المملكة العربية السعودية ـ وهو مسٌ حقيقي بالمقدسات.

لا أدّعي معرفة دوافع بن لادن العميقة. لكنني أعرف بالمقابل أن موقف الأمريكيين المنحاز إزاء الفلسطينيين والعراقيين، وكذلك أيضًا المسجد الأقصى في القدس، هما بالنسبة إلى الشعوب العربية تبريران كافيان لحرب أسامة بن لادن الذي يستحوذ على إعجابها الحقيقي. زدْ على ذلك، أن الصحافة الدولية حرصت على أن تخفي حقيقة أن ١١ سبتمبر هو تاريخ له دلالة رمزية لأنه تاريخ تطبيق نظام الانتداب البريطاني على فلسطين على الرغم من المعارضة العربية الشرسة.

جنيف ـ الخميس ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

أتناول طعام الغداء مع خوان سومافيا وزوجته. يدور الحديث حول أحداث ١١ سبتمبر وما يرمز إليه هذا التاريخ. أذكّر بتطبيق فرض نظام الانتداب البريطاني في فلسطين في ١١ سبتمبر ١٩٢٢، وكذلك بسقوط قرطبة، العاصمة العربية، في يد فرديناند الثالث، في ١١ سبتمبر ١٢٣٦ ... لكن نهار ١١ سبتمبر ٢٠٠١ استثنائي وحديث العهد. وسيبقى بلا شك محفوراً في ذاكرة الناس لسنوات طويلة.

(في بداية فترة بعد الظهر ...).

أفتتح برفقة رئيس الصليب الأحمر، ومفوض الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، ماري روبنسون، وغيرهما من الشخصيات الندوة الثالثة التي تخصصها الفرنكفونية للمشاكل الإنسانية في منطقة البحيرات الكبرى. تقول لي ماري روبنسون العائدة من نيويورك إن الشوارع والمترو والمخازن الكبرى تشهد عمليات مطاردة الساحرات الشريرات. فالعرب بل كل صاحب سحنة سمراء يُشتبه بأنه عربي أصبحوا ضحايا

شكلهم الخارجي. ولا تسهم الدعاية الإسرائيلية التي تبث كالسم فكرة أن بن لادن وعرفات شخصان يتبادلان الأدوار، في تهدئة الوضع. كيف يمكن وضع حد لهذه الهيستيريا الجماعية؟ يجب أن يفهم الرأى العام أنه لا يمكن بناء سياسة جديرة بهذا الاسم على تصوير الآخر ـ العربي في هذه الحالة ـ كشيطان. أسمع هنا صوت المشككين: ليس السبيل إلى تطوير الرأى العام نشر أفكار أو مفاهيم، بل أن يعلن شخص يكون رمزاً للقضية أمام مئات الملايين من المشاهدين، وهو يعتمر كوفية ياسر عرفات نفسها، الموقف التالي: «نحن جميعاً عرب متحدون ضد الإرهاب... ضد الإرهاب الدولي!» ثم ينشد كورس من المغنين العرب: «الموت للإرهاب!» إن الحكومات العربية لا تملك مثل هذه الجرأة الإعلامية، كذلك يمكن لمجموعات الضغط الصهيونية أن تفشل هذا السيناريو.

يا لسخرية القدر! لقد أعلنت الأمم المتحدة سنة ٢٠٠١ «سنة حوار الحضارات»: يبدو أن المنظمة تملك موهبة التكهن بالمستقبل.

جنيف ـ الجمعة ٢٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

ألتقى هذا الصباح غرو هارلم برونتلاند، وهي رئيسة وزراء سابقة في النرويج، والمدير العام الحالي لمنظمة الصحة العالمية. أقول لها:

«جئت لتهنئتك بمركزك الجديد... متأخراً ثلاثة أعوام».

إنها زيارة مجاملة ولكنها أيضاً زيارة للترويج للفرنكفونية بغية تشجيع التعاون بين مؤسستينا.

تخبرني متباهية: «أستقل الطائرة غداً إلى الرياض لحضور اجتماع إقليمي للمنظمة».

سيُسِّر لي أحد معاونيها فيما بعد أنها في الواقع تخشى هذه الرحلة التي ستحملها إلى قلب العالم الإسلامي ـ العربي.

تسلمني رسالة من زوجها، أرن أولاف برونتلاند، الذي يهتم نيابة عنها بنشر

مذكراتها. يسألنى أن أعطيه إذنًا بأن يروى فى هذا الكتاب واقعة كنت قد سردتها فى كتابى: «خمس سنوات فى بيت من الزجاج»؛ وهى قصة تدخّل رئيس الوزراء البريطانى جون ميجور لدى ميخائيل غورباتشيف، فى سبتمبر ١٩٩١ داعمًا ترشيح غرو هارلم برنتلاند لمنصب الأمانة العامة للأمم المتحدة. أجاب ميخائيل غورباتشيف فى ذلك الوقت: «لكن سبق لنا أن التزمنا مع مصر».

باريس ـ الأحد ٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١

اتصال هاتفى من رئيس الوزراء اللبنانى رفيق الحريرى الذى يرجونى الاتصال بالرئيس لحود لأتحدث إليه عن تأجيل القمة الفرنكفونية. يقول لى: «لا يزال الرئيس مصممًا على عقد هذا المؤتمر، حتى ولو لم يشارك فيه سوى عدد محدود من رؤساء الدول والحكومات».

أحاول إقناع الرئيس اللبنانى أن سبب التأجيل لا يعود إلى الأوضاع الأمنية فى بيروت، بل إلى الخطر الذى يمكن أن يهدد رؤساء الدول والحكومات فى أثناء سفرهم بالطائرة، وكذلك إلى المجازفة بعدم تمكنهم من العودة إلى بلادهم...

من جديد يؤكد الرئيس بحزم استتباب النظام والأمن فى كل أنحاء البلاد. وهو لا يميل إلى تأجيل القمة، خصوصًا وأن جاك شيراك وجان كريتيان أبلغاه من جديد مؤخراً أنهما على استعداد للسفر. ويختم قائلاً: «مع ذلك ستناقش هذه المسألة خلال الاجتماع المقبل لمجلس الوزراء».

مكالمة هاتفية جديدة مع رفيق الحريرى لأطلعه على الحديث الذى دار بينى وبين الرئيس. نقرر أن نبقى على اتصال مستمر.

باريس ـ الاثنين ١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١

أعرب الروس الذين أنشأوا مؤخراً مجلس اللغة الروسية، وهو مؤسسة تعنى بالدفاع عن هذه اللغة داخل الدول التى كانت تشكل سابقًا الاتحاد السوفيتى، عن رغبتهم بالاطلاع على طريقة عمل منظمتنا وعن المبادرات التى تقوم بها لدعم

الدفاع عن اللغة الفرنسية والمساعدة على انتشارها. قمنا، بناءً على طلبهم، بتنظيم اجتماع عمل مع فريق من النواب والدبلوماسيين والأكاديميين الروس.

بمثابة تمهيد، أقدم عرضًا موجزًا للمنظمة الدولية للفرنكفونية ولأهدافها ومهماتها. ثم أترك الكلام لمساعد رئيس مجلس اللغة الروسية، الأكاديمى إفغينى شيليشيف. واضح أن الفرنكفونية ليست بالنسبة إليه إلا ملحقًا لوزارة الخارجية الفرنسية. يبدو أنه لم يفهم جيدًا أهميتها كمنظمة دولية. صحيح، يبقى مجلس اللغة الروسية مؤسسة محلية.

بعد ذلك يعرض كل جهاز تنفيذى فى المنظمة الدولية للفرنكفونية البرامج المختلفة التى ينفذها.

أدعو ضيوفى إلى غداء ودى فى فندق نيكو. يلقى النائب قادير - أول بيشلدى، نائب رئيس لجنة جنسيات مجلس الدوما، خطابًا فكهًا قبل أن يهدينى تميمة صنعها أحد أتباع مذهب الشامانية. أشكره بحرارة: فأنا أميل إلى اقتناء التمائم وأؤمن بقوتها الخيّرة.

باريس ـ الثلاثاء ٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١

إنها جلسة العمل الروسية ـ الفرنكفونية الأخيرة حول موضوع التنوع الثقافى والعولمة. يرى إفغينى شليشيف أن العولمة «هى نوع من الاحتكار، هى السير نحو ثقافة مفروضة بالقوة كى تتمكن أمة ما من اعتبار نفسها أمة متحضرة. هذا التوق إلى احتكار الثقافة، إلى ثقافة يتم اختيارها بشكل مصطنع، هو أمر لا يمكن القبول به من وجهة النظر الأخلاقية والعلمية». يستعمل عبارة ممتازة يكررها من بعده جميع المتحدثين وهى «الاهتمام بالوضع البيئى للغات»، وهى تشير إلى عملية تشمل كل الدول التى تشترك فى سعيها للحفاظ على ثروتها اللغوية وحمايتها. ويختم معلنًا أنه سيطبق استراتيجية الفرنكفونية داخل مجلس اللغة الروسية. أحرص على أن لا أسأله ماذا يقصد بهذه الاستراتيجية، لأننى أنا نفسى عاجز عن تحديدها.

من جهته، يعتبر صديقى الأكاديمى ألكسى فاسيلييف أن فرض نمط واحد من الثقافة «ليس فقط غير أخلاقى، بل إنه أيضًا مهين للإنسان وخطر بالنسبة إلى البشرية جمعاء. إن الولايات المتحدة بلد كبير، يمثل حضارة عظيمة، وثقافة عظيمة، واقتصاداً عظيمًا وهى بلد جدير بالاحترام. لكن لماذا يجب على المصريين الذين يرثون حضارة عمرها ستة آلاف سنة أن يصبحوا أمريكيين؟ لماذا يجب على الروسى الذى يعود تاريخ حضارته إلى ألف وخمسمائة سنة على الأقل، أن يتوق إلى أن يصبح أمريكيا؟ (...) يضيف، أعتقد أن الحضارة الأنجلو ـ سكسونية قد بلغت ذروتها من خلال الولايات المتحدة. وبعد كل قمة هناك منحدر. ربما ستكون هناك قمم أخرى لكن لكل قمة منحدر. ويختم قائلاً: أعرف أن بطرس بطرس غالى لا يشاركنى الرأى. فهو يعتقد أنه لا تزال أمام الحضارة الأمريكية أعوامًا عديدة وسنوات جميلة.

ما هى أهمية هذا الملتقى الروسى ـ الفرنكفونى؟ هل يشكّل نقطة انطلاق لمشروع كبير، أو أنه لم يكن سوى مناظرة فكرية ناجحة؟ إنه السؤال الذى أطرحه على نفسى دائمًا فى نهاية أى لقاء دولى.

باريس ـ الأربعاء ٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١

أصبح تأجيل قمة بيروت إلى العام المقبل أمرًا محتمًا، لكن لا أحد لديه الاستعداد ليتحمل مسؤولية اتخاذ القرار. فالدولتان الأساسيتان فى القمة، فرنسا وكندا تحرصان على أن لا توحيا بتأييدهما لهذا التأجيل. ولبنان الذى وظف كثيراً من الجهود السياسية وقام بتعبئة الرأى العام منذ عدة أشهر، يتمنى أن يُفرض عليه التأجيل فرضًا. زدْ على ذلك، هو لا يريد أن يبرِّر التأجيل بدواعٍ أمنية. أطمئن السلطات اللبنانية مجدداً: «الكل يعلم أن رؤساء الدول والحكومات سيكونون بأمان تام فى بيروت. لكن يبقى أن السفر قد يكون غير آمن، إضافة إلى أنه فى حال حدوث تدخل أمريكى فى أفغانستان، سيفضّل الرؤساء، بالضرورة، التواجد كل فى عاصمة بلده».

باريس ـ الجمعة ٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١

يتصل بى جاك شيراك ليطلب إلىّ أن أتولى مهمة إعلان تأجيل قمة بيروت. أجيبه: «سيدى الرئيس، يجب قبل ذلك أن أتمكن من استشارة أكبر عدد ممكن من رؤساء الدول والحكومات. أقترح عليك أن ترسل إليهم برقية منذ اليوم، حتى نعرف مواقفهم».

لا يوافق جاك شيراك على هذا الأسلوب: «هذا يتطلب الكثير من الوقت. أكثر من ذلك، سيؤكد كثيرون من رؤساء الدول حضورهم ثم يلغون سفرهم ما إن يبدأ القصف الأمريكى لأفغانستان. يجب الاتصال بهم هاتفيًا وحسم القضية قبل نهاية الأسبوع. لا فرنسا ولا كندا تتحملان مسؤولية اتخاذ قرار التأجيل، حتى ولو كانت الحجج التى تبين صحته كثيرة: أولاً، لا أحد يقبل بـ«نصف قمة». ثانيًا، قد يخشى من أن تتمحور القمة حول المشكلة الإسرائيلية ـ الفلسطينية. ثالثًا، تفيد معلومات أخيرة بأن الحركات المناهضة للعولمة تنوى تنظيم مظاهرة ضخمة فى بيروت. وبما أن هذه الحجة الأخيرة لا بد أن تقنعنى أخيرًا، يخبرنى بأن الرئيس حسنى مبارك يدعم هذا التأجيل... ثم يضيف:

«هذا التأجيل هو فى صالحك. فى السنة المقبلة، يمكننا أن نناقش بهدوء أكبر تمديد ولايتك حتى قمة واغادوغو، التى من المفترض أن تنعقد، كما هو متوقع، فى ٢٠٠٣.

ـ سيدى الرئيس، بكل تأكيد، وبطيبة خاطر أقبل القيام بالمهمة التى توكلها إلى، لكن سيصعب علىّ كثيرًا التحدث إلى الرئيسين عمر بونغو، وساسو نغيسو اللذين يدعمان ترشيح السفير هنرى لوبيس. قد يتخيلان أننى أدفع إلى تأجيل القمة لأكسب سنة...

ـ سأتصل بهما بنفسى، أعدك بذلك. أقترح عليك أن نتقابل غدًا صباحًا لنستعرض حصيلة اتصالاتك الأولية».

أقضى قسمًا كبيرًا من النهار وقسمًا من الليل فى إجراء الاتصالات الهاتفية مع

الأمراء الذين يحكموننا. إنهم مع تأجيل القمة. وحده رئيس وزراء بلغاريا يصر على معرفة موقف جاك شيراك.

باريس ـ الخميس ٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١

أقابل جاك شيراك وموريس أولريش فى قصر الإليزيه.

ـ «هل أمكنك الاتصال بعمر بونجو، سيدى الرئيس؟»

ـ «جيد أن تذكرنى بذلك. فقد نسيت».

يغيب عن المكتب لبضع دقائق ويعود ليعلمنا:

«لقد قلت لعمر بونجو إنك انتدبتنى لأجرى اتصالاً معه كونه عميد رؤساء الدول الفرنكفونيين. هو موافق على تأجيل القمة. وموافق أيضًا على أن تستمر فى إدارة الفرنكفونية خلال هذه السنة. وأنا متأكد من أنك ستستمر حتى قمة واغادوغو».

موريس أولريش يبدو أكثر تحفظًا.

أقول فى نفسى إننى سأوافق بكل طيبة خاطر على تمديد مهامى حتى ٢٠٠٣، بشرط أن يُنتخب جاك شيراك مرة ثانية رئيسًا. وإن لم يتحقق ذلك فسأترك هذه الأشغال الشاقة بكل سرور.

(بعد ذلك بوقت قصير ...) حديث ودى مع الرئيس لحود. يوافق على تأجيل القمة. أعده بالإبقاء على كل النشاطات المزمع القيام بها على هامش القمة. أتصل من ثم برئيس الوزراء رفيق الحريرى الذى يشكرنى على تدخلى. اتصالى الهاتفى الأخير هو مع جاك شيراك الذى كان يصر على معرفة ردة فعل الرئيس لحود.

باريس ـ الأحد ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١

مقابلة إذاعية على محطة «فرنسا الثقافة» (فرانس كولتور) يجريها معى جيروم

بوفيه. يصلنا خبر، خلال بث المقابلة، أن الضربات الأمريكية فى كابول قد بدأت. تأخذ المقابلة منحى سياسيًا بطبيعة الحال.

يسألنى جيرار بوفيه مباشرة: «هل ستعقد قمة بيروت؟»، بينما تتوارد المعلومات عن شدة القصف الذى يتعرض له الأفغانيون التعساء.

لقد انتدبتنى السلطات اللبنانية لاستشارة رؤساء الدول والحكومات فى احتمال التأجيل. كل الذين استطعت أن أتصل بهم حتى الآن يحبذون التأجيل. سيتم الإعلان الرسمى عن ذلك غدًا بعد إجراء استشارات أخيرة.

باريس ـ الثلاثاء ٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١

مضت ثلاث سنوات دون أن ألتقى بجان فريدمان، منذ اللقاء «الثلاثى» الذى جمعنا نحن الاثنين مع إيهودا باراك. يعيش المأساة الفلسطينية ـ الإسرائيلية عن قرب. يخبرنى بأنه اقترح على إيهودا باراك، قبل أن يأتى حزب العمل إلى السلطة، اعترافًا من طرف واحد بالدولة الفلسطينية تعلنه إسرائيل. فتحديد الحدود النهائية لهذه الدولة يمكن أن يكون مادة لمفاوضات مستقبلية. لقى هذا الاقتراح اهتمامًا لدى إيهودا باراك، لكن معاونيه المقربين عارضوه. يبدو له أن هذا الاقتراح ملائم اليوم أكثر من أى وقت مضى. فهو سيكون وسيلة لخلق صدمة نفسية ـ دبلوماسية، وحدها قادرة على أن تضع حدًا للانتفاضة وأن تؤدى إلى عملية سلام جديدة. بالطبع، يجب انتظار إجراء انتخابات جديدة ورحيل أرييل شارون.

لا أبدى أية ردة فعل على أقواله. أتساءل إن كان للإسرائيليين الجرأة للقيام بمبادرة لا تكون نتائجها مضمونة، كما فعل السادات عندما ذهب إلى القدس.

جنيف ـ الخميس ١١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١

أشارك فى اللجنة الاستشارية حول سياسات المنظمة العالمية للملكية الفكرية. يترأس الجلسة رئيس جمهورية مالطا، غيدو دو ماركو. العديد من الشخصيات

تكبدت عناء السفر: إيون إلييسكو، رئيس جمهورية رومانيا، بيترو لوشنشى، رئيس جمهورية مولدافيا، بيتار ستويانوف، رئيس جمهورية بلغاريا، أمارا إيسى، الأمين العام الجديد لمنظمة الوحدة الإفريقية، غابى مايير، رئيس المحكمة الإدارية فى الأمم المتحدة، والذى كان عضواً فى الوفد الإسرائيلى عندما كنا نقوم بمفاوضات حول الحكم الذاتى فى غزة والضفة الغربية، بين ١٩٧٩ و١٩٨١. حضر كذلك عدد مهم من وزراء الثقافة أو وزراء الخارجية. أتساءل وفى نفسى شىء من الإعجاب والحسد كيف توصل رئيس المنظمة العالمية للملكية الفكرية إلى جمع هؤلاء الحكماء الذين تابعوا باهتمام شديد نقاشًا تقنيًا جداً حول تطوير نظام البراءات.

خُصصت فترة بعد الظهر لموضوع الملكية الفكرية فى مجال الموارد الجينية والمعارف التقليدية. إن هذا الموضوع الأخير هو الذى استرعى انتباهى أكثر من أى موضوع آخر؛ لأن أول المعنيين بهذه الإشكالية هى دول العالم الثالث. يقدم الرئيس غيدو دو ماركو ملخصًا ممتازاً ومقتضباً: يشك فى إمكانية الحفاظ فعليًا على المعارف التقليدية والفولكلور؛ نظراً لأن إنتاجها ونقلها والتشارك بها عمل جماعى. هذا يعنى أن نظام الملكية الفكرية القائم لا يلبى حاجات الجماعات التى تمتلك معارف تقليدية. أتدخل لأوضح أن الذين يمتلكون معارف تقليدية يتمتعون مع ذلك بحقوق وكل الصعوبة تكمن فى تعريفهم بهذه الحقوق حتى يتمكنوا من الاستفادة منها.

باريس ـ الجمعة ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١

مقابلة على محطة «قناة الأنباء» LCI يجريها معى فينسان هيرفووى رئيس قسم الأخبار الخارجية. يسألنى:

«بماذا شعرت عندما انهار برجا مركز التجارة العالمى؟

ـ أعتقد أن للمجتمع الدولى حصة كبيرة فى المسؤولية لأن الإرهاب أصبح شاملاً ولا تزال محاربته تتم على المستوى الوطنى. أعتقد كذلك أن أحد أسباب الأصولية الإسلامية يكمن فى الوضع المأساوى فى فلسطين.

ـ تتحدث مثل بن لادن ... » .

أحرص على أن لا أظهر أية ردة فعل حتى لا أُوتّر النقاش . أندم على ذلك على الفور . كان يجب أن أرد عليه بأن شيخ الأزهر ، وهو أعلى مرجعية فى الإسلام ، يتفق مع بن لادن ، وأن مليار مسلم يتفقون مع بن لادن ، حتى ولو كانوا يشجبون أعماله الإرهابية .

واضح أن وسائل الإعلام تستمر فى تجاهل العلاقة بين الإرهاب الأصولى والمأساة الفلسطينية ، كأن هذه المأساة غير موجودة .

يطرح علىّ سؤالاً يتعلق بالفرنكفونية ، كثيراً ما أسمعه :

«لماذا إسرائيل ليست عضواً فى الفرنكفونية؟»

أجيبه ككل مرة :

«لأننا لم نتلق طلبًا من إسرائيل للانضمام إلى المنظمة» .

باريس ـ الجمعة ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١

أستقبل سفير جمهورية الدومينيكان ، نورمان غيارمو دو كاسترو . بلده مرشح لأن يكون عضواً مراقبًا فى المنظمة الدولية للفرنكفونية وذلك لأن له حدوداً مشتركة مع دولة عضو فى المنظمة ـ هى هايتى ـ ، ولأن اللغة الفرنسية تُعلم للتلاميذ فى المرحلة الثانوية ، ولأن المجتمع الدومينيكى يحكمه قانون نابوليون ! ...

(بعد ذلك خلال النهار ...) نناقش تحديد تاريخ المؤتمر الوزارى المقبل . أقوم باستطلاع رأى سريع لوزراء البلدان الإسلامية الأعضاء فى الفرنكفونية : هل من مانع لديهم أن ينعقد هذا المؤتمر خلال شهر رمضان؟ ففى هذه الأيام ، كل ما له علاقة بالإسلام يثير حساسية كبيرة . كلهم نصحونى بتأخير هذا الاجتماع إلى السنة المقبلة .

باريس ـ الاثنين ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١

في صحيفة الفيجارو الصادرة هذا الصباح، رسالة من غي سورمان إلى سفير مصر، علي ماهر، الذي ردَّ في أعمدة الجريدة على مقالة نشرها سورمان في ٢٣ أكتوبر في الفيجارو نفسها، وموضوعها الإرهاب.

أشعر بخجل كبير لأني لم أقرأ أيّا من هاتين المقالتين، وهذا ما أسارع إلى القيام به. ما يلفتني على وجه الخصوص في مقالة سورمان هي السهولة التي يجدها في إطلاق الأحكام القاسية حيث يقول: «يولد الإرهاب من عجز العالم العربي على أن يشق طريقه نحو الحداثة... لا يوجد أمة إسلامية، وعلى وجه الخصوص، أمة عربية - إسلامية استطاعت أن تُكوّن لنفسها مؤسسات سياسية مستقرة وشرعية وفاعلة». إنه تحليل نجده في الصحف الأمريكية في الأسابيع الأخيرة. إن هذا الموقف المنحاز يهدف في الواقع إلى تجاهل المشكلة الفلسطينية، التي تشكل، في الحقيقة، السبب الأول للإرهاب ولعداء العالم العربي لأمريكا وللغرب المنضوي تحت لواء القوة العظمى.

ليست نظرية العجز عن الدخول في الحداثة جديدة، نحن نجدها عند المستشرقين، في الفترة الاستعمارية. فالصورة التي رسموها للعالم العربي تظهره دائمًا قابعًا في الماضي، أسير الجمود، عاجزًا عن أن يتطور دون أن يتنكر لذاته. إن الأستاذ والكاتب إدوار سعيد هو من قدّم أفضل عرض واف للمقولات الثابتة عند المستشرقين والتي يمكن أن نلخصها على النحو التالي:

١ - يوجد فارق عميق ودائم بين الغرب العقلاني الحديث، والشرق الإسلامي الفوضوي، القابع في القرون الوسطى.

٢ - الشرق الأبدي الذي لا يتغير عاجز كليًا عن أن يحدد هويته وأن يجد طريقه لوحده. لا بد أن تسعفه علوم الغرب لكي يفهم نفسه بشكل أفضل وكي يواكب الحداثة.

٣ - يجب الحذر من الشرق الإسلامي ويجب مراقبته دائمًا.

ينتج عن هذا المنطق أن الوجود الاستعماري الجديد في أرضٍ مسلمة والذي تجسده دولة إسرائيل يجد مبرراته الشرعية.

عدد من زملائى وأصدقائى بينهم أنور عبد الملك، وعبد اللطيف طيباوى، وعبد الله العروى، وغيرهم كثر، قاموا بتحليل جيد جدًا لهذا المنطق الاستعمارى. إلا أن أكثر ما يلفت انتباهى فى سلسلة المقّالات التى تبين عجز العالم العربى - الإسلامى عن مواكبة الحداثة، هى الطريقة التى يتجاهل فيها جميع الكتّاب، دون استثناء، المشروع الاستعمارى، الذى بُنى على سياسة السيطرة واستغلال الثروات، أكثر بكثير، مما ارتكز على المساعدة فى الدخول فى الحداثة. ولا يجب أن ننسى أن رحيل الاستعمار عن العالم العربى لم يحصل إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين، بينما نرى مثلاً أن أمريكا اللاتينية قد تحررت من الاستعمار فى مطلع القرن التاسع عشر، وأنها لم تستوعب الحداثة فعليًا إلا خلال العقود الأخيرة. أكثر من ذلك، إن الأصوليين الذين يخلصون إلى استنتاج فشل الدخول فى الحداثة، سواء على صعيد الفكر أو على صعيد العمل، والذين لا يرون أى خلاص آخر للمسلمين سوى العودة إلى ينابيع الإيمان، لا يشكلون إلا أقلية. أن ننظر إليهم على أنهم يشكلون غالبية المسلمين الذين، هم، يطمحون إلى الحداثة أمر يصب فى خانة الدعاية أكثر مما يقوم على التحليل السياسى.

ملاحظة ثانية: كل هذه المقالات تحمل على الاعتقاد أنه لا إرهاب إلا الإرهاب الإسلامى. لكن فى الوقت الذى كانت تجرى فيه اعتداءات ١١ سبتمبر، كان إرهاب النمور التاميل فى سريلانكا، وإرهاب الانفصاليين الباسك، وإرهاب الجيش الثورى فى كولومبيا مستمرًا فى تهديداته. ولا نستطيع حقًا أن نتهم هذه الحركات بـ «الإرهاب الإسلامى».

ملاحظة أخيرة: من يفسر لى صمت وسائل الإعلام عن الإرهاب الصهيونى الذى مارسه مناحيم بيجن، القائد السابق لميليشيا الإرغون الصهيونية المتطرفة، أو عن إرهاب الدولة الذى يمارسه أرييل شارون، اليوم؟

خلاصة القول، إننا نواجه اليوم حربًا إعلامية حقيقية، حربًا سنخسرها: أولاً لأن منظرينا الإسلاميين الجدد سيكررون لنا إلى ما لا نهاية أننا عاجزون عن استيعاب الحداثة؛ ثم لأن إخواننا العرب المنحازين للغرب، أو الماركسيين أو

الأصوليين سيردون بصوت واحد: «الإعلام والتعتيم على الخبر ملك حصرى للغرب».

مع ذلك، نحن وحدنا القادرون على نقض رسالة بن لادن، ذلك لأنه من المؤكد أن الجواب لن يأتى من الغرب.

تونس ـ الأحد ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

علاج بمياه البحر فى تونس. كنا متأكدين من أننا سنجد هنا شمس إفريقيا. لكن للأسف يستقبلنا المطر. الطقس مكفهر وبارد. تقول لى ليا «كأننا فى منطقة بريتانيا (شمال غرب فرنسا)». الفندق ينقصه الدفء على الرغم من أنه فندق فخم. كثير من الرخام وقليل من السجاد. إنه قصر صيفى.

تونس ـ الاثنين ١٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

يثير إعجابى طاقم الفندق وطاقم مركز العلاج بمياه البحر. فريق من الشبان التونسيين يتكلمون الفرنسية بطلاقة وينفذون مهامهم باحتراف كبير.

عند دخولى مركز المعالجة أخضع لمعاينة طبية. يجب الاعتراف بالجميل للحبيب بورقيبة الذى حرر المرأة التونسية وجعل منها مواطنة بمعنى الكلمة. تخضعنى الدكتورة الشابة لاستجواب دقيق. تدون بعناية على بطاقة كل سوابقى الطبية وأسماء الأدوية التى أتناولها، قبل أن تصف لى العلاج المناسب. لسنا معتادين هذه الدرجة من الدقة فى بلدان العالم الثالث.

تونس ـ الثلاثاء ١٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

فشل المحاولة الانقلابية فى بورتو ـ برنس. لم يتمكن الثوار من الاستيلاء على القصر الرئاسى. أتصل بالأب أريستيد وأؤكد له محبتى الخالصة. إنه متأثر جداً بتصرفى. لقد أقمنا دائمًا علاقات ممتازة، حتى ولو أنى أعترف بأنه ديكتاتور بلا شفقة.

تونس ـ الجمعة ٢١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

كيف لم أفهم قبل الآن تغير السياسة الأمريكية منذ سقوط جدار برلين، والانتقال من استراتيجية الثنائية إلى أحادية متوحشة وعدائية؟ أنا الذى كنت خلال عدة سنوات أستاذاً لمادة العلاقات الدولية وعلّمت طلابى مادة سياسة الولايات المتحدة الخارجية! ... إضافة إلى ذلك: لم تبدأ الأحادية الأمريكية عند نهاية الحرب الباردة، ولا فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١. إن بدايتها تعود إلى ١٨٢٣، وهو تاريخ ظهور نظرية مونرو التى كانت تطمح لإخضاع كامل قارة أمريكا اللاتينية لتأثير واشنطن.

لماذا لم أفهم إلا بعد وقت طويل؟ مع أنه لم تنقصنى الإنذارات:

١٦ يناير ١٩٩٢: مقابلة فى مكسيكو سيتى مع وزير الدفاع جايمس بايكر، المتيقظ، السريع، واللاذع، ومع جون بولتون. تعبير قاطع عن الأحادية الأمريكية:

ـ «نحن عازمون على فرض عقوبات على ليبيا، يقول لى وزير الدفاع، ونحضر قراراً لمجلس الأمن بهذا الاتجاه.

ـ حسنًا. ولكن إن لم تحصلوا على العدد اللازم من الأصوات لاعتماد القرار، فماذا ستفعلون؟ سألته بسذاجة.

ـ فى هذه الحالة، أجابنى جيمس بايكر ببرود أعصاب، نطبق العقوبات دون موافقة مجلس الأمن».

ومع ذلك، لم أفهم.

١٩ نوفمبر ١٩٩٦: صوتت أربع عشرة دولة لصالح انتخابى لولاية ثانية فى الأمم المتحدة. دولة واحدة تستعمل حق الفيتو. ولم أكن لأفهم أيضًا قوة الأحادية الأمريكية.

كان يجب أن تحصل أحداث ١١ سبتمبر المأساوية كى أفهم، أخيراً.

ما هو تفسير خطئى فى الحكم على الواقع الدولى؟

بعض الوقائع قد تشهد لصالحى كى لا أتحمل عبء هذا الخطأ، حتى ولو لم تفسر كل شىء. هناك قبل كل شىء ثقافتى القانونية، وواقع أنى علّمت طيلة ثلاثين سنة القانون الدولى، وقانون المنظمات الدولية. سنة ١٩٦٠، أعطيت دروسًا فى أكاديمية القانون الدولى، عن المساواة بين الدول، وعن النتيجة الطبيعية لهذه المساواة أى تعددية الأطراف. طيلة تلك السنوات كنت، إذن، أنتمى إلى جماعة الفقهاء الذين يؤمنون بالقانون الدولى، ويمارسونه، ويشاركون فى تدوينه ويقنعون أنفسهم فى النهاية، بأنه سيكون لسيادة القانون تأثيرها فى إدارة العلاقات الدولية.

ثم هناك واقع الدبلوماسية المصرية التى أرادت أن تتكىء على الأمم المتحدة وعلى تعددية الأطراف السائدة فى الأمم المتحدة كى تخفف من تأثير القوى العظمى، السياسية. وهى، القوة الاستعمارية، غداة الحرب العالمية الثانية، القوة الأمريكية والقوة السوفيتية خلال الحرب الباردة، القوة العظمى الأمريكية منذ سقوط جدار برلين.

فى يوم من سنة ١٩٨٧ حيث كنا نناقش اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل، قال لى سايروس فانس:

«يا بطرس، انسَ قليلاً القانون الدولى ولنبدأ بالتفاوض».

فى ذلك الوقت، اعتقدت أنها مزحة إذ كنت غالبًا ما أرجع إلى القانون الدولى...

ثم كانت هناك أخيرًا جلسة مجلس الأمن الشهيرة التى انعقدت للمرة الأولى على مستوى رؤساء الدول والحكومات فى ٣١ يناير ١٩٩٢. خلت يومها أن رغباتى تتحقق، واعتقدت أن أقوال رؤساء الدول الذين انتدبونىَ لـ«تدعيم دور المنظمة فى مجال الدبلوماسية الوقائية، وفى حفظ وإحلال السلام» أقوال مقدسة ككلمات الإنجيل. لا أزال أسمع رئيس مجلس الأمن جون مايجر وهو يعلن: «إن أميننا العام الجديد رجل محظوظ. فهو أول أمين عام، منذ سنوات طويلة يرث منظمة للأمم المتحدة تثق بقدرتها على حل المشكلات..».

عشر سنوات انقضت. وها هى الأمم المتحدة تمر اليوم بأزمة خطيرة بعد أن فقدت مصداقيتها عندما أعلن الرئيس بوش بصلف، غداة اعتداءات ١١ سبتمبر: «من ليس معنا فهو ضدنا». إنها عبارة تنذر بنهاية زمن التشاور وتعدد الأطراف، أو بالأحرى تضع نهاية لاحتضاره الطويل. ذلك أنه يجب الاعتراف بأن الدبلوماسية الأمريكية، حتى قبل أن يجىء جورج بوش الابن إلى الحكم، قد مهدت الطريق جيداً. لكنها كانت تموّه سياستها الإمبريالية بتغليفها بمظهر من التشاور. كنا نعرف أن هذا التشاور لم يكن فى غالب الأحيان إلا خدعة، لكن المناقشات التى كانت تطول، والتنازلات الشكلية أو التنازلات البسيطة التى كانت تقبل بها الولايات المتحدة كانت تسمح لنا بالاعتقاد أن قاعدة حكم القانون لا زالت هى الغالبة.

كنا نريد أن نؤمن بذلك نحن المدافعون عن القانون، بل كان يجب علينا أن نؤمن بذلك كى نعطى لعملنا مشروعيته وكى نحافظ، بالأخص، على التصميم على العمل. وأعتقد أنه علينا اليوم، وعلى الرغم من هذه الأحادية العدوانية، أن نستمر فى الإيمان؛ لأن القوة العظمى لن تستطيع بمفردها أن تحل كل النزاعات، ولا أن تدير كل المشكلات الناتجة عن العولمة. سيكون لزامًا عليها، عاجلاً أم آجلاً، أن تعود إلى مبدأ تعددية الأطراف فى إطار الأمم المتحدة أو فى إطار منظمة دولية جديدة، تكون أكثر قدرةً على إقامة الديمقراطية العالمية.

تونس ـ الاثنين ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

كانت نتيجة الاستفتاء الذى أجرى بالأمس فى جزر القُمُر، الموافقة على الدستور الجديد لاتحاد القُمُر. لقد لعبت الفرنكفونية دوراً خفيًا وفاعلاً فى التوصل إلى هذه النهاية السعيدة.

تونس، القاهرة ـ الثلاثاء ٢٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

نغادر تونس حيث بخلت علينا الشمس. «قريبًا ستنعم من جديد بشمس مصر»، تقول لى المضيفة التى تستقبلنى على متن الطائرة.

أخيراً، تظهر القاهرة المشرقة من خلال النافذة الصغيرة. أتعرف إلى الجسور، والجادات، والشوارع. حتى أنه يُخيل إلىَّ أننى ألمح المبنى الذى نسكن فيه والذى نصل إليه بعد انتظار طويل فى زحمة السير. أجد من جديد كتبى، وتحفى وأشيائى الأليفة، وبالأخص منظر النيل، الذى أعبده.

القاهرة ـ الأربعاء ٢٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

حديث مع أ. س. وهو شاب أصولى مثقف، ذكى، وصلف بعض الشى. يقول لى:

«لقد قرأت باهتمام عرضًا للمناقشات التى أجريتموها فى اليونيسكو فى إطار لجنة الديمقراطية والتنمية، وعلى الأخص، ما قاله المُنظِّر الأمريكى بروس راسيت، الذى لديه قناعة بأنه يجب الاستعاضة عن سياسة الاحتواء التى سادت فى فترة الحرب الباردة، بسياسة لنشر الديمقرطية بشكل واسع، وبتأكيد حاسم لشمولية النموذج الديموقراطى الذى يشكل الأداة الأساسية لنشر السلام الأمريكى. وهو نفسه الذى يتحدث عن علاقة تفاعل أولية بين تحقيق التنمية الاقتصادية وتحقيق الديمقراطية، أليس كذلك؟ وهو الذى ذهب إلى الإدعاء أن اجتياز كل مرحلة من مراحل النمو الاقتصادى ينعكس فى ارتفاع نسبة المشاركة الانتخابية، أليس كذلك؟ بينما تؤكد كل الإحصاءات أن نسبة الامتناع عن الانتخابات ترتفع بانتظام فى الديمقراطيات العريقة! وهو نفسه الذى يؤكد أن الديمقراطيات لا تخوض حروبًا فيما بينها، أليس كذلك؟ وهذا وهم آخر لا يستأهل أن يكون مادة للنقاش...

ـ إنها بالفعل وجهة النظر التى دافع عنها البروفسور راسيت، لكن أغلبية أعضاء لجنة الخبراء شككوا بهذه النظرية.

ـ صحيح، لكن تشكيل لجنة الخبراء الدولية تلك، فى اليونيسكو، والتى أنت عضو فيها، والنتائج التى توصلتم إليها تكشف عن تمحور الحضارة الغربية حول ذاتها، بدون حرج. لقد قبلتم جميعًا بالهيمنة الثقافية الأمريكية. واليونيسكو تدافع

عن إيديولوجيا الإمبراطورية الجديدة: السوق، الديمقراطية، حقوق الإنسان... في الواقع، إن حقوق الإنسان اخترعها الغربيون للغربيين، ولا يمكن غرسها في ثقافات أخرى. لكن ذلك لا يقلقني. فبقدر ما تضعف قوة الغرب، تنقص قدرته على فرض حقوق الإنسان والديمقراطية على غيره من الحضارات. هكذا ستستطيع حضارات أخرى غير الحضارة الغربية أن تفرض قيمها الثقافية الخاصة. هل تعتقد أن مليارات المسلمين، والصينيين والهنود، والمعذبين في الأرض يعتقدون أنه بإمكانهم أن يجدوا في الديمقراطية الغربية حلاً لمشاكل الفقر والتخلف التي يعانونها؟»

لا أرغب في أن أقاطع آية الله الذي يجلس أمامي أو أن أعارضه. يتابع:

«الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي أنت متمسك به، والذي أُقر في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨، في باريس، في مناخ غربي النزعة، هذا الإعلان الذي حاولت أن تؤكد عليه في مؤتمر فيينا، سنة ١٩٩٣، هذا الإعلان الذي لم يصل قط إلى شواطئ الحضارات الأخرى، قد فقد الكثير من قدرته على الإقناع منذ ١١ سبتمبر، وذلك بسبب العملية الجريئة التي نفذها المهاجمون وردّة الفعل الهيستيرية التي أظهرها المعتدى عليهم، على حد سواء. لقد برهن، المهاجمون في الواقع عن قوتهم الضاربة، ونسي المعتدى عليهم على الفور حقوق الإنسان والديمقراطية أمام مقتضيات المحافظة على أمنهم. أسأله:

ـ هل تسمح لي بأن أنقل ملاحظاتك العدائية، والمثيرة للاهتمام، وأن أذكر اسمك؟

يقهقه آية الله ضاحكًا ويجيب:

«إلا هذا! أنت تعرف المثل العربي الذي يقول «الناس على دين ملوكهم». سأدافع عن ديمقراطيتك. فأنا أدين بذلك إلى «سيدنا الأمريكي الحاكم». بل إنني عازم على الدفاع عنها بحماس يفوق حماسك؛ لأنها بالنسبة إليك تمثل قيمة عليا

مشتركة تسعى إليها كل الشعوب وكل الأمم، بينما هي بالنسبة إليّ وسيلة لتسلم السلطة. وما إن نستلم السلطة سيكون بمقدورنا أن نفرض نظامنا السياسي. ففي النهاية ليست المؤسسات إلا ما يفعله البشر بها..».

لا أستطيع أن أمتنع عن أن أرد عليه بسخرية:

ـ ونظامك السياسي، هل ستسميه أيضًا «ديمقراطية»؟ بعد أن تضيف إليه ربما نعتًا جديدًا مثل «الشعبية»، أو «البروليتارية»، أو «الإسلامية»...

يجيبني بنبرة جدية:

ـ لست أدري. يجب التفكير في ذلك. ما أعلمه هو أنه يجب العثور على نعت يأخذ بالاعتبار الكرامة؛ لأن الديمقراطية هي قبل كل شيء مسألة كرامة. والعالم الغربي لا يمكنه أن يحترم كرامة شعوبنا».

القاهرة ـ الخميس ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

زيارة مجاملة لرئيس مجلس الشعب، فتحي سرور. نتحدث عن موضوعات عدة، من بينها الوضع في أفغانستان.

أقول له:

«ربما يجب أن ترسل مصر وحدة عسكرية إلى كابول. سيكون ذلك بمثابة لفتة رمزية تجاه الولايات المتحدة، ووسيلة لتحسين العلاقات فيما بيننا، التي أقل ما يقال فيها إنها متوترة في هذه الأيام.

ليس لدى فتحي سرور أفكار محددة تتعلق بهذه المسألة.

في المقابل، رئيس مجلس الشورى، مصطفى حلمي، الذي ألتقيه وسط هذه المعمعة، قلق جدًا من تدهور العلاقات بين القاهرة وواشنطن.

القاهرة ـ الجمعة ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

ابن أخي يوسف أصيب مؤخراً بهزيمة سياسية: لقد فقد حقيبة وزارة الاقتصاد التي كانت تؤمن له نوعًا من السلطة على كل المؤسسات المالية في البلد. عليه أن يكتفي، من الآن فصاعداً، بمنصب وزير التجارة الخارجية وبصلاحيات أقل. على الرغم من تأثره بهذا القرار، لم يفقد شيئًا من ثقته وثباته. أسأله:

ـ كيف تفسر أن علاقاتك برئيس الوزراء وبزملائك صعبة إلى هذه الدرجة؟

ـ إنه ببساطة صراع الأجيال. فأنا لم أبلغ بعد الخمسين من العمر بينما يزيد عمرهم على السبعين. على كل حال، أنا متفاهم جداً مع الوزراء الذين هم في عمري.

القاهرة ـ السبت ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

هذا الصباح وجدت بالمصادفة في مكتبتي دراسة كتبتها سنة ١٩٥٥ عن المنظمات الدولية. أذكر أنني قبل أن أكتب الفصل المخصص لأوائل الذين نادوا بالمنظمة الدولية ـ من سوللي إلى إيمانويل كانت مروراً بالقس سان بيار ـ قمت بأبحاث في محاولة لمعرفة إن كان عندنا أيضًا في بلاد العالم الثالث ـ والعالم الثالث الإسلامي ـ مفكرون ومنظرون، ومثاليون يشاركونهم الحلم نفسه. هكذا اكتشفت كتاب عبد الرحمن الكواكبي: «أم القُرى»، الصادر في القاهرة، سنة ١٨٩٤.

أقرأ اليوم على ضوء اعتداءات ١١ سبتمبر التحليلات المتحذلقة التي يشبعنا بها الغرب عن التأخر الذي راكمه الإسلام، وأقرأ نظريات راديكالية كتلك التي قدمها إليّ، منذ ثلاثة أيام، آية الله الذي تحدثت عنه، وأقرأ الدراسة التي أعددتها عن كتابات عبد الرحمن الكواكبي الذي كان يستشعر منذ ذلك الحين من خلال أحداث زمانه ومن خلال الواقع الراهن في عصره، الثوابت التي جعلت من الإسلام، منذ ما يقارب العشرة قرون، مجتمعًا يعاني الانحطاط والقمع. فما من أحد يستطيع أن يداويك كما تداوي أنت نفسك.

يتخيل الكواكبى مؤتمرًا ينعقد فى مكة لتحديد أسباب الأزمة التى يجتازها العالم الإسلامى ولمعالجتها. ثلاثة وعشرون مندوبًا من كل أقطار العالم الإسلامى دُعوا للمشاركة فى هذا المؤتمر السرّى كى يبلوروا الوثيقة التأسيسية لمنظمة دولية عالمية. بينهم على وجه الخصوص، إنجليزى مسلم، وصينى، وكردى، وإندونيسى، ويمنى، ومصرى... خلال الاجتماع الأول ينتخبون رئيسًا هو مندوب مكة حيث ينعقد المؤتمر، وأمينًا للمؤتمر يدعى فاراتى وهو اسم مستعار للكاتب نفسه الذى يُستدرج إلى عرض تقريرٍ عن هذا المؤتمر الخيالى يرفقه بنص الوثيقة التأسيسية لاتحاد دول العالم الإسلامى.

فى جدول الأعمال النقاط التالية:

١ ـ تحليل وضع المسلمين الراهن.

٢ ـ عرض حول الجهل والظلامية اللذين يشكلان السببين الأساسيين للداء.

٣ ـ نداء تحذير إلى المسلمين من نتائج لا مبالاتهم إن لم يتداركوا الأمر فى الحال.

٤ ـ تحديد المسؤوليات: الأمراء وعلماء الشريعة هم المسؤولون عن الحالة التى وصل إليها المسلمون. تصويت على توجيه اللوم إليهم على انقساماتهم وعدم توحدهم.

يقترح الكواكبى حصر الداء بتشخيصه أولاً. بعد مناقشات طويلة، يميز المؤتمرون بين نوعين من الأسباب التى أدت إلى انحطاط الإسلام: الأسباب الدينية والأسباب السياسية ذات الصلة بالحكم العثمانى. يشيرون إلى الدكتاتورية والحكم المطلق، إلى الامتيازات غير المستحقة، إلى التشرذم زُمرًا ومجموعات نافذة، إلى استحالة ممارسة الحرية، إلى احتكار العسكريين للسلطة، إلى الثقافة الموجّهة.

لكن مما لا شك فيه أن تحليل البعد الدينى للأزمة هو الذى يدهشنا بعصريته. إذ يشير الكواكبى إلى الأثر السيئ للاستسلام للقدر، إلى التعصب والتشدد الدينى، إلى الخرافات المرتبطة بالإسلام، إلى الفكرة السائدة بأن العلوم الدقيقة والفلسفة على تناقض مع الدين. هذا يُذكرنى بـ لويس ماسينيون الذى كان يقول لى إنه

لمحاربة التعصب يجب تعليم تاريخ الأديان المقارن للأجيال الصاعدة؛ لأن الدين الذى يحمل أتباعه على الاعتقاد بأنه الدين الوحيد الجدير بالاهتمام والوحيد الذى يستحق الإيمان به، لا يستطيع أن ينتج إلا أصوليين.

إنه لفكر ساطع ذاك الذى يتمتع به الكواكبى الذى يجد مكانته بين الإصلاحيين الذين تأثروا بجمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده. لكن أى تراجع منذ ذلك الحين!

هو الكواكبى من علمنى، منذ خمسين عامًا، أن معنى وجود المثقف الجامعى الملتزم يكمن فى أن يكون دائمًا رافضًا للواقع القائم، أن يكون دائمًا غير راضٍ عن المؤسسات والأمراء الذين يحكموننا، وأن يحدد احتياجات المستقبل.

ينتهى كتاب «أم القُرى» بصفحة مشَفّرة لا يعطينا الكاتب شبكة رموزها بل يقول لنا إن الأجيال الآتية وحدها تستطيع أن تفهمها. وما زلت أحاول إلى اليوم أن أحل رموز هذه الرسالة السرية، لكن دون جدوى. فلنأمل أن يتمكن آيات الله من قراءة هذا الكتاب الاستباقى والتفكير فيه، وحل لغز رسالته الخفية التى ربما تعلمهم الاعتدال وترشدهم إلى سبيل الطمأنينة!

القاهرة ـ الأحد ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

وزير الخارجية الجديد أحمد ماهر قلق جدًا تجاه الوضع الدولى القائم: «الولايات المتحدة مهتاجة جدًا، فالإهانة التى لحقت بها يوم ١١ أيلول جعلتها غاضبة جدًا وقد أصبح من الصعب ضبط ردات فعلها العنيفة. يمكن أن نتوقع أسوأ التدخلات العسكرية وأكثر ردات الفعل شططًا. العالم العربى مهدد بأن يدفع غاليًا ثمن اعتداءات ١١ سبتمبر الإرهابية».

ثم أقوم بزيارة لفايزة أبو النجا التى عُينت مؤخرًا وزيرة دولة مكلفة بشؤون التعاون الاقتصادى فى وزارة الخارجية. وقد كانت مقربة منى كمساعدة لى، عندما كنت وزيرًا، ثم فى الأمم المتحدة. إنها تتمتع بصفات الدبلوماسى المتمرس، وأنا واثق بأنها ستنجح بامتياز فى مهامها الجديدة.

القاهرة ـ الاثنين ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١

يستقبلني رئيس الوزراء، عاطف عبيد. ألاقي رجلاً تبدو عليه علامات الشيخوخة والتعب، وأرهقته ممارسة السلطة. أباغته طوال فترة محادثتنا وهو يقاوم النعاس. عبثًا أتكلم بصوت عال، فقد انتهى به الأمر، أمام دهشتي الكبيرة، بالإغفاء بضع لحظات. أقول له:

«إن صورة مصر كما صورة العالم العربي سيئة جدًا. يجب أن نبادر إلى هجوم معاكس. المجتمع المدني، المنظمات غير الحكومية تستطيع أن تساعدنا في تصحيح هذه الصورة. ولنحذُ حذو المغرب وتونس اللتين أنشأتا وزارة لحقوق الإنسان».

يوافقني عاطف عبيد الرأي ويقول:

«عندما تقابل الرئيس يجب أن تكلمه في ذلك...».

أحرص على أن لا أتحدث عن الأزمة الإقتصادية التي تمر بها البلاد. فأنا أعرف مسبقًا بما سيجيبني. يشتكي بشدة انتقادات الصحافة التي لا ترحمه. أجيبه:

«أنا أعرف من خلال خبرتي أننا نتوصل مع الوقت، لحسن الحظ، لأن نحتمي وراء درع واقٍ».

أحاول أن أشدّ من عزيمته مذكرًا إياه بالهجوم العنيف الذي تعرضت له من قبل العرب إبان مفاوضات كامب ديفيد، ثم من قبل الأمريكيين، وفي السنة الأخيرة لولايتي، على وجه التحديد. ما يعيبونه عليّ اليوم هو عمري: «القائد تقدم كثيرًا في السن». إن الانتقاد والنميمة هما الضريبة اليومية التي يجب دفعها للمرور إلى «الباب العالي» الذي تشكّله السلطة.

(في فترة بعد الظهر...).

أظهر في مقابلة تلفزيونية طويلة. بدهشة كبيرة أجد مباني تتمتع بصيانة جيدة. أدخل إلى ستوديو التسجيل حيث تنتظرني صحفية جميلة كانت تضع اللمسة الأخيرة على تسريحتها وماكياجها. يبدو أنها لا تريد أن تعير أي اهتمام للبطاقة التي

أُعدت لها. تبدأ المقابلة. تخفق فى مقدمتها. يُقطع التسجيل، تضع من جديد قليلاً من البودرة على وجهها، تُرتّب شعرها، تتحقق من ماكياجها، لنبدأ من جديد. تطرح علىَّ سلسلة من الأسئلة الغامضة التى أبذل أفضل ما بوسعى كى أجيب عنها محاولاً فى الوقت نفسه أن أساعدها على طرح أسئلتها بدقة بغية وضوح أكبر.

تسألنى عن أحداث ١١ أيلول، وعن الحقد الذى يغذّيه العالم العربى تجاه أمريكا، عن الدعم غير المشروط الذى تقدمه الولايات المتحدة إلى إسرائيل، عن تدمير الجيش الإسرائيلى للبنى التحتية وللمساكن الفلسطينية ...

أجيب:

«يجب أن نتعلم التغلب على مشاعر الذل والحقد والانتقام، وأن نبدأ من جديد بالتفاوض».

هذه الدعوة إلى المصالحة التى لا أنفك أكررها منذ مجيئى إلى القاهرة، يبدو أنها لا تعجب الصحفية.

تنتهى المقابلة كما بدأت. تبحث المرأة الشابة يائسة عن خاتمة لا تأتيها. لذلك تستعيض عنها بتكرار ممل لعبارات الشكر والإطراء. جو من التملق والمداهنة. «تبخير» ملازم لحرارة الضيافة التى لا نجدها إلا فى عالمنا الفقير، الغنى بصيغ الإطراء وبعبارات المديح المطمئنة التى تلتصق على جلدك كالعطور القوية الآتية من شبه الجزيرة العربية.

٢٠٠٢

بورسعيد ـ الخميس ٣ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

أسافر فى الصباح الباكر إلى بورسعيد برفقة رئيس مجلس الشؤون الخارجية، السفير محمد شاكر، ونائب الرئيس أسامة الغزالى حرب. لقد نظموا لى محاضرة فى الجامعة حول موضوع: «العلاقات الدولية بعد ١١ سبتمبر». الطريق ممتازة، نصل إلى بور سعيد فى ثلاث ساعات. نجتاز القناة على مستوى بور فؤاد الذى كان منذ أكثر من خمسين عامًا ضاحية فرنسية مخصصة لعمال شركة السويس. الفيللات الصغيرة التى بنيت فى تلك الفترة تبدو اليوم فى حال مزرية تمامًا بسبب عدم الصيانة.

عند وصولى إلى الجامعة ـ وهى مبنى جميل وحديث ـ يعلمنى البوليس بأن عشرات المتظاهرين قد تجمعوا فى وسط المدينة، بعد أن انتشر خبر أن المحاضر هو ابن أخى يوسف. فهم يريدون الاحتجاج على القانون الذى ووفق عليه بالأمس والذى يفرض ضرائب جمركية على البضائع المستوردة بينما كان تجار بورسعيد يستفيدون حتى اليوم من نظام السوق الحرة. لا تجدى محاولة إفهامهم أن الذى يزور بورسعيد اليوم ليس ابن الأخ «بطرس الصغير» بل عمه «بطرس الكبير». فذلك لا يمثل أى فرق بالنسبة إليهم: الاثنان مذنبان، العم أو ابن الأخ، لا فرق فهما ينتميان إلى العائلة نفسها.

تجرى المحاضرة دون أية مشكلة لولا استياء أحد الطلاب الذى يلوم

العميد على أنه عمد إلى انتقاء الأسئلة التى أعدها زملاؤه خطيًا، ممارسًا بهذه الطريقة نوعًا من الرقابة. أتدخل لأشرح أننى طلبت بنفسى من العميد أن يلجأ إلى هذا الأسلوب تفاديًا لتكرار الأسئلة ذاتها.

ألاحظ أن الطلاب أقل اهتمامًا باعتداءات نيويورك منهم بالاعتداءات الإسرائيلية على الشبان الفلسطينيين الذين يناضلون من أجل حريتهم وكرامتهم بسلاح وحيد هو الحجارة.

القاهرة - الجمعة ٤ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

احتفال فى البطرسية حيث شيّد أخى مذبحًا صغيراً على اسم والدتنا. كاهنان يكرّسان المذبح بصلواتهما فى جو عابق بالبخور. لطالما منحتنى رائحة البخور شعوراً بالراحة والطمأنينة والمؤاساة لدرجة أن الاختلاء بالنفس والتأمل والصلاة لا ينفصلان فى ذهنى عن نفثات البخور وعن رائحته الغامرة.

الإسكندرية - السبت ٥ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

أغادر إلى جامعة سنغور فى الإسكندرية حيث يستقبلنى رئيس الجامعة الجديد، فريد كونستان، وهو رجل مارتينيكى يظهر أنه شاب جداً وغير مهيىء لمثل هذا المنصب... نذهب لزيارة مكتبة الإسكندرية الجديدة، التى يديرها إسماعيل سراج الدين، وهو مدير مساعد سابق فى البنك الدولى. إنها رائعة معمارية، لكن يلزم ملايين الدولارات لوضعها فى الخدمة، تمامًا كمكتبة فرانسوا ميتران، فى باريس. فلنأمل الحصول على الإمكانيات... أقترح فكرة شراكة بين جامعة سنغور وبين المكتبة الجديدة، اللتين تجمعهما الرسالة نفسها وهى جعل الإسكندرية قطبًا للتفوق وللثقافة.

عند عودتى إلى الجامعة، أتحدث باقتضاب إلى الطلاب بعد الوقوف دقيقة صمت احترامًا لذكرى ليوبولد سيدار سنغور. «يجب أن تسير هذه الجامعة إلى الأمام، وأن توسع نشاطاتها، خصوصًا فى مجالات التقنيات الحديثة وفى مجال

إعداد كوادر البلدان الأقل تقدمًا، كما يجب أن تقوم بينها وبين الجامعات المصرية الأخرى علاقات وثيقة، وأن تدخل فى اتفاقيات شراكة مع المنظمات الدولية.

القاهرة ـ الاثنين ٧ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

كعادته يستقبلنى الرئيس حسنى مبارك فى الصباح الباكر. إنه مبتسم ويتمتع بمزاج جيد، وصحة جيدة.

أطلعه على خطة شاملة لمحاولة تصحيح صورة العالم العربى: الإدلاء بتصاريح موجهة للرأى العام الأوربى والأمريكى، إطلاق حوار مع الأحزاب السياسية والمنظمات غير الحكومية. جوابه لا يفاجئنى: فهو يرى أن أكثر الاتصالات ملاءمة وفاعلية هى تلك التى تجرى مع الحكومات.

أُذكِّره بأن المغرب وتونس قد أنشأتا وزارة لحقوق الإنسان وأنهما تأخذان بالاعتبار، أكثر فأكثر، دور العاملين الجدد غير الحكوميين. لكنه لا يتخلى عن تحفظه تجاه كل ما هو غير حكومى، أمينًا بذلك لتقليد مصرى يمكن تلخيصه بهذه العبارات: لا خلاص خارج الإدارة. على كل حال، تشترك كل الحكومات فى دول العالم الثالث فى هذا الموقف الحذر إذ إن المنظمات غير الحكومية هى فى نظرها مرادف للتدخل وللوصاية.

لم تفهم هذه الحكومات بعد أن مصلحتها هى فى أن تشارك فى اجتماعات ومؤتمرات المنظمات غير الحكومية وأنه عليها أن تنشىء منظماتها غير الحكومية الخاصة من أجل أن تدافع عن صورتها وعن قضيتها. إنها لم تفهم بعد أن المنظمات غير الحكومية هى القوى الفاعلة الجديدة فى العلاقات الدولية. أغير إذن الموضوع وأقول:

«حضرة الرئيس، لقد أقنعتك فى أوقات أخرى بإرسال قوات عسكرية مصرية إلى الصومال وإلى سارايبفو. واليوم يبدو لى أنه من المناسب أن يكون لنا وجود عسكرى رمزى فى أفغانستان.

- أرفض تمامًا أن تشارك مصر فى عملية عسكرية كهذه حتى ولو رمزيًا ؛ لأن جنودنا سيصبحون الهدف الأول للطالبان الجدد وللأفغانيين» .

ثم يضيف بمكر :

- لأننى أعرفك جيدًا أعلم أنك قادر على أن تجادل ساعات طويلة . وذلك هو السبب الذى لأجله أستقبلك قبل موعد طائرتك بوقت قليل . وبالمناسبة ، قد تفوتك الطائرة إن استمريت فى المماحكة» .

لطالما كنت أحترم الموقف البراغماتى الذى يتخذه الرئيس حسنى مبارك فى مواجهة المشاكل التى تتعرض لها بلادنا . يمكن القبول بأى شىء إلا أن يتحكم الخيال بممارسة السلطة : عدم المجازفة أبدًا بتجاوز حدود قدراتنا ، تجنب الأحلام الجذابة والمغامرات التى لا مستقبل لها ، عدم أخذ القرارات إلا بعد التفكير بها مليًا وبعد العديد من الاستشارات ، حسن الانتظار ، معرفة «السير بمحازاة الحائط» ، كما يقول المثل العربى ، بمعنى آخر ، إظهار الحرص والحذر .

لا أشاركه دائمًا هذه الرؤيا للأمور ، وخصوصًا فى هذه الأوقات حيث تزداد حركة التاريخ سرعة واحتدامًا . لكنى أعترف بأن الرئيس حسنى مبارك محق فى التصرف كما يتصرف الآن فى بلد يحاصره الروتين الإدارى لدرجة تمنعه من أن يتفاعل أو أن يتأقلم بسرعة ، فى بلد حيث لايزال جزء كبير من السكان يعيش على إيقاع حركة القوافل أو وفق معدل سرعة ارتفاع منسوب مياه النيل ، مع العلم أن ذلك لم يعد يحصل منذ بناء السد العالى .

باريس - الثلاثاء ٨ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

الاحتفال التقليدى بتبادل التهانى فى الصالة الكبرى فى مركز كليبير الدولى . كل طواقم الفرنكفونية هنا . ألقى كلمة حول مستقبل الفرنكفونية متمنيًا لها أن تصبح شعبية وأن تنتشر على مساحة الكوكب . إنه برنامج طموح و«هادف» .

باريس ـ الجمعة ١٨ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

يحتفل على ماهر وزوجته شيرى بعيد زواجهما الثالث والثلاثين. صفوة من الشخصيات. تلقى الإمبراطورة فرح ديبا كلمةً لتذكر بأن على وشيرين تزوجا فى طهران، ولتعبر عن أمنيتها أن نلتقى جميعنا قريبًا جدًا فى طهران المحررة.

مسقط ـ الأحد ٢٠ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

غداء فى السفارة المصرية مع السفير هانى رياض ومع سعد الفرارجى، ممثل الجامعة العربية فى جنيف والذى كان مدير مكتبى خلال عدة سنوات. إنه دبلوماسى يجمع بين تمسك شديد بالعدالة وبين هاجس يكاد يكون مرضيًا بحالة التسيب التى يراها فى كل مكان. ينظر إلى رجال السلطة ومؤسساتها نظرة نقدية قاسية لكنها محقة.

بعد الغداء أطلب رؤية البساط الذى حاكه ويصا واصف والذى منحته للسفارة عندما جئت إلى مسقط منذ عشرين عامًا. لهذا البساط حكاية تكثر فصولها. لقد طلبت أن تشتريه وزارة الخارجية كى أهديه لأنديرا غاندى خلال زيارة عمل إلى نيودلهى. كنت أحمل رسالة من الرئيس السادات. كنت أتوقع منها أن تبلغنى ردها لأحمله إلى رئيسى. لكنها لم تشر حتى إلى اسمه واكتفت بسؤالى عن أخبار السيدة الأولى. انتهت زيارتى التى كانت تهدف إلى تحسين العلاقات بين الرئيس السادات وأنديرا غاندى بإخفاق كبير. وبسبب غضبى من هذه النتيجة الرديئة، قررت الاحتفاظ ببساط ويصا واصف، الذى أهديته، فى طريق عودتى، إلى سفارة مصر فى مسقط. أجده اليوم معلقًا فى مكتب السفير، لكنه أقل جمالاً مما كان يبدو لى فى ذاكرتى، أقل جمالاً من صورته فى خيالى بعد ثورة الغضب، منذ عشرين عامًا.

مسقط ـ الاثنين ٢١ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

يفتتح اليوم المؤتمر الذى تنظمه المنظمة العالمية للملكية الفكرية حول موضوع

المعارف التقليدية وتحضره شخصيات بارزة: المدير العام للمنظمة العالمية للملكية الفكرية، كمال إدريس، الأمير حسن بن طلال، رئيس كولومبيا السابق، أرنيستو سامبير بيزانو، رئيس الفلبين السابق، فيدال راموس، الأمين العام السابق لمنظمة الوحدة الإفريقية، سليم أحمد سليم، وعمر زواوى، المستشار السياسى لسلطان عمان...

لا أضجر أبداً من موهبة الأمير حسن الخطابية. صوته الذى يصعد من الأعماق يذكرنى بصوت أخيه الملك حسين، وهو صوت يزيد من تأثيره أن الرجلين قصيرا القامة.

أنا الوحيد الذى يلقى كلمته باللغة الفرنسية. أكاد أعتذر عن ذلك. ويجب أن أقول إنى انتقلت بسرور إلى العربية فى النقاشات التى تلت.

الثلاثاء - ٢٢ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

يفتتح الرئيس سمبير بيزانو جلستنا لهذا الصباح. بينما أسمعه يلقى خطابه يحصل فى ذهنى إبدال غريب. أجد نفسى أعود عدة سنين إلى الوراء. نحن فى نيويورك، أنا أمين عام للأمم المتحدة، أرنيستو سامبير يتكلم فى الجمعية العمومية بوصفه رئيساً لحركة دول عدم الانحياز. هل هو الحنين أم التعب؟ لم أعد أميّز بين الأمس واليوم.

الكلمة الختامية لوزير الإعلام فى سلطنة عمان الذى يعيدنى إلى الواقع العربى. فى كلمته التى تكاد لا تستغرق عشر دقائق يلفظ اسم سلطانه «المحبوب» أكثر من عشر مرات. فالإعلام فى بلداننا لا يمكنه الامتناع عن أن يتخذ شكل تمجيد سرمدى للأمراء الذين يحكموننا.

كان Caen - السبت ٢٦ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

أترأس اليوم بدعوة من مدينة كان Caen المسابقة الدولية الثالثة عشرة فى المرافعة. تم اختيار عشرة مرشحين من أصل ثمانية وأربعين مرشحاً، أتوا من اثنين وعشرين

بلدًا، للبقاء حتى النهائيات. إن هذا التدويل مثير للاهتمام نظرا لما يكشف عنه من تنوع الظروف التى تنتهك فيها حقوق الإنسان عبر الكرة الأرضية كلها. ما يثير الاهتمام أيضًا هو أن نرى بعض هؤلاء المحامين الشباب يستلمون ملفات تتعلق ببلدان غير بلدانهم. ما يستحق أيضًا أن نشدد عليه، هو أن انتهاك حقوق الإنسان ليس وقفًا على الدول المتخلفة كما يسهل الاعتقاد.

داريوس أتسو وهو محام من توغو يدافع عن قضية موميا أبو جمال، وهو إفريقى ـ أمريكى حُكم عليه بالإعدام بتهمة قتل رجل الشرطة دانيال فولكنير، بينما هو برىء.

رينو شوانيير، وهو من الكيبيك، يرافع من أجل تحرير يورى باندايفسكى، رئيس المعهد الحكومى للطب فى مدينة غومل، فى روسيا البيضاء، والذى أُدين بتهمة انتقاد أسلوب حكومة مينسك فى معالجة نتائج كارثة تشرنوبيل.

بوبكر ديابيرا، البوروندى الأصل، يدافع عن غيتان سيغان، وهو من الهوتو، ومحكوم عليه بالإعدام «لمشاركته فى عصابات مسلحة وفى مجازر جماعية» ارتكبها ضد إخوانه من التوتسى.

بابا سنديمبو ضيوف، وهو سنغالى الجنسية، يُدين ظاهرة تسول الأطفال فى داكار، واستغلالهم من قبل «الأولياء».

كيفين هوبكينز وهو محام من شيكاغو، يطالب بأن تدفع الولايات المتحدة تعويضات إلى الأفارقة الأمريكيين على المظالم التى لحقت بأجدادهم فى عصر العبودية.

جريجورى جونز، وهو استرالى، يرافع من أجل أن يحاكم بن لادن وكل الذين يفترض أنهم ارتكبوا جرائم ضد البشرية فى محكمة جنائية دولية، ومن أجل أن تصدّق الولايات المتحدة على قانون روما القاضى بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية.

بوبكر أومارو، وهو نيجيرى، يرافع من أجل القضاء على الزواج المبكر وعلى

الزواج القسرى، مستنداً إلى قضية رامى، وهى تلميذة فى الثالثة عشرة من عمرها، أُجبرت على الزواج بتاجر فى الخامسة والثلاثين فحاولت أن تقتله بالسم فى يناير ٢٠٠١.

الفرنسى فيليب رولى، يدافع عن خيرة كاستيل، ابنة الحركى بن سالم حج، التى تقع ضحية الاضطهاد والمعاملة السيئة، ويدين بشكل أوسع الجرائم المرتكبة ضد الحركى.

المرأة الوحيدة وهى الكيبيكية دومينيك ـ آن روا تدافع عن النساء فى بنجلاديش وهن ضحايا الاعتداءات بمواد حمضية، مستندة إلى قضية بلبلى أختير، التى قام زوجها السابق بالاعتداء عليها ليلة ٨ يناير ٢٠٠١.

وأخيراً روجيه ورد، وأصله من باتون روج فى لويزيانا، يتوقف عند قضية القتلة المتخلفين عقليًا، ويدعّم مرافعته مستشهداً بقرار الحكم بالإعدام على جونى بورى الذى لا يتعدى مستوى قدراته العقلية قدرات طفل بعمر الست السنوات.

كان ـ الأحد ٢٧ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

تمنح لجنة الحكم بالإجماع الجائزة الأولى للكيبيكى رونو شوانيير الذى ترافع دون الاعتماد على ورقة يقرأها، مستشهداً بتواريخ ونصوص قوانين حفظها فى ذاكرته. وهو لم يقع إلا فى خطأ واحد: قال «الولايات المتحدة» بدل «الأمم المتحدة» وهى هفوة تبقى فى نهاية الأمر ذات مغزى، ولم يحاسب عليها...

باريس ـ الثلاثاء ٢٩ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

قداس فى كنيسة سان جرمان دو برى تكريمًا لذكرى ليوبولد سيدار سنغور. إلى يمينى يجلس هوبير فيدرين، شارل جوسلين، عبده ضيوف وزوجته، والسيدة كلود بومبيدو. يلقى المطران لوستيجيه كلمة وكذلك هيلين كارير، وموريس درويون وجاك شيراك. احتفال لا ينتهى.

في نهاية الاحتفال يسلم جاك شيراك بحرارة وتلقائية على الشخصيات التى جلست فى الصف الأمامى، باستثناء الوزيرين الاشتراكيين اللذين يسلم عليهما بسرعة. أما ليونيل جوسبان فيأتى مرتبكًا خجولاً، ليصافحنا على عجل، كما لو أنه يقوم بواجب مفروض عليه فرضًا.

باريس ـ الخميس ٣١ كانون الثانى/يناير ٢٠٠٢

ألتقى وسيط الجمهورية، برنار ستازى، الذى يقوم بوساطة باسم فرنسا فى النزاع الداخلى فى الكونغو، وبمساعدة فيليب بارديو، بحضور كريستين ديسوش. عملية المصالحة فى توغو معطلة تمامًا. يتجه البلد نحو أزمة خطيرة جدًا، خصوصًا إذا استمر الرئيس إياديما فى إصراره على تنظيم انتخابات على الرغم من غياب مراقبين أجانب ومن مقاطعة غالبية أحزاب المعارضة. المعارض المحامى ياووفى أغبوييبو لا يزال فى السجن. وقد أخفقت كل جهودنا من أجل الإفراج عنه. لقد أكد لنا الرئيس أنه إذا طلب أغبوييبو الصفح فإنه سيحصل عليه، لكن هذا الأخير يرفض التقدم بهذا الطلب. أعد برنار ستازى بأن أتصل هاتفيًا مرة ثانية بالرئيس إياديما وبأن أطلب من البروفسور برنار دوبرى، وهو صديق مقرب من الرئيس، أن يتدخل بدوره.

منطقة أخرى، أزمة أخرى: يخبرنى سفير مدغشقر، وهو أحد المخلصين لديديه راتسيراكا، بأن المحكمة الدستورية قد اعتمدت نتائج الدورة الأولى للانتخابات الرئاسية. الرئيس الحالى حصل على ٤٠٪ من الأصوات، مقابل ٤٦٪ لخصمه، رئيس بلدية تناناريف، مارك رافالومانا. غير أن هذا الأخير يرفض حكم صناديق الاقتراع بحجة أنه قد حصل على أكثر من ٥٠٪ من الأصوات. وفى اعتقاده، أنه لو لم تزوّر النتائج لكان فاز بالانتخابات من الدورة الأولى. أما الرئيس راتسيراكا، فهو من جهته، يطالب بأن تنظم دورة اقتراع ثانية يوم ٢٤ فبراير، كما ينص الدستور. بالنسبة إلى السفير، وحده ديديه راتسيراكا، يمثل الشرعية. فى هذه الظروف، لا يمكن التفكير بإرسال بعثة نوايا طيبة من قبل المنظمة الدولية للفرنكفونية، قبل أن يصدر عن المنظمة استنكار لموقف مارك رافالومانا.

أستمع إليه طيلة ساعة كاملة دون أن أعترض. ثم أبادر إلى القول: «لا تستطيع بعثة النوايا الطيبة أن تعرب عن أي موقف قبل أن تستمع إلى الطرفين. إذا كان عليها أن تستنكر موقف أحد منهما حتى قبل أن تبدأ بمهمتها، فلن يكون بمقدورها التوصل إلى مصالحة».

يبدو أن جوابى لم يعجب السفير تمامًا. سيطلعنى بعد الظهر على موقف رئيسه.

باريس ـ الجمعة ١ شباط/فبراير ٢٠٠٢

بما أننى لم أتلقَ أى خبر من سفير مدغشقر، أتصل بعضو مجلس الشيوخ، جاك لوجاندر لأطلب منه إلغاء انتقال البرلمانيين الذين كانوا سيسافرون فى بعثة إلى مدغشقر. أتصل للغرض نفسه بـ كريستين ديسوش.

هذه القضية مليئة بالتطورات. أتلقى فى فترة بعد الظهر اتصالاً من وزيرة الخارجية ليلى راتسيفندريهمانانا التى تقول لى:

ـ «إن الوضع لا يزال يزداد سوءًا، يجب عمل شيء.

ـ سيدتى، لا يمكننى القيام بأى فعل دون موافقة حكومتكم.

ـ أعلم جيدًا أن الرئيس لا يحبذ وساطة المنظمة الدولية للفرنكفونية، لكننى لا أنطق الآن باسمه بل باسم مصلحة بلادى.

ـ أفهم ذلك، لكن لا يمكننى عمل أى شيء طالما أنى لم أحصل على موافقة حكومتكم ورئيسكم. دعينى أفكر لبعض الوقت».

بعد ذلك بوقت قليل يتصل بى السفير بدوره:

«الرئيس راتسيراكا مستعد لقبول بعثة برلمانية ترسلها المنظمة الدولية إلى الفرنكفونية، شرط أن تتقدم المنظمة بطلب ذلك من رئيس المجلس التشريعى ومن رئيس مجلس الشيوخ فى مدغشقر. الشرط الثانى: يجب أن لا تصل هذه البعثة قبل الأربعاء المقبل...».

أتصل هاتفيًا بالسيناتور لوجاندر؛ كي يضع البرلمانيين فى حالة تأهب، وكى يقوم باتصالات مع رئيسى المجلس التشريعى ومجلس الشيوخ. تثير كريستيان ديسوش مشاكل تتعلق بإدارة هذه البعثة. أطلب منها أن تعالج هذه المسألة مع السيناتور لوجاندر، فالوضع معقد بما فيه الكفاية.

باريس - السبت ٢ شباط/فبراير ٢٠٠٢

إنه يوم للراحة. أفرش على سريرى مجلات وجرائد وكتب. أشعر بنهم للقراءة. لكننى كالطفل الذى لديه الكثير من اللعب، لا أعلم بماذا أبدأ. أنتقل بسرعة من مجلة الإيكونوميست إلى مجلة جون أفريك jeune Afrique التى لا ألبث أن أتركها لقراءة الهيرالد تريبيون، لأتوقف أخيراً عند كتاب هنرى كيسنجر الأخير.

يرن جرس الهاتف. إنه الرئيس الملغاشى ديديه راتسيراكا. يبادرنى بالعربية:

«السلام عليكم». أرد عليه التحية بمثلها. يقول:

«أتصل بك كصديق لأشكرك على المبادرات التى اتخذتها. إن تكليف برلمانيين بمهمة «صداقة» فرنكفونية فكرة ممتازة. بالمناسبة، من هو المكلف بتشكيل الوفد؟

- إنه السيناتور لوجاندر، الأمين العام للجمعية البرلمانية للفرنكفونية بما أن الرئيس، وهو الكيبيكى جان بيار شاربونو، قد عُين مؤخراً وزيراً. ويجب انتظار أن ينتخب البرلمانيون الكيبيكيون خلفًا له».

ينتقل الرئيس راتسيراكا دون تمهيد إلى موضوع آخر، فيقول:

- «يبدو أن وزيرة الخارجية تريد أن تخوننى. يضيف بارتياب، أعتقد أنها اتصلت بك هاتفيا، أليس كذلك؟

- بالفعل، لقد اتصلت بى بالأمس لترجو منى أن أتدخل. وأجبتها أنه لا يمكننى عمل أى شىء بدون موافقة حكومتكم».

لا بد أن الرئيس راتسيراكا يعتمد على جهاز تنصت فعّال... لا تقتصر ريبته على وزيرة الخارجية:

«أعرف أن بعض الملغاشيين المقيمين فى فرنسا يخوننى. ولن أقول أكثر، فالانتقام طبق يؤكل باردًا».

آمل أن تتمكن بعثة البرلمانيين من أن تجد حلاً للأزمة الدستورية التى تعانيها مدغشقر.

باريس ـ الأحد ٣ شباط/فبراير ٢٠٠٢

طبق اليوم، الأزمة التوغولية. أتصل بالبروفسور برنار دوبرى كى يحاول الحصول على إذن من الرئيس إياديما بالإفراج عن المحامى ياووفى أغبوييبو. يقول لى إنه على استعداد للسفر إلى لوميه لإقناع الرئيس بضرورة تحريك الوضع بأسرع ما يمكن وذلك بأن يجرد المعارضة من حجة أساسية تتذرع بها وهى احتجاز أغبوييبو.

باريس ـ الثلاثاء ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٢

محاضرة عن الفرنكفونية بدعوة من محفل الشرق الأكبر الفرنسى. إنها المرة الأولى التى أقيم فيها صلة بالماسونية، التى مُنعت منذ عدة سنين فى بلادى، فى حين أن غالبية أعضاء الطبقة السياسية المصرية، قبل الحرب العالمية الثانية، كانوا ماسونيين. «أنور السادات كان ماسونيًا»، يقول لى مضيفى. أمتنع عن إخباره بأن جدى كان معلمًا كبيرًا داخل الماسونية.

القاعة القديمة والجو المغلق يذكراننى بتلك النوادى الإنجليزية حيث يبدو كل تفصيل كأنه يحافظ على ماض ولّى. بعد عرض مقتضب عن الفرنكفونية، يبدأ النقاش حول موضوعات ثلاثة، حددت مدة مناقشتها بدقة: الفرنكفونية، بالطبع، كذلك أيضًا الأمم المتحدة والأزمة فى الشرق الأوسط.

عند إثارة هذا الموضوع الأخير أفقد شيئًا من هدوئى، منتقدًا السياسة الإسرائيلية تجاه الانتفاضة الفلسطينية، وصمت المنظمات غير الحكومية أمام انتهاكات حقوق الإنسان والحريات الأساسية فى فلسطين، وأمام اغتيالات القادة الفلسطينيين.

أدرك أننى أصدم الجمهور الذى يستمع إلىّ، عندما أؤكد أن بن لادن بطل وشهيد فى نظر الجماهير المسلمة التى تعانى البؤس والخضوع.

الكلمة التى يختم بها مضيفى اللقاء بعد أن انتهيت من تقديم عرضى الذى استغرق ما يناهز الساعتين، تلطف الجو وتجعله توافقيًا: يُذكِّر بأن الأهداف التى تسعى إليها الفرنكفونية وهى السلام والديمقراطية والتنمية هى أهداف الماسونية أيضًا.

باريس ـ الأربعاء ٦ شباط/فبراير ٢٠٠٢

أحضر الغداء الذى نظمه صديقى جورخى براغا دو ماسيدو على شرف الرئيس أبدولاى واد فى قصر La Muette هو مقر منظمة التعاون والتنمية فى الميدان الاقتصادى (OCDE). كيف تستطيع هذه المنظمة أن تدعم الشراكة الجديدة من أجل تنمية إفريقيا والنيباد؟ ذلك هو موضوع غداء العمل هذا، الذى يجمع رجال أعمال ورئيس البنك الإفريقى للتنمية، عمر كباج.

يعرض الرئيس أبدولاى واد لمشروع الطرق الداخلية الإفريقية التى يمكن أن تؤمن البنى التحتية للتجارة الداخلية الإفريقية. يشرح أحد رجال الأعمال الأنجلوسكسونيين، وهو رجل أبيض كبير القامة، الصعوبات التى تواجهها شركته فى نشر هذه التجارة الداخلية الإفريقية. أبقى صامتًا. فقد أتيت متأخرًا وأسعى لأن أجعلهم ينسون ذلك. زد على ذلك، أن هذه المناقشة تبدو لى على درجة من الغموض، وأخشى كثيرًا أن نكتشف فى نهاية العام أن الشراكة الجديدة من أجل تنمية إفريقيا قد تمخض فولد فأرًا.

باريس ـ الجمعة ٨ شباط/فبراير ٢٠٠٢

مقابلة مع جان بيار بيمبا، وهو زعيم إحدى الفرق الثلاث للمتمردين فى جمهورية الكونغو الديمقراطية. إنه مارد طوله متر وتسعون له تأثير فظيع فى من يراه. اتخذ مقرًا لجهاز أركانه قرية بادوليتى، وهى القرية التى وُلد فيها الرئيس

موبوتو والتى تملك مطاراً دوليًا. يشرح لى بلغة فرنسية عالية، أن إقامة النظام الديمقراطى هى الطريقة الوحيدة لتحقيق المصالحة الوطنية فى الكونغو. تحليله مقتضب. يود الاستماع إلى وجهة نظرى.

أتجنب التعرض فى هذا اللقاء الأول لأسباب ونتائج المشكلة الكونغولية، مكتفيًا بذكر عموميات وبالتأكيد على أن الفرنكفونية مستعدة للمساهمة فى تحقيق المصالحة. أذكر الصلات الخاصة التى كانت تربط بين زائير ومصر فى الفترة التى كنت فيها مكلفًا بالسياسة الإفريقية فى بلادى. وكنت أنوى من خلال ذلك أن أقنعه بالعلاقة الخاصة التى تربطنى بالكونغو. يصغى إلىّ بتهذيب، بينما أقرأ فى أفكاره: «هذا الدبلوماسى العتيق يحدثنى عن الماضى، بينما المستقبل هو ما يشغلنا». يستعجل فى الاستئذان بالمغادرة متذرعًا بموعد ضرورى.

باريس - السبت ٩ شباط/فبراير ٢٠٠٢

أصحّح مع آنى النصوص المطبعية لكتاب «السير بالعولمة نحو الديمقراطية» وهو ثمرة حوارات بينى وبين إيف برتولو. لقد قامت دار النشر بجهد كبير لمراجعة النص الأصلى: تعديل فى بعض الصياغات، اقتراحات مرفقة بتبريراتها لإجراء بعض التصحيحات، مطالبات بإيضاحات، كلها كُتبت بقلم الرصاص، أو بالحبر الأحمر أو الأخضر، وفقًا لطبيعة تدخلات المصحح. الكلمة الأخيرة تعود للكاتب الذى عليه أن يوضح، أن يوافق، أن يرفض، أن يقرر.

باريس - الأحد ١٠ شباط/فبراير ٢٠٠٢

أُحضِّر الخطاب الذى يجب أن ألقيه فى أكاديمية السلام فى موناكو، التى اختارت موضوعًا لهذا العام: «العالم بعد ١١ سبتمبر».

ما الذى تغير على الساحة الدولية منذ ذلك اليوم؟

أولاً، تولد إدراك أن العنف لم يعد وقفًا على الدول بل يمكن أن يصدر عن أية جهة فاعلة لا تخضع لسلطة رقابة الدولة، وباسم أى رهان كان. ثانيًا، أدرك العالم

المتقدم، فجأةً، أن العنف لم يعد يقتصر على مناطق «بربرية» كان هذا العالم يعتبر نفسه خارجها حتى ذلك اليوم، بل إننا جميعًا ـ بما فيه القوة العظمى ـ معرضون للخطر، على قدم المساواة. وقد ترتّب عن ذلك فكرةً لا تزال غير واضحة، عن تعاظم علاقات الترابط التى تجمعنا وعن ضعفنا المشترك. وترتّب عنه أيضًا فكرة مفادها أنه يتعين على مخططاتنا الاستراتيجية أن تتلاءم مع هذه المعطيات الجديدة فى عالم أصبح كتلةً واحدة فى السرّاء والضرّاء وحيث العولمة تعود بالفائدة على المستهلكين وعلى الإرهابيين ورجال المافيات على حد سواء.

والواقع، أن السمة الأولى للإرهاب (كما هى الحال بالنسبة إلى الجريمة المنظمة إلى الأعمال التهريب على اختلاف أنواعها) هى أنه لم يعد ظاهرة محلية أو وطنية بل أصبح ظاهرة عالمية. ومع ذلك لا يزال رد المجتمع الدولى على هذا الإرهاب العابر للحدود مقتصراً على المستوى الوطنى، أو فى أفضل الأحوال، على المستوى الإقليمى.

السمة الثانية: استعمال سلاح جديد استطاع أن يتحدى أنظمة الدفاع الأكثر تطوراً عندما حوَّل طائرات مليئة بالمدنيين إلى صواريخ أطلقها على مبان مليئة بالمدنيين.

السمة الثالثة: نحن نواجه حربًا غير متساوية، غير متناسقة كليًا سواء لجهة القوى المتورطة أو لجهة الوسائل المستعملة. من جهة، بعض الانتحاريين، ومن جهة أخرى، القوة العظمى. من جهة، عملية تدمير كلفت أقل من مليون دولار، ومن جهة أخرى، أضرار بلغت قيمتها المليارات من الدولارات وحرب ضد الإرهاب كلفتها أكبر أيضًا. وتوازن الرعب الذى ساد خلال النصف الثانى من القرن العشرين يمكن أن يحل محله عدم توازن الرعب.

السمة الرابعة: يخشى أن ينجح هذا السلاح الجديد، الذى برهن للأسف عن فاعليته المخيفة، فى إغراء تشكيلات إرهابية أخرى. ويمكن أن نتخوف من حدوث اعتداءات مماثلة فى المستقبل.

كل هذه الخصائص تكفى لتبين ضرورة اعتماد استراتيجية دفاعية جديدة. ذلك

أنه قد يكون من الخطر ادعاء إدارة هذه الأزمة باعتماد مخططات استراتيجية وُضعت خلال فترة الحرب الباردة وخضعت لتأثير نظام العلاقات بين الدول. خصوصًا وأن هذه المفاهيم قد برهنت عن عدم قابليتها للتطبيق فى الفترة التى أعقبت الحرب الباردة.

فى هذا الصدد، كيف يمكن أن نحلل ردات الفعل التى أثارتها هذه الاعتداءات التى تشكل عوامل تحول قد تعدل أحداث ١١ سبتمبر من اتجاهها أو قد تُسَرِّعها.

أولاً، يجب الحذر من تفسير ردات فعل بعض الشعوب - والتى تنقلها المحطات التلفزيونية لحظة حدوثها - بأنها براهين على صراع الحضارات وعلى صراع حتمى بين الغرب والشرق، بين المسيحية والإسلام. إن النظر إلى الدين من خلال أعمال الإرهابيين الذين شوهوا الإسلام عندما نسبوا شرعية هذه الأعمال إليه، هو تنفيذ لمآربهم. والتحدى الأول الذى يجب علينا مواجهته هو إذن أن نجعل من حوار الثقافات أولوية فى السياسة سواء داخل الوطن أو على الصعيد الدولى.

فضلاً عن ذلك، يجب أن تقرأ ردات الفعل الجماهيرية المزعجة التى لاحظناها هنا وهناك كتعبير عن نقمة كل هؤلاء المتروكين فريسة للحروب، وللآلام، والبؤس. التحدى الثانى سيكون إذن، وفى ضوء أعراض الخلل الواضحة ومظاهرعدم المساواة الصارخة التى تفرضها علينا العولمة، هو التركيز على الاهتمام بنظام حقيقى لإدارة العالم، يكون أكثر تناسقًا وأكثر توازنًا، ويقبله الجميع.

يجب أيضًا أن نستخلص كل العبر من ردة فعل الولايات المتحدة التى أرادت، بعد اعتداءات ١١ سبتمبر مباشرة، أن تستند إلى النظام المتعدد الأطراف. فكان، منذ يوم ١٢ سبتمبر، القرار الذى اعتمده مجلس الأمن ثم القرارات التى اعتمدتها الجمعية العامة للأمم المتحدة. لكن عندما ننظر إلى الأسلوب الذى تعتمده الولايات المتحدة، منذ ذلك الحين، فى خوض حربها، نستنتج العودة بقوة إلى منطق الانفراد. التحدى الثالث هو إذن إدخال الولايات المتحدة من جديد فى لعبة سياسة دولية يحكمها النظام المتعدد الأقطاب والمتعدد الأطراف الذى عطلته. اللهم إلا إذا سلمنا بأن التضامن المعلن مع واشنطن فى مواجهتها مع الإرهاب يعفى الدول

الأخرى من مسؤولية الاحتفاظ بحريتها فى الحكم على نظام إدارة العالم. اللهم إلا إذا سلمنا أن القوة العظمى يمكنها وحدها إدارة العلاقات الدولية على الكوكب، وأنها قادرة على أن تكون حاضرة على عدة جبهات، دبلوماسية وعسكرية، فى الوقت نفسه، وأنها تقدر أن تكون قاضيًا وخصمًا. اللهم إلا إذا سلمنا بأنه لا مكان فى صراع النفوذ العالمى لظهور قوة عظمى جديدة مثل الصين، أو روسيا أو الهند أو الاتحاد الأوربى.

بالنظر إلى كل هذه العوامل، أجدنى مقتنعًا بأن ١١ سبتمبر قد فتح الطريق لعالم مختلف. ربما يكون هذا العالم أكثر اضطرابًا وأكثر فوضوية من المتوقع. وربما، على العكس، تكون سنة ٢٠٠١ قد وُلدّت لدينا وعيًا بالضرورة الملحة لإقامة الحوار بين الثقافات، ولإعادة النظر فى العلاقات بين الشمال والجنوب، ولنشر نموذج مجتمع متوازن، وللعمل على توسيع نظام تعدد الأطراف بحيث يشمل كل القوى العاملة فى المجتمع الدولى، وبالتالى، لبلورة قانون دولى جديد.

باريس - الاثنين ١١ شباط/فبراير ٢٠٠٢

فترة بعد الظهر هذه حافلة بشواغل تستهوينى. أبدأها باستقبال البرلمانيين الفرنكفونيين الذين أتوا لتقديم تقرير عن المهمة التى قاموا بها فى مدغشقر. رئيس الوفد، لويس - فيليب تسيتسول، وهو نائب فى الجمعية الوطنية فى الكاميرون، رجل سكوت لكنه على اطلاع واسع بمشاكل إفريقيا. سالك ولد عبد الجليل، وهو نائب رئيس مجلس الشيوخ فى موريتانيا، على الرغم من أنه خجول ومتحفظ، يقدم تحليلاً ممتازًا للوضع. حضر كذلك غى بن، الذى كان مستشارًا لفرانسوا ميتران لشؤون إفريقيا، ولويس دوفرنوا، المدافع الشرس عن الفرنكفونية.

استقبلهم لدى وصولهم إلى تناناريف كل من رئيس مجلس الشيوخ ورئيس الجمعية الوطنية، وهما، وفقا للسيناريو المعتمد، من وجه الدعوة إلى الفرنكفونية لإرسال بعثة صداقة. أجروا محادثات عديدة مع الرئيس ديديه راتسيراكا ومع مارك رافالومانا، لكنهم لم يتوصلوا إلى تنظيم لقاء بين الفرقاء.

وكان من المفترض أن تقوم التسوية التى كانوا يسعون للوصول إليها على أربع نقاط : تأجيل موعد دورة الاقتراع الثانية، وجود مراقبين أجانب، توسيع اللجنة المشرفة على الانتخابات بحيث تشمل أعضاء من المعارضة، وتشكيل حكومة وفاق وطنى مؤقتة تضم وزراء من المعارضة.

ويرى أعضاء البعثة البرلمانية أن مارك رافالومانا يبدو طارئًا على السياسة وأنه قد يكون خاضعًا لتأثير مستشاريه. أما بالنسبة إلى الرئيس المنتهية ولايته، فهو سياسى محنك يتقن المناورات، وهو عازم على الاحتفاظ بالسلطة ولن يتوانى عن الوقوف فى وجه طموحات منافسه.

يقترحون على انتظار نتائج الوساطة التى قام بها كل من أمين عام منظمة الوحدة الإفريقية، أمارا إيسى، وممثل الأمم المتحدة، إبراهيم فال. يبقى أنه يجب أن يقبل هذان المبعوثان بالإقامة هناك فترة كافية، وهذا ما لم يصبر عليه ولم يرده البرلمانيون الذين أرسلناهم. مع العلم أنه الضمانة الأولى لوساطة ناجحة.

ألتقى فى هذه المعمعة بوفد سودانى يرأسه نائب وزير الخارجية. إنها المرة الثالثة التى يقوم فيها السودانيون بمسعى لدى ليستعلموا عن كيفية الانضمام للمنظمة. أنصحهم للمرة الثالثة بأن يتقدموا بطلب للانضمام كعضو مراقب مستندين إلى حجة أن للسودان حدودًا مشتركة مع أربع من الدول الأعضاء فى المنظمة. يجرى حديثنا باللغة العربية. قد لا يكون الذين يتقدوننى مخطئين عندما يتهموننى بأننى أريد أن «أُعرِّب» الفرنكفونية.

فى آخر فترة بعد الظهر، أستقبل الوزير الكندى الجديد المكلف بالفرنكفونية، دونيس بارادى. إنه يحل محل صديقى رونالد دوهاميل الذى لا تزال صحته تسوء بعد أن فشل العلاج الكيميائى فى إعطاء النتائج المتوقعة. الوزير الجديد لطيف، ودود، ومتحمس للفرنكفونية.

الساعة تشير إلى التاسعة حين أغادر المكتب أخيرًا. أعود إلى المنزل سيرًا على القدمين، كأغلب الأحيان. إن الهواء البارد والقارس فى بداية هذه الأمسية يبعث فى نفسى شعورًا بالتفاؤل المطمئن.

باريس ـ الثلاثاء ١٢ شباط/فبراير ٢٠٠٢

عيدى أومارو، هذا الصديق المخلص الذى ساعدنى خلال العامين الأخيرين فى القيام بمهمات عديدة من أجل الفرنكفونية، قد فارقنا. تفقد إفريقيا برحيله واحداً من أفضل أبنائها ودبلوماسيًا لامعًا.

لقد تعرفت إلى عيدى أومارو خلال زيارة إلى نياميه. كان آنذاك مدير مكتب الرئيس سينى كونتشى. بعد ذلك، ناضلت من أجل انتخابه لمنصب أمين عام منظمة الوحدة الإفريقية، وشاركت عن قرب فى الصراع الذى خاضه من أجل إصلاح هذه المؤسسة. دعانى إلى العشاء فى أديس أبابا، حيث تعرفت إلى زوجاته الأربع وابنته. أذكر أننى تشاورت مع رئيس البروتوكول لأعرف ما الهدية التى أقدمها ولمن. وهكذا وبناء على نصائحه قدمت لزوجة عيدى أومارو الأولى مفرشا مطرزاً مع فوطه الست. فى سنة ١٩٨٤، أصبح وزيراً للخارجية. وعندما ترشح لانتخابات الأمانة العامة لمنظمة الوحدة الإفريقية سنة ١٩٨٩ كى يخلف نفسه، ناضلت كذلك لأدعم إعادة انتخابه. لكنه هُزم أمام التنزانى سليم أحمد سليم، الذى سيحظى بثلاث ولايات متتالية. وعندما أصبحت أمينًا عامًا للمنظمة الدولية للفرنكفونية، كان عيدى أومارو يشغل منصب مدير مكتب الرئيس إبراهيم ميناصارا بارى. وقد انتهى مساره السياسى مع الانقلاب الذى جرى فى إبريل ١٩٩٩ ومقتل الرئيس بارى. عندها عرضت عليه تنفيذ مهمات للفرنكفونية، فوافق باسم صداقتنا المتينة على القيام بمهمة الوسيط فى توغو.

لقد قضينا ساعات طويلة معًا نحاول أن نجد حلاً للأزمة فى توغو. هذا الدبلوماسى ذو الشعر الأبيض، والحديث الهادىء، والتصرف اللائق كان يُظهر كثيراً من التواضع وكثيراً من التهذيب حيال وسطاء ألمانيا، ووسطاء الاتحاد الأوربى الذين عملوا إلى جانبه لحل قضية توغو. وقد اشتكى إلىّ فى أحد الأيام من عجزهم عن فهم الواقع الإفريقى، لكنه فعل ذلك بكثير من اللباقة والتهذيب لدرجة أننى لم أتمالك نفسى من أن أنتفض:

«لا تدعهم يفرضون عليك آراءهم، يا عيدى. اكتب لهم رسالة سنبادر إلى نشرها».

ففعل تنفيذًا لرغبتى بدون شك؛ لأنه كان يكره المواجهات والصراعات سواء على الصعيد العام أو الخاص، شأنه فى ذلك شأن جميع الأشخاص الذين يتسمون بالخجل الشديد.

لقد رحل عيدى أومارو كما رحل كثير من الإخوة والأصدقاء قبله: عبدالله تورى، من غينيا، أليون بلوندين باى، من مالى، أحمد صدقى، عزت عبد اللطيف، حسن جاد الحق، من مصر ... جميعهم ساعدونى على أن أفهم إفريقيا، وعلىّ أن أخدمها، وعلىّ أن أحبها بطريقة أفضل. ينتابنى إحساس متزايد بأنى أصبحت وحيدا.

(فى فترة بعد الظهر ...).

حفل استقبال فى الإليزيه بمناسبة الدورة الأخيرة للمجلس الأعلى للفرنكفونية الذى تمنت فرنسا أن تضعه بعهدة المنظمة الدولية للفرنكفونية، والذى كُلفت بأن أتولى إصلاحه ورئاسته.

يستقبلنى جاك شيراك على انفراد. أسلمه نسخة تحمل إهداء من الكتاب الذى أصدرته عن رسومات خالى، شفيق شاروبيم. أبادره:

- «لقد استغرقتنى كتابة هذا الإهداء وقتًا طويلاً.

يجيبنى بعد أن يقرأه:

- أرى أنك شاعر أيضًا.

- نعم بالطبع، سيدى الرئيس، عندما يكون الظرف مناسبًا أصبح شاعراً بكل سرور».

بعد هذه المقدمة الخفيفة والغنائية نتحدث عن المنحى الدولى الذى يتخذه المجلس الأعلى. يرى جاك شيراك أنه يجب تعيين شخصيات مرموقة فى داخل هذه الهيئة تُسهم فى رفع شأن الفرنكفونية. ويوافق على فكرة التوجه إلى شخصيات لا تنتمى إلى المجموعة الفرنكفونية.

جنيف ـ الأربعاء ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠٢

توقيع اتفاق تعاون بين المنظمة الدولية للفرنكفونية ومنظمة العمل الدولية. مديرها العام، خوان سومافيا، يرتجل خطابًا يتحدث فيه عن تعلقه الشديد باللغة الفرنسية، قبل أن يوضح أنه مضطر أن يتكلم بالإنجليزية فى المنظمة التى يترأسها، وأن يتخلى حتى عن لغته الأم، وهى الإسبانية.

إنها فى نهاية الأمر منظمة دولية تشبه كثيرات غيرها فيما يتعلق بالإذعان للغة واحدة وتهميش لغات العمل الأخرى.

جنيف ـ الخميس ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٢

أنا أول من يقع فى حبائل اللغة الإنجليزية. فمنظّم المحاضرة التى علىّ أن ألقيها أمام جمهور المركز الدولى للصحة والتعاون حول عمليات حفظ السلام ينبئنى بأن مداخلتى التى من المتوقع أن ألقيها باللغة الإنجليزية ستكون مادة دسمة بالنسبة إلى الصحافة فى مدينة جنيف: «أن يلقى أمين عام المنظمة الدولية للفرنكفونية، وفى مدينة جنيف معقل الفرنكفونية، محاضرة باللغة الإنجليزية، أمر لن يحدث أبدًا!».

ليس ذلك دليل تعاظم من قبلى ولا دليل خضوع. كل ما فى الأمر أن الشباب الذين سيستمعون إلىّ لا يتكلمون كلمة فرنسية واحدة. نتوصل إلى تسوية. ستلقى المحاضرة بالفرنسية، وستتم ترجمتها الفورية إلى الإنجليزية، وسيدور النقاش مع الجمهور بالإنجليزية. هكذا يكون التوازن بين لغتى عمل الأمم المتحدة سليمًا.

كنت فى أحلى حالاتى. والبرهان أننى لم أحظ من ليا إلا على كلمات الثناء، وهى عادة قاسية فى حكمها: «إنك تكرر نفسك، كنت مضجرًا... أجوبتك معقدة جدًا وطويلة جدًا لدرجة أنه لم يبقَ للجمهور وقت كى يطرح عليك الأسئلة...». لكن هذه المرة كنتُ «ممتازًا»...

باريس ـ السبت ١٦ شباط/فبراير ٢٠٠٢

اجتماع مكتب الجمعية الدولية للتنمية. ألتقى بأنريكى إغليزياس الذى حلَّ مكانى فى رئاسة هذه المنظمة غير الحكومية المحترمة. أعرفه منذ حوالى خمسة عشر عامًا. التقينا فى القاهرة عندما أتى ليُحَضِّر، بصفته وزيراً لخارجية بلاده، الزيارة الرسمية التى كان رئيسه، خوليو مارسا سانغينيتى كيرولو، ينوى القيام بها إلى القاهرة. أذكر أنه ألقى محاضرة فى المعهد الدبلوماسى حول المشاكل الاقتصادية فى أمريكا اللاتينية. أعجبت بعرضه الواضح والذكى. منذ حوالى عشر سنوات، يتولى إدارة البنك الأمريكى للتنمية، الذى له فرع فى باريس هو المكان الذى نجتمع فيه اليوم. وبما أن المكاتب مقفلة يوم السبت، فقد دخلنا من باب المرآب.

يقدم إلينا روبيرتو سافيو تقريراً ممتازاً عن المؤتمر الثانى الذى انعقد فى بورتو أليغرى، كردٍّ على مؤتمر دافوس. كان عدد المشاركين فيه ثلاثة وخمسون ألف شخص أى حوالى ضعفى عددهم فى العام الماضى. فقد حضرت بكثافة هيئات المجتمع المدنى وكذلك ممثلو الأحزاب السياسية، والبرلمانيون، ورؤساء البلديات، ليس من أجل معارضة العولمة بل لاقتراح إعطائها وجهًا إنسانيًا، وطابعًا ديمقراطيًا، رافضين أن يكون اقتصاد السوق المعيار الوحيد لتنظيمها.

فى هذا السياق، يتساءل أنريكى إغليزياس إن لم يكن على الجمعية الدولية للتنمية أن تحدد لنفسها أهدافًا جديدة. وهو سؤال طرحناه على أنفسنا مراراً خلال اجتماعات مجلس الإدارة دون أن نتمكن من الإجابة عليه بوضوح. فى اعتقادى، نحن أمام خيار بسيط: أن نجعل من الجمعية الدولية للتنمية مركز استقطاب للجودة قادر على تقديم أفكار جديدة فى فترة اضطراب كالتى نعيشها، أو أن نجعلها تنحصر فى دورها كمنظمة غير حكومية تقدم التأهيل والتدريب إلى بلدان العالم الثالث. هل تستطيع القيام بهاتين المهمتين فى الوقت نفسه؟ أنا لا أعتقد ذلك. وإذا كان علينا الاختيار بين هذين السبيلين، أعتقد أنه يجب أن يوجهنا هاجس الفاعلية. وأضيف أنه يجب علينا أن نأخذ التطورات المستجدة بالاعتبار. عند إنشائها، منذ بضع سنين كانت الجمعية الدولية للتنمية فى وضع يكاد يشبه الاستئثار؛ ذلك لأنها

كانت من المنظمات غير الحكومية النادرة التى تدافع عن مفهوم التنمية. أما اليوم فهى فى منافسة مع مئات المنظمات الأخرى التى لديها إمكانيات مالية أكبر بكثير من تلك المتوفرة لها.

أنا شخصيًا من محبذى مقاربة تقوم على إيلاء الأهمية لإيجاد الأفكار الجديدة. فنحن لدينا من العلاقات ما يكفى لنجمع كبار الاختصاصيين، وأصحاب العقول النيرة، ونحملهم على التفكير فى هذه المشاكل الجديدة الملازمة للعولمة وعلى تبادل الآراء فيها، تلك الأفكار والآراء التى يمكن أن تستفيد منها مراكزنا المختلفة عبر العالم. فى المقابل، وسائلنا محدودة فى مجال تقديم المساعدة التقنية الجيدة إلى البلدان النامية.

أنريكى إغليزياس مقتنع، بصفته مصرفيًا، بأنه إذا توفرت الأفكار المبتكرة، وسيتوفر المال. تثير لفظة «مال» نقاشًا حادًا. يستشهد أنريكى إغليزياس بكلمة للقديسة تيريز دافيلا يقولها بالإسبانية: «المال براز الشيطان»... أكيد لكنه أيضًا سماد ممتاز.

باريس - الأحد ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٢

أقيم عشاء على شرف أنريكى إغليزياس أدعو إليه أصدقائى. يُذَكّرنى ميشال كامديسوس بلقائه العاصف مع الرئيس حسنى مبارك فى طوكيو، بمناسبة جنازة الإمبراطور هيروهيتو. أذكر جيدًا هذه الحادثة خصوصًا وأننى قد اعتبرت مسؤولاً عن هذا الخلاف بين مصر وصندوق النقد الدولى؛ لأننى كنت مكلفًا بتنظيم هذا اللقاء. يدافع روبيرتو سافيو بحماسة عن مؤتمر بورتو أليغرى، وهو نقيض لمؤتمر دافوس. أما جان - كلود تريشيه فيبدو صامتًا هذا المساء. يشركنا أنريكى إغليزياس فى هموم الوضع الكارثى فى الأرجنتين الذى يشغل باله والذى «ينذر بتفجير ثورة بحجم الثورة الفرنسية...».

باريس ـ الخميس ٢١ شباط/فبراير ٢٠٠٢

المرشح مارك رافالومانا أعلن نفسه رئيسًا لجمهورية مدغشقر. وهو بذلك يضع حدًا لكل الجهود التى بذلناها فى محاولة لتفادى الأزمة.

فى حوالى منتصف الليل يطلبنى على الهاتف سفير مدغشقر حاملاً إلىّ رسالةً من الرئيس راتسيراكا: «على الفرنكفونية أن تحدد موقفها، إما مع سيادة القانون وإما مع مخالفة القانون».

باريس ـ الجمعة ٢٢ شباط/فبراير ٢٠٠٢

تصدر الجمعية البرلمانية للمنظمة الفرنكفونية بيانًا باسم المنظمة تطلب فيه من مارك رافالومانا «الرجوع عن قراره، واحترام دولة القانون، والتقدم لدورة الاقتراع الثانية للانتخابات الرئاسية». أسأل وزارة الخارجية الفرنسية والأمين العام لمنظمة الوحدة الإفريقية لأعرف موقف كل منهما. يعلمنى أمارا إيسى أن منظمة الوحدة الإفريقية قد أصدرت بدورها بيانًا تدين فيه بشدة قرار مارك رافالومانا وتطلب منه بإصرار العودة إلى الحوار مع الرئيس ديديه راتسيراكا.

فى آخر فترة بعد الظهر، أجمع فريقًا مصغراً من الممثلين الشخصيين لرؤساء الدول والحكومات ـ بلجيكا، بلغاريا، كندا، هايتى، مدغشقر، جزر موريشيوس، الكيبيك، تونس، فيتنام ـ، وذلك للاستماع لتحليلاتهم ولنصائحهم المتعلقة بالمبادرات التى يجب على الفرنكفونية أن تقوم بها. يحبذون فكرة قيام المنظمة الدولية للفرنكفونية بوساطة.

باريس ـ السبت ٢ آذار/مارس ٢٠٠٢

يوم التنظيف الكبير: رسائل، مجلات وملفات مختلفة تراكمت على مكتبى يومًا بعد يوم لتشكّل رزمًا تكاد تهوى وتكفى رؤيتها لتشعرنى بالاكتئاب. فى كل مرة، نفس الشىء: أضع عن قصد هذه الأوراق جانبًا قناعة منى بأننى سأجد الوقت لكى أتصفحها فى عطلة نهاية الأسبوع. لكن نهاية الأسبوع تمر بسرعة أكبر من

المتوقع بحيث إن هذه الوثائق تُقصى فى رزمة وتقبع فى «نفى مؤقت» بانتظار نهاية الأسبوع القادمة وحصتها من العزم والتصميم. للأسف، تتالى نهايات الأسابيع بعضها يشبه بعضًا، بينما لاتزال الملفات الواردة خلال الأسبوع تأتى لتضخّم حجم رزمة «النفى المؤقت»، إلى أن يأتى يوم، يغلبنى الشعور بالذنب، فأقرر أن أنكب على قراءة كل تلك الأوراق بادئًا بالأقدم. مع «المسافة التاريخية»، يتبين لى أن معظم هذه الوثائق ليست بالأهمية التى تخيلتها، فأضعها فى سلة المهملات وأنا أشعر بمزيج من الانفراج والرضا.

فى ظروف كهذه أعثر اليوم على تقرير السيدة إيفيت رودى التى طلبت، فى ديسمبر ٢٠٠٠، ومعها فريق يحيطها بكل الاحترام، أن تخضعنى لتجربة أداء. عنوان هذا التقرير يوحى بمضمونه: «الفرنكفونية وحقوق الشخص: مكان بلا وريث؟

أوافق تمامًا إيفيت رودى على استيائها من أن «الفرنسيين، باستثناء بعض الخبراء، يجهلون تمامًا المؤسسات الفرنكفونية». أوافقها تمامًا كذلك على استنكارها زيادة عدد الأجهزة، وازدواج الهيئات، وتعدد المتدخلين على المستوى الفرنسى، وعدم وجود شروط سياسية للانضمام للفرنكفونية. عند هذا الحد يتوقف النقد البنّاء. لكن الأفكار المسبقة و«الصحيح سياسيًا» من المنظور الغربى، تغلب عندما تلومنى على الإشارة إلى الفقر والبؤس باعتبارهما معوقين لعملية السير نحو الديمقراطية. وقالت «إذا تابعنا منطق الأمين العام للمنظمة الدولية للفرنكفونية حتى النهاية، لوجدنا أن التطور الاقتصادى يجب أن يسبق الانفتاح السياسى». مرة أخرى أقول أيضًا «نعم».

يبدو أن السيدة رودى تنتمى إلى فئة «المتطرفين» فى مجال حقوق الإنسان، من أصحاب النوايا الحسنة والقناعات الرهيبة. إنهم عاجزون عن تقدير الأضرار التى يمكن أن تحدثها تدخلاتهم، ومشروطيتهم، ورؤياهم المطبوعة بالمركزية الأوربية. أما بالنسبة إلى دول العالم الثالث، التى ترزح تحت عبء البؤس، فليس لديها خيار سوى أن تذعن لهذه «الإملاءات» إذا كانت تريد الحصول على المساعدة الضئيلة التى توعد بها، قبل المكافأة أو الدرجة الجيدة التى تعطى للتلميذ الكسول.

وتختم لجنة الجمعية الوطنية التقرير بالعبارات التالية: «إن المقاربة السياسية التى يعتمدها المسؤولون فى الوكالة الحكومية للفرنكفونية أكثر انفتاحًا من تلك التى يعتمدها السيد بطرس بطرس غالى الذى يبقى متأخرًا جدًا عن الركب فى هذه الموضوعات...».

هذه السيدة الرائعة محقة فى رأيها. فقد قدم إليها المسؤولون فى الوكالة الحكومية ما كانت ترغب فى سماعه.

هذه الحادثة البسيطة معبرة جدًا، فى المحصلة، عن عدم فهم غالبية الغربيين لمشكلة الديمقراطية فى إفريقيا؛ لأنهم يتناسون من دون شك، عددًا من البديهيات التى تستحق التذكير بها.

بادىء ذى بدء، لقد استغرقت الديمقراطية قرنين من الزمن لكى تتجذر فى أوربا، وكذلك هو الأمر فى أمريكا اللاتينية، بينما يريد البعض ارتجالها فى إفريقيا ووضعها مباشرة موضع التنفيذ. هذا يعنى أنهم نسوا أن الديمقراطية لا تقتصر على إنشاء المؤسسات؛ إنها عقلية، وحصيلة ثقافة تتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل.

البديهية الثانية هى أن مفهوم الحزب السياسى يعكس فى البلدان المتقدمة واقعًا محددًا. فهو يسمح بالتعبير عن مطالب اقتصادية واجتماعية وكذلك عن خيارات سياسية. الواقع الإفريقى مختلف جدًا، وعلى الرغم من أن الأحزاب السياسية أنشئت وفقًا لنموذج المستعمرين، فهى ترتكز على الانتماءات القبلية والإثنية والدينية. إذا طُبق تعدد الأحزاب كما هو على الطريقة الغربية على إفريقيا سيكون له أثر سيّئ لأنه يُقسِّم شعوبًا فى طور التكوين، أكثر مما يساعدها على السير نحو الديمقراطية.

فضلاً عن ذلك، ما يصدمنى أكثر هو أن الذين يتغنون بحقوق الإنسان، والذين يعطون دروسًا فى الديمقراطية هم أنفسهم الذين أسسوا منذ فترة ليست بعيدة جدًا، فى زمن الاستعمار، النظام الإقطاعى، إن لم نقل الديكتاتورى. وثمة أثر لهذا التسلط الإقطاعى يتمثل فى الحق الذى لا تزال الدول الغنية تعطيه لنفسها حتى اليوم، فى إعطاء المساعدة على التنمية وفقًا لمعايير ذاتية.

أكثر من ذلك، إن هذه السياسة التى تعتمد على المشروطية تمر بأزمة عميقة؛ لأنها، على صعيد الممارسة، تتفق مع مبدأ «الكيل بمكيالين» وهو مجحف تمامًا. فالمتطلبات الأكبر تُفرض على الدول الأصغر وعلى الدول الأفقر، خصوصًا. لماذا لا يزال توغو يخضع للعقوبات بينما تنعم، فى الوقت نفسه، أوغندا التى حلَّت الأحزاب السياسية، بعطف ورعاية المجتمع الدولى؟ أسوأ من ذلك أيضًا: نعرف جيداً أن العقوبات تلحق الضرر بالشعوب ولا تمس الحكام، والحكام وحدهم هم المذنبون.

هل يجب أن نستنتج من ذلك أن انتشار الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات فى إفريقيا أمر سابق لأوانه حتى الساعة؟ بالتأكيد لا.

إن الأمر المنتقد هو زرع الديمقراطية، أو بتعبير أدق، استنساخ الديمقراطية الذى تحاول الدول الغربية ـ وخصوصًا الاسكندنافية ـ القيام به منذ عدة سنوات، دون أن تنجح فعلاً، وذلك لجهلها العميق بطبيعة المجتمعات الإفريقية. ليست الديمقراطية نموذجًا يمكن أن ننتج منه نسخًا طبق الأصل غير آبهين بالسياقات الاجتماعية والثقافية. وهى ليست كذلك منتجًا يمكن تصديره. زد على ذلك، إن السير نحو الديمقراطية مسار بطىء، تعترضه الحوادث، يتقدم تارةً ويتراجع تارةً أخرى. وقد أقول مجازفًا بإحداث صدمة لدى المتمسكين بالنموذج الديمقراطى، إن ثمة انقلابات فى بعض الأحيان ضرورية ومفيدة لتعجيل المسار الديمقراطى.

يجب أخيراً، أن نكفَّ عن تركيز الاهتمام على المساعدة الانتخابية وعن إهمال شروطها الأولية وهى محو الأمية، واستقلالية القضاء، وتحسين أوضاع الموظفين الذين لا يقبضون رواتبهم فى أغلب الأحيان إلا بعد تأخير عدة شهور، وكذلك أيضًا حلّ النزاعات ومكافحة جحافل الفقر التى تعرقل بقوة كل جهد من أجل الديمقراطية والحقوق والحريات.

أنا لا أدَّعى امتلاك الحل المثالى لمشكلة السير بإفريقيا نحو الديمقراطية، لكنى مقتنع بأنه لو سلكنا الطريق الذى لا يزال حتى اليوم تقرير السيدة إيفيت رودى يحث على انتهاجه، فإننا سنعرض أنفسنا لفشل كبير، أول من سيتحمل نتائجه هم الأفارقة.

موناكو ـ الخميس ٧ آذار/مارس ٢٠٠٢

بمناسبة افتتاح الدورة الثامنة والثلاثين لأكاديمية السلام، ألقى خطابًا حول موضوع: «العالم بعد ١١ سبتمبر».

يعقب مداخلتي حوار ثلاثي بين كبير حاخامات فرنسا، جوزيف سيتروك، ومطران كاثوليكي، وصديقي على السمّان، مستشار شيخ الأزهر. يلتقى رجال الدين الثلاثة على المبادىء والأهداف المشتركة بين الديانات التوحيدية الكبرى الثلاث، لكن هذه المقاربة لا تفسر الفروقات الأساسية الموجودة فى حياة المؤمنين اليومية، وفى مخيلتهم.

موناكو ـ الجمعة ٨ آذار/مارس ٢٠٠٢

الإعلان عن إنشاء نادى موناكو فى قاعة الإمبراطورية فى فندق باريس، بحضور الأمير ألبير. أعرض باقتضاب أهداف هذه الهيئة التى تريد أن تكون مركزا متميزاً للتفكير فى مشاكل البلدان الواقعة على ضفاف المتوسط الجنوبية، والتى يهددها النسيان نظراً لتوسع الاتحاد الأوربى إلى بلدان أوربا الشرقية. يكفى النظر إلى مبلغ الخمسة المليارات يورو المرصود كمساعدة إلى بلدان جنوب المتوسط للفترة الواقعة بين ٢٠٠١ـ٢٠٠٦، مقارنة بمبلغ الأربعين مليار يورو الذى تعرضه اللجنة الأوربية لتسهيل انضمام بلدان من أوربا الشرقية إلى الاتحاد، بين ٢٠٠٤ و٢٠٠٦.

يضم نادينا حوالى عشرين شخصية بينها الرئيسان: ماريو سواريس من البرتغال، جورج فاسيليو من قبرص، ورؤساء وزراء سابقين: جيوليو أندريوتى من إيطاليا، سيد أحمد غزالى من الجزائر، قسطنطين ميتسوتاكيس من اليونان، مصطفى خليل من مصر، وكذلك الأمير حسن من الأردن. انضم إلينا كذلك كل من: ليلى شهيد، سفيرة فلسطين، أندره أزوالى من المغرب، إدوار برونير من سويسرا، تيو كلاين وهو الرئيس السابق للمجلس التمثيلى للهيئات اليهودية فى فرنسا CRIF، وعمر زواوى من سلطنة عُمان. وسيقدم كل من المعهد الفرنسى للعلاقات الدولية IFRI فى باريس، والمعهد الدولى للعلوم السياسية IPSI فى

ميلان، الدعم لنادينا وذلك بإعداد الدراسات والتقارير التى يطلبها منهم الأعضاء والتى من شأنها أن تغنى أفكارهم واقتراحاتهم. أُنتخب رئيسًا للنادى، ويُنتخب كلود كيمولاريا، نائب رئيس تنفيذى.

حادث بسيط يشوش جلسة العمل التى نعقدها بعد الظهر. بينما نحن نصيغ البيان الصحافى النهائى، يصرّ عصمت عبد المجيد، الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية، على أن يشار إلى أن إنشاء دولة فلسطين يجب أن يتم وفقًا لجميع القرارات التى أقرتها حتى اليوم الأمم المتحدة. وهو يعنى بذلك الرجوع إلى القرار رقم ١٨١ الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة والذى ينص على تقسيم فلسطين وعلى إنشاء دولتين: دولة يهودية، ودولة عربية، تقوم على ٤٧٪ من الأراضى، بينما تقتصر مساحة الدولة الفلسطينية وفقًا للقرار ٢٤٢ الذى اعتمد لاحقًا، على قطاع غزة والضفة الغربية، أى ما يعادل ٢٢٪ فقط من الأراضى. يوسى بيلين، وزير العدل السابق فى إسرائيل، مستعد للموافقة على الرجوع إلى القرار رقم ٢٤٢، لكنه بالتأكيد غير مستعد للرجوع إلى القرار ١٨١. رئيس جامعة القدس، سارى نسيبه الذى يتكلم قليلاً ويتدخل فى الوقت المناسب، يحلحل الوضع مقترحًا أن يختلى الطرفان المعنيان مباشرة بالمسألة، ليلى شهيد ويوسى بيلين، كى يتفقا على صياغة يضعانها بعد ذلك لكى نوافق عليها. أسارع إلى تبنى هذا الاقتراح الحكيم، وأعلن أنه قُبل، وأنتقل إلى النقاط التالية على جدول الأعمال.

موناكو ـ السبت ٨ آذار/مارس ٢٠٠٢

البيان الصحفى الذى صدّقنا عليه فى نهاية أعمالنا، يشير، على وجه الخصوص، إلى أنه فى هذا اليوم تمّ إنشاء نادى موناكو وهو يضم «فريقًا من الشخصيات التى تنتمى إلى الشعوب التى تعيش على ضفاف المتوسط، يرغب فى تقديم مساهمة من أجل السلام والاستقرار على كامل المساحة المتوسطية». فيما يتعلق بالصراع العربى ـ الإسرائيلى يؤكد النادى على قناعته بأن «الحل الذى يقضى بإقامة دولتين استنادًا إلى الحدود التى نصّ عليها القرار ٢٤٢، وحده الذى يستطيع أن يضمن للشعبين سلامًا عادلاً ودائمًا ...».

نعلن أخيراً عن موعد انعقاد الاجتماع المقبل فى فبراير ٢٠٠٣، إن شاء الله.

ماذا يبقى من هذين اليومين؟ أولاً مداخلة ليلى شهيد الحساسة، الذكية، والمؤثرة. لو كان لفلسطين وللفلسطينيين خلال الأربعين عامًا التى مضت عشرة سفراء أو عشرة ناطقين باسمهم من مستوى ليلى شهيد، لاختلفت صورتهم تمامًا فى نظر الرأى العام الدولى.

ثم هناك العمل على متابعة هذا الاجتماع الأول لنادى موناكو. لا يدَّعى هذا النادى حل كل المشاكل. لكن لو توصل إلى إقامة شراكة مع مؤسسات شبيهة، لو توفرت له الإمكانات المادية الضرورية للقيام بالدراسات لصالح مراكز أبحاث ودراسات أخرى، فيتوصل بذلك إلى استنفار الرأى العام على ضفتى المتوسط من أجل أن تتوفر لنا أخيراً رؤيا استراتيجية حقيقية ومن أجل تنفيذ سياسة متوسطية عظيمة، لقام عندئذ بمهمته على أكمل وجه.

باريس ـ الأحد ١٧ آذار/مارس ٢٠٠٢

مقابلة حول الفرنكفونية على راديو نوفا. أكتشف هنا رواداً يسهمون بالتعريف بشكل أفضل بالموسيقى الإفريقية وبالموسيقى الجزائرية. فى نهاية البرنامج، ومن المنطلق ذاته، يقدم المذيع كتاب صور فوتوغرافية عنوانه «باريس السوداء» يستعرض تاريخ الوجود الإفريقى فى باريس. المؤلفان، باسكال بلانشيه وإيريك ديرو يحضران كتابًا آخر تحت عنوان «باريس العربية».

أسألهما لمن تتوجه هذه الكتب؟ يجيبانى:

«إلى الأجيال الجديدة التى تنحدر من أصول إفريقية أو عربية والتى تريد معرفة تاريخها، والعودة إلى جذورها».

إن مشكلة الاستعمار لا تزال حاضرة فى السياسة الفرنسية، لكنها غيرت مكانها. بالأمس كانت فى ما وراء البحار، وهى اليوم فى الضواحى.

بروكسيل ـ الثلاثاء ١٩ آذار/مارس ٢٠٠٢

اخترنا هذه السنة أن نحتفل باليوم العالمى للفرنكفونية فى بروكسيل، حيث ننظم مؤتمرًا حول موضوع «الفرنسية لغة العالم».

تجرى الجلسة الافتتاحية بحضور الأمير فيليب. لم ينسَ حادثة المصعد الشهيرة فى جامعة سنغور فى الإسكندرية. مع أنه مضت عشر سنوات على ذلك. أجدنى اليوم أمام رجل أكثر نضوجًا، وأكثر ثقة بنفسه. رئيسة البرلمان السيدة فرانسواز شيبمان، والوزير الذى يترأس الجماعة الفرنسية فى بلجيكا، هيرفه هاكين، يرحبان بنا كل بدوره.

أُقدِّم لموضوع مؤتمرنا موضحًا منذ البداية أنه ليس فى ذهننا الدفاع عن لغة فى مقابل ازدراء لغات أخرى، بل الإسهام على نطاق أوسع فى الحفاظ على تنوع العالم.

فيما يتعلق باللغة الفرنسية تحديداً أُذكّر بأننا ننسى أحيانًا أن اعتماد الفرنسية لغة تعبير هو خيار، خيار مفروض، بالتأكيد، إذا كانت الفرنسية هى اللغة الأم. لكنه فى جميع الحالات الأخرى ـ وعددها أكثر بكثير ـ اختيار يعبر عن إرادة وتمليه دوافع مختلفة. تترتب عن هذا الواقع نتيجتان. أولاً أنه لا وجود بالطبع للغة الفرنسية بدون فرنسا. لكن اللغة الفرنسية ليست لهذا لغة الفرنسيين وحدهم. وبالتالى فمستقبلها يتحدد خارج فرنسا. من جهة أخرى يقدر البعض أن الأفارقة سيشكلون بين ٢٠٠٥ و٢٠١٠ أكثر من نصف عدد الفرنكفونيين فى العالم. هذا يعنى أنه يجب النظر إلى اللغة الفرنسية كلغة جماع دولية، أو كهمزة وصل بين عدة قارات. وهذا توجه يجب استخلاص نتائجه بإيلاء مزيد من الأهمية إلى نشر وتسهيل حركة انتقال الآداب، والأفلام السينمائية والأغانى الفرنكفونية.

أُذكّر بعد ذلك بأنه يجب أن نُنمّى ونواكب رغبة بل إرادة استعمال الفرنسية لدى ملايين الفرنكفونيين فى العالم؛ لأن اللغة لا تستمر بقوة سحرها فقط. إنها تستمر بالفائدة التى تقدمها، وبتنوع المجالات التى تتيحها، بتعبير آخر، إنها تستمر بفضل حداثتها.

تجدر الإشارة أخيراً إلى تراجع الفرنسية فى المنظمات الدولية، وخصوصًا فى منظومة الأمم المتحدة وفى مؤسسات الاتحاد الأوربى. فعلى الرغم من أن الفرنسية لغة رسمية ولغة عمل فى هذه المؤسسات، يلاحظ أن ٥٥٪ من وثائق اللجنة الأوربية فى العام ٢٠٠٠ صيغت نسخها الأساسية باللغة الإنجليزية، مقابل ٣٣٪ فقط باللغة الفرنسية، فى حين أن الفرنسية كانت لا تزال فى عام ١٩٩٠ اللغة الأساس الأكثر استعمالاً. فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ارتفع عدد الوفود التى تعتمد الإنجليزية لغة تعبير من ٧٤ وفد فى عام ١٩٩٢ إلى ٩٧ فى عام ٢٠٠٠، بينما تناقص عدد الوفود التى تعتمد الفرنسية لغة تعبير فى نفس الفترة من ٣١ إلى ٢١. إن غالبية موظفى الأمم المتحدة، بمن فيهم الموظفون الفرنكفونيون، يستعملون الإنجليزية فى عملهم. وأكثرية الوثائق تُعد بالإنجليزية ثم تترجم، مع بعض التأخير فى كثير من الأحيان، بغض النظر عن أن هذه الترجمة تكون غير دقيقة أحيانًا، وغير موجودة أحيانًا أخرى.

وهذه ظاهرة خطيرة جدّا؛ نظرا لأن المنظمات الدولية هى الميادين الوحيدة التى تُعَدُّ فيها وتؤخذ القرارات التى ترهن مستقبل الدول والشعوب على هذا الكوكب. إن الحفاظ على التعددية اللغوية داخل هذه المنظمات يشكل ضمانة أولى لأدائها الديمقراطى.

كاترين دو لا لوميير، نائبة رئيس البرلمان الأوربى، تقدم بدورها مداخلة تلفت فيها الانتباه إلى أن لهذه التعددية اللغوية التى أدافع عنها بحماسة، أثرًا مفسدًا: بما أنه توجد اليوم إحدى عشرة لغة رسمية فى المؤسسات الأوربية، ثمة ميل على صعيد الممارسة إلى تبسيط الأمور باختيار لغة يفهمها الجميع تقريبًا، أى الإنجليزية. وتضيف: «أخشى أن تزداد هذه الظاهرة مع مجىء بلدان أوربا الوسطى والشرقية».

هيلين كارير دانكوس، السكرتيرة الدائمة للأكاديمية الفرنسية، تعيدنا إلى رؤيا مختلفة تمامًا للفرنكفونية: الدفاع عن نقاء اللغة الفرنسية وعن كمالها...

تزيد قناعتى بينما أصغى إليها بأنه يجب أن يأتى يوم نتجاوز فيه هذا التناقض بين

لغة فرنسية نريد ـ أو يريد الفرنسيون ـ الحفاظ على نقائها وتصديرها بشكل واسع إلى الخارج فى الوقت نفسه. ويجب أن نُقرّ أيضًا بأن اللغة الفرنسية ليست فرنسا، وأنها ليست واحدة بل متعددة، وأنها لا تتشوه عندما تنفتح على جميع اللكنات، وعلى جميع المخيلات، وعلى جميع المخيلات التعبير فى الفضاء الفرنكفونى. أفضل أن يتكلم مصرى أو هاييتى الفرنسية بشكل ما، على أن لا يتكلمها أبدًا.

بين أكاديمية الأكاديمية الفرنسية وبراغماتية الأمين العام للمنظمة الدولية للفرنكفونية هوة سحيقة.

بروكسيل ـ الأربعاء ٢٠ آذار/مارس ٢٠٠٢

ينتهى مؤتمرنا فى نهاية الفترة الصباحية. لويس ـ ميشال، وهو نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى بلجيكا، اختار أن يلقى خطابًا سياسيًا يطالب فيه الفرنكفونية أن تعلن بدون عُقد أهدافها السياسية، وخصوصًا فى مجال تدارك النزاعات: «يجب أن تتجرأ الفرنكفونية على مزيد من التعاطى فى الشأن السياسى».

كلمة الختام تعود إلى وزير الفنون والآداب لدى الجماعة الفرنسية فى بلجيكا، ريشار ميلير. خطاب جميل ذو نكهة فلسفية: الإنسان هو الكائن الحى الذى يتمتع بموهبة الكلام، الإنسان حيوان سياسى، اللغة المحكية هى لغة التبادل بين شخص وشخص آخر، بين حرية وحرية أخرى. الدفاع عن كل لغة من اللغات لا يعنى الدفاع عنها ضد اللغات الأخرى، بل من أجل اللغات الأخرى. الدفاع عن كل لغة من اللغات، عن كل جزء من كل رؤيا للواقع، هو النضال ضد تنميط الفكر وإفقاره، وبالتالى ضد تقليص الحريات.

باريس ـ الأحد ٢٤ آذار/مارس ٢٠٠٢

تجربتى الأولى فى معرض الكتاب الذى يقام فى بورت دو فرساى.

حشد كبير، كتب بالآلاف، وقلق فجائى: الكتاب الذى أتيت لأوقعه، «إدخال

الديمقراطية إلى العولمة» لم يعد إلا كنقطة ماء صغيرة فى هذا المحيط من الصفحات. أجلس وراء طاولة صغيرة فى جناح دار نشر لو روشيه. أمامى كومة من الكتب. لدى انطباع بأنى بضاعة معروضة فى واجهة. بعض المتسكعين يتوقفون، يتفحصوننى بفضول، يأخذون كتابى بلامبالاة، يُجيلون النظر بسرعة فى الصفحة الرابعة للغلاف، ثم يضعونه على الطاولة ويغادرون إلى جناح آخر. البعض الآخر، يطلب منى إهداء - إلى والدتى، إلى خطيبتى، بمناسبة عيد ميلاد -، حتى من غير أن يأخذ عناء تصفح الكتاب. البعض الآخر، أخيراً، الذى يبدو أنه مهتم بمضمون الكتاب يفتح معى الحديث. ألاحظ بعد وقت قصير أن الكثيرين من «زبائنى» لايدفعون ثمن كتابى بعد أن أوقعه لهم. أعلم الناشر بذلك فيكلف إحدى المضيفات بأن توجههم إلى الصندوق. ما يلفت انتباهى خاصة هو عدد الملهمين الذين يعبرون هذه الممرات. أحدهم يشرح لى مطولاً الوسيلة لتحقيق السلام الدائم راسمًا بعناية على ورقة إشارات سرية كأنها رموز فى كتاب سحر. وآخر يدَّعى أنه يجب البحث عن وصفة سحرية تسمح لنا بإقامة السلام وذلك بأن نقيم معادلات حسابية بين أعمار حكام العالم. وآخر يلومنى بشدة، تحت مراقبة ضابط الأمن المسؤول عن سلامتى، على أننى لم أخصص كتابى للحيوانات المستخدمة كحقل تجارب لأغراض طبية وعلمية. تأتى آنى ديكمانس لتخلصنى فى الوقت المناسب: لقد أكملت أدائى، وقمت بتنفيذ عقدى مع الناشر.

يصلنى خبر أن الأخت إيمانويل أتت الآن إلى جناح ناشرها. أقرر أن أذهب لتحيتها. أجدها توقع كتابها وإلى جانبها المدير السابق للشرطة فى كورسيكا، برنار بونيه الذى أصدر مؤخراً، هو أيضًا، كتابًا. أشق طريقى بعناء بين مجموعة كثيفة من معجبيها.

«كنت للتو أعمل لأجلك أيتها الأخت إيمانويل. فقد وقعت أربعين نسخة من كتابى الأخير وستقبضين كل حقوق المؤلف».

تشكرنى باللغة العربية، أمام أعين معجبيها المندهشة، ثم تضيف وهى تحدثنى على انفراد:

«يجب أن نجتمع حول مائدة عشاء نحن الثلاثة، ليا وأنت وأنا. لدى بعض المشاكل لأستشيركما فيها».

بيروت ـ الأربعاء ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٢

حفل افتتاح ضخم لقمة الدول العربية فى قاعة الاحتفالات الكبرى فى فندق فينيسيا، برئاسة الرئيس الجنرال إميل لحود، الذى جلس إلى جانبه أمين عام الجامعة العربية، عمرو موسى.

غياب الرئيس حسنى مبارك وكذلك غياب الملك الأردنى الشاب شكّلا مادة لكثير من التعليقات. مع العلم أن الكل يعرف أن الرئيس حسنى مبارك لا يظهر إلا نادراً فى المؤتمرات الدولية الكبرى، منذ الاعتداء الذى لم يصبه بأذى فى أديس أبابا، سنة ١٩٩٥، إبان انعقاد قمة الوحدة الإفريقية. ينوب عنه رئيس الوزراء، عاطف عبيد.

أخذت مكانى إلى جانب الأمناء العامين للمنظمات الدولية، فى آخر القاعة. إنها المرة الأولى التى تُدعى فيها المنظمة الدولية للفرنكفونية لحضور قمة الجامعة العربية. وهذا تجديد ينظر إليه بحذر كل «الأصوليين» الفرنكفونيين، وكأنه يغيب عن ذهنهم أن العالم العربى يشكل مخزونا من القوى الحية. وإذ أقول هذا، لا أفكر فقط فى إفريقيا الشمالية، فى المغرب، وتونس، والجزائر، بل أيضًا مصر، وسكانها الذين يبلغون سبعين مليون، فى لبنان، وسوريا. سيأتى يوم فى المستقبل القريب حيث سيكون على الفرنكفونية أن تستمد الدعم من هذه القوة الديموغرافية الضاربة إذا أريد أن يكون للفرنسية فرصة المحافظة على موقعها كلغة عالمية. وأنا أقول هذا، أفكر أيضًا فى أوربا التى ستستقبل فى مطلع ٢٠١٥، خمسة وعشرين إلى ثلاثين مليون مهاجر قادمين من ضفاف جنوب المتوسط.

إنى جالس بين الأمين العام الجديد لمنظمة الوحدة الإفريقية، أمارا إيسى وهو من ساحل العاج، والأمين العام للمؤتمر الإسلامى، بلقزيز، الذى تعرفت إليه منذ حوالى ثلاثين سنة عندما كان عميدًا لكلية الحقوق فى الرباط. فى الصف

نفسه، يجلس كوفى أنان، وخوسى ماريا أزنار، الذى تترأس بلاده الاتحاد الأوربى.

زملاء وأصدقاء، بحجة أن المترجمين يودون الحصول على نص خطابى، يحاولون بطريقة غير مباشرة، معرفة اللغة التى أنوى أن أتكلم بها، العربية أم الفرنسية.

أقول لهم: «سيشبع فضولكم قريبًا جدًا».

يلقى خوسيه ماريا أزنار خطابه بالإسبانية، وكوفى أنان بالإنجليزية. أتكلم أنا بالعربية. أحيى الفلسطينيين والقائد ياسر عرفات، الغائب اليوم، لكنه حاضر فى قلوب ملايين العرب. لا أنسى أننى هنا لأتكلم عن الفرنكفونية. أشير إلى اتفاقيات ومشاريع التعاون التى تربط بين المنظمة الدولية للفرنكفونية والجامعة العربية، سواء على المستوى الثقافى أم السياسى. أشرح بوضوح التزامنا، ليس فقط بالدفاع عن التعددية اللغوية، بل أيضًا، وعلى الأخص، بالدفاع عن التنوع الثقافى، وعن إرساء الديمقراطية فى العلاقات الدولية؛ ذلك لأن التعددية اللغوية هى بالنسبة إلى الديمقراطية العالمية كالتعددية الحزبية بالنسبة إلى الديمقراطية الوطنية.

بيروت ـ الخميس ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٢

تشرق الشمس من جديد. من نافذة غرفتى الواقعة فى الطابق الرابع عشر، أستمتع بتأمل البحر المتوسط، إنه منظر لا أضجر من تأمله أبدًا. يرن جرس الهاتف قاطعًا علىّ متعة التأمل. إشعار بأن الجلسة الختامية ستبدأ.

دخول احتفالى لرؤساء الدول أمام عدسات المصورين. يصل الأمير السعودى عبد الله ونائب الرئيس العراقى وهما ممسكان الواحد بيد الآخر، قبل أن يشبكا ذراعيهما ويرفعانهما أمام الصحفيين وسط التصفيق الحار. لهذه الحركة معنى رمزيًا ورادعًا. إنها تهدف إلى أن تظهر أمام الملأ المصالحة السعودية ـ العراقية، وإلى منع تدخل عسكرى أمريكى جديد فى العراق. لكنى لا أرى ما الذى يمكنه أن يوقف القوة العظمى إن هى قررت أن تنهى نظام صدام حسين.

باريس ـ الجمعة ٥ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

فى كومة الرسائل التى أتفحصها كالمعتاد عند وصولى إلى المكتب، رسالة غريبة من باحث بنينى، مكتوبة بأسلوب فى منتهى الأناقة، تحملنى على التفكير. يسألنى فيها:

«عند أفول شمس مسيرتك المهنية الحافلة كرجل علم وكرجل سلطة، كأستاذ جامعى، وكرجل دولة، وأمين عام للأمم المتحدة، أى من هذه الوظائف شعرت أنها جذبتك أكثر؟»

أرغب بالدخول فى اللعبة مجيبًا بأننى، فى أوقات تفاؤلى وحماسى، أشعر أننى رجل نشيط وصاحب سلطة. لكن عندما يتملكنى الإحباط، أجد الملاذ والعزاء الذى أبحث عنه فى التفكير وفى المعرفة. فى الواقع، أحيانًا أستسلم لدوامة التخاذل، خصوصًا أمام الواقع المصرى. لكن لايلبث الحب الكبير الذى أكنه لبلادى أن يدفعنى إلى العمل.

باريس ـ السبت ٦ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

نقاش حول الأزمة فى الشرق الأوسط مع جان-مارى كولومبانى، وألكسندر أدلير الذى كتب مؤخرًا فى صحيفة لو موند، أن غزة يمكنها أن تصبح تل أبيب الدولة الفلسطينية الحديثة. خلال النقاش، يبقى على موقفه المتفائل. إنها وجهة نظر لا أشاركه فيها. فأنا فى الواقع، مقتنع بأن أرييل شارون لا يريد دولة فلسطينية وأنه يدعم مشروع إسرائيل الكبرى الذى يهدف إلى جعل الأردن دولة فلسطينية بديلة. «فالخيار الأردنى» هو الهدف الأبعد للحرب التى خاضها أرييل شارون. فى هذه الحال، ستحتاج الجهود الدبلوماسية لسنين طويلة كى تتوصل إلى تحقيق مصالحة. فى الوقت الحاضر، عدنا إلى نقطة البداية، أى إلى الحالة التى كان عليها الوضع قبل زيارة أنور السادات إلى القدس، فى تشرين الثانى ١٩٧٧.

عند خروجنا من الاستوديو، يعترف لى ألكسندر أدلير: «أعتقد أن تحليلك المتشائم، بل الواقعى، للوضع هو التحليل الصحيح. ربما ما أعتبره واقعًا ليس إلا مجرد رغبات وتمنيات لدى».

باريس ـ الاثنين ٨ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

عندما قبلت أن أتوجه إلى ستوديو إحدى المحطات التلفزيونية لأتحدث عن أزمة الشرق الأوسط، تناسوا أن يخبرونى بأننى لن أكون لوحدى على خشبة التصوير. وكم كانت دهشتى كبيرة عندما وجدت نفسى أمام سفير إسرائيل فى باريس، إيلى برنافى، الذى أقابله لأول مرة! الرجل لطيف، مبتسم، ذو نظرة يقظة، ذكية. لا أظهر أى علامة تشير إلى تضايقى، مع أن الشعور بالوقوع فى الفخ مزعج دائمًا. السيدة التى تدير الحوار جميلة جدًا ويبدو أنها واثقة بذلك كثيرًا. تسألنى عن وجهة نظرى فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلى ـ الفلسطينى. أكرر التحليل المتشائم الذى قمت به، منذ يومين، عندما كنت برفقة ألكسندر أدلير وجان ـ مارى كولومبانى. إيلى برنافى يسهب فى الحديث من وجهة النظر نفسها.

أتوجه إليه مباشرةً لأسأله: «ألا تعتقد أن أرييل شارون بتدميره للسلطة الفلسطينية ولكل بناها التحتية، يحاول أن ينفذ المشروع الذى يُعرف باسم «الخيار الأردنى»، وأن يقضى على المملكة الهاشمية وأن يحقق فى الوقت نفسه حلم «إسرائيل الكبرى؟»».

يجيبنى السفير من غير أن يكون مقتنعًا تمامًا، قائلا إن تحقيق ذلك غير ممكن.

تسألنى المرأة الشابة: «ما هو الحل الذى تراه فى الوقت الحاضر؟».

جوابى واضح: «قوة عسكرية دولية للفصل بين الفلسطينيين والإسرائيليين، كما هى الحال فى الجولان، وعلى الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية، وفى سيناء. ولا يهم إن كان الأمريكيون هم الذين يرسلون هذه القوات، أم الأمم المتحدة أم حلف الأطلسى. المهم هو وجود قوة عسكرية دولية».

يردُّ إيلى برنافى أن بلاده عارضت ذلك. ويضيف: «سأقول لك بصراحة إن هذه القوات لن تمنع تسلل العصابات الفلسطينية، لكنها فى المقابل قد تتمكن من منع جيش نظامى كجيش إسرائيل من الرد».

أختم قائلاً:

ـ ربما يكون من المبكر جداً أن نعرف من يتحمل مسؤولية التدهور المأساوى للوضع، الذى نشهده. لكن التاريخ سيحكم بقسوة على سياسة أريل شارون الذى لم يترك أى مجال لحل ممكن والذى أجج الكراهية بين الفلسطينيين والإسرائيليين».

بعد أن نغادر خشبة التصوير، نتابع الحديث. أقول للسفير:

ـ «لقد عرفت أريل شارون عن قرب. إنه رجل عسكرى لا يعرف إلا استعمال القوة. وهو المسؤول الأول عن المصائب التى تنزل بدولة إسرائيل.

ـ أنت تعرفه أكثر منى. فأنا لا أنتمى إلى نفس التوجه السياسى الذى ينتمى إليه».

تذكرت فى تلك اللحظة كم هو صعب أن يمثل المرء حكومته وأن يدافع عنها عندما لا يوافق على السياسة التى تتبعها.

وعندئذ سيقول إلى دعاة التشدد الأخلاقى «عليك أن تستقيل فى هذه الحالة». ربما ولكن هذا يعنى أن يتخلى الشخص عن بلده فى اللحظة التى يكون فى أمس الحاجة لمن يدافع عنا.

باريس ـ الأربعاء ١٠ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

أستقبل هذا الصباح المحامى ياووفى أغبوييبو، الذى كان حتى الآن سجيناً فى لوميه. جاء ليشكرنى على الجهود التى بذلتها من أجل الإفراج عنه. شهور السجن أصابته بالهزال ومن الواضح أنها أرهقته.

ألومه بلباقة على عدم نضوجه السياسى، على الرغم من خبرته الطويلة فى الحياة العامة فى توغو. أقول له: «طالما أنك ترفض التفاوض مع الأحزاب التى تدور فى فلك الرئيس، فلن تنال شيئاً. كما أن مقاطعة الانتخابات ليست هى الحل المناسب. فالرئيس إياديما سيربح الانتخابات، وسيقر شكلياً مبدأ تعدد الأحزاب. وبما أن الأحزاب الممثلة فى البرلمان منضوية تحت لوائه سيحصل من دون عناء على عدد الأصوات الذى يمكنه من تعديل الدستور والحصول على ولاية جديدة.

«وعلاوة على ذلك فإن الشروط التى تريد مع جيلكريست أولمبيو فرضها على الرئيس إياديما، فى الوقت الذى لا يتوفر لك أى دعم، معناها أنك تطلب منه: إما أن يصبح انتحاريًا، وإما أن يخضع من دون اعتراض لإملاءاتك ولانتقام أولمبيو. والرئيس كما أعرفه، لن يقبل، لا هو ولا جيشه ولا الأحزاب المخلصة له، بهذه السياسة الانتحارية. اعذرنى على صراحتى، أيها الأستاذ العزيز، لكنك لا تمثل اليوم قوة مقنعة. أنت تخرج من السجن وتريد أن تفرض شروطك للموافقة على المشاركة فى الانتخابات القادمة... لا يمكن اتهامى بالانحياز. أنا لا أدافع عن أى فريق كان. الأمر الوحيد الذى يحملنى على التدخل وعلى أن أتحدث إليك بهذه الصراحة الفظة، هو تعاسة وبؤس الشعب التوغولى الذى يبدو أن الكل قد نسيه. صدقنى، إن التفاوض مع السلطة القائمة هو الوسيلة الوحيدة للمشاركة فى السلطة».

الأستاذ ياووفى أغبوييبو يصغى إلىّ بانتباه على الرغم من قسوة كلامى. أتابع إذن:

«لقد ضاقت إفريقيا ذرعًا بدروس الأخلاق التى يعطيها الذين استعمروها فى الماضى والمتزمتين فى الدفاع عن حقوق الإنسان. من جهة أخرى، تمر سياسة المشروطية بأزمة عميقة. أُنظر إلى موقف موغابى فى زيمبابوى - وأنا لا أوافق عليه، بالتأكيد. لكنه وجَّه صفعة إلى الكومنولث. لا تحاول الحصول على دعم خارجى من أجل تدعيم معارضتك. تفاوضوا كأفارقة فيما بينكم».

أنتبه إلى وجود مساعد أغبوييبو الشاب فى اللحظة التى يطلب فيها الكلام بينما كان يلتزم حتى الآن بصمت وقور. يقول:

«فى إفريقيا، وعلى عكس ما يحصل فى الغرب، نحترم الذين يكبروننا سنًا؛ لأنهم يمثلون الحكمة، ونحن بالتالى ممتنون جدًا لصراحتك، حتى ولو كنا لا نشاركك الرأى».

لا ينطق الأستاذ أغبوييبو بأى تعليق. يشد على يدى مودعًا ويشكرنى مرة أخرى على ما قمت به من أجل الإفراج عنه.

داكار ـ الخميس ١١ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

شمس شتاء إفريقى: ضوء، خليط من الألوان. يجد سائق السيارة الذى يواكبنا إلى المقبرة المسيحية فى داكار، حيث دفن ليوبولد سيدار سنغور، صعوبة كبيرة فى أن يخترق الزحام فى الشوارع.

لطالما كنت أستغرب الشعور بحاجة إلى التمييز بين المدافن تبعًا للديانات، كما لو كان مقدراً للأموات أن يلقوا فى الحياة الثانية معاملة خاصة بكل ديانة. أذكر، فى المقابل أن المسلمين والمسيحيين، فى إندونيسيا يتشاركون المقبرة ذاتها.

أجتاز ممرات الرمال الصفراء التى تفصل بين صفوف القبور التى يعود معظمها إلى الفرنسيين المولودين فى المستعمرات والذين ماتوا فى أرض إفريقية. لا شىء يميز قبر ليوبولد سيدار سنغور عن القبور التى تحيط به، لولا رزمة الأزهار الطرية التى تغطيه. بدورى أضع باقة.

«إنه مدفون إلى جانب ابنه»، يوشوشنى الصحفى الذى حرص على مرافقتى مع أحد المصورين.

وقت من التأمل والانفعال الشديد. أحاول أن أتذكر وجه الفقيد، لكن شيئًا غريبًا يحدث: صورة قبر نهرو فى نيودلهى هى التى تفرض نفسها علىّ: الشمس نفسها، الحر نفسه، الضوء نفسه.

عبثًا أمعن التفتيش فى أعماق ذاكرتى عن تعبير لوجهه، عن ضحكة، عن نظرة... لكن كلماته، أقواله، أفكاره هى التى تطفو تدريجيًا على السطح: «إن حضارة القرن الحادى والعشرين ستكون حضارة الكونية»؛ ستكون اللغة الفرنسية «وسيلة رائعة تستخدمها الشعوب الساعية لإحلال التفاهم فيما بينها، من أجل تحقيق التوازن والانسجام والتقدم؛ «ستقدم الفرنكفونية «نموذجًا يحتذى للغات الكبرى كى تشكل كل منها حلقة فى مسيرة تطور كونى...». هل هذه رسالة رجل الدولة، أم رسالة الشاعر الزنجى ـ الإفريقى أم رسالة المُلهم ببصيرته النافذة؟ لدى خشية كبيرة من أن تكون نبوءته مجرد تعويذة، فى يومنا هذا.

يُظهر الصحفيون علامات التململ. لكنى أرفض أن أغادر المكان قبل أن تعود إلىّ صورة ليوبولد سيدار سنغور التى لا تزال تهرب منى. أخيراً، يظهر بابتسامته الذكية الماكرة. أراه من جديد يعلن «ما أنا إلا زنجى صغير»، ويضحك من استغراب محدثه.

(فى بداية السهرة ...).

أقابل لانسانا كوياتى القادم من أبيدجان. أقنعه بأن يتابع بمفرده الحوار الداخلى فى توغو من دون الوسطاء الثلاثة، لكى يحافظ على المناخ الملائم الذى تمكنّا من إشاعته بعد الإفراج عن الأستاذ ياووفى أغبوييبو. أن يعهد الاتحاد الأوربى إلى أربعة وسطاء بالقيام بوساطة فى توغو، عمل مارق يُظهر مدى جهل هذه المنظمة بالسياسة الإفريقية. فى الواقع، إن هذا الأسلوب يُعقّد الوضع بنسبة ما يضيف إلى النزاع بين الأحزاب فى توغو، نزاعًا بين وسيط الاتحاد الأوربى ـ وهو سفير نمساوى متقاعد ـ، والوسيط الألمانى ـ وهو أيضًا سفير ـ والوسيط الفرنسى وهو وسيط الجمهورية، برنار ستازى، الذى بسبب مشاغله الكثيرة، عهد بالملف إلى أحد معاونيه. وهذا الأخير، كالكثيرين غيره من الدبلوماسيين «التكنوقراط» الشباب، يعتقد أنه لا يزال فى زمن المستعمرات، وهو يحاول أن يقتطع لنفسه حصة الأسد، وأن يعطى الأفضلية للعلاقات الثنائية.

عندما عُين مصطفى نياس الذى قام بمفرده بهذه الوساطة باسم الفرنكفونية، عام ١٩٨٨، رئيس وزراء فى السنغال، حلَّ محله الدبلوماسى الإفريقى المخضرم، إيدى أومارو، الذى كان يجد صعوبة كبيرة فى التفاهم مع الوسطاء الآخرين، على الرغم من تمتعه بإرادة طيبة. بسرعة فهم لانسانا كوياتى، الذى طلبت منه بعد موت إيدى أومارو المفاجىء أن يكمل المهمة، أن هذه «اللجنة الدبلوماسية الرباعية» لن تحصل على أية نتيجة.

سنكمل إذن بمفردنا، حتى ولو جازفنا بإغضاب شركائنا. أترك لـ لانسانا كوياتى القيام بكامل المهمة: فهو إفريقى يعرف كيف يحاور أفارقة مثله، وهو يتمتع بثقة أطراف الحوار الداخلى فى توغو، ويتحلى بما يكفى من حزم واستقامة وذكاء لأن يطمح إلى أداء دور رئيسى فى القارة الإفريقية.

داكار ـ الجمعة ١٢ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

أشارك فى حفل افتتاح الندوة التى تنظمها الفرنكفونية حول موضوع الديمقراطية، على هامش أعمال مؤتمر الشراكة الجديدة من أجل تنمية إفريقيا (النيباد). لقد جمعنا شخصيات جاءت من تونس، ومصر، وإفريقيا، من سويسرا، وفرنسا، وبلجيكا. كان يجب أن تلقى كلمة الافتتاح رئيسة الوزراء فى السنغال، السيدة ماديور باى. لكنها اعتذرت فى اللحظة الأخيرة. غير أن الحكومة السنغالية كانت ممثلة بشكل واسع من خلال مشاركة كل من وزير الداخلية، ووزير الثقافة، ووزير الخارجية.

ما إن أنتهى من إلقاء كلمتى، أتوارى لأذهب إلى الموعد الذى حدده لى الرئيس أبدولاى واد. كم من الذكريات تربطنى بمبانى رئاسة الجمهورية: ذكريات جميلة للقاءاتى الكثيرة مع ليوبولد سيدار سنغور، ثم مع عبده ضيوف... وكذلك أيضًا ذكريات أوقات صعبة ـ ففى هذه المبانى جرت المفاوضات بين السنغال وموريتانيا برعاية الرئيس حسنى مبارك الذى عيننى للقيام بوساطة بينهما. وقد لامنى بشدة المتملقون للرئيس مبارك على فشل هذه الوساطة، الأمر الذى وضع الرئيس فى موقف صعب وأثر سلبًا فى صورته. ففى اعتقادهم، كان يجب علىَّ ألاّ أدعو الرئيس إلى التدخل فى هذه المفاوضات إلا عندما تنجح الوساطة. لكن كان لى رأى مخالف وكنت أعتمد على حضور الرئيس بالذات كى أتمكن من أن أقود هذه القضية إلى نهايتها السعيدة.

الرئيس أبدولاى واد مرتاح جدًا، وهو مسرور جدًا بحجم الوفد الذى أرسلته الفرنكفونية للمشاركة فى مؤتمر النيباد. لكنه يظهر استياء من الأفارقة الأنجلوفونيين، ومن إرادة الهيمنة لدى الرئيس أوباسنجو، الذى يستمد قوته من قوة نيجيريا الاقتصادية والديموغرافية، ومن نظيره تابو مبيكى، الذى يتمتع بنفوذ يستمده من هالة سلفه، نيلسون مانديلا. فى ظروف كهذه، قد يكون السنغال، هذا «البلد الصغير» الذى ليس لديه سوى إشعاعه الثقافى ـ وهو لا يزن كثيرًا فى ميزان النمو الاقتصادى ـ لمواجهة هذه الهيمنة، مهددًا بأن يجد نفسه على الهامش.

وتقول آخر الشائعات، إن الرئيس تابو مبيكى المنشغل بملف الكونغو، والرئيس أوبسنجو، المنشغل بالوضع الداخلى فى بلاده، قد يعزفان عن السفر إلى داكار للمشاركة فى مؤتمر النيباد الذى من المفروض أن يفتتح غداً.

(بعد الظهر ...).

ألتقى مجدداً وبسرور كبير رئيس الوزراء جان كريتيان الذى ينهى جولة إفريقية. يرافقه السفير كلود لافردور ووزير الفرنكفونية، دنيس بارادى. كل رؤساء الدول الذين التقاهم متحمسون للنيباد. يردد حرفيًا تقريبًا الحجج التى عرضها فرانسوا ميتران فى خطابه فى لا بول La Baule، فى ٢١ يونيو ١٩٩٠: «كلما اعتمدتم النهج الديمقراطى، كلما تحسّن مستوى الإدارة عندكم ـ وهذا هو المقصود بالمفهوم الشهير: «حسن الإدارة» ـ، كلما حصلتم على مزيد من الدعم».

أهمُّ بأن ألفت انتباهه إلى أن سياسة المشروطية هذه تواجه أزمة، وإلى أنه يجب التوصل إلى تحديد أكثر دقة، إلى تحديد توافقى، على الأخص، لمعايير الديمقراطية وحسن الإدارة، وإلى أنه يجب الخروج من العلاقات الثنائية حيث مانح المال هو فى الوقت نفسه حكم وطرف، وإلى أنه يجب وضع حد للتعسف من منح المساعدات أو رفضها، ذلك أن القرارات بشأنها تتخذ وفقا لمعايير البلدان المانحة. لكننى انتهيت إلى اعتماد السلوك الذى تنتهجه غالبية الدول الإفريقية التى لديها حاجة ماسة للمساعدة: الحرص على عدم النقاش فى موضوع المشروطية مخافة أن المساعدة أو أن تتوقف. ففى نهاية المطاف، البلاد المانحة كما البلاد الممنوحة تجد ما يناسبها فى هذه العلاقة الثنائية حيث يتعادل الخبث والالتباس، وحيث الكل يجد ما يسعى إليه. فالدول المانحة تظهر فى نظر الرأى العام فى بلدانها، على وجه الخصوص، بمظهر متعهد محترم يُمَوّن البلدان الممنوحة بالديمقراطية وبالحريات التى تحتاج إليها؛ بينما تصل الدول الممنوحة التى يُفرض عليها إعلان النوايا الحسنة بترجمتها لهذا الإعلان إلى إنشاء وزارات لحقوق الإنسان، وتعيين وسطاء، والإعلان عن تأسيس أحزاب سياسية جديدة: وهذه كلها ظواهر فرعية ـ نتائج مزيفة لسياسة المشروطية ـ تتناقض تمامًا مع الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى الإفريقى.

داكار ـ السبت ١٣ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

أكظم غيظى الكبير: السفير المصرى الذى يدعونا هذا المساء، أعتقد بلا شك أنه سيعطى انطباعًا جيدًا لدى السنغاليين بأن لا يقدم إليهم من الشراب إلا عصير الفواكه. إنه لا ينتبه إلى الصورة التى يعطيها عن مصر. وهو بمخالفته للعادة التى جرى عليها أسلافه الذين كانوا يقدمون الخمر، يبعث إحساسًا بأنه قد تلقى تعليمات بهذا الاتجاه من القاهرة، وعلى الأخص، بأن تأثير الأصوليين المسلمين يتزايد فى مصر، فى الوقت الذى تخوض الحكومة مواجهة مفتوحة معهم، وتقصد إلى أن تُفهم ذلك للمجتمع الدولى. أسوأ من ذلك، ربما استنتج البعض من هذا التصرف، أن الحكومة المصرية، لضعف منها، لا تملك خيارًا للحد من سيطرتهم سوى أن تتبنى تحليل ما يحللونه وتحريم ما يحرمونه. إنها باختصار، ثورة أصولية بدون الأصوليين ـ الذين يقبعون فى السجن.

داكار ـ الأحد ١٤ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

أتطلع إلى الفاكسات التى حولتها إلىَّ سكرتيرتى هنرييت نجاكويو، المتيقظة دائمًا: أولاً، تصريحات ديسموند توتو الذى أدان بالأمس السياسة الإسرائيلية فى الضفة الغربية، مشبهًا إياها بنظام الفصل العنصرى. لا سيما وأنه اعترف بأن زيارته للشرق الأوسط ذكّرته بالطريقة التى كان يعامل بها السود فى جنوب إفريقيا. قال: «رأيت إذلال الفلسطينيين فى نقاط التفتيش وعلى الحواجز، وآلامهم» ويكمل مستذكرًا الطريقة التى كان يعتمدها رجال البوليس البيض لمنع السود من التنقل بحرية.

أينما ذهبت أحمل معى المأساة الفلسطينية دائمًا. طلبت من الرئيس واد الإشارة إلى الشعب الفلسطينى فى الكلمة التى سيفتتح بها مؤتمر النيباد؛ من جهة أخرى، أشار وزير الخارجية إلى ذلك بالأمس، فى اختتام الندوة حول الديمقراطية. لكن الكلام لا يكفى، يجب الفعل.

خبر آخر: انتُخب مؤخرًا الكولونيل أزالى أسومانى رئيسًا لجزر القُمُر.

داكار ـ الاثنين ١٥ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

٩,٣٠ : الجلسة الافتتاحية للمؤتمر حول تمويل النيباد. فى القاعة، عشرات من رجال الأعمال، وأصحاب الشركات ورؤوس الأموال يقصد الرئيس واد أن يشرح لهم نية إفريقيا فى أن تجعل من القطاع الخاص محرك نموها الاقتصادى. جلست فى الصف الأول إلى جانب كى أماكو، مدير اللجنة الاقتصادية من أجل إفريقيا، وإبراهيم فال، ممثل الأمين العام للأمم المتحدة.

١١,٣٠ أخيراً يدخل رؤساء الدول والحكومات. لم يكن الانتظار الذى دام ساعتين ليترك أفضل الأثر على المستثمرين المحتملين الذين تكبدوا عناء السفر إلى داكار. الأسوأ من ذلك أن من يُسَمَّوَن رؤساء دولة لا يعون، بدون شك، الأذى الذى يلحقونه بأنفسهم وبالقضية التى يدَّعون العمل لأجلها. يتوجهون إلى مقاعدهم الوثيرة وعلامات الارتياح بادية على وجوههم. ليس للدبلوماسيين، وأنا واحد منهم، خيار آخر إلا الانتظار، أيضًا ودائمًا. فى المقابل، يقيس رجال الأعمال الوقت بالمال.

يبدأ المؤتمر الذى يترأسه عمر بونجو. تُقرأ الرسالتان المرسلتان من الرئيس بوش ومن الرئيس بوتفليقة. يتملكنى الغضب: فالغياب المصرى ملفت للانتباه. كان يمكن للرئاسة أن تكلف السيدة العزيزة على قلبى، فايزة أبو النجا، وزيرة الدولة للشؤون الخارجية، بنقل رسالة من حسنى مبارك. فلا ينبغى أن نهمل إفريقيا بسبب انشغالنا بانتهاكات شارون. أستغرب كذلك أن الرئيس الفرنسى لم يبعث برسالة، هو أيضًا. لرجال الأعمال وعى أكبر بأهمية التواصل: فممثل شركة ميكروسوفت، الإيطالى الجنسية، لم يعدم وسيلة ليشير فى كلمته إلى بلاده وإلى رئيس وزرائه.

تدور المناقشات متسمة بالصراحة. يشير أحد المتحدثين إلى أن قيمة المبالغ الإفريقية الموضوعة فى البنوك أو الموظفة فى مشاريع فى الخارج ترتفع إلى ٣٦٠ مليار دولار. ويضيف: «لو أن جزءاً من هذه الأموال يعود إلى إفريقيا سيشجّع ذلك بالتأكيد المستثمرين الأجانب، وسيسرّع فى الوقت نفسه حركة النمو

الاقتصادى» . الغالبية الكبرى من المداخلات لرجال أعمال أمريكيين الذين يروق لهم إبراز حجم معاملاتهم والفائدة التى تؤمنها شركاتهم لإفريقيا . أوربا والمؤتمر الفرنكفونى غائبان . ميشال روسان ، وهو الممثل الوحيد للعالم الفرنكفونى - إن لم أكن مخطئًا - يعطينا درسًا فى «حسن الإدارة» فى مجال الاقتصاد . الفارق كبير بين هذه العقلية وبين واقعية الأمريكيين وبراغماتيتهم! أراهن منذ اليوم أن النهج الاقتصادى فى إفريقيا سيكون أنجلوسكسونيًا فى السنوات القادمة . أما الفرنكفونية ، فستستمر بقوة الثقافة ، إذا توفر لها القليل من الحظ .

يجرى التداول تباعًا فى مسائل التكامل الإقليمى ، التقنيات الحديثة ، تطوير الزراعة ، تدعيم القطاعات الصحية والتربوية ، مكافحة الفساد . الأمريكى ستيفان هايس ، وهو يمثل مجلس التعاون فى إفريقيا ، يدعو الوكالات الدولية الكبرى لضمان الاستثمارات إلى الاستثمار فى إفريقيا ؛ كى تأخذ مشاريع البنى التحتية طريقها إلى التنفيذ .

لكن النقاش يتوتر قليلاً عندما يستغرب أحد المستثمرين الأمريكيين مستنكرًا أن يكون عدد من رؤساء الدول الأفارقة قد دعم إعادة انتخاب روبير غبريال موغابى فى الزيمبابوى والتى أثارت الكثير من الاعتراضات . بعض الحكام الحاضرين يحاول تبرير موقفه . بعضهم الآخر يشن هجومًا مضادًا مستنكرًا موقف الدول الصناعية المانحة ، التى تقف موقف من يعطى الدروس بينما يجب أن تقوم الشراكة على الاحترام المتبادل والمسؤولية المشتركة . بدوره ، يلفت الرئيس واد الانتباه إلى أن «كل دولة تدخل فى شراكة هى دولة ذات سيادة على أراضيها **وأنه ربما يكون من** الخطر إدانة مجمل القارة الإفريقية بسبب حالات فردية مناقضة **لأخلاقيات** النيباد» .

لدى خشية كبيرة من أن تنتهى النيباد ، كغيرها من المبادرات الإفريقية التى شاركت فيها ، فى سلة مهملات تُرمى فيها الأفكار التى تولد ميتة . أنا لا أؤمن بخطة مارشال من أجل إفريقيا ؛ لأن باقى العالم قد تعوَّد بالتدريج وبالتأكيد ، نسيان هذه القارة ، وإسقاطها من حسابه . لكن هذا لا يقلل من أهمية النيباد كوسيلة

دعاية ممتازة، وينبغي أن نأمل أن تجد القمة المقبلة لمجموعة الدول الصناعية الثمان، فى كندا، الوسائل اللازمة لتنفيذ اقتراحاتها.

فريبورغ - الثلاثاء ١٦ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

تغيير إطار، تغيير مناخ. دعتنى جامعة فريبورغ لألقى محاضرة فى إطار الاحتفالات بـ يوم أوربا. مئات الطلاب جلسوا فى أماكنهم فى المدرج الكبير. لا أعرف ما سيكون وقع خطابى لأننى اخترت عن قصد التكلم من موقف المدافع عن العالم الثالث، الذى تشغله قبل كل شىء العلاقات بين أوربا وجنوب المتوسط. إنى مقتنع بأن عزم الاتحاد الأوربى وقدرته على بلورة استراتيجية متوسطية، وليس فقط سياسة متوسطية، هو رهان أساسى فى السنوات القادمة. لن تكون أوربا هى نفسها، إلا إذا تطوعت للدفاع عن البلدان التى لا تنتمى إلى أوربا.

يبدو أن طرحى يلقى صدى واسعًا لدى الطلاب والأساتذة الجامعيين السويسريين: «لم تطرح المسألة من هذه الزاوية قط. ستكون أوربا بحاجة كبيرة لأن تتحرر من التمركز على ذاتها». بالتأكيد.

باريس - الجمعة ١٩ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

طاولة مستديرة فى اليونيسكو حول موضوع حوار الثقافات. البروفسور محمد أركون يدعو إلى علمنة العالم الإسلامى، إلى الفصل بين الكنيسة - الجامع والدولة. ينتقد بشدة مفهوم الحرب العادلة الذى بلوره القديس أغسطينوس واعتنقه الرئيس بوش الابن. «الجهاد هو كذلك حرب عادلة، فى نظر المسلمين». لكن رئيس مركز فلسفة الاستراتيجية، جان بول شارنيه، هو بلا شك من يقدم التحليل الأكثر قدرة على الإقناع للصعوبة التى يجدها العالم العربى - الإسلامى فى الانفتاح على الخارج. يقول:

«أنا أقيم قرب متحف اللوفر وأستفيد من هذا القرب كى أواظب على الذهاب إلى اللوفر لتأمل لوحة الجوكوندا التى تجتذب مئات الآلاف من المعجبين القادمين من جميع القارات. لكنى لم أرَ قط زواراً مسلمين أو أفارقة ...».

يمكن النقاش طويلاً فى صحة المعيار الفنى الذى اعتمده جان ـ بول شارنيه. لكن يجب أن أقول إن هذه «الطرفة»، وهى ذات دلالة رمزية، دعتنى إلى التفكير.

خلال العشاء الذى دعى إليه السفير على ماهر بمناسبة مغادرته باريس، يخبرنى السفير السعودى بلسانه بأن البريطانيين هم الذين نصحوا الملك حسين، ملك الأردن بعدم مقابلة أنور السادات، فى الرباط، بعد قمة كامب ديفيد، فى سبتمبر ١٩٧٨. مما يحمل على الاعتقاد بأن الدبلوماسية البريطانية المعروفة بكونها فى خدمة الدبلوماسية الأمريكية، تسمح لنفسها أحيانًا ببعض الاستقلالية... هذه المعلومة تفتح عينى على حقيقة مفادها أننا نجهل التاريخ الذى عشناه. لن أنسى أبدًا خيبة أمل الرئيس السادات الذى كان يأمل الحصول، فى الرباط، على دعم لاتفاقيات السلام من قبل دولتين عربيتين هما المغرب والأردن، والذى غادر خائب الأمل، بعد أن تخلى عنه أقرانه، ولكنه كان مصمما أيضا أكثر من أى وقت مضى على مواصلة المسيرة دون الالتفات إلى الوراء.

باريس ـ الأحد ٢١ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

دورة الاقتراع الأولى للانتخابات الرئاسية الفرنسية. أشاهد وأنا أجلس مستريحًا على مقعدى، الزلزال السياسى الذى حدث فى هذه الدورة الأولى. لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير من جديد فى أحداث مايو ٦٨ التى عشتها بحماس، ساعة بعد ساعة، يومًا بعد يوم، وأنا غارق فى قلب الإعصار. هل سبب هدوئى المطمئن اليوم هو تقدمى فى السن؟ بل أعتقد أن السبب هو أننى عشت ثورة ٦٨ الثقافية متصورا أنها ستحدث يومًا فى بلادى. ولكن ما يجرى اليوم فى فرنسا لا يمكن حدوثه فى مصر.

باريس ـ الأحد ٢٨ نيسان/إبريل ٢٠٠٢

مقالة لدافيد إينياتيوس تزيدنى تمسكًا بقناعاتى. لم تتخلَ فرنسا عن ماضيها الاستعمارى: اسم أراضيها الجديدة «الضواحى الساخنة» أو «الأحياء الحساسة» فى

المدن الفرنسية الكبرى. الخمسة الملايين مسلم فرنسى هم مواطنون من الدرجة الثانية. وظاهرة الزعيم لوبان تتغذى من هذه الأزمة العرقية. المشكلة الحقيقية ليست استبعاد اليمين المتطرف إنما هى التخلى عن سياسة النعامة التى تتقنع ببهرج المبادىء الكبرى للجمهورية والعدالة والأخاء. ما من نائب مسلم واحد فى الجمعية الوطنية. ولدى فضول لمعرفة النسبة التى يشكلها عدد رؤساء البلديات المسلمين من مجموع رؤساء البلديات فى فرنسا البالغ عددهم ستة وثلاثين ألفًا. وبما أن الإحصائيات لا تأخذ بعين الاعتبار اختلاف الأعراق والأديان، فإن من الصعب معرفة نسبة العاطلين عن العمل بين المسلمين. لكن يمكن المراهنة أنها مرتفعة جدًا.

يذكّر دافيد إينياتيوس بأن للولايات المتحدة أيضًا جان ـ مارى لوبان الخاص بها: إنه جورج والاس، الذى نال فى سنة ١٩٦٨، ١٣٪ من الأصوات فى الانتخابات الرئاسية. يؤكد من جهة أخرى، أن المشكلة العنصرية قد حُلَّت منذ ذلك الوقت. لكنى عشت فى الولايات المتحدة وقتًا كافيًا لأعرف أننا لا نزال بعيدين جدًا عن ذلك. لقد توصل الأمريكيون فقط إلى تمويه الأمور من خلال بعض القوانين التى تضمن للأقليات معاملة تفضيلية، هذا على الرغم من معارضة جزء من الشعب الذى يبقى عنصريًا، لكنه يجيد إخفاء عنصريته ـ وهذا ما يقتضيه التزمت.

باريس ـ الأربعاء ١ أيار/مايو ٢٠٠٢

«احرصوا على عدم الخروج من المنزل»، تنبأت وسائل الإعلام والشائعات بمظاهرات ضخمة، وحتى بمواجهات عنيفة بين أنصار الجبهة الوطنية وأعدائهم الجمهوريين. لكن، كل شىء يبدو هادئًا.

باريس ـ الثلاثاء ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٢

حفل استقبال فى صالونات بوفران، فى مجلس الشيوخ، بمناسبة صدور الحوارات التى أجراها معى إيف برتولو تحت عنوان: «إدخال الديمقراطية إلى العولمة». ليا قلقة وَعصبية: «كيف نأمل أن يأتى الناس إلى احتفال فى الساعة

السـادسـة مـسـاء؟ إنه وقت مـبكر جـداً. ثم إنه حـصل بعض الإهـمـال فى توزيع الدعوات. عدد من أصدقائنا لم تصلهم الدعوة». أحاول طمأنتها. يأتى المدعوون رويداً رويداً. فى الساعة السادسة والنصف مساء تمتلىء القاعة فعليًا. يلقى السفير على ماهر وإيف برتولو وجان بول برتران، صـاحب دار لو روشيه للنشـر كلمات تقريظ. أذعن بطيبة خاطر لهذا التقليد المتبع فى دور النشر على الرغم من أنى أشك أكثر فأكثر فى جدوى هذه الحفلات.

باريس، أثينا، ميكونوس ـ الأحد ١٩ أيار/مايو ٢٠٠٢

دعانى وزير خارجية اليونان، جورج بابندريو، للمجىء لأرأس المؤتمر المتوسطى الذى سيضم وزراء خارجية البلدان الواقعة على ضفاف المتوسط مع بعض المثقفين.

عشاء احـتفالى يقيـمه رئيس بلدية ميكـونوس، الذى ينطلق فى خطاب لا ينتهى يلقيه باللغة اليونانية ثم يعيد تلاوته مترجم قام بترجمته إلى الإنجليزية. لحسن الحظ لدى صحبة ممتازة: إلى يمينى زوجة جورج بابندريو الشابة والجميلة جداً، وإلى يسارى رئيسة الجامعة هيلين أرفايلير. جـو ابتهـاج ومرح تزيده بهجة الأغـانى والرقصات الفولكلورية التى تعيد إلى ذكرى اكتشافى لليونان فى الخمسينيات، برفقة زوجتى الأولى ليلى. تنتـهى هذه السـهرة الأولى من المؤتمر المتـوسطى فى الساعة الثانية صباحًا.

فى الليل يبدو البحر المتوسط أكثر هدوءاً. يكاد المرء يتردد فى القيام بأية حركة مخافة تعكير هذا الهدوء المضاء بالنجوم.

ميكونوس، ديلوس ـ الاثنين ٢٠ أيار/مايو ٢٠٠٢

نغادر بالباخرة إلى جزيرة ديلوس. لقاء أخوى مع وزير خارجية تونس، الحبيب ابن يحيى. يقـدم إلىّ نظيره الجزائرى، عبد العزيز بلخادم. أتعرف كذلك إلى مضيفنا، جورج باباندريو، وهو أكثر لطفًا وأكثر توددًا من أبيه. نتحدث فى كل شىء إلا فى المشاكل الأوربية ـ المتوسطية. ركاب الباخرة يلهون. وعندما نصل إلى

مسافة من الشـاطىء حيث تصبح ديلوس تحت مرمى نظرنا، لا تستطيع السفينة أن ترسو نظراً لكبر حجمها. ينقلوننا إذن إلى زورق أكثر تواضعاً الذى يتمايل بسبب سوء توزيع حمولته، ربما. مواطنى، النائب مصطفى الفقى رئيس لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشعب، وقد استلهم الوضع، يترك العنان لروح الدعابة لديه فى بيان صحفى وهمى يتلوه أمام جمعنا البهيج: «الأمين العام السابق للأمم المتحدة مع وفد من وزراء الخارجية والسفراء، غرق بهدوء قبل أن يبلغ شواطىء ميكونوس. فالآلهة اليونانية التى أغضبتها هذه الغزوة الدبلوماسية على أراضيها، والتى أغضبها أكثر الوزراء زى المفوضين، أغرقت المركب الذى كانوا يبحرون فيه».

لحسن الحظ، وصلنا سالمين إلى ميكونوس لنزور متحفها. سبعة مرشدين سياحيين وضعوا بتصرفنا، مما من شأنه أن يرضى المجموعات اللغوية المختلفة المتمثلة فى جمعنا. الوفد المصرى اختار أن ينضم إلى المجموعة الفرنكفونية، التى تقودها امرأة شابة رائعة تلبس رداء أبيض، ملحقة بذلك ضرراً كبيراً بالمرشد الذى ينطق بالعربية. يبادرنى الوزير أحمد ماهر ماكراً: «إذا كنت قد انضممت إلى المجموعة الفرنكفونية، فذلك تضامناً منى مع الأمين العام للفرنكفونية، وهو رئيسى السابق».

السؤال الذى يطرحه أحد رفاقى فى هذه الزيارة يثير انزعاجى بغير قصد، على الرغم من أنه برىء جداً: «كيف نفسر أن هذا الكم من المعابد والتماثيل قد دُمِّر؟» يجيب المرشد عن هذا السؤال بأن المسيحيين محوا أثر كل ما كان يذكّر بتعدد الآلهة.

عندها لا يستطيع وزير خارجية الجزائر الامتناع عن الملاحظة أن الرأى العام الدولى تأثر كثيراً عندما دمّر الطالبان تماثيل بوذا الشهيرة فى باميان، ولكن أحداً لم يستنكر تدمير المعابد اليونانية ـ الرومانية على يد المسيحيين.

تسوّل لى نفسى أن أرد عليه أنه خلال خمسة عشر قرناً من تاريخ الإسلام لم يقم أى رجل دين مسلم أو أى فاتح بالمساس بالتماثيل الشهيرة لبوذا، وأنه كان يجب

انتظار العام ٢٠٠٠ ليأتى بعض البدائيين من الأصوليين ويهاجموا هذه الروائع. ثم هل يمكن المقارنة بين ما جرى منذ ألفى عام وبين الأحداث التى جرت مؤخراً؟ لكن الحر الشديد منعنى من الدخول فى نقاش لا يمكن له إلا أن يكون حاداً. ثمة أوقات من النهار يكون فيها النقاش غير مستحب.

عند انتهاء الزيارة نعود إلى الزورق الصغير الذى يقلنا إلى الباخرة حيث يجب أن ينعقد أول اجتماع للمؤتمر. بينما كنا نبحر باتجاه جزيرة تينوس، يعلن جورج باباندريو افتتاح الجلسة ويترك لى الكلام. تشجع مداخلتى المناصرة لتدعيم التعاون بين ضفتى المتوسط ممثلى بلدان الجنوب ـ مصر وتونس وتركيا ومالطا ـ على الإشارة بإصبع الاتهام إلى تقصير سياسة الاتحاد الأوربى فى هذا المجال. تنصّب البرتغال نفسها محامياً عن بلدان الشمال: «يجب أيضاً، أن تؤمن بلدان الجنوب لنفسها الوسائل لاستغلال مؤهلاتها وتوحيد صفوفها إذا كانت تريد الدخول فى شراكة حقيقية مع الاتحاد الأوربى».

من المتوقع أن يجتمع وزراء الخارجية فى جلسة مقفلة على عشاء عمل لمعالجة الملف الإسرائيلى ـ الفلسطينى. هل سأشارك فى هذه الجلسة؟ إذا كان الجواب نعم، فبأية صفة؟ هل بصفتى أميناً عاماً لمنظمة دولية؟ أم بصفتى مفاوضاً فى اتفاقات كامب ديفيد؟ بأسلوب لبق، يضع جورج باباندريو حداً للنقاشات التى أثارتها مشاركتى، إذ يقدمنى عند بدء العشاء كاختصاصى كبير فى مسألة الشرق الأوسط.

الملفات الأكثر تعقيداً تقع غالباً تحت رحمة ظروف مادية بحتة. هذا ما يحصل هذا المساء. علينا مقاومة الموسيقى الصاخبة التى تصلنا من القاعة المجاورة حيث تلتقى بقية المؤتمرين. علينا أيضاً وعلى الأخص، أن نواجه مشكلة غياب المترجمين مما يجعل التخاطب بيننا صعباً جداً فى بعض الحالات. يهمس لى دومينيك دو فيلبان الجالس إلى يسارى: «أعتقد أنه علينا التكلم بالإنجليزية. ما رأيك؟» لكن كل المشاركين لا يفهمون الإنجليزية أو لا يتكلمونها... أخيراً نتوصل إلى تسوية: سيتكلم الوزير الإسبانى باللغة الإسبانية وستُترجم أقواله إلى الإنجليزية. وستترجم

مداخلات الوزراء الآخرين من اللغة الإنجليزية إلى الفرنسية لأجل الوزير الجزائرى الذى لا يتكلم الإنجليزية.

تدافع بحماس كل من إسبانيا واليونان عن عقد مؤتمر دولى جديد لإدارة الأزمة الإسرائيلية - الفلسطينية. فى المقابل، يعبّر ممثلو العالم العربى - مصر والجزائر وتونس والمغرب - عن عدم اقتناعهم: إنهم يشكّون فى ملاءمة وفاعلية مثل هذا المؤتمر. وهم محقّون. للأسف، ما من دولة تستطيع أن تحل تلك الأزمة إلا دولة واحدة: هى الولايات المتحدة.

ميكونوس، باريس - الأحد ٢١ أيار/مايو ٢٠٠٢

نستعرض هذا الصباح التقارير المُعدّة من قبل الولايات المتحدة إثر الاجتماع السابق الذى انعقد فى أغادير: الوقاية من الصراعات، اعتماد مدونة سلوك متعلقة بالجريمة المنظمة وبتهريب المخدرات. يقدم إلينا المغرب ملفًا عن الانعكاسات الاقتصادية لاعتداءات ١١ أيلول ٢٠٠١، على قطاع السياحة، خصوصًا.

ينتهى المؤتمر. نغادر القاعة لأخذ الصورة التذكارية التقليدية على درج مدخل الفندق وراءنا أعلام مختلف الدول المشاركة، تشكل خلفية الصورة. كدنا نواجه كارثة. سارية العلم التونسى تقلبها الريح فتقع على الأرض متسببة بخدش كبير فى خد الوزير الإسبانى جوزيف بيكيه. بينما يمسح هذا الأخير، رابط الجأش، خيط الدم الذى يسيل على وجهه، يستنكر أحمد ماهر بفكاهة الاعتداء التونسى على إسبانيا. «اعتداء تدعمه ريح ميكونوس» يقول وزير آخر مزايدًا. أما الوزير التونسى فيطالب بتحقيق فورى لتحديد هوية اليد المجرمة التى تسببت بهذا الفعل. التقط المصور صورة فورية لهذه البرهة من المرح الصادق، تاركًا للمهتمين بأحداث التاريخ الصغيرة عناء تفسيره. مع هذا لا ينبغى الاعتقاد أن هذه المؤتمرات الوزارية ليس لها سوى فائدة سياحية. إن هذه اللقاءات غير الرسمية، التى تجرى فى أماكن غير رسمية، تتيح إعداد اتفاقيات وتكوين مؤسسات من شأنها أن تدعم الدبلوماسية المتعددة الأطراف.

باماكو ـ الأحد ٢٦ أيار/مايو ٢٠٠٢

يتمتع أمادو توماني ديورى بتواضع بانتصاره الأخير فى الانتخابات الرئاسية. لم يتغير، بقى على مودته وصراحته.

أقول له مهنئًا: «ألم أتنبأ بانتصارك؟ الأولياء المصريون لا يخطئون أبدًا».

لم يفقد الرئيس الجديد شيئًا من صفاء ذهنه. فهو واعٍ للصعوبات التى تنتظره: أزمة إيجاد فرص عمل للشباب، تحسين الأراضى على ضفاف نهر النيجر... تبقى مالى أحد أفقر الدول على الكرة الأرضية. يضيف مبتسمًا، هادئًا: «سوف تساعدنى».

ـ عبده ضيوف هو بدون شك الأمين العام المقبل للفرنكفونية، لكن كن واثقًا بأننى سأكون دائمًا مستعدًا لخدمة إفريقيا ومالى، أيًا كانت مهامى الجديدة...».

باماكو ـ الثلاثاء ٢٨ أيار/مايو ٢٠٠٢

اليوم هو موعد افتتاح المؤتمر الإقليمى الإفريقى تحضيرًا للقمة العالمية عن مجتمع المعلومات. تحت شمس لاذعة، ننتظر وقوفًا وصول الرئيس كونارى الذى ما زال يمارس مهامه طالما أن خلفه لم يستلم بعد السلطة، ووصول الرئيس واد. نتنبّه لوصول الموكب الطويل من سيارات المرسيدس السوداء بفعل صوت صفارات الإنذار المنطلقة من سيارات رجال البوليس المواكبة. لاحظت فى كثير من الأحيان علاقة تناسب عكسى بين أهمية المواكب الرسمية والناتج المحلى الإجمالى للدول.

ندخل بعد الرئيسين إلى القاعة ونأخذ أماكننا على المنصة. أجلس بين الرئيس واد و يوشيو أوتسومى، الأمين العام للاتحاد الدولى للاتصالات.

يفتتح ألفا عمر كونارى الجلسة بكلمة متفائلة، معبرًا عن ثقته بمستقبل النيباد. أبدولاى واد يرتجل، كمنبرىّ لامع، مداخلة مقنعة وواثقة على حد سواء، عن الفوائد المرتقبة للتقنيات الحديثة.

أشاركه الآمال والطموحات. من الخطأ القول بأن الإنسان ينظر بحذر إلى ما

يجهله أو أنه يرفض ما ليس متمكنًا منه. أعترف بأنني أجد بعض الصعوبات فى استخدام الحاسوب، على الرغم من إرادتى الحسنة وعلى الرغم من فضولى. لكن هذا لا يخفف من قناعتى بأن وسيلة الاتصال الجديدة هذه، خاصة عبر الإنترنت، تنطوى على إمكانات هائلة.

فهى أولاً واجهة عرض عالمية للمبدعين. وهى أيضًا وسيلة قوية لفتح المجال أمام الجميع للحصول على العلم وعلى المعرفة وعلى المعلومات. وهى أيضًا عبر التجارة الإلكترونية إمكانية متاحة أمام أبعد القرى النائية فى العالم كى تجد نفسها فى خضم هذا الاقتصاد الذى يتحدى المكان والزمان. وعلى عكس الذين يرون فى الإنترنت وسيلة لعولمة أحادية، أعتقد أننا نمسك هنا بوسيلة لتسهيل اللقاء بين أشخاص يباعد بينهم التاريخ والجغرافيا، ولإعادة إنشاء وشائج لغوية وثقافية جديدة تتخطى الحدود.

لكن ذلك لا يجدى إن لم يتقاسم الجميع، وفى كل مكان، مظاهر التقدم هذه. وإذا حدث العكس، سوف نتعرض لخطر لا يمكن قياس حجمه وهو إقامة حائط من نوع جديد، أكثر إيذاءً من جدار برلين لأنه حائط لا يرى ـ حائط رقمى ـ يفصل بين الأثرياء بالمعلومات والفقراء الذين لا يمتلكونها، مما يعمّق، يومًا بعد يوم، التفاوت بين من فاتهم التطور ومن نسوا التضامن.

فى نهاية هذه الجلسة الافتتاحية، أصل إلى المقر الرئاسى، حيث ورشة تجديد كبيرة. يشرح لى ألفا عمر كونارى أنه يرغب فى أن يسلم خَلَفه قصراً بحالة ممتازة. يتكلم بصوت عال وجهورى كأنه يخاطب من أعلى المنبر جمهوراً وهميًا من المستمعين. يصمت بين عبارة وأخرى كأنه يريد أن يعطى لكلماته وقعها الخاص. يقول لى:

«عبده ضيوف يتأهب لخلافتك. لكن دعنى أقول لك إنك أحدثت تحولاً فى الفرنكفونية، كما لعبت دور الريادة فى الأمم المتحدة. سترحل محاطًا باحترام المجتمع الدولى وباعترافه بالجميل.

ـ أنا مصمم على متابعة العمل وعلى الاهتمام بإفريقيا، يا سيدى الرئيس.

ـ وأنا كذلك.

ـ هل لديك مشاريع محددة؟».

لا يبدو أن سؤالى يفاجئه، لكنه يبقى غامضًا:

«أجل، ولكن لن أقول أكثر من ذلك».

باريس ـ ٣١ أيار/مايو ٢٠٠٢

الجلسة الختامية للجمعية التأسيسية للرابطة الفرنكفونية للجان الوطنية لحقوق الإنسان. عشر سنوات تقريبًا من أجل التصديق على هذه التوصية التى صاغها المؤتمر العالمى لحقوق الإنسان فى فيينا، سنة ١٩٩٣. عند مراجعتى للائحة الدول الأعضاء فى هذه الرابطة، ألاحظ أن عددها خمس وعشرون من أصل الخمس والخمسين دولة الأعضاء من منظمتنا. أستنتج، على وجه الخصوص، أن مصر ليست عضواً فيها.

يُنظّم مؤتمر صحافى عقب انتهاء الاجتماع.

أسئلة متوقعة:

«هل لهذه الرابطة أية سلطة على الدول الأعضاء فى الفرنكفونية، التى تنتهك حقوق الإنسان؟»

أرجع بطبيعة الحال إلى الإعلان الذى أقرته المنظمة الدولية للفرنكفونية فى باماكو، والذى يعطى للسلطات حق التدخل فى حال حصول انتهاك كبير لحقوق الإنسان، موضحًا فى الوقت نفسه أننا نتعامل مع دول مستقلة وصاحبة سيادة ـ وهذا ما يُفسّر غالبًا بأنه تغطية من قبلى لهذه الانتهاكات.

لحسن الحظ، لم يكن فى القاعة ممثلى أكثر المنظمات غير الحكومية شدة فى انتقاداتها. وإلا لكانوا اتهموا الفرنكفونية مرة أخرى، بالجمود والضعف فى مواجهة الحكام الأفارقة المستبدين الدمويين.

باريس ـ السبت، ١ حزيران/يونيو ٢٠٠٢

روبرتو سافيو، مارتى أتيسارى، وهو الرئيس السابق لفنلندا، ماريو سواريس، وهو الرئيس السابق للبرتغال، هال جورن هانسن وماريو لوبتكين، وهو مدير الوكالة الدولية للصحافة، وأنا، نشكل ما يمكن اعتباره لجنة عقلاء مهمتها توجيه النصح لهذه الوكالة الصحفية المنتمية إلى العالم الثالث والتى أنشئت منذ ما يناهز الأربعين عامًا.

ما هى التوجهات الكبرى فى السياسة الدولية التى يجب أن تدافع عنها الوكالة؟ يرى مارتى أتيسارى، أن المشكلة الخطيرة التى تهدد أوربا الغربية والاتحاد الأوربى هى دول البلقان، وهى بؤرة للحروب ومصدر للصوصية فى أوربا. يجب، إذن، وباسرع وقت، مساعدة هؤلاء السكان البالغ عددهم ستين مليون نسمة، ودمجهم فى العالم الغربى. ماريو سواريس، الذى لعب الدور الأول فى تطوير الاتحاد الاشتراكى العالمى، يتنبأ بموت أكيد للاشتراكية الديمقراطية، على غرار ما حصل للحزب الشيوعى، إلا إذا نجحت فى تجديد نفسها. المساهمة فى إعطاء صبغة إنسانية وديمقراطية للعولمة، ومناهضة الأصولية الليبرالية الجديدة والأصولية الإسلامية، يجب أن تشكل أحد الأهداف الأولوية للوكالة الدولية للصحافة.

تستحق إعجابى براعة رفاقى فى معالجة الأرقام والإحصائيات. لا أحفظ إلا رقمًا واحدًا: فى إيطاليا، تكلف البقرة الواحدة الحكومة، يوميًا، دولارًا واحدًا، يُدفع كدعم. كثير من سكان البلدان الفقيرة لا يملكون مثل هذا المبلغ لكى يعيشوا. ما أحتفظ به كذلك من هذا النقاش، هو أن أوربا تسعى جيدًا من خلال إصدار القوانين العديدة إلى إقفال أبوابها أمام «البرابرة» القادمين من الجنوب. على الوكالة الدولية للصحافة أن ترفع صوتها لمعارضة هذه السياسة.

«يبدو اللقاء المتوسطى، وعملية برشلونة كأنهما أكاديميات لعلوم الأخلاق والسياسة، معزولة تمامًا عن الواقع». يختم أحد الحكماء، محبطًا.

باريس ـ الأحد ٢ حزيران/يونيو ٢٠٠٢

يستقبلني الأب بيار في العنبر الذي يضم معرض إيمايوس الدولي. ألتقي شيخًا نحيلاً، تبدو عليه بوضوح علامات الإنهاك، لكنه قادر دائمًا على تلك الابتسامة المشرقة التي لا تشيخ. لاتزال تتألق في عينيه الغامضتين شرارات الحب والإيمان والعطاء. يحيطه معاونوه بكل العناية وبكل الاهتمام، لأنهم يدركون أنهم يعيشون بجانب رجل استثنائي. يمنحونني شرف السماح لي بدفع الكرسي المتحرك الذي يجلس عليه الأب بيار. لكن الشخص الحائز على هذا الامتياز لا يبدو مستعداً للتنازل عنه بشكل كامل. يترك لي فقط القبضة اليسرى للكرسي.

كل الجماعات المشاركة في إيمايوس أتت من العالم أجمع لتبيع حاجات، أو ثيابًا، أو قطع أثاث قامت بجمعها. نتّجه إلى المنصة التي أقيمت بمناسبة افتتاح المعرض. الرسائل وخطابات المديح تترى. يتلقاها الأب بيار بتواضع ورحابة صدر من عرف البؤس عن كثب فلم يعد جمال العبارات يبهجه. أضم صوتي إلى صوت معجبيه لأقول: «لو كان للأمل أن يتخذ اسمًا لاتخذ اسم الأب بيار».

لكن ينبغي أن أقول إنه أمام الأهمية المتزايدة التي تكتسبها سنة بعد سنة جماعات إيمايوس، ينتابني شعوران متناقضان: شعور بالإعجاب بالعمل الذي يقوم به الأب بيار، وشعور مرير بالخيبة لأن توسع هذه الجماعات في أنحاء العالم يدل على أن البؤس لا يزال يتفاقم دائمًا. العولمة تفتح أمامنا بدون شك آفاقًا واعدة. لكن الواقع اليوم هو أنها تتقدم بخطى قسرية، مخلفة عدداً يتزايد كل يوم من المنسيين والمبعدين.

لا أستطيع أن أمتنع كذلك عن إقامة المقارنة بين عمل هذه المنظمة غير الحكومية، وتخلي الجماعة الدولية تدريجيًا عن التزاماتها. ولدي خشية كبيرة من أن تدفع مئات المنظمات المشابهة بالدول وبالمنظمات الدولية إلى أن تعفي نفسها شيئًا فشيئًا من واجبها في تقديم المساعدة وفي التضامن، تجاه أكثر الناس فقراً.

لم تتغير الأزمنة كثيراً على الرغم من محاولاتنا لتحقيق التقدم. أفكر من جديد في النشاطات الخيرية التي كانت تقوم بها والدتي، في مصر الثلاثينيات: تحضير

حفلات الكرمس السنوية، أوراق التومبولا، توزيع قطع القماش فى فترة الأعياد، وتقديم الأضحية: عجل صغير يوزع لحمه على الفقراء. كانت أمى تلبس للمناسبة ثوب الممرضة الأبيض. وبعد أن يُقطّع العجل، كانت أمى تُعَيّن للجزّار حجم قطع اللحم التى سيتم توزيعها حسب لائحة أسماء تكون قد أعدتها، لكنها لا تلبث أن تصبح غير مقروءة بسبب الدم الذى يُلطّخ الورقة.

فيينا ـ الاثنين ٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٢

فيينا مدينة مليئة بذلك السحر الخاص الذى تمتلكه عواصم الإمبراطوريات المضمحلة: إسطنبول، لندن، باريس... كل شىء هنا يثير الشعور بالحنين، بنهاية زمن، بأفول... أنا فى النمسا بدعوة من وزيرة الخارجية بينيتا فيريرو ـ فالدنير، التى تنظم مؤتمراً حول حوار الثقافات.

فى عهد وزير الخارجية كرايسكى، كانت النمسا تلعب دوراً مهمّا فى الشرق الأوسط. ومنذ ذلك الحين، لم تعد تنظر إلا إلى أوربا الشرقية وبلاد البلقان.

إنها مخاطرة أن نحاول اليوم إقناع النمساويين بأن جنوب المتوسط يستحق أن يستحوذ على كل اهتمامهم. رابط الجأش، أعود إلى مرافعتى دفاعًا عن الحوار الأوربى ـ المتوسطى.

هذا المساء، كورت فالدهايم وزوجته يلبّيان دعوة السفير المصرى، سامح شكرى. أبادره:

«لم تتغير منذ لقائنا الأخير، من عشرين سنة.

ـ لكننى قد بلغت الثالثة والثمانين يهمس لى بنبرة من يبوح بسر».

التقيت كورت فالدهايم عدة مرات عندما كان أمينًا عامًا للأمم المتحدة: فى نيويورك، وكذلك خلال قمم منظمة الوحدة الإفريقية، أو عدم الانحياز، فى منروفيا وفريتاون، وهافانا. كان لديه الأمل فى أن تتمكن الأمم المتحدة من لعب دور أساسى فى أزمة الشرق الأوسط، وتلك كانت رغبتى الملحة، أنا أيضًا. لكنه كان

يصطدم دائمًا بمعارضة الولايات المتحدة وإسرائيل: وهذا مظهر آخر من مظاهر الأحادية الأمريكية التى لم نقدر حجمها فى تلك الفترة.

هذا المساء، أمضينا وقت العشاء دون أن نتذكر ولا لمرة واحدة الأمم المتحدة. إنه نقاش رجال فى سن الثمانين تشغلهم صحتهم أكثر مما تشغلهم صحة العالم...

باريس - الجمعة ٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٢

لا ينفك دور الأمم المتحدة فى الأزمة اليوغوسلافية يُسيل الكثير من الحبر. تتوالى التحقيقات والتقارير الدولية منذ عدة سنوات. منظمة الوحدة الإفريقية، مجلس الشيوخ البلجيكى، البرلمان الفرنسى، الأمم المتحدة، كل هذه المؤسسات انكبّت على هذه المأساة.

إنه خوسى كوتيلييرو، الدبلوماسى البرتغالى والمبعوث الخاص للأمم المتحدة من أجل حقوق الإنسان إلى البلقان ويوغوسلافيا السابقة، الذى يأتى، هذا الصباح، لإجراء مقابلة معى فى إطار جمع المعلومات للكتاب الذى يعدُّه عن هذا الملف.

أحدّد له الخلافات الكثيرة التى ظهرت طوال هذه الأزمة وألخصها: خلاف سياسى بين الأوربيين، الممثلين باللورد كارينغتون وخصوصًا باللورد أوين، والأمريكيين الذين كانوا يعملون فى إطار اتفاق شمال الأطلسى. خلاف عسكرى بين القوات البرية الإنجليزية - الفرنسية، والقوات الجوية الأمريكية. خلاف دبلوماسى بين الولايات المتحدة وروسيا. خلاف بين ما هو عسكرى وما هو إنسانى، بين المدافعين عن الحل القسرى، والمدافعين عن التفاوض. خلاف داخل منظومة الأمم المتحدة التى استخدمتها ككبش فداء، الدول الأعضاء التى لم تنجح فى التوصل إلى تفاهم حول استراتيجية مشتركة. يجب التركيز، فى هذا الصدد، على سيطرة الولايات المتحدة على قسم عمليات حفظ السلام وعلى أعضاء مجلس الأمن، كما يجب التركيز على احتكارها للمعلومات المخابراتية، وعلى رفضها وضع هذه المعلومات فى خدمة الأمم المتحدة. ومع ذلك، لا أريد التقليل من حصتى فى المسؤولية ولا من عجزى على حل بعض الخلافات.

(بعد ذلك بقليل فى فترة بعد الظهر ...) أتحدث إلى أحد أفراد أسرة البارازانى، وهو شاب يترأس الحزب الديمقراطى الكردى. إنه يتكلم لغة فرنسية ممتازة، لكن حديثنا يدور باللغة العربية. يصر على أن يوضح لى، فى الحال، أن الحركة التى يمثلها لا تهدف إلى خلق دولة مستقلة منفصلة عن العراق، بل هدفها هو الحصول على استقلالية واسعة لكردستان فى إطار نظام فيدرالى عراقى، لكن ذلك ليس موضوع زيارته. هو هنا لأنه يود لو تستطيع الفرنكفونية إرسال أساتذة لغة فرنسية إلى معاهد الموصل وأربيل وكركوك.

باريس ـ السبت ٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٢

يُطرح على بانتظام السؤال التالى: «هل تعتقد أن الولايات المتحدة ستعلن الحرب على العراق؟» أعتقد أن لا أحد يمكنه الإجابة، بشكل أكيد، فى الوقت الحاضر، عن هذا السؤال، ولا حتى رئيس الولايات المتحدة نفسه. فى المقابل، أقول إذا اجتاحت أمريكا العراق، فسيدعمها ويلحق بها كل من أزنار وبلير وبرلوسكونى، وشيراك، وبوتين، ولى بينغ، ذلك لأنه ما من دولة، مهما كانت قوتها، تجرؤ على معارضة تدخل الولايات المتحدة.

باريس ـ الخميس ١٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٢

هل يتوجب على الفرنكفونية أن ترسل بعثة مراقبين إلى الكونغو بمناسبة دورة الاقتراع الثانية للانتخابات التشريعية، بينما يتوسع الصراع المسلح ليصل إلى العاصمة التى هاجمها الثوار من النينجا؟ أخبر كريستين دوسوش عن شكوكى المتعلقة بالسياسة التى يجب اعتمادها لإرسال بعثات مراقبة للانتخابات. أقول لها:

«علينا تجنب عرض المساعدة الانتخابية فى البلدان التى نعرف أن الانتخابات فيها يمكن أن تكون مزوَّرة. فقد نُتهم بإعطاء شرعية لنتائج مزوَّرة.

تلفت كريستين انتباهى ـ وهى محقة فى ذلك ـ إلى أن البلدان التى تجرى فيها الانتخابات الأكثر شفافية لا تحتاج إلى مراقبين، ولا إلى مساعدة انتخابية.

٢٠٠٢

«فى ما تقولينه جانب من الحقيقة، لكنى أعتقد أنه يجب أخذ بعض الأمور بعين الاعتبار. فمن المهم، مثلاً، أن نكون متواجدين فى البلدان حيث الثقافة الديمقراطية لا تزال هشة، لأننا نعرف جيداً أن الخاسرين يميلون غالبًا إلى الطعن فى نتائج الاقتراع مدَّعين أن الرابحين قد تلاعبوا بالصناديق. ونحن نستطيع فى بلدان كهذه أن نساهم بشكل مفيد فى تجنب هذا النوع من المواقف المخالفة للديمقراطية بأن نثبت صحة سير العملية الانتخابية.

فى الحالة الحاضرة، أخشى كثيراً أن لا يكون للمنظمة الدولية للفرنكفونية هدف من إرسال بعثتها إلا إرضاء برازافيل، فهى تريد دائمًا إرضاء الحكومات القائمة.

تطلعنى كريستين على التظاهرة الثقافية التى تنوى تنظيمها حول موضوع الديمقراطية وحقوق الإنسان، بمناسبة زيارة الرئيس واد المقبلة إلى باريس. أحاول أن أخفف من حماستها. نحن نعيش فى فترة تراجع لحقوق الإنسان، وقد بدأ عصر جديد منذ اعتداءات ١١ سبتمبر: حيث أزاحت مكافحة الإرهاب، والحفاظ على النظام والأمن، الدفاع عن الحريات إلى المحل الثانى. إن مساحة الديمقراطية والحرية التى تسعى المنظمة الدولية إلى توسيعها، تتقلص تدريجيًا. وفى حالة التعدى على الديمقراطية أو انتهاك حقوق الإنسان يمكن دائمًا للدول أن تتذرع بحجة أن الإجراءات القمعية التى اعتمدتها هى من أجل مكافحة الإرهاب، مع اقتناعها بأن هذه الإجراءات القمعية لن تلفت انتباه أحد، أو أنها لن تثير سوى احتجاجات خجولة.

فضلاً عن هذا، كيف نشجب تجاوزات بعض الأنظمة المتسلطة المكشوفة، بينما نحن نشهد كل يوم أعماله تستوجب اللوم، بل وانتهاكات لحقوق الإنسان، ترتكبها بلا عقاب حكومات تدعى أنها ديمقراطية: صور السجناء الأفغان المحتجزون فى قاعدة جوانتنامو الأمريكية فى كوبا، الاغتيالات المبرمجة للقادة الفلسطينيين التى ترتكبها إسرائيل، تعذيب الأطفال الذين لا يملكون سوى الحجارة ليقاتلوا.

ذلك لا يعنى أنه يجب أن نتنازل عن النضال من أجل السير نحو الديمقراطية

ومن أجل حقوق الإنسان والحريات. لكن يجب من الآن فصاعداً مراعاة الظروف الجديدة التى نشأت منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ .

باريس ـ الجمعة ١٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٢

وصل مؤخرا إلى باريس الرئيس ديديه راتسيراكا بصحبة زوجته وابنته. أى معنى يمكن إعطاؤه لهذه الزيارة؟ تخلى عن الحكم؟ نفى؟ إقامة لأسباب صحية؟ كيف ستكون ردة فعل مناصريه؟ هل سيواصلون النضال؟ هل سيكون من الممكن تجنب تدهور الوضع؟ إن مدغشقر من البلدان الأكثر فقراً على هذا الكوكب. والحرب الأهلية ترف لا تستطيع هذه الجزيرة الكبيرة تحمّل تكاليفه. هل سيتمكن مارك رافالومانا من أن يجد حلاً سياسيًا لهذا الصراع؟

فى الواقع، أمامى التقرير السنوى لمعهد استوكهولم للدراسات حول السلام والذى أحصى سبعة وخمسين صراعًا مسلحًا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، أى بمعدل سنوى يبلغ سبعة وعشرين صراعًا. وقد اعتمد الباحثون على معيارين: استعمال القوة من قبل فريقين، أحدهما على الأقل، دولة أو حكومة، وأن تكون حصيلة القتلى: ١٠٠٠ قتيل على الأقل. فى هذا الصدد، تدخل اعتداءات ١١ سبتمبر فى فئة النزاعات المسلحة وذلك لأنها موجّهة ضد دولة، ولأنها تسبّبت بوقوع أكثر من ألف ضحية.

بعض هذه النزاعات مستمر منذ عشرات السنين بسبب عجز كل فريق متورط عن فرض انتصاره النهائى بالقوة، فى أغلب الأحيان. فالثوار الذين يستفيدون من دعم الخارج، يعتمدون استراتيجية عسكرية تقوم على حرب العصابات التى لا تمتلك الحكومات القائمة الوسائل الكافية لترد عليها. النتيجة أن هذه الحروب تتفاقم وتدوم.

كيف نستطيع إثارة اهتمام الرأى العام الدولى؟ لطالما اعتقدت أنه على الصحف أن تنشر ورقة إضافية تذكر النزاعات القائمة فى العالم والعدد اليومى للضحايا. فهذا يستحق على الأقل القدر نفسه من الاهتمام الذى توليه لحرارة الطقس المتوقعة

خلال اليوم فى العواصم الكبرى، أو لأسعار البورصة فى نيويورك. هكذا يفقد الجهل الذى لا نزال نحتمى به بخبث مبرر وجوده. آنئذ سيبقى خياران: اللامبالاة، أو ربما إرادة الاحتجاج والفعل.

باريس ـ الثلاثاء ١٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٢

عشاء راق وأنيق على صورة مضيفنا، سفير اليابان، الذى يشكرنى بلطف على إرسالى الطبعة الصينية من كتابى «طريق القدس».

«لحسن الحظ أنى أقرأ الصينية»، يضيف مازحًا.

مرتبكًا، ألقيت بعفوية مسؤولية هذا الخطأ على سكرتيرتى، قبل أن أقدم تفسيراً لا أعرف ما قيمته الفعلية:

«على كل حال لا توجد بعد طبعة يابانية، على الرغم من كل الخطوات التى قمت بها تجاه دور النشر فى طوكيو».

وفيما أنا أتكلم، أنتبه إلى أننى وحدى المسؤول عن هذا الخطأ. لحسن الحظ، الشخص الذى أتعامل معه دبلوماسى حقيقى، يصغى إلى تفسيرى بابتسام.

ذروة التفنن حتى فى أكثر التفاصيل بساطة. لائحة الطعام المكتوبة باللغتين الفرنسية واليابانية هى بحد ذاتها عمل فنى. فقد وضعت زوجة السفير على حاشيتها بيت شعر من تأليفها تقول فيه: «مع النسيم اللطيف لأولى حدائق الصيف». كل طبق يرافقه الوصف الذى أعطاه له كاتب فرنسى كبير: سلطة يابانية وفق مارسيل بروست فى كتابه «قصة حب سوان»، سمك سلطان إبراهيم على الطريقة الباريسية، وفق إميل زولا فى كتابه «الخصب»، ضلع خروف مشوى مع كعك الأبازير على سرير من الهليون، وفق غى دو موباسان فى كتابه «الصديق الجميل»، كريمة بالشوكولا وفق هنرى دو بلزاك فى كتابه «خطوات أولى فى الحياة».

أجلس بين ديديه بينو ـ فالانسيين، وهو ضيف الشرف، والسفير الذى يفحمنى

ـ بكل بمعنى الكلمة ـ بلغته الفرنسية الأنيقة، وبثقافته الأدبية الواسعة. أنتبه فجأةً إلى أية درجة ابتعدت عن عالم الفن والأدب الذى كنت أحبه كثيراً فى شبابى. لقد غرقت فى عالم لا يعرف من قواعد سوى حقوق الناس، و«ديانة» حقوق الإنسان بإبرام الاتفاقات «والولع والمواثيق»، والتقارير المشوشة، ومذكرات رؤساء الدول والحكومات.

باريس ـ الأربعاء ١٩ حزيران/يونيو ٢٠٠٢

أسلم الرئيس غناسينغبى إياديما الذى يمر فى باريس، نسخة عن الرسالة التى وجهتها إليه، منذ فترة قصيرة، لأعلمه بأننى، منذ الآن فصاعداً، سأهتم شخصياً بملف توغو. أضيف أننى قد أرسلت، باسم الفرنكفونية، رسالة شبيهة تقريباً، إلى الوسيط الألمانى، والوسيط الفرنسى، ووسيط الاتحاد الأوربى الذى انتهت مهمته مؤخراً. كذلك بلغت الأمناء العامين لكل من منظمة الأمم المتحدة، ومنظمة الوحدة الإفريقية، والاتحاد الأوربى، وذلك لتجنب تعيين محتمل لوسيط جديد للأمم المتحدة أو للاتحاد الأوربى، يمكنه أن يعقِّد مهمتنا.

نتطرق بالطبع لمسألة إعادة انتخابى. أقول له:

«الرئيس واد يدعم الآن ترشيح عبده ضيوف. فى هذه الحال، أذعن لهذا الخيار بكل سرور».

يجيبنى الرئيس:

«لقد التقيت مؤخراً أبدولاى واد كما التقيت عبده ضيوف. أى منهما لم يشر إلى هذا الترشيح. دعنى أتصل تليفونياً بعبده ضيوف... سأبلغك بالمستجدات».

باريس ـ الثلاثاء ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٢

عشاء عند رفعت الأسد الشقيق المنفى للرئيس السورى السابق. يتكلم بثقة هؤلاء الذين فقدوا السلطة والذين يعرفون أنهم لن يعودوا إليها أبداً: «كل رؤساء

الدول فى العالم العربى هم بيادق يحركها الشيطان الأكبر وفق استراتيجياته ... لا وجود لسياسة دولية. فقط سياسة أمريكية».

باريس ـ الأحد ١٤ تموز/يوليو ٢٠٠٢

بعد أن حضرت استعراض ١٤ يوليو الذى جرى هذا العام فى جو من البرد يكاد يكون خريفيًا، أقصد بعد الظهر قصر الإليزيه لمقابلة جاك شيراك.

إنه متألق، يفيض نشاطا وحيوية أكثر من أى وقت مضى. يحوم فى الجو طعم الانتصار، انتصار مطابق فى تفاصيله لتنبؤءات كاهن قبطى، أسرعت فى إبلاغها، كتابةً، للرئيس.

أسرد له اليوم تفاصيل جلسة التنبؤءات التى أقل ما يقال فيها إنها مقلقة. فالكاهن قد أخبرنى بأن جاك شيراك سيفوز بالانتخابات بمجموع ٩٠٪: أول أمر لا يصدق بالنسبة إلىّ. قلت له: «نتيجة كهذه ليست ممكنة إلا فى بلدان العالم الثالث، لكنها بالتأكيد غير ممكنة فى فرنسا». أصرَّ، مضيفًا أن الرئيس سيحصل على أغلبية كبيرة فى البرلمان وأن حزبًا جديدًا سينشأ. الأمر الثانى الذى لا يعقل: «هذا الحزب سيتخذ مقره فى منزلك وستتقاسمان الباب نفسه.» فى ذلك النهار، أعترف بأنى شككت جديًا فى قدرات الكاهن القبطى المسكين، إلى أن تحققت نبوءاته. فلم يفز فقط جاك شيراك بالانتخابات الرئاسية فى دورة الاقتراع الثانية بمجموع لم يبلغه أحد قط، بل اتخذ حزب الاتحاد من أجل الأغلبية الرئاسية، بعد ذلك بعدة أسابيع، مقره فى البناية التى أسكن فيها، ١١ شارع سان دومينيك، فى الطابق الذى يقع تحت الطابق الذى أقيم فيه. نتقاسم بالفعل الباب نفسه...

فيما يتعلق بإعادة انتخابى، نكتفى بعرض الوقائع الحالية. أقول للرئيس:

«إننى مسرور جدًا بأن أدعم ترشيح عبده ضيوف إلى منصب أمين عام للفرنكفونية. لكنى أتمنى الاستمرار فى الاهتمام بالمجلس الأعلى الذى كلفتنى بإصلاحه.

يجيبني جاك شيراك :

لقد تناهى إلى سمعى بالفعل أنك مهتم بالمجلس الأعلى. أقترح عليك أن تحدّث عبده ضيوف فى ذلك مباشرة».

وكانت خلاصة القول. يرافقنى الرئيس إلى مدخل الدرج، ويكلفنى بنقل تحياته وتحيات برناديت إلى ليا.

باريس - الجمعة ١٩ تموز/يوليو ٢٠٠٢

يستقبلنى عبده ضيوف بحرارة وود. يبدو أطول قامة من العادة وأكثر نحولاً، لكن أكثر هدوئًا. يعترف بأنه ليس واثقًا بعد بانتخابه أمينًا عامًا. عمر بونجو لا يزال يعارض ترشيحه. إنه لا يرى أى مانع فى أن أستمر فى الاهتمام بالمجلس الأعلى. حتى أنه ينوى إعطائى منصب نائب رئيس وهو منصب كان يشغله ليوبولد سيدار سنغور فى الفترة التى كان فرانسوا ميتران رئيسًا لهذه المؤسسة، ثم إميل درلين زينسو، عندما كان جاك شيراك رئيسًا لها.

موناكو - الأربعاء ٢٤ تموز/يوليو ٢٠٠٢

إن لفندق لارميتاج سحرا يفوق كثيراً سحر فندق باريس. هذه المنشآت القديمة التى أفلحت فى أن تحافظ على سحر الماضى، على الرغم من محاولات التحديث، توحى لى بشعور بالطمأنينة والهدوء، ربما لأنها تذكرنى بطفولتى.

أنا هنا مع السفير كلود دو كيمولاريا نحاول أن نحل المشاكل الإدارية والمالية لنادى موناكو. النقاشات الجدية مُرجأة إلى الغد. أما الآن، فالوقت للموسيقى مع الكونسرتو الذى يعزف فى باحة القصر الأميرى. وبينما تكر كحبات سبحة نوتات موسيقى كونسرتو أرانخُوييز للجيتار تعود إلىّ شيئًا فشيئًا ذكريات ليالى القاهرة الدافئة، المضاءة بالنجوم. تعيد إلىّ الموسيقى الكلاسيكية، وخصوصًا الكونسرتوات، بصورة شبه دائمة، صوراً لسعادة غامرة.

يتبع الكونسرتو عشاء يدعو إليه وزير الدولة، باتريك لوكلير وزوجته، اللذان

عرفا عندما كانا يقيمان فى القاهرة أن يستحوذا على إعجاب طبقة المجتمع الراقى كلها، واللذان لا يزالان يعملان بحيوية رائعة من أجل المشاريع الخيرية فى مصر. العازف المنفرد على الجيتار، بيبى روميرو، الذى ينضم إلينا، يحدثنا بشغف عن صديقه أرانخوييز الذى بعد أن فقد بصره فى سن مبكرة جداً كان يملى موسيقاه على زوجته. حديث مثير جداً للاهتمام لكنه تقنى جداً عن طريقة صنع آلة الجيتار، كيفية اختيار الخشب، كيفية شد الأوتار... تجاوزت الساعة منتصف الليل أشعر بنعاس لطيف يداعبنى. لكن حتى لا أبدو ساهيًا أدخل فى الحديث لأعترف بندمى الكبير لأنى لم أتعلم العزف على آلة، كالجيتار...

«لم يفت الأوان بعد، يقول لى بيبى روميرو. أنا مستعد لإعطائك دروسًا».

بينما كان حديثنا يدور بصوت خافت، نفاجىء على الطاولة المجاورة حديثًا بصوت مرتفع. مدام ريمون بار ومدام إنطاكى، وهى زوجة أحد رجال الأعمال السوريين، تخوضان نقاشًا حاداً عن الوضع فى العراق. الأولى تدعم القضاء على نظام صدام حسين. الثانية تدافع عن النظام وعن الشعب العراقى. يقودهما النقاش إلى طلب رأيى. بالطبع، أقوم بالدفاع عن الشعب العراقى الذى يتألم منذ سنوات عديدة والذى سيتألم أكثر أيضًا فى حال حصول تدخل أمريكى. للأسف، باستثناء بعض المنظمات غير الحكومية، أو بعض البرلمانيين، لا أحد تقريبًا يهتم بنساء العراق وأطفاله ورجاله، الذين يعانون ديكتاتورية صدام حسين وعقوبات الأمم المتحدة.

باريس ـ الاثنين ٢٩ تموز/يوليو ٢٠٠٢

أعبر بصراحة أمام كريستين دوسوش عن تشاؤمى حتى لا أقول عن تهكمى إزاء مفهوم حقوق الإنسان. عالم تحكمه ديانة حقوق الإنسان وما ينتج عنها من أصوليات وديكتاتوريات ومطاردة الهراطقة، لا يحمى لا الحق ولا البشر. بل يحمى مصالح الأقوى. ستبقى الديمقراطية والحقوق والحريات مجرد أنشودة فى إفريقيا طالما أننا لم نقضِ على البؤس والمرض والحرب.

باريس ـ الثلاثاء ٣٠ تموز/يوليو ٢٠٠٢

الكنيسة الصغيرة في مستشفى Begin تضيق بالذين أتوا ليلقوا نظرة الوداع على البروفسور جان ـ فرانسوا رُوويه. أطباء وعسكريون وممرضات كلهم ارتدوا زيهم الموحد. يتلو الصلاة كاهن إفريقي طاعن في السن لدرجة أنه يركع بصعوبة. اثنان من المحاربين القدامى مدججان بالميداليات يرفعان أعلامهما وينزلانها لمواكبة كل مرحلة من مراحل هذا الاحتفال الذي أضفت عليه طابعًا مؤثرًا جدًا مشاعر الاحترام والصداقة والحزن البادي على الوجوه.

يلقي تييري دوبور، وهو معاون الجنرال رُوويه المقرَّب منه، كلمة مقتضبة يُذكِّر فيها بكل ما يدين به إلى مرشده وأستاذه. أنا أدين له بأكثر من ذلك، بلا شك. ففي سنة ١٩٩٠ عالجني من خرّاج في الكبد. وفي العام ٢٠٠٠ عالجني من خرّاج في القولون. أمضينا ليالي طوال نتبادل أطراف الحديث، ونتناقش في مشاكل العالم الثالث الذي كان يعرفه ويحبه. كان يروي لي وهو يجلس قرب سريري، عن بداياته كطبيب في جنوب الجزائر، عن أبحاثه في الأمراض الاستوائية...

لقد ساعدني بروحه المرحة وكرمه وإنسانيته على التغلب على القلق وعلى الشعور بالوحدة في غرفة المستشفى.

غرق الجنرال رُوويه في مياه جزيرة بيل ـ إيل. إنه موت مفاجىء ومريع وظالم، لكنه وفّر عليه عذابات الشيخوخة وجمود التقاعد.

باريس، تونس، المهدية ـ الجمعة ٢ آب/أغسطس ٢٠٠٢

غدًا يُزوِّج السفير حسن فودة ابنته، وقد وعدناه أنا وليا بأن نحضر الاحتفال. الطريق بين تونس والمهدية طويل لكنه شيق. نجتاز قرى صغيرة، نظيفة، أنيقة زاخرة بالحياة. رجال تخففوا من ستراتهم يجلسون أمام الطاولات على شرفات المقاهي المضاءة، ويتناقشون وهم يدخنون النارجيلة. عدد كبير من الدراجات، دليل إضافي على مستوى معيشة مرتفع نسبيًا. لقد كان بورقيبة الرئيس الأكثر تقدمية في العالم العربي.

المهدية ـ السبت ٣ آب/أغسطس ٢٠٠٢

زيارة إلى مدينة المهدية برفقة رئيس البلدية، عمور عماري، ونائب الدائرة الانتخابية، الدكتور حبيب حمزة. المهدية التي كانت قديمًا مركزًا فينيقيًا ثم رومانيًا للبضائع عرفت انطلاقة جديدة في عام ٩١٢ بفضل الخليفة عبيد الله المهدي الذي جعل منها مرفأً مزدهرًا. هو مؤسس الخلافة الفاطمية الذي ترك القيروان ليأتي إلى المهدية تشبهًا بالمهدي المنتظر. منذ ذلك الحين يعتبر سكان المهدية أنفسهم آباء لمدينة القاهرة التي أنشأها ورثة عبيد الله المهدي شمال العاصمة المصرية القديمة الفسطاط.

الدكتور حبيب حمزة ليس فقط أحد كبار الجراحين في تونس، بل هو أيضًا مدافع نشيط عن البيئة. فقد حصل على قرار بإقفال مصنع ملوث في جوار المدينة، وأسس جمعية غير حكومية تقوم بزرع أشجار النخيل في مدينة المهدية، هذه الجوهرة التي تتلألأ بالنظافة والأناقة. حتى متحفها الصغير طليعي من حيث حسن تنظيمه. والمسجد الكبير قد رُمّم بكامله. عندما أقارن مهدية بالمدن التي تضاهيها أهمية في مصر أدرك التطور الكبير الذي حققته تونس.

نحتفل كما ينبغي بزفاف ابنة حسن فودة. بين المدعوين، محمد مصمودي، الوزير السابق في عهد بورقيبة، وأنريكو ماسياس الذي يخبرني بأن الأغاني التي تنشد في الحفلة هي من تأليف جده. نساء شابات رشيقات وأنيقات وواثقات بأنفسهن يرقصن على حلبة الرقص. لا أحد هنا يلبس الشادور. حلم الخديو إسماعيل بأن يرى مصر تسير في ركب أوربا قد تحقق، ولكن على بعد آلاف الأميال من بلادنا: تونس هي بالفعل جزء من أوربا.

باريس ـ ٧ آب/أغسطس ٢٠٠٢

جان ـ كلود مايمبا ـ مبيمبا، وهو عضو في تيار المعارضة الذي يقوده الرئيس برنار كوليلا، يشرح لي بدون تحفظ وهو جالس أمامي في مكتبي، مآخذه على الرئيس ساسو نغيسو. يقول لي:

«إن الوضع فى الكونغو-برازافيل خطير جداً. والفرنكفونية تقف مكتوفة الأيدى... لدى الرأى العام والمجتمع الدولى انطباع بأن الرئيس ساسو نغيسو قد أرسى السلام بعد أن عمد إلى إجراء انتخابات قمتم بمراقبتها وأعطيتم لها شرعيتها، وبأن البلاد تسير على طريق المصالحة. لكنك تعرف جيداً أن هذه الصورة لا تمت بصلة إلى الواقع فى الكونغو».

أقاطع محدثى لأقول:

«إنك تمثل الرئيس كوليلا... والواقع أن آخر مكالمة هاتفية بينى وبينه تعود إلى حوالى سنة. كان ذلك فى الفترة التى جاء فيها إلى أبيدجان ليقيم فيها. منذ ذلك الحين غاب عن السمع. أطلب منه أن يكتب لى ليطلعنى على تحليله للوضع. أعدك بدراسة هذه الوثيقة بأكبر قدر من الاهتمام...».

علمت أن برنار كوليلا يجد عزاءه فى المنفى باللجوء إلى الصلاة ومذهب الباطنية.

شاتو سآن ـ السبت ١٠ آب/أغسطس ٢٠٠٢

إقامة ريفية فى مزرعة اللورد والليدى هاملين، فى اللوبيرون، برفقة اللورد أوين وزوجته ديبى. إنها من المعجبات المتحمسات باموس أوز الكاتب الإسرائيلى. فقد كلفت بعض المترجمين بترجمة أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية ومعظم رواياته.

تهدينى نسخة من كتابه «وحده البحر» الذى صدر عن دار غاليمار. وهو عبارة عن مجموعة قصائد نثرية تصوّر الحياة اليومية التى يعيشها ألبير دانون، بعد أن تُوفيت زوجته ناديا، وبعد أن تركه ابنه، ريكو، ليسافر إلى التبت. وهناك شخصية أخرى هى ديتا رفيقة ريكو الحميمة والتى تضاجع غيغى. أصوات متقاطعة وحكايات يحبكها الراوى متكلماً عن نفسه. كثير من الإشارات إلى التوراة ـ نشيد الأناشيد، قصة الملك داوود. رواية حميمية لا يمكن الاستمتاع بها إن لم نكن نعرف تل أبيب والإسرائيليين: الحنين إلى السعادة الضائعة، هاجس الجنس،

الخوف من الموت. تصوير حنون لأناس عاديين لكنه يخلو من التساهل. آموس أوز هو فى نظرى نجيب محفوظ إسرائيل.

شاتو سآن ـ الأحد ١١ آب/أغسطس ٢٠٠٢

نزهة طويلة مع دافيد أوين فى كروم العنب. إنه مقتنع بأن الأمريكيين سيخوضون الحرب فى العراق، قبل انتخابات الكونجرس بقليل، أو فى مطلع ٢٠٠٣، وهذه قناعة يشاركه فيها صديقه طونى بلير. يسألنى: «ما رأيك أنت؟»

ـ أعتقد أنه لن ينتج أى خير عن حرب «الصليبيين» الجديدة هذه ضد الإسلام. ستشعر الشعوب العربية مرة جديدة بالمهانة، وستقوى شوكة الأصوليين. سيكون على الحكومات العربية بدون شك أن تواجه المظاهرات؛ لأن غالبية الشعوب العربية ستتضامن مع الشعب العراقى. لكن المشاكل الحقيقية ستظهر فى الأشهر التى تلى العدوان الأمريكى: يُخشى من حرب عصابات، ومن حركات هيجان شعبى يثيرها الأصوليون، ومن حدوث انقلابات فى الدول المجاورة. ونستطيع المراهنة على أن الوضع سيزداد سوءاً فى العراق بعد سقوط نظام صدام حسين، هذا بغض النظر عن الخشية من تأزم الصراع الإسرائيلى ـ الفلسطينى».

يقاطعنى دافيد أوين:

«المنطق الأمريكى هو أنه، على العكس، سيكون من الأسهل إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية بعد إنهاء نظام صدام حسين».

ـ للأسف لا أشارك وجهة النظر هذه. فضلاً عن ذلك، كيف سيُنظم الوضع فى مرحلة ما بعد صدام حسين؟ تعلم جيداً أن المعارضة العراقية فى المنفى أضعف من أن تشكّل البديل، ثم إن صلتها بالشعب العراقى مقطوعة تمامًا. وتعلم كذلك أن الأصوليين من السُنة والشيعة سيحاولون الاستيلاء على السلطة، بعد أن يسقط صدام حسين.

ـ هذا هو بالضبط السبب الذى يجعل الأمريكيين يفكرون فى فترة طويلة من الاحتلال العسكرى، كما حصل ذلك مع الحلفاء فى ألمانيا وفى النمسا وفى اليابان،

يتابع دافيد أوين . وهم يتكلون على مشاركة مهمة للقوات العسكرية التركية . ولن تتردد الإدارة الأمريكية الجديدة فى رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط إذا اقتضى الأمر . فالدول العربية فى المشرق قد أنشئت بشكل اصطناعى ، فى نهاية الأمر ، غداة الحرب العالمية الأولى .

ـ هل تفكر «بالخيار الأردنى»؟ إنه مشروع قديم يدعمه حزب العمل الإسرائيلى ويدعمه الليكود على حد سواء : رحيل العائلة الهاشمية ، قيام عاصمة فلسطينية فى عمان ، إمكانية الحصول على منفذ على البحر المتوسط عبر قطاع غزة ... مشاريع كثيرة لطالما شكلت موضوعات لمناقشات لا تنتهى ...

ـ إنها خطة لا شك أن الأمريكيين درسوها جيداً ، يتابع دافيد أوين .

ـ لن يكون من السهل إحياء هذا المشروع القديم فى الوقت الذى اعترفت الولايات المتحدة وكذلك المجتمع الدولى بوجود دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وغزة» .

صمت يسود . لم يبقَ شىء لنضيفه . سيعانى العالم العربى أيضًا وأيضًا . مشهد العالم حزين . فجأة أنتبه للشمس ، للرائحة التى تفوح من التراب ، لحفيف الأشجار . يهب الهواء ويعصف بالأشجار . آن الأوان لكى نعود .

يُستكمل الحديث لكن هذه المرة عن المأساة اليوغوسلافية التى عشناها معًا ساعةً بساعة ، يومًا بيوم .

«لقد اتُهمت بأنى متحيز للصرب بحجة أنى أرثوذكسى كالصرب ، وبأنى معاد للمسلمين لأننى متحيز للصرب . لكن الشكوى نفسها قد وُجهت ضدك بينما أنت لست أرثوذكسيًا ، قلت مخاطبًا اللورد أوين ...

ـ بالنسبة إلى الأمريكيين كان الصرب هم «الصبية» الأشرار ، والبوسنيون هم الضحايا أى «الصبية» الطيبون . وكل محاولة لإدخال بعض الفروقات إلى هذه الرؤيا التى تقسم البشر إلى قسمين كانت تفسر من قبل فريق كلينتون بأنها خيانة . لهذا السبب اتُهمت مثلك بأنى متحيز للصرب» .

إفيان ـ الجمعة ١٦ آب/أغسطس ٢٠٠٢

انتهيت للتو من قراءة كتاب آلان جوكس الممتاز «إمبراطورية الفوضى». أعترف أن ما يؤكده الكاتب في الصفحة ١١٦ قد أثار حيرتي: «الواقع أن أحادية شاملة طغت على خطاب كلينتون في الأمم المتحدة، في ٢٧ سبتمبر ١٩٩٣».

في ذلك اليوم، كنت أجلس في الجمعية العمومية حتى أنني أذكر أني قد دونت بعض الملاحظات بينما كنت أستمع لأول خطاب للرئيس الأمريكي أمام الأمم المتحدة. يختلف تفسيري لهذا الخطاب عن ذلك الذي يعطيه آلان جوكس. في ذهني، أن الرئيس كلينتون كان يطلب من الأمم المتحدة أن تأخذ على عاتقها حلّ النزاعات الدولية، ذلك أن بلاده قد اختارت انتهاج «سياسة عزلة جديدة». من جهة أخرى، عندما سعيت إلى الحصول من الدول الكبرى الأخرى على التزامات أكثر فاعلية في الأمم المتحدة، كنت أستمد القوة من اعتقادي أن الدولة العظمى قد قررت تقليص تدخلاتها إلى الحد الأدنى.

وقد أدركت، بعد ذلك بفترة، أن تفسيري لخطاب بيل كلينتون وللسياسة الخارجية الأمريكية لم يكن خاطئًا، لكنه ناقص بدون شك. ففي الواقع يمكن للأحادية الأمريكية أن تظهر من خلال تحرك سلبي أو تحرك إيجابي. في الحالة الأولى، تظهر من خلال عزلة أمريكا التي كان يبشر بها الآباء المؤسسون للجمهورية. وفي الحالة الثانية، تتجسد في سياسة تدخل يمكنها الاستغناء بسهولة عن ضمانة مجلس الأمن. ولكي أكون أكثر دقة أيضًا، لقد أدركت خلال الإبادة الجماعية في راوندا أن سياسة العزلة الجديدة هذه ليست دائمًا عزوفًا عن الفعل، بل يمكنها بطريقة ما أن تكون فاعلة. بتعبير آخر، إن الولايات المتحدة لم تكتف في هذه المناسبة، بلعب ورقة عدم الفعل بل إنها منعت الأمم المتحدة من التدخل في راوندا.

سياسة العزلة الجديدة الفاعلة هذه تستند إلى حجتين:

١ ـ أنه حتى لو أن الولايات المتحدة لا تشارك في تدخل تقوم به الأمم المتحدة، عليها مع ذلك تأمين تكلفة هذا التدخل التي كانت تصل في تلك الفترة إلى نسبة ٣٠٪ من موازنة المنظمة.

٢ ـ أنه فى حال باءت مبادرة الأمم المتحدة بالفشل وتطلب إجلاء القبعات الزرق مساعدة ضرورية، ستضطر الولايات المتحدة، كملاذ أخير، إلى التدخل لإنقاذ حلفائها من هذا المأزق.

وخلاصة القول، عليَّ أن أعترف بأن تفسير آلان جوكس هو التفسير الصحيح، حتى ولو أن تفسير الأحداث بعد حدوثها أسهل من تفسيرها وقت حدوثها.

إيفيان ـ الاثنين ١٩ آب/أغسطس ٢٠٠٢

يتصل بى هاتفيًا محمد المدنى وهو الأمين العام لمجموعة دول الساحل ـ الصحراوية، دول السين ـ صاد، ليحدثنى عن النزاع على الحدود بين تشاد وإفريقيا الوسطى. هذه المنظمة التى أنشئت سنة ١٩٩٨ بمبادرة من معمر القذافى أداة تستخدمها السياسة الخارجية الليبية، وهى تضم حوالى عشرين دولة إفريقية.

لقد تلقى محمد المدنى تعليمات من العقيد بأن يتعاون بشكل وثيق مع الفرنكفونية ـ بما أن تشاد وجمهورية إفريقيا الوسطى دولتان عضوان فى المنظمة الدولية للفرنكفونية ـ وبأن يطلعنى على المبادرات التى تقوم بها المنظمة من أجل حل سلمى لهذا النزاع. وكنت قد تحدثت، من جهتى، على الهاتف، إلى رئيس جمهورية إفريقيا الوسطى، أنج ـ فيليكس باتاسيه وإلى رئيس تشاد، إدريس ديبى. إنهما يتبادلان التهم بالتسبب فى هذا النزاع. يبدو أنج ـ فيليكس باتاسيه محتدًا بينما يظهر إدريس ديبى أكثر هدوءًا.

صوفيا ـ الأربعاء ٢٨ آب/أغسطس ٢٠٠٢

أقصد وزارة الخارجية حيث يجب أن أوقع مع سالومون باسى اتفاقية تؤمن عددًا من الفوائد الإدارية والمالية للمعهد الفرنكفونى للإدارة والأعمال. أصعد بصعوبة درج الرخام الضخم الذى يؤدى إلى مكتبه. أبذل جهدى كى أخفى أمام الصحفيين والمصورين وكاميرات التلفزيون المحتشدة أضرار الروماتيزم الذى أعانيه.

(فى المساء ...).

عشاء على مرتفعات صوفيا. يخبرني جاري الجالس إلى يميني، وهو رئيس لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان، بأن الأقلية المسلمة تمثل نسبة ١٢٪ من مجموع السكان في بلغاريا. هو نفسه مسلم من أصل تركي. الحلف الذي أقامه حزبه مع حكومة الملك سيميون قد أتاح لهذه الأقلية الحصول على عدد مهم من المناصب في الجيش وعلى حقائب وزارية. «لقد سعى السعوديون جاهدين إلى ضم مشايخنا إلى حركاتهم الوهابية، لكنهم فشلوا في ذلك»، يُسرّ لي بلغة فرنسية ممتازة.

إن بلغاريا التي غالبية سكانها من الأرثوذكس والتي يحظى فيها المسلمون بتمثيل مهم في البرلمان ويتولى وزارة خارجيتها يهودي، تعكس صورة للتعايش المنسجم بين الديانات التوحيدية الثلاث، وهي صورة لم تستطع البلاد العربية، من جهتها، أن تنقلها.

صوفيا ـ الخميس ٢٩ آب/أغسطس ٢٠٠٢

أول لقاء مع رئيس الجمهورية الجديد، غيورغي بارفانوف، وهو رجل ودود، لطيف، ومجامل. أستغرب إذ أراه يدون ملاحظات خلال محادثتنا. فرؤساء الدول يكلفون عادة مساعديهم بذلك. يشدد على الاهتمام الذي توليه بلاده للفرنكفونية منذ وقت طويل. هو نفسه تابع دراسته الثانوية في الثانوية الفرنسية في صوفيا. نتحدث عن المؤتمر المقبل في جوهانسبرج حيث سيمثل بلغاريا. ما الذي يمكن توقعه من «هذه اللقاءات الدولية» التي تفقد اعتبارها أكثر فأكثر؟ إن هذه المؤتمرات مهما كانت تكلفتها كبيرة فهي لا تكلف أكثر مما تكلفه قاذفة قنابل، ولها يعود الفضل الكبير في المساهمة في إثارة وعي الرأي العام الدولي بالمشاكل الكبرى التي تهدد مستقبل الكوكب.

باريس ـ الأحد ١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢

أنهيت قراءة كتاب ألكسندر أدلير الأخير: «رأيت العالم القديم ينتهي». محاولة ممتازة لتفسير تطور العالم، بعد مرور بضعة أشهر على اعتداءات ١١ سبتمبر

٢٠٠١ . فحدسه الاستثنائى قد أتاح له أن يقدم إلينا جداريات مستقبلية ضخمة ينعتها بتواضع كبير بأنها «هذيانات» .

باريس - الأربعاء ٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢

فى غرفة الانتظار فى صالون وزارة الخارجية الكبير المذهب . لن يكون لدى اليوم الوقت الكافى لكى أمارس اللعبة الصغيرة التى أتسلى بها كلما عدت إلى الـ كى دورسى والتى تقوم على وضع لائحة بالوزراء الذين قابلتهم منذ أكثر من ثلاثين عامًا . فدومينيك دو فيلبان ظهر بعد بضع دقائق . وجه بطل رومنطيقى ، قامة طويلة ، نحيلة ، شعر مبعثر ، نظرة متوقدة ، ابتسامة عريضة . أناقة فى الحركة دون عناية مبالغة بالمظهر ودون اهتمام مبالغ فيه بتفاصيل الهندام ، مما يتصف به بعض رجال السياسة ، ومما لاحظته كذلك عند إدوار بالادور .

مقابلة ودية ، كلام صريح :

«أجل ، يقول دومينيك دو فيلبان ، لا تفيد فرنسا بشكل كاف من الفرنكفونية وهى أداة ممتازة فى خدمة الدبلوماسية المتعددة الأطراف» .

بالسرور نفسه أستمع إليه وهو يوافق على أن المشاكل الكبيرة التى ستطرح فى المستقبل لن تكون فى العلاقات بين غرب أوربا وشرقها بقدر ما ستكون فى العلاقات بين الشمال والجنوب . نخرج من مكتبه ونحن نتابع الكلام . أتفاجأ حين أراه يرافقنى إلى سيارتى ، وهذا ما لم يفعله أحد ممن سبقوه ، بينما كنت أشغل مناصب أهم بكثير من منصبى اليوم .

باريس - الخميس ٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢

قبل أن أستقبل جان - بيار رازافى - أندريميهينغو ، الممثل الشخصى لرئيس مدغشقر الجديد ، أتصل هاتفيًا ببيروت لأعرف إن كان الرئيس لحود قد وجه دعوة إلى مارك رافالومانا للمشاركة فى القمة الفرنكفونية ، أو أن الدعوة قد وُجهت إلى ديديه راتسيراكا . يبعثون لى على الفور صورة بالفاكس عن رسالة الدعوة التى

أرسلت فى ٤ أغسطس إلى مارك رافالومانا. جان ـ بيار رازافى ـ أندريميهينغو الذى أعطيه هذه الوثيقة كان يجهل أن رئيسه قد دُعى. ويبدو أن موظفى الرئاسة أنفسهم يجهلون الأمر. لكن للمجازفة أهميتها، لأن منظمة الوحدة الإفريقية، فى قمتها الأخيرة التى انعقدت فى دوربن، رفضت الاعتراف بالرئيس الجديد وطالبت بإجراء انتخابات جديدة. يجب أن أبلغ أمارا إيسى أن المنظمة الدولية للفرنكفونية قد اعترفت بمارك رافالومانا، بما أن البلد المضيف قد وجه إليه دعوة رسمية ليمثل مدغشقر.

مدغشقر ستعود إلى حضن الفرنكفونية من الباب الواسع، بينما سيعيش ديدييه راتسيراكا ومناصريه تجربة المنفى...

باريس، القاهرة، شرم الشيخ ـ الجمعة ٢٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢

يُحتفل بى فى مطار القاهرة كأنى أعود من غيبة طويلة. لم أعد أحصى الزيارات الرسمية التى قمت بها عبر العالم. وقد أستقبلت استقبالاً جيداً أينما حللت. لكن لم أشعر قط بما أشعر به عندما أعود إلى وطنى، وأهلى. الأهم من عبارات المديح والتبريك والتودد التى تغمرنى عندما أصل إلى القاهرة والتى تشكل جزءاً لا يتجزأ من الضيافة المصرية، هى العاطفة الإنسانية التى لا شىء يضاهيها، التعبير الصادق عن المحبة، الإحساس الملحّ بالأخوة: إنها الثروة الحقيقية التى يمتلكها من لا يملكون شيئًا لكنهم يحافظون على هبة العطاء. وهى هبة تؤثر فيك فى الصميم وتحمل إليك القوة والتشجيع.

نقلع على الفور إلى شرم الشيخ، حيث سينعقد مؤتمر «نساء من أجل السلام» الذى تنظمه سوزان مبارك وهى مثلى مقتنعة بأن تحرير المرأة وإعطاءها دورها فى الحياة العامة وفى وظائف الدولة يشكل الحصن الأساسى فى وجه الأصولية الإسلامية.

فى الطائرة، تشرح لى بالتفصيل إحدى المشتركات فى المؤتمر، وهى السيدة كوبر ـ سميث، مليونيرة أمريكية من الحزب الديمقراطى، أنه بفضل الجهود التى بذلتها،

قررت الولايات المتحدة أن تعود للانضمام إلى اليونيسكو. فى المقابل، أنا متعب بما فيه الكفاية لكى لا أجيب عن سؤالها حول تحليلى للوضع فى فلسطين. تصر. أقاوم، مراهنًا على هبوطنا القريب. مع ذلك تجد أنه ما زال لديها الوقت لكى تكشف عن بعض التوقعات: سيحصل الحزب الديمقراطى على أكثرية الأصوات فى الانتخابات المقبلة للكونجرس.

لم أعد إلى شرم الشيخ منذ مارس ١٩٩٦، وهو تاريخ انعقاد مؤتمر بناة السلام الذى جمع تسعة وعشرين بلدًا بينها ثلاثة عشر بلدًا عربيًا، حول موضوع مكافحة الإرهاب. أذكر أن هيلموت كول قد توجه بهذه المناسبة إلى شيمون بيريز بالعبارات التالية: «إذن، هذ القمة ضد الإرهاب ستساعدك بدون شك على الانتصار فى الانتخابات؟» أجاب رئيس الوزراء الإسرائيلى بغموض وانزعاج وقد تفاجأ قليلاً بهذه المقاربة التى تفتقد إلى الدبلوماسية، أنه يأمل أن يفوز.

شرم الشيخ تغيرت كثيرًا! فقد وُسِّع المطار، والفنادق الفخمة ملأت الشاطىء، وانبثقت من الصحراء طرق واسعة زرعت على أطرافها أشجار النخيل.

ستحتل شرم الشيخ دائمًا مكانة مميزة فى قلبى: إنها رمز حى لاسترجاع مصر لسيناء، غداة اتفاقيات كامب ديفيد.

شرم الشيخ ـ السبت ٢١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢

افتتاح مؤتمر «نساء من أجل السلام» بحضور سوزان مبارك، ورئيسة جمهورية أيرلندا، وزوجة ملك البحرين، وممثلات عن فلسطين، وسوريا، والأردن، وتونس. أنا الرجل الوحيد الذى يأخذ الكلام... والوحيد الذى يتكلم باللغة الفرنسية.

«لماذا تفعل هذا بنا، يا بطرس، فأنا لا أفهم الفرنسية!»، تقول رئيسة الجلسة، سوزان مبارك، مما يثير ضحكًا فى القاعة. أجيبها بجدية مصطنعة، أنه يتوجب علىَّ الدفاع عن المنظمة التى أمثلها».

سأضيف عندما سأقابلها بعد ذلك بقليل خلال النهار: «بدءًا من ١ يناير المقبل، لن أتكلم إلا بالعربية».

باريس، لاهاى ـ الأحد ٢٩ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢

أهرب من مشكلة لأقع فى أخرى. كنت قد قررت أن أستقل القطار لأتفادى إزعاجات الطائرة: التأخير المتوقع دائمًا والإضرابات غير المتوقعة. للقطار مضايقات أخرى: فقد لزمنى ثلاث ساعات ونصف فقط لاجتياز المسافة بين بروكسيل ولاهاى.

إن سرورى بالعودة من جديد إلى لاهاى حيث ينتظرنى ماريو سواريس وروبيرتو سافيو على إحساسى بالضيق. نحن هنا لنحتفل بالعيد الثامن والثلاثين لوكالة أنباء IPS إنها مناسبة هذا المساء لعشاء مرح مع الأصدقاء. المطعم الذى دلّنا عليه حارس الفندق مقفل، فاليوم هو الأحد. يستوقفنا أحد المارة. بعد أن يركن الدراجة التى كان يجرها إلى جانب الحائط، يلتفت إلى ماريو سواريس ويقول له بدهشة: «لكن أنت رئيس جمهورية البرتغال!» ثم يتفحصنى قائلاً: «وأنت الأمين العام للأمم المتحدة. يا للشرف العظيم!». ولا يفلت روبيرتو سافيو من نظراته التى يزداد فيها الفضول. من الواضح أنه يسعى إلى أن يجد اسمًا لهذا الوجه. يُنجده روبيرتو سافيو، قائلاً: «لست بشهرة هذين السيدين. شهرتى الوحيدة تقوم على مرافقين لهما هذا المساء.» عيل صبر ماريو سواريس: «نحن نبحث عن مطعم. هل يمكنك أن تنصحنا بواحد غير بعيد جدًا؟». يعود ليأخذ دراجته عازمًا على مرافقتنا. عندما نصل أمام المطعم يقول لنا معتذرًا: «ليس المطعم الأفضل، لكنه الوحيد المفتوح فى الحى...» لا يهم، فنحن متعبون وجائعون. صاحب المطعم لا يتكلم إلا اللغة الهولندية، لكن الطباخ مغربى. أطلب الطعام لنا جميعًا باللغة العربية.

روبيرتو سافيو الذى يحمل الجنسيتين الإيطالية والأرجنتينية، عائد من أمريكا اللاتينية. يحدثنا عن خيبة أمله: «تجتاز القارة أزمة اقتصادية لا سابق لها، وهى

تخضع بشكل كامل لهيمنة الدولة العظمى . ـ أكثر من العالم العربى أيضًا ... » يضيف ماريو سواريس ، بنبرة أسف . نحن مقتنعون بأنه ما من دولة ستعارض التدخل الأمريكى فى العراق .

لاهاى ـ الاثنين ٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢

مبانى قصر السلام العريقة ، الفخمة . حيث مقر محكمة العدل الدولية ، التى تستقبل فى الأوقات العادية القضاة الخمسة عشر والاختصاصيين فى النزاعات الدولية المكلفين بالنظر فى القضايا المتنازع عليها بين الدول . وقد قرر إداريو هذا المحراب ، لأسباب مالية بلا شك ، فتح قاعات الاجتماعات للمنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية . وفى إحدى هذه القاعات تعقد جلسات وكالة أنباء IPS .

أنصت معجبًا بخطاب حماسى تلقيه امرأة شابة من برمانيا تشجب بشدة انتهاك حقوق الإنسان الذى تمارسه الولايات المتحدة ، «إنه سلوك مشابه لسلوك الطغمة العسكرية التى كانت تمعن فى إذلال برمانيا ... » .

أقول لروبرتو سافيو على انفراد :

«أية شجاعة ! يُخشى على هذه الطفلة المقدامة من أن لا تتمكن من العودة إلى بلادها .

ـ لقد تزوجت من برتغالى وهى تعيش فى لشبونة» ، يجاوبنى هادىء الأعصاب .

فجأة أصبح أقلّ تأثرًا . فكونها لا تتعرض إلى أى خطر وهى توجه انتقادات كهذه يفقد كلامها الحمية التى أردت أن أستشعرها فيه كما يسلب منه قدرته على التأثير فىَّ . إنه فخ الانطباعات الذاتية .

بينما أنا أنتظر القطار الذى سيعيدنى إلى باريس ، أرى رجلان يقتربان منى ويلقيان علىَّ التحية باللغة العربية . إنهما عراقيان .

ـ «منذ كم من الوقت تعيشان فى هولندا؟

ـ منذ ثمانى سنوات .

ـ وما هى مهنتكما؟

ـ نحن لاجئان سياسيان» .

كان علىَّ انتظار هذا اليوم لكى أعرف أن اللجوء السياسى هو مهنة .

ـ وكيف تمارسان مهنتكما؟

ـ ننشر شهرية باللغتين العربية والهولندية موجهة إلى الجالية العراقية فى بلجيكا وفى هولندا» .

يسلماننى نسختين منها . عندما أستقل القطار ، أنكب على قراءة «البيت العراقى» . مقالتان عن حق لجوء العراقيين ، يُوجَه فيهما اللوم إلى السلطات الهولندية على بطئها فى دراسة الملفات . قصيدة طويلة عن موضوع المنفى ، ومقالة عن حقوق الإنسان .

يبدو أن مهنة لاجىء سياسى عراقى مهنة محترمة ومربحة ، خصوصًا عندما يكون الأجر بالدولار الأمريكى ...

بيروت ـ الجمعة ١١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

ننزل فى فندق فينيسيا . ستفتتح القمة الفرنكفونية خلال بضعة أيام . ليلة مضطربة . غرفتنا تطل على الفناء الذى ينبعث منه ضجيج الماكينة التحضيرية الذى يصُم الآذان . ليا التى تعير أهمية كبيرة للمشاكل المتعلقة بالبروتوكول وبالرفاهية ، فى مزاج سيئ . تتنبأ وهى تبحث عبثًا عن النعاس : «هذا المؤتمر يبدأ بشكل سيئ وسينتهى بشكل سيئ» .

بيروت ـ السبت ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

بعد مداخلة أولى فى افتتاح الجمعية الدولية للمعاهد المكلفة بتعزيز

الديمقراطية، ألتقى على التوالى بالرئيس لحود، الذى أدرس معه بصورة خاصة نص القرار الذى ستتبنّاه القمة حول الوضع فى الشرق الأوسط، وبوزير الثقافة غسان سلامة.

مؤتمر صحفى: أشدد على أهمية هذه القمة التى تُعقد لأول مرة على أرض عربية، وعلى نهضة بيروت المتصالحة مع نفسها ومع السلام... إنه «مقطع» سأكرره بدون كلل خلال الأيام المقبلة.

ننام الليلة فى جناحٍ جديد أصغر من جناح الأمس، لكنه أكثر هدوءاً.

بيروت ـ الأحد ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

نقاش مثير للاهتمام وغنى بالعبر تنظمه رابطة خريجى مدرسة القلبين الأقدسين فى السيوفى فى مبانى اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة. استقبال حار من مديرة الإسكوا، السفيرة ميرفت التلاوى، التى مثلت مصر بتألق فى فيينا ثم فى طوكيو. على المنصة غسان سلامة، مروان حماده، وجبران توينى. فى القاعة، تلامذة فى المرحلة الثانوية معظمهم من الفتيات، أعدّوا أسئلة ليطرحوها علينا حول موضوع الفرنكفونية.

عكست لى مداخلاتهم وأسئلتهم صورة مستغرَبَة جداً لفرنكفونية تجاوزها الزمن: إنها فرنكفونية كانت ولا تزال فى نظر الراهبات والرهبان والمبشرين اليسوعيين وفى نظامهم التعليمى مرتبطة بتواجد فرنسى يؤمن الحماية للمسيحيين فى لبنان.

لكن الفرنكفونية لم تعد حكراً على الأقلية المارونية. فالأقلية الشيعية، وهى بمجملها أكثر فقراً، قد تبنتها هى أيضًا. ثمة تفسيران لذلك: من جهة، أن تكلفة التعليم فى الجامعات الفرنكفونية أقل من تكلفته فى الجامعات الأمريكية والأنجلوسكسونية، ومن جهة أخرى، أن كثيراً من الشباب الشيعة الذين هاجروا إلى إفريقيا الفرنكفونية عادوا ليستقروا فى لبنان.

عشاء مع مى جنبلاط، والدة الزعيم الدرزى وليد جنبلاط. تتنبأ بتقسيم جديد للعالم العربى، ببلقنة لشبه الجزيرة العربية ... لا أشاركها هذه الرؤيا المتشائمة.

بيروت - الاثنين ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

سفيرة تونس التى استقبلتها عشية مغادرتى بيروت عبّرت لى بوضوح عن أن مشاركة الرئيس بن على فى القمة ستكون مرتبطة بالموافقة أو عدم الموافقة على تعديل نص إعلان باماكو، على الرغم من أن تونس قد صدّقت عليه فى نوفمبر ٢٠٠٠. فهى تريد «توضيحه» قبل رفعه إلى رؤساء الدول والحكومات. حاولت أن أشرح لها أنه سيكون من الصعب إقناع الدول بإعادة النظر فى هذا النص، وإلزامها بتبنى تعريف - يعتبره البعض مقيّداً - لمفهومى «انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان» و «تعطيل الديمقراطية». فتونس تصر فعليًا على أن يعبَّر بوضوح عن هذين المفهومين بعبارتى «الإبادة الجماعية»، و«الانقلاب العسكرى».

الدورة الخامسة والأربعون للمجلس الدائم للفرنكفونية التى تنعقد اليوم فى بيروت والتى أترأسها، تتحكم بها مساعى الدبلوماسية التونسية من أجل تعديل نص إعلان باماكو. ومن الصعب فعليًا حمل رؤساء الدول والحكومات على القبول بالتعديلات التى تطالب بها تونس. نحن فى مأزق. لكن يجب حلحلة الوضع قبل اجتماع وزراء الخارجية غداً.

كمخرج أخير، أقترح إدراج اقتراح النص التونسى، ليس فى إعلان باماكو، بل فى إعلان بيروت الذى سيقره رؤساء الدول والحكومات فى ختام القمة.

بيروت - الثلاثاء ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

تستمر المناقشات هذا الصباح، على مستوى وزراء الخارجية، ويترأس الجلسة غسان سلامة. يبدو أن الوفد التونسى مستعد للقبول بالتسوية التى اقترحتها بالأمس. يبقى الاتفاق على الصياغة وعلى موضع المقطع الجديد الذى سيدرج فى إعلان بيروت.

(فى المساء ...).

حفل استقبال دعا إليه وزير الخارجية اللبنانى ، محمود حمود فى قصر سرسق، وهو مسكن قديم بنى على الطراز العثمانى. احتل البار غرفة منعزلة بعض الشىء للحفاظ على المظاهر . إنه تنازل للبعد الإسلامى فى الهوية اللبنانية. لا أستطيع الامتناع عن التفكير فى أباريق الشاى الشهيرة فى بعض البلدان الإسلامية والتى تُملأ بالويسكى. إنها أساليب غاية فى الخبث أو إبداعات خيال خصب كتلك التى ظهرت فى الولايات المتحدة خلال فترة مُنع فيها تناول الكحول.

بيروت ـ الأربعاء ١٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

ينتهى المؤتمر الوزارى بالتوصل إلى توافق: وزير خارجية تونس يبدو راضيًا عن التسوية التى توصلنا إليها بالنسبة إلى إعلان بيروت الذى سيذكر، إذن، فى المقطع الذى يقع تحت عنوان «الديمقراطية»، الجملة الآتية: «نؤكد من جديد شجبنا لكل أشكال الإبادة الجماعية، من جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، التى تشكل كذلك انتهاكات كبيرة لحقوق الإنسان، كما نشجب كل الانقلابات والتعديات الخطيرة على النظام الدستورى بما تسببه من تعطيل للديمقراطية». إنها طريقة لتوضيح متأخر ووفقًا لرغبة تونس، لعبارتى «انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان» و«تعطيل الديمقراطية» اللتين استُعملتا بدون تفاصيل توضيحية فى إعلان باماكو.

(فى آخر فترة بعد الظهر ...).

أغادر بسرعة إلى المطار مسافرًا إلى الإسكندرية حيث سيتم، هذا المساء، افتتاح «مكتبة الإسكندرية». دعانا الرئيس رفيق الحريرى إلى أن نستقل طائرته الخاصة مع زوجته الرائعة التى ستمثله فى هذا الاحتفال. نقطع المسافة فى أقل من ساعة.

يستقبلنا محافظ الإسكندرية، عبد السلام المحجوب. رقصة باليه لا تتوقف: إنها حركة السيارات التى تروح وتجىء من المطار إلى المكتبة ومن المكتبة إلى المطار. بعد ذلك ببضع دقائق، ندخل ـ أنا وليا ـ إلى غرفة صغيرة حيث ألتقى وجوهًا أعرفها لا سيما على زواوى، مستشار الرئيس قابوس، والآغا خان، وحاكم استراليا، ورئيس

جمهورية اليونان، ورئيس جمهورية مولدافيا وزوجته، ورئيس جمهورية المالديف وزوجته، والملكة صوفيا، ملكة إسبانيا، والملكة الأردنية رانيا، ورئيس جمهورية رومانيا. يدخل جاك وبرناديت شيراك ويتبعهما بعد قليل حسنى وسوزان مبارك.

الصورة الجماعية. احتفال مهيب وضخم، خطب تفصل بينها مقطوعات موسيقية، وأخيراً نشيد الفرح لبيتهوفن يردده حوالى مائة طفل.

بعد العشاء الاحتفالى فى رأس التين، أحاول إقناع السيدة الحريرى بأن الوقت قد حان للمغادرة إذا كنا لا نريد الوصول إلى بيروت فى وقت متأخر. تتردد. فهى تخشى أن يستاء مضيفوها إن انسحبت الآن. نحضر، إذن، العرض الذى يُقدم فى حدائق القصر. وُضعت على المسرح منارة خشبية، نسخة مطابقة لمنارة الإسكندرية القديمة. أنظر إلى مئات من الممثلين الصامتين يتحركون على وقع موسيقى تصم الآذان.

بقدر ما كان احتفال فترة بعد الظهر ناجحًا بقدر ما يبدو هذا الأداء مخيبًا للآمال. «أرأيت، يقول لى فاروق حسنى، وزير الثقافة، لقد أحسنت صنعًا ببقائك، فقد كان عرضًا جميلاً». ليس لدى الجرأة على الإنكار. تأخر الوقت، أنا متعب وعلىّ أن أنهض منذ الفجر غداً حيث سأفتتح منتدى ملتقى رجال الأعمال الفرنكفونيين. نصل إلى بيروت وإلى فندق فينيسيا بعد أن تجاوزت الساعة الثانية صباحًا.

بيروت ـ الخميس ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

منذ بضعة أيام كانت بيروت فى حالة حصار. هذا الصباح بينما يصل رؤساء الدول يتولد لدى انطباع بأننا فى معسكر منعزل. تكاد السيارات لا تأخذ الوقت الكافى للتوقف من أجل إنزال ركابها أمام فندق فينيسيا. رجال بأسلحتهم أخذوا أماكنهم وراء الحواجز، رماة مهرة انتشروا على السطوح. كأن المدينة خلت من سكانها. يسيطر سكون غريب ومقلق، لا يحطمه بين الحين والآخر سوى صوت صفارات الإنذار معلنة عن مرور موكب رسمى.

تعقد رابطة رؤساء البلديات الفرنكفونيين جمعيتها العمومية. ننتظر جاك شيراك، الذى طالما أمسك بمصير هذه المؤسسة عندما كان رئيسًا لبلدية باريس. بينما كنا ننتظر فى القاعة الكبرى، يدخل الرئيس لحود. حسب آخر الأخبار، مفترض أن يكون جاك شيراك فى لقاء مع رئيس الوزراء رفيق الحريرى. ينتظر الرئيس لحود معنا. تمتمات، إثارة فجائية: وصل جاك شيراك. يسلم عليه المشاركون، يهنئونه، يهجمون عليه. يقطع خطابه عدة مرات تصفيق حار من الجميع. بيروت تحب جاك شيراك الذى يبادلها هذا الحب.

بيروت ـ الجمعة ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

الافتتاح الرسمى للقمة التاسعة للفرنكفونية. بناء ضخم يحمل اسم «المركز الدولى للمعارض والتسلية» BIEL، شيّده اللبنانيون خصيصًا لهذا الغرض. الرئيس لحود وزوجته، وأنا وليا أخذنا أماكننا على مدخل جناح الشرف لاستقبال رؤساء الدول فردًا فردًا، وهم يدخلون فى موكب ضُبطت حركته بدقة متناهية. كاميرات التلفزيونات والمصورون الصحفيون يربضون على بعد بضعة أمتار.

طوال ساعة وأكثر، تحت شمس لا ترحم، سنصافح رؤساء الدول وزوجاتهم، ثم نتسمر فى أماكننا متبسمين كى يتمكن المصورون من تخليد المشهد. مدة الوقفة تطول أو تقصر تبعًا لشهرة رئيس الدولة أو لشعبيته. البعض يأخذ وقته من دون جدوى، البعض الآخر يبتعد بسرعة تبعًا لتقدير المصورين. برناديت وجاك شيراك يحرزان انتصارًا يسلم به الجميع.

عند الانتهاء من هذه الرسميات، يحظى رؤساء الدول ببضع دقائق لكى يسلموا على بعضهم قبل دخولهم الاحتفالى إلى قاعة المؤتمرات. كثيرًا ما حضرت هذا النوع من لقاءات القمة. يشكل رؤساء الدول، بما لا يقبل الجدل، صنفًا على حدة. فهم يجسدون أمةً، بتاريخها وشعبها. يجسدون، خصوصًا، السلطة الأعلى. إنهم مبتلون بـ «أنا خاصة جدًا» نظرًا لكونهم مؤسسات أكثر من كونهم أشخاصًا. وعندما تتنقل هذه «الصروح» وتتقابل وتتحادث، يسود جو «أسطورة» كونية.

أخذ رؤساء الدول والحكومات أماكنهم على منصة مدرجة قبالة الجمهور. إلى يمينهم، فى مستوى أدنى بقليل، أربع أرائك وُضعت فى المدار العمودى خصيصًا لـ كويتشيرو ماتسورا، مدير عام اليونيسكو، وعمرو موسى، أمين عام الجامعة العربية، ولويز فليشيت، نائبة الأمين العام للأمم المتحدة، ولى.

يفتتح الرئيس لحود الجلسة. صوته يبدو كأنه يخرج من مكبّر الصوت. هل يعود ذلك إلى توزيع سيئ للصوت؟ أسجل جيدًا هذه الملاحظة لتفادى ذلك فى وقت لاحق، خصوصًا وأننى أنزع إلى التكلم بأعلى صوتى عندما ألقى خطابًا. يتبعه جان كريتيان الذى يقرأ نصًا تتعاقب فيه، وفقًا للتقليد الكندى، المقاطع المكتوبة بالفرنسية والمقاطع المكتوبة بالإنجليزية. رئيس الفيتنام الذى يكاد لا يتكلم الفرنسية، ينجح فى التغلب على هذه العقبة إذ يلقى أمامنا خطابًا يمكن فهمه على أكمل وجه. من جديد، تؤثر موهبة الخطابة التى يتمتع بها جاك شيرك تأثيرًا بليغًا: يُصَفَق له طويلاً. يلفت عمرو موسى انتباهى سرًا إلى أن الزعيم الروحى لحزب الله يجلس بين ضيوف الشرف إلى جانب ممثلى الديانات المختلفة، ويعلق مبتسمًا بسخرية: «ها هو تجسيد محور الشر، كما تزعم العقيدة الأمريكية».

جاء دور ضيوف الشرف ليلقوا كلماتهم. ها قد مضت ساعة والخطابات تتوالى وقد بدأ انتباه الجمهور يضعف. لكن لويز فليشيت التى تقرأ كلمة كُتبت بأسلوب الأمم المتحدة المميز، تثير من جديد اهتمام الجمهور. إنها على وشك أن توجه إلى المديح، حين تفقد صوتها. تنهى كيفما كان كلمتها متمتمة وتعود لتجلس إلى جانبى. بينما يتوجه كويتشيرو ماتسورا إلى المنصة، أهمس فى أذنها بفكاهة: «ألاحظ أن ممثلة الأمم المتحدة كانت على وشك أن تمتدحنى عندما فقدت صوتها. ماذا يجب أن يُستنتج من ذلك؟». عمرو موسى، بدوره يأخذ الكلام. أنا آخر خطيب للفترة الصباحية. أعرف أن مساعدىَّ ينتظرون هذا الخطاب بفضول، الخطاب الأخير خطابى. ربما سينسب البعض النبرة الرصينة التى أعتمدها إلى التواضع. لكن السبب الواقعى هو أن التأثير الكارثى لسوء توزيع الصوت فى القاعة حاضر فى ذاكرتى.

كلماتى الأولى تحية لشهداء صبرا وشاتيلا، لشهداء قانا، لهؤلاء الذين لا يزالون يعانون الذل والبؤس والحرب على مسافة ليست ببعيدة عن بيروت.

أراد البعض أن يرى فى هذا الخطاب «وصيتى السياسية». بالتأكيد أركز على الفرنكفونية وعلى اللغة المشتركة بيننا، وهى لغة أصبحت أكثر من وسيلة للتلاقى، لغة أصبحت لغة تعاون من أجل إدماج الجميع فى العولمة، لغة وساطة للمساعدة على حل الأزمات والصراعات، لغة حوار فى خدمة الديمقراطية والحريات، لغة تشجيع التنوع الثقافى، لغة مشاورات واقتراحات خلال المؤتمرات الدولية الكبرى، لغة انفتاح على الفضاءات الثقافية الأخرى، وعلى المنظمات الدولية الأخرى.

لكن ما وراء الفرنكفونية، كان هذا الخطاب بالنسبة إلىّ مناسبة لأعبر، مرة أخرى، عن عدد من القناعات العميقة والهموم التى لم تفارقنى قط: قناعة أننا، للأسف، نعيش فى عالم لا تتساوى فيه كل النزاعات، ولا يتساوى فيه إنسان مع إنسان آخر، ولا تتساوى فيه منطقة مع منطقة أخرى، ولا قارة مع قارة أخرى. وانطلاقًا من ذلك، قناعة أننا نكون فعلاً قد خطونا خطوة كبيرة إلى الأمام عندما سنفهم أن الأوبئة، والبؤس، والنزاعات التى تعيث اليوم فسادًا فى مكان آخر، ستصبح غدًا آفاتنا جميعًا. عندما سنفهم أيضًا أنه لا يكفى لمواجهة الفقر الجديد تطبيق مبدأ المساعدة المقرونة بالوصاية، كما فى الماضى، فى الوقت الذى تمسك إفريقيا بناصية مصيرها. ثم قناعة أن اشتراكنا فى المصير يفرض علينا أن لا يكون جدول الأعمال العالمى مصادرا من القوى الكبرى، بل أن يشارك الجميع فى تحديده، فى مقاربة متعددة الأطراف، كما يفرض أن تسترد الشرعية الدولية حقوقها كاملة فى عالم متعدد الأقطاب حقًا.

أنهى بدعوة إلى التسامح وإلى الحوار بين الحضارات، وهى دعوة تأخذ قوة فريدة فى لبنان، حيث التقت الجماعات والأديان والثقافات وتمازجت بتناغم وانسجام.

تبدأ الأعمال عند انتهاء الغداء، فى القاعة الكبرى التى أُعدّت فى الطابق السفلى لفندق فينيسيا. بعد تسلم وتسليم سريع بين رئيس وزراء البلد المضيف للقمة

الثامنة، جان كريتيان، ورئيس البلد المضيف للقمة التاسعة، إميل لحود، أقدم تقريراً عن ولايتي لمنصب الأمين العام، وبالتالي، «وصيتي الفرنكفونية».

بيروت ـ السبت ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

أراد لبنان أن يبتكر شيئًا جديدًا بتنظيم لقاء مقفل بين رؤساء الدول والحكومات، يُعقد هذا الصباح. لكن لم يُعتمد أي تدبير بالنسبة إلى وضع الدول المراقبة. هل يستطيع رؤساؤها البقاء في القاعة. بينما تتم مراجعة النصوص، يستفيد جاك شيراك من الوقت ليأتي للتسليم على المندوبين. ينادي معظمهم بأسمائهم، يمزح معهم، ويربت كتفهم بمودة. جاء دوري لأتلقى المجاملة: «لدي لوم أوجهه إليك يا بطرس. تضع وسامك على طية بذلتك اليمنى بينما يجب وضعه على طيتها اليسرى». وإذ يقرن القول بالعمل، وبدون شكليات، يعلق الوسام بالدبوس في الموضع المناسب!

تبدأ الجلسة أخيراً بمداخلة لجاك شيراك عن الإرهاب. يؤكد على ضرورة تعبئة دولية، ولا يلبث أن يوضح أنها يجب أن تتم في إطار الأمم المتحدة وضمن احترام حقوق الإنسان. تدعم الموقف الفرنسي كل من فيتنام وهايتي، وفانوتو، وكندا وألبانيا. يطالب وزير الخارجية التونسي، الحبيب بن يحيى، الذي يمثل رئيس جمهورية تونس بثلاثة أشكال للرد: معالجة شاملة تجمع في الوقت نفسه بين مكافحة الإرهاب ومكافحة الفقر والتخلف، معالجة شرعية ترتكز على قرارات مجلس الأمن، ومعالجة ثقافية تهدف إلى التقريب بين الديانات الكبرى التوحيدية الثلاث.

يقودنا النقاش إلى ملف الشرق الأوسط. يشجب الرئيس لحود بشدة الانتهاكات الإسرائيلية للمياه الإقليمية وللأجواء اللبنانية. يشير إلى مزارع شبعا التي لا يزال الإسرائيليون يحتلونها لأنهم يعتبرونها جزءاً من الأراضي السورية، بينما اعترفت سوريا رسميًا بأنها أراضٍ لبنانية. ممثلو الدول العربية يشاركونه في الرأي.

الكلمة لرؤساء الدول الأفارقة. يتعاقب على الكلام كل من الرؤساء بويويا،

باتاسى، واد، ساسو نغيسو متحدثين عن موضوع السلام فى إفريقيا. ثم يتبعهم رؤساء وزراء الكونغو الديمقراطية، وساحل العاج، ورواندا، وغينيا. يقدم وزير الخارجية البلجيكى مرافعةً من أجل إطلاق الحوار الداخلى فى الكونغو من جديد.

يتابع المؤتمر أعماله مجدداً فى جلسة عامة، بعد الظهر. يقدم لموضوع حوار الثقافات وهو شعار هذه القمة التاسعة كل من الأمير المغربى، مولاى رشيد، وبرتران لاندرى، رئيس وزراء الكيبيك. يلتقى مختلف الخطباء حول فكرة ضرورة النضال من أجل التعددية اللغوية، والتبادل الثقافى ومن أجل عالم متعدد الأقطاب. الملك سيميون، وهو رئيس وزراء بلغاريا، يتوجه إلىّ بعبارات الإطراء الكبير. كلما اقتربنا من النهاية ومن الوقت الذى سيتم فيه انتخاب الأمين العام الجديد، كلما كثر المديح. يراودنى فى هذه اللحظة المثل العربى الشائع الذى يقول: لا تعرف فضائل المرء إلا بعد موته...

إذا كان اليوم الثانى لهذا المؤتمر قد جرى فى جو هادىء لم يكن أحد غافل عن الأزمة التى تدور فى الكواليس. هنرى لوبيس يحتفظ بترشيحه ضد عبده ضيوف. رؤساء الدول الأفارقة الذين اجتمعوا فى لجنة مصغرة تحت راية الرئيس ماتيو كيريكو، لم يتوصلوا إلى حل. يدور الحديث حول اللجوء إلى التصويت. أنصار لوبيس يودّون أن يجرى هذا التصويت بين الأفارقة لاقتناعهم بأنهم سيحصلون على أكثرية الأصوات. أنصار عبده ضيوف يريدون أن يفتح باب التصويت لجميع رؤساء الدول والحكومات. تسرى الشائعات الأكثر جنونًا: عبده ضيوف يفضّل أن يسحب ترشيحه على أن يصل به الأمر إلى الاحتكام لصناديق الاقتراع. لا يريد أن يُكلف إلا بالإجماع. يأتى من يهمس فى أذنى أن الطريقة الوحيدة للخروج من هذا المأزق هى تمديد ولايتى. هذا غير وارد على الإطلاق. أتحجج بالتزامات أخرى فى السنة المقبلة. «إذن، أطلب ولاية ثانية لأربع سنوات، وستحصل عليها!». أشعر بأن أنصارى لديهم أمل بأننى سأذعن فى النهاية لهذه الرغبة. لكن ها قد مضت الآن بضعة شهور على قرارى الذى اتخذته وحسمته نهائيًا وبدون ندم.

(فى المساء...).

عشاء رسمي في السرايا الكبير، وهو المقر الفخم لرئاسة مجلس الوزراء. الموسيقى تصم الآذان ولا تسمح بمتابعة أية محادثة: تبادل أحاديث بسيطة وذكريات، تواكبها ابتسامات مدروسة، بانتظار أن ينتهي العشاء كي نذهب لنأخذ قسطًا من الراحة.

هذه المرة أيضًا لم يكن المشهد المسرحي يدور في القاعة بل عند الخروج منها. يرتفع التوتر بين رؤساء الدول، بعد أن يُعلم ماتيو كيريكو جاك شيراك بأن المجموعة الإفريقية لم تستطع الاتفاق على تسمية مرشح واحد، وبعد أن يوجه جاك شيراك لومه بشدة إلى دنيس ساسو نغيسو على الاحتفاظ بترشيح لوبيس.

عند عودتي إلى الفندق أتلقى مكالمة من أحد المخلصين: «لقد تشاجروا عند الخروج من السرايا الكبير، وقد هدد جاك شيراك باللجوء إلى ترشيحك إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق». يبدو أن الليلة ستكون طويلة بالنسبة إلى البعض.

بيروت ـ الأحد ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

آخر يوم للقمة. هذا الصباح يجب تسمية الأمين العام الجديد للفرنكفونية. ننتظر جميعًا نتائج «المباراة» بين هنري لوبيس وعبده ضيوف.

في قاعة المؤتمرات الكبرى تسري شائعات شديدة التناقض. كل واحد يدعي امتلاك معلومات سرية. أتوجه إلى مقعدي، إلى يمين الرئيس لحود، لأنتظر افتتاح أعمال الجلسة. يقترب مني السفير سمير صفوت:

«لم يتوصلوا إلى اتفاق بعد. سيعرضون عليك البقاء حتى قمة واغادوغو في ٢٠٠٤. أتوسل إليك أن لا ترفض.

ـ لقد قلت منذ عشرة شهور أنني لن أطلب ولاية جديدة. ولن أعود عن قراري». انتهى الترقب. هنري لوبيس انسحب. توضع أريكة إلى يسار الرئيس لحود. يدخل عبده ضيوف. تعلن تسميته رسميًا. رئيس الجلسة يعطيني الكلام: أرتجل بضع كلمات. عبده ضيوف يلقي خطابه الأول كأمين عام للفرنكفونية. بناء

على طلب الرئيس واد، يقف رؤساء الدول والحكومات لتحيتي بالتصفيق الحار. لكن ذهني في مكان آخر. أسمع في هذه اللحظة، تصفيق الجمعية العامة عندما كنت أسلم مهامي إلى كوفي أنان. أذكر الانفعال الشديد الذي شعرت به في ذلك اليوم من سنة ١٩٩٦، الدموع التي كنت أحبسها بصعوبة كبيرة. لا شيء مماثل، اليوم. هل هو العمر، أم التعب؟ لا أستطيع أن أشعر بأي انفعال.

(بعد ذلك بوقت قليل ...).

يفاجئنا أحد المصورين عبده ضيوف وأنا، اليد في اليد، والذراعان مرفوعتان إلى السماء علامة انتصار. ستنشر معظم الصحف هذه الصورة.

(في نهاية فترة بعد الظهر ...).

عودة قاسية إلى الواقع: ألتقي وفداً من العائلات اللبنانية التي يقبع أولادها في السجون الإسرائيلية.

«إنك ملاذنا الأخير. لم ننس ما فعلته من أجل النساء والأطفال الذين قتلوا في مخيم الأمم المتحدة في قانا. ينبغي لك أن تساعدنا على تحرير أبنائنا. نطلب مساعدة الفرنكفونية».

عبثاً أشرح لهم أن ولايتي تنتهي في ٣١ ديسمبر، لا يستمعون إليّ. أعدهم بأن أتدخل لدى المنظمات غير الحكومية والصليب الأحمر في جنيف. أصافح واحداً واحداً هؤلاء الشيعة من جنوب لبنان الذين عانوا الاحتلال العسكري الإسرائيلي خلال سنين عديدة.

بيروت ـ الاثنين ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

أسدلت الستارة. انتهت المسرحية. اعتقدت أنه يمكنني أن أنعم بصبيحة هادئة، لكن يخبرونني بأن وزير خارجية توغو، كوفي بانو، يطلب مقابلتي لحالة طارئة. إنه يود أن ترسل المنظمة الدولية للفرنكفونية بعثة مراقبة في أثناء الانتخابات في ٢٧ أكتوبر المقبل. يبدو لي الأمر دقيقاً. فقد تعهدت بالاهتمام شخصياً بالملف التوغولي

بعد رحيل الوسطاء الأربعة، لكن فى غضون ذلك، كان الرئيس غناسينغبى إياديما قد انسحب من الاتفاق على مستوى الكوادر الذى وقع فى لومى، مما حملنى إلى توجيه رسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة وإلى الأمين العام لمنظمة الوحدة الإفريقية لأعلمهم بفشل مهمتى. ففى الظروف هذه قد يفهم خطأ إرسال مراقبين من قبل المنظمة الدولية للفرنكفونية. حتى أنه قد يخشى من إثارة ردات فعل عنيفة لدى أحزاب المعارضة التى قررت مقاطعة الاقتراع، ولدى الوسطاء القدامى أيضًا، ولدى الاتحاد الأوربى. فالصمت الذى تلتزم به المنظمة الدولية للفرنكفونية إزاء عدم تطبيق اتفاق لومى «يخدم» توغو أكثر من إرسال بعثة ستكون موضع انتقاد عنيف ورفض.

كدبلوماسى محنك، لا يحاول كوفى بانو المحاججة. يؤكد لى أن الجماعة الاقتصادية لدول إفريقيا الغربية، ومنظمة الوحدة الإفريقية سترسلان مراقبيهما، وطلب منى التفكير.

أتناول الغداء مع غسان توينى. لقد نشر فى مجلد ضخم حوارات دارت بينه وبين جان لاكوتور وجيرار خورى. يقول لى:

ـ «لا أشارك وجهة نظر جان لاكوتور فى سياسة جمال عبد الناصر، التى تبقى فى نظرى فشلاً ذريعًا ...

ـ أتفق معك إذا اكتفينا بالنظر إلى السياسة الداخلية. لكن فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، لا أزال أعتقد أنه أعاد إلى مصر مركزها، وأنه جعل منها قائدة لمسيرة العالم الثالث. تأميم قناة السويس، تحرير العالم العربى، وإفريقيا، سياسة عدم الانحياز... كلها محاور قوية أثارت حماس العالم العربى وعبأته.

ـ ممكن، لكن هزيمة مصر القاسية أمام الإسرائيليين، سنة ١٩٦٧، وشلل قناة السويس يبرهن على محدودية هذه السياسة حتى لا نقول فشلها».

يكلمنى عن كتاب آخر نشره مؤخرًا: وصية سياسية للشيخ محمد مهدى شمس الدين، إمام الشيعة فى لبنان، الذى كان قد أملاها على ابنه وهو على فراش الموت،

فى باريس. إنها رسالة سلام يوجهها إلى كل الجماعات الشيعية فى العالم. يثير ذلك فضولى. يقوم غسان توينى ليجرى اتصالاً هاتفيًا. بعد دقائق قليلة، أجد بين يدى نسختين من الكتاب.

باريس - الثلاثاء ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

فى بريد هذا الصباح الرسالة التى انتظرتها طويلاً من السفير كامن فيليشكوف، الذى وعدنى عندما التقيته فى سنة ٢٠٠٠ فى لاهاى، بأن يرسل إلىّ صورة عن المراسلات التى تبادلها باللغة الفرنسية، جدى، بطرس باشا، وزير خارجية مصر، ووزير خارجية إمارة بلغاريا، د. ستانسياف، سنة ١٩٠٧.

فى ذلك الوقت كانت بلغاريا قد نالت استقلالها حديثًا وكانت ترغب فى إقامة علاقات تجارية مع مصر. أرسلت مبعوثًا خاصًا، هو جورج فيرنازا، الذى يتحدث عن مهمته بالعبارات التالية: «عند خروجى من الوزارة، ذهبت إلى ممثل روسيا لأخبره بأنه لما كنا، بطرس باشا وأنا لم نتوصل إلى اتفاق ولو مؤقت على مهام وكالتنا التجارية، ستستمر القنصلية الإمبراطورية فى الإسكندرية بالاهتمام بأعمال رعايانا، كما اتفقنا (...) لم يفاجىء المعتمد الدبلوماسى الروسى قط من مراوغة بطرس باشا الذى يُعرف بأنه «ficelle» فى طريقة تعاطيه للأمور مع الممثلين الأجانب، ما خلا الإنجليز بالطبع! لكن هذا «ficelle» واقع بين السندان التركى والمطرقة الإنجليزية، علينا أن نجذبه إلينا برفق حتى لا ينقطع ...».

وقد وضع خط تحت كلمة «ficelle». أرجع إلى القاموس. أقرأ: «ficelle» بالمعنى القديم تعنى: «ماكر».

أتذكر أن عمى واصف، الذى لم يكن يميل إلى التعليق على السياسة التى كان ينتهجها والده، كان يقول لى: «كان عليه أن يبحر بين الباب العالى والإمبراطورية البريطانية، بين الخديو والقوميين المصريين. وكان ذلك أمرًا حساسًا وخطرًا لكن جدك كان ملاحًا ممتازًا».

باريس ـ الأربعاء ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

التقرير عن أعمال لجنة الديمقراطية والتنمية يوشك أن يصدر تحت عنوان «التفاعل بين الديمقراطية والتنمية». كتاب من أربعمائة صفحة. انطباع جيد. لم يبقَ سوى اختيار الغلاف. ما يعرضونه على فاقع جدًا. أحبذ غلافًا أكثر بساطة. الموظفة التى أعدت الماكيت تقدم إلىّ حجة مقنعة: «اللون يعطى طابعًا شبابيًا».

باريس ـ الاثنين ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢

فى جريدة الفيجارو الصادرة هذا الصباح مقالة لموريس درويون الذى يكتب أن «عملى قد أعطى ثماره: وقد كان القطاف وفيراً فى بيروت». فى غمرة هذه القراءة، أعد نص المحاضرة التى يجب أن ألقيها خلال بضعة أيام عن الفرنكفونية بعد قمة بيروت.

ما هى الأمور المميزة التى حدثت فى هذه القمة؟

١ ـ رقم قياسى فى المشاركة: واحد وأربعون رئيس دولة وحكومة انتقلوا إلى بيروت.

٢ ـ اعتماد عبارة المنظمة الدولية للفرنكفونية تسمية نهائية للمنظمة. كم من المعارك كان يجب خوضها من أجل ذلك! أذكر أننى فى بداية ولايتى طلبت إعداد مذكرة لأبرهن لأحد الدبلوماسيين العدائيين والحاقدين أن تسمية المنظمة الدولية للفرنكفونية لا تنتهك الميثاق الذى أُقر فى قمة هانوى، سنة ١٩٩٧. واستندت فى ذلك إلى غياب تام لذكر منظمة الأمم المتحدة فى ميثاق الأمم المتحدة. أذكر كذلك، معارضة وزير الفرنكفونية الفرنسى، شارل جوسلين، الذى كان يحرص على تجنب الحديث عن المنظمة الدولية للفرنكفونية مفضلاً عبارة «الفرنكفونية المؤسساتية». أفكر بالمتعصبين الفرنكفونيين الذين لا يزالون يعمدون إلى التمييز بين المنظمة الدولية للفرنكفونية ـ التى تختلط فى أذهانهم بمكتب الأمين العام ـ والوكالة الحكومية للفرنكفونية، كأن هذه الأخيرة جهاز

مواز للمنظمة ومساو لها بالأهمية، بينما هى ليست سوى إحدى مكونات هذه المنظمة التى يمعنون فى تجاهلها.

٣ـ حضور الرئيس الجزائرى عبد العزيز بوتفليقة، الذى جلس بين ممثلى الدول الأعضاء، فيما بلاده ليست بعد عضواً فى الفرنكفونية، وخطابه اللافت حول العلاقات التى تحررت من العقد، بين الجزائر الناطقة بالعربية وبالبربرية والفرنكفونية.

٤ـ تكريس من قبل الغالبية العظمى لرؤساء الدول والحكومات للبعد السياسى للفرنكفونية والذى تُرجم عمليًا منذ ١٩٩٨ بولادة دبلوماسية فرنكفونية حقيقية على صلة وثيقة بالمبادرات الداعمة للديمقراطية، ولدولة القانون وحقوق الإنسان. هنا أيضًا كان يجب تجاوز تحفظات بل معارضة حكومة الكيبيك وحكومة الجماعة الفرنسية فى بلجيكا، على الأخص، اللتين تفضلان أن تقتصر الفرنكفونية على تعاون ثقافى وتقنى. وهذا يُفسَر جزئيًا بأن هاتين الحكومتين ليس لهما تمثيل فعلى داخل الأمم المتحدة، أو الكومنولث، أو الاتحاد الأوربى، أو أيضًا فى المؤتمرات الدولية ـ وهذا مناقض للوضعية التى يتمتعون بها فى المنظمة ـ. ولا يمكن، من وجهة نظرهما، لتعزيز التعاون بين المنظمة الدولية للفرنكفونية وتلك المنظمات الدولية، ومشاركة المنظمة فى المؤتمرات الدولية الكبرى، إلا أن من تأثيرهما داخل الفرنكفونية. طبعًا لم تكن تلك الحجة المعلنة. البعض فضل الإشارة بإصبع الاتهام إلى جنون العظمة لدى الأمين العام بطرس غالى الذى بعد فقدانه لمنصبه فى الأمم المتحدة لا يكلُّ من المطالبة بـ «أمم متحدة رقم ٢». لا أزال أتذكر تصريح لويز بودوين فى تونس، الذى يلوم الأمين العام للمنظمة الدولية للفرنكفونية على أنه لا يهتم إلا بالسياسة، بينما اللغة الفرنسية مهددة!

لقد وضعت قمة بيروت حدا لهذا الجدل العقيم، إذ أكدت البعد السياسى للمنظمة وعزته. أكثر من ذلك، لقد خرجت الفرنكفونية السياسية من عالمها الخاص لتجد لها موقعًا فى العالم وذلك بتعبيرها عن رسالة عالمية، هى رسالة

الإنسانوية الكاملة، الأثيرة لدى ليوبولد سيدار سنغور، ترد بها على النموذج الواحد الذى تسعى لنشره العولمة الشاملة، بتعبير آخر، على تعميم النموذج الغربى المستنسخ عن النموذج الأمريكى. تسعى الفرنكفونية إلى إعطاء العولمة بعداً إنسانيًا وديمقراطيًا من خلال تشجيع التعدد اللغوى وحوار الثقافات.

٥ـ استُعيض عن الاستثناء الثقافى وهو مفهوم دفاعى، بمفهوم التنوع الثقافى، وهو مفهوم يشجع الفعل، وهذه طريقة أخرى للتعبير عن أن الفرنكفونية لا تستطيع أن تقتصر على الدفاع عن اللغة الفرنسية بل إنها تسعى إلى أن تجمع فى هذا النضال كل الفضاءات اللغوية والثقافية. من جهة أخرى، ينص إعلان بيروت على التفاوض من أجل إيجاد أداة دولية، اتفاقية دولية حول التنوع الثقافى برعاية اليونيسكو، تستثنى الثقافات واللغات من مجال اختصاص منظمة التجارة العالمية.

مع ذلك، تركت قمة بيروت بعض المشاكل عالقة:

١ ـ إدماج أفضل لمختلف الأجهزة العاملة للفرنكفونية التى يتمسك كل منها باستقلاليته وبصلاحياته.

٢ـ النقص فى الميزانية: إن هذه المنظمة الجديدة التى يعلق عليها رؤساء الحكومات والدول، منذ هانوى، طموحات كبيرة، تعمل منذ بضع سنوات بإمكانات ثابتة من حيث الجهاز البشرى والموازنة بينما تتزايد «العائلة الفرنكفونية»، فى الوقت نفسه، باستمرار. كانت تضم تسعًا وعشرين دولة فى السبعينيات، بينما تستقبل اليوم ستة وخمسين دولة.

٣ـ بقاء دور الفرنكفونية فى المجال الاقتصادى هامشيًا. ليس على الفرنكفونية، طبعًا، أن تقوم بما سبقتها إلى القيام به غيرها من المنظمات بإمكانيات أكبر بكثير. بل أن تساهم بتواضع فى جهد المجتمع الدولى بأكمله. لكن اعتماد القمة العاشرة فى واغادوغو موضوع التنمية المستدامة، وكذلك الإعلان عن بذل جهد مالى لدعم المساعدة على التنمية لن يغير شيئًا من واقع أنه لا وجود لفضاء اقتصادى فرنكفونى. ولذلك سبب واحد على الأقل: إن البلاد الأعضاء

فى المنظمة الدولية للفرنكفونية تنتمى كلها إلى جماعات اقتصادية لها خصوصياتها ولها قواعد عملها الشديدة الاختلاف.

ربما يمكن أن نأمل فى خلق فضاء اقتصادى فرنكفونى فى مجال الصناعات الثقافية. عندها، ستتمكن الفرنكفونية ربما من أن تساهم فى ازدياد حركة انتقال المنتجات الثقافية، أو أن تنظم حمايتها.

٤- إعطاء سلطة قرار حقيقية للأمين العام، وبالأخص، أن تعهد إليه بالإدارة المالية للمنظمة.

باريس- الخميس ٧ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٢

أتناول طعام الغداء مع رولان دوما وصديقه جان- مارك بارّو. طريقة ودية لاستباق الحفلة التى سيقيمها السفير فيتوفاغليا بمناسبة عيد ميلادى الثمانين، والتى لن يستطيع رولان دوما حضورها.

يا للصلابة النفسية والجسدية! يا للمرونة! يا للثقة بالنفس! رولان دوما يتحدث فى الفن والموسيقى والسياسة بينما سيقرر مصيره قريبًا أمام المحاكم. ينهض ليملأ كأسى. إنه هادىء، مبتسم، مرتاح. يبدو أن الفضيحة، الخيانة، والمعلومات المدمرة التى كشفت عنها عشيقته والتى تصدرت صفحات الصحف، لا تؤثر فيه.

أعترف بأننى لم أمتلك مثل هذه الصلابة عندما صبَّت علىّ الصحف والإدارة الأمريكية جام غضبها للحؤول دون إعادة انتخابى. انهرت وخسرت خمسة أو ستة كيلوجرامات من وزنى فى فترة بضعة أشهر. على الرغم من أنها كانت مجرد حملة انتخابية.

ليس «الحيوان السياسى» هو من يكافح من أجل تسلق الدرج، بل من يعرف كيف يتغلب على الهزيمة والسقوط لينطلق من جديد نحو استعادة السلطة.

بيروج ـ الجمعة ٨ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٢

ثمة دعوات أقبلها فى لحظات ضعف أو التزامًا بقواعد التهذيب فقط . وعندما أفى بما وعدت به أكاد أندم دائمًا ؛ لأننى أدرك بعد فوات الأوان أننى ضيعت وقتى . اليوم لست بنادم على تلبيتى دعوة جاك بويون الذى يستقبلنى فى نهاية فترة بعد الظهر من هذا النهار الخريفى فى محطة القطار ، فى بورغ ـ آن ـ بريس .

مؤتمر صحفى فى فندق صغير ، قديم الطراز ، قريب من محطة القطار . بعيدة جدًا هى تلك المؤتمرات ذات الاستعراضات الكبرى والميزانيات الضخمة . الأثاث يرجع إلى الستينيات ، الصحفيون يعملون فى الصحافة المحلية ، وهناك حديقة رائعة مهملة تقريبًا ، تنقلنى إلى عالم القصص التى قرأتها فى طفولتى . أتصور أن حديقة القصر التى يصفها آلان فورنييه فى روايته «Le Grand Meaulnes» كانت تشبه ما ألمحه من نوافذ هذا الفندق المنسى .

الطريق إلى بيروج ، حاضرة عائلة لى فوجولا . إنها قرية رائعة من القرون الوسطى كأن الزمن لم يمر عليها . يستمر السحر عندما أدخل إلى الكنيسة حيث ينبغى أن ألقى محاضرتى .

عشاء احتفالى ووافر فى نزل القرية ، يحضره حوالى مائة مدعو . محادثة ودية مع جاك بويون ، ومع المحافظ تومازينى وزوجتيهما .

باريس ـ الثلاثاء ١٢ تشرين الثانى/نوفمبر ٢٠٠٢

نظم السفير فيتوفاغليا عشاءً فخمًا للاحتفال ببلوغى الثمانين . معظم أصدقائى هنا . أجتهد فى إطفاء شمعات قالب الحلوى الثمانى التى تعود لتشتعل من جديد ، أمام دهشتى الكبيرة . يبدو أننى الوحيد الذى لا علم له بوجود هذه الشمعات السحرية التى تستعمل عادة للأطفال . الجميع يلهون بذلك ، وأنا أولهم .

خبأوا لى مفاجأة : سمر فتاة جميلة جدًا تقدم بجاذبية وسحر لا متناهيين لوحة من الرقص الشرقى . ألفت انتباه مضيفى إلى أنها لا ترقص حافية القدمين ، خلافًا للمصريات . يجيبنى بابتسام : «إنها جزائرية مُتأوربة» .

أكسفورد ـ الخميس ٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢

بينما كنت أراجع نص المحاضرة التى علىَّ أن ألقيها خلال دقائق حول إدخال الديمقراطية إلى العلاقات الدولية، أتلقى مكالمة من سيمون درايفوس: ليلى، زوجتى السابقة، قد تُوفيت. كانت قد أدخلت إلى مستشفى للأمراض النفسية، فى فرنسا، منذ سنوات عديدة. تراجعت حالتها الصحية كثيراً خلال الأشهر الأخيرة. كثيراً ما فكرت فى الذهاب لرؤيتها ـ كانت لا تزال قادرة على التعرف إلى زوارها ـ لكن أطباءها كانوا يحذروننى من ذلك فى كل مرة: «ستكون صدمة قوية جدًا عليها، فأنت لم تعد تشكل جزءاً من حياتها...».

تطلقنا وديًا سنة ١٩٥٦. بعد ذلك رأيتها عدة مرات. تزوجت ثانيةً. وبعد وفاة زوجها الثانى بدأت صحتها النفسية بالتراجع. ذكاؤها، إتقانها لست لغات، قدرتها على العمل، انتزعت دائمًا إعجابى. كانت اختصاصية كبيرة فى علم الآثار. وهى التى جعلتنى أكتشف اليونان القديمة. معًا جبنا مواقع تاسوس، وساموتراس، وإيفيس... أكثر من نصف قرن مضى على ذلك. لكن نبأ وفاتها يوقظ فىَّ ذكريات دفينة. أشعر بتأثر كبير... لكننى أكاد أستسلم، فى الآونة الأخيرة، أمام رؤية الأشخاص الذين أحبهم يرحلون الواحد تلو الآخر، وسبب ذلك بدون شك هو أننى أعرف أننى سألحق بهم قريبًا.

إن اقتراب موتنا الخاص يساعدنا على أن نتآلف مع موت الآخرين وعلى أن نقبل به. «لى أصدقاء أموات أكثر من الأحياء»، كان يقول لى عمى واصف، فيما شمس حياته على وشك الأفول.

كأننى رجل آلى مبرمج أقوم بما يمليه علىّ واجب المحاضر، وأتشارك الغداء مع أصدقاء أتوا للاستماع إلىّ: الليدى هاملين، وجان ـ كلود إيميه، وزوجته.

فى القطار الذى يعود بى إلى باريس تفرض نفسها علىّ بقوة صور لسفر إلى اليونان مع ليلى، لا تلبث أن تطردها صور لأول سفر بالقطار قمنا به معًا إلى ديجون حيث كان عليها أن تناقش أطروحة الماجستير. حكمة العم واصف لم تعد تفيد: الموت، هو رحيل شخصٍ لن يتحدث إليك بعد الآن، أبدًا.

لوزان ـ الأربعاء ١١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢

هذا الصباح أترأس للمرة الأخيرة المجلس الدائم للفرنكفونية. جلسة كالمعتاد، أو على الأصح، جلسة كئيبة تطرأ عليها شجارات محلية فتعطيها بعض الحيوية. يثير اقتراحى تشكيل لجنتين تكلف الأولى بدراسة اقتراحات الإصلاحات فى الوكالة الحكومية للفرنكفونية، والثانية بصياغة نص عن التنوع الثقافى، احتجاجًا بين ممثلى بعض الدول الإفريقية. فهم يعارضون أن يرأس السفير السويسرى فيتوفاغليا اللجنة الأولى، ويودون بالإضافة إلى ذلك أن يُعهد باللجنة الثانية إلى ممثل الجماعة الفرنسية فى بلجيكا، وليس إلى ممثل فيتنام. ويحتجون بأن هذا الأمر يتعلق بقرار مهم يجدر التفكير فيه مليًا ويمكن إذن، أن يترك اتخاذه للأمين العام الجديد. عندما أعلمهم بأن عبده ضيوف قد استشير فى ذلك، يغيرون استراتيجيتهم: يجب حل المشكلة اليوم كى لا نعقد عملية دخول الأمين العام الجديد فى ممارسة مهامه. إزاء تناقضات كهذه، أصادق على تعيين رئيسى اللجنتين.

لوزان ـ الخميس ١٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢

يُفتتح المؤتمر الوزارى بحضور مدير عام مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، روبنس ريكوبيرو، المندوب السامى لحقوق الإنسان، سيرجيو دو ميلو. هذا الابتكار كان يهدف، فى ذهنى، إلى تقديم قاعة إلى الوزراء بالمشاريع التى نفذت بالتعاون مع هاتين المنظمتين، وإلى النظر فى محاور التعاون المستقبلى. الخروج بالفرنكفونية من العزلة.

(فترة بعد الظهر ...)

على الرغم من النزلة الصدرية التى بدأت أعانيها، أحضر أعمال المؤتمر الذى يترأسه غسان سلامة. أستمع لخطاب وزير الخارجية الجزائرى الذى يغادر القاعة فور انتهائه من إلقاء كلمته. لم تتوصل الجزائر حتى الآن إلى أن تحزم أمرها. لكن الجماعة الفرنكفونية بمجملها مستعدة لاستقبال هذه الدولة بين الفرنكفونيين

لوزان ـ الجمعة ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢

تنتهى أعمال المؤتمر بخطاب تقريظى يلقيه وزير الخارجية السويسرى، جوزيف ديس. تأبين لأمين عام يترك منصبه! التصفيق وقوفًا للتحية كما فى بيروت، فى أكتوبر المنصرم، كما فى نيويورك فى ديسمبر ١٩٩٦.

هذه الاحتفالات التى تعلن نهاية حكم تثقل قلبى. ما يزعجنى ليس الرحيل بمقدار ما هو واجب أن أقلب الصفحة لأبدأ صفحة جديدة.

باريس ـ الاثنين ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢

عرض تقرير «التفاعل بين الديمقراطية والتنمية» فى اليونيسكو، بحضور كويتشيرو ماتسورا ومدراء من مختلف الأقسام. حضور روبير بادينتير يرفع من مستوى هذه الجلسة. تبادل مثير للاهتمام فى وجهات النظر حول الصلات التى تربط بين الديمقراطية والتنمية وحقوق الإنسان وحسن الإدارة والسلام. إنه موضوع لا يُستنفد وسوف يحتاج إلى سنين عديدة من العمل.

باريس ـ السبت ٢١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢

تسلم وتسليم. أرافق عبده ضيوف وزوجته إليزابيت فى زيارتهما الاستكشافية لشقة شارع سان دومينيك. أسلمهما رسميًا حوالى ثلاثين مفتاحًا. نقصد سيرًا على الأقدام مكاتب الأمانة العامة، ٢٨ شارع بورغونيى. عبده ضيوف يلتزم الصمت بصورة مستغربة تاركًا لزوجته مهمة طرح الأسئلة. انتهت مهمتى.

باريس ـ الاثنين ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢

ينظّم روجيه دوهيب احتفالاً وداعيًا صغيرًا فى الوكالة الفرنكفونية. يلقى خطابًا مؤثرًا، يشدّد على صفاتى المميّزة كرجل عظيم، قبل أن يسلّمنى تمثالاً صغيرًا يرمز إلى الفرنكفونية المنطلقة. أطلب حلم زملائى ومعاونىّ، لإدراكى بأنى كنت أحيانًا

كثير التطلّب وشديد القسوة. إنه الانحراف المهنى للأستاذ القديم الذى ينسى أنه لم يعد يتعامل مع طلابه.

لقد توجهت بالكلمات نفسها تمامًا إلى كبار الموظفين فى الأمم المتحدة، الذين اجتمعوا فى مكتبى لوداعى، فى ديسمبر ١٩٩٦، فى نيويورك.

باريس ـ الثلاثاء ٢٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢

أقصد للمرة الأخيرة مبانى ٢٨ شارع بورغونيي. الأمكنة مهجورة، فى مكتبى كتب وملفات علىَّ إعادتها إلى المنزل. كنت متأكدًا من أننى حملت معى كل ما يجب حمله. فَقَدَ مكتبى روحه. ما يعطى لمكتب روحه هى الأوراق المبعثرة، الكتب التى أخرجت من رفوفها، الأشياء الأليفة: ساعة الحائط الصغيرة التى لم تعمل يومًا، الروزنامة التى لم تقلب صفحاتها الأخيرة، مفكرة، وصور. كل هذه الأشياء اختفت ومعها ذكريات الأيام الماضية.

باريس، القاهرة ـ الأربعاء ٢٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢

تلطف السفير على ماهر وجاء لاستقبالى فى مطار القاهرة. بؤس المدينة التى ولدت فيها وحال الإهمال التى هى فيه ظاهران للعيان. أصل إلى شقتنا التى تسلل البرد إليها بسبب غيابنا الطويل. يبدو أن مصر تريدنى أن أدفع ثمن عدم وفائى لها.

القاهرة ـ الاثنين ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢

خلال الأيام الثلاثة الأخيرة تحدثت إلى أعضاء مختلفين فى الحكومة والمعارضة، وعلى الأخص، مع ممثلى الجيل الجديد، جيل التغيير. أمضيت أكثر من ساعة هذا الصباح أتناقش فى مستقبل مصر مع رئيس الوزراء عاطف عبيد. لا أعلم إن كان تفاؤله صادقًا أو أن مهامه على رأس السلطة التنفيذية هى التى تفرضه عليه.

خرجت من كل هذه اللقاءات خائب الأمل محبطًا.

القاهرة ـ ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢

عشاء سهرة رأس السنة فى الزمالك بين أصدقاء قدامى: جوس، مضيفتنا، شفيق، إيرين، ليا، وأنا. نترك بعضنا قبل منتصف الليل بقليل، قبل أن تنتشر الجماهير الجذلى فى شوارع القاهرة.

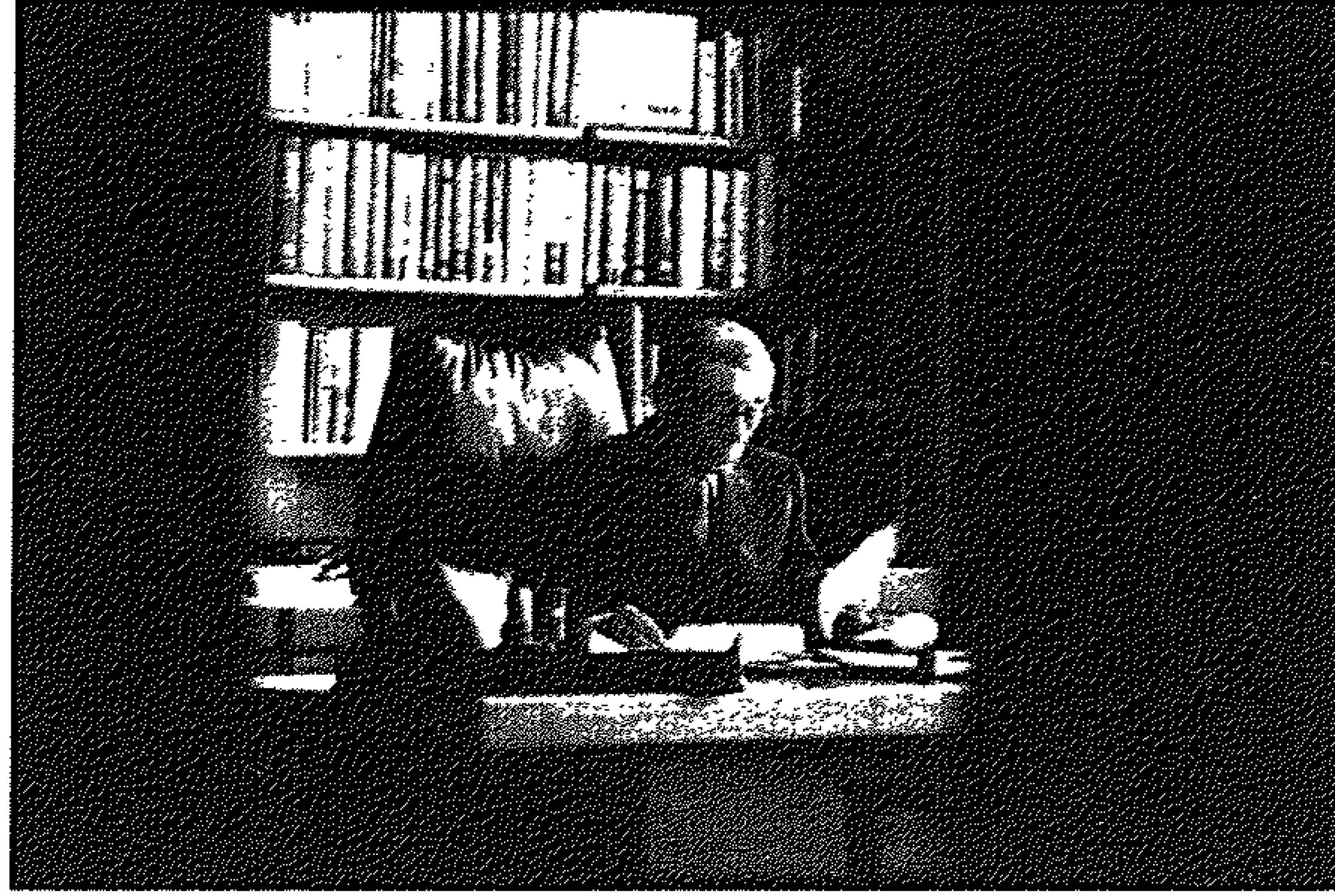
منتصف الليل ... النيل الإله الذى أتأمله فى هذه اللحظة عرف كيف ينتصر على الزمن. الزمن، بالنسبة إلىّ هو شىء موضوعى يمكن تحديد كميته وقياسه. لم أجد وسيلة أخرى للإحساس بوجودى سوى الإذعان للزمن. أواظب كثيراً على مراجعة مفكرتى: جدول أعمال اليوم، الأسبوع، السنة. يحدث لى أيضًا أن أنظر إلى الالتزامات التى ارتبطت بها للسنة المقبلة. أحرص دائمًا على عدم ترك الزمن للزمن، بل علىّ السير معه كى أتآلف معه، كى أتوهم السيطرة عليه، كى أنسى أنه سيمضى فى مسيرته بعد انتهاء مسيرتى.

لم أفهم قط أصدقائى هؤلاء الذين يدّعون أننا نتوصل بمرور الوقت إلى التحرر من سيطرة الزمن، ومن أسره، وأن الشعور بمضى الزمن يخف مع العمر كأن الشيخوخة تدخله فى سبات.

أنا يائس هذا المساء. لم يبقَ لى سوى وقت قليل جدًا لأفكر، لأعمل، لأبنى، وقت قليل جدًا لأغزو العالم. بضعة أقمار أيضًا. حتى أنتهى بدر البدور . . .

الفهرست

رقم الإيداع ٢٠٠٥/٨٠٠٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1259 - X



للمرة الأولى يتخلّى بطرس غالى عن لغة الدبلوماسية الملطّفة. وهو إذ يعود إلى لحظات مأساوية طبعت مسيرته السياسية والدبلوماسية، يساعدنا فى الوقت ذاته على فك رموز الأحداث والقضايا الكبرى التى شغلت عصرنا: النزاعات فى آفريقيا، تنامى الإرهاب الدولى، اعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١. الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى، الدور المتنامى للصين.. ومن خلال أحاديثه مع الشخصيات البارزة على الساحة الدولية، يكشف النقاب عن كواليس عالم يتحول. فابن مصر، الداعية إلى نظرية عدم الانحياز، مفاوض اتفاقية السلام المصرى - الإسرائيلى، المدافع بدون كلل عن العالم الثالث، يعبّر بحرية فى هذا الكتاب عن غضبه وسخطه وشكوكه، وكذلك عن آماله وقناعاته، وعن انفعالات رجل يسترسل فى النظر باشتياق وتأثر إلى الأهواء والسلطة والشيخوخة، ويتخلل ذلك مواقف ظريفة.

شغل بطرس غالى منصب أستاذ القانون الدولى فى جامعة القاهرة وفى مؤسسات أكاديمية أجنبية عديدة، قبل أن يتولى مهام وزير الدولة للشؤون الخارج (١٩٧٧ - ١٩٩١)، وأمين عام الأمم المتحدة (١٩٩٢ - ١٩٩٦)، وأمين عام المن للفرانكفونية (١٩٩٨ - ٢٠٠٢). وهو يرأس حاليًا اللجنة الوطنية المصرية لحق ولجنة الديمقراطية والتنمية فى اليونسكو، ومركز الجنوب فى جنيف، و المنظمات غير الحكومية. ومن مؤلفاته: «طريق القدس»، « خمس سنوات زجاج»، «خطط للسلام والتنمية الديمقراطية» (دار النهار، ٢٠٠٣).

دار الشروق
www.shorouk.com
دار النهار

